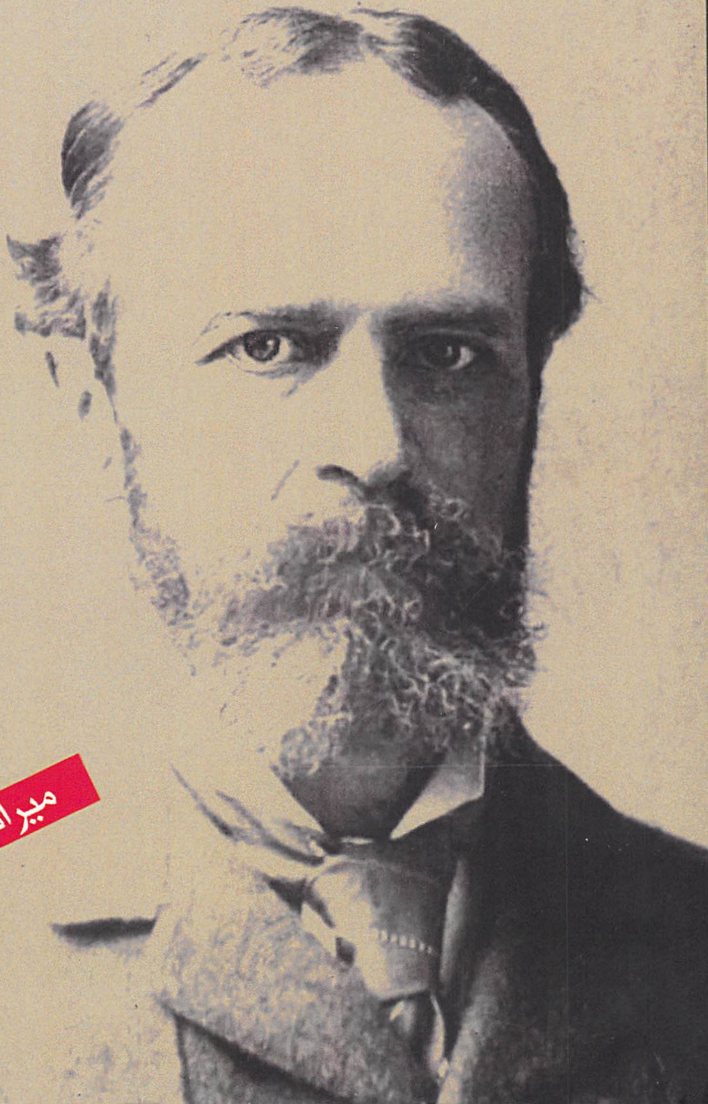
المركز القومي للترجمة

رالف بارتون پيرى

أفكار وشخصية
وليام چيمس

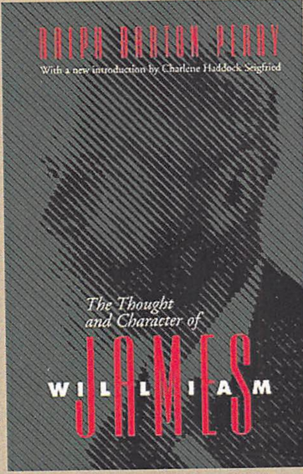
ترجمة: محمد على العريان

تقديم: رمضان بسطاويسى



ميراث الترجمة

2130



هذا الكتاب معروف لكل مشتغل بفلسفة وليام جيمس ، فهو يتناول حياة وليام جيمس وشخصيته، ويعد فى حد ذاته مرجعا مهما فى هذا الموضوع حيث عالجه معالجة فيها أصالة ، لأنها استندت إلى رسائل وليام جيمس ، كما نشر فى ثنايا الكتاب كثير من هذه الرسائل ، مما جعل الصورة فى النهاية تجىء بالغة الدقة ونابضة بالحياة.

ولا شك أن القراء سوف يرحبون بهذا الكتاب لا لأنه يعطيهم صورة حية لشخصية وليام جيمس فحسب ، ولكن لأنه يعطيهم أيضا صورة رائعة لحقبة عظيمة مليئة بالفكر الخصب والرسائل الأدبية فى الولايات المتحدة الأمريكية.

تصميم الغلاف : نسرين كشك

أفكار وشخصية

وليام چيمس

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف : جابر عصفور

إشراف : كاميليا صبحى

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة : مصطفى لبيب

- العدد: 2130
- أفكار وشخصية وليام جيمس
- رالف بارتون پيرى
- محمد على العريان
- رمضان بسطاويسى
- 2013

هذه ترجمة كتاب:

The Thought & Character of William James

By: Ralph Barton Perry

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo.

E.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

أفكار وشخصية

وليام چيمس

تأليف : رالف بارتون پيرى
ترجمة : محمد على العريان
تقديم : رمضان بسطاويسى



2013

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بيرى؛ رالف بارتون
أفكار وشخصية وليام چيمس/ تأليف: رالف بارتون بيرى - ترجمة: محمد على العريان؛ تقديم: رمضان بسطاويسى
القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٣
٦٦٨ ص؛ ٢٤ سم
١- الفلسفة الحديثة.
٢- چيمس، وليم، ١٨٤٢-١٩١٠
(أ) العنوان
(ب) العريان، محمد على (مترجم)
(جـ) بسطاويسى، رمضان (مقدم)
١٩٠

رقم الإيداع ٢٠١٣/٤٥٤٧
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-718-245-4
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتــويات

مقـــدمة

يعبر هذا الكتاب عن الاتجاه الواقعي، لأن من كتبه يعتبر من أعلام الواقعية الجديدة في أمريكا وهو رالف بارتون پيري، وكتب عن وليم چيمس الذي يعتبر من المصادر الفكرية للواقعية في الفكر، و«الواقعية: realism» هي المذهب الذي يقرر للواقع الخارج عن التعقل وجوداً مستقلاً، ويقيس صدق الكلام بمطابقته للواقع وهي بهذا المعنى تعارض «المثالية: idealism»، فترفض أن تربط وجود الأشياء والطبيعة بالوجود الإنساني، وترى أن للعالم وجوداً عينيًا مستقلاً عن الذات العارفة وأحوالها.

ارتبطت الواقعية حديثًا بنظرية المعرفة، علمًا بأنها كانت تطلق على عالم المُثُل عند «أفلاطون: Plato» بوصفها جواهر معقولة قائمة في عالم مستقل عن الوجود الإنساني. وفي العصر الوسيط كانت الواقعية مذهب فئة من الفلاسفة المدرسين الذين قالوا بوجود الكليات بمعزل عن الأشياء التي تمثلها، فهي تمثل وجوداً واقعيًا وموضوعيًا مستقلاً، وعلى هذا فالواقعية تعارض «الاسمية: nominalism»، المذهب الذي يرفض أن تمثل الأسماء الكلية (الأفكار) وجوداً سواء في العقل أم خارجه أم مع «التصورية: conceptualism».

وتنوعت الواقعية وفقًا للاتجاهات الفلسفية المختلفة التي تبنتها، فهي ذات طابع ميتافيزيقي عند الفيلسوف «جول لاشلييه: Jules Lachelier» ت(١٨٣٢-١٩١٨)؛ أي أنها واقعية روحية تعارض المثالية المادية التي تقف عند سطوح الأشياء؛ لأن كل موجود قوة، وكل قوة فكرة تعي ذاتها باستمرار وعيًا تامًا، وهي بهذا المعنى مذهب يرى أن الوجود الحقيقي يتعارض والوجود المعقول، فهو يتضمن جانبًا من «اللاعقلانية». وعند بعض الرياضيين الجدد أمثال «فريجه: Frege» تزعم الواقعية أن الصور والحقائق الرياضية

وقائع خارجة تفرض نفسها على الذهن، فيضطر إلى التسليم بوجودها وكأنها أعيان خارجية يكتشفها كما يكتشف الوقائع الفيزيائية وما شابه. وأما فى الأدب والفن فالواقعية مذهب يراد منه أن يعكس الواقع، ويعبر عنه وليس عن مثاليات متخيلة؛ أى النظر إلى الطبيعة كما هى بذاتها وليس كما يجب أن تكون عليه.

وخلافًا للمثالية التى تربط الوجود الموضوعى بالذات المدركة له، تقر واقعية الفلسفة الحديثة بوجود موضوعى للأشياء مستقل عن المعرفة والذات العارفة؛ لأن المعرفة صورة مطابقة لحقائق الأشياء فى العالم الخارجى أو انعكاس لتلك الأشياء فى العقل، وبخلاف «الفينومنولوجية (الظاهراتية): Phenomenology» أيضًا التى تنظر إلى الموجودات على أنها تجمعات حسية أو معطيات شعورية حقيقية أو محتملة. وقد تمثلت الواقعية مع بدايات القرن العشرين وتقدم العلوم فى كل من بريطانيا وأمريكا فى فلسفة «وليم چيمس: William James» و«جون ديوى: John Dewey» بطابعها «البراجماتى» (pragmatic)، فأيدها فى بريطانيا «لويد مورجان: Lloyd Morgan» و«وايتهد: Whitehead» و«برود: Broad» و«رسل: Russell» و«جورج مور: More» وغيرهم، فعارضوا النظرة المثالية للوجود ولاسيما المثالية الذاتية بالشكل الذى صاغه «بركلى: Berkeley»، وهاجموا نظرية العلاقات الداخلية التى تفترض أن الأشياء متضايفة بحكم العلاقات فيما بينها، فلا يمكن أن توجد الأشياء بما هى عليه إلا بعلاقاتها بالعقل الذى يفترض طبيعة هذا الوجود على النحو القائم. وعليه نقد فلاسفة الواقعية الجديدة مقولة الأنانية [ر] (ego-centric) ، فأكدوا أن الأشياء والموجودات ليست عقلية، وأن وجودها لا يتوقف على المعرفة بها، فمن الممكن أن توجد دون أن تدرك؛ فعدم الوعى بالأشياء لا يتضمن بالضرورة عدم وجودها.

برزت فى الواقعية نظريتان: نظرية ترى أن الإدراك إلمام مباشر بأشياء أو كائنات مختلفة عن الذات المدركة، ونظرية غير مباشرة يكتسب فيها إدراك الصور التى تتشكل فى العقل المكانة الأولى، وقد عرفت هذه النظرية بـ«الواقعية الثنائية: dualist realism» لأنها تقول بوجود الأشياء فى العالم وبصورها فى الذهن، وتفرعت عنها نظرية الواقعية

«التمثيلية: representative» و«الواقعية النقدية: critical»، فى حين انبثق عن النظرية الأولى ما يعرف بـ«الواقعية الساذجة: naive realism» و«الواقعية الجديدة: neo-realism».

تتفق الواقعية الساذجة مع ما يراه عامة الناس الذين يسلمون دون نقد أو مناقشة بأن العالم الخارجى موجود كما يتبدى للحواس دون تعديل أو تحوير، فما يدرك من خصائص الأشياء إنما يمثل حقيقتها، ومن ثم فإن دور الإنسان فى المعرفة يشبه دور «آلة التصوير» الذى يقتصر على نقل الأشياء وإبرازها دون تفكير أو نقد، وهذا الشكل من الواقعية الساذجة أو كما يسميها «هوسرل: Husserl»، «واقعية الموقف العادى أو الطبيعى» تراجع تحت وطأة انتقادات المثالية، فاختلاف الشىء فى مظاهره وأشكاله يتبع اختلاف المسافة التى تفصل بينه وبين العين التى تراه، أو اختلاف الزاوية التى يرى منها، مما يعنى أن ثمة اختلافًا بين الشىء فى الواقع وبين الفكرة التى تمثله، مما دعا أنصار الواقعية الجديدة إلى التمييز بين (الشىء باعتباره فكرة) وبين الشىء الموجود فى المكان والمحاط بأشياء أخرى، فالمائدة باعتبارها فكرة فى الذهن مثلاً، والمائدة الحسية (الواقعية) ليستا مائدتين خارج الذات أو العقل وداخله، وإنما مائدة واحدة تؤثر فى الحواس، فتنشأ تمثلات عنها هى أفكار حسية يدركها العقل ويبنى معارفه عليها، وهى التى تمثل صفات المائدة كما هى فى الخارج، وتدعى هذه النظرة بالواقعية التمثيلية، وهى تحاكى النظرة التمثيلية فى نظرية المعرفة، لكن بعض الواقعيين نظروا إلى أن حقيقة الشىء هى كما يبدو عليه. فالموضوع الذى يدرك حسيًا على مسافة باعتباره منظورًا بصريًا ثلاثى الأبعاد يُظهر خصائصه المكانية و الزمانية، باعتباره إدراكات تعكس حقيقته (خصائصه) كما هى عليه، وتكوّن معلومات عن هذا الشىء كما هو بالواقع، وتسمى هذه بنظرية التبدى أو التجلى (appearing) لأنها تنظر إلى الأشياء كما تبدو للذات العارفة، وتعكس الحقيقة النسبية للشىء، وعليه فإن النظر إلى الشىء من زاوية موضوع الإدراك يسمى بـ«الواقعية الموضوعية: objective realism»، وإذا عُدّ منظورًا سميت بـ«الواقعية المنظورية: perspective realism» وقد تعرضت هذه النظرية النسبية للشىء لانتقادات بعض الواقعيين، فواقعية الأشياء ليست فيما تبدو للمدرك، فحقيقة أن «هذا حجر» هو التسليم بواقعة إدراكية بسيطة لا اختلاف عليها.

أما الواقعية الجديدة فقد ظهرت فى أمريكا أوائل القرن العشرين على يد مجموعة من الفلاسفة، نشروا فى عام ١٩١٠ دستور فلسفتهم، وضمنوه مبادئهم الواقعية، ثم وضعوا سنة ١٩١٢ كتاباً يحمل الاسم نفسه «الواقعية الجديدة، دراسات تعاونية فى الفلسفة». وترأس هذه المجموعة رالف بارتون بيرى (Perry) الذى عارض بكتاباته النقدية مثالية «جيزيا رويس: Josiah Royce» ت(١٨٨٥–١٩١٦)، فأقام واقعيته على نظرية «واحدية» فى المعرفة لا يعزل فيها العارف عن المعروف، ولا الشعور عن الموضوع، بمعنى أن الأشياء ليست مشروطة بالذات العارفة لها، ثم اتخذت الحركة طابعاً أكثر تحديداً بمشاركة أعضائها الآخرين: «هولت: Holt» و«بيتكين: Pitkin» و«سبولدينج: Spaulding» و«مارفين: Marvin» و«مونتاج: Montague»، فصاغوا نظريات تقول: إن الميتافيزيقا مستقلة عن نظرية المعرفة، والتعددية أرجح من الواحدية، والتصورات مماثلة فى حقيقتها للموجودات – واستبعدوا منطق «العلاقات الباطنية» – والوقائع غير مشروطة بما يُعرف، وقد دافع عن هذه الواقعية فى بريطانيا «نَن: Nunn» ورسل ومور ومورجان، فأكدوا استقلالية الوعى وموضوعه لجهة تفوق الموضوع واستبعاد دور الذات فى وجوده، ولكن سرعان ما برزت خلافات جدية بين أنصار الواقعية الجديدة فى كل من أمريكا وبريطانيا حول طبيعة الوعى وموضوعه والعلاقة بينهما.

وتطورت فى عام ١٩١٦، حركة نقدية جديدة فى أعقاب الواقعية الجديدة هى الواقعية النقدية المعاصرة: (contemporary critical realism) على يد سبعة من الفلاسفة الأمريكان، وهم «سيلارز: Wilfrd Sellars» ت(١٨٨٩–١٩١٢) و«سانتايانا: Santayana» ت(١٨٦٣–١٩٥٢) و«روجرز: Rogers» و«لافجوى: Lovejoy» و«دريك: Drake» و«برات: Pratt» و«سترونغ: Strong»، اشتركوا فى إصدار كتاب بعنوان «مقالات فى الواقعية النقدية – دراسة تعاونية لمشكلة المعرفة» شرحوا فيه موقفهم من نظرية المعرفة ومشكلة الإدراك الحسى، فرفضوا موقف الواقعيين الجدد فى نظراتهم «الواحدية» بضم العارف والمعروف، وقالوا بثنائية الشعور والموضوع (المدرِك والمدرَك)، وأضافوا عنصراً جديداً إلى عملية المعرفة هو «المعطى: datum» إلى جانب الذات والموضوع، وهو ذو طبيعة عقلية يعكس مضمون الوعى، ولا يتماهى مع الحقيقة المادية للشىء،

ويميز سانتايانا بين قطبى المعرفة، الواقع المادى الفيزيائى وواقع المعطى، والواقع المادى له وجود مستقل فى الزمان والمكان، ولكن إدراك الإنسان لا يكون إلا للصفات الظاهرة والممكنة التى يدعوها «بالماهيات الثابتة» المتميزة من وجود المادة ومن تدفق التجربة (الشعور)، وهى معطيات عقلية لا مادية تدخل على المدرك لحظة إدراكه لتتم عبرها رؤية الموضوعات الخارجية، ورغم أن الاتصال بهذه الموضوعات المادية يتم بوساطة هذه الماهيات فإن وجودها لا يتأثر بها.

وقد ازدهرت الواقعية بصورة لافتة للنظر فى أمريكا سنة ١٩٣٠ وما بعدها، ولكن وإن كان لها ثمة اتصال مع واقعية ١٩١٠، فإنها كانت نتاجًا مباشرًا لأزمة ثقافية وفكرية شكلت انحرافًا لاهتمامات الحركة الواقعية التقليدية فى المعرفة والإدراك الحسيين إلى مسائل جديدة كمشكلات المنطق والقانون الطبيعى والنزعة الإنسانية والأنطولوجية وغيرها.

أما وليم جيمس، الذى سيتحدث عنه الكتاب فهو ولد (١١ يناير ١٨٤٢ – وتوفى ٢٦ أغسطس ١٩١٠) وهو فيلسوف أمريكى، ومن رواد علم النفس الحديث. كتب كتبا مهمة فى علم النفس الحديث وعلم النفس التربوى، وعلم النفس الدينى والتصوف، والفلسفة البراجماتية. وكان شقيق الروائى المعروف هنرى جيمس وأليس جيمس كاتب اليوميات. وليم جيمس، ولد فى مدينة نيويورك وهو فيلسوف الحرية، له العديد من المؤلفات منها: الإرادة، الاعتقاد، مبادئ علم النفس، البراجماتية.

وهو صاحب المقولة: "إن الاكتشاف الأعظم الذى شهده جيلى، والذى يقارن بالثورة الحديثة فى الطب كثورة البنسلين هو معرفة البشر أن بمقدورهم تغيير حياتهم عبر تغيير مواقفهم الذهنية". ومن أقواله أيضًا: "إن أعمق مبدأ فى الطبيعة الإنسانية هو التماس التقدير".

يعتبر وليم جيمس فى نظر الأوساط السيكولوجية المعاصرة علَمًا من أعلام علم النفس الكلاسيكى، ولم يعد من رجال الصف الأول فى علم النفس التجريبى، ورغم ذلك فالمعروف أنه لا يزال يحتل مكانة من الفلسفة المعاصرة.

إن لوليم چيمس أبحاثه الجديرة بالاعتبار فى علم النفس والفلسفة معًا. فهو الذى أقام أول معمل لعلم النفس التجريبى فى الولايات المتحدة عام ١٨٧٦، حيث كان يدرس فيه علم النفس الفسيولوجى، وله نظرياته النفسية الجديدة التى سجلها فى كتابه المشهور "مبادئ علم النفس". وكانت أولاها من الأهمية نظريته الجديدة فى مجرى الشعور. وأبحاثه فى العلاقة بين العقل والجسم، إذ شغلته هذه العلاقة طول حياته العلمية والفلسفية. وقد كان مؤمنًا أول مرة بالنظرة الآلية، ثم عدل عنها إلى نظرية التفاعل، وله نظرياته الجديدة فى الإحساس والإدراك الحسى والانفعال والانتباه والإرادة والتفكير والعادة وقوانينها وطبيعة العقل ووظيفته وتحليل النفس وصلة ذلك بالشعور، وما تحت الشعور. وله بعد ذلك أبحاثه ونتائجه التى وصل إليها من دراسته لعلم النفس المرضى.

ولوليم چيمس جانب آخر - وهو موضوع هذا الكتاب - هو جانبه الفلسفى، فقد كان مهتمًا بالمشكلات الفلسفية المهمة سواء ما كان منها فى المنهج ونظرية المعرفة أو الميتافيزيقا أو النظريات الخلقية والدينية، وهو لا يزال فى العشرين من عمره، وظل متعلقًا بها حتى مات. كانت فى نفس وليم چيمس رغبة أصيلة للتفلسف، إذ قال: "الفلسفة صناعة غريبة قد تكون أشرف الصناعات وقد تكون أتفهها.

ولا يزال يرتبط اسم وليم چيمس بالمذهب البراجماتى، وهو مذهب كثيرًا ما لاكته الألسن، وكثيرًا ما أسىء فهمه، واستخدم استخدامًا شعبيًا بغيضًا. والهدف من هذا الكتاب إبراز هذا المذهب الذى نادى به چيمس على حقيقته، فهو مذهب له قيمته بين المذاهب الفلسفية: إنه منهج فلسفى مستقل يسميه أصحابه المنهج البرجماتى. وله رأيه فى المناهج الفلسفية، وإنه نظرية مستقلة فى المعرفة يسميها أصحابها النظرية البرجماتية فى الصدق. وإنها كذلك ميتافيزيقية. وأخرى خلقية ودينية. فالمذهب البرجماتى إذن مذهب فلسفى متسق، خلاف ما ادعى الكثيرون. إن المذهب البراجماتى عند چيمس وجهة نظر شاملة يفسر فى ضوئها الإنسان والكون، حيث هو منهج ونظرية

معرفية وميتافيزيقية وخلقية ودينية، ولم يرض وليم جيمس أن يكون له مذهب فلسفى بمعنى ذلك البناء الشامخ الذى يقيده الفيلسوف مترابط الأجزاء متشابك التفاصيل، ذلك الترابط المنطقى والتشابك الضرورى. فقد رأى جيمس أن المنطق ليس ضرورياً دائماً وفى كل شىء فليس هو كل شىء فى طبيعة الإنسان: إذ للإنسان إدراك ووجدان وإرادة وليس إدراكاً فحسب.

رمضان بسطاويسى

تمهيد

لقد رسخت وشاعت حياة وليام چيمس، فى جذورها وفروعها على السواء.

ولقد تغذت هذه الحياة من موارد كثيرة، ونمت فى اتجاهات عديدة، وحملت أنواعا عظيمة من الثمار. حياة نالت أوفر قسط من الإخصاب، وآتت أكلها إنتاجًا وابتكارًا وثمرًا جنيًا.

كان چيمس يتمتع بعبقرية فذة من شعائر الصداقة والوداد، الأمر الذى مكنه من أن يعقد أواصر الصلات الوثيقة مع دائرة واسعة من معاصريه ليس فقط من أترابه ولدّاته، ولكن أيضًا ممن يصغرونه ويكبرونه، شيبًا وشبانا. لقد كان موهوبًا فى فن التعبير عن الذات، وكانت عنده فى نفس الوقت المقدرة على استدرار التعبير الذاتى من الآخرين، لطيف المدخل إلى النفوس، لدرجة أن صداقاته كانت على درجة كبيرة من التداور، ومراسلاته غزيرة واسعة الدائرة.

ولقد وسعت العادات التى اكتسبها من أسفاره ومعرفته باللغات، من مدى مؤالفته ومؤانسته ولطف عشرته، وجعلت منه سبيلاً مهمة تحمل فى مجراها أمريكا إلى أوربا، وأوربا إلى أمريكا.

وصفوة القول، أن حياته وعقله التحما التحاما وثيقا فى نسيج أحداث عصره، واكتملت لهما صفات الاندغام الاجتماعى والنضج الإنسانى، بحيث إن سجل حياته وعقله لابد أن يكون إلى حد ما تاريخا لزمانه.

وبينا نجد أنه من الصحيح أن چيمس وفلسفته نشأ إبان القرن التاسع عشر، والتحما فى القرن العشرين، فإن مثل هذا التخصص التاريخى عزو مضلل.

لقد كان چيمس وفيا لأصوله وجذوره، حفيا بأسلافه، كما يجب أن يكون الرجل. بيد أن چيمس لم يكن من ذلك الطراز الذى يتقيد إحساسه بالولاء للماضى، بل كان آخر من يربط نفسه بحبال ماضى قومه، بصفة خاصة. لذلك لم يكن منحاه الفلسفى فى القرن العشرين استخراجا أو حاصلا لمقدمات أو فروض منطقية وضعت فى القرن السابق. لقد كان يسافر متخففًا من كثير من أحمال الماضى، وكانت رحلته تتميز بالمرونة، ولم يكن يتبع دليل سفر ثابتًا جامدًا لا يحيد عن مسيره، وإنما كان يمضى إلى غايته حرًا متحررًا، مكرسًا نفسه تمامًا لما كان يعتقد أنه الحق فى اللحظة الراهنة من تفكيره آنذاك.

لقد كان چيمس عصريا، فى المعنى الذى ينطبق على كل العصور والأزمنة.

ومن ثم فإن چيمس فيلسوف القرن العشرين، مثلما هو فيلسوف القرن التاسع عشر، وإن كثيرًا من تفكيره ومن شخصيته نفسه، يبدو أنهما شكلا فى قالب اليوم «وموضة» العصر.

ولو أن چيمس كان حيا يسعى بيننا الآن لكان - كما كان دائمًا - يتطلع إلى المستقبل.

تصـــدير

نشر كتاب «أفكار وشخصية وليام چيمس» فى سنة ١٩٣٥، فى مجلدين كبيرين بقصد خدمة غرض مزدوج، فيكـون بمثابة سجل منظم لتطور حياة «وليام چيمس»، وفى نفس الوقت مستودع لمختارات من آثار چيمس الأدبية التى لم تنشر.

على أن هذا الموجز الراهن، لا يحل محل الأصل بشكل يبطله أو يلغيه، وإنما يجعل لبه وجوهره وزبدته فى متناول القارئ العام.

فلقد تم إعداد هذا السِّفر المختصر، وقد وضع جامعه نصب عينيه ليس فقط عنصرى المناسبة والإيجاز، ولكن توخى أيضا بساطة العرض.

ولقـد حُـذف من هذا الكتـاب جـزء من مـادة الكتـاب الأصلى، وكـذلك بعض المخطوطات، ولقد عرضت أفكار چيمس على نحو لا يتطلب إلمامًا سابقًا بالقضايا الفنية للفلسفة أو المشكلات الاصطلاحية لعلم النفس.

بيد أن هذا السفر – على غرار المؤلف الأصلى الكبير – يتيح لچيمس أن يفصح عن نفسه بوساطة رسائلة وكتاباته.

وهنا – بين دفتى هذا الكتاب – تظهر لأول مرة ثلاث رسائل لچيمس لم تكتشف إلا حديثًا.

ولقد ضمَّنت فى ديباجة الكتاب الأصلى المطول اعترافى بالجميل لقاء المعونة التى تلقيتها فى إعداد هذا السفر من أسرة چيمس، ويطيب لى على الخصوص أن أشكر هنرى چيمس الذى يسر لى الاطلاع على ذلك الكنز الثمين من أوراق چيمس الخاصة،

وكذلك مراسلى چيمس أو منفذى وصاياهم، الذين أجازوا حق استخدام رسالاته التى لم تنشر، وإلى جامعة هارفارد التى هيأت لى استخدام مكتبة وايدنسر، وأمدتنى بكثير من التسهيلات والخدمات. كما أقدم هذا الشكر إلى عدد كبير من الزملاء والأصحاب الذين زودونى بالمعلومات والمشورة.

ولقد واتانى الحظ - فى إعداد هذا المجلد الراهن - إذ عاونتنى فيه إليزابيث بيركنز آلدريتش، التى كانت مساعدتها أمراً لا غنى عنه فى إعداد المجلد الأصلى الكبير. فهى من أكثر الناس إلماماً ومعرفة بمادة الكتاب - على نحو فريد فذ - ثم هى تشاركنى فى التبجيل والتكريم لذكرى وليام چيمس.

ولقد اعتمدت ـ اعتماداً كبيراً جداً - على فهمها وخبرتها ومقدرتها الفنية فى التحرير، لدرجة أننى أحس فى مجرد الإفصاح عن الاعتراف بالجميل لا يفيها حقها. فهى فى الواقع من الأمر - إن لم تكن بالاسم - شريكة المؤلف فى هذا السفر.

رالف بارتون پيرى

كمبريدج - ماساشوستس

٣ يوليو سنة ١٩٤٧

(١)

هنرى چيمس الكبير

إن الأسرة التى نشأ فيها وليام چيمس وبلغ رشده كانت أسرة نادرة المثال وخارقة العادة، بالقياس إلى الدرجة التى كانت تدفع بها نمو أعضائها سراعًا وتصوغهم فى قالبها.

ولقد كانت دائرة الأسرة - مركزية - بالنسبة لحياة أعضائها الخاصة، ولم تكن مجرد محيط خارجى. فأما الأب - هنرى چيمس الكبير - فلم تكن له مهنة أو حرفة خاصة تقيده تقييداً رتيبًا لها، أو تحتم عليه الارتباط بالعمل فى مكتب أو وظيفة. أما أعماله الخاصة بالدراسة والتأمل والكتابة، وكل مناشطه المهنية - فيما عدا المحاضرات العامة من حين لآخر - فكان يمارسها فى عقر داره. وكان أعضاء الأسرة الآخرون لا يدينون بأفكار «الوالد العزيز»، بل إنهم كانوا غير مكترثين بها، ومن ثم كان إلمامهم قليلاً بما كان يضمنه كتبه. لكن «ريح الوداد التى تؤلف جانبًا قويًا من أحاسيسهم» كانت تشيع فى جو حياتهم وتغمره بأريجها - وكانت فى نهاية المطاف - «ملاذا لهم جميعا بمثابة معيار أو مقياس لشىء رفيع رقيق يمضى قدما على نحو موصول».

هذه - على الأقل - هى شهادة الاعتراف بالجميل الصادرة من أحد مشاهير أعضاء هذه الأسرة الذى يشير إليهم أيضا بقوله: «لم يكونوا أكثر شغفا ولا آنس وأحفل بأى شىء آخر، يفوق شغفهم وغبطتهم حيال بعضهم بعضا»[١].

---

(1) Henry James, Notes of a Son and Brother, 1914, 163; A Small Boy and Others, 1913, 59. Selectons from these books are reprinted by special permission of the publishers, Charles Scribner's Sons.

وهذا الشغف المتبادل - كان راجعًا جزئيًا - إلى أن تربية الأطفال وعلاقتهم بالمدرسة والكنيسة والدولة، كانت كلها تنسج على منوال مهنة الأب فى عدم تقيدها بنظام رتيب. ولقد حكمت عليهم الأسرة بالقصور بشأن أى صلات أو روابط ثابتة - حيال النظم أو المؤسسات - فى أى مكان آخر. وهكذا اكتملت لهذه الأسرة وشائج الوحدة والتماسك بذلك الحبل المتين من الرقة البالغة ذروتها.

لقد كان چيمس الكبير يشكو من حبه لأطفاله، على اعتبار أنه مؤلم وآثم فى آن. ولقد سجل أمرسون فى إحدى مذكراته، أن هنرى چيمس قال لى إنه كان أحيانا يدعو أن تنزل صاعقة بزوجه وأطفاله فتمحوهم محوا من الوجود، حتى لا يقاسى بعد ذلك من حبه لهم[٢].

أما أن مبادئه ومشاعره كانت مستغرقة، فيظهر ذلك من الرسالة التالية المكتوبة إلى هنرى الصغير:

كمبريدج ٢١ ديسمبر (١٨٦٩ ؟)

محبوبى هارى

إن مرضك الطويل ومرض آليس - والآن مرض ويلى كانت لى بمثابة تربية صارمة - فى كونها علمتنى تدريجيًا أن أعمم عواطفى ومشاركتى الوجدانية. لقد كان فظيعا أن يرى المرء أولئك الذين يحبهم بكل إعزاز وإحساس مرهف، معرضين لكل هذا القدر الكبير من الآلام المنهكة والمعاناة المضنية. لقد كافحت ضد الاعتقاد بأن ذلك أمر لا سبيل إلى تحاشيه، ولكنى عندما أصبحت أكثر إدراكًا صحيحًا للموقف، ورأيت أن الأمر لا يزيد على كونه غيرة وحماسة من أجل أولادى، وأن هذه الغيرة هى التى تؤجج ثورتى، وأننى ربما لا أتألم ألبتة إذا كان أطفال غيرى هم الذين يقاسون، فى حين يتمتع أولادى بالصحة والعافية وينعمون بالسلام، عندئذ بدأت أشعر بالخزى والعار، وقنعت بأن أطلب لهم العافية والتحسن - فقط - باعتبارهم جزءًا من بقية الناس سواء بسواء. ذلك ما كنا نبغى - وذلك وحده هو الجدير بالابتغاء - من أجل بركة الله الخالدة فى طبيعتنا، التى توفق بين مصلحة الفرد والصالح العام فى الإنسانية.

واقبل منى يا ولدى العزيز حبى الأبدى.

والدك المحب

---

(2) "Gulistan" 1848.

ولكن إذا كـان أعضـاء هـذه الأسـرة مشغوفين بعضهم بعضـًا فمرد ذلك - فى أساسه - إلى أنهم كانوا شخصيات مشوقة. وكانوا يشتركون فى هذه الخصيصة مع عشيرتهم الكبرى التى كانوا ينتمون إليها - مع أعمامهم، وخالاتهم، وأبناء وبنات عمومتهم، الذين كانوا دائمًا، يلقونهم فى طريق حياتهم - والذين لم يكن فى وسعهم ألا يكترثوا أبدا بتقلبات ودوران الحظوظ التى كانت تنتابهم.

لقد مات وليام چيمس (الذى عاش فى ألبانى بولاية نيويورك)، والذى هو الجد الأعلى لآل چيمس، ووالد هنرى چيمس الكبير، وجد وليام چيمس موضوع هذا الكتاب - مات سنة ١٨٣٢ - أى قبل مولد حفيده الشهير بعشر سنوات. ولكن زوجته الثالثة، كاثارين باربر، عاشت حتى سنة ١٨٥٩. وعندما كان وليام چيمس، موضوع الكتاب، وأخوه هنرى، طفلين صغيرين، كانا يكثران من زيارتها فى بيتها. وهذا المشهد - الذى ظل قابعا على نحو غامض، وإن كان فى ذاكرتين حادتين، مضافًا إليه ما خلعته عليه قصص أبيهما الحية النابضة من إسهاب وتضخم، كان ختام ذلك الموكب الحافل الحاشد الذى يشكل أحداث الماضى. وإلى هذا المسرح من الأحداث - رجع وليام بذاكرته إلى الوراء، خلال أحداث تلك المرحلة المتخللة من حياته التى ربطته بها بأوثق رباط فقال:

«فترة صبا أبى فى ألبانى - بيت جدتى الوالد والإخوة والأخت - بأهوائهم وعواطفهم وحياتهم المضطربة المائجة، وعملية البتر التى أجريت له، ومرضه، وأيام الدراسة فى الكلية، وتنقله وتجواله الطواف، وكروبه اللاهوتية التى عانى منها، كآلام المخاض وخطبته وزواجه وأبوته، ثم تلمسه لأكثر وأكثر من الحقائق التى استقر عليها أخيرًا بعد أن أضناه البحث، وأسفاره فى أوربا، وأيام البيت القديم فى نيويورك، وكل الرجال الذين اعتدت أن أراهم هناك، وأخيرًا حياته الهادئة فى خريف العمر، فى نيويورك وبوسطن وكمبريدج، وقد أمّه الأصدقاء، ومراسلوه من حوله، وقد أصبحت كتبه أيسر منالا، كم من السنين الطويلة استغرقت كل هذه الشئون فى الحياة، ولكن ما أقصر ذكراها الآن»[٣]!

(3) To A. H. J., written in 1882 immediately after his father's death; The Letters of William James, edited by his son Henry James, 1920, I,221, published by the Atlantic Monthly Press.

أما وليام – الجد الأكبر – فقد كان شخصاً ضخماً فخماً مليئاً بالحيوية والنشاط. وفى أثناء السنوات الأربعين الفذة التى انقضت بين هجرته من أيرلندا (على الأرجح فى سنة ١٧٨٩) وبين موته فى سنة ١٨٣٢، قدر له أن يبقى حيا بعد ثلاثة أو أكثر من شركائه فى العمل، وأن يشارك فى افتتاح قناة إيرى، وفى التطور والامتداد نحو الغرب على طول وادى الموهوك، وأن تتسع أعماله وتزدهر، من مجرد بياع على نطاق ضيق، إلى تاجر وصاحب أملاك وعقار ومعاملات فى البنوك وخدمات عامة، وأن ينتقل من كندا إلى نيويورك، وأن يجمع ثروة تعتبر من أكبر الثروات فى أيامه (قدرت بثلاثة ملايين دولار)، وأن يتزوج ثلاث زوجات، وينجب منهن على التوالى أربعة عشر طفلاً، وأن يصبح واحداً من أبرز المواطنين فى مدينته وولايته، وأحد الأعمدة الرئيسية للكنيسة المشيخية «المذهب البرسبتيرى: Presbyterian»، فلا غرو إذن أن يتملك وليام الأول هذا إحساس بالزهو والثقة يدفعه إلى فرض إرادته على غيره، أو أن يشعر بالولاء والانعطاف والإيمان بطريقته ومذهبه فى الخلاص وحيال الله الذى يملك مصيره وبيده مقاليد الأمور. ولقد حاول أن يحتفظ بمملكته الدنيوية ومملكته الروحية، كل فى حالها غير ممسوسة ومصونة بأن يجعل حيازة الأولى معتمدة على تقبل الثانية.

ولقد بذل وليام چيمس – الجد الأكبر – قصارى جهده لكى ينقل مزيجاً من تقواه ومن متاع الدنيا وأمواله وأملاكه إلى من عاش من ذريته. ولكن بسبب كثرة عددهم من جهة، وبسبب أن تقواه وصلاحه ونسكه كانت مصحوبة بشىء من الإسراف والاغتراف من لذائذ الحياة، من جهة أخرى، وكذلك بسبب أن أولاده ورثوا مزاج أبيهم دون أن يرثوا أفكاره من جهة ثالثة. وبسبب دواع فنية لا يعرفها إلا المحامون ومحاكم التسويات القانونية، كل ذلك كان سببا فى أن مشروعاته وخططه منيت بالعقم والفشل.

فلقد أصاب مذهب كالفن البوار السريع، ومنيت كنائسه بالكساد. ولم يصبح كسب المال والاحتفاظ به هو مهنة الأسرة وشغلها الشاغل. وفى هذا الصدد كتب هنرى الصغير يقول: «لقد كان الشقاق مع تقاليد جدى فتقا كاملا، فلم نكن أبداً – فيما أعتقد – وعلى سبيل الحصر، لمدة جيلين آثمين فى اقتراف عملية واحدة من عمليات التجارة»[٤].

(4) S. B. O., 190.

لقد أصبح المال وسيلة لطيبات الحياة، حياة «الموضة» وتنمية الذوق، وما يصاحبه ذلك من نعمة ومتعة، أو دراسة ومتابعة الآداب.

ومن ثم فإن الوراثة «الچيمسية» كانت فعلاً تتجرثم وتختمر. خذ مزاجًا حادًا (أو أيرلنديا) وتقوى كالفينية، وبنية عصبية نشيطة لا قوية ولا بليدة، ثم خفف وعدل هذا المزيج بآثار الميسرة والبحبوحة والرغد والفراغ. والحصيلة هى حنبلية لا سبيل إلى محوها، تناقضها وتخفف من حدتها رقة وعذوبة مع عدم استقرار ونزوع وقلق انفعالى يرطبه ويرخمه ويزكيه عبير فواح من دماثة الأخلاق.

وفى حالة هنرى، والد وليام الثالث - وأكثرهم شهرة على الإطلاق - نرى هذه التأثيرات السلفية وسجايا العشيرة قد أصابها تعديل عرضى من جراء ضروب من المعاناة الحادة، والآلام المبرحة، والعطب الدائم للمقدرة الجسمية.

ففى سنة ١٨٢٤، أو نحو تلك السنة بالتقريب، تولى أمر تثقيفه جوزيف هنرى، الذى كان يعمل أيضا مساعدا للدكتور رومين بيك، مدير معهد البانى، حيث كان هنرى چيمس يتعلم فى ذلك الوقت وهو فى الثالثة عشر من عمره.

وكان الدكتور بيك يشجع تلاميذه على إجراء التجارب العلمية والتسلى بها، تحت إشراف مساعده الشاب. وأكبر الظن أن هذا المساعد تأمل فى سؤال فى الكتاب، يعزى إليه تحوله إلى العلم ألا وهو:

«لماذا يرتفع اللهب أو الدخان دائمًا إلى أعلى؟»[٥]، وعلى أية حال، فقد علم الأولاد الذين كان يشرف عليهم أن يطيِّروا فى الهواء بالونات مملوءة بالهواء الساخن المستمد من كرات مشتعلة من نسالة الكتان. وحدث أن إحدى هذه الكرات المشتعلة دخلت - عرضا - من نافذة أحد مخازن الجيران، فاندفع تلميذه هنرى چيمس فى محاولة كلها شهامة وجرأة لإطفائها، فأصابته النار إصابة بالغة. وكانت النتيجة أنه قضى عامين طريح الفراش، وأجريت لساقه عملية بتر مرتين من أعلى الركبة.

(5) Memorial of Joseph Henry. Washington 1880. 180 cf. also 206-10.

لقد حدث ذلك لصبى وصف نفسه فيما بعد بقوله: «لقد عشت فى كل نسيج وخلية وعصب من جسمى. ما من يوم ينشق فجره إلا وجدنى واقفًا على قدمى أتفجر نشاطًا وحيوية، وما زلت أذكر بكل وضوح وجلاء ما كان يملأ جوانجى من فرط الطرب السنى ويسرى فى دمائى وأنا أمارس رياضاتى - تحت ضوء الصباح الساحر - فى النهر والغابة والحقل».

وعندما دخل هنرى الشاب كلية الاتحاد فى سنة ١٨٢٩، كانت صحته وروحه المعنوية فى قمة الحيوية والنشاط. بيد أن بتر ساقه حال بينه وبين ممارسة رياضات النهر والغابة والحقل(٦). ولكنه على الرغم من ذلك كان فى وسعه - بل استطاع فعلاً - أن يغترف بكل شهية وحماسة من مسرات ومتع الحياة العصرية فى أيامه. وفى الحقيقة كان مفرطًا ومندفعًا، لدرجة أن والده الساخط الحانق على ما أحرزه ابنه من تقدم فى «فنون الدناءة والخسة» و«البهتان المتبجح» قد تنبأ بأنه سرعان ما سيجد نفسه نزيل السجن(٧).

لكنه مع ذلك واصل دراسته فى الكلية وتخرج فيها فى سنة ١٨٣٠، وإن كان سجل درجاته لم يرق إلى مرتبة الامتياز أو التفوق. وبعد ذلك حاول محاولة جهيضة - لكى يدخل السرور على والده - أن يدرس القانون، وانتهى أمره بالخيبة فى هذا المسعى، ثم أصبح بعد ذلك لمدة (من ١٨٣٠ إلى ١٨٣٢) أحد محررى صحيفة محلية فى ألبانى اسمها «الصانع الماهر: Craftsman».

---

(6) The Literary Remains of Henry James, edited by his son, William James, 1885, The above citation was quoted from an autobiographiacal manuscript left by H.J.I, published by W.J. in the Atlantic Monthly, LIV (1854) and afterwards more Fully in L.R.H.J.

(7) From a correspondence between William James (of Albany) and his friend Archibald McIntyre, November 12 and December 2, 1829' and a letter of H.J.I. to Isaac Jackson, tutor at Union College, January.

ولم تكن هذه سوى أحداث خارجية فى حياة شاب عميق التأمل وشديد الاستبطان. وكان ذا مزاج دينى قوى، بحيث لم يكن فى استطاعته أن يتقبل العقائد الموروثة على علاتها بلا فحص ولا تقويم ولا اكتراث، أو يرفضها وينبذها نبذ النواة برمتها.

لقد كانت مطالبة الدنيوية وشهواته فى حرب مع إنسانيته، وكان الجميع فى حرب مع تقواه التقليدية. بيد أن مثل ذلك الصراع - فى حالته - ما كان له إلا أن يفضى إلى إخصاب ودعم وتقوية لعقيدته.

وكان من عادة أصحاب المذهب البرسبتيرى المخلصين من أتباع الكنيسة المشيخية أن ييمموا شطر برنستون. ولقد سبق أن ذهب أخوه الأكبر غير الشقيق - وليام المبجل - إلى هناك فى سنة ١٨١٢. وكان جوزيف هنرى، الذى حاز شهرة واسعة باعتباره عالم من علماء الطبيعة. قد ذهب إلى هناك فى سنة ١٨٣٢، حيث استدعى من معهد البانى لشغل منصب الأستاذية فى كلية نيوجرسى. ثم تبعهم هنرى چيمس فى سنة ١٨٣٥، عندما دخل مدرسة برنستون للاهوت. وبوصفه دارسا للاهوت فى برنستون، كان چيمس لا يشارك أترابه وأقاربه اهتماماتهم إلا فى النزر اليسير، فلقد كان الدين بالنسبة لهم نظامًا وطقوسًا، أما بالنسبة إليه فقد كان وحيًا أصيلاً وكشفًا شخصيًا.

وفى سنة ١٨٣٨، انسحب من مدرسة برنستون للاهوت، واتخذ سبيله إلى نيويورك حيث استقر به المقام هناك. ومن ثم تحول عن الكنيسة وأدار لها ظهره إلى الأبد «إذ كان نافرا بالسليقة والمزاج والثقافة من الآراء الكهنوتية ومن الطقوس والشعائر الرسمية» التى يفرضها الدين[٨].

أما وقد نفض يده من العمل فى وظيفة رجل دين، وسد فى وجهه هذا الباب، وكذلك نظرًا لأن معظم المهن الأخرى المعترف بها كانت تتناقض تمامًا مع عبقريته الفذة، فقد دخل تلك المهنة التى بدت فى عيون أولاده محفوفة بالإبهام والالتباس على نحو محير جدًا، والتى وصفها لهم وهو يجيب عن حيرتهم وتساؤلهم بقوله: «قولوا إننى فيلسوف،

(8) L.R.H.J., 123.

قولوا إننى باحث عن الحقيقة، قولوا إننى محب لنوعى الإنسانى، قولوا إننى مؤلف كتب إذا طاب لكم ذلك، ولكن، إذا شئتم أن تقولوا ما هو أفضل من ذلك كله، فقولوا إننى طالب علم(٩).

إنه كان كل ذلك، وإن كانت هناك مهنة أو دعوة تتضمنها جميعا، ألا وهى جعل بصيرته الدينية الخاصة به، واضحة المعالم بيِّنة وغالبة لها الكلمة العليا. ولقد كانت هذه البصيرة مزيجا من الكالفينية ونقيضها فى آن واحد.

فعلى الرغم من إصـراره وتسليمه بأن الله هو الرحمن الرحيم، وبتضامن النوع الإنسانى، فإن خبرته الدينية الشخصية كانت بعيدة الأغوار عميقة الجذور فى كالفينيتها.

ولقد كانت كالفينيته فى هذه الفكرة بالذات المتعلقة بتضامن النوع الإنسانى ووحدة بنى البشر. إذ لم يكن من الفروض المنطقية الأولى لمذهب كالفن أن خطيئة آدم تنتقل إلى كل ذريته، بحيث يكون الجنس البشرى كله مثله كمثل الجهاز العضوى إذا أصيب عضو منه بالتلف أو نزلت به نازلة، فلابد من أن تتداعى له سائر الأعضاء بالألم والمعاناة.

ولقد كان چيمس كالفينيا أيضا فى تقبله - دون تحفظ - لوجهة النظر القائلة بأن الإنسان أعرض عن الله. فالدين يبدأ من اليأس. وليس ذلك حادثا عرضيا، وإنما هو شرط لازم، إذ لا يمكن أن يكون هناك معراج للصعود إذا لم يبدأ من الأعماق. ولقد كان كالفينيا فى تقبله لمذهب التسويغ بالعقيدة، بحيث إن الخلاص فضل من الله وإنعام لمن لا يستحقه، مرده إلى رحمة الله، ومغفرته، وسعة فضله، وحبه لعباده، وهو عالم بجحودهم. ومن ثم فإن چيمس لم يتقبل الكالفينية بقبول حسن فحسب، وإنما طرب لها وتهلل، باعتبارها أسمى وأقدس حق. بيد أن عمق إيمانه بالكالفينية هو الذى يجعل نأيه وإعراضه المتطرف عنها - مدعاة للغرابة والدهشة - ولقد كان إعراضًا ونأيا بلغا من التطرف حدا يمكن وصفه بالانحراف والتحول والتأمين. فطبقًا للمذهب الكالفينى فإن

(9) N.S.B., 69.

الزلل جماعى، والخلاص فردى، والطبيعة الإنسانية فى ذاتها جبلت على الخطيئة، والدوافع البيولوچية الصادرة عن التركيب الأصلى للنفس البشرية لها من القوة والفاعلية ما يتطلب الكبح والقمع، ولن ينال الهدى إلا أفراد معينون مختارون من أولى العزم ممن يمتازون بالغيرة والحماسة والاستقامة والعدل - فى أسمى مراتبها. بيد أن تلك العلامة بالذات التى يعتبرها الكالفينى سمة الخلاص، وذلك الإحساس بأن الهدى هدى الله ينعم به على من يشاء من عباده دون غيره، والذى يتجلى فى تلك المقدرة السامية الرفيعة على الاستقامة والعدل، ذلك كله بالنسبة لچيمس هو خطورة التردى ذاته، وهو نفس اللحظة التى يهبط فيها الإنسان إلى درك الخطيئة. فالطبيعة البشرية بريئة، والإنسان - من الوجهة البيولوچية - ليس شريراً ولا خاطئًا، وإنما هو ينأى عن الله ويعرض عنه عندما يركبه الغرور ويدعى الاستعلاء وهو فرد، سواء استناداً إلى امتيازات خاصة يبيحها لنفسه ويحرمها على غيره، أم بدعوى فرط التقوى والصلاح، فهو عندئذ يبعد عن الله. ومن ثم فإن ما يستحق منه توبته وندامته هو غروره، وبداية خلاصه الحقيقى تظهر عندما تتطابق آماله مع آمال الجنس البشرى - بصفة كلية. وموجز القول: إن القضية عند چيمس بالعكس. فالزلل فردى، والخلاص جماعى، والناس يأثمون ويخطئون باعتبارهم أفراداً، ولكن هديهم ونجاتهم وخلاصهم عملية مشتركة بالتضامن.

على أن حياة چيمس الأدبية لم تبدأ حتى سنة ١٨٥٠، وفى غضون ذلك كان قد رأى النور وتكشف له قبسا وراء قبس[١٠].

(10) The major writings of Henry James are as follows: Moralism and Chrislianity; or Man's Experience and Destiny, 1850; Lectures and Miscellanies, 1852; The Church of Christ Not an Ecclesiasticism, 1854; The Nature of Evil, considered in a Letter to the Rev. Edward Beecher, D.D., Author of "The Conflict of Ages," 1855; Christianity the Logic of Creation, 1857; Substance and Shadow; of Morality and Religion in Their Relation to Life, 1863; The Secret of Sweden borg, being an elucidation of his doctrine of the Divine Natural Humanity, 1869, Society the Redeemed Forrm of Man, and the Earnest of God's Omnipotence in Human Nature, affirmed in Letters to a Friend, 1879.

ولقد أتى إليه هذا الضوء من مصدرين، هما سويدنبورج وفورير. على أنهما لم يحولاه عن دينه، وإنما ثبتاه ودعماه وأعاناه بأن أعطياه لغة وإطاراً منظمين، ومنهاجاً وسنداً للإيمان الذى كان يشيع فى أرجاء نفسه.

وإلى كتابات سويندنبورج - كان چيمس يعزو ضربا من الإلهام الدينى الذى أحسه ومارسه فى سنة ١٨٤٦، والذى عبر عنه بقوله: «لقد كنت أقرأ من الأول مشغوفاً خافق القلب، وباهتمام مرتجف، وكان قلبى ينضح بالتقديس، بل يكشف الغيب، حتى قبل أن يكون ذكائى مستعداً لأنصاف الكتب وفقهها، ولوزن الأقدار غير المتكافئة من الحق الموجودة فيها. تصور مخلوقًا يخلو من استبداد طفيف حكم عليه بالموت وله (وهذا ما هو أدهى وأمر) عاطفة للموت تشيع فى كل وعيه، ثم لا تلبث أن تنقشع بمعزة مفاجئة، وتتحول إلى إحساس جارف بالانسجام والتناغم مع الإنسان على إطلاقه، وتمتلئ حتى تطفح بعاطفة للحياة - لا تندرس - تصور ذلك وستكون لديك صورة عن حالتى المتحررة المنطلقة»(١١).

ولكن صديق چيمس - چ. چ. جارث ويلكنسون، الذى استرعت كتاباته انتباه چيمس أول الأمر لسويدنبورج، ذكر فيما بعد أنه لم يكن بين چيمس وسويدنبورج من شيء مشترك سوى اصطلاح «الإنسانية الطبيعية المقدسة»(١٢)، فلقد كان من المستحيل على چيمس أن يكون سويدنبورجيا صالحًا مثلما كان من المستحيل عليه أن يكون برسبتيريا صالحًا.

فلقد كان الدين عنده مسألة خبرة وبصيرة، لا عقيدة تعسفية أو وحيًا تاريخيًا. لقد كان چيمس ميتافيزيقيا، وصوفيا، وكالفينيا وراثيًا. وقد تطلع إلى سويدنبورج لكى يخلصه - كليًا من حرفية ورق النص - حتى من حرفية نصوص المذهب السويدنبورجى نفسه.

---

(11) L.R.H.J., 66-7. 69.

(12) Wilkinson to H.J.I. May 20, 1879.

أما المصدر العظيم - الثانى - الذى أخذ منه چيمس الضوء، فقد كان فورير الذى مات سنة ١٨٣٧، والذى طبقت شهرته الآفاق بسرعة جبارة، لدرجة أن عدد أتباعه من الأمريكيين فى سنة ١٨٤٦ قدر بنحو ٢٠٠,٠٠٠ . من المستحيل طبعًا شرح هذه الحركة باعتبارها ظاهرة منفصلة قائمة بذاتها، أو على اعتبار أنها برهان للمحاسن الفريدة لتعاليم فورير. وإنما هى مظهر ودلالة وبينة على نفس تلك الروح الحماسية الواثقة المؤمنة بالإصلاح، والتى تجلت فى الحركة المعروفة بحركة «التربة الحرة»، وفى إبطال الاسترقاق، وجماعات السلام، وحركة أوين، وفلسفة ما فوق العقل. وكان أولئك الذين ينتمون إلى إحدى هذه الحركات عادة ينتمون إلى الباقى، أو على أية حال من العاطفين عليها وعلى كل المذاهب المنهجية الأخرى.

وفى هذا الصدد قال أمرسون: «فى تاريخ العالم لم يكن لمذهب الإصلاح أبدا مثل هذا المدى من الشمول والإحاطة، كما هو حادث فى اللحظة الراهنة. إذ يتعين علينا أن نراجع تركيبنا الاجتماعى برمته: الدولة، والمدرسة، والدين، والزواج، والتجارة، والعلم، ونكتشف جذورها وأسسها فى طبيعتنا نفسها»(١٣).

وليس ثمة بينة تومئ إلى أن فورير قد تأثر بسويدنبورج، بل لا يمكن الجزم بأنه كان ملما بتعاليمه ومذهبه. بيد أن أوجه الشبه بين الاثنين فى المنهاج والمذهب كانت بارزة ولافتة للنظر، ويبدو أن الحركتين كانتا على موعد مع القدر لكى يتم زواجهما.

لقد كان المذهب السويدنبورجى بحاجة إلى برنامج اجتماعى، وكان مذهب فورير بحاجة إلى أساس دينى وميتافيزيقى.

وكان هذا التبادل والتعاضد ولياقة كل منهما لتكملة الآخر وشد أزره، هو أعظم الأمور أهمية فى نظر المصلحين فى ذلك العقد من السنين التى تبدأ بسنة ١٨٤٠،

(13) The Dial, I (1841), 523, 534. Even mediumship and spiritism profited by the general enthusiasm. but Andrew Jackson Davis's leadin this direction was not followed by the group with which James was more immediately associated, and James himself took little interest in it.

ويبدو أنها خطرت ببال كل القادة ودعاة الإصلاح - فى نفس الوقت من أنصار الحركتين على جانبى الأطلنطى - فى أوربا وأمريكا.

بيد أن مبادئ فورير جذبت إليها چيمس، ليس فقط لكونها تهيئ علمًا اجتماعيًا وضمانًا يفى بالتحقيق، ولكن لأنها أكدت عقيدتين من أكثر عقائده إعزازًا ورسوخًا:

فأما أولاهما فكانت الإيمان بالتماسك الاجتماعى - أى «وحدة أو شخصية النوع الإنسانى نفسه». فالمعنى الوحيد المهم الذى يفرق بين «الصالحين» و«الطالحين» يكمن فى علاقتهم «بتلك الحياة المقدسة التى توجد بيننا وبين الله، والتى هى كامنة فى طبيعتنا، والتى نسميها المجتمع أو الأخوة أو الزمالة أو الرابطة أو المساواة(١٤).

وأما العقيدة الثانية التى كانت موضع إعزاز چيمس، والتى وجد عند فورير توكيدًا لها، فقد كانت فكرة البراءة الإنسانية. فلقد رد فورير الإثم والمعصية وضرورة الضبط الاجتماعى إلى عنصر عدم الملاءة أو الافتقار إلى التوافق، ومن ثم ارتكز برنامجه على اصطناع مجتمعات إنسانية، قوامها تنظيم ماهر ومتناغم، لدرجة تتيح للفرد فى ظلها أن يتمتع بالتلقائية التامة، وأن يكون «صالحًا بحرية» أو على حد تعبير وليام چيمس «فى مجتمع منظم تنظيمًا قدسيًا، فإن طبائعنا لن تتغير أو تتبدل، وإنما الذى يتبدل هو تلقائيتنا لأنها عندئذ ستعمل فى تناغم وتناسق - وستؤدى وظائفها فى براءة - وعندها ستحل مملكة السماء على وجه البسيطة»(١٥).

وبعبارة أخرى، فإن چيمس الكبير - نادى - بما عهد فيه من تهور وحماسة دافقة بكل روحه وقلبه - بتوكيد المذهب القائل بأن التقدم الإنسانى والدين الصحيح - اللذين هما نفس الشيء - يهدفان إلى تزكية الإنسان الطبيعى وتخليصه من براثن السلطة الصادرة عن النظم الاجتماعية وقوانينها.

---

(14) Henry James, Substance and Shadow, 1863, 145, 369.

(15) Prefatory note to his father's "Emerson," Atlantic, XCIV (1904).

ولقد كان أصحاب فلسفة ما فوق العقل، والرومانتيكيون الخيرون، ودعاة الحياة البسيطة والتفكير العالى (مجتمع بروك فارمرز)، هم الأعمام الروحيين لوليام چيمس. لقد كانوا ينتمون إلى الماضى قطعيًا، وكانوا فعلاً قد بدأوا يصبحون فى نظر القوم تماثيل تاريخية. ولكون چيمس تربى تربية تزخر بالتسامح والتحررية، فإنه لم يعان رد فعل مضاد لزمالات وروابط شبابه على الرغم من هذا الاتجاه، لأن هؤلاء الرجال الذين كانوا يدورون فى فلك أبيه، ويدور أبوه فى أفلاكهم، أثروا فيه تأثيراً خلقيًا من باب الوراثة ليس إلا، وليس باعتبارها عوامل معاصرة حية نابضة.

أما أصدقاؤه فكانوا أبناءهم، وأما معلموه فقد كانوا رجالاً من طراز مختلف تماماً عن هؤلاء الرجال.

(٢)

چيمس الكبير وأمرسون

يكاد ميلاد وليام چيمس يتطابق تطابقًا تامًا مع بدء التعارف بين والده وأمرسون. ففى الثامن عشر من مارس سنة ١٨٤٢، سجل أمرسون فى مذكراته: «فى نيويورك تعرفت إلى هنرى چيمس»[١]. والرسالة التالية المحررة إلى أمرسون تشير إلى نفس الموضوع، فقد ذهب چيمس ليستمع إلى محاضرة ألقاها أمرسون، وظفر أمرسون بإعجابه وانجذب إليه، ثم دعاه إلى بيته، وعندما وصلا بشروه بمولد ابنه وليام فصعد إلى الطابق العلوى من المنزل لكى تقر عينه برؤية «الوليد الذى سيصبح وليام چيمس الثانى الأمريكى»[٢].

أما فحوى الرسالة فهى:

نيويورك مساء الثلاثاء (٣ من مارس سنة ١٨٤٢؟)

سيدى العزيز

لقد استمعت إلى محاضرتك هذه الليلة[٣]، وعندما تلألأ فؤادى بكثير من الدرر التى خرجت من بين شفتيك، شعرت فورًا، وبيقين تام، أن الماثل أمام عينى رجل يبحث عن حقائق الأمور بكل صدق وحق، وأدركت إلى أى مدى يحب الحق والخير. ومن ثم قررت أن أكتب إليه قائلاً: إننى أنا أيضا -

---

(1) Bliss Perry, The Heart of Emerson's Journals, Honghton Miffin Co., 1926, 173.

(2) S.B.O., 8.

(3) On Thursday, March 3, Emerson lectured is the Society Library on "The Times".

بنصيبى المتواضع - أتطلع باشتهاء إلى فهم الحقيقة التى تحيط بى وتعتنقنى، وإننى جاد فى أن أفهم وأدرك - بجدارة واستحقاق - أو أن أكون أكثر أهلية لأن أفهم وأدرك الحب الذى يشيع فى أرجاء كل الجدب البادى فى عالمنا المفتقر إلى الود، بحيث ينعشه ويحيى مواته. ولكنى ما زلت أجد فى كل خطوة أخطوها فى هذا المضمار. إننى مفصوم العرى من أصحابى وبنى جلدتى، بحيث إننى فى النهاية، وعندما أصبح أعمق وعيا باستحقاق للحب والود أكثر من أى وقت مضى، وبقدر ما يسمح لى هذا الوعى المتزايد الشامل المحب، فإننى أجد تعبيراتى الحرة رهينة وكبيسة ومضغوطة فى ذلك الحيز الضيق المحيط بنار مدفأتى. وسأخبره أيضا أن الحديث الودى مع رفع الكلفة إلى إنسان يتبع الحق بكل شغف أينما يفضى به هذا البحث فى الطرق الوعرة، فيلبى دواعيه لا يخشى لومة لائم، لأنه يحب الحق حبا يملك عليه كل نفسه، بحيث لا يثنيه عن اتباعه والمضى فى طريقه وما يلقاه فى مسيره من أخطاء وعثرات قد ترهقه من أمره عسرا، هذا الحديث إلى مثل هذا الإنسان لم يكن من نصيبى أبداً ولو لنصف ساعة، ومن ثم فإنه إذا كان ذلك المحب الكريم للحق واتباعه - وإنه لكذلك حقا - فقد يمنحنى هذا البر المشتهى، ويطعمنى تلك الحلاوة التى لم أذقها، ويتيح لى أن أشعر بحرارة وقوة قبضة يد زميل من زملاء الحج، وأنعم بذكرى طويلة ببركة الله العاجلة، وبرنين الضحكة التى من علىَّ بها، وكانت آخر ما وقع عليه بصرى عند الفراق. على أننى لن أدنس تقديسه للحق بأن أقول بأننى ألتمس إرشاده وتوجيهه على أى نحو، ولكن لا جناح علىَّ أن أقول له: إننى إذا ما وجدت سميعا لصوتى فقد أدعوه من حين لآخر لكى يفسر لى بعض الألغاز التى تعترض طريقى هنا وهناك، والتى تبدو لى كاللغة الهيروغليفية، والتى أشعر بعجزى وقصورى عن فهمها، وإنه لن يبخل على بهذه الخدمات الهينة. وسأخبره أننى لا أقيم وزنا كبيراً لاكتشافاته ذات الحجج الدامغة - أيًا كانت - وربما لا يتجاوز تقديرى لها نصف ما يقدرها هو، ولكن تقديرى ينصب بصفة رئيسية على ذلك الاتجاه العقلى الصامد الرفيع البنيان الذى يميزه، والذى يبحث ببسالة عن أعظم بشائر الله فى ملكوته، ويتحدى فى طمأنينة وسكينة كل طيف متمتم يناهض حريته فى هذا. وأخيراً - ولكى لا أرهقه من أمره عسرا أو أختبر صبره - فسأخبره أيضا أنه إذا كان من أولى العزم، وتحمل حماسته وشغفه بالحقائق، وحافظ على ازدرائه للمظاهر الكاذبة، بحيث يطبق التجربة التى أوجدت وسيلتها لها، أو بالأحرى المحنة التى دبرتها، فسأكون سعيداً جداً بانتظار زيارته لى متى يطيب له أن يحدد موعداً.

ذلك فى جوهره هو ما قلته لنفسى. والآن، وقد قلته لك أيضا، فلقد أصبحت أمين سر ونجيًا بينى وبين نفسى. ومن ثم فأنت ملزم على نحو ما بإحداث انسجام وتناغم بينهما. فإذا نكصت عن حمل هذه الأمانة التى وضعت على عاتقك، فسألوم نفسى بكل تأكيد من جراء الإفضاء إليك بدخيلة نفسى وافتضاح أمرى، ولكن إذا حافظت على العهد وحملت الأمانة، فسأقدم لنفسى التهانى بنفس الدرجة التى كنت سألوم بها نفسى إذا ما خذلتنى! سأهنئ نفسى بكل تأكيد على بلوغ مآرب حسن الطالع لكلينا. وعلى أية حال فلك منى أصدق الأمانى وأطيبها.

هـ. چيمس

حاشية: عنوان مسكنى هو: ٥ رحبة واشنطن. الرحبة تمتد من برودواى إلى ميدان واشنطن وتشكل أو بالأحرى يؤلفها صف المبانى الواقعة بين مبنى الجامعة وبرودواى. أعمالى كلها تتم داخل المنزل بحيث إننى عادة ما ألتزم دارى، ودائمًا موجود فى المساء.

إن هذه الرسائل التى كتبها إلى أمرسون تفصح عن مزيج من الإعجاب والحب والانفعال التى تعتبر من جانب چيمس علاقة على سرعة اتصال حبال الود ونضوج الصلات الوثقى فيما بينهما. هذا على الرغم من قيام كل الأسباب والدواعى الموجبة لاختلافهما، أو بالأحرى الأسباب والدواعى التى تحتم على چيمس أن يختلف عن أمرسون. ولعل أحد هذه الفروق: أنه بينما كان چيمس لابد أن يختلف، فإن أمرسون لم يكن كذلك. فلقد احتفظ چيمس بالعادة الكالڤينية القديمة من المحاجة والجدال، وكانت نزعته تدفعه دفعا إلى المجادلة والإقناع، وكان أبغض شىء إلى نفسه أن يترك الناس يمضون إلى سبيلهم إذا آنس منهم استعدادًا أو استحقاقًا للخلاص والهداية. لقد كان موفور الإلهام والبديهة، وراسخ الإيمان والعقيدة، ولكنه كان يتطلب منها الأسباب والأدلة وكان يحاول بصفة دائمة أن يشكلها فى صيغة ميتافيزيقية (علم النظر الجدلى). أما أمرسون فقد كانت فصاحته من النوع الإثباتى التأكيدى، لا الوصفى الإيضاحى، وكان يرفض الدخول فى مجادلات أو حتى الإجابة عن الأسئلة التى تلقى عليه، وكلما زاغ وتملص زاد هياجه وسخطه(٤). على أنه ينبغى أن يضاف إلى ذلك الفرق العميق فى المزاج والسليقة، فلقد كان چيمس متوقد الحمية والسورة، فى حين أن أمرسون كان رزينا وباردا ورابط الجأش.

ولعل الفقرات التالية تعيد ذكرى فترة أول لقاء بينهما:

«سبحانك ربى! كم أشاعت نظرة صديقى الجديد- البريئة المحببة – فى أرجاء نفسى السكينة والطمأنينة والرضا. إنه لطيف المدخل إلى النفس، رقيق الحاشية، سخى فى تقديره لاجتراءاتى

---

(4) "Emerson would listen, I fancy, as if charmed, to James's talk of the divine natural Humanity, but he would never subscribe; and this, from one whose native gifts were so suggestive of that same Humanity was disappointing." (William James, in the prefatory note to his father's "Emerson," AtlanticXCIV, 1904, 740).

الأدبية الفجة. كم احتجزته فى غرفة نومى، وأغلقنا الباب وخلونا إلى أنفسنا، واثقا بأننى قبل أن أفتح الباب مرة ثانية فإنى ساكون قد نفدت إلى سر تفوقه العظيم وسموه الجبار على كل من عداه من رجال الأدب والفكر. ولو أننى أغلقت على نفسى باب غرفتى، وانفردت بحفنة من جواهر الماس لما تغير من الأمر شىء، هذا فيما يتعلق بدراية أمرسون نفسه بنفاسته.. وصفوة القول، إن فى وسعى أن أقول: إننى فى أول الأمر خاب أملى فيه، لأن عقله لم يكن يبشر بما كان يطفح على وجهه من بِشر ومحبة، وما كان يتجلى فى ذوقه وأدبه. لقد كان بالنسبة لمشاعرى وجوداً مقدساً ماثلاً فى الدار معى، ونحن لا نستطيع أن ندرك أو نعترف بوجود شخوص مقدسة فى بيوتنا دون أن نحس يقينا بأنهم ستفوهون بشىء ذى بال، أو بحكمة ذات خطر تستبد بعقولنا، ولكن الذى حدث أنه لو كانت بيننا عجوز شمطاء ممن يعملن فى جر دواب الحمل لقالت مثلما قال أمرسون، ولأشبعت نهمى العقلى مثلما أشبعه أمرسون آنذاك. فليس ثمة ريب فى أنه ليس فى وسع امرئ أن يشخص ببصره إليه وهو يتكلم (أو عندما يكون صامتا) دون أن تتمثل أمامه رؤية أقدس جمال. ولكنك إذا سعيت لكى تجادله فى الأحداث العجيبة أو الظواهر الخارقة وجدته مجرداً من القوة التأملية على الإطلاق»(٥).

ولقد اقتضت المحاضرات التى كان يلقيها أمرسون أن يحضر إلى نيوريوك من حين لآخر، وأن يصبح زائراً لبيت آل چيمس كلما جاء إلى نيوريوك. ولقد تركت هذه الزيارات آثارها على عقل هنرى چيمس - الابن الثانى الذى كان عمره وقتئذ لا يتجاوز الثانية عشرة - وخلفت البصمات التالية على وعيه:

«هل أطوى مناسبات عديدة فى واحدة، أم أنا أكبر وأجسم واحدة منها بشكل غير معقول، فلتكن الأخيرة، خشية أن أتردى فى الوجرة التى من المرجح أن ينزلق إليها المؤرخ الإخبارى الذى تغلبه ذاكرته على أمره فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. إنى أستحضر فى خلدى - على أية حال نار الموقد فى الشتاء، وقد صفت جذوة النار، وجلسنا فى الغرفة الخلية وقت الغسق، وأمرسون العظيم - وكنت أعرف أنه عظيم، أعظم من أى واحد من أصدقائنا - قد اتخذ مجلسه بين أمى وأبى قبل أن تضاء القناديل، كما يفعل كل زائر قد رفع الكلفة بينه وبين أهل البيت، فيمضى على السجية أهلا وسهلا. ومما زاد من وقع انطباعه فى نفسى، أنه بدا أمامى كطيق نحيل أهيف، متموج فى رشاقة وانسجام، يسيل رقة وعذوبة، أقنى بشكل يوحى بالأريحية وحب الخير، وله صوت ذو جرس غريب الوقع على الأذن، يباين أى صوت ألفنا سماعه ممن حولنا»(٦).

---

(5) L.R.H.J., 296-7, 300.

(6) N.S.B., 204. The Second Henry James wes born in 1843, and the above impression must have occurred before 1855, when the family ceased to reside in Now York.

ولقد كان عن طريق أمرسون أن تعرف چيمس إلى ثورو. وكتب أمرسون إلى چيمس فى هذا الصدد ما يلى(٧):

«من الخير لك وللمستر ثورو أن تلتقيا، ويسبر كل منكما غور الآخر ويعرف ما عنده. إن ثورو صاحب عقل عميق، وهو صادق الأريحية والسماحة، وإذا اتفق أن صدرت عنه بعض الحذلقة الريفية والتطويل الممل والإطناب المضجر فى سرد الحقائق فسرعان ما ينسى ذلك عندما يقدم له ما هو خير وأبقى. إن المرء لا يستطيع أن يجزم أبداً بأن هذه التجارب - التى تبلغ الذروة فى الرقة. تجارب الرجال والمخالطة - ستؤتى أكلها وتفلح، ولكنك إذا بقيت فى المدينة هذا الصيف - وإن كان ذلك غير محقق - فأرجوك أن ترسل بطاقتك له بوساطة أخى.

ولقد كان أول لقاء بين ثورو وچيمس ناجحًا موفقًا على الفور، وإن كان ثورو قد ساورته الشكوك فيما يتلعق بجدوى فلسفة چيمس. لقد كتب ثورو إلى والديه أنه قابل «هنرس چيمس - رجل أعرج»، وأنه «كان قد سمع به من قبل»، ثم وصف انطباعاته بإسهاب فى خطاب بعث به إلى أمرسون فى الثامن من يونيه سنة ١٨٤٣ جاء فيه:

«لقد ذهبت لزيارة هنرى چيمس وأحببته حبًا جمًا. لقد غمرنى السرور بلقياه، إن لقاءه يشعرك بأن الإنسانية أكثر استقامة واستحقاقًا للاحترام. لم يسبق لى أبداً أن تعلمت بطريقة السؤال والجواب على هذا النحو من الرقة والإخلاص. لقد جعلنى ذلك أكثر احترامًا لنفسى، وأن أكون أهلا لأن توجه إلىّ مثل تلك الأسئلة الحصيفة. إنه رجل حقا، يمضى فى طريقه إلى غايته، أو يظل واقفًا ساكنا فى مكانه لا يتزحزح عنه. ولست أعرف أحداً غيره بلغ هذا الحد من الصبر والعزم بحيث استطاع أن يظفر بخيرك وفضلك. إنه يكاد يبلغ حد الصداقة مثل هذا الارتباط والتعامل الصريح الإنسانى. وأعتقد أنه لن يكون من ذلك الطراز الذى سيكتب أو يتحدث بوحى أو إلهام. ولكنه رجل منعش مستقيم ينظر إلى الأمام ويتحرك إلى الأمام. ولقد ألف بين قلبى وبين نيويورك، لقد طبعها وأنسنها لى. إنه فى الواقع من الأمر يؤنبك من جراء احترامه لكلامك الغث. لقد قضيت ثلاث ساعات سويا معه فى حديث متصل، وهو يدعونى لكى أحل عليه ضيفا فى بيته أهلا وسهلا بكل حرية. إنه يتطلب تعبيراً واضحًا عن عقيدتك، أو لكى يتأكد من أنها عقيدة تدين بها، ويعترف بأن عقيدته تطأ بثبات فوق عنق فهمه. ولقد صاح معلقًا على إحدى إجاباتى التى فهمت بها دون مبالاة: «لا ريب فى أنكم يا معشر فلاسفة ما فوق العقل ثابتون بلا تغير ولا تذبذب على نحو مدهش. حتم علىّ أن أمسك بتلابيب ذلك على نحو ما»(٨).

---

(7) May 6, 1843.

(8) F.B. Sanborn, Familiar Letters of H.D. Thoreau, Houghton Mifflin Co. 1864, 95.

أبحرت الأسرة إلى أوربا فى التاسع عشر من أكتوبر سنة ١٨٤٣، فى تلك الرحلة المشهورة التى قدر لها أن تخلد ذكرها على مر الزمان، لارتباطها بكشف سويدنبورج، وببدء التعارف الشخصى مع ويلكنسون وكارليل. ولقد سجل چيمس رأيه فى كارليل فيما بعد بصراحته الحماسية المعتادة. أما رأى كارليل فى چيمس - فيما عدا فقرة «أنه أحبه» فلم يظهر له أثر واضح فيما سجله عندئذ(٩).

وفى سنة ١٨٤٥ عاد چيمس وأسرته إلى أمريكا حيث استقر بهم المقام فى ألبانى أول الأمر، ثم بعد ذلك فى نيويورك فى سنة ١٨٤٧. ومن ثم استؤنفت المراسلات مع أمرسون، وكذلك عاد التلاقى فى نيويورك فى مناسبات محاضرات أمرسون. على أنهما كانا يجتمعان أيضا فى بوسطن حيث كان چيمس عضواً فى تلك السلسلة من الأندية التى نظمت تباعاً هناك «حول وعى أمرسون» (Autour d'Emerson).

وشهدت سنة ١٨٥٢، رحلة كوسوت الشهيرة حيث ذهب إلى كونكورد وأقام له أمرسون حفل استقبال عاماً وحياه القوم «على اعتبار أنه أسبق جندى من جنود الحرية فى هذا العصر»(١٠).

ولقد كانت تلك السنة هى السنة التى ظهرت فيها مذكرات مارجريت فولر التى اشترك فيها أمرسون ووليام هنرى تشاننج وغيرهما. ولقد كانت الرحلة والكتاب حدثين مهمين فى عالم چيمس، فنوّه بهما فى رسالته التالية التى كتبها لصديقه أدمند تويدى:

نيويورك ٢٤ فبراير (١٨٥٢)

عزيزى المحبوب تويديوس العتيد

لعنة الله على هذا الجو الذى يستحق الشنق. هذا الجو الذى يحيط بك احاطة السوار بالمعصم ويخلب لبك آناء الليل وأطراف النهار، ويضلك عن أقدس واجباتك. كم من الرسائل حررتها لك أخيراً فى ظل إلهام هذا الجو، حررتها لك، علم الله لا بالقلم والحبر، ولكن بقلم مخى المغموس فى مداد قلبى. آه لو أنك ظفرت ببعض هذه الرسائل وفضضتها ووقفت على فحواها، إذن لألقيت بكل ما تقرأ

(9) Cf. N.S.B., 186-8.

(10) G.W. Cooke, Ralph Waldo Emerson: His life, Writings. and Philosophy, 1881, 121.

الآن جانبا، وأثرت قراءتها بنفس الشغف الذى يشيع فى أرجاء نفسى وأنا أحـــررها. إن ذاكـرتى لا تحتفظ إلا بأحسن وأرقى ما فيك من خير وإنسانية، وإنى لأجعل منك ومن رسائل مشاركين فى الخيال لأنبل وأقدس ما يعتمل فى فكرى وفى خلدى. لقد أنصف تشاننج نفسه ووفق أعذم توفيق - فيما علمت - باشتراكه فى تأليف مذكرات مارجريت فولر، وأصاب من وراء ذلك خيراً فى السنوات الأخيرة. أما أنا فلم أقرأ إلا الجزء الذى كتبه أمرسون، وهو ممتاز وجدير بشبابه. والانطباع الذى خلفه الكتاب فى نفسى حتى الآن هو: أنه فى حين أن مارجريت شخصية ذات عقل رفيع وطموح سام وتطلع راق، فإنها كانت أيضا جارة فى غاية الإزعاج والقلق من جـراء تطرفها فى كبريائها. إنها تظن نفسها خلقا غير الخلق. وشخصية فوق الناس بلغت من الأهمية والفـــذاذة حدا يفرض على الدنيا أن تخر لها ساجدة، وإنها من ثم تمسـك بمصير الإنســانية وفق مشيئتها. إن سائقى الحافلات وصديقى الباهر ديربى الحائك فى غاية الطلاوة والحلاوة إذا ما قورنوا، بذلك النوع من الادعاء والتظاهر.

أمرسون هنا يلقى محاضراته - أو بالأحرى أجل محاضراته - لمدة أسبوعين، لكى يستأنفها عندما يفرغ الناس من عبثهم ولهوهم ويقبلون عليها بكل انتباههم وشغفهم. إننى أراه كثيرا. ولقد عبر لى أنه مشغوف جداً بأفكارى - فيما عدا أنه يراها أفكاراً تقدمية جداً. ولقد قرأ مسودة إحدى محاضراتى منذ أيام قليلة - وهى الآن تطبع - وقال عنها كلاماً لطيفاً ومخلصاً - وإن كان قد أردف ذلك بقوله: إننى (نسبيا) «جنتلمان حديث فى العصر السوريانى». ومرد ذلك إلى أنه لا يؤمن بالإنسان، أو على الأقل لا يؤمن بالتقدم. إنه لا يتصور إمكان «الإسراع بإنضاج الكعك» على نطاق واسع. بل هو فى الواقع من الأمر ينكر أن أى كعك يمكن أن يخبز ويسوى وينضج على أى نطاق أوسع أو أكبر من نطاق مشواة الأسرة. إنه مهتم جداً بمسألة الخلود، وينفخ فى مضخة جافة قائلاً إن كوسوث - بصفة عامة - لن يكسب شيئًا فى هذا الوطن من وراء حركته سوى العطف الشخصى الخاص. إننا لن نتحرك ونمضى قدما حتى يدهمنا الغزو من إنجلترا على قوى ظلام القارة. وعندئذ يتحتم علينا أن نعبئ كل سفننا. ولكن... معذرة ومغفرة لإقحامى أموراً سياسية على رجل فنان مولع بالتحف والطرف وزخارف الدنيا مثلك! صدقنى صديقى العزيز تويديوس العتيد. إننى مخلص لك دائماً... والسلام.

هـ.ج.

ثمة صورة أخرى لتلك السنة نفسها، ولبيت نيويورك فى شارع ١٤ رقم ٥٤ غرب، ترسمها ذاكرة طفل كان عمره وقتئذ ست سنوات، وهذه الصورة الحية جاءت فى رسالة لروبرتسون چيمس:

«يا لها من قافلة من الشخوص تخرج من الظلام كالأطياف». فهذا عمى وليام قادم من ألبانى، وهو يلقى بقميص نومه وقلنسوة رأسه وفرشه وبقية حاجياته من نافذة الحافلة فى أثناء مرورها. وهى تنقل الراكبين من قطار ألبانى إلى أدنى برودواى، حيث سيعود منه متأخراً فى آخر اليوم، وهو يشير إلى الخادم المشدوه الواقف على عتبة دارنا قائلاً: إن تلك الأشياء التى ألقاها هى حاجاته، وإنه سيعود فى المساء. أما عبارة «أخبر هنرى ومارى» التى كان يصيح بها وهو راكب فى الحافلة، فكانت تتوه فى ضجيج وعجيج صوت العجلات وهى تطوى الأرض فوق أحجار الطريق. وألا أنسى تشارلز دانا فى أمسيات السبت على مائدة العشاء، وجورج ريبلى، والمستر بايارد تايلور وهو يتحدث عن قسوة الشتاء فى الشمال، وأنفه الذى يتجمد من شدة البرودة، ثم زوج بنت المستر بريانت الذى نسيت اسمه، ولكنى لم أنس ألطف وجه وأنسه فى أمريكا كلها، الذى كان يتميز به. وعمى إدوارد. وجون، وعمى جاس[11]. وأذكر آل ماك برايدس. وآل فان زاندت. والجدة چيمس فى ثوبها الحريرى، وأقراص نعناعها، وقفازها المزركش بالدانتيلا، وابتسامتها الحلوة الكريمة. ثم آل السنترز والكوسترز والأيرنسايدز. ثم هناك أيضا أمى التى كانت تقطع الشارع السادس كل صباح لتذهب إلى سوق واشنطن حاملة السلة على ذراعها. أما هذه فأنا متأكد منها، لأنى كنت ألحق بها وعمرى ست سنوات، متعلقًا بأذيال شالها. وفيما بعد كان آل الفاندربول والفاندربرج ممن يأمون دارنا. ثم بعد ذلك مدرسة الرقص. ولا ريب أن وليام سيتذكر اسم صاحب هذه المدرسة، الجنرال فيرانو، الذى برز اسمه فيما بعد باعتباره جنديًا باسلاً فى الحرب. وفى وسعى أن أمضى إلى ما لا نهاية فى سرد هذه الذكريات. وبعضها ما زال واضحا جدًا فى مخيلتى، مثل منظر الجنرال كوسوث وهو يختال فى أحد مواكب الشرف والترحيب على طول شارع برودواى[12].

وثمة رحلة أخرى إلى أوربا – دبرت لعدد مختلف من الأسباب الشخصية والعائلية، بما فى ذلك تربية الأطفال. ولقد تمت تلك الرحلة فى غضون سنة ١٨٥٥. وعلى الرغم من أواصر الصداقة الوثيقة التى انعقدت بين چيمس وأمرسون لسنوات طويلة، فإن چيمس لم يزر أمرسون فى كونكورد أبدًا أو يتعرف إلى أسرته. ولقد قدر لهذه المناسبة السعيدة أن تتأجل حتى عودة چيمس من مقامه بالخارج بعد بضع سنوات. والقصة الكاملة لهذه الأوديسة التربوية المهمة ليس مكانها فى هذا السياق،

---

(11) William Cullen Bryant's son-in-law was Parke Godwin. William, Edward, John, and Augustus were brothers of H.J.I.

(12) To A.H.J., February 24, 1898; for another extract from this letter, cf. below 51.

وإنما سيجدها القارئ فى جزء آخر فى هذا السجل. بيد أن الرسالة التالية تزودنا بلمحات بسيطة عنها بالإضافة إلى مزيد عن كارليل.

ولقد سبق لچيمس أن قابل كارليل فى سنة ١٨٤٣، ثم جدد معرفته به عندئذ. وفى أثناء كلتا الفترتين من إقامته فى إنجلترا يبدو أنه كان كثير الزيارة لبيت كارليل، حيث لقى كل ترحيب وإكرام وفادة. وبمناسبة إبحار چيمس من أمريكا كتب له أمرسون رسالة توديع، رد عليها چيمس بالكتاب التالى:

لندن (١٨٥٦)

عزيزى أمرسون

أعتقد أنك لو لم تنعم على بكل هذا السخاء الفياض والكرم النبيل فى رسالتك التوديعية، لكنت قد استحضرت نفسى فى خلدك ست مرات على الأقل. ولكنك سباق إلى الفضل، فقد برهن كتابك على أنك أسرع عاطفة، ومن ثم غمرتنا جميعا بشعور من الحلاوة والعذوبة التى خلفناها وراءنا، تلك العذوبة التى تستقطر من الأعماق المقدسة للفؤاد الإنسانى. ولقد جنبتنا مغبة التهور فى الاندفاع عائدين من حيث أتينا، فلقد شعرت بحنين جارف إلى الوطن، بعث فى نفس إحساسًا حقيقيًا بالكآبة كلما فكرت فيه. صحيح أن كل حاجاتى تلبى هنا، فيما عدا حاجة واحدة تعرفها أنت وتملكها، إنها حاجة تبنثق - فيما أتعشم - من رجولتى الأمريكية، وتتطلب من أتراب المرء وخلانه ضربا من الروح المفتوحة التى تتجاوب مع روح المرء. ويقينا أنت من أصحاب هذه الروح - الروح الملأى بالأبواب والنوافذ - روح جيدة التهوية والمنافذ مفتوحة لتلقى كل نسمة تهب دون أى كهوف مظلمة تعشش فيها بهارج سلفية أو سياسية أو كهنوتية. ولكم تمنيت حقا - أن أجد هذه الأبواب والنوافذ الكريمة - أحيانا - أكثر احتفاظًا وإبقاء على ما يدخل منها، أو أكثر غيرة على ما يخرج منها بتلك السرعة الجبارة. ولكم تمنيت حقا أن تهيئ تلك الغرف الجليلة السنية من كرم الضيافة مرقداً فسيحا يلوذ به الضيف المتعب من عناء السفر، حيث يستطيع أن يسكن وينام حتى موعد وجبة الفطور التالية. ولكن لعلى رجل شهاء نزيز - وإنى لكذلك بلا ريب طالما أنك مضيف لا نظير له -- مرفأ رطب مكسو بأوراق الكرم الخضراء المتسلقة، ومحاط بالأروقة والرحبات الباردة الهواء، الملائمة لضيافة وتسلية الضيف الديمقراطى، وهو يمضى فى طريقه من الماضى الآبق البالى إلى إيماءة المستقبل المشرق المزهر.

وهذا هو ما يفتقر إليه الرجال هنا - كل الذين أعرفهم على الأقل - فكلهم يعانون من الكآبة والضيق والمرارة والحسرة من جراء المضايقات الاجتماعية التى تحدق بهم، وكلهم مصابون بحالة زيغ أو انحراف أو تشويه لذاتيتهم، أو مجردون على نحو ما من رجولتهم الشخصية المثمرة، بسبب حتمية تقدمهم اللازم لذينك الميراثين الآبقين المعتوهين: الكنيسة والدولة. أما كارليل فما زال كعهدك به،

كالسجق العتيق الذى يئز أزا ويفور ويمور، مطشطشا بنشيشه المقلى فى شحمه، ولم يجدْ عليه جديد سوى أنه أصبح على غير وفاق، نهائيًا مع العناية الآلهية المباركة التى تدبر شئون الخلق. على أنه يذكر اسم الله مرارًا وتكرارًا، ويشير إلى الملكوت الأعلى، والملأ الأعلى، وأعلى الآفاق، كما لو كانت حقائق واقعة - وإن كان فيما يبدو أنه لا يعقل ذلك إلا من قبيل التأثير الوصفى الخلاب - فهو يعتبرها ضربا مألوفا من ضروب المخاتلة والخداع التى يستخف بها الساسة. ولقد اصطحبت صديقنا ماك كاى[١٣] لزيارته، وخرج من عنده مكروبا ومغموما وخائب الرجا - فقد بذل كارليل قصارى جهده لكى ينكر ويجحد ويسخر ويندد بفكرة كونه قد أدى أى خير لأى إنسان، ثم أعلن أقصى ما عنده من ازدراء لكل من يظن أنه فعل ذلك، الأمر الذى تضمن ماك كاى، حيث إن كارليل تعمد التوكيد المطلق لهذه الحقيقة بالقياس إلى حالة ماك كاى نفسه. إنه ليخطر ببالى أن الطبيعة الأسكوتلاندية لا تستجيب بسهولة للثقافة التقليدية العرفية فى أسمى مراتبها. ولعل كارليل كان يصبح أكثر ترفيقًا فى النواحى الشخصية لو أنه ظل واعظًا كاميرونيًا. وإذا كان اضطهاد الحكومة قد خلف فضلا من الهبات أو بقية من العطايا لهذه المهنة، بدلاً من أن يهبط إلى دوائر لندن، حيث ينعم بأطايبها ويغترف من نعمها.

وداعًا يا عزيزى كارليل، وثق أننى أكن لك حبى وإخلاصى الأبديين.

هـ. چيمس

وبعد موت كارليل فى سنة ١٨٨١، نشر چيمس «مذكراته الشخصية»[١٤]، متضمنة تفاصيل أحاديث كارليل التى سجلها فى تلك الأيام المبكرة. وعلى الرغم من أنه فى تلك المقالة الأخيرة شهد بأنه يكن كل «تبجيل ودود» لذاكرة كارليل[١٥]، فإن الرسائل التى

---

(13) There is an account of this intervicw in James's published recollections of Carlyle, L.R.H.J., 446 ff. The friend is Col. Jamse Morrison Mckay (Later changed to Mackaye) 1805-88, artist, abolitionist, and man of affairs, who moved foom Buffalo to Newport about 1850. When James came to reside in Newport thetwomen becameclose friends, and James later rented Mckay'shouse for two years (1860-61). William and Henry were schoolmates and playfellows of Mckay's son, James Steele Mckaye, the famous dramatst actor, and theatrical manager, father of Percy Mackaye, the poet, and James Mackaye, the economist. (Cf. Percy Mackaye, Epoch, the Life of Steele Mackaye, 1927, I).

(14) Atlantie, XLVII (1881), 593, reprinted in L.R.H.J.

(15) L.R.H.J., 422.

تلت ذلك، تبرهن على أن حماسة الأول لكارليل باعتبـاره كاتبًا قد أصابه الفتور شيئًا ما بكارليل بلحمه ودمه، وإن إعجابه به كان مشوبا ليس فقط بالخلاف والانشقاق، ولكن أيضا بشيء من النفور الشخصى.

ولقد اتصف الرجلان بخصيصة التشهير والفضح، وتميز كلاهما بأسلوب عارم فى الحديث والكتابة، بيد أن چيمس كان فى جوهره متفائلاً وسهل الهضم، فى حين أن كارليل كان متشائمًا وعسر الهضم. وكان كارليل يحتقر الناس، وإذا ما أحبهم فإنه كان يفعل ذلك من قبيل الشفقة على ما فيهم من ضعف وعجز. أما «حياته الفكرية» فقد كتب چيمس إنها:

«كانت تتألف – فى معظمها – من النواح على رذائل جنسه، أو أنه كان يستلهم وحيه من الضياع واليأس بحيث إنه لم يكن فى وسعه إلا أن يشعر بالازدراء والاحتقار نحو أى إنسان بمجرد أن يجده على وفاق مع مجرى التاريخ. لقد كانت الشفقة أو الرثاء أو الحسرة هى أسمى أسلوب من الحديث يسمح به لنفسه مع بنى جنسه. لقد أشفق وتحسر على كل أصدقائه بنفس الدرجة التى أحبهم بها – كانت شفقته عليهم هى مقياس حبه لهم. لقد كان دائمًا يقول: «المسكين چون سترلنج – المسكين چون ميل – المسكين فردريك موريس – المسكين نيوبيرج – المسكين أرثر هلبس – المسكين الصغير براوننج – المسكين الصغير لويس»... وهلم جرا. كما لو كان معبد صداقته مستشفى، وكل نزلائه مصابين بداء الخنازير أو مقعدين بداء الشلل»(١٦).

أما چيمس، فعلى نقيض كارليل، لم يكن ينسى أبدًا الإنسان فى الناس، وكان حبه ينضح بشذا الاحترام – إن لم يكن بالتبجيل والتقديس، كان خير مثال للأمريكى الطيب – خصوصًا إبان إقامته فى إنجلترا – على حين أن كارليل لم يكن يتردد فى التعبير عن رأيه المزدرى للأمريكيين، جماعيًا وفرديًا. وعلاوة على ذلك فإن كارليل كان يكيل الذم والإهانة والاستخفاف للمصلحين بصفة عامة ولفورير بصفة خاصة. وهنا كانت رأس وجبهة ذنبه وإساءته، الافتقار إلى ذلك الإيمان والحماسة والحمية التى

(16) L.R.H.J., 424.

تحرك المصلحين – والتى كان الأمريكيون بطبيعتهم – مهيئين لها بالاستعداد والميل. وفى هذا الصدد يقول چيمس:

«لم يكن هناك شىء يصيبه بالخبل والجنون أكثر من أن يظن خطأ أنه مصلح مصمم حقًا، وعمدًا على إقامة شريعة الله من العدل والقسط والبر فى الأرض، والتى هى مقاصد العدل الإنسانى فى شموله وعموميته. وهذا ما جعله يكره الأمريكيين، ويسمينا أمة من الثقلاء والحمقى، لأننا حملنا كلامه على محمل الجد، وحسبناه فى عداد أصحاب النيّات الخيرة المخلصة حيال بنى جنسه. لقد كرهنا لأن ثمة غريزة باطنة أنبأته أن إيماننا المفرط به لن يكون له ما يسوغه أبدًا إذا ما نفذنا إلى لبه وعرفناه عن كثب. إذ لا يحب المرء رجلاً يحمله بالإكراه على احترامه والاعتراف به بطريقة مبتسرة سابقة لأوانها»[١٧].

بدأ نادى السبت – الذى زكّى أمرسون صديقه چيمس لعضويته الرسمية – اجتماعاته المنتظمة فى شتاء عامى ١٨٥٥، ١٨٥٦. وكان قوام هذا النادى جماعة من الأرواح المتآلفة المتجانسة الذين يتناولون الغداء معًا – من أطيب الطعام وأجوده – فى فندق باركر فى بوسطن، حيث يجتمع شملهم فى الساعة الثالثة بعد ظهر آخر سبت من كل شهر. وكان الأعضاء المؤسسون هم لويس أجاسيز، وتشارد هـ. دانا، چون س. دوايت، أمرسون، القاضى أبنزر ر. هور الكونكوردى، لوويل، موتلى، بنچامين بيرس أستاذ الرياضة الشهير بجامعة هارفارد، ساموبل ج. وارد صاحب البنوك وراعى الفن والآداب، إدوين ب. هويبل، المحاضر وكاتب المقالات، وهوراتيو وودمان أكثر أعضاء النادى نشاطًا ودعاية وتنظيمًا له. ومن بين غيرهم ممن انضموا إلى النادى فى باكورة إنشائه الأديب لونجفلو، الدكتور هولمز، و.هـ. برسكوت، هويتيار، هوثورن، چون م. فوربز التاجر ومنشئ السكك الحديدية، تشارلز إليوت نورتون، وصاحب النيافة القسيس فريدريك هـ. هيدچ، من أتباع مذهب التوحيد، والذى كان يشرف على عدد من الكنائس فى بانجور، وبروفيدنس وبروكلين، والذى اشتهر بمعرفته بالأدب والفلسفة الألمانية، والذى شغل منصب أستاذ التاريخ اللاهوتى، ثم أستاذ الألمانية فيما بعد فى جامعة هارفارد.

---

(17) Ibid., 451.

وكان من ضمن السابقين فى عضوية النادى أيضا تشارلز سومنر، چون أ. أندرو حاكم مساشوستس الشهير إبان الحرب، چيمس ت. فيلدز الناشر والصديق لمشاهير المؤلفين، جيفريز وايمان. أستاذ التشريح بجامعة هارفارد، أ.و. جيرنى أستاذ التاريخ وعميد إحدى كليات هارفارد، وليام موريس هانت، الرسام الذى كان من جيران چيمس فى نيوبورت، وتشارلز فرانسيس آدمز. وعلى الرغم من أن چيمس كان قد عاد من أوربا نهائيًا فى خريف سنة ١٨٦٠، فإنه لم ينتخب لعضوية النادى حتى سنة ١٨٦٣، عندما كان على وشك نقل مقره من نيوبورت إلى بوسطن(١٨). على أنه فى غصون تلك الفترة كان يداوم على حضور الاجتماعات باعتباره ضيف مدعوًا. وفى إحدى تلك المناسبات - فى اليوم السادس والعشرين من يناير سنة ١٨٦١، كان زميلا فى الضيافة مع وليام إيلرى تشاننج الشاعر الكونكوردى. والرسالة التالية تسرد انطباعاته فى تلك المناسبة، وقد كتبت بأحذق وأرهف ما لديه من أسلوب طلى مسرف. أما شخصياتها فچيمسية بكل دقة. وعلى سبيل الحصر، أنه لم يتردد أبدًا فى فضح أقرب أصدقائه إليه، أو فى الانسياق وراء نزعته التصويرية الخالية إلى ذروتها، على حساب كل اعتبارات التناسب والإحساس بالتعادل النسبى. وحقيقة الأمر طبعًا أنه لم يقصد ذلك أبدًا عامدًا، وأنه كان يتوقع أن يكون ذلك مفهومًا. لقد كانت هناك رقة صامتة تشع فى وجهه، أو أنه كان على نحو ما ودودا ومحبًا وصفيًا فى سخافة قدحه ذاتها، الأمر الذى يجعلها تقوم بدور المقاصة والعوض فى المعنى الأدبى لكلماته.

بوسطن مساء الأحد (١٨٦١)

عزيزى أمرسون

سأذهب إلى كونكورد فى الصباح، ولكن لن يكون لدىَّ أى متسع من الوقت لرؤيتك، إذا كنت سأنجز كل ما أنتوى فعله. ولكنى لا أستطيع أن أمسك عن ذكر كلمة أريد أن أقولها عن هوثورن وإيلرى تشاننج: فهوثورن ليس رجلاً وسيمًا مليحًا، ولا هو بالرجل الجاذب للقلوب بأية حال شخصيًا.

---

(18) James moved to Boston in the spring of 1864, and from that time on he was a frequent attendant. He liked Dr. Holmes above all his fellow members save Emerson.

لقد كان منظره طوال الوقت - لمن لا يعرفه - كمنظر محتال وجه نفسه فجأة محوطا بالمخبرين السريين، ولكن على الرغم من بداوته شعرت حياله بنوع من الانعطاف الذى بلغ حد الغم، ولم أستطع أن أحوِّل عينى عنه طوال فترة الأكل، أو أصرف عنه انتباهى المدله الذاهل فيه! كما أخشى أن يكون ذلك المتردد الحائر القصير، الدكتور هيدج، قد لاحظ ذلك ووجد أنه على حسابه، لأننى لم أكد أسمع واحدة مما ظل يقوله لى ويصك سمعى به، لدرجة أننى شعرت فى إحدى اللحظات بدافع يحفزنى إلى أن ألقى به بعيداً وأقذفه إلى المستر باركز لكى يتولى إزاحته من الغرفة، على اعتبار أنه عقبة وضعت شخصها التافهة المتكلف بتعمد وخبث بينى وبين موضوع نفيس نافع للدرس. على أننى قد نزعت ما فى صدرى من غل الآن نحو هيدج، ولم أعد أحمل له أية ضغينة، وفى وسعى أن أوصى أى فرد (فيما عدا نفسى) بأن يذهب إليه ويستمع إلى مواعظه. أما هوثورن فقد بدا حائزا لكل الجوهر الإنسانى، وأنه لم يبدده كله شذر مذر، كما فعل ذلك الفاسق تشارلز نورتون، وذلك الصالح الطيب السليم الطوية المواسى لونجفلو. إنه يبدو أقرب جداً إلى الكائن الإنسانى من كل من كانوا يجلسون على ذلك الطرف الآخر من المائدة. ووجود چون فوربس ووجودك فى الطرف المقابل من المائدة أحدث شيئًا من التوازن، ولكن هذا الطرف كان صحراء جرداء، لم تكن فيها واحة سواه. لقد كان مما يثير الشجون أن تراه قانعًا مكتفيًا منسدحًا كالقوة الكونكوردية - هكذا كان وهكذا كان دائمًا - وقد أحضرتَ معصوبة العينين إلى ضوء النهار الوهاج، ثم يتوقع منه أن يغمز ويلمز، وأن يفور ويمور بالحيوية تمامًا مثل أى لبيب أريب من أمثال تومى تيتماوس أوجينى رين. لقد انكب على طعامه ودفن سكينه فى طبقه، وأكل بنهم وشراهة حتى لا يتيح لأى شخص أن يجرؤ على توجيه سؤاله.

لقد انفطر قلبى عندما ظل ذلك المائع تشارلز نورتون يطارده بملمس طرفه الطويل، ويشرعه فى وجهه محاولاً أن يعرف إذا ما كان مغمض العينين. أن الفكرة التى انتهيت إليها - وهى فكرة ألحت علىَّ بقوة شديدة - هى أننا جميعًا فاسقون فاسدون على قدر فظيع مريع، وأننا مجردون إلى حد اليأس من أى إحساس أو وعى إنسانى، وأن فى نية العناية الإلهية أن تغشينا وأن تطمس معالمنا وتمحونا محوا بطوفان جديد، ستكون فيه كونكورد هى أولى ما يبيد، فتصبح حصيداً كأن لم تغن بالأمس. لقد كان أمراً علويًا مجيداً أن تراه مصراً ومثابراً على تجاهل تشارلز نورتون، وقد أغلق عينيه ضد ابتسامته الشبحية، وقد انصرف إلى طعامه يزدرده غير حافل بأى شىء آخر، ثم يمضى إلى مأواه فى كونكورد، ويركع على ركبتيه سائلاً أباه الذى فى السموات: لماذا لا تبقى القوقه قوته ولا تقسر قسراً على الدخول فى ملكوت الكناريا؟ وأحسب أن كل الملائكة الأبرار استجابت لدعائه فى تلك الليلة، ولبت نداءه وحفت به، وسكبت على جراحه البلسم الشافى، الذى يبرئ الآلام ويأسو الجراح، والذى هو خير وأفضل من كل ما عرف السادة الكرام.

أما وليام إيلرى تشاننج، فقد بدا أيضا طيبًا وإنسانيًا، عذبا وحلوا كالصيف، وذكى الرائحة كشذى غابات الصنوبر. وهو أكثر سفسطة من الآخر طبعًا، ولكنه مع ذلك كان من الأقارب. ولقد شعرت بأن العالم أطيب وأكثر خصوبة برجلين لم يفقدا ذاتيتهما فى قطيع المجتمع. إن هذا هو ما يساورنى.

إننا نمضى سراعا إلى الإحساس بالخوف المتبادل بيننا، نحن «أعضاء المجتمع»، بحيث إنه لن يمضى وقت طويل قبل أن يقتل بعضنا بعضا دفاعا عن النفس، وبهذه الطريقة تتبدل الأمور فى نهاية المطاف إلى حالة أكثر صدقا وحقيقة. أن العالم القديم تساقط كسفا على رءوس الجميع، والكل يشارك فى تحطيمه. إن ومضة الصوان الخالد التى لمحتها فى هوثورن ووليام إيلرى تومئ إلى أن هناك رصيداًكافياً مدخراً لخمسين أفضل. فليذهب الدجل القديم إلى غير رجعة، بقضه وقضيضه، وبجعبته وعفشه. فثمة عالم جديد حقيقى جوهرى فى دور المخاض، وعما قريب ينبثق إلى الوجود، ولن يرقى فى هذا العالم فظ ولا أحمق إلى مرتبة الكرامة والسؤدد، ولن تلوث فيه البراءة والطهر أو تصبح موضع أخذ وعطاء، وستكون فيه حرية كل إنسان موضع احترام إلى آخر خويط فيها باعتبارها محراب الله المقدس النورانى. إن سويدنبورج يقول: إن الموت عند الملائكة يعنى بعثاً جديداً للحياة، بمقتضى تلك القاعدة المعكوسة الضرورية التى تفصل بيننا وبينهم وتفصل بينهم وبيننا، ومن ثم تحول بين الفريقين وبين تبادل المضايقات والإزعاج.

وعلى هذا فلنقبل الخراب السياسى وبقية ضروب الدمار والانهيار كما يطيب لها أن تحدث، لأن ما يبدو فوضى وحنقا وسخطا ومنازعة على السطح، هو لا ريب يمثل أعمق الهدوء والسلام والسكينة فى المركز، ملتمسا طريقه من ثم إلى سطح لن يكون أبداً مختل النظام».

المخلص هـ.ج

حاشية

يا لها من دنيا! وما أعجبه من عالم! ولكن بمجرد أن نتخلص من الرق فستسبح السماوات الجديدة والأرض الجديدة إلى الحقيقة سبحة(١٩).

وبعد بضعة شهور علق أمرسون على هذه الرسالة على النحو التالى:

«ولم يسبق لى أن كتبت لك شاكراً - ولو كلمة واحدة - على تلك الرسالة المحدودة بشأن النادى. إنها تنضح بأسمى وأنبل معانى الصدق فى أضوائه الفسيحة،

(19) This letter has been printed with omissions in Sanborn and Harris, A. Bronson Alcott, 1863, 465-8; E.W. Emerson, the Early yearls of Saturday Club, Houghton Mifflin Co. 1918, 331-2; and E.D. Hanscom, The Friendly Craft, 1908, 152-4; A passage in H.J.2's Hawthorne (1880,78) is reminiscent of part of this letter of his father's: "He (Hawthorne) must have been sttuck with the glare of her understanding (Margaret Fuller's), and mentally speaking, have scowled and blinked a good deal in conversation with her".

بحيث لا يسع المرء إلا أن يتغاضى عن الظلال المتمردة الجموح التى آثرت أن تلقيها على بعض أصنامنا الغريبة، ولكننى أصريت على قراءة الرسالة كلها على مسامع إيلرى تشاننج الذى حاول دون جدوى أن ينكر غبطته. أناشدك أن تستمر فى إشعاع نورك، على الرغم من جحودى. فإذا تفضلت مشكوراً بأن تبعث إلىّ برسالة من حين لآخر، فأكبر الظن أن عصيانى وعدم امتثالى، أو شيخوختى، لن تستطيع أن تقاوم أعداءك طويلاً. إن قلبى سيذوب وينساب وفق مشيئتك»[٢٠].

ومضت العلاقات بين چيمس وأمرسون تتوثق أواصرها، ثم امتدت لتشمل أسرتيهما، على إثر عودة چيمس من أوروبا فى سنة ١٨٦٠، عندما التحق أصغر أبناء چيمس ويلكنسون وروبرتسون بمدرسة فرانك سانبورن فى كونكورد. ثمة رسالة من چيمس إلى المسز وليام أ. تاپان تصف هذه الحادثة المهمة، وفى نفس الوقت تتضمن صورة رائعة لأمرسون فى بيته:

«ركضنا – مارى[٢١] وأنا – يوم الأربعاء الماضى حاملين ويلكى وبوب لكى نسلمهما إلى سانبورن الشهير ثم يممنا شطر أمرسون وخوّضنا إلى ركبنا فى محصول من التفاح والكمثرى، تعبت فروع شجره من ثقل حمله ونضجه المترف فأسقطته، لكى تتلقفه أحضان الحشيش الأخضر حانية ومرحبة. ومضينا نخوض فى هذه الثمار حتى لاح لنا إله الرعاة (Pan) هاشا باشا فى وسط بيته، هفهافا خفيف الروح، يشع كرما وظرفا، يدق طبول الترحيب فى ابتهاج وسرور. إن الزمن لم يترك بصمة واحدة من بصماته على الرونق الباهى الذى عهدناه فى وجهه دائمًا، وما زالت أنفاس الصباح الذرية تحف به كهالة لا تخطئها العين، وعبير الغابات العتيقة يفوح منه بطيب شذاه، على أننى مازلت أصر على أنه إله رعاة متطوع باختياره، وأنها حالة مجرد عناد وصلابة رأى وتمرد وثورة من جانبه بمثابة عارض اتفاقى مرتبط بقدرة طاحنة على الهضم السليم، وتدفق شاذ فى الخيال، وليس عندى أدنى ريب أنه – حتى هو – مع كر السنين سيقر آخر الأمر بأن الطبيعة تابع ورافد وليست كائنا أسمى. ومن ثم، وعلى أمواج تلك الموسيقى الودود سبحنا إلى حرم التربية المقدس، ووهبنا ولدينا الطيبين العزيزين المبشرين بالخير والنجابة، ووضعناهما أمانة فى يد معلم المدرسة. وخلاصة القصة: أننا تركناهما ثم عدنا أدراجنا إلى المنزل، يراودنا إحساس بأننا سلبنا ريشنا،

---

(20) March 29, 1861.

(21) Mary Walsh James, beloved wife of H.J.1.

ويغمرنا شعور بالمرارة والحسرة والكآبة، وكل ما نبتغيه هو ألا يموتان من البرد فى أى من تلك الأيام القارسة البرد، قبل أن يدركهما الحنان الأبوى لكى يدفئهما ويعيد إليهما الحياة، أو ينعشهما ويهيئ لهما من أمرهما رشاد[٢٢].

ولقد تتبع آل أمرسون باكورة نمو وليام وهنرى چيمس الصغير ومغامراتهما فى أوربا باهتمام أبوى. وكان والدهما الفخور أحيانا يحمل رسائل ولديه إلى كونكورد ويقرؤها على الملأ. والكتاب التالى المرسل إلى وليام من والده يكشف عن اهتمام أمرسون بانطباعات وليام عن هرمان جريم، وهو يتضمن أيضا سجية أخرى اتصف بها أمرسون، وهى خصيصة لا يستطيع أن يذكرها چيمس دون أن يرسم ملامح صورته:

كمبريدج ١٨ مارس (١٨٦٨)

«عزيزى ويلى

كل شىء يمضى من أسبوع لأسبوع - كعهدك به - دون هزات أو مفاجآت سارة تستحق أن تزف أنباؤها إليك، الأمر الذى يجعل رسائلى مجرد بلاغ حب. إننا جميعا هنا نبعث إليك بغامر حبنا، وأصدقاؤك فى كل مكان يشيدون بمدحك وذكرك. وأمرسون يريد منى أن أحمل إليه كل رسائلك التى تمس آل جريم، لكى تقرأ هناك فى اجتماع خاص، ومن ثم فأنا أذهب إلى ذلك الاجتماع يوم السبت التالى لذلك الغرض. وتصادف أننى كنت أقرأ إحدى رسائلك الأولى التى بعثت بها من درسدن، والتى تناولت فيها نساء ألمانيا واللغة والألمانية... إلخ. وكادت إلين أمرسون تصاب بنوبة وأنا أتلوها، وأنى لآمل أن تنجو من كارثة يوم السبت. إن عدم واقعية أمرسون حيالى تزداد أكثر وأكثر على نحو موصول، وعلى المرء أن يتعامل معه كما يتعامل مع طفل، فيغفر له متغاضيا بكل وسيلة عن جهله بكل ما يتجاوز الحواس، الأمر الذى يرهقك من أمرك عسراً، ويقتضى منك كبحًا شديداً لعقلك فيه من العنت والتعب ما يكاد يزهق الأنفاس. ولا يسعنى إلا أن أقول: إنه يتعمد الحزلقة! فليس عنده أى انعطاف نحو الطبيعة! وما هو إلا نوع من الجاسوس البوليسى عليها، الذى يطاردها فى مخابئها ومكامنها، ويحصى عليها أدق حركاتها وسكناتها. ويسجل أدهى ملامحها بقصد فضحها وإذاعتها على الملأ ليس إلا. صحيح أنه بصاص ومخبر حاد من طراز نادر، ولكنه بصاص ومخبر فحسب - لا أكثر ولا أقل. وهو لا يترك هذه الوظيفة أبداً ولو لبرهة، بحيث ينسى نفسه وينغمس فى الوهم الجميل،

---

(22) These extracts are taken from the letter as published in N.S.B., 221 ff.

ولكنه دائماً فى حالة من يتأكد أنه يبدو كصائد السمك الذى يزهو بالسمكة التى اصطادها وقد علقت بالشص. وفحوى ذلك كله، أنه لا يربى أى حب للطبيعة فى ذريته الفكرية، وإنما بدلا من ذلك يربى فيهم حب تقليده وترديد أقوال على غرار أقواله الذكية الحادة عن الطبيعة والإنسان. ما أشد حبى له، إنه طبيعى بالفطرة، ولكن كتبه مجردة تماماً من النكهة الروحية، حيث إنها فى معظمها غاز حامض الكربون وماء!. لك خالص حب وإعزاز.

والدك

وليس ثمة سجل يثبت وجود مراسلات أخرى بعد سنة ١٨٧٢. كان أمرسون مقصراً. ولقد أعطى كل رجل منهما - بلا ريب - الرجل الآخر كل ما كان الآخر مستعداً لتلقيه. وكان كل منهما بالنسبة للآخر واحداً من تلك «العقول المتحيزة» التى وجد أمرسون أن أصدقاءه يملكونها بدلاً من ذلك التناسق الذى بحث عنه فى أول الأمر[٢٣].

ولقد مات كلا الرجلين فى نفس العام - سنة ١٨٨٢ - ولكن قبل أن توافيهما المنية، كانت الصلة الوثيقة التى تربطهما قد ازدادت فتوراً على مر الأيام، والعلاقة تباعدت رويداً رويداً - فى الذكرى والوداد.

(23) In his journal for October, 1862, he says this of Thoreau, Charles Newcomb, Alcott, and Henry James. Cf. Bliss Perry, Heart of Emerson's Journals, 1926, 289.

(٣)

السجايا الشخصية لـ«چيمس الكبير»

فى خريف سنة ١٨٦٦، انتقلت أسرة چيمس من بوسطن إلى كامبردج، حيث استقر بها المقام فى مسكنها بشارع كوينسى رقم ٢٠، فى الشارع المواجه لكلية هارفارد[١]. وفى هذا المسكن عاشت الأسرة خمسة عشر عامًا سويًا. ولقد ظل چيمس وثيق الصلة بدائرة أصدقائه فى نيو أنجلند، وداوم حضور اجتماعات نادى السبت. وهكذا نجد تشارلز إليوت نورتون يكتب لكارليل فى سنة ١٨٧٦، بعد عودته من أحد اجتماعات نادى السبت مباشرة، منوهًا بوجود «صديقك القديم هنرى چيمس بحماسه السويدنبورجى وغرابة أطواره». إن ثمة شيئًا معينًا يحرك الشجن فى هذا الوصف. فعندما كتبت هذه الكلمات[٢]، كان چيمس يعمل وهو فى سن الخامسة والستين بنشاط لا يكل ولا يفتر وبعقيدة راسخة. أما كتابه «المجتمع - الشكل المفدى للإنسان»، وهو أحد كتبه الرئيسية الذى كتبه بأقوى وأعنف أسلوب، فقد أكمله بعد ثلاث سنوات على الرغم من إصابته بالفالج التى كانت نذيرا ببدء تدهور صحته. وعندما جاءه الموت فى ١٨٨٢، كان فى معمعة إعادة صياغة رسالته[٣] التى لم تكن أقل انتصارًا وتفوقًا مما سبقها.

---

(1) This house afterwards became the Colonial Club and has recently been torn down to make room for the new Faculty Club.

(2) Letters of C.E. Norton, ed, by Sara Norton and M.A. De Wolfe Howe, Houghton Mifflin Co., 1913, II, 60.

(3) Spiritual Creation, published posthumously in L.R.H.J.

ولكنه فى نظر العالم بصفة عامة، وفى نظر الكثير ممن قدر لهم أن يعرفوه جيداً، لم يكن إلا «متحمساً وغريب الأطوار».

ولقد قضى أ. ل. جودكين السنوات من ١٨٧٥ إلى ١٨٨١، فى كامبردج، حيث كان زائرًا كثير التردد، نظرًا لارتباطه الوثيق بنورتون ولوويل فى تأسيس وتحرير مجلة «الأمة». وقبيل مماته كتب مذكرات عن «كامبردج العتيدة»، تكشف مرة أخرى عن الانطباع الذى خلفه چيمس من أنه كان - بلا مراء - «شخصية» ذلك فلسفة مفرطة فى الإبهام:

«هنرى چيمس الكبير كان شخصًا لطيفًا فى غرابة أطواره، ومازحا من الطراز الأول. وعندما يكون فى حالة سخرية لاذعة كان يزعم أن عربة كامبردج المزدحمة التى يجرها الحصان - بالنسبة للرجل ذى العقل الصحيح «كانت أقرب وسائل الوصول إلى السماء - على الأرض». أما ماذا كانت طبيعة فلسفته على وجه التحديد، فهذا أمر لم أفهمه أبدًا، ولكنه كان يعلن أنه سويدنبورجى، وكان يتراسل بصفة مستمرة مع عدد من الباحثين المهتمين المشغولى البال فى طول البلاد وعرضها، وكانت رسائله تفيض بالوقائع الغريبة التى تبعث على الضحك. وقد عنَّ لى أن أسأله ذات يوم عن إحدى تلك الرسائل فأجاب على الفور: «أوه... شيطانة فى ثوب امرأة!» - الأمر الذى باغتنى بالدهشة العظيمة، لأنى لم أكن ملما تمامًا بأسلوبه ورسائله. ومن أكثر خبراته فكاهة هو، أن السويدنبورجيين الآخرين كانوا يتبرءون من أى ارتباط دينى معه، بحيث إن الشيعة التى كان ينتمى إليها، والتى كان هو على رأسها، يمكن القول بأنها كانت تتألف منه وحده. لقد كان كاتبا ذا قوة خارقة وبهاء وفرادة، وأعتقد أنه لم يكن فى زمانه من يفوقه براعة وروعة فى الأسلوب الإنجليزى.

أما ابنه، المؤلف، وقد كان آنئذ شابا فى التاسعة عشرة أو العشرين، فكان فى أول أطوار محاولاته للتحليق بجناحيه فى الأدب. ولم يكن هنا ما هو أحلى ولا أشهى ولا آنس من العشاء عند آل چيمس، عندما يكون كل شباب الأسرة حول المائدة. كانت جعبتهم زاخرة بأغرب القصص، وكانوا يتناقشون فى مسائل الأخلاق أو الذوق أو الأدب بقوة وفرادة صخابة صياحة، الأمر الذى كان يدفع الشبان الصغار أحيانًا إلى ترك مقاعدهم والإتيان بحركات إيمائية بأيديهم جيئة وذهابا على أرض الغرفة. وأذكر فى إحدى تلك المناقشات الحامية التى استمر أوارها، أن الأبناء كانوا يصبون لعناتهم الفكهة المليحة على رأس أبيهم، وأذكر منها على سبيل المثال «اللهم اجعل بطاطسه المهروسة مليئة بالكتل دائمًا»[٤].

(4) Life and Letters of Edwin Lawrence Godkin, 1907, edited by Rollo Ogden, The Macmillan Co., 1907, 11, 117-8.

وذلك أن چيمس - مثله كمثل سقراط - كان بهيًا وأنيسًا ونديمًا، ولكنه مثل سقراط أيضا كان صاحب رسالة للناس كافة، بل كان على خلاف سقراط مبشرًا دينيًا. ولم يكن فى مستطاعه أن يتمتع إلا بأيسر الإيمان بفاعلية رسالته أو بتقبل ما يبشر به، ولكنه لم يقنط أو يساوره الشك فى عقيدته، وإن كان مما لا يثير الدهشة أن تنتابه لحظات كان يشك فيها فى نفسه. ولقد كتبت زوجته فى السابع عشر من مارس سنة ١٨٧٤ إلى هنرى الصغير فى أوربا تقول:

«لقد رجع والدك مرتاحا مجبور القلب من (بسطة العناية الإلهية)، ولكنه كان واهن الهمة خائب الرجاء بعض الشىء، كما هو دائمًا بعد أن يلقى محاضرة. إن كل ما يريد أن يقوله يبدو عظيمًا ورائعًا وصالحًا وميسور الفهم له، ولكنه يقع ميتا على آذان الأغبياء والمرتابين، فلا عجب أن ينتابه هذا الشعور»!

وعندما رحلت أسرة چيمس إلى بوسطن كان وليام چيمس فى أول عهده بدخوله مدرسة هارفارد للطب. وعندما انتقلوا إلى هارفارد كان لا يزال منهمكا فى دراساته الطبية، وبعد سنة ١٨٧٣ كان معلمًا فى كلية هارفارد.

والرسالة التالية، التى كتبها والدهم إلى هنرى چيمس الصغير، تعطى صورة عن أحد أيام حياته الاجتماعية فى ذلك الوقت. وكان الأستاذ أفريم، والسيدة إلين هوبر جيرنى، من بين أقرب المقربين إليهم. وكان جيرنى فى ذلك الوقت أستاذًا للتاريخ وعميدًا للكلية والساعد الأيمن لمدير الجامعة إليوت، فى حين كان هنرى آدمز أستاذًا مساعدًا للتاريخ، وكان الاثنان طبعا فى هارفارد.

كمبريدج ١٧ من أكتوبر سنة ١٨٧٣

«عزيزى المحبوب هارى

ويلى فى طريقه إليك، واليوم هو السابع منذ أبحر من الوطن(٥)، ومن المرجح أنه سيصل عندك قبل وصول هذه الرسالة. وآمل أن يكون الجو قد ترفق بسفينته، لأن الجو عندنا منذ أبحر قاس. لذلك أتعشم أن تكون رحلته هادئة، على الأقل نسبيًا. إننا لم نشهد من قبل خريفا بلغ هواؤه هذه الدرجة من رقة الأنسام وزها ضوؤء إلى هذا الحد من العظمة، إذ يبدو أن مشيئة السماء قصدت

(5) For Further details of this voyage, cf. below, 138 ff.

أن تأخذ الأرض زخرفها، وتزيَّن بألوان جديدة من الجمال والبهاء والرونق كل يوم. إن منظر غروب الشمس بالأمس، بوهيجه الأخّاذ، ولونه القرمزى الذى يبهر الأبصار، كان كافيا لأن يحرك مشاعر الأنعام فتهتف صارخة «السبح لله». هللوليا.

لقد تناولت غدائى قبل ظهر اليوم مع مدير الجامعة، تشارلز إليوت، لكى يدبر لقاء على مائدة الغداء مع شخص يدعى المستر بروديريك[6]. أحد محررى صحيفة التايمز. أما بقية أعضاء المأدبة فكانوا: جودكين، وأجاسيز، وهنرى آدمز. والمستر بروديريك شخص عجيب جدا فى مظهره وحديثه، وهو يبلغ فى ذلك حداً يثير شفقتك ويجعلك تتمنى لو أن أمه وشقيقاته احتفظن به فى البيت. وأعتقد أنه وجّه نحو ثمانين سؤالا مختلفا فى مدى الساعتين اللتين قضاهما معنا. وكان أجاسيز فى عنفوان قوته، معدة وعقلاً على السواء، وهنرى آدمز كان كئيباً عابساً وصامتاً، وجودكين يبدو كعادته ولكن مهموم، فى غاية الكرب. وأما تشارلز إليوت نفسه فكان فى غاية اللطف والذوق والكرم. وفى المساء تناولت عشائى عند آل جيرنى مع المستر أجاسيز وحرمه، وهنرى آدمز، وكلوفر (هوبر)[7]، وجودكين. ولقد سأل هنرى آدمز وكلوفر وإلين (جيرنى) باهتمام بالغ عنك، وكلهم عبروا عن سرورهم وتقديرهم لنشاطك الأدبى. وكلا المضيفين وآل إجاسيز عبروا – على وجه الخصوص – عن خالص تقديرهم وإعزازهم لويلى. ولقد رجتنى السيدة أجاسيز أن أبعث إليه بكل محبتها، وأن أخبره أنها لو كانت عرفت أنه سيرحل بهذه السرعة لأتت بنفسها لتوديعه عند الرحيل. وفى أثناء الغداء قبل ظهر اليوم سأل المستر بروديريك المدير إليوت عن مذهب جرانت الدينى فأجاب: «طائفة النظاميين، على الأقل. بقدر ما فى وسعى أن أستنتج من ملاحظة أبداها لى بشأن ولده عندما حضر معه لإدخاله فى الكلية. حيث هو الآن منخرط فى سلكها. وقد سألته عندئذ عن المهنة التى يبغيها لمستقبل ابنه فقال: «أعتقد أنه سيكون قسيسا، لأنه ولد صالح تقى».

ولقد أثار ذلك ضحك الحاضرين، ولكنى أحببت ذلك، لأن هذا فى رأيى يدل على أن جرانت أكثر فذاذة وتفردا فى إدراكه لشئون الدنيا من الأساتذة والنقاد المحيطين بى.

وداعا يا ولدىّ الحبيبين. لقد سمعت عنكما أشياء كثيرة فى المدة الأخيرة بمناسبة رحيل ويلى، مما جعلنى فخوراً جداً.

والدكما المحب

(6) "Mr. Broderick" was Gecrge Charles Brodrick, Fellow and Warden to Merton College, Oxford, and leader writer on the Times (London) from 1860 to 1873, He was know

(7) "Clover" Hooper ws Marian Hooper, whom Henry Adams married in 1842.

ولقد شهدت فترة مقامهم بشارع كوينسى انهماك الوالدين المتزايد فى تدبير مستقبل أولادهما، وخصوصا مستقبل وليام وهنرى. ولقد كتب الوالد فى هذا الصدد يقول: «إنها لغبطة فوق كل غبطة أن يرى المرء أطفاله يفضون - كما فعل أطفالنا - كل ما يصبو إليه القلب فى الأطفال. وإن غبطتى قد بلغت الذروة لدرجة أننى أحيانا أتصور أن قلبى وقد امتلأ بها لابد له أن ينفجر لكى يخفف عن نفسه»[8].

عاش وليام مع والديه، (باستثناء الفترات المتقطعة التى قضاها فى أوربا)، فى أثناء شتاء (١٨٦٦-١٨٦٧) من خريف سنة ١٨٦٨ إلى خريف سنة ١٨٧٣، ومن أوائل سنة ١٨٧٤ حتى زواجه فى صيف سنة ١٨٧٨، حيث استمر يقطن فى كامبردج، ولكن فى مسكن مستقل. ومن ثم عاش هناك دون انقطاع حتى سنة ١٨٨٢.

أما هنرى الصغير، فقد عاش فى مسكن الأسرة بشارع كوينسى من سنة ١٨٦٦ إلى سنة ١٨٦٩، ومن ربيع سنة ١٨٧٠ حتى ربيع سنة ١٨٧٢، ومن خريف سنة ١٨٧٤ حتى خريف ١٨٧٦، وبعد ذلك استقر به المقام نهائيًا فى أوربا وظل هنالك باستمرار حتى سنة ١٨٨١، عندما عاد فى زيارة للوطن قبيل موت أمه. ولقد كانت تلك السنوات - سنوات مثيرة ومجهدة فى شق طريق الحياة وتلمس سبيلها. وباستثناء الفترات القصيرة نسبيًا، عندما يتصادف ألا يكون كلا الأخوين وليام وهنرى فى أوربا، كانت الرسائل تترى دائمًا من كامبردج، حاملة أنباء الأهل والوطن، ومفعمة بالاهتمام الحانى المتلهف المترقب بمغامرات المسافر البعيد. وسنقرأ بعض هذه الرسائل فيما بعد على صفحات هذا الكتاب، حيث إنها تشكل جزءًا من قصة مهنة وليام چيمس. وعلى الرغم من أن الوالد كان كثير النصح والإرشاد لولديه، وعلى الرغم من أن توجيهه وآراءه كانت موضع الاحترام والتقدير، فإن الاختيار النهائى لمهنتهما ترك أمر تقريره والبت فى أمره لهما. كان الأب يشارك فى اهتماماتهما بكل شغف وحرارة،

---

(8) 2, To H.J. August 9, 1872.

وكان يتراسل مع أصدقاء وليام من الفلاسفة، وأصدقاء هنرى من الأدباء فى أوربا. وأصبح زملاؤهما فى كامبردج وأصحابهما: تشونسى رايت، أوليفر ويندل هولمز (الصغير)، تشارلز بيرس، و.د. هوويلز، من أقرب الأصدقاء المقربين للأسرة والأهل.

وماتت الزوجة وأم الأسرة، مارى والش چيمس، فى اليوم التاسع والعشرين من يناير سنة ١٨٨٢، عندما كان هنرى - أحب الأبناء إليها - فى أمريكا بعد غيبة ست سنوات.

أما ماذا كانت تعنى هذه الأم بالنسبة لأولادها - وبالنسبة له بصفة خاصة - فى حنانها وعطفها وإيثارها وحبها الذى بلغ أسمى مراتب إنكار الذات «وخدمتها الصامتة الكتوم - الشاملة للجميع - وثقتها المطلقة بالجميع على الإطلاق»، فكل ذلك يمكن قراءته فى «مذكرات ابن وأخ»[٩].

ولقد كتب إلى جودكين فى الثالث من فبراير يقول:

«ماتت أمى العزيزة يوم الأحد الماضى، ماتت فجأة وفى هدوء وطمأنينة، نتيجة لمرض فى القلب. إنك لتعرف أمى، وتعرف ماذا كانت بالنسبة لنا، لقد كانت أعذب وأرق وأعظم تجسيم طبيعى للأمومة، كانت روحنا الحامية وعبقرية الأسرة»[١٠].

أما ماذا كانت تعنى هذه السيدة بالنسبة لزوجها فيظهر لنا فى الكتاب التالى المرسل إلى هنرى الصغير، الذى كان قد أبحر توا إلى إنجلترا:

بوسطن ٩ مايو (١٨٨٢)

«محبوبى هنرى

خرجت أمس فى الصباح مبكرًا بعد الإفطار لكى أرى وليام، فهرول إلىَّ نازلا من غرفة نومه لتحيتى. وكانت حالته فيما يبدو على خير ما يرام وأحسن بكثير عن ذى قبل. ومن المبهج أن يشهد المرء مرونة روحه. ولقد تحدثنا طويلاً حديثًا نفيسًا.

---

(9) 176-81.

(10) Godkin Collection, Widener Library.

والآن - يا ولدى العزيز - يتعين علىَّ أن أودعك، وليس فى وسعى أن أقول لك مبلغ ما فى هذا الوداع من حب، وكل ما أستطيع قوله إنه فى غاية الحب والود. لقد كان جميع أولادى طيبين جداً، وفى غاية العذوبة والرقة منذ نعومة أظافرهم. ولقد كنت دائمًا فخوراً جداً بك وبويلى. ولكنى لا أستطيع كتمان الشعور بأنك - أنت - كنت الابن الذى سبب لنا أقل المتاعب، ومنحنا دائمًا أعظم البهجة والغبطة. وإنى لأذكر بصفة خاصة سعادة الأم الراحلة بك، وتمتعها الكامل بصحبتك فى الأشهر القليلة الأخيرة من حياتها، ورقتك نحوها، وأعتقد أن ذلك هو ما يقربك الآن إلى نفسى جداً، ويجعلنى أعتز بك إلى أقصى حد. ومما لا شك فيه أن إخوتك فى نفس الظروف كانوا سيفعلون نفس الصنيع، ويظهرون نفس الرقة والملاطفة نحوها، ولكنهم لم يستدعوا لكى يعبروا لها عن ذلك. ومن ثم فإنى لا أبخسهم حقهم بأية حال أو أظلمهم، ولكنى أشعر أننى ورثت كل إعزاز الوالدة العزيزة لك، مضافا إليه إعزازى. وبناءً على ذلك أودعك وداع أرمل واضح الترمل.

هذه الأم المباركة، كم تربط ذكراها بيننا جميعًا!

أعتقد أنه لن يجرؤ أى واحد منا، ممن يذكرون طيبتها الطبيعية وخيرها الصافى، وخصوصا إحساسها الذى لا ينام - بالعدل - على أن يشعر بالغواية، بعد ذلك لكل يفعل أمرًا غير شريف أو يأتى فعلاً قبيحًا. إنها لم تكن بالنسبة لى «تربية حرة» من الناحية العقلية، كما قال أحد الناس عن زوجته، ولكنها فعلاً وحقًا أيقظت قلبى فى باكورة حياتنا الزوجية، ونبهته من غفلته، وأقالته من سباته الأنانى، وبعثته من خدره، وبذلك مكنتنى من أن أصبح رجلا. ولقد فعلت ذلك كله لا وعيا دون أن يخطر ببالها أبدًا أنها تفعل ذلك. وإنما فقط بعذوبتها ورقتها الأنثوية، وطهارتها التى كانت هى نفسها لا تعترف بها. وصفوة القول هو إننى أفضل أن ألحق بها عما قريب فى مثواها المتواضع، وأجد مأبى الخالد فى جوارها، بدلا من أن يمتد بى العمر فى هذا العالم الصاخب الزاخر بالهذيان.

وداعا - إذن مرة ثانية - يا أثيرى العزيز هارى.

ستتهلل طربا بك - كل واحد منا بطريقته الخاصة - وأنت تشق طريقك وسط أمواج البحر، وتصل إلى غرفتك القديمة، حيث سيكون مما يسلب اللب أن نفكر فيك وقد استقر بك المقام مرة أخرى وعكفت على عملك. وكم أتمنى أن تمنحك إنجلترا نفسها مقامًا ومستقرًا أقل اضطرابًا مما تفعل.

وإذن فليكن وداعا بطيئًا متمهلاً يا أعز من نعز يا هارى - منا جميعا - وفوق الجميع من أبيك المحب».

هـ. ج.

على أن چيمس لم يعش طويلاً ليجتاز فترة الثكل. وعندما اقتربت النهاية رفض أن يتناول الطعام. «ودون أى تردد طالب بحقه فى الحياة الروحية. وبكل ثبات وإصرار، وبكل ما فيه من خصائص تميزه، رفض أن يغذى ما سمّاه الموت قائلاً: إن الحياة يغذيها الله العلى القدير»[11].

وعندما مات فى اليوم الثامن عشر من ديسمبر سنة ١٨٨٢، كان ابناه الأكبران غائبين، حيث كان وليام فى لندن، وهنرى فى عرض البحر مؤملا أن يصل قبل النهاية. والرسالة التالية من هنرى فى بوسطن إلى وليام فى لندن تصف الساعات الأخيرة فى حياة والدهما.

بوسطن ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨٢

عزيزى وليام

لعلك قد عرفت – من قبل – الظروف التى وصلت فيها إلى نيويورك فى يوم الخميس ٢١ عند الظهر، بعد رحلة سريعة وطيبة، ولكنها مؤلمة. لقد أخبرونى بكل شىء – أو على الأقل أخبرونى بقسط كبير مما جرى قبل أن نفترق فى تلك الليلة، وما أخبرونى به كان مؤثرًا جدًا تأثيرًا عميقًا. ومع ذلك فهو ليس أبدًا مؤلمًا بالمعنى الحرفى. لقد كان والدنا هادئًا جدًا ولم يتألم، وإنما صعدت روحه إلى بارئها فى يسر وسكينة، بل يبدو أن ذلك تم عمدا وبتدبير مرسوم. ولم تكن هناك ألبتة ولو مثقال ذرة من ذلك الكرب والألم المبرح والغم والارتباك الذى تصورناه فى لندن. ويبدو أن ذلك كان غريبًا جدًا ومميزًا إلى أقصى درجة، بل زاخر بالجمال لكونه كان خاليًا من الألم ومبرأ من العذاب. لم يحدث شىء مما كنا نخشى حدوثه. ولم يحدث شلل، ولم يحدث خلل فى العقل أو عنف هستيرى، وإنما الذى حدث – التحسن الذى طرأ عليه وكتبوا لنا عنه من قبل أن أبحر عائدًا إلى الوطن – أنه أصيب بنكسة مفاجئة، ثم بإغماء، ثم بغشية، فى تتابع مستمر، ثم لزم فراشه دون أن ينهض منه أبدًا حتى وافته المنية. والأمر الذى يبدو غريبًا، أنه لم يكن عنده مرض ظاهر. أما ما حدث «للمخ من تؤدة» فلم يكن سوى الرفض الموصول التدريجى للطعام، لأنه أراد أن يموت. ولم يكن هناك أى خلل فى العقل فيما عدا ضرب من التمجيد والإطراء لإيمانه بأنه قد دخل فى ملكوت «الحياة الروحية». ولقد فشلت كل

(11) Mrs. Catharine Walsh to W.J., December 23, 1882. Mrs. Walsh, a sister of Mrs. H.J.I., was a beloved member of H.J.I, Shousehold until his desth. To the children she was "Aunt Kate".

المحاولات لاقناعه بأن يأكل. ومع ذلك لم يتألم أبدًا أو تبدو عليه أية علامة أو إيماءة تدل على الألم من جراء الجوع والوهن. وأكبر الظن أن كل ذلك سيبدو لك عجيبًا ولا يمكن تصديقه! ولكنك إذا قدر لك أن تسمع التفاصيل - كما سردتها العمة كيت على مسامعى - فستصبح هذه الأمور حقيقة واقعة، بل طبيعية بالنسبة لرجل كوالدنا.

لقد دعا الله وصلى واشتاق إلى الموت. لقد انحسر كما ينحسر جزر البحر، ثم ذوى ومضى وقضى. وعلى الرغم من أن صحته ظلت تتدهور باستمرار، فإنه ظل متمالكا لقواه، وقادرًا على مقابلة الناس والتحدث إليهم. ولقد رغب فى رؤية أكبر عدد مستطاع من الناس، وكان يتحدث إليهم دون مجهود أو نصب.

وتروى آليس[١٢] أنه قال أشياء فى غاية الفكاهة والبهاء. وكان يعلم أننى فى طريقى إلى الوطن، وكان مسرورًا بذلك، ولكنه لم يكن قلقًا أو نافد الصبر. ولقد اغتبط عندما أخبر أنك ستقيم فى غرفتى فى أثناء غيابى، وراقت الفكرة فى نظره. ويبدو أنه لم يكن معتقدًا بأنه ينبغى أن يعيش حتى يرانى عند أوبتى، وإن كان فى غاية الابتهاج والسرور لمقدمى. وكان ينام كثيرًا. وكما تقول العمة كيت: «لم تكن غرفته تدل على أنها غرفة مريض». ولم تكن محاطة بذلك الجو الرهيب الذى يحيط بالموت. وكان يرقد مواجها النوافذ، مصرا على عدم إسدال الأستار عليها. وذلك أن الضوء لم يكن يؤذيه أبدًا. ولقد تحدث عن كل شىء، وعن تدبير أموره وترتيب كل صغيرة وكبيرة. والعمة كيت تردد مرارًا وتكرارًا أنه تاق وصبا إلى الموت فى صمت وسكينة.

أخوك المخلص

هـ. چيمس

على أن كلا ابنيه الأكبرين أحس بالتفاوت اللافت بين عظمة چيمس الباطنية وبين قلة وصغر ما خلفه. وكان هناك ثمة إحساس بالانكماش المفاجئ. ومن ثم فإن وليام عندما سمع لأول وهلة نبأ موت والده، استعرض فى التفاتة سريعة إلى الماضى أحداث تلك الحياة المليئة الجياشة المشبوبة بالحركة، ولاحظ الضآلة النسبية للآثار التى خلفتها: «فما تبقى هو عدد قليل من الصفحات المطبوعة، نحن وأولادنا، وبعض التعديلات - التى تفوق الحصر - لحياة الناس الآخرين التى تأثرت هنا وهناك بما قال أو فعل»[١٣].

(12) Alice James (1848-1892), Youngest child and only daughter of the H.J.Srs.

(13) To A.H.J., December, 1882, L.W.J., 1, 221.

أما مجلد «الآثار الأدبية للمرحوم هنرى چيمس» الذى حرره وليام ونشره فى سنة ١٨٨٤، والذى كتب له مقدمة طويلة جديرة بموضوعها ومؤلفها على السواء، فلم يلق رواجًا وأصابه كساد سريع. وكانت هذه النتيجة متوقعة، إذ فطن إليها بلا شك المؤلف، لأنه كتب فى المقدمة عن ظاهرة عدم تلاؤم والده مع عصره. وسواء أكان قد جاء متأخرًا فى عصره أم متقدمًا عنه، فهذا أمر يصعب تقريره. وسيان إن كان هذا أم ذاك، لأن الحصيلة واحدة. وعلى أية حال فقد جاء برسالة دينية فى عصر نبذ الدين وراءه ظهريًا. على أن أولئك الذين يعتقدون بالدين لم يتقبلوا أفكاره الجديدة بقبول حسن:

«فى حين أن الذين منا يتمتعون بحيوية فكرية، إما أن يكونوا زاخرين بالتعصب ضد الاعتقاد بالله فى أى شكل من أشكاله، أو إذا كنا متدينين على أى نحو فإن تديننا يتخذ سبيلا من الابتهال والتضرع، ويتميز بالتجريبية - على حرف - بحيث إن منظر لاهوتى خليع من أصحاب مذهب اليقين يصيبنا برجفة تصل إلى النخاع. فلا غرو أن يكون رجل من طراز أبى - يشع بضوئه كالسراج المنير فى مثل ذلك الزمان - غريبًا تمامًا عن عصره، مجافيا لبيئته وفى غير جوه، ومن ثم فسرعان ما يجد نفسه موهونا مشططا - بعيدًا عاليًا عاقرًا. وعلى هذا فإن فاعليته باعتباره صاحب رسالة تبشيرية لا قوة لها وباطلة المفعول. وإنه ليكون من دواعى الدهشة والعجب إذا كان صوته - وهو يصرخ فى القفر دون مجيب أو سميع ولا صدى - لا يفتر ويموت ويذهب أدراج الرياح من مجرد خيبة الأمل»(١٤).

على أن المحتوى كان غير معقول كالطريقة سواء بسواء، لأن چيمس أصر على الجوهر الغائل للأمل المسيحى، على اعتبار الموت طريقة للحياة، فى عصر كان يجنح إلى رؤية الخير فقط فى الطبيعة والإنسان. وثمة رسالة من هنرى چيمس الصغير - كتبها لأخيه بعد ظهور «الآثار الأدبية» - تعبر عن نفس الشعور بعقم رسالة والدهم التبشيرية:

لندن ٢ يناير سنة ١٨٨٥

«عزيزى وليام

منذ ثلاثة أيام تسلمت النسختين من كتاب والدى (وكتابك) اللتين أضفتا علىَّ سرورا بنويا وأخويا عظيما. وحتى الآن لم يسمح وقتى إلا بقراءة المقدمة، الجزء الخاص بك، والذى يبدو لى رائعًا بارعًا وفى غاية الكمال. ولابد أن كتابة تلك المقدمة قد أرهقتك من أمرك عسرًا، ولكن لقد أحسنت

(14) L.R.H.J., 11.

وأجدت، وليس فى الإمكان أبدع مما كان. وما أجمل وما أشهى وأبلغ إعجازها فى الخصوصية (وبعضها بلغ الذروة فى النفاسة) كل الاستشهادات والاقتباسات التى اخترتها من كتابات والدى، والتى وفقت فيها أعظم توفيق. إنها تخلب لبى وأنا أقرؤها (أكثر من أى وقت مضى) متمعنا فى حقيقة أن مذهبه برمته كان أصيلاً ومبتكراً وشخصياً إلى أبعد مدى. وإنه لأولى ثم أولى بأولئك الذين يقتحمون ملكوت الدين أن يلتفتوا بكل اكثرات لمذهبه ونظامه. أما أنا فليس فى وسعه أن ألجه كثيراً، فما أنا بقادر على أن أكون لاهوتيا إلى هذا الحد، أو أسلم بفروضه الممعنة فى الشطط. ولا أبتغى أن ألقى بنفسى فى مفاهيم الجنة والنار، أو أو من على سبيل الجزم بأن أساس أو قرار الطبيعة فى الإنسانية إلخ... إلخ. بيد أننى أستطيع التمتع إلى درجة عظيمة بما فى الأمر كله من روح وإحساس ومنهاج (وإن كان المنهاج زاخراً بأشياء تسوؤنى أيضا). وإنى لأشعر حقا أن والدى المسكين – وهو يكافح ويجاهد ويناضل وحيداً طوال حياته، ومجردا من كل طموح دنيوى أو أدبى – كان مع ذلك كاتباً عظيماً. وعلى أية حال فقد أديت الأمانة على أتم وجه وأنبله، وإنى لآمل أن يكون ذلك بمثابة معروف عظيم يسدى إلى ذكراه، وإنه لجدير بضعفه!

ولقد وصل الكتاب فى وقت عصيب بالنسبة لآليس(١٥) – وعلى الرغم من أنها لم تتمكن من الإمساك به فى يدها إلا برهة وجيزة، فإن الكتاب بلا ريب سرها سروراً بالغاً. لقد انفجرت باكية عندما ناولتها الكتاب، قائلة: «ما أنبل أن يسدى وليام هذا الصنيع. أليس ذلك جميلاً وكريماً؟ ما أنبل وليام وأطيبه! ما أنبله وأطيبه! ما أنبله وأطيبه!»، ثم تحدثنا عن المرحوم والدى وكيف ذوى وذبل ومضى إلى غير رجعة فى ملكوت الصمت الأبدى والظلام. وكيف أطبقت موجات الدنيا على ذلك النظام الذى حاول أن يبشر به ويهديه إلى العالم؟ وكيف أن صنيعك مس شغاف قلوبنا، ذلك الصنيع الذى أثق أنه سيؤتى أكله ويفعل الكثير لينقذ والدى من طمس النسيان فلا يصبح نسياً منسياً... بلّغ حبى للجميع.

أخوك هنرى

ولعله لم يحدث أبداً – فى حالة رجل دنيوى مضطر إلى الأخذ بأسباب الدنيا والإذعان لمقتضياتها الاجتماعية – إن كان العيش والتفكير ممتزجين ومندمجين على نحو تام كامل مثلما كانا فى هنرى چيمس. ولقد قال مرة – وهو يتحدث عن العقائد اللاهوتية التى آمن بها وتصدى لها – إنها حقائق حياة الإنسان نفسها فى جوهرها، وكما قال ابنه عنه بعد مماته: لقد كانت معتقداته هى حياته(١٦)، حيث إن الحقيقة

---

(15) The sister Alic, at this time ill and living in London.

(16) Nature of Evil, 1855, 13; L.R.H.J., to.

أو الصدق العقلى كان يتكشف له فى واقع حياة هذه الحقيقة نفسها، ومسلك هذا الصدق العقلى ذاته. ومن ثم فلم يحقق فى أن يكون ما اعتقد وأكد أو يؤكد ما كانه. وعلى نفس النهج قدر الآخرين - بما فى ذلك أولاده - على اعتبار ما كانوا وبمسلكهم، لا اعتبار ما قالوا أو فعلوا.

وهذه الاستقامة العميقة وطهارة الذمة والنزاهة كانت أعظم خصيصة اتصف بها فى سجاياه. وما دام هذا هكذا فإن مقتضيات العرض المتتابع فى تسلسل تحتم وصف الرجل قبل أن تصف أفكاره، إذ يجب علينا أن نعى وندرك أن هذا دون ذاك تجريد مضلل. كان رجلا صاحب رسالة، وفى نفس الوقت يعانده إحساس طاغ بالعقم وعدم الجدوى. ومثله كمثل كثير غيره من أصحاب العقول المفردة التى لا ظهير لها ولا سند، فقد مجَّد قضيته ورفع شأنها وحط من شأن نفسه. ولقد نادى بمعتقداته التى يدين بها، وشهِّر بضلال غيره من الناس بنوع من اليقين التعسفى والادعاء الجازم الذى لا مسوِّغ له ولا سند. ولكن الأمر صار كما لو كان حمالا أو مركبة، وليس مصدراً أو مؤلفاً للحقائق والمعتقدات. فإذا أضيفت إلى ذلك شخصية إيجابية زاهية الألوان، فقد توافرت لديه كل دواعى «التنزيه عن الهوى» والتجرد الغيرى الذى لا يدعى لنفسه فضلاً أو استعلاء[١٧].

وإلى أن بدأت ملامح المرض تبدو على چيمس، لم يكن فيه شيء من النسك أو التقشف، سواء فى مسلكه أم فى مظهره. ولقد وصفه إيلرى تشاننج بقوله: «هاو سويدنبورجى سمين قصير متورد الخدين عليه سيماء دلال ثرى، وفيه عقل وقلب باسكال»[١٨]. كان ذا قوة وعافية، ممتلئا نضارة، طيِّب العرق، أما علته وسقمه إذا سمَّينا ما أصابه كذلك، فقد كانت عفوية وطارئة، ولم تكن خلقية فى طبيعته الجسمانية. وفى معرض الحديث عن صباه المبكر قال: «إن تراب الوجود الخام حول نفسه على نحو

(17) N.S.B., 162.

(18) F.B. Sanborn, Familiar Letters of H.D. Thoreau, 1894, 145.

موصول إلى تبر فى النار المتأججة لسليقتى الحيوانية»[١٩]. ولكونه أصيب بالعرج فقد عرف الألم وعاناه، وكان عاجزًا وذا عاهة باستمرار، ولكن شهواته الحيوانية لم تتوقف عن الزخيخ والاحتدام. ووراء مواهبه السامية من العقل والخلق كانت تربض دائمًا هذه القوة العضوية الفائرة. ولقد أفضت به فى المجتمع - كما قال أمرسون - إلى أن يكون «منبسطا»[٢٠]، وليس مجرد مليح النكتة أو سريع الخاطر فحسب. كان يتدفق بفيض من الحديث المنتعش الزاخر بالحيوية. ولقد جعلته أيضا مداعبًا ولعوبًا، فأسهم بقسط وافر فى فن اللغو المتقن الذى كان خصيصة من سجايا دائرة أسرته. ولقد جعلته أيضا فى كل علاقاته الإنسانية تارة رقيقًا رقة خيالية حالمة، وطورًا قاصفًا مشاغبًا محبًا للعراك، وكثيرًا ما كان يجمع بين النقيضين فى نفس الوقت. وفى الحقيقة فإن نوعًا من الرقة الحربية أو البذاءة البشوش المشرقة - كانت أحد منجزاته الغريبة المميزة له عن سائر الناس جميعا.

على أن الشأن العجيب لصداقات چيمس - كما هى الحال فى علاقاته الإنسانية عمومًا - لم يكن مصادفة مزاحية، وإنما نبع من ذلك الحق الذى كان حياته. كان يؤمن بأن الجنس البشرى واحد ومقدس، وأن ضعف الخلائق الفانية إنما يشكل مرحلة فى تطور تقدمهم الروحى. وعلى الرغم من أنه كان يرى ضعف الفرد بعين نافذة، ويصفه بنعوت بليغة، فإنه كان ينفد وراء ذلك إلى الجنس البشرى الذى أحبه. ومن ثم كان نقده للناس نقد طبيب نطاسى لا نقد كشف للعورات أو شهوة لفضح قروحهم. وكل معاركه كانت فى نطاق الأسرة مشاجرات عائلية. وعلى هذا فقد وسعه أن يجمع بين الاستهجان أو النبذ، وبين التساهل والتغاضى، وأن يقرن ذلك كله بالفكاهة وخفة الروح والمحبة الحانية بل وبالاحترام.

---

(19) L.R.H.J., 183.

(20) Emerson to Samuel G. Ward, July 12, 1849; cf. E.W. Emerson, Early Years of the Saturday Club, 1918. 4, 8.

ولقد بلغت شهامته ونخوته حدًا مكّنه من أن يوفق بين ولائه الحار الحاد لأفكاره وبين التحاشى الكريم الأمين الذى بلغ غاية الرقة لحمل الآخرين عليها حملا بالإكراه أو العسف أو التطفل الواغل. وكان صلب الرأى فى معتقداته، وله قوة خارقة على المدافعة والدحض، قوى الحجة فى التأييد، قوى الحجة فى المعارضة سواء بسواء، ولكنه مع ذلك مشبوب بعاطفة الإنسانية، بحيث لا يحمل ضغينة أو غلا إلاّ ضد القسوة والوحشية وعدم الإنسانية. أما فيما عدا ذلك فإن اختلاف الرأى قد يثير لومه ولكنه لا يثير حفيظته أو يحرك حنقه.

(٤)

الوالـــد والابـــن

بالنسبة لهنرى چيمس الكبير، فإن أعظم صيغة طبيعية للفن - إذا سمِّى فنا على الإطلاق - كانت هى الحديث. فالحديث من بين كل الفنون - إلا إذا كان الفن رقصا - هو أعظم أشكال التعبير تلقائية ومباشرة وأكثرها عصرية. ثم هو أيضا أقل الفنون انعزالا عن الفنان أو نأيا عنه أو إقحاما عليه من الخارج. والحديث مشرب بحرارة الجسم: كالخفر أو الخجل أو الإيماءة أو الإشارة، فإنها تعكس إحساس وبصيرة اللحظة الراهنة وقت مرورها. وأسلوب المتحدث الطبيعى أسلوب توكيدى مؤثر ومتنقل مساير يقصد إلى أن يصغى إليه، وله محور انتباه ينتقل باستمرار، بحيث إن بؤرة الوعى قصيرة الأجل ليس غرضها التأمل. وعندما يتحول هذا الأسلوب من الكلمة الشفهية إلى الكلمة المكتوبة تشوبه المبالغة. ومن ثم فبينا نجد حديث چيمس يتفجر حيوية دافقة، نجد كتابته فى بعض الأحيان تبدو مكتظة. ومع ذلك، وباعتباره ممثلاً لذلك الضرب من الأسلوب الحيوى الفياض، نرى چيمس يحتل مكانا عليًا بين كتاب الإنجليزية على الرغم من الصبغة المقوتة لمادة موضوعه. وإنه لأمر مشكوك فيه إذا كان فى وسع «كارليل» أو «ملقيل» أن يبزًا چيمس أو يعقلا خيرا منه إذا تناولا موضوعه. كان چيمس كارليلا إنسانيا وملقيلا متفائلاً وهو يكتب عن اللاهوت والميتافيزيقيا.

أما ابناه الأكبران - وقد كان أسلوب الكتابة لكل منهما مهنة - فقد سجلا انطباعاتهما وآراءهما عن خصيصة والدهما الفريدة فى الأسلوب.

فكتبه - على غرار حديثه وخلقه - على حد تعبير هنرى الصغير «كانت غضة بزهزهة اللون القوى - لون أخاذ لافت للنظر بكونه معطى غير مأخوذ، لون كاشف يسلط الضوء لا عاكس - لون قوامه الفكر والإيمان والجو الخلقى والتعبير»[١].

أما وليام چيمس فيقول فى معرض الحديث عن أسلوب أبيه:

«وإنا لنجده - وقد دان له هذا الأسلوب وملك زمامه بلا كد ولا نصب، والذى كان يقرن إلى عزة النغم وبساطة الكلم نوعا من الوجيب والخفقان الباطنى بأسمى مراتب الإنسانية، ساميًا ورقيقًا، دقيقًا وعنيفًا، لواما وزاجرا، فكها ومداعبا بالتناوب، نجده يذكرنا بالمزاج السخى الفياض الدافق لأساتذة الإنجليزية القدامى بدلاً من أن يعبر عن مزاج أمريكى معاصر»[٢].

وثم جارث ويلكنسون، الذى لم يعرف چيمس فحسب، وإنما استجاب لأسلوبه بنفس الوقع:

«إذا لم يكن ثمة بد من التقريظ، فدعنى أقول لك كيف انسقت وراء عجلات مركبة جملك المزمجرة، وقد تمور شعرى سيالا ورائى وأنت تلهب ظهور جياد المركبة بالسياط فى المقدمة، وتمضى سراعًا وأنا أحاول جاهدا أن أمضى فى سبيل دون جدوى، بينا أنا مشدود بوثاق ومربوط من قدمى فى عجلة سوْرتك وحمياك»[٣].

على أن الصفة الأحشائية لأسلوب چيمس ينبغى ألا تؤخذ على أنها تعنى الافتقار إلى الذوق الفنى أو المهارة الفنية. لقد كان يملك ما يمكن تسميته فقط بزمام اللغة الإنجليزية. وهو يعطى فكرة أنه يستعمل اللغة أو حتى يسىء استعمالها بدلاً من أنه يملك زمامها ويتصرف فى أمرها تصرف عزيز مقتدر. وفى حرارة اعتقاده كانت اللغة تذوب وتنصهر فى بوتقته وتخرج من أشكالها وصيغها المصحفة الدارجة، وتصب بل تلتحم التحامًا فى قالب تفكيره. والحق: أنه لم يكن صاحب صناعة فنية، ولكنه كان

(1) N.S.B., 163.

(2) L.R.H.J., 9.

(3) Wilkinson to H.J.I., April 5, 1850; the reference is to Jame's Moralism and Christianity.

يملك موهبة الفنان وحدة إدراكه وومضة بصيرته. فإذا ما بدأ نقطة فإنه يتقنها ويصفيها ويفوِّفها ويوشيها بفرح خلاق واضح. ثم يمضى إلى غايته لا يلوى على شىء.

ولكن على الرغم من الاعتراف له بامتلاك زمام الأسلوب، فإنه كانت هناك شكوى عامة من أن چيمس كان غامضا. ولقد صاح چيمس قائلاً ذات مرة: «أواه... لو كان فى استطاعتى أن أرعد بها دفعة واحدة فى حرف نداء واحد يوجزها كلها، ولكم علىَّ ألا أفتح فمى بكلمة واحدة بعد الآن»[٤]. ولقد وجد نفسه مضطراً إلى العودة مراراً وتكراراً لنفس المهمة، ولم يشعر أبداً لا هو ولا مستمعوه بأنه قال ما يريد أن يفضى به أو عبر عما يعتمل فى دخيلة نفسه. وكان هذا الغموض هو الثمن الذى دفعه لكى يكون فيلسوفا. لقد كان حديثه وكتابته كلاهما أداتين لنقل أفكاره، وكانت هذه الأفكار - فى ذاتها - صعبة المنال عسيرة الإدراك. ولم يكن يرضى أو يقنع بإبلاغ أى شىء إلا فى أبعد أغواره وذروة حذقه. ولم يكن فى وسع أى امرئ أن يفهمه إذا لم يكن مهيأ لأن يفكر بإمعان وجرأة مثلما يفكر. ومن ثم فقد كان كثيرون ممن وجدوا طريقته وأسلوبه وملاحته مسلية ومطربة، ولكنهم فى نفس الوقت حاروا فى أمر مذاهبه، شاعرين بأن ثمة معنى خفياً وعويصاً يفلت منهم، وكان ذلك فعلاً هو الواقع من الأمر.

ولا مناص من القول: بأن وليام چيمس شابه أباه فى النكهة الشخصية والعبقرية. لقد قيل عن الأب: إنه «كان aninted بجزيرة باتموس»[٥](*)، وأنه كان بعبارة أخرى، إيرلنديا وصاحب وحى فى نفس الوقت. أما الابن فلم يكن فيه وحى أو رؤيا، ولكنه كان إيرلنديا. ومثله كمثل أبيه، كان حار الدماء جائشا فوارا، ومحبا ودودا فى غاية الرقة والعذوبة. كلا الرجلين كان قلقاً غير مستقر وغير صبور، وإن كانت تلك الخلال فيهما لم تحل دون عكوفهما مدداً طويلة على أعمال جسيمة ومثمرة.

---

(4) N.S.B., 163.

(5) M.A. dc W. Howe, Memeries of a Hostess, Atlantic Monthly Press, 1922, 72.

(*) إحدى جزر الدوديكانير حيث يقال إن سانت چون المقدس تلقى الوحى هناك وكتبه. (المترجم).

ولقد شهدت أليس چيمس بهذه الصفة المشتركة بين أبيها وأخيها. كان ذلك فى سنة ١٨٨٩، وهى تكتب عن جولات وليام هائما على وجهه هنا وهناك:

«وليام... بدلاً من أن يذهب إلى سويسرا عاد فجأة من باريس وذهب إلى الوطن، حيث إنه - كعادته - فرغ من أوربا فى أسابيع قليلة ووجدها مبتذلة بالية وتافهة ولا نفع يرجى منها. ولما كانت حاجته الوحيدة هى العودة إلى الوطن، فإن رسالته الأولى بعد وصوله كانت - طبعا - مليئة ببرنامج عودته مضافا إلى ذلك زوجته وأطفاله. إنه تماماً كنقطة الزئبق، ولا يمكنك أن تضع إصبعا عقليا عليه. لقد ضحكنا - هارى وأنا - وتفكهنا بنوادره، وتذكرنا الوالد، وذكرنا مشابهة وليام له (فى السبل التى يسلكها) - وعلى الرغم من أن النتائج واحدة فإنها تصدر عن طبيعة جد مختلفة فى الاثنين، فمردها فى وليام عجز قام أو عدم اكتراث (بأن يلازم أمرًا ويثابر عليه لمجرد الملازمة والمثابرة) كما قال عنه أحد عارفيه ذات مرة، فى حين أن الوالد، ذلك الرضيع الشهى السار! ما كان فى وسعه أن يخضع حتى لعبودية نزوته، ثم كان ذلك العزيز الحبيب يقع فريسة لعفريت الحنين إلى الوطن والأهل»(٦).

ووفقًا لحكم الابنة، فإن العلة فى حالة الأب كانت نوعا من الثورة ضد الضبط والقيود، وفى حالة الابن كانت خللاً مزمنًا فى الإدارة افتقارًا إلى القدرة على العمل الشاق المطرد النسق. وكان الاثنان مغرمين بالضحك، وكلا الرجلين كان ذا تلقائية متطرفة مع جنوح إلى التدبيج والتوكيد المفرط. وكان كلاهما سريع التأثر متقلبًا دوارًا أقل شاردًا لدرجة جعلت من المستحيل على كل منهما أن يملك عنان الأمر أو الشىء بسهولة ويسر، أو يسيِّر الدفة مع التيار، أو ينهمك بيسر وسلاسة فى نشاط منظم.

على أن هذا التشابه كان يرتكز عليه اختلافان بارزان. فالأب كان قويًا عفيًا بصفة أساسية، والابن كان هشا واهنا نسبيًا، مع فترات طويلة من العجز الجثمانى وضعف الأعصاب والوسوسة. وكان رصيد الأدب من القوة الأصلية والعافية البدنية أكثر، فى حين أن الابن كان يعتمد أكثر على إصلاح وشحذ ما عنده من قوى.

(6) L.W.J. I, 289-90.

والفرق الآخر فرق لا يحتمل الخطأ بدرجة لا تقل عن الفرق الأول، وإن كان أكثر صعوبة فى الشرح والوصف. فلقد كان الأب كما رأينا غريب الأطوار، وكان ابتداعه أو شذوذه أكثر تمالكا لنفسه، ومن ثم أقل إذعانا، فى حين أن وليام چيمس كان أكثر دنيوية وواقعية، وأكثر مؤالفة ومعاشرة جماعية، ولديه نصيب أكبر مما يسميه الناس «الذوق» أو التذوق. كانت عنده أفكار شاذة غريبة، ولكنه هو لم يكن شاذا ولا غريب الأطوار. وبكل ما فيه من ترفع الفلاسفة وانتباذهم، فقد عرف - غريزيا - كيف يلاقى العالم من حيث هو، وعرف من أين تؤكل الكتف، وكيف يجعل نفسه مفهومًا، وكيف يكون متحررًا وجريئًا دون أن يتعدى على المعايير المقبولة عرفا أو يخالف ما تواضع قومه على اعتباره مقياسًا لأدب الحديث.

وبينا نجد الأدب لا تخلو أوقاته من نوبات الثمل الروحى، نجد الابن أكثر كبحًا وضبطًا وقمعًا بطمأنينة وإحكام. وكان فى الرجلين نوع من العاطفية الحارة الجياشة المتفجرة، ولكن التعبير الخارجى عنها - فى الابن - كان ينأى بها بعيدًا عن مركز الالتهاب، وكان أكثر تحكمًا وضبطًا وإتقانا وتوجيها لعاطفيته فى سعة حيلة وعمق من أبيه.

على أن ما بينهما من تشابه فى المزاج، هيأ الأب والابن لتفضيل نفس الأسلوب من التفوه. وكان وليام أيضا كاتبا متحدثًا، يتميز بعبقرية فى الكتابات والنعوت التصويرية، ويميل إلى التلوين الزاهى، وإلى حرية فائقة الحد فى الأسلوب والطريقة. بيد أن وليام كان أيضا مؤلفًا يكتب - بصفة أولية - لكى يعبر عن معتقدات، وبطريقة تضفى على الحصيلة صفة خاصة مميزة لها أثرها من الإخلاص والصدق. وكان على غرار أبيه يعرض الفلسفة فى شكل أدب، ومن ثم جذب انتباه محبى الأدب الذين كانوا يتوجسون خيفة من الفلسفة، أو لا يأنسون من أنفسهم المقدرة على ولوج لجتها. ومن ثم وجد د. هـ. لورانس - الذى كان يميل إلى الأدب لا إلى الفلسفة - أن كتاب وليام «البراجماتية» كان باهرًا ولامعًا، ولكنه غير واضح، وأنه «شابه أباه الذى كتب عن سر سويدنبورج واحتفظ بالسر لنفسه»(٧).

---

(7) Quoted by C.E.Norton in Letters, 1913, 11, 379.

ولكن ثمة فرقا

فالابن قد يكون ملتغزًا، ولكنه لم يكن مثل أبيه غامضًا، أو عويصًا، أو غير مفهوم، أو خفي المعنى لأجل التستر. كان أحسن ضبطًا وسيطرة على أداته، وأكثر فهما للجمهور، أكثر بكثير جدا من أبيه. كان الأب قادرًا تمامًا على إلقاء مرثية على جيل لا يصغي إليه، أو حتى لا يعيره سمعه، في حين أن الأبن ما كان ليطيق أية علاقة لا تتسم بطابع التبادل والمشاركة والاتصال الآخذ والمعطي.

على أن الحقيقة الجلية التي تبرق أساريرها بأشعة الإيمان هي الإعجاب المحب من جانب، ابن لأبيه باعتباره رجلاً. ولم يكن مجرد حب بنوي فحسب، وإنما كان حبًا مثاليًا يتمثل أباه بهيئة كمالية. كان يجب طراز الرجل الذي كانه أبوه. ومن ثم كان لزامًا أن ينمو على شاكلته في عاداته ومشاعره وتقديراته للأمور واتجاهاته.

وثمة رسالة حررها وليام قبل موت أبيه بأربعة أيام، وهي رسالة لم يقدَّر قط لمن أرسلت إليه أن يقرأها:

«في تلك الهوة السحيقة من الماضي – التي سرعان ما يهبط فيها الحاضر ويرجع إلى الوراء – بعيدًا بعيدًا في أغواره، فإن وجهك أنت ما زال عندي في بؤرة الانتباه. إنني أشتق كل حياتي الفكرية منك، وعلى الرغم من أننا كثيرًا ما كنا فيما يبدو على طرفي نقيض في التعبير عنها، فإني على يقين بأن التناسق والتناغم واتفاق الألحان قائم بيننا بكيفية ما، وأن جهودنا ومحاولاتنا المبذولة سوف تقترن وتمتزج. إن الدين الذي أحمله لك في عنقي يفوق أقصى ما في طاقتي في تقدير واعتراف بالجميل، لقد كان التأثير مبكرًا جدًا ونافذًا إلى اللب وموصولاً طوال حياتي.

أما فيما يتعلق بنا فسيعيش كل منا بطريقته وفي سبيله، شاعرًا بأنه غير محمي أو حصين، إلى حد ما، وقد بلغنا هذه المرحلة من الكر، بسبب الافتقار إلى حصن الأبوة وصدرها الحنون ملاذا نلوذ به سوى الاعتصام معًا بتلك الذكرى المقدسة المشتركة التي تؤلف بين قلوبنا. سنقف معا متآزرين، نحاول أن ننقل الشعلة إلى ذريتنا كما سلمتها إلينا. وعندما يحين وقت الحصاد فإني أبتهل إلى الله أن نكون في مثل نضجك وإثمارك، إن لم نكن جميعا، فبعضنا على الأقل. أما بالنسبة لي فإني أعرف كم أرهقتك من أمرك عسرًا، وسببت لك من العنت والإرهاق في أوقات متعددة، بسبب غرابة وأفكاري. وعندما يشب أولادي عن الطوق فسأتعلم أكثر وأكثر مما علمتني رشدًا، من المنهاج الذي اتبعته في توجيه وتربية وتطوير مخلوق مختلف عنك تشعر حياله بمسئولية وتبعة.

إننى أقول ذلك لمجرد أن أبين لك كيف أن وجدانى نحوك سيربى ويزيد حيوية وعاطفة على مر الأيام، بدلاً من أن يخبو، وليس ذلك من قبيل الأسف أو الندم على ما فات. إنه لشعور جارف يجتاح نفسى على نحو عجيب وأنا أودعك!! كيف أن الحياة لا تلبث إلا عشية أو ضحاها، وأن حياة المرء مهما طالت فليس فى وسعها أن تعبر فى الغالب إلا عن نغم واحد. إن الأمر - يبدو لى - يشبه كثيراً هجيراى وأنا أحييك تحية المساء المعتادة قبل أن يأوى كل منا إلى مخدعه: طاب مساؤك يا والدى العتيد المقدس. وإذا قدر لى ألا أراك مرة ثانية، فوداعا ودعاء بالسلامة، وداعا مباركا»[8].

فإذا انتقلنا من الرجل ويممنا شطر أفكاره، فمن الطبيعى أن نتكلم أولا عن چيمس الكبير باعتباره ناقداً. كان ينتقد بتطبيق مذهبه فى نقده، وكان هذا المنهاج خصيصة مميزة له، فقد كان مذهبه فى نقده - الذى كان أكثره ارتجالاً على الفور - يبدو ممتزجاً أوثق امتزاج بسجاياه الشخصية.

فأولا، كان ناقداً، مدمن نقد، ناقداً مزمناً عنيداً للناس وللأفكار. وكان النقد يتخلل حديثه ويعمه. وكان محور الاهتمام فى حديثه يربض - إجمالاً - فى حقيقة أن فى جعبته أفكاراً وآراء قطعية لافتة للنظر مجفلة - إن لم نقل مثيرة ومحمسة - بصدد أى موضوع يثار. على أنه فى سرد آرائه لم يكن ممن يقيمون وزنا للأشخاص. فلم يكن هناك أبداً من هو أكثر تعنتا وتشبثا بآرائه ممن يعتقد «أن لعنة البشرية - تلك اللعنة التى تصيب رجولتنا بالهوان والصغار والدناءة - هى الإحساس الجارف بالذاتية وما تولده من تشبث وتعنت ومكابرة، سخيفة ممقوتة»[9]. كان يقول: «إن الحق بالضرورة شرس ميال إلى القتال». ومما لا ريب فيه أنه وجد لذة كبرى فى هذه الحقيقة[10]. وكما يتبادر إلى أذهاننا بسهولة، فإن منهاج چيمس فى النقد لم يتقبل دائماً بقبول حسن. وفى هذا الصدد نجد كاتب سيرة هوثورن، وهو يشير إلى الصورة المطربة نسبيًا التى رسمها چيمس لهوثورن وضمنها رسالة نادى السبت لسنة ١٨٦١[11]

(8) December 14, 1882; printed in full in L.w.J., 1, 218-20.

(9) L.R.H.J., 62.

(10) The Church of Christ Not an Ecelesiasticism, 1854, 3.

(11) Cf. above, 18-19.

نجد هذا الكتاب يتحدث عن المرحوم هنرى چيمس «بوصفه بليغ مصقعاً فكهاً - صريحا لدرجة تتجاوز الحد فى خلع النعوت والأوصاف وذرها ذرا على الناس، كيفما اتفق الأمر الذى كان أحيانا يصيب برذاذه خبط عشواء، ومن ثم لا يحرز هدفا»[١٢].

وفى معرض الحديث عن تعليقات صديقه اللاذعة عن كارليل، اتهمه أمرسون «بشهوة الهوى المنحرف عن الحق»[١٣].

بيد أن انتقادات چيمس وحملاته لم تكن بالعشوائية ولا بالضالة، وإنما كانت طائشة، وعلى الرغم من ذلك كانت دائمًا ذات مغزى وهادفة إلى دلالة أخلاقية. وكانت فى معظمها موجهة ضد الغطرسة والعجب والرضا بالواقع الذى ينتهى إلى عدم الاكتراث. وعلى حد تعبير وليام چيمس:

«لم يكن ثمة شىء أكثر قذى فى عين المستر چيمس بحيث يصيبه بالخبل. من ادعاء الفضل الشخصى أو الميزة أو الامتياز أيا كانت، لا فضل فيها ولا قيمة سوى منفعتك واستخدامك واستعمالك دون وعى لبنى جنسك. ولم يكن ثمة شىء يسره أكثر من تفجير فقاعات الكبرياء التقليدية، ما لم تكن بقصد مؤاخاة أهون الناس شأنا الذين كان يقابلهم، وعلى أبسط صعيد متاح فى تمام شموله وشيوعه. وكان رفع شأن الخامل وعز الذليل وحط المتكبر الجبار من الأمور، رياضته المفضلة الأثيرة فى حديثه، ذلك الحديث الذى كانت فكاهته اللاذعة الطائشة، عندما يكون فى حالة إنزال المتكبر من عليائه، كثيراً ما تصيب بالدهشة قوم بوسطن الطيبين البسطاء، الذين لا يعرفونه معرفة كافية تمكنهم من أن ينفذوا إلى لب نيته الإنسانية الخيرة، الإنسية اللطيفة التى نبع منها المزاج برمته»[١٤].

وإذا كانت هناك فلسفة ضمنية فى طريقته فى الحط، فقد كانت هناك فلسفة ظاهرة صريحة فى نقده العامد الأكثر قصداً، فأولا كانت هناك نزعة ظاهرة - بلا ريب - للاستخفاف بالفن. ولأن واحداً من ولديه الأكبرين - هو وليام - كان ذا ميل لفن

---

(12) F.B. Sanborn, "The Frlendships of Hawthorne" in the Hawthorne Centenary, Houghton Mifflin Co. 1905, 192.

(13) Emerson to H.J.I, September 7, 1869.

(14) L.R.H.J., 75-6.

الرسم والنقش، والآخر - وهو هنرى - كان ذا ميل لفن الكتابة، فقد كانت هذه المسألة قضية مهمة فى دائرة الأسرة. وبصفة جوهرية فإن بخسه للفن وحطه من قدره، كان يعبر عن إحساسه الطاغى بأهمية الدين. وهذا - عندى - ما كان ينطوى عليه من أن الفن كان «حاضراً جداً»[١٥]، ومن أن الأدب أو أى شكل آخر من أشكال الفن، دون الحياة بكثير.

إن إخفاق الفن يتألف من كونه عقيمًا روحيًا، مجرد ترديد وتكرار للطبيعة وصدى للدنيوية الأرضية.

بيد أن چيمس فى قدحه للفن، كما هو راهن، كان فى نفس الوقت يفكر فى الفن كما ينبغى أن يكون. فالزلة الرئيسية لما يسميه العالم فنا - ويبجله باعتباره فنًا -- هى طلاقه البائن من الإيمان الشريف. «فالفنان الحقيقى هو الذى يعطى للمفهوم الروحى جسمًا طبيعيًا»، وهو لا يعمل «إلا لإشباع إلهام.. من ثم - ملبيا دواعى جاذبيته - وعلى هذا يكون مقدسًا» - ووظيفة الفنان هى «تمجيد الإنسان فى الطبيعة وفى الناس»[١٦]. أما وهذه هى نظرية چيمس فى الفن والأدب، فإن أحكامه المتبصرة فى أهل الأدب - تزنهم - بطبيعة الحال - بالدرجة التى يعتبرون بها حمالين للحق الروحى، كما رآه چيمس. ومن ثم فإن ثاكارى كان جاهلاً بالدين الصحيح، ولكنه يخلقه بيكى شارب، عمر خيراً مما عرف:

«لماذا نسوغ بيكى فى صميم قلوبنا، حتى ونحن نلعن وسائلها الشريرة؟ لأنه من الواضح تمامًا - لدرجة الشفافية - من أول الكتاب لآخره أن جرائرها لا تنبع منها، وإنما مصدرها علاقاتها الخارجية المعيبة المختلة مع الآخرين.. لقد كانت حياتها كلها كفاحا للحصول على مكانة ومركز، لكى تصبح ذاتا تملك زمام نفسها، لكى تشق جدث البيئة الدفينة التى ولدت فيها، وتنبثق من هذا الحد لتنعم بأنسام الله الطلقة اللطيفة النيرة. هل تتوقع من رجل غريق يلتمس النجاة أن يراعى نظافة أذيال سترتك فلا يتعلق بها إذا أطبقت عليها أصابعه المتشنجة؟ إنك إذا توقعت ذلك فإنك تتوقع

(15) Cf. below 43, 59.

(16) Lectures and Miscellanies, 1852, 117, 118, 125.

من روح حية فياضة كروح بيكى أن تقنع بواقعها ولا تحرك ساكنا فى هذا الجو الخانق، أو تدع أية فرصة تفلت من يدها مهما نبذها العرف، لكى تحرر نفسها من ربقة مصيرها التعس! كلا إنه محض خطأ أن ننطق بـ لحكم على الأفعال التى عزيت إلى بيكى فى هذا الكتاب - على أنها أفعالها هى! إنها لم تكن أفعالها، وإنما كانت مجرد اليد أو الأداة التى نفذتها، ولكن الروح التى شاعت فيها وأوحت بتلك الأعمال كانت روح المجتمع المتنافر المختل التوازن الذى قدر لها أن تولد فيها وتنشأ»[١٧].

أما فيما بين ديكنز وثاكارى، فقد كان چيمس يفضل الثانى. فمواعظ ديكنز الأخلاقية - لكونها ضحلة ورثة وتافهة - فهى لابد أن تبتل بالمبالغة والإطناب:

«كان ديكنز غافلا عن الأعماق الروحية المتلألئة كالكواكب فى الإنسان. فالحياة - عنده - مجرد سطح يحد شمالاً بالرأس وجنوبا بالبطن وشرقا بالقلب وغربا بالكبد. وكل ما يقع خارج هذه التخوم المحسوسة فهو باطل الأباطيل وقبض الريح ووهم غرار. وعندما يكون مفهوم المرء برمته لسر الحياة وجلالها مقصوراً على التنافر الظاهر بين الفضائل والرذائل، وبين الكنيسة والملهى، فلا مناص من أن هذا المفهوم لن يذهب به بعيداً، ولا مفر من أن المذاق الحروق لقراء القصة سيهفو سريعا إلى طعام شهى أكثر حرافة ونكهة. ومن ثم فإنك تجد كل فضيلة ديكنز - بالضرورة منشمة وشائبة. وأصحاب الفضيلة - عنده - كورقة النقد المزيفة، قد يكون لها نقشها وبريقها، ولكنها عديمة القيمة! ومثلهم كمثل لحم الصيد، قد يفتح شهية أصحاب المذاق الزائف، ولكنه مقزز للشهية الصحية»[١٨].

ولقد أعجب چيمس بتورجنيف (Turgenev)[١٩]، لأنه كان متشائمًا متطرفًا. فحيث إن الطريق إلى الذرى يفضى إلى الأعماق، فكلما أسرع المرء هبوطًا إلى قرار اليأس والضياع، كان أقدر وأسرع على الصعود ثانية إلى معراج الأمل والرجاء. ولقد كتب چيمس إلى تورجنيف فى ١٩ يونيه سنة ١٨٧٤ يقول:

«إن الرجال والنساء ذوى العبقرية الفذة جعلوا من القصة الروائية أداة - لا تفوقها إلا الدراما - باعتبارها قوة تربوية لتهذيب الانفعالات والعواطف. بيد أنه ينبغى القول بأن أعظم هؤلاء العباقرة فى أعلى

(17) From a review of Vanity Fair, in the Spirit of the Age, edired by William H. Channing, I (1849), 50, 51.

(18) N.Y. Tribune, November 13, 1852.

(19) There is no "cerrect" spelling of this name. The owner of the name himself, in his letters to H.J.1, and H.J.2, uses "Turgeniew" and "Tourguéneff".

منجزاتهم وقصارى ما يفعلــون، أما على غرار سكــوت فيعطينا صوراً مثـــيرة للإرادة الإنسانية (فى صراع ضد) الظروف الخارجية ثم أخيراً تتغلب عليها فى نهاية المطاف، وأما على غرار چورچ صاند وثاكارى وچورچ إليوت يعطوننا فكرة عن الأثر المثبط والشالّ للعرف الاجتماعى والتقاليد الموروثة - على الضمير - فى جعل الناس مرتابين متوجسين وغارقين فى الأنانية والأثرة وفاجرين داعرين. أما أنت، فبصفة عامة تضرب على وتر أعمق إحساساً وأبعد غوراً فى وعى قارئك. إنك تنفذ برأس سهمك فى عالم الظروف والأحوال الخارجية والعرف الاجتماعى والتقاليد الدارجة، وترينا أنفسنا فى قبضة القدر الأسرة، أو ونحن نكافح دون جدوى لنفك أنفسنا من قيود الجبلة. والنقاد السطحيون يثورون ضد هذا المشهد الفاجع ويصدرون حكمهم عليك بأنك ساخر لا تؤمن بصلاح البشر. وهم فى ذلك مخطئون، لأنهم يخطئون فى إدراك الروحانية العميقة لمنهاجك، ومن ثم لا يتبينون أن ما يمس شغاف قلب الإنسان فى صميمه ويملؤه بأقدس الحب والرحمة لأخيه الإنسان، هو أكثر تربية وتهذيبا وصقلا إلى أبعد الآماد من أى شىء آخر يخاطب رأسه المقسط الزهيد الذى لا يؤبه له».

ولعل نقد چيمس لأمرسون وكارليل كان أكثر أهمية وخطورة. ومن الطبيعى أن نقرن بين هذين الرجلين باعتبارهما معبودين أليفين فى عشيرة چيمس الأقربين. فالأب والأبناء لابد أن يتعاملوا معهما على نحو ما، ويتعين على كل أن يسوى حسابه. فأما چيمس فقد اعتبر أمرسون ظاهرة روحية، وليس باعتباره مصدراً تستقى منه الأفكار. وحتى باعتباره صورة مقلدة للكمال فإن أمرسون لم يظفر برضاء چيمس بسبب ما ظنه نقصاً شخصياً وفقدانا لما عناه «بالضمير»[٢٠]. كان أمرسون يمثل نظرة براءة من النوع السابق على الولادة، بدلاً من البركة المطوية المطيبة التى تنتج من الصراع والكفاح والجهاد. ولكونه عديم الاعتقاد بالخطيئة، فقد كان عاجزاً عن التوبة، ومن ثم لم يعرف تلك الغبطة السامية للاندماج فى الله والفناء فى الذات العلية، التى هى أسمى مراتب لحظات الحياة وهدف الخلق.

وكذلك الأمر بالقياس إلى كارليل، فقد كان مثل أمرسون، لم يبلغ مرتبة الفيلسوف الذى يرضى عنه چيمس. «إنه فنان عمدى صلب الرأى وليس بمتفكر. إن كل ما عنده هو عبقرية فقط»[٢١]. بيد أنه كان يختلف عن أمرسون فى إظهاره المسرف

(20) L.R.H.J., 294.

(21) M.A. de W. Howe, Memories of a Hostess, 73.

لذلك الضمير الذى افتقر إليه أمرسون. ولقد اعتبر من محاسن كارليل، أنه اعترف بالشر ونقد الإرادة الخلقية ضده، ولكنه لم يرتفع أبداً إلى ذلك المعراج المتسنم من الفهم الذى يرى منه أن التضاد القائم بين الاثنين شرط ضرورى للنمو الروحانى المكتمل.

وواضح أن چيمس لم يكتم آراءه فى الرجال أو الأفكار. وعلى الرغم من أن تلك الآراء التى فاه بها لم تكن - بصفة عامة - موجهة إلى أولاده، فإنهم كانوا يسمونها عرضا أو خلسة ويحملونها على محمل الجد. ولعل هذه الاستجابة الوجدانية لأحكام الوالد تفسر خصيصة من أهم عادات التفكير التى اتصف بها چيمس. الأولى أنه شارك أباه فى نفس النفور من الأرثوذكسية فى اعتقادها باستقامة الرأى. وكان على غراره يرى أنه بمجرد أن تصبح الأفكار راسخة ومقررة، أو ينادى بها بطلاء ونغمة وهالات السلطة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، فإنها تصبح منفرة كريهة تثير الاشمئزاز. وإنك لتفسد كل طيب عنده بأن تحوله إلى نظام مقرر أو تقليد ثابت مرعى. ولقد كان ذلك هو الشعور الذى خامر چيمس الكبير بأن السويدنبورجية والمسيحية، والذى أحس به چيمس الابن حيال العلم. ويرتبط بهذا الاتجاه الأول - ارتباطاً وثيقاً - نزعته إلى نصرة الضعيف والأخذ بيده، وإلى الحمل على القوى وإنزاله من عليائه. استعرض قائمة أولئك الذين حمل عليهم وليام چيمس بكل ضراوة وقسوة، الذين رفض أن يلتمس لهم عذرا أو يغفر لهم، وستجد أنهم رجال من أصحاب المناصب التى يزدهون بها، والذين يداخلهم الإحساس بالعتو والصلف، والاختيال والغرور والشعور الجارف بالأهمية أو عدم الاكتراث والرضا بالواقع.

وصفوة القول فإن وليام كأبيه كان أحيانا ينتابه «مزاج الحط».

أما إلى أى حد شارك وليام چيمس أباه أو تأثر به - فى حكمه على الفن - فسيظهر ذلك بشكل أوضح فى الملحق الخاص بقصة مهنته. ويكفى القول بأن نبذه للرسم وإيثاره للعلم والفلسفة كان إكراماً لوالده، حيث إن ذلك كان معناه: السعى فى طلب الحقيقة واستعمال الأسلوب باعتباره أداة للأفكار.

وسنعرف المزيد فيما بعد عن آراء وليام چيمس فى الأدب. حيث إن هذه الآراء تم الإفصاح عنها بكل جلاء ووضوح فى أحاديثه مع أخيه.

ولكن موقفه من كارليل وأمرسون يدخل فى باب علاقاته مع أبيه. فلقد كان هذان الرجلان صديقين لأبيه ومعاصرين له، ولقد عرف أولهما من خلال الانطباعات الشخصية لوالده والتى تجلت فى آرائه عنه، ماذا حوى - إذن - چيمس من هـذين الرجلين؟ ماذا وهبه كل من هذين الأبوين (فى العماد) الأسطوريين فى شبابه؟

إن أيا منهما لم يمنحه فلسفته، ولكن كلا منهما أعطاه وصايا وسننا وشواهد مناسبة. وكلاهما أثر فى أسلوبه فى الفترة التى كان فيها فى أقصى درجات التلقى والانطباع. ولقد استجاب لأمرسون فى فترات هدوئه وسكينته وتفاؤله، واستجاب لكارليل فى نوبات جرأته وضراوته.

وفى سنة ١٩٠٣، أعاد قراءة أمرسون قراءة متأنية مستفيضة «مجلدا تلو مجلد»، وهو يستعد لإلقاء خطابه المكينى فى كونكورد. وفى هذا الخطاب أكد رأى أبيه بأن أمرسون كان عرافا ونبيا ولا مفكراً.

ما الذى عرفه إذن هذا العراف؟

عند چيمس، قوام الحق الأمرسونى - بصفة جوهرية - هو رؤياه لوحدة أعمق وراء المظاهر المتعددة. وحتى فردية أمرسون - أو انشقاقه عن المعتقد - والتى كانت «أكثر جوانبه حساسية والتهابا»، لم تكن تعددية. فإذا كان قد فصل بين فرد وبقية الأفراد - خلقيًا - فإنما كان ذلك فقط بقصد توحيدهم جميعا على صعيدهم الكونى - باعتبارهم إمكانيًا «لسان حال معنى الكون»[٢٢].

وهذه التعاليم متفقة مع تعاليم چيمس القاضية بالقيمة الفريدة والنفاسة الفذة والحق المشروع لكل فرد على حدة، مهما كان خاملا أو مغموراً أو مهينا - وإن كانت هذه تعاليم مختلفة - يفصل بينهما كل ما يفصل بين الوحدانية والتعددية.

---

(22) L.W.J., 11, 190, 196-7, Memories and Studies, 1911, 25, 32.

وقد وجد وليام چيمس فى كارليل الحرارة التى افتقدها فى أمرسون. والمقالات التى نشرت فى سنة ١٨٩٨ تحت عنوان «إرادة الاعتقاد» ألفت جزئيًا فى سنة ١٨٧٩، وهى تبرهن إلى أى حد تأثر مؤلفها فى صدر شبابه بكارليل، وإلى أى عمق اغترف من منهله. وعندما كانت تأتى لحظة الحل - فغالبا ما كان كارليل هو الميفاء المقتدر - على تقديم الحل.

ولعل ذلك كان صحيحًا بصفة خاصة بالنسبة لمشكلة الشر، حيث وجد الحل فى «إنجيل العمل والحقيقة والصدق». «فالمخرج الوحيد» كما يقول چيمس:

«هو بالطريقة العملية - وحيث إننى ذكرت اسم كارليل - الذى أصبح فى هذه الأيام يثير الحفيظة ويلقى السباب، فدعونى أذكره مرة أخرى وأقول: إنها طريقة تعليمه. فلنطو كشحا عن حياة كارليل. ولا نلق بالا إلى الكثير مما كتبه.

ماذا كان أهم شىء قاله لنا؟

لقد قال: «ألقوا بمشاعركم فى الجحيم، وكفوا عن شكواكم المشنهفة التى تسيل كالمخاط، وعن طربكم الذى لا يقل شنهفة عن شكواكم. واتركوا حماقاتكم العاطفية وما يصاحبها من خرق، وهلموا إلى العمل كالرجال».

وفى اتخاذه هذا الديدن، فإن وليام چيمس - بنوع أخص وبإيمان عميق - نبذ ذلك الحق الذى كان حل أبيه، ألا وهو: مبدأ التجاوز والسمو والتفوق العقلى - للميزات الأخلاقية إلى أفق تحلق فيه الروح إلى الملأ الأعلى أو الأجمل من البديعيات.

ولقد عاب الأب على كارليل قبوله - بشكل كالح بشع - نهائية محط الكفاح الأخلاقى، فى حين أن الابن يقول مع كارليل: «إن الأمر يبدو باعتباره طيرانًا حقيقياً»(٢٣).

فإذا ما انتقلنا من المزاج والسجايا الشخصية إلى الأفكار، نجد تأثير هنرى چيمس على ابنه وليام چيمس أخف وأرق نسبة وقياسًا.

---

(23) W.B., 61, 87, 173-4.

فلقد كان معاصرو چيمس الكبير يشيرون إليه عادة بكلمة «الفيلسوف». ولا ريب فى أن هنالك طرقًا كثيرة ليكون المرء فيلسوفًا أو عالمًا بما وراء المادة. وسبيل هنرى چيمس كان سبيل الاعتقاد واللقانة اللدنية. ولم يكن ذلك من قبيل التهاون أو الغفلة من جانبه. كان يعتقد بالاعتقاد «فمن الأرجح جدا أن يثبت أنه رجل حكيم فى المدى الطويل، تبرم معتقداته ما تنقض شكوكه – أكثر بكثير من ذلك الذى تنقض شكوكه ما تبرمه معتقداته، وتصيبها بالسغب والموت جوعا».

أما بالنسبة للقانة اللدنية «فالإنسان لديه قانون باطنى أو ضوء داخلى يهديه سواء السبيل، ويفرق له بين الخير والشر وبين الحق والباطل، كل على حدة. ومن ثم تضمن له كل إمكانات مصيره الروحى». «الحق... حقا. كيف يتسنى لرجل من أبناء حواء أن يدعى هذه القدرة؟ إن الحق يتحتم أن يوحى بنفسه ويبوح بأمره ويلهم من يلهم فيميط له اللثام – إذا أراد أن يعرف – وحتى عندئذ فإن معرفته فى أسمى مراتبها – وعلى أحسن فروضها – معرفة ناقصة فجة – مهما عرفت»[٢٤].

ولم يتقبل وليام چيمس هذا النوع من الفلسفة أو ينجذب إليه، لا ذلك ولا فلسفة معاصرى أبيه الذين حاجوا بلا قيد ولا شرط من القياس، وحملوا المجاز على محمل حرفى، وأنتجوا مزيجًا من الشعر والعلم، لا هو بالشعر ولا هو بالعلم.

ومنذ باكورة حياته كان قد عقد مع نفسه اتفاقية معيار العالم فى تقيده الذى يحظر الإنفاق على الاعتقاد أكثر مما يجلبه من دخل فى صورة حقائق. وعلى الرغم من جرأته وجسارته مع العلم فإنه كان صاحب وسواس علمى، شديد التدقيق (والحنبلية). أما عند أبيه فقد كان «العلم» لعنة، حر ما كما كان الشأن لدى كل أولئك المفكرين من أمثال: السير وليام هاملتون، ومانسيل، وهربرت سبنسر، وكومت، وتين، وميل، الذين حاولوا أن يكونوا علميين فى الفلسفة. هذا فى حين أن تربية وليام العلمية

(24) Substance and Shadow, 445, "Faith and Science," North Amer. Rev., CII (1865), 369; L.R.J.H., 63.

وتمرينه وتدريبه على المنهج العلمى حملته منذ باكورة حياته على تفضيل ومحاباة هؤلاء الفلاسفة بالذات. ومن ثم فإنه مهما بلغ نقده من حدة وقسوة للعلم، فإنه كان أمام والده المدافع عنه وفارس حلبته، نصيراً وظهيراً له. وعندما يؤكد وليام أن أباه كان مجرداً من «العواطف الفكرية» أو أنه لم يكن صاحب منطق «متفكر»، أو يا حبذا لو أن شيئاً نزع منه فأصبح «ذا منهاج أكثر دقة علمية وتحديداً»[٢٥]، فإنه لم يكن يعنى إنكار الفلسفة على والده، وإنما كان يعنى أن والده لم يحصل معتقداته ويستنبطها، وإنما ولجها ولوجا وانساق إليها انسياقا - بلا كد ولا نصب - مجانا.

لقد كان چيمس الكبير يقول: «ما عرفت فى حياتى أبداً لحظة شك واحدة ولا حالة ارتياب مطلقاً»[٢٦].

ولكن الفلسفة فى معناها الحديث ومفهومها المحص عند وليام تبدأ بالشك والارتياب، ويتعين بصفة دائماً اختبارها على هذا المحك.

يتبقى معنى أساسى واحد استقى منه فلسفة أبيه - على نحو كامل غير مخفف - من أبيه. فبعد موت أبيه مباشرة كتب وليام چيمس: «بالنسبة لى فإن الفكاهة والبشاشة وشيم الخير والنخوة، والإنسانية والإيمان بالعناية الإلهية، وإحساسه بحقه فى أن يفصل فى أمر أعمق أسباب الوجود الكونى، هذه كلها هى الباقيات الصالحات التى ستلازمنى أبد الدهر»[٢٧].

وهذا الإصرار على أن يكون «صاحب القول الفصل فى أمر الكون» هو أعمق البواعث وأبعدها غورا فى تفكير وليام چيمس، مثلما هى إيماءة الاعتراف بالجميل والفضل من ابن لأبيه.

---

(25) W.J. to H.J.2, November I, I869; W.J. to Shadworth H. Hodgson, February 20, I885.

(26) N.S.B., 235.

(27) L.W.J., 1, 221.

فإذا انتقلنا من منهاج الفلسفة إلى مبادئها المذهبية، وجدنا الفجوة بين الأب والابن سحيقة واسعة، حدة وشدة. وفي الصفحات الختامية لمقدمة آثار أبيه الأدبية أعلن وليام جيمس رأيه الذى انتهى إليه بعد كل إمعان وتدبر بشأن هذه القضية بقوله: «إن أعدى أعداء الوجدانية الدينية لأبيه هو التعددى الفيلسوفى»[28]، حليف التأويل الأخلاقى، فالأول يتقبل الشر باعتباره طوراً أخلاقيًا من أطوار الخير الروحى الأسمى، والثانى يجحده ويتبرأ منه ويحطمه تحطيما. ولقد كتب فى سنة ١٩٠٣، فى معرض الإجابة عن سؤال لأحد مراسليه من أوروبا يقول: «ليتنى أستطيع أن أرى أن فلسفتى أتت من والدى»[29]. والأمر الذى لا ريب فيه أن نزعته - القوية دائمًا - لأن ينسب فضل أفكاره لغيره، كانت تكون مضاعفة فى حالة أبيه. ولكن الاختلاف كان أعمق من أن ينسخ ويلغى بالحب البنوى وما يصاحبه من مشاعر التكريس والولاء والإخلاص.

إن القضية بين الوحدانية والتأويل الأخلاقى التعددى كانت دائمًا بالنسبة لجيمس الابن أخطر القضايا الفلسفية، وهنا إلى المدى الذى ذهبت إليه النظرية والمهنة، فإنه هو وأبوه كانا على طرفى نقيض.

بيد أن ذلك لا يعنى أن وليام جيمس رفض فلسفة أبيه الدينية رفضا تامًا. وإنما يمم شطر اتجاه آخر. لقد نال القسط الأكبر من فلسفته وخلاصه الشخصى عن طريق البشير الأخلاقى - ديدن الأخلاقية. ذلك كله أمر لا ريب فيه. ولكنه لم ينس تلك الطريقة المبكرة للتفكير التى تعلمها فى البيت. ولقد ذكر فى سنة ١٨٩٧، بطريقة عفوية بحتة وفى عبارة عرضية: «أن الدين هو أعظم اهتمامات حياتى»[30].

وحيث إنه أمر يجافى الإنصاف أن نأخذ الرجل - على سبيل الحصر - بعبارة فاه بها فى لحظة عابرة على غرة، فأَوْلى بنا أن نقول: إن الدين كان واحداً من أعظم

---

(28) L.R.H.J., 116.

(29) His correspondent, M. Pierre Bovet, was at this time offering a course on James's philosophy at the Academy of Neuchàtel, perhaps the first such course to be given. The letter is dated October 16, 1903.

(30) L.W.J., 11, 58.

اهتمامات حياته. وما دام الأمر هكذا، فلا عجب أن يكون تأثير أبيه فيه عميقًا وخالدًا على السواء: «لقد كانت صرخة والدى هى الصرخة الوحيدة بأن الدين صحيح. والشىء المهم هو أن تكون الصرخة على نحو يوصلها إلى آذان الآخرين فتسمع وتجيب. ولم يكن ذلك عملا هينا، وإن كان مهمة تستحق كل جهد، وهى مهمة سأحاولها على نحو ما»[٣١]. وصفوة القول إن الوالد كان شاهدًا حيًا ينطق، بأبلغ بيان يستحق الذكر، بحقيقة الدين، فإن الابن كان مهتمًا بالدين اهتمامًا فائقًا ساميًا.

ولكن كيف كان مهتمًا به؟

لم يكن مهتما به بوصفه مجرد جامع حقائق وواصف لها، كما يحتمل أن يستدل على ذلك من حقيقة أنه كان فيلسوفًا، وأنه كتب كتابا يسمى «ضروب الخبرة الدينية». كلا، وإنما كان مهتما بتسويغ الدين. فلم يكن اهتمامه اهتمامًا خارجيًا أبدًا، وإنما كان اهتمام امرئ شعر بالدين وشغل نفسه بأمره. ولقد أراد أن يدخر مكانا لمشاعره الدينية العامة، ولكنه - فوق كل شىء - أراد أن يدخر مكانا للمعتقدات الملموسة الأكثر تحديدًا، التى يدين بها أولئك النفر من بنى جنسه من ذوى التقوى والورع الذين كان يشاركهم وجدانيا.

ولقد كتب فى سنة ١٨٩١: «لو كان أبى موجودًا لوجد فىَّ اليوم مصغيا وكثر تلبية واستجابة وتلقيا. وكل ما فى الأمر أنه يتعين إدخال الفلسفة»[٣٢]. ولا ريب أن الذى قصده هو أن فلسفة أبيه الدينية، أو جزءًا منها مما كان سليمًا وصحيحًا، ينبغى أن يتكيف ويسرى فى نطاق نظام يحسب فى نفس الوقت حساب حقائق العلم وحساب نزاهة الإرادة الخلقية.

(31) Written on January 9, 1883; Other parts of this letter appear below, 158-9.)
(32) L.W.J., 1, 310.

(٥)

فترة الصبا فى الوطن وفى الخارج

إن تطور صبا وليام چيمس، وتربيته فى معناها الوسيع الموصول، نسجت من ثلاثة خيوط: التعليم المدرسى، والسفر، ومهنة العمل.

وكذلك أخوه هنرى - الذى لا يصغره إلا بعام واحد - كانت خبرته مثلثة فى نفس الوقت بحيث إن قصة تربية أحدهما تتضمن معاشرته ومخالطته للآخر.

وجماع ذلك كله فى حصيلته - سبيل معقد التركيب والتشابك بدرجة غير محدودة - أتى أكله ثمرتين إنسانيتين فذتين فريدتين إلى أقصى درجات التفرد والفذاذة.

على أن المتأمل فى التعليم المدرسى الذى ناله وليام چيمس وأخوه هنرى چيمس الصغير - بالنظر إلى الوراء - نجد أنه كان سلسلة من المصادفات، ولكن كون ذلك كذلك لم يكن ذاته من قبيل المصادفة كليا. وإنما لذلك ارتباط له مغزى مهم بفلسفة أبيهم العائلية. فلم يكن من المتوقع أن يقنع بالروتين المنظم العادى أو النسق النمطى الرتيب، سواء فى التربية أو فى أى أمر آخر. ولعله - بحسب الظاهر - كان قد أصابه ضرب من النفور ضد الكلية من جراء تجربته وخبرته الخاصة. وعلاوة على ذلك فقد كان يؤمن بحرية أطفاله وبأن تكون لهم الخيرة فى حدود ما ارتأى أنه صالحهم الروحى:

«أبتغى لطفلى أن يصبح رجلا قويما، رجلا لا يفعل الخير بدافع الربح والكسب، كما هى الحال فى حوافز الإحسان البليد البهيمى - وإنما يفعل الخير بدافع حبه للخير أو بالإحساس بالمرضاة والحظوة العاطفية لأدائه - ابتهاجًا به. وبما أننى أعرف أن هذه السجية أو النزعة لا يمكن أن تقحم

بالإكراه عليه، وإنما ينبغى أن يكتسبها ويضطلع بها من تلقاء نفسه فى حرية، فإننى لذلك أحيطه بقدر الإمكان بجو من الحرية»(١).

كان چيمس الكبير يرى أن الحب الأبوى شهوة خطيرة، تجنح بصاحبها إلى أن يصبح حيازيا اقتنائيا. ومن الوجهة المثالية، فما على الآباء لأبنائهم من سبيل، وهم ليسوا وحدهم أصحاب الحق فى أطفالهم، وإنما يجدر بهم أن يشتركوا مع غيرهم فيهم، ويعترفوا بانتمائهم وملكيتهم للمجتمع ككل.

على أن جو الحرية الذى ساد أسرة چيمس لم يكن مجرد نتيجة للتنازل الأبوى، لم يكن محض منحة من الأب. فالأطفال لم يكونوا متحررين من الاستبداد الأبوى فحسب، ولكنهم بوساطة والديهم كانوا أيضا متحررين من استبداد العالم. كان هناك غياب شامل للسلطة النظامية المسننة فرضا. وفى هذا الصدد كتبت آليس:

«كم هو جدير بنا أن نكون شكورين ومعترفين بالجميل لأن أبوينا العظيمين قد فصلا القمح على الزوان والحسك. ودقا كل الخرافات الخسيسة الكريهة كما تدرس الحنطة بالنورج، ولم يشعرا أن لزاما عليهما أن يملآ عقولنا بالعصف الجاف، وآثرا ترك عقولنا كالصفحات البيضاء النقية تتلقى ما ينطبع عليها من خبرة شخصية أيا كانت، الأمر الذى أعفانا من إصر تبديد طاقتنا فى جرف وكنس النفاية وسقط المتاع»(٢).

ويخبرنا هنرى چيمس أن أباه كان يكبح الحماسة المهنية لأولاده، وأنه حال دون اتخاذ قرار فجائى أبتر، يجنح إلى تفضيل مهنة على الأخرى، بأن يتساءل موجها عما إذا كان مثل ذلك الاختيار «مغلولاً جداً وحاصراً»(٣).

كان يخضع العمل أو الفعل أو الأداء للكينونة، لحيازة فكرة الفيلسوف عن المهنة، والقاضية بأن مهنة الرجال الأولى وواجبهم الأول هو أن يكونوا رجالاً.

---

(1) The Nature of Evil, 1855, 99.

(2) Alice James. Her Brothers. Her Journal,˙e.i. by Anna Robeson Burr, Dodd, Mead and Company, 1934, cntry of December 31, 1890.

(3) N.S.B., 50-2.

وعلى الرغم من المهن التى آثروها، فإن الأبناء أطاعوا لا وعيبا إيعازه وتوصيته. فكلا من وليام وهنرى أصبح رجلا أولا قبل أن يكون أى شىء آخر، وإنه ليوجد دائمًا انتقاص غريب فى الإشارة إلى أحدهما باعتباره «عالم نفسيًا» وإلى الآخر باعتباره «أديبًا قصصيًا» كما لو كان ذلك يتضمن تسميتهما بما كانا.

على أن تطبيع هذا المعيار يغير وجه هذه السبيل التربوية غير العادية. فالسبيل - التى تسمى تقطعا وتنافرا وتفككا - عندما تقاس بالمعيار الدارج تصبح تنوعا وعمقا وأصالة فى العيش. والأخطاء نفسها والزلات، حتى عندما لا تعلم درسا واضحا ملموسا، تصبح جزءًا متكاملاً من شجن الحياة المحرك لعواطفها، ومن ذلك العجز من قبل الفرد عن بلوغ مصيره وإدراك مآربه، وهى العلامة المميزة لإنسانيته وبداية خلاصه.

على أنه أمر يجافى الصواب، أن نعتبر تأثير البيت - مجرد تأثير سلبى فحسب - فالأب كما رأينا كان صاحب نفوذ مطل على أولاده بطريقة لا شعورية، وكانت عدواه تنتقل إلى أولاده بطريقة غير محسوسة. وكان جو حياة الأسرة محملاً وزاخرا بالقوى المحسوسة والإيجابية النشيطة، تلك القوى التى ذكرها فيما بعد إدوارد أمرسون، والتى تركت بصماتها الواضحة على وعيه يوم أن زار نيوبورت فى سنة ١٨٦٠ أو سنة ١٨٦١.

«ويلكى الدسم المحبوب»، كما كان يطيب لأبيه أن يدعوه، كان يقول شيئا، وعلى الفور يتصدى العصفور الصغير بوب - بصيصته المعهودة - لتصحيحه أو مجادلته، فيدلى الأصغر بحجته مدافعا عن قوله فى طيبة وسذاجة، وسرعان ما ينبجس هنرى الصغير من صمته مؤيدا ويلكى. ولكن بوب يصر على رأيه فى تحد، فلا يلبث الأب أن يدلى بدلوه ويقوم بدور الوسيط المتولى حفظ النظام، ثم ينضم وليام - أكبر الأبناء - إلى الحلقة. على أن صوت الوسيط الملطف سرعان ما يتوه فى حومة جدل الأبناء، فيترك دور الوسيط. ويدخل فى الحلبة بكل حماسة وقوة. وعندما يحتدم الجدل، وتكون سكاكين الأكل فى أثناء الطعام مشرعة فى أيدى الآكلين تؤدى دورها من الحركات والإيماءات والإشارات، فإن مسز جيمس العزيزة - التى كانت أكثر وقارًا وتحفظًا - وإن كانت ذكية وأريبة ومفعمة بحنان الأمومة، كانت تنظر إلىَّ ضاحكة مهدئة من روعى قائلة: «لا تجزع يا إدوارد، إنهم يتقاتلون بالسكاكين، ولن يتبادلوا الطعنات. هذا أمر مألوف عندما يحل الأولاد بالبيت»(٤).

---

(4) E.W. Emerson, Early Years of the Saturday Club, 328.

بيد أن اختيار وليام چيمس لمهنته أمر يستحق الالتفات، لأنه كان اختيار رجل موهوب، ولأنه اختيار طال أمده وأرجئ مراراً، ولأنه كان اختيارا محفوفا بالصعوبة، وفوق كل شيء لأن اختياره كان سبيلا من الخيرة والخيار. فما كان وليام چيمس ضحية ظرف أو أسير واقع راهن إلا فى أكثر المعانى سطحية. لقد اقتات وتغذى بالظروف. صحيح أنه اشتكى من عدم تعليمه، ولكنه كان بذلك يشير إلى التعليم المدرسى النمطى المطرد، وشكواه على أية حال بينة على تململه المزمن، بدلا من أن تكون دليلاً على أى افتقار حقيقى إلى القوت.

لقد بدأ وليام چيمس أن يكون وليام چيمس فى وقت مبكر جدا من حياته، وأخذ فى التماس وتدبير الطعام الذى تتطلبه شهيته المميزة. بيد أن هذه الظاهرة - إنصافًا للحقيقة - لم تكن أقل انطباقًا على أخيه. لقد كانت مسألة «الاستقرار فى الحياة» عملية طويلة من الألم والمعاناة لكليهما سواء بسواء. وكان السؤال الفحلى عند وليام هو: أى؟ فى حين أنه عند أخيه هنرى هو: أين؟ ولكن أيا من السؤالين لم يكن هينا، أو يؤخذ ببساطة، أو يترك لتدابير القدر.

ونتيجة هذا الإرجاء الطويل للاختيار هو أن كثيراً من الثمار والغلات المبكرة - من العمل، والحكم، والأداء، وغيرها من ضروب التعبير عن الذات - غرست، وزرعت، وزادت من خصوبة التربة وتثميرها.

وعلى الرغم من أن الفرق بين الأخوين هو: عام واحد، فإن وليام كان قطعا «الأخ الكبير». على أن المسألة لم تكن فى الواقع من الأمر مجرد مسألة عمر. ففى معرض الحديث عن باكورة مدركاته يقول هنرى:

«إحدى هذه المدركات - ولعلها أولاها فى الترتيب - هى أن أخى يحتل مكانة فى العالم لا أستطيع أن أصبو إليها - وأينما يكون محط طموحى - أنى كان - فقد كانت هنالك مسألة وصولى إذا ما وصلت على الإطلاق - متأخراً وأسيفًا - كما لو كان الشوط الذى قطعه فى مدى الستة عشر شهراً من الخبرة بالعالم - التى سبقت مجيئى إلى العالم - قد بلغت أمدا بعيدا فى مضمار السبق، بحيث إننى طوال فترة طفولتى وشبابى لم ألحق به أبدًا أو أتجاوزه»(٥).

(5) S.B.O., 8, 9.

فالمسألة إذن لم تكن مسألة عمر زمنى، وإنما هى مسألة كيْفٍ زمنى، أو مسألة نغم ووقع وخطو. فلقد كان وليام أكثر «حيوية فى ذكائه ونجابته»، وأكثر جرأة، وأكثر سرعة وتلبية فى الاستجابة[٦]. ثم إنه كان أكثر فكاهة ودعابة ومن جنح إلى احتلال بؤرة الانتباه فى وسط المسرح. فى حين أن أخاه الصغير اتخذ مكانه بين المتفرجين والمشاهدين الذين يضحكون. وفى هذا الصدد يقول هنرى نفسه: «فى الواقع لم يكن هناك امرؤ آخر سوى وليام چيمس نفسه الذى كان يستطيع أن يزهر فى أى قفر – كانت فكاهته ودعابته تطيبان لى فى تلك السنوات»[٧].

لقد كان الضحك عنصراً مهمًا جدًا فى حياة الأسرة، وكان وليام – بعد أبيه – هو فارس الحلبة بلا منازع، ومعين الضحك الذى لا ينضب. وعندما كان أطفال الأسرة وصحابهم يمثلون مشاهد فكاهته فى الطابق العلوى من البيت، كان وليام هو الذى يتولى من أول الأمر تأليف هذه المسرحيات، ثم يأخذ لنفسه الدور الرئيسى ويمثله. ولم يكن يفعل ذلك من قبيل توكيد الذات، وإنما بوساطة سرعة البديهة. وعندما شلح وليام ذات مرة أخاه قائلاً: «إننى ألعب مع أولاد يلعنون ويسبون بالفاحش من القول»[٨]، كان يستعمل بطريقة لا شعورية تمامًا كلمات ترمز إلى مقدرته، التى تفوق مقدرة أخيه، على التعامل مع الدنيا والناس من حيث هم، وإلى سجيته فى مراعاة مقتضى الحال دائمًا وفى أن يكون كفئا للمناسبة.

ولقد خلف هنرى چيمس للتراث الأدبى قصة خلافهما فى الاتجاه نحو الجنس البشرى، وهى تعتبر من أروع الآثار الأدبية وأكثرها إشعاعا وشهامة ومروءة، وتمثل هنرى چيمس أصدق تمثيل.

فوليام – الذى كان له ذوق مميز فى كل شىء – كان قادراً على أن يهضم أى شىء تقريبًا فى علاقاته الاجتماعية. ولم يكن مرد ذلك إلى تغلبه على نفوره من هذا

---

(6) Ibid., 16, 22.

(7) Ibid., 204, 253.

(8) Ibid., 259.

الشخص أو ذاك، وإنما مرجعه إلى خلوه من النفور والكراهية «لم يكن هنالك إنسان مثله استطاع ألا يلقى بالا لمسألة النفور والكراهة، وألا يحفل بالوعى بها».

ومهما كان ما يتضمنه هذا القول بالقياس إلى حكم وليام وتقديره، الأمر الذى لا شك فيه أن هذه السجية أهلته لمعاشرة الناس.

قد يكون هنرى صاحب مشرب اجتماعى أكثر رقة، ولكن وليام كان أقوى شهية اجتماعية. ومن ثم، فحيث تجد هنرى يحجم ويجفل، تجد وليام يقدم ويقتحم بلذة ونكهة ونية طيبة من صميم فؤاده(٩). وعندما تقدم بهما العمر كان هنرى غالبا ما يصاب بصدمة من جراء إغفال وليام للتقاليد المرعية والعرف الشائع. فلم يكن وليام يحفل بأى نوع من القبعات يلبسه فى حفلات آخر الأسبوع، وكان من هجيراه أن يصعد مرقاة لكى يطل على تشسترتون من فوق سور الحديقة(١٠).

ونظراً لأنه كان أقل اهتماماً بالمظاهر، فقد تفوق على هنرى المتحسب الحريص الحذر، فى حرية وجرأة ما يأتيه من أعمال.

وبعبارة أخرى فإن مسرح الأحداث كان - فيما يبدو - معدا لإحداث «مركب نقص». ولكن ذلك لم يحدث ألبتة - على الرغم مما يبدو أنه أمر لا يمكن تصديقه. فلقد تقبل الأخ الأصغر الوضع بكل هدوء وسكينة ورصانة، دون امتعاض أو غل نحو وليام، ودون فقدان للثقة بنفسه. لا هذا ولا ذاك. وكان ذلك هو واقع الأمر الذى يدل على صفاته العينية المكينة، والتى وإن كانت أقل بريقًا ولمعانًا من صفات أخيه، فإنها لم تكن أقل صفاء وطهرا. لقد كان إيثاره وطيبته ومروءته مضرب الأمثال فى الأسرة، وأكسبته لقب «ملاك» الذى كان يدعوه به أبواه بكل إخلاص وصدق، والذى كان يخلعه

---

(9) N.S.B., 323-7. Speaking of his brother Henry, just after the latter had arrived for visit in 1904, James said: «His manners, speech and voice have become thoroughyl Anglicized. He is a shy fellow. I suppose it is a phenomenon of protective coloraticn» "Reported by Professor Alexander Ferbes".

(10) H.G. Wells, Experiment in Autobiography, 1934, 453-4.

عليه وليام فى شىء من التهكم والمكايدة المشوبين باللطف والظرف والوداد. كان يفتقر إلى المبادرة، وإلى القدرة على التصرف الحاسم الجرىء. ولكن حيث إن نزعته كانت متوازية مع قدرته ومتمشية معها، فإنه لم يعان من الشعور بالوكسة أو احتقار الذات. ولم يكن حسودا لما فى يد غيره ولا يملكه، بل كان قنوعا بما يملكه فعلاً، فى ثقة متينة واعتداد بالنفس لا تشوبهما شائبة من الادعاء أو الظن. فالاختلاف بين هذين العقلين، اختلاف عميق بعيد الغور، وهو اختلاف ظهر فى سن مبكرة جدا، بحيث إنه يفلت من العين الرامقة، ويختفى وراء الباب المغلق للمزاج والوراثة.

وفى معرض تفسيره لحقيقة، أن عدم انخراطه هو أو أخيه فى سلك تعليم منظم مطرد – قد أنتج تربية على نحو ما – يقول الابن الأصغر: إن الشرط اللازم والكافى لأى شىء ليكون تربويا هو أن هذا الشىء يثير «هوى ذاتيًا»[١١].

ولقد توافر لدى كل منهما هذا الهوى الذاتى منذ الوقت الذى أصبح فيه فردا. وكان لكل منهما أيضه الروحى الخاص به، وطريقته الفذة فى إفراز وامتصاص الخبرات التى تعرَض له. أما فيما يتعلق بالنسب المقارنة لكل من هذين الولدين، من «الهوى الذاتى» فهنا تبدو المظاهر مضللة. فلقد شغل هنرى نفسه منذ طفولته بالتأليف الأدبى والمسرحى، كما أن وليام شغل نفسه بأعمال صبيانية من العلم والفن[١٢].

ولكن عبقرية وليام تجلت فى انطلاق وجرأة، فى حين أن عبقرية هنرى تبدت خلسة وخفية.

وكانت حياة وليام التعليمية سلسلة من الغزوات، يعود منها أحيانا محملا بالغنائم وأحيانا خالى الوفاض، ولكنه فى كل من الحالين كان يأخذ بزمام المبادرة، بينا نجد أن هوى هنرى الذاتى كان يفصح عن نفسه فى الدفاع والمقاومة بدلاً من الهجوم والإقدام. لقد حاولوا أن يجعلوا منه عالما، وحاولوا أن يجعلوا منه محاميا، وتمشى مع الأمور

(11) S.B.O., 26.
(12) N.S.B., 122, 260.

وفق ما تتطلبه هذه التجارب، ولكنه فى النهاية أرهق مربيه، وحملهم على أن يتركوا له الخيار فى تقرير مصيره. وفى غضون ذلك كان ينال ما يبغى من تربية وتعليم، لا بأن يحاول هذا أو ذاك بنفسه، ولكن بأن يفتح عينيه ويسجل ملاحظاته ومذكراته عن الحياة والأدب، بينا يحاول الآخرون إجراء تجارب تربوية فاشلة عليه.

لقد كان مطلب هنرى «هو أن يجد له مكانا فحسب - لا بأس بأى مكان أنى كان - ويتلقى انطباعا أو يجد مدخلا، ويشعر بعلاقة وارتباط أو اهتزاز وتر»[١٣].

فالخبرة عنده، تزوٌد بالأنماط أو المشاهد، ولها فى نفسه نوع من لحمة النسب الخفى، من النسق أو النغم يدركها الإحساس بمس وعاطفة باعتبارها وحدات وبها تصبح حيازات تختزن باعتبارها رصيداً مدخوراً ليوم الحاجة الأدبية.

وكان وليام يشترك معه فى هذه النزعة، ولكن على الرغم من أنها كانت ملحة ولجوجًا، فإنها كانت دائما حافزا ثانويا. ذلك أن هواه الأصلى الموافق والأكثر تغلغلا فى نفسه، كان تلمس العلل والأسباب فيما وراء المشاهد والظواهر، أو الاستشراف من أعلى لأجل الأسباب المتحكمة والضوابط.

فأحد العقلين كان تبصريًا تأمليًا، والآخر ممحصًا منقبًا وإجرائيًا. ولولا أن التعبير ناقص جداً لكان القول بأن أحد العقلين كان جماليًا والآخر علميًا، قولاً لا يعدو الحقيقة.

على أن الألفاظ الفلسفية المعاصرة تسعفنا بتعبيرات قد تعتبر أنسب للتمييز بين العقلين.

فاهتمام هنرى كان «بالجوهريات»، ومعيار فنه كان الرواية الصادقة والبلاغ الحقيقى - عرض وإيصال الخبرات المتكاملة - بأقصى درجة من الدقة الحنبلية فى إدراك ونقل الصفة النوعية للخبرة، على السواء.

---

(13) S.B.O., 25.

وكان عند چيمس نفس الخيط فى تركيبه. كانت لديه عين الرسام، وكانت عنده المقدرة – التى ربما لا مثيل لها من قبل – على اختطاف وعرض اللحظات السريعة الزوال، وعلى الإمساك بالتسلسل الشارد للحياة الواعية. كان فى وسعه أن ينفذ إلى اللباب بكل دهاء بنظرة من زاوية عينه، ولكنه لم يكن يسمح لنفسه بالانغماس فى هذا الاهتمام دون انفعال مضاد له – يتخذ شكلاً من أحد اثنين – إما العمل أو التفسير.

وكان دائمًا يضرب على نغمة الحاجة الماسة إلى علم نفس توضيحى. وعلى الرغم من أنه جمع صنوفا متنوعة من الخبرة الدينية، بمعرفة نادرة لخبير عليم، فإنه اندفع بفروغ صبر إلى ما كان بالنسبة له هو السؤال الحقيقى: «ماذا سنقول أو نفعل حيالها؟».

وهكذا، فى حين كان هنرى قانعا بالجوهريات، نجد وليام شرهًا للخبرة، مولعا بالعلة بدلاً من الكنه، متعطشا «لكى» بدلاً من «ما». كان هنرى حيال مشكلة ما، يهتم بوجه الأشكال فيها، فى حين أن وليام كان يهتم بحلها. كان هنرى يسأل أسئلة عن كل شىء: ما معنى الأشياء، ما جوهر الأشياء، ما مصير الأشياء؟ ما فائدة الأشياء، وكيف تحدث هذه الفائدة؟

وعلى الرغم من أنه آثر أن يعرف الحق (بمعنى الصدق العقلى) بالرضا، فمن المؤكد أن حقيقة نهائية تم بلوغها ما كانت لترضيه أبدًا. فكل بصيرة جديدة أو نظرية جديدة تنسخ وتلغى ما قبلها، على اعتبار أنها أحسن اعتقاد متاح راهن، حيث إن هنالك سؤالاً واحدًا مهمًا لا غير، ألا وهو: ما الحقيقى طبقًا لأكمل وأتم بينة متاحة؟

ولكن الحياة العقلية ما كانت لتروقه وتجذب شغفه لولا وجود الحقيقة الحظيظة بأن كل الحلول تتطلب مراجعة على الفور.

ولقد كان من المستحيل على وليام چيمس أن يكتب مؤلفات على غرار مؤلفات أخيه فى تاريخ حياته الشخصية. كان يتذكر، ولكن الشىء الذى كان يتذكره فحسب، مجرد تذكر لم يكن يحفل به. وفى هذا الصدد يقول هنرى: «كان يعلن دهشته المذهلة،

بل أحيانا تبرمه وفروغ صبره لقدرتى على الاسترجاع والتذكر، مؤثراً محو النفايات الأخلاقية البالية من أجل جديد طازج، بدلاً من اختزانها وعرضها فى رضا وانبساط»[14].

على أن الاختلاف بينهما لم يبلغ أقصى درجات وضوحه فى أى أمر مثلما بلغ فى روايتهما عن أبيهما.

فعند هنرى كان الأدب خلقا وعقلا تمثلهما انطباعات نصف منسية، يتعين إحياؤها فى تماسكها المعقود الفريد، وكيفها الذى مورس بالخبرة، والذى لا يمكن تعديله إلا بمنظور من التذكر الاسترجاعى الجهيد.

وعند وليام أيضا، كان أبوه إنسانًا عزيزًا وفريدًا نادر المثال، ولكن فيما وراء ذلك كان رمزًا ومنبعا لأفكار يتعين الحكم على صحتها، وإذا أمكن تخليدها.

على أنه أمر يجافى الإنصاف أن يقال إن هنرى ووليام يرتبطان بأبيهما كما يرتبط زينوفون وأفلاطون بسقراط. ولكن قولها وسحبها يبقى على النكهة القليلة من الصحة التى تتصف بها المقارنة.

فعند أحدهما كان أبوه صورة محببة يحتفظ بها، وعند الآخر كان أبوه رسولاً هاتفا بوحى يتعين تفسيره والحكم عليه.

كان السفر حقيقة أساسية فى تاريخ أسرة چيمس. كان مستعانا يلجأ إليه - بصفة اعتيادية - باعتباره وسيلة لتربيـة النـاشئة من الصغار وعلاجًا طبيًا للكبار - أيا كانت أوجاعهم وأسقامهم، سواء للجسم أو العقل. ومن ثم فإن أحداث السفر وطوارئه كفت عن أن تكون أحداثا أو طوارئ.

إن التعرض المتكرر المتعدد للمناظر الطبيعية بموضوعاتها المتعددة المختلفة من الخشونة البدائية الفطرية أو من الثقافة الإنسانية، أصبحت قوام طعام وليام چيمس ومن لوازم العيش لديه.

---

(14) S.B.O., 68.

إن المقارنة بين الأنماط العديدة للحضارة الأوربية، وفوق كل شيء بين أوربا وأمريكا، أصبحت عنده تكاد تكون ضربا من المحاوطة الملازمة التى تبلغ حد العقدة النفسية. ولقد اكتسب مرانا ويسرا فى قراءة وحديث اللغات الأوربية فى وقت مبكر بدرجة كافية خصبت دورة النمو برمتها فآتت أكلها ثمراً جنيا.

وقُرئت الكتب - كتب من كل صنف ووصف - لأن الكتب يمكن قراءتها أينما يحل المرء، أو حتى فى ترحاله. أن نغم السفر نفسه تغلغل فى ثنايا روح وليام چيمس حيث كانت سجاياه ونزعته وسليقته مهيأة ومواتية من قبل لتلقى هذا النغم.

فلم يكد يترك مهد الطفولة حتى بدأ يعتبر كل العالم وطنا له، يحن إليه ويشتاق حنين واشتياق المرء لمسقط رأسه، وطفق يطير من فن إلى فن، تارة يحن إلى الوطن والبيت راغبا فيهما بكل شغف ولهفة، وطورا راغبا عنهما يريد الهرب منهما بنفس الشغف واللهفة. كل مكان يحل به يحبه ولكنه يهفو إلى الأحسن البعيد.

سنشهد أولا أسفار وليام وهنرى الصغير فى سنة ١٨٤٤ - فى أثناء تلك الإقامة القصيرة المدة المشهودة - فى أوربا عندما مر والدهما بتجربة تغيير مذهبه الدينى. كان وليام آنئذ قد بلغ عامين وخمسة شهور، وكان هنرى عمره عام واحد. وسنرى أن وليام كان قد أصبح فعلاً أقل «طيبة وصلاحا» من هنرى، وأكثر ذلاقة وطلاقة لسان. والرسالة كتبها الأب إلى الجدة - المسز وليام چيمس - من أهالى ألبانى:

وندسور أول مايو سنة ١٨٤٤

والدتى العزيزة

كان الجو هائجا مائجا إبان رحلتنا إلى فرنسا، ولقد عوملنا أسوأ معاملة - ولم ينج من هذه المعاملة أحد منا - ابتداء منى إلى الصغير المسكين هنرى. لم يسبق لى أن أصبت بمثل ذلك الدوار البحرى من قبل. أما ويلى فقد طارت نفسه شعاعا ولم يدر ما يفعل وطفق يصرخ بلا انقطاع طالبا «إزالة الشعرة من فمه». ولقد ابتهجنا كثيراً بالعودة إلى إنجلترا التليدة المهندمة. والجو فى غاية الإمتاع لذيذ جداً - الأشجار مورقة، والأزهار متفتحة، والعشب مخضر، والهواء طيب الأنسام له عبير وشذى وأريج، تفوح منه بحيث تضارع أى حانوت حلاق. وبعد أن رسونا على الشاطئ ذهبنا إلى كلفتون، ولكنا سرعان ما يممنا شطر وندسور، إذ لم نجد غرفا لائقة تماماً هناك إلا فى قلب المدينة.

وهنا فى وندسور وجدنا مقرا مريحًا آخر الأمر. إنه كوخ صغير يقع بين المنتزه الكبير والمنتزه الصغير، وهو مجاور لمقر دوقة كنت، وفى مواجهة مدخل المنتزه الصغير. وفى وسع ويلى وهارى أن يتحدثا من نوافذ غرفة الأطفال حديثا بهيجا مع الأغنام والماشية التى ترعى بأسفل الوادى طوال اليوم. لم يسبق لى فى حياتى أن شاهدت بقعة أكثر جمالا وبهاء وسحرا من هذا المكان. والأطفال على ما يرام - عموما - فيما عدا أسنان هارى التى تزعجه فى بعض الأوقات - ولكنه فى أطيب صحة تضارع طول اليوم وعلاوة عليه الليل. وويلى أيضا يتمتع بصحة جيدة عندما نستقر ساكنين. إن رحلة باريس اللعينة آذته قليلا، ولكنه الآن قد استرد عافيته. فى غاية الظرف والمرح - ويسمينى «هنوى» (إذ لا يستطيع أن ينطلق الـ ... رى) وينادى أمه «ماوى» - ويتحدث مرارًا وتكرارًا عن رحلته عبر المحيط وعمن لقيهم ابان السفر.

إننا جميعا نذكرك بكل حب وحنان - يا أمى العزيزة - فاقبلى منها جميعا أرق الحب وأصدق الإخلاص، وخصوصا من

ابنك هـ.

إن الفترة بين العودة من أوربا فى سنة ١٨٤٥، والرحيل إلى أوربا فى سنة ١٨٥٥، هى الفترة التى تضمنها كتاب هنرى چيمس: «صبى صغير وآخرون»، وبصفة خاصة ذلك الآخر الأقل صغرا، والذى هو الموضوع الرئيسى لهذا الكتاب الحالى. وكما انعكست تلك الصور من الماضى البعيد الذى استرجعه الأخ الأصغر، يتضح أن تثقيف وتعليم هذين الولدين الصغيرين كان حتى سنة ١٨٥١، أمانة عهد بها إلى سلسلة من «السيدات المربيات». وبعد سنة ١٨٥١، نجد سلسلة من المؤسسات التربوية، التى يغلب عليها عنصر الرجال، والتى كانت أكثر تنظيما فى آن. فثمة معهد فرجنيه الواقع أسفل برودواى، بجوه المجلجل المصرصر من اللغة الأجنبية والمزاج الأجنبى، وهناك أيضًا أكاديمية المستر ريتشارد بولنج جنكز، حيث كان يعلم المستر كو مادة الرسم، وهو الذى كشف موهبة وليام، وأخيراً كانت هناك مؤسسة فورست وكواكنبوس حيث صادف هنرى «آفة الحساب المرعبة»!.

على أن أوضح خصيصة مميزة لتلك الفترة التعليمية - والفترة التى أعقبتها - هى التغير. «ما كان فى وسعنا أن نغير كل هذا التغيير، إذا كان ثمة اعتراض عنيد على حضورنا، ومع ذلك فإنى لعل يقين باطنى، وأخى على ما كان عليه من ذكاء وحيوية،

وأنا على ما كنت عليه من عقبى حميدة وسلامة عقل، بأن هذا اللوم لم تظهـر له أية بينة فى منزلنا أبداً».

ومن ثم فيبدو أن العيب لم يكن فى الأولاد الصغار، وإنما كان فى المدارس، بناء على حكم والد الأولاد الصغار. أما چيمس الكبير فقد بدأ يتململ - ضيقا وتبرما وسخطا - من مدارس نيويورك. وعلاوة على ذلك فقد كانت هناك أيضا مسألة اللغة.

وفى هذا الصدد كتب لصديقه أدموند ومارى تويدى، اللذين كانا قد سافرا إلى أوربا من قبل، وأسهما فى تحويل أفكاره إلى هذا الاتجاه(١٥): «فى وسعنا أن نذهب إلى بلاد أجنبية، ونربى الأولاد فى رطانات ولهجات غريبة».

وأخيراً، وبعد تفكير طويل، صدر القرار الخطير الشأن، وأبحرت الأسرة كلها إلى ليفربول فى ٢٧ يونيه سنة ١٨٥٥. وقد توقفوا فترة طويلة فى لندن حتى أبلٍّ هنرى الصغير من نوبات حمى الملاريا التى أصابته، ثم رحلوا إلى باريس، ومنها إلى ليون بالقطار، ومن ليون فى «المركبة المتنقلة» إلى جنيف حيث استقر بهم المقام فى باكورة أغسطس، وهناك «وفقوا إلى إدخال الأولاد جميعا فى مدرسة - وهى مدرسة المستر روديجر»(١٦). على أن «مثوى روديجر العليم بعدة لغات» أخفق فى تحقيق ما بشر به من أمل فى أول الأمر. ولقد كتب هنرى فى معرض الحديث عن تلك الخبرة يقول: «لقد ارتحلنا عبر البحار تراودنا فتنة المدرسة السويسرية نظريا، ولكن المدرسة السويسرية عملياً - سرعان ما خيبت آمالنا وفقدت سحرها وفتنتها على أيدينا».

وما حل شهر أكتوبر حتى شهد الأسرة تعود مرة أخرى من حيث أتت، سالكة نفس الطريق من ليون إلى باريس إلى لندن، ترافقها أول مربية من سلسلة المربيات الفرنسيات التى قدر لها أن تطول وتطول. وهنالك استقر بهم المقام أولا فى ميدان بركلى، ثم - قبيل عيد الميلاد - فى سانت جونز وود، حيث كانوا جيرانا لويلكنسون،

---

(15) S.B.O., 16, 222 and Passim.

(16) August 13 (1855), to Mrs. W.J. of Albany.

وحيث «تمتعوا بحديقة فسيحة ونعموا بمنظر شائق»[١٧]. وهنا - قدر لشخص يدعى روبرت تومسون الأسكتلندى الأصل، والذى كان يوما ما معلما، أو ر.ل. ستيفنسون أن يصبح آخر وسيلة للتعليم الأصولى النظامى.

ولقد اختلفت نظرة الأخوين فى تقدير تلك الفترة من حياتهما اختلافا بينا. فهنرى يقول:

«أتذكر، عندما أرجع البصر إليها من منظور ما تلاها من الأيام كيف اشتكى منها و.ج إلىّ، وشهر بها ومعها السنة التالية وبعض الشهور التى قضيناها فى باريس، على اعتبار أنه وقت مجدب قاحل بائس يرثى له - حيث إن كلينا - وقد فاتنا كثير من الفرص والعلاقات التى كان فى وسعنا أن ندركها، لم نفعل شيئًا، وإنما مضينا معا لا نلوى على شئ»، فى أسوأ حالة مريعة من الحشمة نسير جنبا إلى جنب، لابسين قبعتين صغيرتين «عاليتين» وقفازين راسخين، كما تقضى أصول اللياقة فى زى الأطفال المناسب للمكان والزمان، ونحن نحملق فى منظر الشارع الأغبش، ونتسكع أمام واجهات الحوانيت، ونشترى ألوان الرسم والفرش التى كنا نلطخ بها صفحات الرسم الخالدة».

ثم يضيف إلى ذلك قوله: إنه بينما كان وليام (يشعر بمحفزات أعمق وحاجات أشجع كان هو نفسه لا يحس إلا «بإحساس أسيف مغم» لافتقاره لتلك المحفزات والحاجات)[١٨].

وفي يوليو سنة ١٨٥٦، عندما استبدل باريس بمنظر لندن، حل مستر ليرامبرت محل روبرت تومسون. «وكان مستر ليرامبرت نحيفا هزيلا متسربلا بحلة سوداء ضيقة، ويلبس نظارة، وكان شاحب الوجه، صاحب عقل راجح على نحو بارز»، وكان يريد مدرسته فى سلاملك بأعلى مخرفة شانزيليزيه بين روند بوا وشارع الكوليزيه. وفى نهاية الشتاء، عقب «قلط» انتهى بقطع العلائق مع المستر ليرامبرت، انخرط الأولاد فى سلك معهد فيزانديه بشارع بلزاك، طالبين منتسبين. وكان فيزانديه من أتباع فورير، وكان معهده يضم أشخاصًا من مختلف الأمم والأعمار، وخليطًا من الجنسين،

---

(17) S.B.O., 286 ff., 294, 303.
(18) S.B.O., 301.

بمثابة «عصبة أمم» - و «إن لم تتمثل فيه أمم الأرض على الإطلاق، فقد كان على الأقل يوحى بالعالمية والرابطة الدولية - أو على أية حال كان زاخرا بخصوبة تضفيها عليه مثالية جسور»[١٩].

ولقد شهد شتاء عام (١٨٥٦-١٨٥٧) إظهار هذين العقلين الحساسين الآخذين فى النضج والاستواء ليس على الحياة الباريسية فحسب فى مناظرها ومشاهدها، ولكن أيضا على كنوز اللوفر ولوكسمبورج. وهنالك أشبع وليام شغفه بالرسم - ذلك الشغف الذى سرعان ما أكد ذاته - فنهل من مناهل تلك المتاحف على ظمأ، وعبَّ منها بلذة حتى شبع وارتوى. وفى هذا الصدد كتب هنرى:

«أتذكر كيف كان يتحسس بيديه - مرارًا وتكرارًا - ديلاكروا، الذى كان يجده دائمًا وفى كل مكان مثيرًا ولذيذا، إلى درجة مرهقة، محاولا تقليده بأقلام الفحم أو الطباشير الملون، بطريقته الخاصة التى لم تكن تقل روعة فى الأسلوب والأداء عن أسلوب ديكامب الذى كنا نعتبره عبقرية فذة من نفس تلك الفصيلة النادرة التى ينتمى إليها ديلاكروا. لقد كانت فصيلة بها عرق باطنى من الإحساس الذى لا ينطق به، ومس من المبهم العويص، وكان فارس حلبتها على وجه الأخص ديلاكروا الذى امتاز بخاصية ما فوق الحصر - وكلها مرتبات - كنا قد بدأنا - حتى فى تلك المرحلة المبكرة - بنقلة سعيدة - نصبو إليها فى استرخاء وحنين»[٢٠].

ولقد مست تلك الخبرات - عند هنرى - جوانب أكثر من الجانب الفنى. فلقد كانت بالنسبة إليه «تعليمية وتكوينية ومخصبة». ثم يمضى فى هذا السياق فيقول:

«وعلى أية حال فقد كانت هذه بعض السبل غير الواضحة لالتقاط تعليم ما واستجماع تربية ما، ولقد كنت على الرغم من الغموض بعيدًا جدًا عن الموافقة مع أخى فيما بعد، على أننا لم نلتقط تعليمًا ما ولم نستجمع تربية ما، وأن ذلك لا يحدث مطلقًا. بيد أننى لم أكن - فى أى معنى من المعانى - غافلاً أو مقصرًا. ولكنى أقول إننى كنت منشقًا وخارجا على رأى أخى لدرجة أننى تماديت فى تمجيد تلك المسالك واعتبارها جزءًا من نسق منتظم حقًا وفعلاً»[٢١].

(19) Ibid., 326-7, 364.
(20) Ibid., 345.
(21) Ibid., 349. 352.

وفى صيف سنة ١٨٥٧ – تحت وطأة دوافع اقتصادية – أجَّرت الأسرة من الباطن مسكنها فى باريس الكائن بشارع مونتاين، وانتقلت إلى بولون، حيث التحق الولدان بالكلية المحلية، وهناك شعر وليام – الذى كان قد بلغ آنذاك ستة عشر عامًا – لأول مرة بمزايا وفوائد التعليم الطيب والملازمة الموصولة. بيد أن هنرى الذى كان يصغره بعام، وجد بولون مكانًا قفرًا ومجدبًا نسبيًا.

«ويلى مشغوف جدا بالأبحاث العلمية، وقد كرس نفسه لها، وفى مرجوى أن تؤتى أكلها ويصبح عالمًا محترمًا يستحق الاعتبار. ولقد واظب على حضور الدراسة فى كلية إمبريال هنا طوال الصيف. ولقد أخبرنى أحد أساتذته منذ أيام أنه «طالب باهر، وأن كل المزايا التى تهيئها تربية علمية من الطراز الأول فى باريس ينبغى أن تمنح له». على أنه أكثر معزة فى قلبى من أجل قيمته الأخلاقية، أكثر بكثير من قيمته الفكرية. لم يسبق لى مطلقا أن عرفت صبيا عنده كل هذه المبادئ، وفى نفس الوقت يمتاز بكل هذا الكمال الخلقى والسماحة والحب والموادعة نحو إخوته الصغار، إنه يجنح دائمًا إلى تقديم العون لهم دونما استبداد أو ظلم أبدًا. أما هارى فليس مشغوفا بالدرس مثلما هو مشغوف بالقراءة، أقصد الدرس بمعناه المتعارف عليه. أن لديه موهبة جبارة باعتباره كاتبًا، ولكنى فى حيرة لا أستطيع معها أن أتبين إذا ما كان سينجز الكثير فى هذا الصدد وينال بغيته»[٢٢].

ولقد حفظت لنا ذاكرة مغامر آخر من صبيان الأسرة، هو روبرتسون جيمس، الذى كان عندئذ فى عامه العاشر والحادى عشر من عمره، حفظت لنا تفاصيل هذه الإقامة الأوربية:

«شغب وإخلال بالأمن فى حديقة ريجنت، حيث يطلق الرجال المتطون الخيل النار على الناس – فى ثورة الخبز. مساء تلك الليلة فى لندن عندما كانت متأججة بالألعاب النارية وبالصواريخ ابتهاجًا بالسلام بعد توقف حرب القرم، الملكة التى تجلس فى مركبتها الملكية المذهبة فى طريقها إلى البرلمان. التمثيل الصامت الضحك لعيد الميلاد – «بنت صائد الفيران» – ميدان بركلى... – ..... – الدكتور ويلكنسون – حرس الفرسان. المستر ثاكارى الذى حملنى على عاتقه، ثم بولون فوق البحر – وكلية المجلس البلدى بسقفها المزخرف الفاخر، حيث ذهبنا – وليام وأنا – وفشلنا فى الحصول على جوائز... إن الشىء الوحيد الذى يقال عنها هو: إنها كانت طفولة جميلة زاهية لأى طفل له أن يعيشها.

(22) Dated Boulogne, October 15, 1857.

وإنى لأتذكرها الآن بحذافيرها زاخرة بالرفق والانغماس والضوء واللون. وبكل ما تشتهيه النفس من منى لم نحرم من إشباع أية واحدة منها تقريباً»(٢٣).

على أن عقل وليام وملاحظاته، وما تهفو إليه نفسه، وما تنقب عنه روحه إبان هذه الأوديسه الأوربية، قد سجلت جميعها بغزارة وصراحة وإخلاص فى عدد من الرسائل كتبها لرفيق صباه «إدجار. ب. فان وينكل» من أهالى مدينة نيويورك(٢٤). ومن الجلى أنه كان مشغول البال باختيار مهنة، وأنه كان يفحص الأمر ويقلبه على وجوهه فى ضوء كل الممكنات الكونية. ومن الجلى أيضا أنه قد تشرب من أبيه ومن المستر فيزانديه تفاؤل فورير الذى عزا كل شرور العالم إلى الحالة المختلة المعتلة، ولكن القابلة للشفاء، للمجتمع الإنسانى:

وإليك (نتفة!) من «تدفقات» وليام:

٢٩ جراند رى - بولون فوق البحر، ١ مارس سنة ١٨٥٨

عزيزى إد

تسلمت جوابك الكريم الفورى فى الأسبوع الماضى.. وأريد الآن أن أفضى إليك بدخيلة نفسى، فأخبرك بصراحة عن تفكيرى. إن اختيار مهنة يهذب كل من يبدأ الحياة، ولكن ليس ثمة داع يجعل ذلك ضربة لازمة، أى لا يوجد سبب يحتم ذلك إذا كان المجتمع منظماً تنظيماً مناسباً معتدلاً. أعتقد أن كل إنسان ينبغى أن يعمل فى المجتمع ما يطيب له أن يعمله إذا ترك لنفسه، وأعتقد أننى أستطيع أن أبرهن لك على حجتى برهاناً قاطعاً.

فأولا: ما الذى ينبغى أن يكون مأرب كل امرئ فى الحياة؟

أن يكون ذا نفع بقدر الإمكان. افتح قاموساً من قواميس السير وتراجم الحياة. كل اسم يتضمنه قد أثر بعض التأثير على الإنسانية. إن خيراً وإن شراً، وتسعة وتسعون اسما من بين كل مائة اسم تجدها ذات تأثير خير، أى نافع. ولكن ما معنى النفع؟ حلل أى اختراع نافع أو حياة

(23) R.J. A.H.J., February 24, 1898. Another Extract from this letter appears above. 15.

(24) Edgar Beach van Winkle was born in the same year as W.J., (1842), was graduated from Union College in 1860, served in the Civil War, and was for many years Chief Engineer of the Department of Public Parks of New York.

أى رجل نافع، وستجد أن نفع الاختراع أو نفع الرجل قوامه شىء من السرور أو اللذة – العقلية أو الجسمية – يضفيها الاختراع أو الرجل – باعتبارها نعمة على الإنسانية. وفى الآونة الحاضرة فإن النعمة الجسمية تحظى بكل احترام – وبعدل.

وبالطريقة اللعينة التى ينظم بها المجتمع الآن – عندما لا يكون فى وسع امرئ أن يضمن ذلك القدر من الطعام والوفاء والكساء المكفول للأنعام ووحوش البرية – والذى يعتبر حقه بالميلاد سواء بسواء كالهواء الذى يستنشقه، عندما تخمد أنفاسه ويخنق ويسحق على يد أخيه الإنسان، عندما يتكاتف الناس على حرمان الناس، ويتعاونون على الإثم والعدوان، ويحرم المرء من كل شىء، ولا تبقى له إلا حياته – التى تستل أنفاسها منه أحيانا عسفا وجورا – عندئذ تصبح المخترعات المادية التى تضع كل ضرورات الحياة فى متناول يده فى المقام الأول وتحظى بأعظم احترام وحفاوة، فى هذه الآونة، فإن مثل تلك الاختراعات وحدها هى التى تسمى «نافعة». ولكن. افرض أن الناس (لم) يسلكوا مسلك الشياطين. افرض أن الغذاء والكساء والدفء كفلت وضمنت لكل فرد، فمن الذى يحظى – من ثم – بإكرام الناس واحترامهم؟ من الذى سيعتز به الناس ويعظمونه؟ ليسوا فقط مشيدى القناطر والنفق، وليسوا فقط مخترعى القاطرات البخارية ودواليب الغزل، ولكن كل أولئك الذين أسهموا بقسط فى إنتاج السرور للآخرين – سواء أكان ماديًا أم روحيًا. وفى مثل هذا الوضع فى المجتمع (الذى سيأتى سريعًا – فيما آمل) فسيتبع كل امرئ أذواقه ويمضى على سجيته لا تعوقه معوقات، فيتفوق ويبرع بأقصى ما يمكن فى العمل المعين الذى خلق له، ومن ثم فإن من واجب كل امرئ أن يفعل الخير بأقصى ما فى مستطاعه. ولعلك تقول: إن من واجب كل امرئ أن يعيش كالقديس بأقصى ما فى مستطاعه، وأن يصوم ويصلى وهلم جرا. لك ذلك – كما يقول الأيرلنديون – ولكن ذلك ليس هو كل شىء. فعلى المرء أن يفعل ذلك، ويفعل شيئًا أكثر من ذلك. إن خير سبيل لعبادة الله وخدمته هو أن تخدم أخاك الإنسان «فالعابد التقى هو الذى يسع قلبه حب الإنسان والطير والأنعام». من جهتى أنا، فأنا مؤمن أعظم الإيمان بالخير الفطرى للجنس البشرى. إننى أحب كل إنسان، وكل كائن حى، وكل جماد.

عندما أذهب إلى الشاطئ، عندما أتطلع إلى السماء والبحر والجبل العتيد الرائع، فإننى أشعر بنوع من الجذل الفطرى المتهيج الذى يجعل قلبى يقفز إلى حلقى، وتذرف عيناى الدموع. وفى طريق عودتى إلى البيت عبر الميناء الزاخر، بالرفاق الأعزاء من صائدى الأسماك الذين مسهم الكبر، فى ثيابهم الرثة القذرة، فإننى أشعر بحنين جارف وإكبار لهم، كما لو كنت قادرًا على أن أعانقهم جميعا وأضمهم إلى صدرى. نعم، البشرية كلها خير، وحالما تلغى الحكومات والقسيسون فلن يكون هناك ثمة شىء يسمى إثما أو ذنبا. لا يوجد شىء يسمى قلبًا شريرًا. أنا على يقين بأنك وكل امرئ آخر لابد وأن يشعر بنفس هذا الشعور. كل الشر الذى فى العالم مصدره القانون والقسيسون، وكلما عجلنا بزوالهما أو إلغائهما، كان ذلك خيرًا وأبقى.

ولكن فلننظر الآن فى واجبنا. لقد سبق أن قلت مراراً وتكراراً: إن واجبنا هو النفع. من ذا الذى يريد أن يمضى فى الحياة دون أن يخلف وراءه علامة دالة على مروره ورحيله؟ من ذا الذى يفضل أن يعيش مغموراً مجهولاً لا يعرفه أحد سوى نفر ضئيل من عشيرته الأقربين وأصدقائه الملازمين، ثم يصبح نسياً منسياً من الجميع فى مدى ثلاثين عاماً بعد موته إلى غير رجعة؟ لأى سبب وهبنا الحياة؟ افرض أننا لم نفعل شيئاً ثم متنا، إننا عندئذ نكون قد غبنا المجتمع غبنا واختلسنا الزمان اختلاساً.

إن الطبيعة - بمنحها لنا الحياة تطوق أعناقنا بدين يتعين علينا الوفاء بتسديده ودفعه يوما ما. رأيت اليوم فى المدرسة عبارة لروسو أوافق عليها تمام الموافقة: «ما هى عشر أو عشرون أو ثلاثون سنة فى حياة إنسان خالد؟ إن اللذة والألم تنقشعان كالظلال. والحياة تنتهى فى لحظة خاطفة كلمح البصر، وهى فى حد ذاتها لا شىء. وقيمتها تتوقف على النفع الذى تضعه فيها. أن الخير الذى فعلته هو الباقى - فحسب - والحياة قيمة بهذا الخير - فحسب». من الصعب أن أترجمها إلى الإنجليزية، ولكن هذا هو المعنى الإجمالى. على أننى لا أقصد بالخير مجرد القوة، عضلاً وعصباً. إن أى عامل عادى يحفر قناة - له نفع - ما فى ذلك شك. ولكن أى نوع من النفع؟ ثمة آلة يمكن اختراعها لتحل محله، وسيتم حفر القناة وتؤدى وظيفتها تماماً كما لو كان هو الرجل العامل بكل روحه وعقله يؤدى العمل فيها. إن النفع الحقيقى أو الخير لا يتألف إذن من مجرد القوة البهيمية. وإلا. فما جدوى عقولنا التى أودعت فينا إذا لم يكن القصد منها هو استخدامها؟ ومن ثم فلزاما على كل منا، بطريقته الخاصة وسبيله الميسر له أن يلتمس شيئاً جديداً... شيئاً لا يتم دوننا.

قد يلقى الشعراء السخرية والاستهزاء ويقال إنهم فى كل واد يهيمون، وإنهم يقولون ما لا يفعلون، ومن ثم، عديمو الفائدة. ولكن. افرض أن مؤلف «مزامير الحياة» كان قد حاول أن يخترع المحركات البخارية (والتى أعتقد أنه لم تكن عنده العبقرية لها) على أمل أن يكون نافعاً، فكم من الوقت كان قد أضاعه وبدده؟ وكم كان يكون نصيبنا من الخسارة والخسران؟ ولكنه أحسن صنعا لأنه تبع ذوقه، وافتدى حياته، وأعتقها بكتابه «مزامير الحياة» الذى يضارع أى إنتاج آخر فى نفعه. إن علمى الفلك والتاريخ الطبيعى ليس لهما نفع علمى كثير، وعلى هذا فلا أهمية لهما تذكر فى الوقت الحاضر ولكنهما مصدراً لذة ومتعة وسرور تفوق الوصف لأولئك الذين يعنون بهما، ومن ثم فهما نافعان. وعندى أن المرء الذى أقبل عليهما بحافز من ذوقه وحواسه وسليقته، ثم يحاول أن يفعل شيئاً أكثر نفعاً فيحمل نفسه على اصطناع اكتشافات قليلة الأهمية، فإنه يبوء بالخسران ويضل ضلالاً بعيداً.

أعتقد أنك الآن توافقنى على أن كل إنسان ميسر لما خلق له، وأن لكل امرئ نفعه الخاص به، وأنه يعتبر خائناً خاثراً إذا ما آثر أن يتخلى عن ذلك، ويعدل عنه إلى أى شىء آخر لا تهفو إليه نفسه، ولا يسيغه ذوقه، وليست عنده ذرة من الاستعداد له. حمدا لله، الذى اقتضت مشيئته ألا يعيش الإنسان بالخبز وحده. أريد أن أكون رجلاً، وأن أفعل بعض الخير، أيا كان. فإذا اتبعت ذوقى وفعلت ما يوافقنى ويناسبنى، فسأخبرك بما أريد أن أفعل. سأحصل على مجهر وأيمم شطر الريف، إلى الغابات العتيدة العزيزة، والأرض الطيبة والبحيرات والبرك. هنالك سأكتشف أكثر ما أستطيع

إليه سبيلاً، وسأكون جديراً بالرفس، إذا لم أكن أكثر نفعا مما لو أننى آثرت أن أمد قضبانا للسكك الحديدية، وفقًا لقواعد ومقاييس وضعها غيرى وتعلمتها منهم. فإذا كنت فى الحالة الأولى لا أزكى وجودى وأحتقه على نحو أفضل مما هو فى الحالة الثانية، فلست إذن رجلا وما أنا بإنسان. سأخبرك بما أظن أنى فاعله. سأكون فلاحا، وأفعل ما فى وسعى من الخير والنفع فى ميدان التاريخ الطبيعى. أما مدى ما أستطيع أن أنجزه، فالله وحده به عليم. كل ما فى وسعى أن أقوله هو؛ إننى أدعو الله مخلصًا أن أنجز شيئًا.

فى رسائلى السابقة أظهرت كثيراً من التعصب التعس ضد الفرنسيين. وإنى لأشعر بالخجل والعار من صميم قلبى. إنى أحب الفرنسيين أكثر وأكثر بمرور الأيام. عزيزى إد، لا تستسلم للتعصب أبدًا. إن الطبيعة الإنسانية واحدة فى العالم كله. ولها أخطاؤها وضروب عجزها ونقصها فى كل مكان، ولكنها - أيضًا - وفى كل مكان خيرة طيبة فى صميمها.

أرجوك أن تكتب لى عاجلاً يا عزيزى إد، وخبرنى برأيك، فعندك ترجى نظرة الصدق. بارك الله فيك.

أستودعك الله. اكتب سريعًا. صديقك

و. چيمس

وفى ربيع سنة ١٨٥٨، رحلت الأسرة بقضها وقضيضها من بولون على البحر عن طريق ألبانى، إلى نيوبورت فى رود أيلاند، حيث جذبهم بلا ريب قرب صديقيهم المقربين أدموند ومارى تويدى. وهنالك استقر بهم المقام زهاء خمسة عشر شهراً. فأما الولدان الأكبران فقد ألحقا بمدرسة وليام ليفريت، حيث زاملا توماس سارجانت بيرى وستيل مال كان باعتبارهما رفقاء فى الدراسة. ولقد وصف توماس سارجانت بيرى زميليه وسجل انطباعاته عنهما: جولاتهم الطويلة معًا كل عصر، هنرى «الذى كان يجلس على مقعده فى النافذة، يبدو عليه نوع من الشرود والنأى»، «طالب لا يحفل بالدراسة»، وإنما شغله الشاغل هو الأدب. ووليام الذى «كان مفعما بالمرح والبسط» على الرغم من أنه كان يتحدث عن شوبنهاور ورينان(٢٥).

(25) The Letters of Henry James, edited by Percy Lubbock, Charles Scribner's Sons, 1920, 1, 6-8.

ولكن الحقيقة التى تبدو أكثر أهمية ودلالة من كل ذلك، هى أن وليام كان يتلقى دروسًا فى الرسم على يد وليام موريس هانت، الذى كان يعيش مع تلميذه چون لا فارج فى نيوبورت، والذى كان له الفضل فى إذكاء الشغف بالفن فى روح وليام، ذلك الشغف الذى ملك عليه نفسه بعد عام، بحيث أصبح لا سبيل إلى مقاومته. وكان وليام تواقا لمرافقة صديق فان وينكل فى كلية يونيون، ووجه دراساته فى الخارج - إلى حد كبير - ابتغاء هذا الهدف. ولكن سلطة أبيه كانت عند هذه النقطة أقوى من تساهله وتسامحه. وبناء على ذلك كتب وليام لصديقه فان وينكل فى الثانى عشر من أغسطس سنة ١٨٥٧، يبلغه خيبة أمله وإخفاقه فى مسعاه:

«عندما فارقتك منذ أيام، كنت على يقين بأنى سأصبح بعد شهور قليلة «زميلا» أنعم بصحبتك فى كلية يونيون. ولكنى كنت مخطئا وواهما، إذ لم أكد أطرق الموضوع مع والده حتى تبينت - مما أثار دهشتى ومباغتتى - أنه لن يسمح بأى كلام. ولن ينصت لأى حديث يتعلق بذهابى إلى أية كلية - أيا كانت. إنه يقول: إن الكليات مراتع للفساد والفسق، حيث يستحيل على المرء أن يتعلم أى شىء. أعتقد أن هذا الرأى جائر جدا، ولكنى طبعا ينبغى علىَّ ألا أعطى له أمرا على الرغم من رغبتى الشديدة فى الالتحاق بكلية يونيون. ومن المرجح أننى سألتحق بمدرسة العلوم فى هارفارد. وعلى أية حال فعلىَّ أن أنتفع من ذلك بأكثر ما يمكن، وأشرح صدرى وأيسر أمرى لنفسى، على الرغم من أننى أشعر بالأسف الشديد لعدم التحاقى بكلية يونيون التى أعتقد أنها أنسب مكان لى».

ورسمت الخطط للعودة إلى أوربا ثم ألغيت. ثمة شىء واحد كان واضحا لا لبس فيه، هو أن تحركات الأسرة كانت تمليها وجهة النظر الأبوية، بالقياس إلى المطالب التربوية للأطفال، وما تقتضيه من تدابير، وكما عبر عنها وليام لصديق فان وينكل:

«لقد انتهى الوالد إلى قرار نهائى، قوامه أن أمريكا ليست المكان المناسب لتربية «شباب مستقيم» مثلى ومثل إخوتى. ومن ثم اتخذت تلك الخطوة، وذلك صحيح إلى درجة كبيرة، وعلى هذا فيتعين علينا أن ننتفع بأكثر ما يمكن من منفانا. لقد شعرت بخيبة أمل كبيرة، لأننى وقد طرحت كل تفكيرى فى اليونيون ويئست من الالتحاق بها، وضعت نصب عينى الالتحاق بكامبردج. وفى مرجوى ألا تضيع الفرصة، ويكون الوقت قد فات عندما نعود إلى الوطن، وسأكون فى غضون ذلك قد أتقنت الألمانية.. إلخ... إلخ... إلخ... وكما تجرى الأمور بوضعها الراهن، فإننا قد زرنا الوطن - وهذا كل

ما فى الأمر – ولقد كانت زيارة سارة بارة. لشد ما أحب أمريكا العزيزة العتيدة، وأمل أن يظل قلبى ينبض بحبها فى السراء والضراء. شىء واحد أنا على يقين منه، هو أن إقامتى بالخارج لن تغربنى عن بلادى ولن تجعلنى غير لائق للعيش فى وطنى»(٢٦).

ويتجلى تفكير الأب إبان تلك الفترة، والفلسفة التربوية التى ينطوى عليها سبيله المتذبذبة بعض الشىء، فى الفقرة التالية من رسالته التى بعث بها إلى السيدة فرانسيس ج. شو، والتى حررها فى نيوبورت بتاريخ ٢ يوليو سنة ١٨٢٩. ولقد أشار فيها إلى «عودته اللاحقة من چنيف»:

«اعلمى إذن أننا تواقون إلى أن تكون لنا تلك الجنة التربوية نزلا. ليس فى وسعنا الحصول على مسكن فى كامبردج، ونحن نجنح إلى الرأى بأنها لن تكون المكان المناسب لنا فى كل الوحدة، إذا استطعنا أن نوفق إلى مسكن بها. وعلاوة على ذلك فلست أتطلع إلى تعليم أولادى بالكلية، ورغبتنا فى كامبردج لم يكن الحافز إليها سوى إلحاق ابنى الأكبر بمدرسة العلوم. ولكننا ربما لا نذهب حيث إنه لم يستقر لنا رأى بعد. والحقيقة يا عزيزتى مسز شو هى: إننى ليس لدى إلا رأى واحد ثابت لا يتزحزح حيال كل الأمور. هو؛ أنه سواء أبقينا هنا أم رحلنا إلى الخارج، ومهما دهى أولادى العزاز ونزل بهم من أحداث فى هذه الدنيا، فإننا جميعا – هم وأنت وأنا – متشابهون، سواء بسواء، ونحن آخر الأمر مخلوقات الله كليا، وهو الذى يحيينا كل لحظة ويرعانا ويكلؤنا بعنايته كل لحظة، ويهدينا سواء السبيل بحكمته المنزهة عن الخطأ، وكرمه وفضله ورحمته الطاهرة. ومن ثم فليس لأحد منا أقل حق فى أن يداخله القلق أو الجزع أو يعير سمعه فى أى ظروف يمكن تصورها إلى وسوسة الهلع».

وهكذا ارتحلوا جميعا فى اليوم الثامن من أكتوبر سنة ١٨٥٩، ولكون البندول فى نهاية الطرف الآخر من مساره، استقر بهم المقام ثانيا فى چنيف فى فندق دى ليبكى. وفى هذه المرة بنية تربوية صحت عزيمتها، فأرسل وليام إلى الأكاديمية (التى أصبحت جامعة فيما بعد) ثم لحق به هنرى بعد محاولة جهيضة لتعليمه العلوم والرياضيات فى معهد روشيت. وقد قصد بذلك علاج هنرى من عادة الإغراق المسرف فى قراءة القصص

(26) September 18, 1858.

ولقد رضخ له - بكل وداعة - وإن كانت بلا جدوى. والحصيلة «إخفاق غامض مغلف بالسرية» مما أدى إلى زيادة شعوره بعظمة أخيه بالقياس إلى نفسه:

«أيا ما كان العمل الذى تصادف أن يؤديه (وليام) جعله مشغوفا به، ويقينا بأسرع تلبية مصاحبة لكل شىء آخر، بحيث إن أقصى ما كنت أؤيه طوال ذلك هو: أن أستجمع قواى وألم شعثى وألتقط ما تيسر، بحيث لم يعوزنى الغذاء أبداً، وإنما أتخمت نفسى بالفتات المتبقى من ولائمه الدسمة وبأصداء حياته»[٢٧].

ويبدو أن وليام كان كفئا لأى شىء. ولقد قبل فى منظمة الطلاب المهمة - جمعية زوفينجيو - وفاز بجائزتها (بما فى ذلك الطاقية والوشاح) بزخم واندفاع. ولقد ساس أموره فى دائرة الأسرة بنفس روحه المعنوية العالية المعهودة فيه.

والرسالتان التاليتان كتبهما شقيقاه الصغيران، ويلكى البالغ من العمر آنئذ ١٤ عامًا، وآليس التى كانت سنها اثنتى عشرة - إلى والدهما اللذين كانا قد سافرا إلى باريس ولندن.

جنيف (ديسمبر سنة ١٨٥٩).

والدى العزيز

وصلنا لتونا من المدرسة. ولقد قرأنا رسائلك الحبيبة التى تجعل المرء يشعر بانجذاب شديد نحوك، ولكنى لا أتمالك نفسى من الابتسام على الأسلوب السائغ الرقيق النبيل، والزاخر بالحنين للأسرة، الذى ينساب من كل كلمة. كيف تجد باريس ولندن؟ بودى أن أكون معك هناك مهما كلفنى الأمر، وذراعى فى ذراعك، نمشى معا فى شارع ريجنت أو فى غابة سانت جون. ولكن يظهر أن هذه الأيام الحلوة قد انقضت، وأننا يتعين علينا الآن ألا نعول كثيراً على المسرات التى تجلبها الصداقة أو الرابطة المتحدة، لأننا الآن نكبر فى العمر، وينبغى أن نكون مستعدين لأن نخشوشن، ونقسو على أنفسنا، ونحرم أنفسنا من العواطف المجردة، لكى نستطيع فى مستقبل الأيام أن ننعم بالسلام، وأن

(27) N.S.B., 4, 13. Cf. also William's letter to his father, ibid., 18. The original letter contained "Some very beautiful poetry" composed in honor of Alice, which he said, "loses a great deal by not being sung". "Alice took it very coolly" he added.

ننهل من تلك المسرات والمتع كما يطيب لنا. فى هذا القدر ما يكفى من هذا الكلام على أية حال.... كيف حال آل ويلكنسون. أبلغهم كل حبى، وأخبر المسز ويلكنسون فرط سرورى لتسلمى رسالتها، أو قل لها شيئًا مناسبًا ينفذ إلى أعماق عاطفتها (أنت تعرف ما أعنى).

أبى - إنك لا تستطيع أن تتصور إلى أى حد نفتقدك، وأى فراغ أحدثه غيابك عن هذا البيت؟ حتى وأنا فى المدرسة - بعيداً عن البيت - أشعر بهذا الفراغ (ليس جسمانيا، ولكن عقليا) - أشعر كما لو كان هناك شىء ضائع وغائب، ولكن ليس عندى شك أنه فى صالح الطرفين أن يفترقا من آن لآخر هذه المدد القصيرة. تسلمنا خمس رسائل منذ سفرك، إحداها من لافورج الذى سود لنا أربع صفحات لم يملأها بشىء مهم إلا بما يدور على ألسنة الناس من ثرثرة فى نيوبورت وبالقيل والقال!

ويلى يقاطعنى وأنا أحرر لك هذه الرسالة، ويريد منى أن أذهب معه إلى غرفة الجلوس لكى أسمعه يلقى قصيدة نظمها فى أليس، وقد فرغ لتوه من تأليفها، وهو يتأهب لإلقائها بانتهاج وتلذذ. وسأخبرك عن نجاحها بعد الانتهاء منها.

إنشاد القصيدة كان لا بأس به، وأثار عاصفة من الضحك بين جمهور المستمعين.

إن جعبتى قد فرغت من الأخبار، وموعد نومى قد اقترب، وأجفانى تكاد تنطبق، إلا أننى على الرغم من ذلك أريد أن أبثك فى هذه الرسالة كل ما يعتمل فى صدرى نحوك من حب، وأقول لك إننا نفتقدك كثيراً جداً، وإننا على استعداد لأن نبذل أقصى ما نستطيع لك كى تعود معنا تحت سقف هذا الفندق. وداعا بابا العزيز. ابنك المحب دائمًا.

ج.و. چيمس.

١١ مارس (١٨٦٠)

«والدى العزيز

تسلمنا رسالتين عزيزتين منك، وإنا لنجد أنك ما زلت نفس الأب العجوز الذى لا يصلح لشىء، والذى لا يكف عن الحنين إلى الأسرة، كعهدنا بك دائمًا.

إن ويلى فى حالة عقلية غير عادية، ينظم الأغانى والقصائد فى جميع أفراد الأسرة. ولقد ألف ملحمة للعمة كيت، جعل فيها البطل هو زوجها الذى يموت شهيداً من أجلها، وهو يقول: «تصوروا فكرة أن أى إنسان يموت شهيداً من أجلها».

ولقد انتهينا جميعا إلى قرار أنه خليق بأن يذهب إلى البيمارستان، فبالله عليك عجل بالعودة قبل أن يسبق السيف العزل.

ابنتك المحبة

أليس چيمس

فلا غرو إذن أن نجد هنرى الذى كان يشكو من البرد والجوع وعدم الراحة، والذى وجد البرنز والبالوا «نماذج عجيبة لمتعة الحياة»، قد ألقى سلاحه وهجر فكرة المنافسة، وأنه عاش بقدر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً «بالخيال فى إهاب وليام القابل للتكيف بهذه الدرجة الفائقة»[٢٨].

(28) N.S.B., 14, 15.

(٦)

هل يصبح رسامًا ؟

فى صيف سنة ١٨٦٠، انتقل مسرح الأحداث مرة ثانية إلى بون، وفى هذه المرة قسم الأولاد (باستثناء بوب الذى تخلف فى جنيف) بين أسرتين تتوليان أمر تثقيفهم وتهذيبهم، فكان وليام من نصيب الهر سترومبرج، وهنرى وويلكى من نصيب الهر دكتور همبرت. وكان ذلك إيذانا بأول لمحة عن ألمانيا وبدء التيسير فى إتقان اللغة الألمانية. وبهذه الإضافة فإن حاصل مجموع تعليم وليام ضم معرفة طيبة بالفرنسية وإلماما بالألمانية واللاتينية، ومعرفة بالحساب بوساطة حساب المثلثات، ونتفا متفرقة من العلوم.

على أن هذه الإقامة القصيرة فى بون فى صيف سنة ١٨٦٠، تستحق الذكر بصفة خاصة، باعتبارها المناسبة التى اتخذ فيها وليام قرارًا بدراسة الرسم. ولم يكن هذا القرار مما يثير أى دهشة، فالأمر الذى لا ريب فيه أن الرحلة الأوربية قد دبرت أساسًا بقصد تخليص وليام من ذلك النداء السابى للعقول الذى كان مسموعًا بوضوح فى نيويورك. لقد عالج وليام الرسم والنقش منذ باكورة صباه، ولكن على الرغم من أن شغفه واستعداده قد أكدتهما الأيام طوال سنى حياته، فحتى فى تلك اللحظة لم يكن القرار تامًا. ولقد كان من المأمول أن السفر ينسيه إغراء الفن النحس، ومن ثم يتفادى زواجا بغير كفء كزواج الأشراف بالصعاليك. ولقد وضح الآن أنه لا يستطيع أن يسلوه، وأن التفريق بينه وبين الفن لم يجلب له إلا القلق وزاده شوقًا إليه. ولو أن هذا التفريق

استمر إلى الأبد لكان من المرجح أن تنتابه نوبات من الندم والأسف طوال حياته. وما كان في وسعه أن يفعل إلا ما يفعل كا عاشق نحو محبوبته التي يفترق عنها، فيعود إليها أكثر لفهة وهياما، وربما ينتهي الأمر بزواجها، وربما يقدر له البرء.

والرسالة التالية من چيمس الكبير إلى أدموند تويدي، تفصح عن الشكوك التي ساورت الأب، وتظهر عادته في تلمس الأسباب للتوفيق بين مصلحة الأسرة ككل، وبين أي أمر يبدو في اللحظة الراهنة، أحسن ما يبتغي لوليام.

«بون ١٨ يوليو (١٨٦٠)

«عزيزي العجوز تويدياس:

لم نكد نصل إلى هنا حتى بادر وليام من فوره إلى انتهاز الفرصة لكي يقول لي - ويبدو أنه قد راودته نفسه طويلاً ليفضي إليَّ به، ولكنه وجد من العسير عليه أن يبت في الأمر - إنه شعر برغبة جياشة لاحتراف مهنة الرسام، وإنه يرى أنه لا جدوى من أن أنفق عليه مزيداً من المال أو الوقت في سبيل تعليمه العلوم. وأعترف أن الدهشة عقدت لساني من جراء هذه البشرى، وشعرت بشيء من الحسرة لأنني كنت دائمًا معولاً في حسابي على مسقبل عملي لويلي، وما زال بنفسي الأمل في أنه على الرغم من ذلك سيأتي اليوم الذي تتحقق فيه تقديراتي في هذا الصدد ولا يخيب ظني. ولكني مع ذلك لم أملك سوى الخضوع لمشيئته. وحيث إن باعثنا على الإقامة في أوربا كان مشتقا بصفة رئيسية مما تخيلنا أنه حاجاته التربوية. فالآن يسعدنا أن نيمم شطر الوطن ونعود إلى ديارنا، وندعه يبدأ فوراً مع المستر هنت. وأنا مقتنع بأن مصلحة بقية الأولاد ستراعى أيضا تمامًا مثل مصلحة ويلي من جراء هذا التدبير، فليس فيهم - على سبيل الحصر - من فصل وقدم للكد أو الكدح العلمي، ولقد بلغوا عمرا - خصوصا هاري وويلي - يتوق فيه القلب إلى آفاق أوسع وأرحب مما تتيحه عواطف الأهل. إنهم يريدون أن يتخذوا لهم أصدقاء من جنسهم وصديقات من الجنس اللطيف. وكل ما في مرجوي من أمل في توفيقهم وخلاصهم الدنيوي والروحي هو: أنهما يمضيان إلى غايتهما ويأخذان ما يأخذان «أخذ عزيز مقتدر» في كلتا الناحيتين المادية والروحية عندما يعودان إلى الوطن. بلغ حبي للجميع، واقبل مني دائمًا صادق إخلاصي.

هـ.ج»

والرسالتان التاليتان من وليام چيمس إلى أبويه[1] تلقيان ضوءًا على حياة الأسرة المشتتة إبان فترة بون، كما أنهما تلقيان ضوءا على القرار الحاسم الذى كان عندئذ مشكلة عامة للأسرة. وفى أثناء أغسطس، عندما قضى الأمر ونفذ السهم، كتب وليام من بون لوالديه فى باريس وفى لندن، حيث كان عليهما أن ينتظرا ريثما يلتقى بهما أولادهما هناك قبل الإبحار. على أن مناهضة الأب للفن عمومًا، وكذلك تغاضيه عن تجسيماته المعنية - كانت معروفة جيدًا لدى چيمس، ومن ثم شعر برغبة قوية فى ملاقاة تلك المعارضة بالحجة، وفى نفس الوقت انتوى أن يغتنم جانب التغاضى عند أبيه. وعلى الرغم من أن رسائل الأب - لسوء الحظ - فقدت فإن آراءه تكفى فى هذا الصدد، وهى ميسورة المنال.

فالفن عنده كان طائشًا مستحقًا حاصرًا، باطلاً سدى وطفيليًا، إذا ما قورن إما بروعة الدين وعظمته، وإما بجدية العلم ووقاره.

- بون (١٩ أغسطس سنة ١٨٦٠)

«والدى الأعز

تسلمت رسالتك يوم الثلاثاء الماضى. بودى لو أنك - كما وعدت - سطرت على الورق بأوضح ما تستطيع ما هى فكرتك عن طبيعة الفن، لأننى ربما أفهمها تمامًا، وأحب أن أراها مسجلة ومعروضة بطريقة تتيح لى أن أتمعن فيها كلما سنحت لى الفرصة. وفى مرجوى أن تسطر فكرتك كاملة بقدر ما فى وسعك وكما يطيب لك، حتى يتسنى لى أن أنعم النظر فيها وأخبرها. وسأحتفظ لنفسى برأيى فى وجهة نظرك ولا أقول شيئًا عنها قبل أن أتسلم جوابك. أما فيما يتعلق بما تضمنه كتابك الأخير - فماذا فى وسعى أن أفعل سوى أن أشكرك على كل كلمة وردت فيه، وأن أؤكد لك أن كل كلمة أصابت الهدف الذى صوبت إليه. بمثل هذا الوالد معنا فكيف نكون سوى جديرين به - إلى حد ما - وإن كنا ربما لم نبلغ المدى الذى يبتغيه قلبه لنا، ولم ندرك الشوط البعيد الذى يريد إعزازه لنا وإيثاره أن نجريه معه.

(1) These letters, together with a third written from Bonn during the same month, have been published in an abbreviated form in N.S.B., 43-7.

لقد عدت لتوى بعد أن تناولت عشاء فاخراً فى بيت الأولاد. إنهما - يقينا - يعيشان فى مرعى خصيب، وإن كانا لا يحسان بالنعمة والمزايا التى يتمتعان بها كما ينبغى لهما أن يحييا. ونظرا لأنه كان قد ألقى فى روعى أننى لا أتوقع شيئًا من هذا القبيل، فقد باغتتنى الدهشة لبذخ وفخامة العشاء: شرائح سمينة من اللحم وحساء، وكلها مطهوة كما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين، ثم فطيرة لذيذة محشوة بالكرز، ومعها زجاجتان من نبيذ الراين الغالى ابتهاجا بالمناسبة. وكان الدكتور (همبرت) ودودا طلق المحيا مرحا كعادته، كما كانت السيدتان العجوزان شخصيتين نموذجيتين تصلحان لقصص ديكنز. لقد انعزلا عن العالم وذابا بعضهما فى بعض لفترة طويلة صهرتهما فيها نار المطبخ، بحيث اختلط عقلهما وأصبحا عقلاً واحداً، وبحيث يبدو أنهما يؤلفان شخصية واحدة لها جسمان. لم أر فى حياتى شيئًا أكثر عجبا من الطريقة التى تجلسان بها تتمتمان فى أقصى طرف المائدة، وكل منهما تفوه فى نفس الوقت بنفس ألفاظ التعجب إذا ما وصل إلى سمعهما كلام من طرف المائدة الذى نحتله. ويقول الأولاد إنهما دائمًا تتكلمان معا مستعملتين نفس الكلمات، أو تبدأ إحداهما شطرا من الجملة والأخرى تكملها. إنها حياة فريدة شاذة.

هارى يدرس بقوة وعزم، وأعتقد أنه ليس ثمة داع لأن تساورك المخاوف من جهته. إنه لم يعد يعانى من آلام معدته أو بالأحرى لم يعد يشكو منها فيما أعلم. ولقد زاد وزنه وتحسنت صحته وأصبح أكثر إشراقًا عما كان عليه وقت رحيلك. ويبدو أنه وويلكى على وفاق فى صحبتهما. وهما ينعشان نفسيهما من آن لآخر بمشاحنات جسمانية ودية أخوية، يمتحن فيها كل منهما عضلات الآخر فى غرفة نومهما، لكى يرفها عن نفسهما عناء المذاكرة، ويستعيداً نشاطهما عندما تبعث الدراسة فيهما الملل والنوم. وفى هذه المشاحنات أحيانا يكون الفائز هارى، وأحيانا يكون ويلكى. فى نيتنا أن نفرض على هارى مسافة كبيرة سحيقة من المشى كل يوم. لقد بدأت ميدعاته البيضاء تظهر عليها الوساخة بشكل فظيع، لدرجة أننا أخيراً حملناه حملا على أن يأخذها إلى المغسلة، ولكنه تشبث بها تشبث من يصعب عليه فراقها، بحيث إن الأمر لم يكن سهلاً. لقد تقدمت تقدمًا ملحوظًا فى هذا الأسبوع الأخير فى الألمانية، وبدأت أفهم ما يقال لى، وأعبر بطريقة مفهومة للآخرين وبشكل محتمل فى الأمور البسيطة التى لا تحتاج إلى لف أو دوران.

آلاف التشكرات للصغيرة الأثيرة بال[٢]، ذات الشفاه الكرزية والأنف المشمشى والذقن المزدوجة، لرسالتها التى انطلقت كالمقذوف النارى، وأصابت بها قلوب إخوتها الشاعرين بالوحدة، بشعور جارف لتقبيل وصفع وجنتيها السماويين. لقد ذكرت والدتى، فى رسالتها النفيسة، أنها ستجلس إلى المصور ليصورها عندما يجتمع الشمل عندكم. إننى أستحلفها بكل ما تكنه لنا من حب،

---

(2) One of W.J.'s nicknames for his sister Alice.

وبكل الروابط الوثيقة التى تربطها بابنها الأكبر. ألا تفعل ذلك قبل أن نحضر إليكم، وعندما نصل إليكم فسنتشاور فى أمرها.

فؤاد فوق فؤاد مفعم بالحب لكم جميعا، من ابنك البار.

ويلى»

بون (٢٤ أغسطس سنة ١٨٦٠)

«والدى الأعز

وصلنى كتابك مساء الأمس متأخراً بحيث تعذر علىّ أن أرد مباشرة. لذلك بادرت من فورى هذا الصباح لأكتب لك لكى أطمئنك بخصوص الوقت الذى نزمع فيه الرحيل من بون. إننا لم ننس أبداً ولو لبرهة أن يوم الرحيل هو الجمعة ٣١ أغسطس.

لقد اغتبطت بتسليم رسالتك السابقة على الرغم من أن محتوياتها لم تكن بالضبط كما توقعت. إن ما أردت أن أسألك عنه هو الأسباب والدواعى التى تحتم علىَّ ألا أكون فنانا. لم أستطع أن أتبين تماماً من كلامك: ما هى على وجه التحديد أسباب سخطك على قرارى الأخير؟ وما هى وجهة نظرك عن طبيعة الفن؟ ولم يتسن لى أن أفهم السر فى أن فكرة تكريس نفسى للفن تعافها نفسك إلى هذا الحد! أما رسالتك الحالية فلا تشير إلا إلى الخطر الروحى الذى يحدق بالمرء إذا ما انساق وراء طبيعته الجمالية (المفروض أنها قوية) وترك لها العنان فى توجيه نشاطه. إن هذه الحجة لا تستنفد الأسباب التى توقعتها، ما لم يكن نفورك من الفن - إلى درجة كبيرة - مجرد كراهة لتعريضى لمثل ذلك الخطر الروحى، الأمر الذى لا يمثل واقع الأمر بحال من الأحوال. ولكننى الآن أدرك أن ما كنت أنتوى قوله ليس صحيحاً، وأولى بنا أن نترك المسألة حتى ألحق بك فى باريس فنناقش الموضوع معاً. وإنى طبعاً أشعر بنوع من الهناء أن أرى أنك فى رسالتك قد سلمت بحقيقة كونى فنانا، واقتصرت على إظهارى على رأيك فى الفنان، وكيف أنه ينزلق فى خداع نفسه. وطالما أنك قد فعلت ذلك فأعتقد أننى أفهمك تماماً. لقد سبق لى أن ألمت بأطراف الفكرة من حديثك وجمعت خيوطها، وكثيراً ما فكرت فيها وشعرت بكل ما فيها من حق. وأعتقد أن ثمة خطراً لا يستهان به إذا ما نسيتها أبداً. إن الآثار التى ترتبت على معالجتى للفن، وعلى أعمالى الفنية حتى الآن، آثار من نوع لا يغرينى بأية حال من الأحوال على أن أكون غافلاً عما فى فكرتك من حق وصواب. بيد أننى لا أستطيع أن أفهم السبب الذى يحول بين استقلال ثقافة المرء الروحية عن نشاطه الجمالى. وما الذى يحدو القوة التى يستشعرها رجل من طراز كوفيار أو فورير إلى أن يفعل نفس الصنيع؟ ما الذى يحول دون أن توجد القابلية المعينة لنمو الوجدان الدينى ملازمة لعقل فنى فى اتجاهاته وميوله الأساسية، مثلما توجد فى عقل مفكر تأملى، حتى إذا سلمنا بأن العقل الأول أكثرهما بدائية وأقلهما احتراماً وأضآلهما فائدة؟

إن حصيلتى من الخبرة قليلة، ولكنها هى كل ما لدى لكى أفكر فى نطاقه وأصدر عنه، وإنى على يقين بأننى لم أحس مطلقًا بأى شعور بالمهانة أو الابتذال من جراء صلتى بالفن، وإنما أستمد منه دائمًا انطباعات روحية هى أعمق وأظهر ما عرفت من انطباعات. على هذا النحو يبدو لى أن عقلى قد تكون، ولست أرى سببا لتحاشىً أن أسلم زمام نفسى للفن على هذا الأساس. وطبعا حتى فى حالة موافقتك على ذلك فستبقى اعتبارات أخرى قد تحفزنى إلى التردد - اعتبارات الفائدة والطائل، اعتبارات واجبى نحو المجتمع... إلخ... إلخ... على أن كل هذه الاعتبـــارات يجب أن توضع فى كفـــة الميزان فى مقابل الكفة الأخرى، وهى ميلى الشديد للفن. وكذلك حقيقة أن حياتى ستنضح بالمرارة والحسرة إذا ما حيل بينى وبينه. هذه هى الطريقة التى أشعر بها فى الوقت الحاضر. وطبيعى قد يتغير شعورى وتفكيرى، ولربما أكون قد أسأت فهم موقفك أيضا وتكلمت بلا جـدوى. على كل حال فسنتبين جلية الأمر بعد أسبوع، فليس فى وسعى أن أنتظر وقتًا أكثر من ذلك. بلغ حبى للجميع. وإلى اللقـاء.

و.ج»

والتأم شمل الأسرة فى أول سبتمبر ولحق الأطفال بوالديهم. وبعد عشرة أيام أبحرت أسرة چيمس عائدة إلى أمريكا على سفينة الأدرياتيك. ولقد عبر هنرى عن هذه المناسبة بقوله: «لقد عدنا إلى الوطن لنتعلم الرسم». إن مشاكل هنرى لم تكن ثانوية فحسب بالنسبة لمشاكل وليام، ولكنه أيضا مشى فى ركابه. ذلك أنه عندما استقر بهم جميعا المقام فى نيوبورت، لكى يدرس وليام الفن على يد هنت، و«لقد أخصبت هنت حياتنا وأنعشتها» و«حيث إن و.ج. طـوال سـتة الشهور الأولى أو أكثر بعـد عودتنا أَمَّ مرسم هنت كل يوم، وبكل غيرة وحماسة فأنا أيضا لم أكن أقل غيرة وحماسة - وإن كان لمدة أقل - تحت وطأة العدوى التى لا سبيل إلى مقاومتها»(٣).

والخلاصة، أنه فى حين أن وليام، ومعه چـون لافارج، كانا يرسمان وينقشان فى صدر الصورة وقسمها المقدم، كان هنرى الصغير يرسم وينقش فى أرضية الصورة ومنظرها الخلفى.

---

(3) N.S.B.,. 62, 79.

على أن التجربة المهنية كانت تجربة ناجحة تمامًا، بمعنى أنها كانت تجربة حاسمة على الإطلاق. فلقد تعلم وليام بالعيش مع الفن أن في وسعه أن يعيش بدونه. أما أنه صاحب موهبة وعنده شغف، فهذا أمر لا ريب فيه، ولكنه وجد الشغف أقل إرغامًا مما حسب، وحكم على موهبته بأنها أدنى تفوقًا وامتيازًا مما تتطلبه معاييره. وعندما قرر نبذ الرسم، فإنه مضى إلى غايته غير ناظر خلفه - إلا نادرًا - وغير آسف أسفًا عميقًا - أبدًا(٤).

وعلى الرغم من أن چيمس هجر الرسم نهائيًا مهنة، فإنه بسبب ذلك لم يفقد تلك الصفات، أو حتى تلك الاهتمامات والميول، التى أفضت به إلى خوض تلك التجربة. لقد اكتسب شيئًا واحتفظ بشىء من تحيز الفنان المحترف، الأمر الذى أفضى به مثلاً إلى الشك والارتياب فى علم ومعرفة من ليس من أرباب المهنة، وإلى الشعور بالعجز الفادح والقصور العقيم، إن لم يكن الباطل والعبث، لعلم الجمال والبديعيات. على أنه احتفظ بحساسية الرسام وبشىء من عزلة الفنان. ولقد هذب ورقى أسلوبه فى كتاباته العلمية والفلسفية، وكان يشعر بالامتعاض لخلو أسلوب غيره من التهذيب والترقى. ولقد أجاز لنفسه رخصة الفنان، أعنى أنه عندما كان يقبل على موضوع ويلجه، فإن الموضوع يملكه. أما أوصافه للناس فقد كانت - مثل أبيه - لوحات فنية عبر فيها عن نغم الحياة الذى ينقله إليه الموضوع. ومن ثم فإنه عندما كان شخصيًا جدًا، فإنه كان غالبًا غير شخصى جدًا. كان شديد الاستجابة لمزاجه، لأن حالته المزاجية كانت لقانية بصيرته. وكان يستجيب لسجيته المزاجية المداعبة، لأنها كانت خلاقة ومبدعة.

إن تحليلنا لعبقرية وليام چيمس يحتل مساحته السديدة من الأهمية والتنويه، بشرط أن يكون كل ذلك فى النهاية أمرًا ثانويًا. فكما أنه فى تلك اللحظة الحاسمة من

(4) The reader who wishes to form his own Judgment of James's skill as a draughtsman and painter will fird reproductions in L.W.J., N.S.B., and As William James Said: Vanguard Press, 1942.

حياته أثر العلم على الرسم، فكذلك حياته ككل تدل على إيثار التفسير والتوضيح والإنجاز على التأمل والخيال. كان يرى المنظر الطبيعي بعين رسام وأحاسيس الفنان التشكيلي، كما في وصفه لهواء أدنبرة «ذى الجسد المكتنز» «تغشاه طبقة وراء طبقة من الظلام المهد المخفف بالضوء المنبسط المتراجع فى تدرج»[٥].

كان له خيال الفنان وإدراكه النافذ الحاد وصفاته الحسية، كما حدث عندما توقف عن الكتابة مرة ليشير إلى ملاحظته «بأن الضوء يصرخ - بعيداً - فى الخارج»[٦].

بيد أن المواهب التى أهلته ليكون فنانا، كرست منذ تلك اللحظة الحاسمة فى حياته، بغير تحفظ لمآرب أخرى خلقية وتأملية.

(5) L.W.J., 11, 146.

(6) A.J., Journal, October 12, 1890.

(٧)

الدراسات العلمية فى هارفارد

من سنة ١٨٦١، انحصر مجال الأبدال المهنية عند وليام چيمس فى العلم. وصفوة القول إنه كان عليه أن يسعى فى طلب المعرفة. وسواء أكان سعيًا فى طلب العلم بمعناه الضيق المحدد المعروف بالعلم الطبيعى، أم بمعناه الواسع المعروف بالفلسفة، وسواء فى حالة العلم الطبيعى، إذا كان علم تجارب وملاحظات، وسواء اتخذت مهنته الفكرية شكل البحث أم التعليم أو ممارسة الطب، فكل تلك الأسئلة ظلت ماثلة أمامه لم يقدر لها أن تظفر بجواب إلا بعد اثنى عشر عامًا من المحاولة والشك والمحن، لعبت فى أثنائها حالته الصحية دورًا لا يقل خطرًا وحسما عن الدور الذى لعبه اكتشافه لذاته وما فيها من ميول ونزعات واستعدادات.

وشهد خريف سنة ١٨٦١، وليام چيمس طالب علم يدرس الكيمياء فى مدرسة لورانس للعلوم بهارفارد، حيث لحق به هنرى فى العام التالى باعتباره «عضوًا غريبًا بشذوذ» فى مدرسة الحقوق. وعندما دخل وليام حياته الأكاديمية كان عمره تسعة عشر عامًا. وبالنسبة لنا – نحن الذين نحيى هذا الخريف من سنة ١٨٦١، بالاسترجاع التاريخيًا فإن ذلك الوقت كان أولاً وقبل كل شىء فترة حرب أهلية. كانت القومية والذود عن الاتحاد وإلغاء الرق هى: الأفكار المسيطرة على الرأى العام. فأما چيمس الكبير، فقد هاج وماج وثار وفار، ووضع أعز معتقداته فى بوتقة يؤيد بها هذه الأفكار فى خطبته

التى ألقاها فى نيويورت فى شهر يوليو(١). على انخراط الابنين الأصغرين فى سلك الجندية، ومعهما عدد كبير من الرفاق والصحاب والأقارب، جاء بالحرب بطريقة مباشرة إلى بيت آل چيمس(٢).

وليس ثمة بينة تشهد بأن وليام كان فى خريف سنة ١٨٦١، مشغول البال بالقضايا العامة الراهنة، مثلما كان فيما بعد من حياته مثلاً مشغول البال إبان الحرب الإسبانية. على أنه عبر ببلاغة وحسن بيان عن رأيه فى مسائل الحرب الأهلية فى خطبته التى ألقاها سنة ١٨٩٧، بمناسبة إقامة نصب تذكارى للكولونيل روبرت جولد شو، بيد أن هذه الآراء كانت سارية على الماضى، ومعزولة عن حومة الوعى، بدلاً من أن تكون معاصرة للأحداث. وفى سنة ١٨٦١، حال الوهن الجسمانى دون إمكان تجنيده. ولعل السبب فى كونه لم ينبس عن الموضوع ببنت شفة راجع - جزئيًا - إلى حقيقة أن اهتماماته الاجتماعية والسياسية لم تكن قد اكتمل نضوجها بعد، كما يرجع جزئيًا أيضا - فيما أظن - إلى شعوره بأنه كان عاجزًا عن العمل، فخير له أن يلوذ بالصمت.

على أن عام ١٨٦١، لا ينتمى فقط إلى عصر الحرب الأهلية، وإنما ينتمى أيضا إلى عصر بارنوم(*). صحيح أن فن الإعلان لم يكن قد ترقى بعد، ومذهب البابترية(**)، لم يكن قد محص وهذب، ولكنهما تجليا بفجاجة عنيفة. ثمة نغمة مسرسعة، نوع من التصنع الفنى أو الاحتيال الماكر الذى يبدو ساذجًا فيما بعد عندما يبلغ الذوق درجات

---

(1) N.S.B., 120, "The Social Significance of Orr Institutions," July 4, 1861.

(2) Wilkinson James enlisted in 1862 at the age of seventeen. "To me in my boyish fancy" he afterwards wrote, "to go to war seemed glorious indeed; to my parents it seemed a stern duty, a sacrifice worth any cost," (The Assault on For Wagner," in War Papers, Commandery of Wisconsin, Loyal Legion, Milwaukee, 1891). Robertson James enlisted May 12, 1863.

(*) نسبة إلى بارنوم تايلور (١٨١٠-١٨٩١) أحد جهابذة فن الدعاية والإعلان بالمهرجانات والمتاحف والمعارض.

(**) Babbittry: نسبة إلى بابيت أرفنج (١٨٦٥-١٩٣٣) معلم أمريكى ذائع الصيت ومن أنصار حركة الإنسية، من أشد الناقدين للمذهب الرومانتيكى. (المترجم).

من الارتقاء والتطور، ضرب من التدجيل العجاج، والشعوذة الواضحة وضوح الصبح لذى عينين، والتى تتخذ ملامح الأمانة فتبدو حالاً، وتجد طريقها على نحو ما إلى نفوس القوم، سواء فى صورة مشاهد عيانية أم تتسرب إلى الحواس باعتباره مجرد شذى أو فغوة، وهى تشيع فى الحياة وتتغلغل فى طواياها مجاهرة أو مداورة. وهى ظاهرة لم يسلم منها عصر من العصور ولم يفلت منها زمن من الأزمنة.

لقد كان ذلك العصر هو عصر علامة التعجب. عندما كان من الضرورى إثارة الدهشة لجذب الانتباه والسيطرة على العقول، عندما كانت نبرة الصوت المجلجلة الحادة النغمة، والإكثار من أفعل التفضيل والمباهاة والجفخ والمفاخرة الساذجة النيئة، لا تزال هى الوسائل الرئيسية للشهرة والصيت والدعاية. تلك كانت سوقية وفظاظة العصر، والتى قدر لچيمس أن يفلت من براثنها سواء بترفعه عن الحياة السوقية وإعراضه عن ساحة الجدل التام، أم بنوع من النفور الغريزى.

وصفوة القول، فيما يتعلق بخصائصه الوطنية، إنه ليس ثمة بينة عندى تشهد على أن وليام چيمس كان قد دخل مرحلة الكهولة فى العقد المستهل بعام سنة ١٨٦٠.

وماذا نقول عن التأثيرات المحلية لنيو أنجلاند؟ لقد كانت حركة فلسفة ما فوق العقل فى عنفوان بروزها، وكانت قد بدأت تتخذ لها شكلاً نظامياً فى مدرسة سانبورن التى أمّها ابنا چيمس الأصغران. بيد أن چيمس - فيما يبدو - كان غير حافل بكل ذلك التيار الواسع من التأثيرات، كما أنه كان غير متأثر بالحشة الهيجيلية الثانية «فى مدرسة كونكورد للفلسفة» إلا فى حالة أمرسون، ولقد كان انشقاق أمرسون على تلك الاتجاهات هو الذى حمده چيمس فيه وظفر منه باستصوابه.

على أن عقم فلسفة ما فوق العقل فى نظر هنرى، وكذلك وليام، كان مرده إلى قداستها المنزهة عن النقد الذاتى، وإلى ما فيها من مهابة وخشوع. كانت سلسلة من «التجارب فى فراغ» غافلة من التعقيدات الفعلية للحياة[٣].

---

(3) N.S.B., 217.

ويبدو أن عقل وليام كان دائمًا مـزيلاً للوهم أو الأمـل الكـاذب، إذ كان دائمًا ذلك النوع من العقـل الذى يتطلب سندانا لمطرقته، ويبتـغى مقـاومة يتـغلب عليـها، سـواء أكان ذلك شراً خـالصًا يتـعين عليـه أن يدير له ترياقا، أم حـقـائق عنيـدة تتطلب تفكرًا وتبصراً.

فإذا انـتقلنا فى بحـثنا عن التـأثيـرات، من نيـو إنجلند إلى هارفـارد عينا، وجـدنا فئـتين من الشـخصيـات الجديرة بالاعتبـار - فـئة منهمـا لا جنـاح علينا من تسميـتها الإنسية، والفئة الأخرى العلمية.

كانت هارفـارد فى عهد مديرهـا فلتون معهد علم عديم الشـهرة والامتياز، يحتضن رجـالاً ذوى شـهرة وامتيـاز. والشـىء الذى كان طالب العلم يتذكره فيمـا بعد فى حياته العلمية لم يكن أنه أخذ هذا المقرر الدراسى أو ذاك، أو أتقن هذه المـادة أو تلك، وإنما هو أنه عرف هذا الرجل أو ذاك. ولقد شطرت فئة الإنسيين - فئة الشخصيـات الأدبية الذائعة الصيت فى بوسطن وكامبردج. وكانت مجلة (The Atlantic Monthly)، التى يحررها جيـمس ت. فـيلدز. تنشـر فى ذلك الوقت مـقـالات لهـوثورن، ولـونجـفـيلو ولوويـل، وهـولمز، وأمـرسـون، وهـويتـيـار، وبايارد، وتـايلور، ونورتون، ومسـز سـتـو، وهـاريت مـارتينـو، وغيره ممن يقلون عنهم شـهرة وبعد صيت. أما مـجلة (The North American Review)، فكان يشـرف على تحـريرهـا أ. ب. بيـبـودى ثـم أشـرف على تحـريرهـا من بعـده لوويل، ونورتون، وجـورنى، وهنرى آدمـز، على التـوالى. وفى سنة ١٨٦٥ بدأ أ. ل. جـودكـين - الذى كان يقيم فى كامبردج إقامة متفترة - رياسته الشهيرة لتحرير مجلة الأمة (The Nation) يعاونه ويحـرضـه نورتون. وكان لونجفيلو، ولوويل، وهـولمز، وأمـرسـون، ونورتون، مرتبطين بهـارفارد جمـيعـاً بين الفينة والفينة ارتبـاطًا رسـميًا. وكانت هذه الفئة تنتمى إلى عـالم الأدب الأوربى، مثلمـا كانت تنتمى إلى عـالم الأدب الأمـريكى سـواء بسـواء، وكثيـراً مـا زاروا أوربا، وكثيـراً مـا زارهـم بدورهم مشـاهيـر الرجـال القـادمين من الخـارج. على أن الصـلات الأوربية لمؤرخى نيو إنجـلند ودبلومـاسـيـيها كـانت أكـثـر اشـتـهـاراً وذكراً من كل ذلك.

وكان برسكوت - الذى كان عضواً فى نادى السبت - قد اختفى من مسرح الأحداث، وغيّبه الموت، ولكن موتلى كان سفيراً لبلاده فى النمسا، ولا يشعر بأى غربة فى كل أنحاء أوربا، وكأنه مع أهله، فى حين أن چورچ بانكروفت كان سفيراً لبلاده فى لندن، وكان على وشك أن يعين سفيراً فى برلين (١٨٦٧). كانت أوربا أقرب إليهم من وادى أوهايو ووادى المسيسبى[٤].

هذه العالمية الأدبية لبوسطون وكامبردج كانت لچيمس مناسبة لطيفة الوقع على نفسه، وقد ساعدت دون شك على تثبيت الأثر الذى خلفته من قبل أسفاره الخاصة وصلاته الأوربية. وعندما بدأ يجرب قلمه ويدلى بدلوه فى هذا المجال - كتب انتقادات ومقالات قصيرة فى مجلات التجارب الزراعية فى ولاية ميسورى. (The Nation, The - Atlantic, The North American Review) - ولقد يسرت له حياته باعتباره كاتباً - مثله فى ذلك مثل أخيه هنرى - حقيقة كونه يعيش بين المحررين، وكان رجال من أمثال: لوويل، وفيلدز، ونورتون، وجودكين، وهاولز، فى عداد أصدقائه. ولكن هنا ينتهى التطابق. فبالنسبة لهنرى كان رجال الأدب فى نيو إنجلند فى عداد الأساتذة ولويس آجاسيز، وچيفريز وايمان، (بعد ١٨٦٣)، وولكوت جيبز - والزملاء، وبالنسبة لوليام كانوا فى عداد الأصدقاء ومصادر تسلية، وكلهم أيضا رجال ذوو شهرة وعظمة، شاركت بوسطون وكامبردج بوساطتهم فى تفكير العالم - إن لم يكن فى حياته - وخرجتا من قوقعة المحلية وانتعشتا بأنسام جاءت من الخارج حركت خمولهما الإقليمى.

وكان أجاسيز فارس الحلبة فى هذا المجال، فإليه - بصفة خاصة - يعزى إرخاء قبضة التقاليد المحلية، بما كان يتوافر فيه من نفوذ شخصى لا يقاوم، وحماسة تستل من الناس شكوكهم وتفحمهم وتجردهم من سلاحهم، وأوربية بلا خجل. على أن هارفارد

(4) Edward Everett Hale writes that when Robert Todd Lincoln, bringing a letter of introduction from Stephen A. Douglas, entered Harvard in 1860, Lowell was apparently the only member of the faculty who had heard of his father. (E.E. Hale, J.R. Lowell and His Friends, 1899, 200-1).

بلغت ذروة العصرية والتقدمية فى العلم، وخصوصًا فى ميدان العلم البيولوجى، فذلك كان مجال تبريزها ونبوتها. ولقد كان هذا التأثير التحررى بالذات من بين كل القوى الفاعلة فى زمانه ومكانه، هو الذى أثر فى وليام چيمس أعمق تأثير وأبعده غورًا، إبان سنوات دراساته الجامعية(٥).

ويرجع اهتمام چيمس بالعلوم الطبيعية، مثلما كان اهتمامه بالرسم والنقش، إلى باكورة صباه، عندما أظهر استعدادًا وكفاءة للملاحظة ولاستعمال الأدوات، على السواء. ولقد أبدى من حب الاستطلاع قدرًا كافيًا يكمل دراساته الضحلة فى جنيف بالقراءة وزيارة المتاحف.

ويشهد أخوه بتلك النزعة المبكرة فيه فيقول:

«بمثل ما كان من المؤكد أنه كان على طول الخط «فنانا» فقد ظهر أيضا ما يؤيد أنه كان فى نفس الوقت – وعلى خلاف المتوقع – بحاثا أيضا، مدمن تجارب، ومدمن استهلاك كيماويات ونقل سوائل مبهمة من قارورة لقارورة، بعد تعريضها للهب الخافق الهفاف، وعاكفا على تهذيب أصابعه المبقعة بآثار الأحماض، وعلى إقامة ونقل، بطاريات كهربية ناتجة عن تفاعل كيميائى، وتجربة للصدمات الكهربية فى كل من يستطيع إقناعه، وعلى الاحتفاظ بحيوانات مائية وصيانتها فى أحواض مطرطشة للأحياء المائية، وممارسة التصوير فى الغرفة التى شاركته فيها فى بولون فترة من الزمن بآلة تصوير ثقيلة مربكة تتطلب وقتًا طويلاً فى كشف الصور وتحميض «أفلامها» ثم لا يسفر ذلك إلا عن بقعة سمراء داكنة لا أول لها ولا آخر. ثم كانت هناك أيضا هوايته الدائمة المنغمسة فى العقاقير العجيبة، والتى كانت – كما أحسست بها خائفًا أترقب – هواية تأملية جريئة نزيهة. ليس ثمة ذكرى أكثر حيوية فى خلدى، أحتفظ بها عن سنواتنا المبكرة معًا، من هذا الإدمان أو التأصل، الذى كان يبدو مريعًا أمام طبيعة مجردة من حب الاطلاع مثل طبيعتى، أقصد حب الاستطلاع فى ذلك الاتجاه. ولن أنسى ما حييت شغفه بالعجيب والغريب والنادر، أو بالآثار التى تفوق الحصر على الأشياء. ما كانت عنده أية نتيجة ممكنة الحدوث – مهما كانت – إلا وفى وسعه أن يلتذ بها على نحو ما، فيما عدا علاقتها بأشياء أخرى غير مجرد المعرفة(٦).

(5) Similarly, Henry Adams, who graduated from Harvard in 1858, reports that only Agassiz really stirred him. (Education of Henry Adams, 1918, 60).

(6) N.S.B., 122-3.

على أن دراسات چيمس العلمية المبكرة كشفت عن خصيصة أساسية في عقله. كان شديد الاهتمام والشغف، ولكنه كان نافد الصبر. وكانت هذه الصفة فيه هي التي تنفره نفوراً شديداً من التطبيق الطويل لنفس العمل. ولقد كانت هذه الصفة – كما رأينا – صفة مزاجية. وزاد تأثيرها عليه من جراء النوبات المتعاقبة من المرض، التي أرهقته من أمره عسراً، والتي غالباً ما كانت تجعل المجهود الموصول أمراً مستحيلاً. ولكنها أساساً كانت خلة من خلاله ولم تكن عرضا لمرض. وكان هو نفسه يميل إلى اعتبارها ضربا من الضعف والعجز، وكلما أخذ على عاتقه إنجاز عمل ضخم، كما حدث في حالة كتابه «مبادئ علم النفس»، فإنه كان يكافح ويجاهد ويخرج من المعركة ظافراً. ولكنها إذا كانت ضعفا فقد كان الثمن الذى يتعين عليه دفعه لقاء ما فيه من قوة ذات صفة مميزة بطريقة غريبة. إن قوة عقله كانت تربض بصفة رئيسية في مرونتها الفائقة وقدرتها الحركية وفي سرعتها المندفعة كالسهم وفي دافعيتها المحركة الاستكشافية. لم يكن عقلاً يؤثر بالعافية ويظل ساكناً مستقراً في مكانه يسحب الأشياء إليه باعتباره مركزاً، ولكنه كان عقلاً جوَّاباً للآفاق تارة هنا وتارة هناك، يرى الأمور بنفسه ويعوِّض بما يجمعه من مختلف مغامراته المتنوعة ما يفتقر إليه بالاستقرار والاتزان والركود.

كان معلم چيمس لمادة الكيمياء في مدرسة لورانس للعلوم هو تشارلز وليام إليوت، وكان رجلا نافد البصيرة في الناس، صادقًا حاد الملاحظة، يزن كلامه ولا يلقيه على عواهنه. وهذا هو ما قاله – فيما بعد – عن تلميذه الشهير:

«كان چيمس طالبًا لطيفًا ساراً، ولكنه لم يكن مكرساً نفسه كليًا للكيمياء. وكانت سياحاته في العلوم الأخرى وغيرها من ميادين التفكير كثيرة، وكان عقله جوابًا، وكان مغرمًا بالتجريب وخصوصاً إجراء التجارب الجديدة غير العادية. وفي سنة (١٨٦٣–٤) تحول من قسم الكيمياء إلى قسم التشريح المقارن والفسيولوجيا، في مدرسة لورانس للعلوم، وصار لمدة عام واحد تلميذاً للبروفسور چيفريز وايمان. ولقد ظهر ميله الواضح لمادة الفسيولوجيا بكل جلاء في أثناء العامين اللذين قضاهما في قسم الكيمياء، بحيث إنني كلفته في العام الثاني لدراسته للكيمياء أن يبحث عن الآثار التي تحدث للكلى من جراء أكل الخبز المصنوع بخميرة ليبيج – هورسفورد، والتي كان تركيبها الرئيسي يتألف من الفوسفات الحمضي. ولكن چيمس لم يسغ الخبز، ووجد أن البت الصحيح في نتيجة آثاره ثلاث

مرات فى اليوم أمر متعب ولا يبشر بخير، بحيث إنه بعد ثلاثة أسابيع التمس منى تحويل هذا البحث إلى شخص آخر. أما النقطتان المهمتان المثيرتان عن تربيته فهما: **أولاً**: عدم انتظامها فى نسق مطرد، فهى تربية لم تتطابق مع توجيه الطريقة التقليدية لبوسطن وكامبردج. **وثانياً**: كانت تربية تقوم الملاحظة فى قسط كبير منها، وبصفة خاصة فى العلوم البيولوجية. على أن الجزء النظامى من تعليمه لم ينبئ عن تكريسه اللاحق للدراسات الفلسفية، ولكن سياحاته المرتجلة غير النظامية، كانت إرهاصات أنبأت بذلك»(٧).

والنقطة الرئيسية هنا هى: ميل چيمس إلى «السياحات غير النظامية»، حيث تضاعف حركة عقله على نحو عجيب صورة طبق الأصل من حركات جسمه، وتعطيه عالمية من التفكير والخبرة فى المعنى العالمى الصحيح الأصيل، وليس فى معناها العادى والأكثر تحديداً وحصراً.

ولقد كان إليوت ثاقب الفكر عندما فطن فى هذا الميل إلى أمل مرجو فى نزعة فلسفته، وليس مجرد نقيض للعلم. بيد أن وايمان وأجاسيز. لا إليوت، هما المعلمان اللذان شدا أزره فى أثناء تلك السنين. كان جيفريز وايمان أستاذ مادة التشريح فى مدرسة الطب بهارفارد. وباعتباره عالماً، كان يمثل الحنبلية الشديدة التدقيق دون ضيق أفق أو حذلقة. وكانت دائرة اهتماماته وبحثه واسعة. كان عالماً طبيعياً ميدانياً، مثلما كان عالماً تجريبياً فى المختبرات. ولقد وجه نفسه وبحوثه بكل حماسة وشغف إلى الموضوعات الخلافية المعاصرة، التى كانت مدار بحث العلماء والناس، مثل التطور «والتولد التلقائى». ولكنه كان يتميز عن زميله أجاسيز بسعة أفق أكبر، ورحابة صدر أوسع، وصبر وأناة، فى تعليق الحكم وإرجاء البت فى الأمر حتى يأتى الوقت الذى تصبح فيه البينة قاطعة. وعندما قال الدكتور هولمز: «إننا نأخذ بكلامه ولو عن معجزة» فقد كان بذلك يشهد على ذيوع صيته باعتباره عالماً شديد التدقيق والارتياب

(7) These statements are quoted from a memorandum which President Eliot prepared for Mr. Henry James, and from which the latter quotes in L.W.J., 1 31-2.

والحذر فى أحكامه وبيناته، مثلما كان يشهد بخلقه وشخصيته(٨). أما بالنسبة لوليام چيمس - الذى انجذب نحوه على الفور، ووقع تأثيره مباشرة، وعلى نحو موصول تقريبًا، زهاء خمس سنوات - فقد كان بمثابة نموذج علمى للكمال. «إن أسلوبه الذى لا تشوبه شائبة من التسلط أو التحكم»، وإخلاصه الكامل وتكريسه المتواضع للحق الموضوعى، «ونزاهته» و«دقته وكماله» لم تحسم فقط ما ينبغى أن يكون عليه العالم، ولكنها أيضا أسهمت بقسط كبير فى تكوين ذلك الضمير العلمى الذى باشر نوعًا من الرقابة الدائمة على إسراف چيمس فى نظرياته التأملية(٩).

على أن لويس أجاسيز كان شخصية مرموقة بارزة فى بوسطن وكامبردج إبان العقد المستهل بعام سنة ١٨٦٠، بشكل بادٍ للعيان، بحيث إن چيمس لم يكن له مناص من أن يحس بقوته ويحفل بأمره. وإن ذلك الإحساس لم يظهر بصورة جلية حتى انضم إليه فى رحلته إلى البرازيل عام ١٨٦٥، أما قبل ذلك فلم تكن له به أية صلة وثيقة تتعدى صلة السامع أو المعرفة العابرة.

وكان أجاسيز فى ذلك الوقت - وقد بلغ من العمر ثلاثة وخمسين عامًا، وأصبح أستاذًا للجيولوجيا فى درسة لورانس للعلوم - فى قمة شهرته وقوته ونفوذه. وفى معرض المقارنة، بين وايمان وأجاسيز، سجل وليام چيمس أن الأخير «كان أوسع نفوذًا». وعندما ذكر أن وايمان كان فى وسعه أن يكون أكبر شهرة وأوسع نفوذًا، إذا قدر له أن يتزود بقليل من الأثرة والطموح، كانت فى ذهنه - بلا شك - شخصية أجاسيز. كان وايمان قديسًا، وكان أجاسيز جبارًا عتيًا ماردًا، يفيض حماسة واندفاعًا قويًا عنيدًا، وكان خلابا لدرجة لا تقاوم. ولبراعته وتفوقه فى مادته، فقد مارس نوعا من الاستعلاء الطبيعى على الآخرين، ومن نفوذ الكلمة. وفى هذا الصدد كتب وليام چيمس

(8) E.W. Emerson, Early Years of the Saturday Club, 427.

(9) "Professor Jeffries Wyman," Harvard Advocate, XVIII (October 1, 1874), 8-9; L.W.J., 1, 50.

يقول: «منذ صباه - نظر إلى العالم كما لو كان العالم وهو قد نشأ على سواء، أحدهما للآخر، وكما لو كان العالم خلق من أجله، وخلق هو من أجل العالم! ونظر إلى مختلف أنواع الكائنات الحية فى تعوُّدها الشاسع كما لو كان هو قد خلق ليكون صاحب الكلمة العليا والسلطة التى تخول له حيازتها العقلية - كلها. وكان لديه - مثل وايمان - اهتمام بالنيولوجى يبلغ فى شموله سعة النيولوجى كلها. وإلى جانب ذلك، كان يترك فى الناس انطباع العظمة الشخصية، الأمر الذى كان يضفى عليه بروزاً وامتيازاً بين أى جماعة من الناس، وجعل من الطبيعى أنه حتى نادى السبت الذى كان يتألف كله تقريباً من مشاهير الرجال، كان يعرف لدى بعضهم باعتبارى نادى أجاسيز». ثم يمضى وليام چيمس فيقول: «كان معروفاً لدى الجميع كصفحة برقم متسلسل من كتاب الإنسانية. الذين لا يقنعون بأقل من التعارف على كل أحياء الطبيعة بلا استثناء»(١٠).

على أن عبقريته لم تكن رابضة فى التفكير المجرد، الذى كان يحتقره، وإنما كان قوامها الجمع الشامل للحقائق وتبويبها وتنظيمها.

وعندما بدأ چيمس يعلم، فإنه استقى بغزارة مما كان قد تعلمه من وايمان. وكانت المشكلة الفلسفية الأولى التى كرس لها نفسه على نحو منظم هى مشكلة التطور. وهنا أيضًا كان وايمان هو نفس المعلم الذى أخذ بيده وهداه الطريق. ولقد كان هذا بالإضافة إلى المثل الأعلى للطهر العلمى، هو الدين الذى يحمله فى عنقه لوايمان صاحب الفضل عليه. وإلى أجاسيز كان يدين بفضل الاستحثاث القوى لشغفه العلمى. فلقد شعر، مثله فى ذلك مثل كل من وقعوا تحت سحر تنويمه المغناطيسى، بأن «التاريخ الطبيعى لابد أن يكون - حقًا وفعلاً - سعيًا ربانيًا إذا كان رجل من هذا الطراز يهيم به على هذا النحو». وفوق كل شىء، فقد تعلم من أجاسيز أن يعتقد بأن المعرفة المجردة هى فى المحل الثانى بعد المعرفة المباشرة.

---

(10) M.S., 4, 6.

ومن ثم فقد قرر فى سنة ١٨٩٦:

«ليس فى وسعنا جميعا أن نفلت من أن نكون تجريديين. فأنا نفسى - على سبيل المثال - لم أستطع أبدًا أن أفلت، ولكن الساعات التى قضيتها مع أجاسيز علمتنى الفرق بين كل التجريديين الممكنين وبين كل العائشين فى ضوء الامتلاء المحسوس للعالم، لدرجة أننى لم أستطع أبدًا أن أنسى ذلك الفرق»(١١).

والرسائل المتعلقة بهذه السنة الدراسية الأولى حررت من كامبردج إلى أسرته الذين كانوا جميعا يعيشون فى نيوبورت، فيما عدا ويلكى وبوت اللذين عهد بهما إلى «المستر سانبورن الشهير»(١٢) فى كونكورد، واللذين كانا يزوران كمبريدج منها من حين لآخر.

(٧-٨ سبتمبر سنة ١٨٦١)

الأستاذ إليوت شخص لطيف فيما أحسب، وهو رجل إذا صمم على أمر ما مضى إلى غايته. إننى أجد التحليل مشوقًا جدًا، حتى الآن.

(١٦ سبتمبر سنة ١٨٦١)

هذا التحليل الكيميوى مثير للذعر جدًا فى بداية الأمر، لدرجة أننى بصفة كلية «مرتبك ومهوش ومغلوب على أمرى»(١٣)، وعلىَّ أن أستخدم معظم وقتى فى القراءة. أجاسيز يعطى الآن مقررًا من المحاضرات فى بوسطن، وأنا أحضر هذه المحاضرات. ولا ريب أنه محبوب لدى جمهور مستمعيه، وهو نفسه يشعر بذلك، لكنه محاضر رائع بارع متحمس، واضح جدًا كضوء النهار، ولهجته

---

(11) Ibid., 10, 14.

(12) Cf. above, 20.

(13) From Sir James Stephen's account of the Lincolnshire boor whose dying Words were: "What with faith, and what with the earth a-turning round the sun, and what with the railroads a-fuzzing and a-whuzzing, I'm clean stonied, muddled, and beat,". Essays by a Barrister, 1862, 233, Stephen was a favorite author, frequently quoted by W J.

(14) This is the first mention of his life-long friend, Charles S. Peirce. Cf. below, 129ff., Ch. XXXI.

جذابة خلابة، إننى أتوق لأن أدرس على يديه. أما محاضرات البروفسور وايمان فى التشريح المقارن للفقريات، فهى تبشر بكل خير، وإن كانت مملة بعض الملال، ولكنها واضحة ومكتملة ومدعمة ومرتبة ترتيبًا جيدًا (دسمة). أما إليوت فلم أره كثيراً، ولست أعتقد أنه عالم كيميائى ضليع جداً، وإن كنت لا أستطيع الجزم بعد! كان فى فصل العام الماضى ابن للبروفسور بيرس، أحسب أنه شاب ذكى حاذق على خلق عظيم، يتميز باستقلال شخصيته على الرغم من عنفه(١٤). إن عددنا لا يزيد على اثنى عشر فى المعمل، ولذلك نتمتع بوقت طيب لطيف. أتوقع أن تكون حياتى فى الشتاء «حياة مزدحمة»(١٥).

(نوفمبر ١٨٦١)

كما أن ويلكى وضع بين يديك موجزًا لمستقبل حياته فى السنوات القليلة القادمة، فكذلك سأفعل، وفى مرجوى أن ينال استصوابك. من ثم: سنة واحدة فى دراسة الكيمياء، ثم أقضى فصلاً دراسيًا فى البيت، ثم سنة مع وايمان، ثم دراسة للطب، ثم خمس سنوات أوستا مع أجاسيز - ثم يحين على الأرجح موت، يقفوه موت، يقفوه موت بعلة تضخم وكظة المعرفة(١٦).

(٢٥) ديسمبر ١٨٦١)

إن هذا المكان يحلو فى عينى كلما استمريت فى العيش هنا، وإذا درست مع أجاسيز أربع سنوات أو خمسا، فإنى أرغب فى أن تكونوا معى جميعًا هنا فى غاية الاستقرار والراحة، لقد تحدثت طويلاً مع أحد طلابه منذ أيام، واتضح لى لأول مرة كى يحس العالم الطبيعى حيال حرفته بنفس الطريقة التى يحس بها الفنان حيال حرفته، فمثلاً، أجاسيز يفضل أن يأخذ أناسًا غفلاً تمامًا من كل تعليم «إذ يتعين عليه أن يجهلهم بكل ما تعلموا»!! إنه لا يسمح لهم بالنظر فى كتاب لمدة طويلة، وما يتعلمونه يتعين عليهم أن يتعلموه لأنفسهم بأنفسهم، وأن يتقنوه كله ويكونوا أساتذة بارعين فيه كله. والنتيجة هى أنه يجعل منهم علماء طبيعيين، ولا يقتصر على مجرد حشوهم بالمعلومات. وهذا الطالب (الذى درس عليه عامين) قال: إنه يشعر بأنه مستعد للذهاب إلى أى مكان فى العالم الآن، ولا شىء معه سوى دفتر مذكراته لكى يدرس أى شىء بمفرده، أجاسيز لابد أن يكون معلمًا عظيمًا! إننى أمضى فى الكيمياء بأشواط لا بأس بها، ولكنها ليست بالسرعة التى توقعتها. إننى بطىء فى استخلاص النتائج من المواد التى بين يدى، لأننى لم أنجز للآن سوى اثنتى عشرة فقط. وأمامى قبل نهاية الفصل الدراسى أن أحتفل بعيد الشكر، وأن أستخلص نتائج ثمان وثلاثين تجربة أخرى»(١٧).

---

(15) L.W.J., 1, 34-5.

(16) Ibid., 1, 42.

(17) Selections from this letter appear also in N.SB., 131-4.

(أول مارس سنة ١٨٦٢).

ولقد كان موت مدير الجامعة، الرئيس فلتون، هو حدث الأسبوع العظيم. جنازتان وعدد من الصلوات والقداسات والمواعظ الدينية التى لا يحصيها عد. واليوم فكرت فى الذهاب إلى الكنيسة - من باب التغيير - وأستمع إلى كلمة الدكتور بيبودى(١٨) الختامية فى تأبين فلتون. ولقد كانت مرثية طويلة محزنة كئيبة. وكان الدعاء أنينا مطولاً اعتبر فيه الموت (ليس فى نتائجه ولكن فى حد ذاته) خطبًا جسيمًا وفاجعة دهماء، وكان التأبين الذى تضمنته الموعظة مليئًا بالحشو الذى يكاد يثير الضحك!. والشىء الذى كان كريهًا ومنفرًا إلى أبعد حد طوال العملية كلها، هو نغمة النوح والولولة والعويل، التى لا تشبه ألبتة الحزن الوثنى البسيط على فقدان الفقيد (ولو حدث ذلك لكان حزنًا شريفًا) وإنما كان نوعا من العواء والعويل والوعوعة المصطنعة عمدًا، كما لو كان ذلك واجبًا يتعين أداؤه! ثم إنها كانت وعوعة تعوى على شىء غير محدد، وإنما مجرد تغليف باطل لكل كلامه بالدموع المسفوحة.

لقد كان أسلوب العملية كلها أسلوبًا مزيفًا ومنفرًا، لدرجة أننى قررت ألا أقرب جنازة أو أحضر قداسًا حتى يتحسن أسلوبها ويرتقى. إننى الآن أدرس الكيمياء العضوية. ولعل الوالدة العزيزة تصاب بصدمة إذا علمت أننى بالأمس أتلفت منديلاً! ولكنه كان منديلاً قديمًا، ولقد حولته إلى كمية من السكر، وأن كان داكن اللون إلا أنه حلو المذاق. أعتقد أننى نسيت أن أذكر لك أننى مجرد من ألمع حلية عندى، تلك الماسة الجلحاظة السوليتير (حلية من جوهرة واحدة) التى كانت تضفى على مظهرى رونقًا رجوليًا وحربيًا، ضاعت ومكانها شاغر. أرجوك ألا تدع والدى يتهيج. وأحسب أن أحدًا لن يلاحظ الفرق بين وجودها أو ضياعها، ثم إنها لم تفقد إلى الأبد، وإنما هى راقدة فى مكان ما، وستبعث ذات يوم كالفوينكس من رماد جدثها، أبهى جمالاً ورونقًا بعشرات المرات».

وفى عامه الثانى فى هارفارد واصل وليام دراساته فى الكيمياء مع إليوت، ولكنه لم يكمل العام الدراسى. والرسالة التالية موجهة إلى أخته آليس، وهى مكتوبة بأسلوبه المزاحى الهازل الحبى. وكان أبوه قد جاء لاتخاذ التدابير اللازمة لطبع كتابه «الجوهر والظل: Substance and Shadow» الذى نشر فى سنة ١٨٦٣.

---

(18) President C.C. Felton died February 25, 1862. He had been President of Harvard College only two years.

(*) طائر خرافى، رمز الخلود. (المترجم)

كامبردج ١٩ أكتوبر سنة ١٨٦٢

طفلتي العزيزة

على الرغم من أن صحتي ليست على ما يرام فإن الحب الذي أكنه لك ولكل الأهل الأعزاء يحملني حملاً على أن أكتب بضع كلمات هذا المساء، لكي أوقد جذوة علاقاتنا الودود، ولكي أشكرك على رسالاتك الجميلة التي على الرغم من تحريرها بأسلوب غير مصقول وخشن، فإنها بسبب ذلك أكثر بهجة وظرفا. لقد طالت إقامة أبي هنا لدرجة أنكم في البيت لابد أن تكونوا قد بدأتم في التفكير في اللحاق به. أعتقد الآن أنه سيمكث هنا حتى يرحل ويلكي، فإذا صدق حدسي فإن ويلكي راحل فعلاً يوم الثلاثاء. أعتقد أن التنقل والطواف والهرج والمرج أفادته جداً. لقد ذهبت معه إلى صاحب المطبعة، وأعتقد (وهذا سر بيننا نحن الثلاثة) أن كتابا من أجمل الكتب في الأزمنة الحديثة سيخرج إلى حيز الوجود. إنه كتاب بسيط، بلا زخرف، ولكنه في غاية الأناقة والجمال.

منذ يوم الأحد الماضي، وأنا أعاني من دمل في مرفقي. ولقد نصحني إليوت بصوت كله يقين مطلق أن أستمر على طلائه باليود، وحيث إنه نادراً ما يقدم ملاحظة، فإن الملاحظات التي يسمح بخروجها من فيه لها وزن مضاعف. إذن كيف يتسنى لي أن أخالف نصيحته. والنتيجة أن الدمل ظل على «وضعه الراهن» حتى حدث منذ ثلاثة أيام أن بدأ ذراعي يتورم توरماً عظيماً. إن اليود يبدو أنه يمنع تكوين فوهة للالتهاب، ولكن ماذا نفعل سوى ذلك، فالله وإليوت وحدهما هما العليمان. إن وضع اليود على الدمل مؤلم جداً، ويبدو أنه يعطل برءه، ونظراً لكوني أبطلت استعماله فإني أصب عليه الآن اللعنات الصارخة. إنني سقيم ومحموم هذه الليلة، هأنذا جالس تحت مصباحي، ملفوف في معطفي، أسطر للوحيدة التي أحبها (à la seule que j'aime)، ولا أشتهي أي شيء في الدنيا مثل اشتهائي لساعة أو ساعتين من حديثها الذلق الفارغ، الذي مع ذلك يشيع في النفس السكينة والتلطيف والسرور. إن عينيها الشفافتين، وخطوتها الرشيقة، ويديها الرخصتين البضتين، وصولتها الحاني، ومزاجها الناعم – لم تكن في يوم من الأيام أشهى عندي وأحب إلي مما هي الآن. أي دفء مبارك، وأي نور مقدس يحيط كالهالة بأمنا الحبيبة!. إن عقلي الآن يرى هذا الدفء وذلك النور رأي العين. إنها دائماً مستعدة لتخفيف آلامنا في المرض، وهدايتنا سواء السبيل في الصحة. والعمة العزيزة العتيقة كيت أيضا، التي لم يسبق أن أحسست بإنكارها لذاتها وايثارها لغيرها مثلما أحس الآن! إن صفاتها تبدو الآن في نظري ملائكية، بل إني لأعترف بالجميل لجلبتها وضوضائها وهي تطوف حول جسمي السقيم بكل هدوء وارتياح. إنها تبدو الآن أمامي غندورة شائقة رائقة. وإن أنسى لا أنسى العفريت الأنيس بوب، ذلك الطيف الذي يحمل نسيم الحياة الصحي الناشط الذي يسري دائماً في أوصاله. إنهم جميعا، كلهم واحداً واحداً، يتدفقون عليَّ كبحر رطيب نشوان، ترقد في أعماقه روحي

سابحة فى وهن. ثمة أريكة شاغرة فى غرفة بيتى لا يحتلها أحد. إنها أريكتى. لقد دخل علىَّ هارى الآن لتوه - يا له من طفل عذب! إنه يبعث بأشواقه وحبه لكم جميعًا. سأرسل إليك كتاب بوردون فى الحساب وأى شىء آخر تطلبينه. تصبحين على خير - آلاف القبل للجميع - الحبيب الوحيد.

و م. چيمس»

على أن تصور چيمس فى أثناء تلك السنوات غارقًا فى دراسة الكيمياء والتشريح المقارن أو الطب، يكون صورة ناقصة وقاصرة عن تطوره الفكرى وتحويله. كان دائم الرعى والاجترار وأنعام النظر، يجول ويعار حيث يطيب المرعى والمرج.

ومن حسن الحظ أن تبقى مفكرتان بخط يد وليام چيمس، قيد فيهما مذكرات عامه الدراسى (١٨٦٢، ١٨٦٣) حيث تظهر فيهما إلى جانب فقرات مقتبسة من محاضرات أجاسيز عن «ألجيولوجيا وتركيب وتصنيف المملكة الحيوانية»، ومن محاضرات جوزيف لوفرنج عن «علم الكهربا الإستاتيكية وعلم القوة الكهربية وعلم الصوت» - وفى المفكرتين أيضا رسوم بالقلم الرصاص، وحقائق تاريخية وأدبية مؤرخة بحسب ترتيب حدوثها، وأقوال لتشارلز بيرس، وموجز للثورة الفرنسية، وملخص بالألمانية لكتاب (Kraft und Stoff) تأليف «بوكنار: Buchner»، وصفوة كتاب أصول اللغة لمؤلفه فارار، وكتاب الخطيئة الأولى لجوناثان إدوارد. والمداخل المدونة فى هذه الكتب وفى الفهرس المبوب الذى بدأه فى سنة ١٨٦٤، تمتد لتشمل ميادين الأدب والتاريخ والعلم والفلسفة بأجمعها، وهى تدخل على عقل نشيط قوى العزم محرز بقدر ما كان نهما وشاردًا وعبارًا فى كل واد يهيم.

والمدخل التالى يمثل هذه الخصيصة أصدق تمثيل:

«١٢ فبراير: قرأت مقالة باكل عن ميل. إن شغف باكل النبيل بالسعى فى طلب الحقيقة أمر ملهم. قرأت أيضا أو بالأحرى تصفحت سريعًا مؤلف بالزاك (Lys dans Le vallée). مدهشة لا أعرف أن مؤلفًا سبق بلزاك فى تكريس نفسه وإخلاصه لموضوع معين مثلما فعل بلزاك. سأقرأ كل مؤلفات بلزاك».

وعلى الرغم من أن چيمس سجل نفسه ثانيًا فى شهر سبتمبر فى مدرسة لورانس للعلوم، فإن بؤرة اهتمامه انتقلت من الكيمياء إلى البيولوجى. ولقد بدأ يشعر «بشعور البنوة» نحو وايمان، ويضع نصب عينيه حياة علمية يكون فيها «التاريخ الطبيعى» هو موضوع تخصصه.

ولقد كانت الأعمال التجارية (ربما الطباعة والنشر)، والطب (ربما العلاج النفسى)، هما البديلين الأكثر ربحًا وإدرارًا للمال[١٩].

والفقرة التالية من رسالة لأمه تلخص لنا على أفضل نحو حالته العقلية بالنسبة للمسألة الملحة الدائمة الخاصة باختيار مهنة:

مساء الاثنين (٢ نوفمبر سنة ١٨٦٢)

إننى أشعر بأهمية التعجيل بالاختيار النهائى لعملى فى الحياة. إننى أقف فى مكان تتشعب فيه الطرق أمامى كالمذراة: شعبة تفضى إلى الرفاهة المادية، لحامة وبدانة وامتلاء جسم، ولكنها نوع من بيع المرء لروحه. والشعبة الثانية تفضى إلى الكرامة العقلية والاستقلال، مصحوبة على الأرجح بالعوز المادى والفاقة. ولو كان الأمر يعنينى وحدى لما ترددت لحظة واحدة فى اختيارى. ولكن يبدو أنه سيكون أمرًا عسيرًا على حرم وليام چيمس - وليس من المستحيل أن توجد هذه المرأة - أن يطلب إليها أن تشاطرنى جيبا خالى الوفاض ومأوى بارد المصطلى. فعلى أحد الجانبين يوجد العلم، وفى الجانب الآخر توجد التجارة (ويبدو أن أعمال الطبعة - تلك المهنة الشريفة المعززة المكرمة المنتجة - تلوح لى أنها أكثر الأعمال التجارية جاذبية)، مع الطب الذى يشترك مقاسمًا فى مزايا الاثنين، ويقف بينهما، ولكنه لا يخلو من عيوب ونقائص فى حد ذاته. أعترف أننى متردد. إننى أتصور أن هناك نوعًا من الجبن الأموى المولع الذى يجعلك - أنت وكل أم أخرى - تؤمل بارتياح ورضا فى الدسم الدنيوى لابنها، حتى إذا كان الحصول عليه بتضحية «طبيعته العليا»، ولكننى أخشى أن يكون هناك ثمة كرب وغم فى النظر إلى الخلف من برج اليسر والرخاء (وهو أمر يدرك حتمًا، إن لم يكن يأكل الطين، فعلى الأقل ينبذ طعام الآلهة) على الحياة التى ربما كنت تعيشينها فى السعى الخالص فى طلب الحقيقة. إن الأمر يبدو لى كما لو كان المرء ليس فى وسعه أن يكف عن ذلك لقاء أى إغراء أو أية رشوة مهما بلغت. ومع ذلك فما زلت فى حيرة من أمرى، لم أبت فيه بعد. أن الفصل الدراسى فى مدرسة الطب يبدأ غدا، وبين هذا وبين نهاية الفصل الدراسى هنا ستكون عندى الفرصة للنظر فى أمر مهنة الطب بشىء من الإمعان، وسأتناول الرأى مع وايمان بشأن الآمال المرجوة لمستقبل عالم طبيعى، ثم أحزم أمرى أخيرًا وأبت فى مصيرى. وأحب أن تكونى عالمة بفكرة أننى قد أثابر على العلم، وأستقر على

---

(19) L.W.J., 1, 50. James's cousin, Katharien Barber James, had married Dr. William Henry Prince, first supperintendent of the Northampton State Hospital, and this circumstance no doubt contributed to his interest (both psychological and medical) in the insane. Cf. L.W.J.,1, 43-5.

اختياره، وأستنزف من أموالك لمدة أخرى من السنين. فإذا استطعت أن أعمل فى متحف أجاسيز - وأعتقد أن ذلك ليس بعيد الاحتمال - فقد أتقاضى مرتبًا يصل إلى ٤٠٠ أو ٥٠٠ دولار فى بضع سنوات. إنى أعرف نفرًا أغبى منى وأكسل فعلوا ذلك. وفى هذه الحالة فما ألذ وأمتع أن يكون للمرء بيت فى كامبردج. وعلى أية حال فأنا على يقين بأن مأوى ما فى تلك الجيرة بهذه الناحية هو المكان الملائم لاستقرارنا وراحتنا. لقد شغلت هذه الأمور تفكيرى فى المدة الأخيرة، وأنا سعيد بأن أنتهز هذه الفرصة لكى أسكبها عليك(٢٠).

وعلى الرغم من أن چيمس دخل الآن مدرسة الطب، فإن دراساته ظلت تحت إشراف وتوجيه جيفريز وايمان بصفة رئيسية. ومن الواضح أن ممارسة الطب لم ترق فى نظره. ولقد كتب إلى ابنة خاله جانيت جورلاى فى الحادى عشر من فبراير سنة ١٨٦٤ رسالة جاء فيها:

«لقد اعتنقت مهنة الطب منذ بضعة شهور، وانطباعاتى الأولى هى أنها مهنة بداخلها كثير من الدجل والخداع والغش، وإنه باستثناء الجراحة التى أحيانا يتم إنجاز علاج إيحائى فيها، فإن الطبيب يفعل بالأثر المعنوى لحضوره على المريض وأهله، أكثر بكثير مما يفعل بأى شىء آخر، ثم إنه يقتلع منهم المال أيضا»!.

وفى ربيع سنة ١٨٦٤ - بعد أن ساوره كثير من الشكوك واعترضه كثير من الصعاب انتهت بالتغلب عليها - استقرت أسرة چيمس آخر الأمر فى منزل فى بوسطن، وانتقلت إلى رحبة أشبورتون رقم ١٣. وعلى الرغم من أن هذه الخطوة السعيدة لمت شمل الأسرة وجمعت چيمس بأسرته فإنها أوقفت مراسلاته لمدة عام تقريبًا.

---

(20) Reprinted from L.W.J., 1, 45-6. It is ncw possibe to fix the date of the letter.

(٨)

الدراسات الطبية والبدايات الفلسفية

واصل چيمس دراساته الطبية حتى نهاية مارس سنة ١٨٦٥، عندما انضم إلى بعثة ثاير إلى البرازيل. وكان ذلك بشيرا بفترة من الصلة الوثيقة مع البروفسور أجاسيز، وتجربة يمتحن فيها صلاحيته للتخصص فى البيولوجى باعتباره مهنة حياة، والذى كان اختياراً ما زال قائمًا. وتكشف رسائله إلى الأسرة عن اهتمامه بمؤلفات أبيه (طبيعة الشر)، وعن اهتمامه بحياة أخيه هنرى ومهنته، كما تكشف أيضا عن دخيلة نفسه فيما يتعلق بشغله الشاغل المحتضن للفلسفة:

من على ظهر السفينة ٢١-٢٥ أبريل سنة ١٨٦٥.

«لا يمكنكم أن تتصوروا مبلغ شعورى بالفرح بأننا غدا سنلقى مراسينا فى المياه الهادئة لريو وتنتهى أهوال هذه الرحلة. أواه من ذلك البحر الشرير، البحر الملعون! ليس لأحد أى حق فى أن يكتب عن «طبيعة الشر» أو يدلى بأى رأى عن الشر، ما لم يكن قد ركب البحر. إن حماة القنوط المفزعة التى تغوص فيها، تهيئ خبرة تبلغ درجة من العمق بحيث لابد أن تؤتى أكلها. ولست أستطيع أن أقول ماذا جنيت من أُكُل فى حالتى. ولكننى واثق بأننى سأصيب منها يومًا ما مدخلاً إلى الحكمة».

ريو - ٣-١٠ مايو سنة ١٨٦٥

عهد إلى البروفسور بالأحياء البحرية للخليج (فيما عدا الأسماك) إبان وجودى هنا، وهو عمل بهيج، ولكنه سيحول بينى وبين معظم الرحلات التى سيقوم بها الرجال الآخرون مدة وجودهم هنا. ليس فى وسعكم أن تتصوروا شيئًا يضاهى فيض الحياة فى أشكالها الوطينة على سلم التطور تحت سطح الماء. سأواصل العمل بكل ما فى طاقتى من جهد، محاولاً أن أكون نافعًا ما أمكن للبروفسور.

(إنه) رجل مشوق وممتع جداً. وإن كنت حتى الآن لم أفهمه فهماً جيداً. إن ادعاءه وغروره لا يقلان بأي حال في حجمهما عن مقدار قيمته، ويبدو أن تدجيله من ذلك النوع الطفل اللاشعوري، بحيث لا يمكنك أن تلومه عليه كما تلوم بقية الناس. إنه يريد أن يحيط بكل شيء علماً! بيد أن جاذبيته الشخصية لها سحر عجيب. فضلا عن ذلك، فلست أعرف إذا ما كانت بعثتنا ستنجز القدر المرجو منها. أما البروفسور نفسه فهو ربان ماهر من الطراز الأول ما في ذلك أدنى ريب، وبارع في التنظيم. ولكن من بين أحد عشر مساعداً له، يوجد ثلاثة من المعتوهين عنها مطلقاً. فأما توم وارد، ديكستر(١) وأنا - فنحن الثلاثة من بين الخمسة الذين يعرفون شيئاً، لا نعرف شيئاً! فواحد منا أحيل إلى المعاش، والثاني أصبح في حالة من الضعف والوهن بحيث إن أقل مجهود يبذله يجعله متوعكاً وكلاً على الآخرين، أينما توجهه لا يأت بخير. ولا يتبقى بعد ذلك إلا ثلاثة رجال بأكملهم! ولقد أخبرني البروفسور بالأمس أنه ينتوي أن يبعث بأربعة منا إلى بارا بطريق البر. فأما أحد الأربعة فعالم جيولوجي، وأما الباقون فينبغي أن يتفقوا فيما بينهم على من يصحبه من الثلاثة الباقين. أعتقد أنه أصبح من المرجح الآن أن توم وارد وأنا سنؤلف ثنائياً في تلك البعثة...

إنكم لا تتصورون كم أتحرق شوقا لمعرفة أنباء الحرب. وعندما أعود إلى الوطن ففي نيتي أن أدرس الفلسفة طوال حياتي. لعل هذه الرسالة لا تنضح بنغمة حزينة. فإذا كانت في ثناياها أية نغمة حزينة فمردها إلى ما أعاني من سوء الهضم وارتباكه. لقد كتبت اليوم تحت إلحاح الضرورة البحت، فلم يسبق لي أن تطلعت إلى أي أمر بسرور واشتياق أكثر من لهفتي على القيام بهذه الرحلة البرية».

ولكن وليام جيمس لم يقدر له أن يقوم بهذه «الرحلة البرية» وإنما بدلاً منها أصيب بالجدري (أو الحماق). وبمجرد إبلاله من مرضه كتب بإسهاب لأسرته قائلاً: إن «مجيئه كان خطأ» وأنه من البين «قدَّ لحياة تأملية لا لحياة حركية ناشطة»:

«لقد عاملني أجاسيز معاملة طيبة جداً، ووافق بترحاب وصفاء على عودتي إلى الوطن على الرغم طبعاً من أنه يفقد بذهابي زوجا من الأيدي. إنه إنسان معجز، يتميز على الرغم من كل ما فيه من نقائص وعيوب بجاذبية شخصية تفوق ما عند أي إنسان أعرفه.

لقد شاهدت بلاداً في غاية الغرابة والطرافة والظرف تستحق رحلة طويلة»(٢).

(1) Thomas W. Ward and Simon Newton Dexter, Personal friends and fellow students at Harvard.

(2) June 3, 1865. The remainder of this letter is published in L.W.J., 1, 60-4.

وهذه الرسالة نفسها تضمنت إشارة منذرة بالسوء عن «حساسية» عينيه. وعلى الرغم من الأخصائيين الذين أكدوا له على الفور سلامة بصره وخلوه من أى عطب مزمن، فإنه قاسى من عينيه سنين طويلة، وعلى فترات متقطعة طوال بقية حياته من جراء عجز عن استعمال عينيه دون الإحساس بتعب شديد.

على أن صحته ومعنوياته تحسنتا سراعًا، وطالت مدة إقامته فى البرازيل حتى مارس سنة ١٨٦٦.

(ريو) ٢٣ يوليو سنة ١٨٦٥

«ستبدأ رحلتنا إلى بارا بعد غد حتما، مما يقربنا إلى الوطن بألف وخمسمائة ميل أو أكثر. لقد شاهدت مزيدًا من المناظر، وزرت مزرعتين كبيرتين بعيدًا عن الساحل فى قلب البلاد فى غاية الطرافة. إننى أتحرق شوقًا إلى محادثة ذات صبغة فكرية، وليس فى وسعى أن أقرأ. حبذا لو كان فى مقدورى أن أستمع إلى مقالاتك عن جوته وأرنولد، وإلى ما كتبه الوالد عن «الإيمان والعلم» أو رسالته[3] التى نشرت فى صحيفة الإيفننج بوست عن إدمان جونسون للخمر.

(3) The (letter) here referred to, and which appeared in the New York Evening Post on May 18, 1865, is not the least remarkable of James's polemical. utterances. Replying to the charge the President Johnson was intoxicated at the time of the delivery of his Inaugurat Address, he pays his respects to the pharisaism and snobbism of the London Times and Saturday Review, and then contends that Johnson's momentary use of stimulants was not only excusable because of his illness, but justified by the candor and humanity (as referring to his humble origin) of the utterance which resulted. (It is very doubtful to me), he said, "whether President Johnson would have given the frank utterance he did to the divine emotion which glowed in his soul, if he had been left to his ordinary carnal prudence.

"Faith and Science" appeared in the North Amer, Rev. for Oct. 1865. The same number contained critical notices of Arnold's Essays in Criticism and Carlyle's translation of Goethe's Wilhelm Meister, by H.J., Jr.

ما أشد لهفتى إلى أن أستمع إلى تشـوتسى رايت يتفلسف ليـلة واحـدة، أو أن أرى لافارج أو بيرى أو هولمز»[4].

فى نهر الكسنجو، ٢٣-٢٥ أغسطس (١٨٦٥)

«أسف جداً إذا كنت قد خيبت أملكم بأن جعلتكم تتوقعون رؤيتى سريعًا جداً، ولكن الآن وقد بدأت المتعة الحقيقية للرحلة، وأنا أتذوق حلاوة هذه الغابات الممتدة الأطراف هنا، فإنى أجد من المستحيل علىَّ أن أنزع نفسى نزعًا وأنسلخ عنها. وفى هذا الصباح أخبرت البروفسور أننى سأمضى معهم فى هذه الرحلة على الأمازون حتى نهايتها، مهما كانت الظروف. عيناى تتحسنان، وبدأت أقدر على أن أبصر الأشياء دون أن أخشى وخزة مفاجئة كوجع الأسنان، فى إحدى عينى تلازمنى نصف الليل. لقد أيقظت نفسى من الوجود البقلى الذى يقبض الصدر، والذى عشته طوال ثلاثة الشهور الماضية الأخيرة، وبدأت أشعر كما لو كان قد تبقى فى فضل من الكائن الإنسانى. ما زال خلل الرماد وميض نار، ويوشك أن يكون له ضرام. وعلاوة على ذلك فلدى الفرصة الآن لأتعلم قدراً كبيراً من علم الحيوان وعلم النبات، حيث إنه سيكون لنا وقت طويل من الفراغ. ثم إننى أتلقى تمرينًا قيمًا من البروفسور الذى يطوح بى ذات اليمين وذات الشمال، وينبهنى إلى كثير من نقائصى وعيوبى، وفى هذا الصباح قال: «إننى جاهل تماماً»!! وأحسب أنه أفادنى كثيراً حتى الآن، وأنه لا ريب سيفيدنى أكثر وأكثر قبل أن تنتهى مهمتى معه.

والمسز أجاسيز من أحسن النساء اللاتى التقيت بهن. إن مزاجها الرائق لا يتغير أبداً، وهى طلعة جداً وفى غاية الانتباه والاهتمام بكل ما تراه، ثم أنها تعمل بهمة لا يتطرق إليها الملل، إنها كالملاك بيننا فى السفينة. أما أجاسيز فيفيض سعادة وطربا لأى شىء، وأخشى أن يكون فى نية الآلهة أن تمحقه وتدمره تدميراً. ومنذ أن وصلنا إلى بارا من أربعة عشر يومًا وجد ستا وأربعين فصيلة جديدة من السمك، وعدداً من الأسماك يفوق فى مجموعه المجموعة التى جمعها سبكس ومارتيوسى[5] طوال السنوات الأربع لإقامتهما فى هذه البقاع. والسبب فى ذلك أن أجاسيز يحمل كل من معه على مساعدته. إذا أوفى هارى بعهده وأرسل لى رسالة الوالد المنشورة فى صحيفة إيفننج بوست عن ثمل جونسون، فسيكون ذلك من دواعى امتنانى.

---

(4) Thomas Sergeant Perry. For O.W. Homes, Jr., cf. below, Ch. X; for Wright, ef. 78, 127ff.

(5) The reference is to Reise in Brazilien, 1817-1820, by J.B. Spix and K.F. Martius, 1823.

تيفيه (الأمازون) ٢١-٢٢ أكتوبر سنة ١٨٦٥

بودى لو أستطيع أن أبعث هذه الرسالة إليكم بالبرق لكى أبطل فوراً تأثير بعض رسائلى الماضية التى خطر ببالى لمدة بعد مرضى، إننى أحسب أنها قد تجعلكم تظنون أننى متضجر ومتبرم. والحقيقة هى أن عدم قدرتى على الأبصار جعلتنى أشعر بالغم وانقباض الصدر لمدة من الزمن. وليس فى وسعى إلا أن أطرب لأننى لم أتصرف وفقًا لدواعى شعورى، وأنى تريثت فى الأمر لأن كل يوم مر علىّ طوال الشهرين الأخيرين يجعلنى أشكر العناية الإلهية على أننى ظللت هنا، وإننى مضيت فى الرحلة إلى آخرها بدلاً من أن أعود أدراجى إلى الوطن والأهل قبل الأوان. لقد ذكرت فى رسالتى الأخيرة شيئًا عن احتمال رغبتى فى الذهاب إلى الجنوب ثانية مع البروفسور. ولست أظن أن هناك أى مزيد من الاحتمال فى ذلك سوى أننى أرغب فى جوب وسط أفريقيا. إذا كان هناك شىء أمقته فهو التجميع، وأعتقد أن عملية التجميع لا توافق عبقريتى مطلقًا، ولكن لهذا السبب نفسه، فإن هذا التدريب البسيط - الذى أتمرن عليه هنا - يفيدنى جداً. لقد بدأت أصبح عمليًا جداً، ومنظمًا ومرتبًا بطريقة عملية: إن الفوضى الجميلة التى كانت سائدة فيما حولى، والتى كانت تجعل الوالدة تزفر من أعماقها تنهيدة جميلة - عندما تدخل غرفتى - هذه الفوضى تعامل من الناس الذين أعيش معهم هنا كما لو كانت جريمة بشعة! وأننى أشعر بالحساسية الفائقة والخجل حيالها. إننى أتحرق شوقًا لقراءة محاولات هارى الأدبية، ولرؤية عدد أو أكثر من مجلة الأمة (The Nation). طبعًا لا داعى لأن ترسلوا عدداً كبيراً من المجلات أو الصحف»(٦).

أوبيدوس ٩ ديسمبر سنة ١٨٦٥

«إننى أنتهز فرصة سويعات قليلة قبل رسو الباخرة لكى أكتب لكم سطراً فحسب، ربما يصلكم قبل أسبوعين من وصولى أنا. لقد عدت لتوى من رحلة بالقارب ابتغاء القصة الخالدة القديمة - السمك - وكان حظى فيها هزيلاً بسبب ارتفاع مياه النهر قبل أوانها. وليس أمامى سوى أسبوعين آخرين من العمل، ثم بعد ذلك «السبت» (اليوم الدينى المخصص للراحة). وأنا الآن فى انتظار هانويل(٧) لكى يرافقنا فى هذا الباخرة. لقد نجحت بشق النفس، وبعد مجهود جبار، فى الحصول على ثلاثة رجال وقارب جيد، وفى غد سنبدأ نشق مياه نهر ترمبيتاس معًا. إننى أتحدث باللغة البرتغالية الآن كتابًا مفتوحًا، وأنا على استعداد لأن أتحدث بها لساعات وساعات عن أى موضوع. وطبعًا يجد الأهالى شيئًا من الصعوبة فى فهمى، ولكن هذه هى وجهة نظرهم هم، وليست وجهة نظرى أنا، إن مهمتى هى أن أتكلم وأفهمهم.

---

(6) For other parts of this letter, cf. L.W.J., I, 67-70.

(7) Walter Hunnewell was a senior in Harvard College.

كم أتوق إلى العودة ثانية إلى الكتب والأسفار والدراسات... إلخ. بعد هذه الرحلة البدائية. إنكم لا تتصورون كيف تبدو حياة البيت فى نظرى، وأنا أرنو إليها من أعماق هذا الكون المدفون بحالته الراهنة فى الخضرة والنبات والأعشاب والضرورات والمتع الجسمية فحسب. إن صورة الناس، وقد احتشدوا جماعات على نحو ما يفعلون فى الوطن، يقتلون أنفسهم بالتفكير فى أشياء لا تمت بسبب إلى ظروفهم الخارجية المجردة، ويرهقون أنفسهم فى البحث والدراسة حتى يسقطوا صرعى كأعجاز نخل خاوية، ويجنون رعونة وحمقا فى الخلافات الدينية والفلسفة والحب، يتنفسون غازات خانقة كالسعير الدائم، ويزفرون انفعالات هائجة مائجة يقلبون الليل نهاراً - هذه الصورة تبدو خيالية ولا تصدق - ومع ذلك فلم أبتعد عنها إلا منذ ثمانية شهور فقط. ولعل ما هو أكثر جدارة بالتنويه واستحقاقًا للعجب هو: التنوع الفائق الحد للشخصيات الناتجة من كل ذلك - أما هنا فكل شيء على وتيرة واحدة فى الحياة والطبيعة، بحيث من كثرة الرتابة والتماثل تتهدهد فى نوع من السبات العميق، ولكن الأمر العجيب هو: أن حياتى القديمة وعالمى هما اللذان بدأ بالفعل يبدوان لى كالحلم. لا جناح علىَّ من القول بأنى عندما أعود إلى الوطن فستظل تنتابنى لفترة طويلة غمرة من الحنين للنزوع إلى ذلك النعيم المستكن. وحتى الآن فغالبًا ما يكفينى أن أنظر إلى شجرة برتقال، أو منظر غروب الشمس البهيج، لكى ترتعد فرائصى من فكرة أننى مفارقها إلى غير رجعة. ولكن لقد قضى الأمر وانتهى كل ذلك، وإنى لأرقص طربًا عندما أفكر فى أننا بعد شهر واحد سنكون ميممين شطر الوطن. مرحبا بك أيتها الأمواج الزرقاء الداكنة. مرحبًا بالثلوج والمواقد الحديدية، والمحلات، والمسرح، والأصدقاء، وكل شيء فى وطنى الحبيب حتى الكنائس. قل لهارى: إننى أتوق لرؤيته وسماعه وقراءته، كما يتوق المصاب بدوار البحر إلى الأرض. وأما أبى فلم أكن أعرف من قبل من هو بالنسبة لى. وإنى لأشعر أن فى وسعى أن أظل أتحدث إليه ليلاً ونهاراً لمدة أسبوع مستمر.

حاشية:

أرخى الليل سدوله، ولا توجد ثمة بعوضة، وإنما تشيع فى الهواء رائحة زكية مفعمة بموسيقى الحشرات والضفادع وكلاب البحر. النجوم تدق الساعات معًا. إننى أكتب تحت ضوء شمعة صفراء، وأنا لابس قميصًا بنصف كم وسروالاً من الكتان، وجالس على أرض مبلطة بالقرميد وكل النوافذ والأبواب مفتوحة على مصاريعها. ما أشد الفرق والاختلاف بين ظروفكم وأحوالكم فى هذه اللحظة! وأيًا ما أنت ظروفكم وأحوالكم فى هذه اللحظة، فإننى كثيرًا ما أسلى نفسى بتخيلها. ولكنى لا أستطيع تحديدها بالضبط.

وداعا وإلى اللقاء.

وبعد عام من الغياب عاد چيمس إلى بوسطون فى مارس سنة ١٨٦٦. واستأنف دراساته فى مدرسة هارفارد للطب. أما الأسرة، بعد تردد كثير وجدل طويل، فقد اختارت فى النهاية مسكن شارع كوينسى فى كامبردج، وهنالك التقى الجمع والتأم الشمل، فيما عدا الابنين الأصغرين: ويلكنسون، وروبرتسون، اللذين أخلى سبيلهما أخيراً من خدمة العسكرية وقد حفل سجلهما بأوسمة الشجاعة. وكان ويلكنسون قد أصيب بجرح فى فورت ڤاجنر، وكلا الأخوين قاسى من آثار الإرهاق الجسمانى والعصبى. ونظراً لكونهما عملاً ضابطين فى فرق السود، فقد شعراً باهتمام قوى بمستقبل ومصير هذا الجيش، وحصل كل منهما على مزرعة فى فلوريدا استخدما فيهما عمالاً من السود. وفى سنة ١٨٧٠ اضطرا، تحت وطأة الأزمة الصناعية، وتحت ضغط التعصب المحلى، إلى ترك هذا المشروع المثالى.

ولقد شعر وليام وهنرى نحو أخويهما الصغيرين باهتمام مشوب بالجزع والإعجاب فى آن[٨].

وفى معرض الحديث عن هذه الفترة من حياته قال چيمس فيما بعد:

«فى أول الأمر درست الطب لكى أكون عالم فسيولوجيا، ولكننى انجرفت إلى تيار علم النفس والفلسفة، كما لو كانت يد القدر تدفعنى، ولم أتلق أبداً أى تعليم فلسفى، وكانت المحاضرة الأولى التى قدر لى أن أسمعها فى علم النفس هى المحاضرة الأولى التى ألقيتها أنا فى علم النفس»[٩].

واتقدت شعلة شغف چيمس الفلسفى ببهاء واستمرار، ولكن وقود الشعلة لم يمدها باطراد. فدراسات – بمعنى الملازمة المنظمة تحت إشراف وتوجيه أستاذ خبير – انصبت على العلوم البيولوجية. أما المحتوى الفلسفى، فكان مدده يأتى من الجزء النظرى من دراساته العلمية، ومن القراءة المشتقة للفلاسفة، مبتدئاً بأولئك الأقربين للعلم،

(8) For a fuller account of Wilkinson and Robertson James, ef. A.J., Journal 1-82.

(9) Letter of August 16, 1902, published by A. Ménard, Analyse et critique des prineipes de la psychologie 1911, 5, note.

مثل: ميل وسبنسر، ومن صلاته مع أصدقائه الشخصيين ومعاصريه. وإلى هؤلاء المعاصرين يعزى إمداده بتأثير مضاد فى ميدان الفلسفة يناهض تطنيب أبيه الدينى. وثمة أربعة من أولئك المعاصرين يبرزون من بين الباقين، وهم: تشارلز س. بيرس، تشونسى رايت، وندل هولمز، توماس و. وارد. فأما بيرس ورايت، فكانا فيلسوفين محترفين، فى حين أن الاثنين الآخرين كانا صديقين لچيمس، وكانا يمران بطور من المراهقة الفلسفية. وكان الأربعة جميعا يجنحون إلى المذهب الطبيعى أو المذهب الارتيابى (الإلحاد).

ومن ثم فقد وجد چيمس نفسه، فى علاقاته مع صديقيه المقربين، الفارس المبارز المدافع عن التحررية الميتافيزيقية. بيد أن رفيقيه فى الحلبة كانا زميلى لعب عنيفين، خطرين فى لعبة الفلسفة، وشريكين مناجزين مناوشين، الأمر الذى ساعده على تقوية نشاطه التأملى.

والرسالة التالية لأخته تصف المرحلة التالية من دراساته الطبية:

كمبريدج – ١٢ ديسمبر (١٨٦٦)

«إن الوقت الحاضر وقت مثير جداً، وحافز للشبان الطموحين فى مدرسة الطب الذين يتوقون إلى الالتحاق بالمستشفى. إن ملازمتهم للأطباء، وملاحقتهم إياهم بالأسئلة النجيبة بعد المحاضرات، وتطوعهم بأن يقوموا بخدمتهم وقضاء أغراضهم، وإراقتهم ماء وجوههم بكل حيلة ووسيلة، كل ذلك قد بلغ الذروة فى هذا الأسبوع! إنهم يطرقون أبوابغرفهم بالمستشفى، متوسلين إليهم فى ذلة وضراعة لكى يزكوا تعيينهم بالمستشفى! وهم يفعلون نفس الصنيع على أبواب الأوصياء العشرة! وبناء عليه فإنه يتعين علىَّ أن أقوم بست عشرة زيادة. ولست أخشى الفصل، مع موهبتى فى المدح والإطراء والتزلف! والتعيينات تذاع فى يناير».

وسواء أكان چيمس قد وفق فى الحصول على وظيفة فى المستشفى أم لم يوفق، فقد كان من المستحيل عليه أن يفيد منها وينال بغيته. فلما حل الربيع التالى جلب معه مقاطعة جديدة اعترضت سبيل دراساته الطبية، وفترة أخرى كرست لتقصى الحياة وإمعان النظر فى أبدالها المتاحة. ومن ثم أبحر إلى أوربا فى أبريل سنة ١٨٦٧، ولم يقدر له أن يعود حتى نوفمبر سنة ١٨٦٨. واجتمعت أسباب عديدة – بعضها لبعض ظهير –

حملته على اتخاذ قراره النهائى والبت فى مصيره. فأما السبب الأول، فقد كان حالة مرضية قاسى منها منذ الخريف السابق(١٠). كان عندئذ مقبلاً على مرحلة من العجز الجزئى، والألم الجسمانى، والكآبة وانقباض النفس، استمرت زهاء خمس سنوات. ومن المستحيل فى حالة چيمس أن ينظر إلى حالته الصحية على اعتبار أنها مجرد طارئ عرضى، لأنها كانت نذيراً، زوده بسبب قاطع، يحول بينه وبين البحث التجريبى. ثم إنها حددت كمية قراءته. وإليها يعزى بلا ريب - جزئيًا - قدرته الفائقة على الاستيلاء الخاطف على الزاد الذى يتطلبه عقله والقبض عليه. وعلى أية حال فقد حوله هذا السبب من الاطلاع الجامد المتراكم إلى الاجترار الناشط والتأمل المنعم. على أن عودة مرضه وتكرار وقوعه، على الرغم من أنه جلب له فترات من الكآبة والغم، فإنه لم يمس جوهر صحته العقلية، ذلك أن طبيعته كانت فى غاية المرونة واللدونة، لكن ذلك فى نفس الوقت بعث فى نفسه نوعا من المشاركة الوجدانية العجيبة العاطفة على الشواذ فى الناس. وأخيراً فإن مرضه امتزج على نحو عجيب بتلك الخاصية الأساسية التى سبق التنويه بها، فلقد كان چيمس كما رأينا دائم القلق والجزع والضجر والتبرم. وهذا التململ كان بمثابة مهيِّج ملهب يحول بين عقله وبين أن يصبح راكداً أو آسنا. كان يتذوق طيبات الحياة بالصبو والاشتياق والحنين إليها، فى غيابها مثلما كان يمتع بحضورها، سواء بسواء. كان سرعان ما يحس بالبشم مما فى يده، بيد أن هذا البشم كان مقرونا دائمًا باشتياق واجم لشىء آخر، بحيث إنه فى مجموعه كان لا يشبع ولا يقنع، بدلاً من أن يكون مكتظًا وطافحًا. وليس ثمة شك فى أن حالته الصحية أسهمت بنصيب فى قلقه ونزوعه وعدم استقراره. نشاط آخر - مشهد آخر - منظر جديد، حركة مختلفة كانت دائمًا تزوده بمسكن يخفف آلامه الراهنة، وترفع عنه إصر ما يرهقه. كان يجد فى العمل ترياقا لكثرة اللعب ويجد فى اللعب شفاء من العمل.

(10) "Insomnia, digestive disorders, eye-troubles, weakness of the back, and sometimes deep depression of spirits followed each other or afflicted him simultaneously". L.W.J., 1, 84.

كان يلهو إذا أضناه الجد، ويجد إذا أسأمه اللهو، كانت الطبيعة علاجا للكلل الاجتماعى، وكانت الحضارة طبا لخواء الطبيعة البدائية وخشونتها، والفلسفة تشفى من العلم، والعلم يبرئ من الفلسفة، كان يلتمس فى أمريكا علاجًا لأوروبا، ويذهب لأوربا عندما يضيق بأمريكا!

وفى سنة ١٨٦٧، كان عند چيمس سبب معين يحفزه إلى الذهاب إلى أوربا. فلقد بعثت فيه دراساته فى مدرسة الطب شغفا بالفسيولوجيا التجريبية، واعتقد أنه بسفره إلى ألمانيا فى ذلك الوقت يستطيع أن يجمع بين إشباع حاجاته العملية واتقان معرفته باللغة. وفى توجيه خطواته تلقاء ألمانيا كان يتبع سبيلاً قديمًا مطروقة من الحج، طريقًا مفضيًا ليس فقط من أمريكا، ولكن من أوربا الغربية أيضا. كانت ألمانيا تشع كالمنارة من بعيد، وتهوى إليها الأفئدة باعتبارها مثابة لأعظم وأسمى ما فى الروح، ولكل جديد وطريف فى الأدب والعلم والفلسفة. وكان الألمان موضع الإعجاب لافتقارهم إلى تلك الصفات بالذات التى كانت سبب كراهتهم وبغضهم فيما بعد عندما حازوها. إن ألمانيا التى هوت إليها الأفئدة كانت ألمانيا التى تعيد ذكرى الماضى، لا ألمانيا المنبئة عن المستقبل. ومن ثم نجد هنرى آدمز، الذى ذهب إلى ألمانيا فى سنة ١٨٦٠، يقول: «إن ما أحبه كان الخلق البسيط، والعاطفة الخيرة، والتجريد الموسيقى والميتافيزيقى، وقلة دراية الألمانى وعجزه البادى فى الشئون العملية»[١١].

وبالنسبة لأمريكى فى عقد سنة ١٨٦٠، وما تلاها، فإن المؤتمرات السياسية كانت لابد أن تؤيد وتؤكد هذا التحيز الثقافى وما يلحق به من محاباة وتفصيل. فلقد أفادت ألمانيا من عدم رواج وشهرة أقرب منافسيها، وهوت إليها الأفئدة بقدر ما كانت تكره جيرانها: كانت إنجلترا مكروهة، لعطفها على الجنوب، وفرنسا لنفس السبب، وكذلك ومزاعمها بشأن الإمبراطورية الثانية، وللضحالة المزعومة والخفة والطيش التى اتصف بها الباريسيون.

---

(11) Education of Henry Adams, Riverside Press, 1918, 83.

وسيظهر فى التكملة أنه على الرغم من أن چيمس قد تأثر بهذا الهوى الألمانى، فإنه لم يقع تحت سيطرته أبداً. كان بسجيته وسليقته ومزاجه لابد أن يحب ألمانيا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا، كل على حدة، وبالتناوب دون أن يتبنى أيا منها نهائياً.

(٩)

درســــدن وبرلـــين

قضى چيمس ربيع سنة ١٨٦٧، وباكورة صيفها فى درسدن. ولقد تميزت تلك الفترة بتفتح وازدهار عظيمين لميوله الجمالية الفنية التى نبهتها وأنعشتها قاعات الفنون وقراءاته العامة سواء بسواء. أما مغامراته العقليـة والعاطفية مع الفن والأدب، ومع اللغة والناس، ومع رفاق السفر، فقد وصفت بأكملها وبأدق تفاصيلها، وبأسلوبه من الإفصاح عن دخيلة نفسه. فى الرسائل التى حررها فى ذلك الوقت لأسرته. كان طوال الوقت مشغول البال بأولئك الذين خلفهم وراءه فى أمريكا، يبتغى لهم - وخصوصًا أخاه هنرى - أن يشاركوه فى تلك الكنوز التى اكتشفها.

درسدن ٤ يوليو سنة ١٨٦٧.

«أسرتى العزيزة:

حياتى الخالية من الأحداث، تكر وتمضى فى هدوء، ويتوافر لدى وقت كثير من الفراغ للقراءة. وأنا لا ألقى إلا قليلاً من الناس، حتى لأتحرق شوقًا إلى قلب يخفق مع قلبى فى اتحاد. ولكننى على العموم راض وقانع جدًا، وأحتفظ بتلك القاعدة الذهبية: خير الأمور الوسط، بين تفاؤل خاو وتشاؤم أخرق أحمق، الأمر الذى ميزنى دائمًا... إنى أكن نوعًا من الصداقة الروحية الطلقة للناس الذين أراهم فى الطريق، ثم إن دراسة نمطهم الجسمانى مشوقة جدًا، وإن كانت محيرة جالبة للمشاكل! إن منظر النساء هنا قوّى اعتقادى - بشكل لم يسبق له مثيل من قبل - بأن النساء خلقن لكى يؤدين أعمال المجتمع الشاقة، وإنهن بذلك يكن أسعد حالاً وأحسن مآلا. لهن جميعا وجوه منبسطة ملفوحة بلا رونق، ونادرًا ما تجد وجها مصبوغًا بطلاء على الوجنتين، فأما أقفيتهن فصغيرة جدًا، يتدلى عليها شعر ضئيل أسمر أملس زلق، فى جديلة عقصت دائريًا من طرفيها، ثم تلاطمت

كالقرصة واستقرت تماماً فوق أقفية رقابهن القصيرة، وأكتافهن العريضة المركبة فوق أضلاعهن القصيرة المصمتة الجامدة، والتى لا تذكرك بشىء إلا «بالكستليتة» وإمكان أكل لحوم البشر، كل ذلك فوق أرداف ثقيلة ضخمة وخنقات وأقدام جسيمة. ينضحن بالقذارة إلى درجة من التشبع تفوق أى جنس من الناس أتذكر أنى رأيته! ولكنهن فى نشاط وقوة اللبؤات، ويعملن من الصباح حتى الليل. أما اليهود ففى وسعك أن تميزهم على الفور. ثمة علامة لا تخطئها العين فى وجوههم تكون لهم صورة مباشرة تستطيع أن ترصدها من بين آلاف الوجوه.

منذ رسالتى الأخيرة اكتشفت لوحة أخرى جميلة، وجها لوجه (والتى كنت غافلاً عن وجودها عندما أرسلت إليك لوحة السيدة المسنة، المرسومة بكيفية مضادة)[1]. ولقد وجدتها فى بيت يقع قريباً من أسفل الشارع، فى الطابق الخامس: شعر أسود، بشرة موردة، قرطان كبيران مذهبان، ووجه بدين سمين، صورة مجسمة للجمال العفى القوى، وهى تؤلف الآن (مع خطاب اعتمادى طبعاً) سلوى حياتى. يا لها من لوحة فنية حية. إنها تجلس قبالتى كل مساء تتطلع إلىَّ من نافذتها، وأنا قابع فى مكانى أرنو إليها، ويخيل إلىَّ من حمرة الخجل المتواضعة التى تكسو وجنتيها، ومن الابتسامة الخافتة التى ينضح بها محياها، أنها تنظر إلىَّ بشىء من الاكتراث، وأنها تحفل بأمرى. لقد ذهبت إلى السوق هذا الصباح لأشترى باقة ورد أهديها إليها، ولكن المكلفين بالخدمة، أو القومسيونجية (Dienstleute) كما يسمونهم هنا، كانوا كلهم صعاليك فى غاية الخسة والدناءة، إذ رفضوا القيام بمهمة كيوبيد، وإزاء تصرفهم، شعرت بكثير من الخجل من مجرد فكرة شراء باقة الأزهار، وطلبى من أحدهم أن يوصلها إليها. وعلاوة على ذلك فقد كان من المشكوك فيه – فى الحالة الراهنة لتعارفنا – أنها ستتسلمها، وبناء عليه فقد عدت أدراجى بخفى حنين مكسور الخاطر إلى غرفتى، حيث أقبع الآن كاسف البال.

وهكذا ترى أننى بكل ما يحوطنى من عزلة، وما يشغلنى من قراءة، فإن العمة كيت لا يمكنها أن تقول إننى أطيل التعمق فى الفكر أكثر من العواطف.

إن الريف هنا جميل فى كل جهة، ومن أى النواحى أتيته، هادئ جداً، وساكن تكسوه الخضرة والزرع، وتوجد أركان وأماكن ريفية ذات مفاتن ساحرة، وقريبة جداً من المدينة، كثيراً ما أتوق إليها، وأتمنى أكثر لو كان هارى هنا (لولا أن المنى بلا طائل) ليلم بها ساعة فى كل زيارة، لكى ينعش نفسه بشىء جديد، وإن كان لا يختلف كثيراً عما عندنا فى ربوع الوطن... على أن أعظم سعادة غمرتنى منذ حضورى هنا، كانت بفضل استعارة خمسة أعداد من النسخ الأسبوعية (Weekly Transcripts) ما كان ينبغى علىَّ أن أعتقد أنه فى مدى ثلاثة شهور سيبدو نغم صحيفة بوسطونية مستهجنا أو غريبا لدىَّ!.

---

(1) This seems to be the third of these fenestral apparitions. Cf. L.W.J., 1, 93 ff., where the "portrait of the old lady" will be found opposite p. 96.

ولكن الذى حدث، أنه انتابتنى سلسلة متتابعة من الفرح والدهشة والرضا، ظلت تلاحقنى حتى جن الليل وأويت إلى فراشى متعبًا مجهدًا من شدة حب الوطن. إن الدعاية العاصفة القاصفة، والدالة وعدم التكلف، والنشاط المغامر، والثقة بالنفس، والتفاؤل الذى لا ضابط له ولا رابط، والجفاف الذوقى العديم العصارة، والحذق الفكرى، كلها ألّفت مزيجا من الصعب وصفه، ولكنه مزيج مختلف تمامًا عن نغم الأمور هنا، وهو على حد تعبير الألمان «ضربة لازب: Existenz so völlig dasteht» بحيث لا يسعك إلا أن تشعر به وتحفل بوجوده.

ويطربنى جدًا أن أرى الأمريكيين هنا أيضا فى عيونهم نظرة جائعة قلقة، ويبدون كالنغم الناشز فى لحن الحياة هنا، كالسمك الذى فك من الصنارة أو الخطاف. منذ أيام قليلة كنت جالسًا فى الشرفة بعد الظهر، وإذا برجل وسيدتين شابتين قد أقبلوا وجلسوا بجوارى. وعرفت من أول نظرة أن سحنتهم أمريكية. ولقد أطربنى الرجل جدا بسحنته الأمريكية المفرطة: شارب أحمر، وشوشة على الذقن، وأنف ضليع، وعين ضيقة سريعة، فيها نظرة نصفها ينم عن أنه هوائى ذو نزوات، ونصفها ينطق بالوقاحة والصفاقة، وفى مجموعها تؤلف نظرة أريبة مع إحساس عربيد بالاستعلاء جعلنى أفخر بأخوته. وفى بضع دقائق عرفت أنه الجنرال ماك سليلان الذى يبدو مختلفًا بعض الشىء عن صوره، وإن كانت العين لا تخطئه، ثم عرفت فيما بعد أنه مقيم هنا. وأيا ما كانت أخطاؤه وعيوبه، فإن نقيصة كونه ليس «يانكيا: Yankee» ليست من بينها.

قولوا لهارى أن يحتفظ بروحه المعنوية ويبسط أساريره. لو كنت مكانه لما أجلت كل قراءتى فى الألمانية حتى أحضر إلى هنا، أن قراءة الألمانية أمر ميسور فى الوطن تمامًا مثلما هو هنا سواء بسواء. اقرأ فاوست لجوته، إنها قطعة أدبية ممتازة، ولا تخلو من عرق موصول من الشعر ينساب فى أوصالها من أولها لآخرها! وفى وسع المرء أن يتمتع بقراءتها بشرط ألا يصر على الحصول منها على «فلسفة» ثابتة بلا تناقض ولا عوج. هذه على الأقل هى خبرتى حيالها حتى الآن. لم أقرأ شيئًا منذ بعثت إليكم برسالتى الأخيرة، سوى فى الطب، وكتاب أرسطو للويس (فى الترجمة الألمانية)، وبعض المقالات الزاخرة بالموهبة والبراعة لهيرمان جريم، وليست عندى «أفكار». قولوا لهارى يقرأ (إذا شاء) مقالة كتبها جريم عن «ڤينوس ميلو: The Venus of Milo» ويقارنها بڤينوس سانت فيكتور[٢]. كلاهما هراء مهوّش وأهم من النظم الركيك... ولكن ما أبسل الجندى الألمانى من محارب (إذا لم تخنى ذاكرتى). إنها تستحق القراءة يا هارى. أستودعكم الله. محبكم.

«و.ج.»

---

(2) Paul de Saint-Victor's "La Venus de Mile" formed the first chapter of his Hommef et Dieux, 1868.

وفى شهر أغسطس، وبناء على نصيحة أحد أطباء درسدن، جرب جيمس حمامات تبليتز المعدنية على أمل أن تشفى آلام ظهره المعتل. وفى شهر سبتمبر ذهب إلى برلين. وفى أثناء هذا الشهر والشهر الذى تلاه كتب سلسلة من الرسائل لوالده، بشأن المقالات الفلسفية التى كان الأب قد نشرها أخيراً فى مجلة (North American Review). وهذه الرسائل مضافة إليها تلك الرسائل التى بعث بها إلى أ.و. هولمز الابن[٣]، تمدنا ببينة وافرة عن اهتمام كاتبها الجدى بالمسائل الفلسفية. أما رسالاته الأخرى فتفصح عن مرضه وكآبة نفسه الملازمة له كالظل، وما يساوره من شكوك مهنية إلى جانب تشتت اهتماماته ومآربه.

والفقرات التالية المقتبسة من رسائل بعث بها إلى أخيه هنرى، تكشف عن مشاغله الأدبية، والظروف التى أحاطت بأول مشروع أدبى غامر به ونقده لكتاب جريم: (Unüberwindliche Mächte)[٤].

برلين ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٦٧[٥].

«منذ أيام قليلة وأنا جالس وحدى ومعى خطاب اعتمادى الذى نقض عهده، أندب حظى العاثر وحالتى المنبوذة، وأقول لنفسى: يا ترى ماذا فى وسعى أن أعمله لكى أكسب عيشى. برقت فى ذهنى فكرة كتابة «مذكرة» عن قصة هـ. جريم التى فرغت لتوى من قراءتها. وأنتم تعلمون جيداً أن الفكرة عندى تتحول إلى تنفيذ. وبعد ثلاثة أيام سويا من الضنى والعرق والمحو والكشط وشد شعرى، والنسخ وإعادة النسخ... إلخ... إلخ. نجحت أخيراً فى إنجاز المرفق طيه. أريد منك أن تقرأها - وإذا وجدت - بعد تصحيح الأسلوب والأفكار بمعونة الوالدة وأليس والوالد، بل حتى وبعد إعادة كتابتها إذا تيسر - أن حكمك عليها هى أنها صالحة لإثارة اهتمام أى إنسان فى العالم على نحو فيما عدا هـ. جريم نفسه، فإنى أرجوك أن ترسلها إلى مجلة الأمة (The Nation) أو المائدة المستديرة (The Round Table). إنى أشعر أن كسب العيش لا يستحق أن يكسب بهذا الأجر، إن الأسلوب ليس ميزتى، وليس مجال براعتى، ثم إن التوسط فى الموازنة بين الفخفخة والجلال، وبين عدم التكلف

(3) Cf. below, Ch. X.

(4) Published in the Nation, V (1867).

(5) L.W.J., 1, 103-4, 106.

الدارج العامى، أمر عسير حقا، ومع ذلك فإذا كان العوض السخى الذى يأتى منها لا يزيد على عشرة دولارات سمان جمال، ترقد هانئة وادعة على ظهورها الخضراء الملساء فى خزانة أموال الأسرة، نتيجة لجهدى وكدى، فسأكون فرحًا ومسرورًا بأنى كسبتها.

حبذا لو حددت لى بالتفصيل فى رسائلك المقبلة أسماء كل الكتب التى قرأتها والتى تقرؤها. ذلك أن عبارتك التى تقول فيها إنك تقرأ «عددًا كبيرًا من الأسفار كلها مفيدة طبية» هى عبارة غامضة تثير الحنق! فعندما أستعرض الكتب التى قرأتها منذ غادرت الوطن العزيز يبدو مجموعها صغيرًا جدًا جدًا، وأحسب أن ذلك راجع إلى حد كبير إلى كونها كتبا بالألمانية. ولقد بدأت أجمع شتات نفسى وأستقر ثانية بعد فترة شهرين تقريبًا من الفسق فى قراءة القصص الفرنسى، غرفت فى أثنائها من منهل صاند الناضرة العذبة الذكية المتحررة، وقرأت بلزاك المحلل الحاد النغمة، ولكن الباسل الذى ارتفع قدره فى نظرى ارتفاعًا كبيرًا أو بالأحرى قرب من قلبى قربا وثيقًا وزاد حبى له، وصاحبت مؤلفات ثيوفيل جوتييه، الطيب الذى يسيل الذهب من فمه، والذى سلب لبى أيضا، ناهيك عن أركمان تشاتريان الذى لا نظير له ولا ضريب الذى جدد إيمان المرء بالتناغم الريان للخلق، وحشد كبير من غيرهم وغيرهم. ومنذ أيام قلائل قرأت لديديرو كتاب مؤلفات مختارة (Oeuvres Choisies) فى مجلدين، وهما فى غاية الطرافة والإمتاع بما تزخران به من روح بهيمية، وطرائق فكهة من تفكير وحديث ومسلك العصر».

على أن تقريظ چيمس لقصة جريم انبثق بلا ريب من اهتمامه الشخصى بالمؤلف وكلفه به. وكان قد حمل معه إلى ألمانيا كتاب توصية من أمرسون. وهرمان جريم هذا هو ابن ويلهلم جريم، أصغر الأخوين المشهورين بالقصص الخرافية، وكان صاحب أسلوب ومؤرخًا فنيًا وأدبيًا، ثم أصبح أستاذًا لتاريخ الفن فى برلين فى سنة ١٨٧٢. وأمضى چيمس نوفمبر وديسمبر ونصف يناير فى برلين، حيث حضر محاضرات عن الفسيولوجيا للأستاذ إميل دى بوا رايموند، وبدأ يخامره مشروع مناهزة علم النفس وخطب وده من تلك الزاوية. بيد أن هذه الحماسة الجديدة ذكرته على نحو حاد، وأخذ بما فيه من حدود وقيود، لذلك كتب إلى توم وارد فى السابع من نوفمبر سنة ١٨٦٧ صارخًا «فات الأوان. فات الأوان»:

«لو كنت قد مضيت فى التمرين فى الحساب وقطعت أشواطًا أكبر فى الطبيعة والكيمياء والمنطق وتاريخ الميتافيزيقيا، ووطدت، ولو على الأقل فى ذاكرتى، أساسًا راسخًا وافيًا كاملاً مألوفا لدىَّ من المعرفة فى كل تلك العلوم (على غرار الأساس الذى يتلقاه الطالب الذى يدرس الطب فى مادة التشريح)

بحيث يمكننى أن أرجع إليه وأستقى منه بطريقة لا إرادية فى كل تحصيلى اللاحق من الأفكار والحقائق لو كنت قد فعلت ذلك لكنت الآن أمضى قدماً».

من بين معاصرى چيمس فى مدرسة لورانس للعلوم وفى مدرسة الطب، كان هنرى ب. بوديتش هو الذى أثر فيه أعظم تأثير من حيث اتجاهه للفسيولوجيا. ولقد حصل بوديتش على إجازته فى الطب فى سنة ١٨٦٨، قبل چيمس بعام واحد، ثم سافر إلى الخارج فى دراسة استغرقت ثلاث سنوات فى فرنسا وألمانيا، حيث استطاع أن يفعل ما كان چيمس يؤمل بكل شغف وحماسة أن يفعله فى العام السابق.

وفى سنة ١٨٧١، أصبح بوديتش أستاذاً للفسيولوجيا فى هارفارد، وأسس فى بوسطن مختبره الفسيولوجى الخاص به حيث كان چيمس يزوره لماما(٦). وعلى الرغم من أن بوديتش سرعان ما بز چيمس من الفسيولوجيا وفاقه، فإن چيمس كان أول من جاب الحقل الأوربى. ولقد قصد من وراء رسالاته العديدة التى بعث بها إلى بوديتش أن يعينه على تدبير منهاج خاص به. وإلى بوديتش هذا أفضى چيمس بدخيلة نفسه وفتح قلبه عندما كان مفعماً بالصبو والحنين والاشتياق الحائر المبلبل للبحث التجريبى.

برلين ١٢ ديسمبر ١٨٦٧

«إننى أعيش على مقربة من الجامعة، وأحضر كل محاضرات الفسيولوجيا التى تلقى هنا، ولكنى عاجز عن أداء أى شىء فى المختبر، كما أننى لا أستطيع حضور التجارب الإكلينيكية أو الاستماع إلى محاضرات فيرتشو أو تجاربه الإيضاحية... إلخ... دى بوا رايموند – وهو رجل حاد المزاج سريع الغضب فى الخامسة والأربعين تقريباً – يعطى سلسلة عظيمة واضحة بارعة رائعة من خمس محاضرات أسبوعياً، تتخللها ست محاضرات أخرى من عالمين آخرين شابين لا تقل عن محاضرات المختبر الفسيولوجى بصفوفه الطويلة المتراصة من العدد والآلات والضفادع وكلاب التجارب إلخ... إلخ. فيكاد يقتلع معدتى اقتلاعاً ويدفعنى إلى القىء عندما أمر به. إنه لأمر مخيب للآمال ألا أنجز إلا هذا القدر الضئيل الهزيل، ولكن من سار على الدرب وصل، ومدمن القرع للأبواب لابد والجها فيما أحسب، ويبدو لى أن الأمر يستحق العناء وبذل الجهد.

(6) Cf. below, 139.

لا شك أنك تمضى قدمًا وتتدحرج مثل كرة الثلج التى تربو وتكبر وتنمو، نافذًا فى ميادين المعرفة الطبية الفسيحة الأرجاء. ولا شك أنك قد خرجت سالمًا غانمًا من ذلك النفق الطويل من الهم والغم وانحطاط القوى المعنوية الذى يفضى إليه، طريق المعرفة فى نهاية هذا الشوط الطويل. طبعًا أنا فاقد الأمر فى استطاعتى التمرين. ولكنى لا أريد أن أقطع أواصر صلتى بالعلوم البيولوجية. وليس فى مقدورى أن أكون معلمًا للفسيولوجيا أو علم الأمراض وطبائعها، أو التشريح، إذ لا أستطيع أن أجرى التمارين العملية فى المختبرات والمعامل، فضلاً عن عجزى فى الفحوص الميكروسكوبية والتشريحية»[٧].

بيد أن چيمس وإن كان يمضى أقل سرعة وعمقًا فى توغله من بوديتش، فإنه كان يتقدم على جبهة أوسع وأشمل. ذلك أنه كان يقرأ ليس فقط رسائل ست الحسن والجمال (belles lettres)، وإنما كان أيضا يدرس الفلسفة. وأرسل إلى أهله فى طلب «محاضرات فكتور كازين عن «كانت: Kant»» وتلك الترجمة الفرنسية الأخرى لمقدمة ألمانية عن كانت». وفى هذا الصدد كتب يقول: «خليق بى أن أتعلم شيئًا عن «فيلسوف المعرفة: Königsberg»، وأبتغى من قراءتها أن تمهد لى الطريق وتهوّن على الأمر»[٨].

وفى الرسالة التالية يبدو موضوع علم النفس من زاوية الفسيولوجيا واضح المعالم فى مجال النظر. وكما يقول فى رسالة أخرى بصدد هذه الفترة إنه «يخوض» طريقه تلقاء ميدان علم النفس[٩]. والرسالة التالية كتبت لأبيه:

برلين ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٦٧

«أعتقد أننى لم أخبرك – بعد – بأى شيء عن تدابيرى المقبلة. المحاضرات تنتهى هنا قرب نهاية مارس، وفى نيتى عندئذ الذهاب إلى تبليتز ثانية. فإذا عادت علىَّ بمثل الفائدة التى عادت علىَّ منها من قبل، فبها ونعمت، وأعتقد أننى على الأرجح سأكون سليمًا معافى. ومن ثم، فإننى أفكر

(7) L.W.J., 1, 120, 1.

(8) L.W.J., 1, 117, The two books are: Bictor Cousin, Leçons sur la philosophie de Kant, 1844; and presumably, Johann Schultr, Erläuterungen über des Hrn. Prof. Kant's "Kritik der reinen Vrenunft", of which a French translation by Tissot appeared in 1865.

(9) L.W.J., 1, 126-7.

الآن فى الذهاب إلى هيدلبرج. فيها أستاذان هناك هما هلمهولتز، وڤنت، ضليعان فى فسيولوجية الحواس، وفى مرجوى أن أكون فى حالة صحية طيبة تتيح لى أن أتمرن وأشترك فى بعض التجارب العملية فى مختبرهما. على أن مآربى النهائية ما زالت مبهمة بعض الشىء ويلتبس علىّ أمرها. ولو أننى كنت سليمًا معافى، واستطعت أن أحضر إلى هنا مبكرًا بعام أو عامين لكى أدرس فى واحد من هذه المختبرات الفسيولوجية، لأصبح طريق حياتى ممهدًا وميسرًا أمامى على نحو فريد. ولكن حالتى الصحية الآن غير ثابتة ولا ضمان لها، فلا أستطيع أن أتطلع إلى تعليم الفسيولوجيا. وباعتبارها نقطة مركزية فى الدراسة فإنى أتصور أن نقطة الالتقاء بين حد الفسيولوجيا وحد علم النفس تتداخل وتلتحم بين الاثنين، وإنها من ثم جديرة بالدراسة وتبشر بالثمر والنفع كأى دراسة أخرى، وأنا الآن أركز دراستى فى هذه النقطة».

وفى مجلة الأمة (The Nation) (عدد ٢٣ ينــاير سنة ١٨٦٨) ظهرت مقالة بغير توقيع بعنوان «آداب العصر» تتضمن تعليقًا ينصح بالعداء العفيف عن الحياة الباريسية، كما تنعكس فى مؤلف لارنست فيدو بعنوان: (La Comtesse de Chàlis: ou - les moeurs du jour).

ولقد مرت هذه المقالة بين يدى أخ خبير، خففها ولطفها بفنه باعتباره محررًا، وهذب أسلوبها، معطيًا لنفسه حرية استعمال المقص والقلم على السواء. والرسالة التالية مقتبسة من الكتاب المرفق بالمقالة الذى حرره من برلين بتاريخ ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٦٧:

«إليك رسالة أخرى شبه دسمة. اشترى توماس س. بيرى كتاب فيدو أخيرًا، وبعد أن جلست لقراءته بدا لى أن قلمى العديم التبعة والطامع فى الربح، لا جناح عليه من أن يلبك (Compliquer) مقالاً يستقطره منها، بحيث ينبغى أن يكون أيسر قراءة وأسهل منالا من المقالين الآخرين.

وهكذا بالعرق الجبار والعمل الجهيد سبكت المقال المرفق بهذه الرسالة، والذى ألتمس منك أن تعنى بأمره وتهذب أسلوبه إذا استطعت إلى ذلك سبيلاً. لقد حاولت أن أقلد (The Saturday Review) وأخشى أن أكون قد أخفقت، ولكن الكتابة فى حد ذاتها تمرين طيب. إننى الآن على يقين – أكثر من أى وقت مضى – بأننى لم أخلق للكتابة! بالله عليك لا تقرأ الكتاب نفسه. إنه كتاب خسيس وركيك بقدر ما فيه من خسة وركاكة. منذ العام الماضى – ولست أدرى لماذا – وأنا أحس باحتقارى يزداد للفرنسيين بطرق كثيرة. إن باريس تبدو الآن فى حالة من الانحطاط الخلقى والفكرى بحيث يصعب حقا تصور أى مسألة تمضى بسلام فيها دون عوج ولا أمت. فكل وتر زم بإحكام مشدود،

بينه وبين الطرقعة والانفجار شعرة أرفع من الصراط، وكل شيء يصرخ بالنشاز، ويبدو أن الناس على وشك أن يصلوا إلى مرحلة لا يشعرون فيها بأى متعة على الإطلاق إلا كانت هذه المتعة مرذولة ملطخة بالدماء... توماس س. بيرى، يشترى صحيفة «الفيجارو: Figaro» يومياً. إنها أبشع قصاصة من الورق رأيتها فى حياتى!. فيها جزء واحد مخصص للكلمات الطيبة، واللغو الشخصى ونوادر الفجور والفسوق والرفث، الملفقة بذلاقة اللسان الخبيثة، والثرثرة الفاترة، واللمز الأهنف، والتى يكسوها طلاء من الانبساط الزائف! والباقى مخصص لأنباء تنفيذ أحكام الإعدام، وجنايات القتل والجرائم فى مختلف الدول، ثم القيل والقال الدائر على الألسن فى الدوائر المسرحية وأهل الفن. إننى أرى حقا أن صحيفتنا (Police Gazette) أرقى من الفيجاور، لأنها فعلاً أداة تعبر عن عقول فظة ووطيئة، ولكن الفيجارو تعبر عن عقول زائغة ضائعة أصابها العطن والعفن إلى اللباب! يا للفظاعة»!

وباقى حساب هذه الرسالة ينصب على وصف تفصيلى لوضع لزقة منقطة على الظهر. والواقع أن الأجزاء التى لم تنشر من الرسائل المتبادلة بين وليام چيمس وهنرى چيمس تتألف فى معظمها من تفاصيل تتعلق بالأمور الصحية وأعراض المرض وما يصلح له من علاج.

إن اهتمام كل منهما بحالة الآخر الصحية لم يكن يضارعه سوى إيمان كل منهما بما يصفه لأخيه من علاج وترياق وتطبيب.

ولقد كتب چيمس إلى أخته هذه القصة الحية النابضة عن خبراته الاجتماعية.

(برلين ٩ يناير سنة ١٨٦٨)

«حلواى الخلابة

لقد تميز الأسبوعان الماضيان بنشاط اجتماعى من جانبى يفوق أى نشاط آخر قمت به فى حياتى على الإطلاق. وكان آخره مساء اليوم السادس من يناير، بمناسبة بلوغ هـ. جريم سن الأربعين، فقد أقيمت حفلة رقص إسبانية بالصاجات وفقًا لتقاليد أمته، مثلت فيها مسرحية رمزية صغيرة تستهل بمقدمة افتتاحية، ويقوم بعض أصدقاء الأسرة بأداء أدوارها. وكان آل ثييس[١٠]،

(10) Old Cambridge frinds, Louis Thies was Curator of the Gray Collection of Engravingsat Harvard.

أو بالأحرى المسز ثييس، إبان زيارتها لمسز بانكروفت منذ بضعة أيام، قد اقترحت عليها أن «تفاجئ» المسز جريم بزيارتها تلك الليلة. ولكى تجعل المفاجأة أكثر وأمعن فى عدم التوقع، فإن المسز ثييس أخبرت المسز بانكروفت بكل شىء عنهـا مقدمًا، فأضيف عدد آخـر من سـمك الإستاكوزا، ودُعى إلى الوليمة عدد آخر من الناس. ولقد جلست وراء المستر بانكروفت وقت عرض المسرحية الرمزية، وكان وغدا ونذلا إلى أقصى درجة بلغها فى حياته. ليس ثمة كلمة تصف منظره، وخصوصًا منظر ظهره بقفاه العريض وأذنيه الكبيرتين. أما عيناه فتشبهان عينى الكركند البحرى، كما لو كانتا على فصلتين تتلصصان فى تربص! ويقول توماس س. بيرى: إنك تشعر بأنه لزام عليك أن توغر فيه دبوسا يخترقه وتثبته على الحائط كما تفعل بالحشرة! إنه يتكلم الألمانية بطلاقة (وبصوت مسموع). والقوم هنا من الألمان يتحدثون بكل إكبار وإعجاب لكونه يعمل هنا قسيسًا كما لو كانوا ما زالوا عاجزين حتى الآن عن إدراك الفكرة. أما المسز بانكروفت فهى بلا ريب سيدة عظيمة فائقة فى الخفاء، وإن كانت فى العلن طامة كبرى! ولكن انطباع قفاز مترهل عتيق من جلد جدى أبلق، الذى يوحى به مظهرها يوطده ويؤيده، فله الجسم اللازم لملء هيكل حديثها. ولقد لعبت المس ثييس دورًا فى المسرحية غير مألوف، فيما استطعت أن أتبينه يدور حول «عبقرية كرم الضيافة». وارتدت لدورها طرحة للرأس من الموسلين الأبيض، وتاجا من الصفيح وضعته على شعرها الأشعث، ثم ألقت بكل رشاقة أشعارها الألمانية وقد احمرت وجنتاها ولمعت عيناها ببريق أخاذ.

إن المسز جريم سيدة ذات عبقرية حقًا. إنها تتميز بالحرية وسعة الأفق المقرونتين بالرشاقة والكياسة والجمال الأنثوى الذى لا بد أن يأسر كل إنسان. أما جريم نفسه فهو شخص نبيل، ولا يمكنك أن تتصور كم أسبغ علىَّ الاثنان من فضل صداقتهما وودهما. وفى هذه الحفلة الأخيرة، ولأول مرة منذ أن رحلت عن وطنى، شعرت لمدة من الوقت بأننى بين أهلى وعشيرتى، وأننى مندمج حقا فيما يحيط بى، ومضيت على سجيتى أبعثر حماقاتى، وأوزع عباراتى النابية غير المتزنة على كل فرد من الحاضرين تقريبًا! لا يمكنك أن تتصور مدى السرور الفائق الذى جلبته تلك المناسبة. لو شئت، لكان فى وسعى أن أرى أحسن مجتمعات برلين مع توافر هذه الفرصة المفتوحة أمامى الآن. ولكن دراساتى بالجامعة وأعمالى تجعلانى غير كفء لتحمل الأعباء التى يقتضيها توسيع دائرة زياراتى ومعارفى، أكثر مما هى الآن.

لقد حضر توماس. س. بيرى إلى الحفلة، وبطبيعة الحال وجدها أشد كآبة من جنازة. إن المرء ليحضر هنا بمحض قوة المحافظة على الذات، لكى يتحمل العيش فى هذه الغربة ويجتازها بسلام. على أن الغريب يتعين عليه أن يفعل لنفسه أكثر مما يأتيه فى الوطن عندنا أو فى فرنسا أو فى إنجلترا، وعندما تلقى مصادفة برلينيا يمد يده لكى يجعل مشاربه تتفق مع مشاربك، فإن الدهشة

تباغتك، ويبدو الأمر غريبًا جدًا فى نظرك بحيث يحفزك أن تتوسل إليه ألا يكلف نفسه هذا الإزعاج الإضافى من أجلك.

وعندما يتم لك اجتياز «عتبة الشباك»، فإنى أجرؤ على القول بأنه لا بأس عليك عندئذ، وتستطيع أن ترتع كما تشاء مثلما تكون فى أى بلد آخر. ولقد أهديت مقبض ورق نشاف من الطراز «المراكشى» لجريم بمناسبة عيد ميلاده، ويبدو أن الهدية دغدغت مشاعره.

آه يا طفلتى الحبيبة! ما أشد لهفتى على أن أكون معك تداعبيننى بحنان الأخوة كما كنا نفعل فى الأيام الخوالى، كثيرًا فى جوف الليل وأنا ساهر، ما تطير روحى وترفرف كالفراشة بجناحيها لتنقر على ألواح زجاج النوافذ فى شارع كوينسى، لكى تطوف بتلك النخبة الطيبة الساكنة هناك، ما أطيبها - إجمالاً - وخصوصًا وسط ذلك الخليط الخسيس الذى تتألف منه الغالبية العظمى من الجنس الخشن. ما أنعش الروح التى تلقى شخصيتين بهذه الطهارة الأخلاقية والنضارة والعذوبة، مثل هنرى چيمس الكبير، وهنرى چيمس الابن فى الأسرة! بودى لو لم تقرئى عليهم رسالتى هذه على اعتبار أنها آتية منى مباشرة، ولكن أرجوك أن تتركى الرسالة على نحو ما بحيث يقع عليها بصرهم، حيث يرجح أن يروها فيقرءوها بطريق السهو والخطأ. ألف قبلة للجميع من المحب

و م. چيمس»

على أن رسائل المواساة والتحضيض التى كتبها چيمس فى ذلك الوقت إلى توم وارد، كان القصد منها علاج نفسه هو، مثلما كانت بنيَّة علاج وارد. كان هناك ثمة إدراك بازغ قوامه: أن التربية حصيلة تراكمية، فحتى لو تألفت من سلسلة من المشروعات والأعمال والتدابير الجهيضة على غرار تربيته، فمن المرجح أنها ستؤتى أكلها فى النهاية: «إن النتائج ينبغى ألا تكون هدفا فى حد ذاتها وعن طيب خاطر، كما أنها ينبغى ألا تكون الشغل الشاغل لمتبعيها. فليس ثمة ريب فى أنها بالغة منتهاها، ومن المؤكد أنها ستطير لخفتها من تلقاء نفسها، ومن جراء عمل يومى يطول ويطول ينصب على مسألة بعينها»[11].

ومن تبليتز - حيث اضطرته صحته إلى الرجوع إليها - عبر عن نفس الأفكار والانطباعات لأخيه الصغير.

---

(11) Written in January 1868. L.W.J., 1, 133.

تليتز ٢٧ يناير سنة ١٨٦٨

«عزيزى العتيد بوب،

أشعر بشىء من الخجل، وقد بلغت هذه السن، وأنا أقف فى حضرتك وويلكى دون أن أكسب سنتًا واحدًا. ولكنى على الرغم من ذلك لم أكن كسولاً عقيمًا. وفى نيتى أن أكسب عيشى إذا ما عادت عافيتى إلىّ. إننى سعيد جدًا لمجيئى إلى ألمانيا، لأسباب عدة: أولها لأننى أتقنت الأدب وأحطت به خبرًا، على نحو ما كان فى وسعى أن أطيق الصبر على بلوغه لو أننى بقيت فى عقر دارى فى الوطن، فاللغة كما تعلم فى غاية الصعوبة! وثانيًا لأن نظرتى إلى مشكلة الحياة العملية نظرة مستقرة وراسخة وبسيطة جدًا. إننى أشعر كما لو كان أولى بى أن أقنع وأرضى بالاستقرار فى مهنة ما طوال حياتى، وأكفر عن ضيق مجالى بالاتقاق والتعمق فيه حتى أبلغ حد الكمال، واثقا بأن الحياة الآخرة ستكون أوسع مجالاً وشمولاً وإحاطة إذا لزم الأمر على غرار ذلك الرجل فى قصيدة براوننج «جنازة عالم النحو».

نحن الأمريكيين نمتاز بتعجل النتائج والتلهف عليها، ولا نفكر إلا فى اصطناع الوسائل لتقصير أمد العمل واختصاره لكى نصل إلى النتائج بأسرع ما يمكن. وأحسب أن مرد ذلك إلى السهولة واليسر والراحة التى تهيأت لنا معشر الأمريكيين فى الحصول على النتائج المادية من كل نوع وصنف، وأنا على يقين من أن ذلك مزاج عقلى مدمر فى الأمور الفكرية الصرفة. أعتقد أن مهمة الحياة تبدو فى نظر الألمانى العادى الذى على وشك النزول فى معتركها كسلسلة متتابعة من الأيام فى مهنة معينة بذاتها، بدلاً من أن تكون مجرد طريق يفضى إلى بلوغ مأرب عظيم. إن معظم الأمريكيين الذين لقيتهم هنا تبدو فى عيونهم نظرة زائغة تائهة جائعة عجيبة، تطل من وجوههم، وتختلف اختلافًا بينًا عن أى شىء ألمانى.

وإنى لأعترف أحيانا بأن المستقبل المنظور لأسرتنا المشتتة والمتصدعة، والتى ربما لا يقدر لها أن تعود سيرتها الأولى كما كانت فى الماضى، أمر يبعث فى النفس الحسرة ولكن سحقا لذلك. إن العالم الآن فى مثل شبابه وفتوته كما كان وقت ظهور الأنجيل إلى حيز الوجود. وحياتنا - إذا قدر لنا أن نجعلها فتية نضرة - حياة حقيقية واقعية كحياة أى إنسان آخر عاش منذ كان للعالم وجود. بالله عليك عجِّل بالرد علىَّ ثانيا، وأخبرنى عن آمالك وعن وجهات نظرك إلى الحياة، وصدقنى يا أعز الأعزاء بوب، إننى أخوك المحب دائمًا.

و م. چيمس»

(١٠)

ونـــدل هـولمـــز

تلك كانت الفترة التى شـهدت صلة چيمس الوثيقة مع أوليفر وندل هولمز الابن. ولقد بدأت صداقته بهولمز حينما كان الأخير فى مدرسة القانون بهارفارد (١٨٦٤-١٨٦٦). وعندما كان چيمس فى البرازيل فى سنة ١٨٦٥، تاقت نفسه إلى هولمز، وبعد عودته واستئنافه دراساته الطبية فى سنة ١٨٦٦، كانا ينفقان الساعات الطوال فى الخصام والنزاع[1]. وفى شتاء عام ١٨٦٦، ١٨٦٧ كان الاثنان غارقين فى جدل ميتافيزيقى موصول، ما زال صداه ودويُّه ورجع صوته محفوظا فى مذكرة بعنوان «المادية»، موجهة من چيمس إلى هولمز. ولقد تضمنت هذه الرسالة دفاعا عن التفاؤل ضد مذهب اللا أدرية، بما فيه من إنكار وقول بعدم كفاية العقل لفهم الوحى الإلهى، وكان دفاعا «يتلمس سبيله ذات مساء منذ أيام قلائل» ولكن «لم يتسن له أن يقوله» حتى رحل هولمز وآوى إلى فراشة[2].

وفى ١٦ أبريل سنة ١٨٦٧، أبحر چيمس من نيويورك على متن (The Great Eastern) ميمما شطر تلك الرحلة الطويلة من النفى والكشف التى سبق ذكرها، وبسبب ما عاناه من كمد من جراء عدم عوله على صحته من جهة، وتذبذبه فى تقرير مصيره من جهة أخرى، فقد احتفظ بخطته سرا ولم يجاهر بها حتى لأسرته أو أصدقائه.

---

(1) W.J. to A.J., November 16, 1866; L.W.J., 1, 80.

(2) W.J. to O.W.H., Jr., winter of 1866-7; L.W.J., 1,82.

بيد أنه فى مساء الليلة السابقة على يوم رحيله، كان يتعين عليه أن يعقد جلسة وداع فى بيت هولمز الواقع فى شارع شارل : «عزيزى الفتى وندى، سأوافيك فى دارك مساء الغد، وسنولد نظاماً من الفوضى، لآخر مرة على سبيل الجزم»[٣]. وطوال فترة إقامته فى ألمانيا، وما انتابه فيها من شعور بالحنين إلى الوطن، وما اعتمل فى فؤاده من أحاسيس وتقويم لمشاعره حيال الناس، شعر چيمس بأن هولمز وتوم وارد هما «أحسن أصدقائه حتى الآن»[٤]. وفى سبتمبر سنة ١٨٦٧، كتب من برلين شاكياً من صمت هولمز، ومتسائلاً عن نتائج «بحثه فى مسألة قوة معنوية الحياة»، ومشيراً بدالة وألفة إلى صديقهما القديم المقوض، الكون»[٥]. ولقاء ذلك تسلم الكتاب التالى:

(بوسطن ١٥ ديسمبر سنة ١٨٦٧)

«عزيزى بيل،

لن أستهل كلامى بالتماس الأعذار لتأخرى فى الكتابة، فيما عدا أن أقول لك إننى منذ رأيتك لآخر مرة حررت لك ثلاث رسائل طويلة فى فترات مختلفة عن موضوع «قوة معنوية الحياة»، وإننى اضطررت لتمزيق كل رسالة منها على التوالى، لأننى بعد التأمل فيها وإمعان الفكر وجدت أنها تبدو إما مختلة أو فجة. ولكننى بالأمس كنت أتحدث مع فانى ديكسويل[٦]، وأخبرتنى أن أطير لك فوراً - على أية حال إنها تعتقد أنه مما يسعدك أن أكتب لك - حتى دون «قوة معنوية الحياة». وهأنذا أفعل. إن الكتابة أمر غير طبيعى جداً بالنسبة إلىّ، لدرجة أننى لم أجرؤ من قبل أبداً على أن أحاولها معك ما لم تكن مرتبطة بموضوع معين بالذات. آه يا عزيزى بيل. أنصفنى بربك. إن عبارات احترامى وتبجيلى ليست جوفاء ولا هزلولية مغرقة فى الإطناب، ولا هى بقصد ستر إهمالى. فعلى الرغم من أصدقائى الكثيرين، فإننى أكاد أكون وحيداً لا شريك لى فى أفكارى أو مشاعرى الباطنية. وسواء أكنت أراك كثيراً أم لا، فإننى على بعدك وقربك أعتقد أننى لا أستطيع أن أكف عن أن أستقى سلوى خفية وصحبة مؤنسة من التفكير فيك. وأنا على يقين من أننى سأظل دائماً أحترمك وأحبك، سواء أقدر لنا أن نتلاقى كثيراً أم قليلاً.

---

(3) Ibid., "Monday" (April 8, 1867).

(4) W.J. to Tom Ward, May 24, 1868.

(5) September 17, 1867; L.W.J., 1, 103, 101.

(6) Afterwards Mrs. Oliver Wendell Holmes, Jr.

طوال شهرين أو ثلاثة، غويت وضل سعيي ليالي طويلة في الفلسفة. ولكن الآن لا شيء سوى القانون - القانون - القانون! أما عملي العظيم (magnum opus) فكان قراءة بحث تحليلي في التعقل المجرد (Critique of Pure Reason) وأنا أقرر بأنه مادة زاخرة بالسخف الصبياني لا تستحق تبديد طاقة المرء في قراءتها. ولكن يبدو أنه من الضروري أن يقرأ الإنسان قدراً كبيراً من المادة العقيمة العديمة الجدوى، لكي يعرف أنها كذلك، ولا يعول في الحكم عليها على مجرد الحدس والتخمين. إنني أقول لك: إنني غارق إلى أذني في القانون ولا شيء سواه، ولكنني في الواقع من الأمر أقرأ الآن كتاب تيندال عن الحرارة، ويا له من مؤلف إنجليزي أصفر السبلة، عفياً نضيراً زاهراً ساراً، ما في ذلك شك. أليس الأجانب أكثر بساطة منها؟ انظر ماذا يقول أحد ثقات القانون الإنجليزي في مقدمة كتاب اقرأه الآن (في معرض الحديث عن سافيجني): «لقد بذلت قصارى جهدي ولكن دون جدوى، لكي أتقن اللغة الألمانية إتقاناً كافياً يمكنني من قراءة هذا المؤلف في لغته الأصلية». لو أن امرأ من قومنا هنا له إلمام طفيف مبتذل في صورة معرفة لا تساوي قيمتها أكثر من ثلاثة سنتات، فهل يعترف بأنه لا يحيط خبراً بأي شيء تحت الشمس؟

آه يا عزيزي المحبوب بيل، طالما تحرقت شوقاً إليك طوال هذا الوقت الذي طال فيه بعادنا. كم أقررت بتلك السجايا الكريمة الشجاعة المسماحة التي لا أحب أن أخدشي حياءك بذكرها. من حسن حظي وتوفيقي أنني عرفتك ورأيتك، وهذه الحقيقة فيها الكفاية للتعبير عما أكنه نحوك من ود واحترام وإعزاز. منذ أن حررت له آخر رسالة، ذهبت لرؤية والدك مرة بعد مرة. ومن عجيب المصادفات أن رسالتك الأخيرة أشارت إلى «كانت: Kant». أليس ذلك من العجيب فعلاً؟ لقد أرخى الليل سدوله الآن، وكان اليوم كله يومك، باستثناء الأمور التي ذكرتها، ووجبات الطعام! عسى أن تصل رسالتي إليك في الوقت المناسب لتحمل لك أطيب تمنياتي بعام جديد سعيد. بحق السماء إنني أتمنى لك ذلك، وعلى «قوة معنوية الحياة» أن تنتظر. وثمة وخزات عالقة بالموضوع لا أستطيع لها جواباً. ولكنني أحسب أنك وجدت صعوبة - وعلى الأقل لقد وجدت أنا تلك الصعوبة - في عدم كفاية الحقائق. فعندما يكوِّن المرء أراءه فإنه يريد أن يقول: هل هذه التجربة كذا أو كذا؟ ما أشد ولع أبيك وحدته في الكتابة والحديث عن الدين. يكاد يقنعني بأن أكون سويدنبورجياً، ولكني لا أستطيع أن أمضي معه بعيداً في هذا المضمار، فإني أوثر أن أتريث حتى أتبين إذا ما كان المشروع الآخر ستنبثق أولاً صورته النصفية أو لا؟. وإلى هنا أختم، فوداعاً يا عزيزي بيل. لا تنسني نسياناً تاماً. صديقك المحب.

أ.و. هولمز»

برلين ٣ يناير ١٨٦٨[٧]

«عزيزي وندل

Ich weiss nicht was soll es bedeuten, dass ich so traurig bin, tonight.

إن أشباح الماضى انسلت جميعها من أجداثها القلقة، وظلت ترقص حولى فى دوامة تتوه لا معنى لها، لدرجة أننى – بعد أن حاولت سدى أن أقرأ ثلاثة كتب واحداً وراء الآخر، أو أنام أو أفكر – أمسكت بالقلم والمداد، وصممت على حسم النوبة بكتابة بضعة سطور قليلة لواحد من أكثر الأشباح جميعًا – وغولاً وفضولاً – ألا وهو الشبح الطويل الهزيل الساكن فى شارع شارل! لله دره. ما أشد إيثارى لأن أتحدث إليك حديثًا لمدة أربع وعشرين ساعة فى غرفتى المضاءة، دون أن تشرق الشمس مؤذنة بحلول النهار، ودون أن يدور الفلك دورته ويمحو آية الليل، ودون نوم أو طعام أو كساء أو وقاء، فيما عدا زجاجة شرابك المعتق التى لم يقدر لى أن أذوق رحيقها أو ما يشبهه، منذ أن حططت رحالى فى هذه الخطوط الطولية من الكون! إننى أهفو إلى أن تجلس قبالتى فى أى حال أو مزاج، سواء أكان المنحرف المازح الشارد، أم الطائف المتنقل الميتافيزيقى، أم السرى الشخصى حيث تفضى بدخيلة نفسك، أم الجموح الحرون السيال المجادل، حتى تخرج نفسى من قوقعتها، وتفتح صدفة المحار التى تغلف وجودى داخلها رويداً رويداً تحت وقع الإشعاع، ومن ثم تندلع الكريترز (Critters) من باطنها مفرزة تحاشيشها الجافة إلى غريزة الحياة المحيطة، إلى أن تبلغ من السن حداً تستنكر فيه نفسها فلا تكاد تعرفها ثانية! إننى أشعر أن الحديث معك من أى نوع لا يمكن أن يخفف فى اقالتى من عثرتى، والدفع بى قدما مرة ثانية لمدة ثلاثة أسابيع على الأقل!. لقد ظللت أجتر فى اثنتين أو ثلاث من الجرة اليابسة، من الأفكار القديمة التى جلبتها معى من أمريكا – أرددها فى فكرى – إلى أن بادت وانقرضت. وصورة جسم الكون العريان لم تبد لى شيئًا لم تسبق لى رؤيته وممارسته من قبل. إننى حائر فى تعليل السبب فى كونى لم أشغف بالقراءة إلا قليلاً فى هذا الشتاء. لقد عينت عدداً من الكتب عندما جئت هنا أول الأمر لكى أفرغ من قراءتها. فماذا دهانى، إن ثقلها وبطئى اللعين فى الفلمنكية ينيخان بكلكلهما علىّ مثل كدس دريس فوق ظهرى! إننى أشمئز من مجرد التفكير فيها، ومع ذلك فلقد سممت ضميرى الذليل الذى دفع فى أسرها كما لو كان رقيقًا، لدرجة أننى لا أستطيع التمتع بأى شىء آخر. لقد بلغت من العمر حداً يطالبنى عنده أى نوع من الشغل العملى – بشكل لجوج صخاب – أن أؤديه – ومع ذلك فما زال علىّ أن أنتظر.

(7) Reprinted with omissions from L.W.J., 1, 124-7.

أما وقد نفَّست عن الغل المحبوس الذى ظل يتراكم مغلولاً طوال ستة أسابيع، فإننى أشعر الآن بأننى أكثر أنسا وبهجة. جيذا لو زودتنى بالمزيد من أخبارك وخصوصا أن أجرة البريد قد هبطت إلى رقم موجب للهزء، (ومهما بلغ وزن الرسالة فهى معفاة من أى أجر إضافى) ومن ثم فلا يتبقى لك أى ظل من العذر لعدم الكتابة!! ومع ذلك فمازلت لا أتوقع أى رسالة منك. أعتقد أنك غارق إلى أذنيك فى أغوار حماة القانون، ولكنى أحسب أن السر الآلهى الخالد لا يزال من وقت لآخر، يحرك منخاسه كرة أخرى فى الفج الذى سبق له أن وضعه بين ضلوعك ذات يوم. دعه لا يندمل ولا ترمه... فإن وقت التئامه لم يحن بعد. عندما أعود إلى الوطن فلنؤسس جماعة فلسفية تجتمع بانتظام، ولا تناقش شيئًا سوى أعقد المشاكل، ولا تضم سوى الصفوة من أهل بوسطن. إن ذلك خليق بأن يعطى كل واحد فرصة للإفصاح عن رأيه فى صيغة نحوية، وللسخرية والقهقهة من حمق وغباء كل الأعضاء الآخرين عندما يعود إلى بيته! وقد يفضى كل ذلك إلى حصيلة لها أهمية خطيرة بعد عدد كاف من السنين.

والآن، سأتوقف عن الكتابة. ولست أدرى إذا كنت تحمل ذلك على محمل الثناء والإطراء! إننى لا أكتب لك إلا وأنا غارق فى أشد حالات الكرب وانقباض الصدر. وأكبر الظن أنه ينبغى عليك أن تشعر بذلك، أنت الهامة البارزة الوحيدة التى أتشبث بها وأعلق بها عندما يرد بقية العالم إلى أسفل سافلين، وتهبط فضلة الخلق إلى قرار سحيق تحت الموج!.. صدقنى - يا صاحبى - ما أبخس ما تلتمس من الصداقة الشاردة التائهة التى تمعج حول جيرتك، والتى تبتغيها من الكفاف المخبول لوليام جيمس.

وداعًا - احتفظ دائمًا بنفس الجبهة القوية المضادة للعدو المشترك - ولا تنس حليفك.

و.ج.

حاشية: ٤ يناير (مكتوبة على غلاف الرسالة)

«بمحض المصادفة العجيبة - بعد أن حررت لك هذه الرسالة فى الليلة الماضية - تسلمت رسالتك هذا الصباح. ولكى لا أضحى بطوابع البريد التى لصقتها فعلاً على الغلاف (وليام المقتصد). فقد آثرت عدم فتحها، ولكنى سأرد عليك سريعًا. وفى غضون ذلك، بارك الله فى قلبك ولك الشكر وطوبى لك.

Vide Shakespeare: Sonnet XXIX.

بوسطن ١٩ أبريل سنة ١٨٦٨

«عزيزى بيل:

لقد ذابت أنياب الصقيع وتلاشت من الهواء، ونهش الشتاء آخر نهشة له، وأذن الربيع بالحلول. فالمياه تجرى تحت نافذتى فى زرقة داكنة أعمق مما كانت عليه قبلاً، والحقول تتأجج بالنيران

الخضراء - إيماءة إلى الفناء والزوال - لست أدرى كنهها - إن لم تكن الحنين الخفى المنبثق من أعماق الأرض، والغابات والأيكات تبرعمت بالبراعمَ الصوفية، وشجر الدردار والغرغاج يكتسى ببرقع الزفاف بغلالة رقيقة شفافة من الأحمر الداكن، والضفادع تنق مؤلفة فرقة ترتيل تجاوبها فرقة ترتيل من الطير فى تناوب دورى صباحا ومساء. والمحبون أزواجا أزواجا يتهادون فى بوسطن أيام الآحاد بعد الغروب، وقد التصق كل قرين بقرينه فى المسافات المظلمة بين مصابيح الإضاءة، ظانين أنهم فى غفلة من العيون. والطرق حول كمبردج زاخرة بطلاب العلم وأساتذتهم، وعلى رءوسهم قبعات جديدة، وبيدهم العصى، يتواثب من حولهم طلاب المدارس الصغار بوجوههم الصافية المشرقة، والشباب يفيض حيوية دافقة، والشاب الذى يسعى وراء فتاته لا ينفر من شيء نفوره من عيون الفضلاء التى تتبعه! لقد حل الربيع هنا يا بيل، وإنى لأثوب إليك، ليس بحب أكثر مما كان فى أثناء الشتاء الطويل القارس، ولكن برغبة وتلهف على أن أقول لك كلمة مرة أخرى.

منذ كتبت إليك فى ديسمبر الماضى لم أشغل نفسى بشيء سوى القانون. أما الفلسفة فهى تغط فى سبات عميق ما لها من فواق. وأنا الآن راقد «منقوعا أبقبق - بددا - فى نقيع الشيطان المخلل» كما يقول كارليل. ولقد كان ذلك حتما مقضيا، لأن المرء إذا اختار مهنة فإنه لا يتسنى له أبد الدهر أن يقنع ويرضى نفسه بالتقاط البرقوق، ثمراً جنيا بأناقة وعفة الهاوى الغاوى ويترك الفتات للفقراء، وإنما ينبغى عليه أن يتناول زاده وقوته برجولة وبسالة، بقشره وحشفه ولبابه، بغجره وبجره - بحلوه ومره - ناعمة وخشنة، بالنوى والبذور التى تنتفش فى أمعائه وتسبب لها الإزعاج. لابد دون الشهد من إبر النحل. لقد بلغت من الجبن حدا لدرجة أننى كدت أكون سعيداً لعدم وجودك بين ظهرانينا خشية اشمئزازك من أن تجدنى منيعًا حريزًا ضد الأفكار والأحاسيس ذات الطابع الروحى وذات المغزى الروحانى المهم. ولكنى أعافه لمجرد أنه غريب عن دراساتى. ولكن - لا تظن مع ذلك - أننى أرتاب فى صبرك الطويل وفى حلمك وأناتك وطول اعتصامك بحبالها المديدة فى مكابدة كلها احتمال وإطاقة. وإنى أعلم أنك آخر من يعرض عن شخص لست فيه بثاقب نظرتك إمكان الصداقة، وينأى بجانبك عنه لأن صلاته ونسكه وابتهالاته تمت فى كعبة غير كعبتك، وولت وجهها شطر قبلة غير قبلتك، وأنت عالم بأنه يعبد نفس المعبود الذى تعبده. ولقد كنت موفقا فى الشتاء فيما أعتقد بسبب النظام البسيط للعمل، ولكونى أمضى قدما بإيمان آخذ فى الازدياد باستمرار بأن القانون، وكذلك أى نسق متتابع من الحقائق فى هذه الحياة، يمكن مناهزته ومعالجته لصالح العلم، ويمكن دراسته. نعم بل ممارسته مع الاحتفاظ بالمثل العليا للمرء. ولا جناح علىّ من القول بأننى اكتسبت عافية وأصبحت ضليعًا فى ظل النظام والتدبير، وأكثر من ذلك فليس لى فيه مأرب. إن بلوغ نهاية مطاف أبحاث الجنس البشرى، وختام آخر منجزاته، واكتشاف ما ليس وراءه أو أبعد منه أو فوقه مطلب لمكتشف، الذى هو مطلب الشباب الحاذق اللوذعى، ليس وقفًا على فرد واحد، وليس حصة يسهم فيها فرد واحد بالذات. إن مصالحة الإنسان للحياة ورفاقه معها، وإدراكه بغشاوة أن هذا الحلم الذى يزعج

سبات الكون ليس نتيجة للتخمة أو سوء الهضم، وإنما هو صحة وعافية، والإحساس بالأنغام القدسية، وإن كان المرء لا يستطيع أن يسجلها كالعلامات فى النوتة الموسيقية، كل هذه الأشياء فى رأيى وحسابى تزود الإنسان بمقاصد ونقاط متلاشية تختفى عن الأنظار تعطى نوعًا من الأبعاد المنظورة تخلعه على فوضى الأحداث. ولعلنى سعيد الحظ بما جعلت منه غالبًا موضع تبكيت لنفسى وداعيا للومها.

هارى لا يقحم شيئًا فى آماله العالية، ولا يعلم الناس بأموره، ولعل ذلك مرتبط على نحو ما بخلوه من روح الدعابة التى يصرح هو بها مجاهرة. أما أنا فعلى خلافه ثمة أوقات – من حين لآخر – عندما أجد فى زجاجة نبيذ أو عشاء طيب أو فتاة عادية بل تافهة، ما يملأ لى فراغ ساعة أو بعض ساعة عن طيب خاطر. وكذلك الأمر بالقياس إلى فترات الزمن الطويلة – كالعمل – حيث لا أحس بتعهدى الفلسفى حياله وبرباطى الفلسفى به إلا فى أوله وآخره فقط، وفى أثناء أداء عملى أنسى عين رئيس العمل الجبار، التى تراقب وتحصى وتعلم ما تخفى الصدور. إن ذلك خليق بأن ييسر الحياة وإن كان على الأرجح لا يلقى قبولاً أو استصوابًا.

عزيزى بيل العتيد، لم أقل شيئًا لك عن مرضك، وربما لا يوجد ثمة شىء أقوله يعتبر من شأنى وحدى على وجه التخصيص، ولكن بالله عليك لا تفقد تلك الشجاعة التى واجهت بها «العدو المشترك» (الذى يتربص بك الدوائر) لو كان باستطاعتى أن أرد لك الروح المعنوية التى كثيرًا ما أعطيتها لى، لبادرت من فورى لأردها لك أضعافا مضاعفة وعلى أية حال فلا تشك فى محبتى وإيثارى.

بعدًا للحزن، على الأقل فى هذه الرسالة. ثمة نار جديدة فى الأرض وفى السماء. أنا، الذى شعرت إبان الشتاء الطويل بالتجاعيد تعمق فى وجهى، وبانحناء وطأطأة يحطان على ظهرى – أنا – الذى قلت لنفسى إن حياتى من الآن فصاعدًا يجب ولابد أن تكرس فقط للتفكير الصارم، وقلت للشباب: «وداعا إلى غير رجعة»، أشعر بانتعاش الربيع الجبار كحركة الجنين فى الرحم.

لقد نبتت أشجار الشربين وبانت أقماعها. لقد رأيت اليوم فراشة تحررت الآن حالاً من رق الشتاء، ورأيت نحلة تطوف كادحة تسعى لرزقها راشفة من رحيق البراعم اللزجة ولما تنفتح بأكملها.

أيتها الأنسام الهامسة الحارة

أيتها التلال الطروب

ما أحلى أنغام ترتيلك الندية

لأن هذه الأرض التى كانت نائمة، استيقظت

والهواء يهتز طربا بمزيج الصوت البهيج

أيها العصفور – غن – وقبل بقدميك

شواشى الذرى العليا لأشجار الصنوبر

لا تتوقف عن جلبتك وضوضائك القوية أيها الهزاز

أيتها السنجاب اشحذى مقراضك

وطرب، طرا على مسن الشجر

زيِّقى وصرفى أيتها الشحارير المغردة

ونقى يا ضفادع

وقاقى أيتها الغربان المحلقة فى كبد السماء.

لقد شاهدت ذوبان الثلوج فى أنهار الشمال، وهدير الأمواه فى فى اندفاعها صوب البحر. ثمة رجفة حادة رشيقة لها صرير - أرق من أن تسمعه الأذن ينسج جيئة وذهابا - نغمًا متقطعًا وفى أثناء الفواصل الموسيقية التى تقسم فترات الهدوء وتشطرها كالسكين، هذه الرجفة تنفد إلى قلبى بنشوة وهيام واستغراق ليس إلى وصفها من سبيل.

ولكن ما هى؟ ما كنهها؟

هل سمعتها أبدًا؟

هل هى صوت باطنى يجيب الأصوات الأخرى، ويتجاوب معها، ولكنه مختلف عنها، وهو شبيه باللهب الصاح لا يبطل ولا ينهى، ذلك الذى جعله ملفوظًا بصوت مسموع؟

عزيزى بيل - لمن أفضى بهذا الهذيان إلا لك؟ وداعا - أنت أعلم بعواطفى - فلا داعى لتكرارها.

صديقك المحب ن.و. هولمز»

«٢٥ أبريل. نزل الثلج ثانية. ما بيدى حيلة. فأنجدنى».

درسدن ١٥ مايو سنة ١٨٦٨

«عزيزى وندل:

إن رسالتك - غير المتوقعة - ومضت توا فى وجودى كما يومض الشهاب فى مجال نجم سيار. وهأنذا أبادر من فورى إلى الجواب، وما زالت الحرارة المتولدة من الوميض فى أقصى درجاتها. لقد تعودت أن أفكر فيك على أنك حيوان غير كاتب، بحيث إن مثل ذلك الحادث يربك عقلى ويفصله عن زاوية «مداره» التى يتأمل الكون منها. لقد أوشكت - فى المدة الأخيرة - أن أكتب لك مرة بعد مرة، ولكنى توقفت قبل أن أنزلق من حافة الشفير. فمن اليسير أن تكتب للناس الذين تكتب لهم على نحو موصول، لأن الرسالة اللاحقة التى تكتبها تكمل الرسائل التى سبقتها. أما أن تطلق رسالة كالقذيفة علانية، وتصوبها نحو رجل مرة فى كل ستة شهور، فهذا أمر له مذاق تعسفى ونكهة جائرة! ثمة

أمور كثيرة تكاد تتساوى فى الأهمية والفحوى يتعين عليك أن تفضى بها إليه، بحيث لا داعى لديك لأن تبدأ بأى أمر معين منها وتترك الباقى. وبناء على ذلك فإنك لا تبدأ مطلقًا. ومع ذلك فالسماء تثيبك وتجزيك لقاء هذا الدفق الملهم، وتساعدك على غيه وقتًا آخر. ذلك عرق ينطلق فى دورة الطاقة البشرية برمتها: شيلى، كانت، جوته، والت هويتمان كلهم يذوبون ويمتزجون فى وحدة شخصيتك الملتهبة. آه يا صاحبى، لو أننى فقط كنت من ذلك العرق والمزاج لكان جوابى على نفس النغمة العالية، ولكننى اليوم أحبو فى خسيس النثر. أما كونك تعتنق بحزم وعزم وتقبض بكلاباتك على أحشاء القانون نفسها، وتثبتها بأسياخ من الصلب فى جنبات روحك، فهذا عظيم. وكون فاسد لأبخرة التى تصعد أجامها من ثم لا تحجب عنك إلى الأبد القبة الزرقاء التى رفعت بغير عمد، فهذا أعظم وأحسن. إننى على يقين راسخ بأن مضيك قدما فى أى اتجاه - أيًا كان - فإن فى وسعك أن تخرج من ظلمات الغاية التى ينمو فيها العقل الناشئ، فالرأى عندى هو أن السبيل تتألف من نوع من الاختزال الإلزامى القوى للعناصر الأخرى للفوضى إلى تناغم أو تناسق وفق شروط العنصر الذى أقام المرء عليه ركيزته بالذات. أعتقد أنه ربما كان بوسعى أن أخوض تلك المعركة فى مجال الطب العملى وأخرج منها ظافرا. إن صورتك عن المثل العليا على اعتبار أنها «نقاط متلاشية تعطى نوعا من الأبعاد المنظورة تخلعه على فوضى الأحداث» دغدغت ذلك العضو فى داخلى الذى وظيفته مداعبة ما يفوق الوصف، وملاعبة ما يعجز عن النطق به. سوف لا أكف عن تذكرها، وإذا قدر لى أن أبقى فى ألمانيا فترة طويلة تتيح لى التعرف إلى فيلسوف آرى، فسوف أقدمها على حسابى وتحت مسئوليتى. أؤكد لك.

وصلتنى رسالتك الأخيرة التى بعثت بها فى الشتاء الماضى وأقررت لك بتسلمها على ظهر رسالة بعثت بها إليك من فورى، إن نقدك لـ«كانت» يبدو سليمًا تمامًا بالنسبة لى. وقد كان فى مرجوى أن أقطع فيه شوطًا كبيرًا، ولكن حالت دون ذلك تدخلات لم تكن فى الحسبان. لذلك لم يتيسر لى أن أقرأ له سوى كتاب (Prolegomena) وكتيب الأنثروبولوجيا (Anthropology) (وهو كتيب رائع لاذع) وكذلك عرض كازين له (وعرضه لنفسه فى نفس الوقت - عليه اللعنة هو وأمثاله - إنه مجرد سياسى). وإنى لآمل أن أبدأ عاجلاً قراءة كتابك «النقد: Kritik» الذى آنس من نفسى الآن استعدادًا كاملاً لهضمه. ولذلك فأولى بى أن أحتفظ بملاحظاتى الفجة التى كونتها عن كانت حتى أنتهى من هذه القراءة. أعتقد أن خمس ساعات طيبة من الحديث معك أجدى على وأنفع لى من أية خبرة أخرى أستطيع تصورها. إننى لم أعقد أية صلة - خارج نطاق الكتب - مع أى روح ذات رشد ونهى منذ غادرت الوطن فيما عدا جريم بيد أننى لم أفلح - بسبب الحاضر اللغوى القائم بيننا - أن أعقد أواصر الصلة العقلية معه وما يصاحبها من اتصال وبلاغ. ثم إن الصلة الشخصية، يا وندل، تربض قوة عميقة مظلمة. إننى أقول «النهى»، ولكنى لا أعرف ما هو «النهى» عينا. لقد بعد عهدى بها تدريجيًا، وتوارت عن ناظرى فى القوم شيئًا فشيئًا، لدرجة أننى لم أتبين افتقارهم إلى شىء معين بالذات، حتى قدر لى أول أمس أن أتعرف إلى سيدة شابة وفدت من نيويورك واستقرت معنا بالمنزل،

ثم لاحظت فجأة أن ثمة عنصراً طال نسيانه موجوداً وماثلاً (أعنى فى طريقتها فى تقبل الحياة). لقد كان ذلك اكتشافا أريحيا، ثم إن عنصر المباغتة والمفاجأة وشبه التحديد فيها يكاد يهشم فلسفة المرء التجريبية. ولكن من المحتمل أنه أيضا قد يتحلل إلى عناصر أخرى أكثر سوقية وعامية.

الواقع، يا فتاى العزيز، أننى أزداد شعوراً، بأنك حليفى ضد ما تسميه «العدو المشترك» أكثر من أى شخص آخر أعرفه. وحيث إننى أكتب تقريراً جدياً للحقائق، وليس مجرد تدفق لعواطف الصداقة، فلا جناح علىّ من القول بأن توم وارد يبدو لى صاحب بديهة وبصيرة فى إدراك طول وعرض العدو (وهو البعد الذى يخفق معظم الناس فى تحديده)، بل لعله أكثر إحساساً به بكل حمية وشهوة من أى منا، ولكن توم المسكين مصاب بآفة العجز عن التفكير المنظم، بحيث إن التعامل معه ومواصلته لا يمكن أن يؤتيا أى أكل. أما هاوى والوالد العزيز فإنى أشاركهما وجدانيا بشكل صاف واف «شخصياً»، ولكن مدار هارى ومدارى يتماسان ثم يفترقان، كل فى فلكه يسبح. أما مدار أبى ومدارى فلا يتماسان مطلقاً، إلا فى الإحساس العام بالخير والحب للإنسانية الذى ينغمس فيه كلانا. ليست لدى أية فكرة جازمة بأن وجهة النظر بالذات التى تراقب منها العدو الشيطانى لها مزية فى حد ذاتها، ترجحها على غيرها من وجهات نظر الكثرة الكاثرة من الناس. إننا نسمى مثل هذا الرأى لدى غيرنا من الناس «غرورا» ولكن لمجرد أننا شريكان فى هذا الرأى فإنى أحمل لك فى نفسى تبجيلا من نوع خاص، وأعتز بمواصلتك وتبادل الرأى معك. إنك تتميز بطريقة من التفكير أكثر منطقية وتنسيقاً منى (أنا وسط بينك وبين ت. وارد)، وحيثما جمعتنا الظروف فقد كنت دائماً واعياً - على نحو ما - برد فعل ضد تفوق سبيلك وطريقتك على سبيلى وطريقى الأقل صقلاً وأكثر خشونة - وهو رد فعل صادر عن شىء من الشيطنة الماكرة من الأنانية والحسد التى لا أستطيع تقصى أسبابهما ولا اقتفاء أثرهما فى نفسى، ولكنهما تحملانى حملا على أن أضع نفسى - كرها - فى موضع الدفاع عن النفس، كما لو كنت تهدد باغتصاب أملاكى وتلحق الضرر بحق ملكيتى. ولست أدرى إذا ما كنت قد لاحظت شيئاً من هذا القبيل! إنه لأمر عسير أن يحدد المرء دهاء وخبث ومراوغة هذا الشىء. على أن بعض هذا الشىء قد يكون راجعاً إلى الإحساس المتطرف لديك بالوعى «المركز فى الكون»، ولكن معظمه فى رأيى كان مجرد ذوق وأدب ولياقة اجتماعية. وأحسب أنه إذا قدر لنا أن نلتقى الآن، فلن أحفل به وسأكون أقل كدرا به. لقد نما عندى إيمان بأن الصداقة (بما فى ذلك أرفع وأسمى نصف لذلك الذى يتحد بين الجنسين تحت اسم مفرد هو الحب) هى ذروة المتع فى هذه الحياة الدنيا، وأن مرتبة الإنسان فى سلم الوجود تحددها تماماً مقدرته على الصداقة.

أما وقد قر كل ذلك فى أذهاننا، فأحاول فى سطور قليلة أن أفسر لك حالتى الراهنة. إذا سألت نفسى ذلك السؤال الذى ينبغى على كل الناس الذين يدعون معرفتهم بأنفسهم أن يكونوا قادرين على جوابه، ولكن فئة قليلة منهم فقط هم الذين يستطيعون ذلك على الفور، قالت: «أى سبب تستطيع أن تعطيه لتسويغ استمرارك فى الحياة؟» على أى أساس تقيم حجتك فى تبرير عدم قصف حبال أيامك الآن، حالاً ومباشرة؟ ١٨ مايو، وندل يا حشاشة كبدى.

عند النقطة المهمة الخطيرة التى ختمت بها الصفحة الأخيرة فى هذه الرسالة، فوجئت بالخادمة المليئة بالصحة والنضارة تنبهنى لموعد تناول الشاى، ولأسباب عديدة لم أرجع ثانية حتى هذه اللحظة، بينا أنا جالس أطل من النافذة المفتوحة فى انتظار طعام فطورى أنظر إلى صف الـ(Droschkes) المرسومة على جنب الـ(Dohna Platz)، وأشاهد سائقى العربات بوجوههم الحمراء، ومعنقاتهم الحمراء، وحللهم الزرقاء، وقبعاتهم ذوات الضفال اللامع، جالسين فوق متون المركبات فى أوضاع مختلفة من الكسل والبلادة والاسترخاء، وواحد منهم يحدجنى بنظرة يصعِّدها نحوى، وكأنه يتساءل فى دهشة وتعجب، ما عسى أن يكون هذا الشيطان القابع وراء النافذة، عندما أرى السماء العظيمة الجليلة تكسوها سحابة بيضاء هائلة، وهى تجحظ من خلف البيوت صاعدة إلى عنان السماء، وعليها غشاء قاسى اللون يكسوها كالشريط الرسمى طولاً بعرض فوق السحاب والسماء، مما ينبئ بيوم مطير عندما أرى البيوت المواجهة وقد برزت شرفاتها ونوافذها الملأى بالزهور والزرع الأخضر، ولكن مهلا.. انظر معى إلى أعلى شرفة من بينها جميعا، فيها غادة هيفاء تلبس سترة سوداء وجونيلة حمراء - شقراء صافية مليحة تحت المظلة المخططة بمختلف الألوان، مستندة بمرفقها على الحاجز، وواضعة ذقنها الذى يشبه ثمرة الخوخ على أطراف أصابعها الوردية.

فيمن تفكرين أيتها الغادة الواقفة فى الأعالى؟ مرحى. مرحى. هاهنا تخفق نبضات ذلك القلب الإنسانى الذى يهفو إليه كيانك على نحو مبهم، فى سكر ساعة الصباح، وفى ارتعاش مرتجف، ولكن فى عدم ترو مولع بالأذية، يحط على موقع آخر فوق أبراج المنازل البعيدة التى يمتد إليها بصرك. ومن نافذة أخرى تتدلى هينة، ترى من الخلف ومن مركز الجاذبية إلى أسفل، خادمة جريئة شجاعة تغسل النافذة. أنها تلبس سترة زرقاء بذيل، وكالعنكبوت الذى يتشبث بخيطه باعتباره الدعامة الوحيدة التى يستند إليها، أو كمن يجمع الشمرات البحرية فوق أنف جبل شاهق داخل فى البحر، فإنها لا تبالى بخطر السقوط من على. وعلى عمود المصباح يتكئ المأمور (Dientsman) مقرفصا ساقيه، وعلى رأسه قبعة عليها شارة نحاسية، وهو يدخن سيجار صباحه الرخيص. وعلى مرمى النظر بعيداً عن الساحة تكدح عربة الفلاحين مقبلة من الريف تجرها خيول مطوقة برقابيات سميكة، والرصيف الهامد الخامد يصلصل تحت وقع الخطى المتثاقلة للصبايا ذوات الظهور السامقة، حاملات الأقساط والسلال، ويرن تحت أقدام الرجال ذوى الوجوه البيضاء والرقاب القصيرة. حقا لقد بدأ النهار، وعندما أرى كل ذلك وأفكر أنك فى نفس اللحظة ما زلت تغط فى سبات عميق فى فراشك، تدور فى دوامة الليل البهيم مع الصخور والأشجار والآثار والأضرحة كما لو كنت جمادا عديم الحياة، عندما أفكر فى كل ذلك أشعر كيف؟ إننى نفسى أقر بعجزى فى تحليل كيف هذا الشعور.

والآن - بعد هذه المقاطعة - التى آمل أن تغفرها باعتبار بواعث الصبغة المحلية وحالتى الراهنة بين اليقظة والنوم، أعود لاستئناف موضوعنا السابق. ولكن مهلا لقد جئ بطعام الفطور، فمعذرة. إن الناس هنا فى ألمانيا يتناولون فطوراً خفيفًا جداً، قوامه شراب الشيكولاتة والخبز المقدد،

ومن ثم فلن نأخذ منى إلا قليلاً. هأنذا مرة ثانية. لقد فرغت من الفطور وجهازى مفعم بإحساس من التوقد الأنيس الذى لم أعهده من قبل. بعد أن أعدت قراءة ما كتبته لك أول أمس يخامرنى إحساس يجنح بى إلى عدم إرساله لك، إذ ما بيدى حيلة فى الظن بأنه لا يمثل - بصدق تام - واقع الحال، بشأن القضية المعروضة. ومع ذلك فإننى إذا لم أكتب لك الآن، فقد تتأجل الكتابة إلى أمد بعيد، ولذلك فسأسمح لنفسى بأن أبعث إليك بما كتبت، لا لشىء إلا من أجل الروح العامة التى تنطوى عليها وتنعشها، لا إيثارا للفروض المعينة على وجه التحديد التى تتضمنها. على أن النقطة التى تبدو فى نظرى - بلا مسوغ معقول - هى افتراض وجود أى معركة خاصة أخوضها ضد قوى الظلام، وافتراضى كونك حليفى فيها، على اعتبار أن ذلك هو الدعامة التى أقيم عليها احترامى وتبجيلى لك. إن الحقيقة واضحة أمامى وضوحًا مؤلمًا، وهى أننى لا أحفل إلا قليلاً بخوض أية معركة معينة أو حركة للتقدم، وإن ركيزة صداقتى لك هى ضرب من اللذة الحسية التى أستطعم مذاقها ونكهتها، والتى مردها إلى فطنتك وحكمتك وملاحتك، ولكونى أتمتع بما تجلبه لى هذه السجايا، أكثر من أى شىء آخر. وقد يكون ذلك انفعالاً عاطلاً سلبيًا. وما أكثر ما أود أن أبذل فى سبيل عاطفة إيجابية أو هيام بناء من أى نوع وعلى أى نحو. ولكن بحسب واقع أمرى، فإننى إلى حد كبير فى قبضة الأحداث والأقدار. إن كدك الميتافيزيقى، والمتعة الفنية التى تحصلها من ممارسة هذه الحرفة، تعطيك ميزة فائقة لا تقاس. فى العام المنصرم إذا كنت قد تعلمت شيئًا ما فقد تعلمت على الأقل إلى حد كبير أننى فيما مضى لم أكن أرتاب فى حدود عقلى، وهى حدود لا تبهج ولا تسر، ولذلك لن أزعجك بذكر التفاصيل، بيد أن كل تلك التفاصيل تتآمر لتمد أفكارى بخواء غامض أينما يوجد الشعور، ثم تطرد الشعور حيثما تصبح الفكرة صالحة لأى شىء. يا للزراية!. إن جوابى عن السؤال الذى طرحته فى آخر الصفحة الثانية من هذه الرسالة سيكون غامضًا، حقًا. إنه سيتبدل بين زعم الرغبة العنيدة فى توكيد ذاتى فى أوقات معينة، وبين الأمل المقوض فى إنجاز حزة، مهما كانت طفيفة فى الركمة التى تشكلها الإنسانية، وفى رقاب الآخرين. وطبعًا سأتوسل فى طلب مهلة مؤقتة من المجز الذى لا مناص منه لأسباب مختلفة فى أوقات مختلفة. وإذا كان هناك سبب معين بالذات وحاد الانفعال والولع للرغبة فى العيش أربع ساعات أطول من عمرى المقوم، يهل علىّ دائمًا، فأحسب أننى سأعتقد فى نفسى أننى رجل جدير بالاعتبار جدًا، وسأكون راضيًا وقانعًا تمامًا. ولكن فى فترات غياب مثل ذلك السبب، ففى وسعى أن أبتغى تلمس أسس عامة أقيم عليها حجتى، وتكون أكثر تحديدًا وأوضح تفسيرًا مما هى عليه الآن[8].

---

(8) The Paragraph omitted here will be found below, 107.

إننى أجنح بقوة إلى وجهة نظر تجريبية فى الحياة، ولست أدرى إلى أى مدى ستحملنى ولا أى عوائق جامدة ستضعها فى طريق مستقبلى لتسد بها منافذه. على أننى أرى الآن فعلاً سحابة خلقية كائنة من المثالية المطلقة، رابضة فى انتظارى بعيداً على الأفق، وليس بى هوى للشغب والعراك. وسأستمر فى تطبيق المبادئ التجريبية على خبراتى، وأنا ماض فى سبيلى، وأتبين مدى مطابقتها وسدادها. على أن شيئًا واحداً يقلقنى. إذا كانت غاية كل شىء هى أننا يتحتم علينا أن نعتبر الحواس على اعتبار أنها معطيات فحسب، أو على أنها مربوبة بالاختيار الطبيعى لنا، ونفسر هذا النمو الفائق السخى الدقيق للأفكار الأخلاقية والفنية والدينية والاجتماعية، على أنها مجرد قناع أو نسيج شفاف غزل فى ساعات التوفيق بيد فريق من الأفراد الخلاقين، واستعمله بقية الناس تلبية لدواعى مصلحة حواسهم، فإلى متى يكون فى صالحنا ألا «نبوح» للجميع بكل ما نعرف ونعلمهم بالأمر ونجعلهم يصدقونه؟ إلى متى نترك «الناس» منغمسين فى لاهوتهم وغيرهم من الأوهام والتخيلات، ما دامت تلك الأوهام تبدو لنا أكثر نفعًا وخيراً وأريحية من العكس؟ إلى متى يتعين علينا أن نلبس تلك المسوح المتعبة المضايقة وما يصاحبها من «سماء الكبت» التى كانت مثار شكاة المستر ميل؟ هل يمكن أن تثق بأى أناس كى يأخذوا من وقت لآخر، تلك الحصة المقننة فحسب من أى مبدأ أو مذهب بحيث تتناسب مع النفع؟ أنى لأعلم أن ألمع جوهرة فى تاج المذهب النفعى هى أن كل فكرة يفقسها العقل البشرى تلقى عدلاً وإنصافا وسماحة على يديه. ولكنى أعلم أنه ليس فى وسع أى عقل أن يقتفى الأثر لابعيد لتشعب فكرة ما فى عقول جمهور الناس، وأن أية فكرة تجد نفسها فى كفة الخسران إذا لم تستطع أن تجند فى صفها الظمأ للغزو وحب الحتمية الإطلاقية، وهما العنصران اللذان ساعدا على تأسيس الأديان، واللذان لا يمكنهما أن يفتحا سبيلاً ثابتًا جازمًا تنساب فيه العواطف الإنسانية ومشاعر المحبة والود والحنو. وأنه لأمر يبدو بعيد الاحتمال جداً أن ينبثق فى أيامنا هذه أى عبقرى دينى جديد يفتح طريقًا جديداً عريضًا أمام الناس الذين كبروا على المعتقدات القديمة وفاق نموهم دواعيها. والآن – أفلا يتحتم علينا (إذا فرضنا أننا أصبحنا من أشد المرجفين بالمذهب الحسى يبوسة وصلابة) أن نبدأ فى سحق القديم بالباع والذراع، ونحاول إذا استطعنا إلى ذلك سبيلاً، أن نثير قليلاً من التحمس المرتبط بمذاهبنا نحن؟ إذا كان الله ميتا أو على الأقل غير متعلق بالأمر فلا يؤخذ به، فشرحه سواء بسواء كل شىء يختص «بما وراء وما فوق» (عالم الغيب) إذا كانت السعادة هى خيرنا، أفلا ينبغى لنا أن نحاول تحريك وإثارة إرادة حماسية عاطفية ورغبة جريئة قوية لبلوغ تلك السعادة بين جمهرة الناس جميعا؟ أفلا يمكننا أن نسلك فى بلوغ غاياتنا سبيلاً يجدف بعيداً عن الأخلاقيات القديمة واللاهوتيات العتيقة، ونخلق شعاعا من لدنا يؤثلنا ويخلع علينا بعض الإطلاقية المتشامخة التى قلدت القديم كل هذا التبجيل والتقديس بأن نبشر بمذهب أن الإنسان هو نفسه صانع قدره، وهو ذاته «عنايته الإلهية» وأن كل فرد هو إله حقيقى لجنسه، يعظم أو يصغر بنسبة مواهبه ووفقًا للسبيل التى ينتهجها فى استعمالها؟

إن عاطفة محبة خير البشر قد رسخت الآن رسوخًا أكيدًا، ويبدو أن ديمومتها أصبحت مؤمنة بضمان طبيعتها الأريحية، بحيث يكون من الوقاحة أن يقال إنها لا يمكن أن تحتل مكانها باعتبارها حافزًا أساسيًا للسلوك الإنساني. إنني لا أشعر بأن ائتمان (حتى بصرف النظر عن شكوكي بالنسبة للتتمة النظرية الجازمة للمذهب الحسي) بأن المجتمع قد بلغ بعد من النضج حدا يمكنه من هضمها باعتبارها فلسفة ودينًا عامين معًا. ولكن - كما قلت من قبل - ليس في وسع أي امرئ أن يقبس نتائج فكره أو يوزع بالضبط والقسطاس أنصبة إسهام الأفكار المختلفة في نظامنا الاجتماعي الراهن. ومن المؤكد أن هناك شيئًا يثبط العزيمة ويخيب الآمال في موقف الفيلسوف الباطني. إن الفطنة الحية الضمير، التي قد تبغي تعليم البشرية بالتدريج، بدلاً من ترك الحبل على الغارب، وتسييبها لتعلم نفسها، قد تكون عاتية وهيابة في آن. هل تستوعب؟ إنني أطرح هذه الأفكار - باعتبارها شكوكًا تساورني فقط، وأود أن أعرف ما إذا كانت مثل تلك الأفكار قد اعتملت في نفسك وأقلقتك بشأن السياسة. إن تنفس منخري هو الشك، وهذا ما يجعلني هكذا، عبدا للمصادفة كالريشة في مهب الريح.

لقد عكفت أخيرًا في تبليتز على قراءة شيلر وجوته. إن امتلاك شعب من الشعوب لحياة مثل ذينك الرجلين ومؤلفاتهما يعطيه ميزة ترجحه على الأمم المجاورة. لقد وفقت أخيرًا في تكوين صورة واضحة شخصية عن جوتة، الأمر الذي أحدث في نفسي تفريجًا كبيرًا، ويغله من شخصية جبارة.. لقد لمست وترًا حساسًا من قلبي بتعبيرك عن مشاركتك العاطفية لي في آلام ظهري الناخسة بلسع النار. سأحاول (بالهز والرج) أن أحتفظ بالشفة العليا في حالة صلابة حتى إذا أذعن العمود الفقري وفقد صلابته. لقد سمعت بقصة رجل من الكادحين في أحد مراكز الاستيطان الغربية من أحد المسافرين القادمين بالسفينة إلى هنا، ولقد ملأتني تلك القصة بشعور غامر بالارتياح ما زالت تزخر به نفسي منذئذ، ثم إنها ضربت مثلاً طيبًا يحتذى. وفحوى القصة، أن هذا المسافر توقف عند حانوت بدال ليشتري زجاجة من الشراب، ولم يكد يقع بصره على صاحب الحانوت حتى أرعبه منظره الكئيب المبتلى، فسأله في دهشة عما دهاه فقال: «هل ترى ذلك الرجل القابع في مؤخرة الحانوت؟ إنه العمدة، ولقد استولى على كل بضاعتي» ثم مضى يسرد بقية نكباته التي مني بها، مختتما إياها بقصة زوجته التي هربت في اليوم السابق مع رجل آخر! ولكنه سرعان ما مسح دموعه، وبابتسامة ندية عذبة، وكأنه يسترجع ذكرى طيبة قال: «ومع ذلك فلست أدري إذا كان لي أي حق في أن أشكو! لقد وفقت توفيقًا طيبًا منذ أن حللت بهذه المستعمرة».

«أخيتي الحبيبة:

وهكذا يا صاحبي. وإني لأتعشم أنك لم تبدأ ترفع كفيك بالشكر والحمد للسماء لأنني لا أكتب لك كثيرًا، حيث إنني أطيل وأطنب بهذا الشكل. لقد أردت أن أزودك بتقرير عن حالتي العقلية، وأحسب أني فعلت (تحت الزيادة والنقصان)، وأنا على يقين بأنك ستكرم وفادة الحب والثقة والإعزاز

التى أملتها. وإنى لأوثر ألا يرى والدى هذه الرسالة، والأمر متروك لتقديرك بالنسبة لهارى، إن شئت أطلعته عليها وإن شئت طويتها عنه. سأترك مقامى هنا بعد شهر تقريبًا ميمما شطر هيدلبرج. تستطيع الحصول على عنوانى من هارى كلما أردت أن تكتب لى. وبالله عليك أكتب لى ثانية دون مطل. لقد تسلمت رسالة فى تبليتز من المس فانى ديكسويل، ولقد كانت هبة عظيمة بمثابة لقية على غير انتظار. أرجوك أن تبلغ سلامى لجميع أفراد أسرتك. ولك أصدق الود والإخلاص من صديقك.

و م. چيمس»

وكما تومئ هذه الرسالة فإن محبة چيمس لهولمز لم يطرأ عليها أى كدر. صحيح أنه كان يشعر بشيء من الحصر فى حضوره، وهو إحساسى ربما كان مرده فى الأصل إلى اختلاف الاثنين فى «طول الموجة» الانفعالية. كان چيمس يترك لنفسه العنان ثم لا يلبث أن ينكص عندما يشعر أن «اللفاف» لم تكتمل دورته الكهربية، وكان چيمس فوارًا وأكثر زخمًا ورعونة، وكان عجولاً ساهيًا عن نفسه، فى حين أن هولمز كان ثابت العزم «وفى حاله»، كما كان أكثر تهكما واستهزاء. ولقد أفضت هذه الصفة الأخيرة فى هولمز، إلى أن يعزو چيمس إليه نوعا من القساوة والأثرة والوصولية. ومما يروى عن هولمز، أنه وصف صديقًا آخر بقوله: «أخشى أن يكون برانديز مصابا بروح صليبية. إنه يتحدث على غرار الفدائيين من أولئك الذين يقولون: إلى العلا، إلى الأمام»[٩]. وكذلك فعل چيمس، وأنه ما استساغ أبدًا قناع النقف وذلاقة اللسان، أو السخرية الجافة واللمز، التى يغلف بها خدمته هو نفسه ومعروفه ونفعه التى يسديها للجنس البشرى.

وبعد عودة چيمس من أوربا أستمر هولمز فى صلته الوثيقة بآل چيمس. وفى هذا الصدد كتبت الأم الوالدة الكبيرة إلى ابنها هنرى[١٠] تقول: «هولمز يطرق بابنا كالمعتاد فى تمام الساعة الثامنة والنصف مساء كل يوم سبت، وكلنا مازلنا كعهدك بنا نسكن إلى عاداتنا القديمة».

(9) S. Bent, Justice Oliver Wendell Holmes, Garden City Publishing Co., 1932, 281.
(10) September 21, 1869.

بيد أن چيمس كان دائم الحيرة فى أمره - ووجده «يتكون من شخصين ونصف - على الأقل من مزيج مختلف من الناس - مطويين فى لفة واحدة»[11]. وحقا إنه كان هناك شىء يمس تشيع هولمز ذاته، وتشبثه بالمهمة التى كانت موضع عجب بل ترويع بقية أعضاء أسرة چيمس، مثلما كانت بالنسبة لچيمس أيضا! هذه الحقيقة تتجلى فى الفقرة التالية المقتبسة من رسالة بعثت إلى هنرى چيمس من قبل أمه فى سنة ١٨٧٣:

تناول معا وندل هولمز العشاء منذ بضعة أيام. إن حياته كلها جسمًا وروحًا مستغرقة برمتها فى مؤلفه الأخير عن كانت (Kent). إنه يحمل معه - أينما حل - مخطوطة فى حقيبته الخضراء، ولا يغفل عن النظر إليها لحظة واحدة. لقد توجه إلى غرفة ويلى ليغسل يديه، ولكنه عاد من فوره ليبحث عن حقيبته، وعندما توجهنا إلى قاعة الطعام قال له ويلى: «أفلا تريد أن تصحب حقيبتك معك؟» فأجاب: «نعم إننى أفعل ذلك دائمًا فى بيتى». إن وجهه الشاحب وقبضته الخائفة على مؤلفه تخلعان عليه منظرًا كئيبًا يجعله كمن أصيب بمس من الجنون»[12].

وثمة تعليق آخر على نفس المنوال يظهر فى رسالة كتبها وليام لأخيه هنرى فى ٥ يوليو سنة ١٨٧٦:

«قضيت ثلاثة أيام فى غاية الانشراح والسرور مع آل مولمز ماتابويزيت. ولقد شغفت بها حبا، ولقد كان أوضح مثل، وبطريقة مضحكة جداً لما حدث فى رواية ميتشيليت «زواج الرجل الفلاح». ولقد أخبرته أنه يبدو تماماً مثل شخصيات الفلاحين فى قصص ميليت، وهو منحن فوق مزروعاته بقميصه الصوفى وسراويله؛ إنه بطارية قوية، صيغت على هيئة فارة النجار لكى تقعر مقوّرة فى عرق الحياة بدافع الخير الذاتى! ولقد أوت فضائله ونقائصه إلى ظل ظليل فى كنف عزلة الشاطئ، التى تحمل كل شىء سواء أكان صخرًا أم عشبًا ينتصب أمامك قائمًا بارزًا ساطعًا، وهذه الظاهرة تنسحب عليه وعلى زوجته، لأنهما يبدوان أيضا مثل بقية الأشياء، وقد وضعا تحت عدسة مكبرة أمام الناظر إليهما.

(11) Cf. Below, 113.

(12) February 28, 1873. Holme's edition of Kent's Commentaries on American Law was published a few months later.

وبمرور الوقت فترت العلاقة بين الصديقين، ورثت حبال الرباط الفلسفى الذى ألف بين الرجلين. فما وافت باكورة سنة ١٨٦٨، حتى شعر چيمس بأن تباعد تخصصهما قد قلل – بشكل جدى – من اهتماماتهما المشتركة، ومن ثم فقد ذكر لصديقه وارد أن «سر حاصل الجمع مصطبة جوفاء إذا كانت هى الوحيدة التى تلقى أمرًا عليها»[١٣].

وحتى فى نطاق هذا المجال المشترك من الاهتمام بين الرجلين، كان هناك خلاف عميق بعيد الغور، وكان لابد أن يزداد عمقًا واتساعًا بمضى السنين. لقد كان السبب الرئيسى فى انجذاب چيمس وهولمز أحدهما إلى الآخر هو؛ نزعتهما المشتركة إلى النقض والإنكار والتحدى، وكذلك تآلفهما فى المشاكل المشتركة الخاصة بفترة الشباب وتحرره وانطلاقه من القيود والسدود. وعندما شفى چيمس من وهنه وضعفه فإنه شفى من شكوكه.

فأما المذهب الحسى والمذهب النفعى – كما يبدو ذلك بكل وضوح فى كل تصريحاته الوقتية عنهما – فلم يكونا أبدًا أكثر من التماس مشورة فى ساعة قنوط. فلما أصبح أكثر إيجابية ونضجًا وأعمق تأملاً، ومع تعدد معتقداته وتكاثرها، فإنه أبعد فى السفر أشواطًا ومراحل من ملتقى الطرق أو مفترقها، حيث تقابل هو وهولمز، على أن الأخير لم يفقد شغفه الفلسفى أبدًا. وعندما أصبح چيمس مؤلف كتب، كان هولمز يقرؤها ويرسل إليه بتعليقاته. بيد أنه لم يستطع أن يوافقه على أى نقطة تتعلق بالمذهب إلا نادرًا. لقد كان الرجلان منفصلين، خلقيًا وميتافيزيقيا[١٤]. بيد أن أعمق رباط وأدوم وثاق بينهما، كان تلك «النكهة الحسية» حيال ما فى كل منهما من «فطنة وحكمة» التى سبق أن أشار إليها چيمس فى اعترافاته أيام الشباب الخالية.

---

(13) In a letter dated December 16, 1868.

(14) Cf. below, 216, 300.

(١١)

القــراءة والنـقـــد

طوال كل تلك الفترة، وبخاصة فى أثناء اعتزاله لواذا بتبليتز، وسع چيمس دائرة معرفته بالأدب، ودرب نفسه على ممارسة فن النقد الأدبى. ولقد كانت هناك بواعث أخلاقية وميتافيزيقية وترويحية حددت ذوق چيمس، وأوجدت فيه ميلا سابقًا ضد أى شىء يشدد على الصياغة وحسن السبك على حساب الموضوع، ويضع مركز الثقل على السطح على حساب العمق، أو الشر على حساب الخير. فالأدب ينبغى أن يكون صادقًا وصحيحًا ومهمًا وسارًا. وفى نفس الوقت الذى بدأ چيمس يعى بوضوح ما فيه من تحيز ومحاباة أدبية، واتته نوبة مفاجئة من الطلاقة والسلاسة، وتدفق بيانه فى رسالات مطولة إلى درجة لا تصدق. على أن ذلك لم يكن مجرد نتيجة للعزلة، فليس ثمة ريب فى أنه كان يتمتع بلذة اختبار الأفكار التى تعتمل فى فكره، ويطيب له أن يعبر عنها. وكان أخوه هو الوعاء المفضل لتلقى هذه الأفكار وكثيراً ما كان موضوعها:

تبليتز ١٢ فبراير سنة ١٨٦٨

«عزيزى هارى،

لقد سررت جداً منذ أيام بتلقى بضعة أعداد قديمة من مجلة «Atlantic Monthlies: الأطلنطى الشهرية» التى وجدت فيها الجزءين الثانى والثالث من قصتك «رتشارد المسكين: Poor Richard». ولقد وجدتها جيدة فوق ما كنت أتوقع، سواء فى سياق القصة أم الشخصيات، وطريقة العرض رائعة جداً فى الواقع.. ثم إنى لم أجد أى أثر أو راسب لذلك الإسهاب والتطنيب فى شرح الخطوات النفسية المتعاقبة، والذى أتذكر أننى هاجمتك من أجله عندما قرأته على. ولقد جاءت إلىَّ حزمة أعداد

مجلة الأطلنطى فى صندوق يبدو أنه مرسل من قبل زمرة من مريدى آل جريم، لأن الصندوق حوى ثلاث صحائف من التمثيل الرمزى بخط اليد الألمانى، وعليها توقيعات سبعة أو ثمانية من زمرة جريم. أما أسماء المرسلين المكتوبة فى أعلى الصحائف فهى: المسز جريم، والمسز ثيز، وفراولين بورنمان. ولم يكن هذا هو كل ما يحوى الصندوق، لأنى وجدت فيه خليطًا عجيبًا متفاوتًا، من مقانق محشوة بالكبد، إلى زجاجة شمبانيا، راقدة فى أحضان عدد من الأباريق الملأى بالهلام المختثر من أكارع العجول والشيكولاته، وعددًا من الكعك المعجون بالبيض وماء الكولونيا وطبة وبرتقالات، ومجموعة تماثيل من الجبس... إلخ. وكلها تشكل بالإضافة إلى المخطوط الألمانى خليطًا فى غاية الألمانية. ومن حسن الحظ أن التمثيلية مكتوبة بالنثر، وإلا لكانت أكثر تفاهة، على أن طيب مذاق المقانق عوضنى خيرًا، وإن المرء ليجد فى كل ظاهرة تجرى فى طبيعة الأنثى الألمانية أعجب تعايش وحسن جوار بين المقانق، وبين ما يبدو لنا تظاهرًا باردًا محظورًا من التظاهر برقة الإحساس، لا سبيل إلى فهمه ألا بالخبرة المباشرة، واستشعاره إذ لا يمكن الإفصاح عنه بشكل إعرابى للأجنبى.

لم أقرأ شيئًا أخيرًا يستحق التسجيل. إن الحمامات العلاجية ترهقنى من أمرى عسرًا، وتوهن مخى لدرجة تكاد تحول بينى وبين أى (اطلاع أو دراسة) ومنذ أيام التقطت كتاب بلزاك (Modeste Mignon). ولست أدرى إذا كنت تعرفه أم تجهله. ولابد أن يكون هذا الكتاب واحدًا من مؤلفاته المبكرة جدًا لأنه زاخر بالبحث والجهد المبذول فى صياغة أسلوبه وسبكه، جهد فذ بكل إتقان وإحكام. إنه لما يجبر القلب ويؤاسى النفس أن نجد رجلاً يصارع كل تلك الصعاب ويتغلب عليها. بيد أن القصة كانت مختلة ومعتلة أخلاقيًا لدرجة فظيعة، بحيث لم أستطع أن أكمل قراءتها، فأنا كعهدك بى أقرأ القصص للترويح عن النفس فحسب.

المحب دوما و م. س.»

تبليتز ٤ مارس سنة ١٨٦٨[1]

«عزيزى هارى:

إن تبليتز آمن ملاذ على ظهر البسيطة. لا شىء يتحرك فى هذا الفصل سوى الأجرام السماوية؛ وحيث إن المرء لا يشعر بأى إغواء لكى ينهض ويتابعها حول مداراتها، ففى وسعه من ثم ألا يبرح مكانه وينعم بكل هدوء، هذا عن الهدوء والسكينة. أما عن النواحى الأخرى فهى مكان فريد لا نظير له ولا تشوبه شائبة. إن هذا المنزل الذى أعيش فيه فى غاية الروعة والراحة، وأنا أشعر تمامًا كما لو كنت واحدًا من ضمن أفراد الأسرة، وأنا على وفاق تام مع كل ساكنيه ذكورًا وإناثًا،

(1) A fragment of this letter is printed in L.W.J.I., 136-7.

الذين يؤلفون فى الحقيقة زمرة نفيسة. فأما الذكر (der alte) السيد فرانز، فهو يشبه الجنرال واشنطون فى الشكل والهيئة، وفى الشخصية والخلق. إنه يمشى بسرعة نصف ميل فى الساعة، ولكنه لا يجلس أبداً، ومن ثم فهو فى شوط نهاره ينجز كمية تكاد تكون أسطورية من أكثر الأعمال تنافراً واختلافاً! وعندما يتحدث أحد إليه فإنه دائماً يعد خمسة وعشرين قبل أن يجيب محدثه، وعندما يغضب (إذا كان يحدث مطلقاً) فليس عندى شك فى أنه يبلغ المائة عدا. تسلمت العدد الثانى من مجلة «المجرة: Galaxy» وعدد فبراير من مجلة الأطلنطى، مع قصتك عن الملابس القديمة[٢]. وكلتا القصتين تفصحان عن نوع معين من الأناقة الهاشة والرشاقة الباشة المنطلقة فى لمسات الأسلوب والعرض، وهى الخصيصة التى يتميز بها إنتاجك (وأحسب أنك تريد أن تسمع دون طلاء ولا دهان الانطباع الذى تحدثانه فىَّ بالضبط)، وكلتا القصتين تدل على مزيد من الطراوة واللدونة وحرية الحركة فى التركيب والإنشاء، وإن كانت الأولى لم تصادف فى نفسى انجذاباً، لكونها تدور حول ذلك الموضوع الذى أكل عليه الدهر وشرب؛ الذكر ضد الأنثى، والذى سبق لك أن عالجته مراراً وتكراراً، وبالإضافة إلى ذلك، فإن فيها شيئاً من البرود والجمود والافتقار إلى الحرارة القلبية. عندى أن القصة يجب أن تحتوى على عناصر بهية نادرة من نوع ما تستحق التصوير، أو على حركة كثيرة تعوِّض فقدان الحرارة. ولقد كانت عناصر قصتك عناصر عادية دارجة من الحياة اليومية الراتبة. وفى وسع القصة أيضا أن تنجو إذا توافر فيها عنصر الحدة المفرطة فى تحليلها، وعنصر الإتقان التام فى معالجة الأحداث، مثلما هى الحال فى بعض قصص بلزاك (وحتى هناك فإن النتيجة منفرة – ولو كانت قيمة)! ولكن فى حالتك، فإن العمل الخلقى مس مساً خفيفاً جداً، وكان بيانيا بدلاً من أن يكون مبيناً. وأحسب أن هذه المعالجة النيقة الأنفة من قبلك مردها إلى جزع نجيع خشية أن تكون رطراطا وشخابا ومفرط التدفق العارم فى قوة تعبيرك – على غرار معظم إخوانك المزاحمين فى «الأطلنطى»!.. وهذا عظيم، بل هو فى الواقع غريزة الحق ضد الهراء والدجل! وعندما تتعدى إلى معالجة مادة سخية دسمة، فإنها تنتج أعمالاً أدبية من الطراز الأول. ولكن المادة فى قصصك (فيما عدا «رتشارد المسكين») كانت هزيلة نحيلة.. ولست أرى أن (Your Literarisches Selbstgefühll) تعانى مما قلت لأنى فى الواقع من الأمر أعتقد أن ذوقى قاصر فى تلك الشئون – وكما قلت من قبل – فإننى لا أبدى هذه الملاحظات إلا على اعتبار أنها انطباعات شخصية، وعليك أنت أن تفلسفها لنفسك. لا وقت عندى لمزيد. لقد حان وقت شريحتى من اللحم، بل فات منذ وقت طويل.

ما زلت المحب الودود

و م. جيمس»

(2) "The Story of a Masterpiece", and "The Romance of Certain Old Clothes".

وفى شهر مارس رجع چيمس إلى درسدن، حيث استقر به المقام فى كنف من الرعاية الأموية للسيدة فراو سبانجنبرج، وظل هناك حتى نهاية شهر يونيه فيما بين زيارات قصيرة إلى تبليتز على بعُد أربعين ميلاً. وفى أثناء هذه الشهور ذات الراحة النسبية، والتى ابتغى منها نتائج طيبة من حمامات تبليتز حدث فى نفسه تيقظ عظيم فى هيامه بالفن، فى هذه المرة من وجهة نظر الناقد والمؤرخ.

(درسدن) ٩ مارس (١٨٦٨)

«عزيزى هارى:

بين يدى «الداروين» الحقيقى لشارلز نورتون[٣]، والذى سبق أن حدثتك عنه فى رسالتى منذ ثلاثة أيام. لقد قذفت بها بعيداً بالأمس وتنفست الصعداء أخيراً. وليس عندى جديد أنبئك به سوى أننى فرغت من قراءة «الأوديسه: Odyssey»، وذهبت مرة لرؤية مجموعة التماثيل الفنية فى المتحف هنا. ولا جدوى من انكار أن الأغريق كانوا ذوى حذق معين. ثم ماذا أيضا؟ آه تذكرت، لقد اشتريت كتاب رينان «قضايا معاصرة: Questions Contemporaines».. أن رينان.. هو رينان، ولكنه زاخر بالعبارات الموفقة السلسة، واللمحات الملهمة. وكلما فكرت فى آراء داروين بدت أمامى أكثر وزنا ورجحانا، وإن كان رأيى طبعًا لا قيمة له! ومع ذلك فأنا أعتقد أن ذلك الوغد أجاسيز لا يستحق من داروين - فكريًا أو خلقيًا - شرف مسح حذائه على هامته، وإنى لأجد نوعا من الغبطة فى الاستسلام لهذا الشعور.

وداعا. وداعا.

أخوك وم. چيمس»

درسدن ٥ أبريل سنة ١٨٦٨

«عزيزى هارى:

لقد ذهبت عدة مرات إلى رواق اللوحات الفنية - ولك أن تتصور مدى فرحى وسرورى - لقد كان بالنسبة لى نفحة من الكوثر غسلت أدرانى بالماء الزلال. ففى الصيف الماضى عندما كنت هنا لم أستطع أن أدس أنفى فى هذا الرواق إلا مرتين لا ثالث لهما. وفى كل مرة لم يتسن لى إلا النظر لبضع

(3) The review (unsigned) of Darwin's Variation of Animals and Plants under Domestication appeard in the North Amer. Rev., 1868 (XVII).

دقائق قليلة فى عدد من اللوحات لا يتجاوز أصابع اليدين. إننى على استعداد لأن أفعل أى شىء لأستوردك هنا وأسمع منك كيف تؤثر فيك بعض الأشياء. وماذا يخطر على بالك لدن رؤيتها.

ثمة شىء واحد مؤكد، هو أن الدم الألمانى يكاد يكون دون إحساس أو حاجة إلى الجميل. وأعتقد أن الافتتان الحقيقى فى الطبيعة الذى حاولوا نقله - سيجد المرء أنه المقبول - الموافق - السار، أى ذلك الذى تتأثر به كل حاسة على حدة، تأثرًا لطيفًا مفرحًا مثل: الضياء، البهاء، الصفاء، نعومة الملمس (المخملية)، وليس كل ذلك التناسق الأسمى والأعلى فكريًا (المناسب للأحاسيس المفصلة البليدة الثالمة والتى هى الأدنى) والتى تجحظ حالاً فى عين المرء واثبة من بدايات المدارس الإيطالية. ومع كل ذلك، فلا يزال فى الألمانيين القدامى نوع من السكينة والهجوع الشبيه برصانة واطمئنان الإغريق إلى حد ما.. من حيث إن كليهما يبدو أنه أدرك موضوعاتهما باعتبارها مجرد كائنة فحسب، والمدارس التى فسد أصلها الطيب تحتاج إلى تحديد الكائن على نحو بهى وتعبيرى يستحق التصوير. بيد أن منوال الاثنين العام فى النظر إلى الكون، كان مختلفًا اختلاف الشرق والغرب، والبون بين أسلوب الإغريق والألمان بون واسع، وإنى لأحسب أن اتفاقهما فى تلك النقطة ربما نشأ على الأرجح من حقيقة أن الفن الألمانى، ربما يكون قد عبر عن ركن مقدس صغير ليس إلا مما يسميه الألمان لؤلؤهم المكنون فى حين أن الفن عند الإغريق عبر عن كل شىء.

على أن الإخوة الحقيقيين للإغريق هم فنانو البندقية العظماء الأجلاء، ففى الفريقين يبدو أن وسيلة التعبير التى فى حوزة الفنان قادرة على أداء كل ما يريد التعبير عنه، فالفنان هنا كفء لعالمه. فالتناهى والرصانة والكمال، على الرغم من أنه فى كلتا الحالتين يتسلل من التناهى أو المحدودية جمال وحسن يخترق الحجاب الأخلاقى للملاحظ، ثم يلقى القبض على السرمدى «اللامتناهى» بطريقة خفية. إنه لشىء مؤثر يمس أوتار القلب فى كل من تتيان وبول فيرونيز، اللذين يرسمان مناظر تعتبر روائع خالدة من الجلال والرفاء، ويصوران أحاسيس متنوعة متعددة أبعد ما تكون عن أى شىء مما نصفه بالبساطة - إنه لشىء مؤثر حقًا أنهما يحتفظان بنغمة من البراءة الرزينة، وسلامة الطوية الغريزية الخالصة - نغمة طبيعية، تنفس الوليد!

وعلاوة على رواق الفنون فلقد تمتعت - وما زلت فى الآونة الأخيرة - بذلك الوثنى العتيق الرزين الثابت الجأش، هومر، وقرأت عشرين مجلدًا من الأوديسة. إن الأوديسة تلوح فى خاطرى بوصفها عمل مختلفًا فى روحه جدًا عن الإلياذة، وإن كنت - سواء أكان هذا الاختلاف يتضمن بالضرورة اختلافًا فى الزمان أم الإنتاج - أجهل من أن أستطيع أن أكون فكرة. إن هنود أمريكا الجنوبية يتراءون أمام ناظرى الآن، ويتخايلون لعينى وأنا أقرأ الأوديسة. ولكن الصحة والبهاء والنضارة والجدة. ومع ذلك «مقرونة بغياب كامل» لكل ما نعتبره - تقريبًا - ذا قيمة خاصة فى أنفسنا.

وأعتقد أن الأشخاص بالذات الذين سيكونون أكثر تبرمًا وتضورًا ونواحًا وعويلاً على بيئاتهم. إذا ما أرجعوا ثانية إلى الإغريق القديمة، سيكونون هم الوثنيين المحدثين والعابدين العصريين لآلهة الأساطير! إن تقبل الوثنيين القدامى الدمويين - البارد - لكل شىء يحدث من حولهم. وعدم اكتراثهم بفكرة الشر فى معناها المجرد، وافتقارهم إلى ما نسميه بالمشاركة الوجدانية. واتصاف متعهم بخصيصة محددة ثابتة بالضرورة والحتم، أو على أية حال أحزانهم (لأن فرحهم ربما كان مساويًا فى الامتداد والانتشار للحياة نفسها)، كل أولئك يجعل مجتمعهم بغيضًا تمامًا عند هؤلاء المفرطين فى الثقافة والتهذيب، والشاكين من إسقاط مبهمة.

بيد أننى لا ألومهم لكونهم مبهورين ومذهولين بالتناغم المشرق النورانى فى الفنون الإغريقية. إن الإغريق الهومريين (تقبلوا الكون من حيث هو)، ففكرتهم الوحيدة عن الشر كانت فكرة قابليته للزوال والتلاشى. والوجود بالنسبة لهم كان يسوغ نفسه - كان يحمل فى طياته عذره الذاتى، ونغمة السرور والإعجاب الرزينة الثابتة الجأش التى تشيع فى كلام هومر فى وصف كل حقيقة لا يعتورها أقل خمود مطلقًا، عندما تصبح الحقيقة أمام أعيننا حقيقة فى غاية الشناعة والفظاعة! فما دام يوليسيس فى قبضة السايكلوب فهو يمقته، ولكن بمجرد أن يفلت من الخطر فإن الإحساس المزمن بالإعجاب أو على الأقل بالتسامح اللا اكتراثى يتغلب على أى إحساس آخر وتصبح له اليد العليا. فعند الإغريق - كان الشىء شرًا - بصفة وقتية وعفوية فقط، وبالقياس إلى أولئك المنكودين بالذات الذين أوقعهم نحسهم المشئوم فى براثنه. فأما المتفرجون - الذين لا يمسهم فرح - ففى وسعهم ألا يكترثون، وفى وسعهم أن يعرضوا عنه وينأوا بجانبهم، فلا شأن لهم به، ولا تفكير فى الأمر فيما بعد، بل لا بغض له منزها عن الغرض - من حيث هو شر فى حد ذاته، بل لا تساؤل فى حقه فى أن يغشى الدنيا بالظلام والظلم، تمامًا كما يحدث الآن ويسود عالمنا المعاصر.

بعثت إليك برسالة مطولة من تبليتز تتعلق بمؤلفاتك. فأما ما أغفلت قوله بالضبط - فى حومة الكتابة - فهذا ما لا قبل لى بتذكره الآن، ولكنى أظن أننى اتخذت لنفسى لهجة المقنن. وفى مرجوى ألا يكون ذلك قد آذاك على أى نحو أو أضلك بالنسبة لرأى فيك إجمالاً، لأننى أشعر أنك واحد من الاثنين أو الثلاثة الرفقاء الفكريين والأخلاقيين الوحيدين الذين أصاحبهم فى الدنيا معروفًا. لو أنك علمت مدى ألمى وتوجعى فى بعض الأحيان لحرمانى من وجودك إلى جانبى، ومن سماع رأيك فى مختلف الأمور، أو معرفة ما يخطر ببالك حيال ما رأى وما أسمع، فلملك عندئذ لا تتصور أننى أبخسك قدرك، أو أستخف بتطورات عقلك.

أخوك و. ج.»

درسدن ١٣ أبريل سنة ١٨٦٨

«عزيزى هارى:

لقد عدت لتوى من المسرح وأشعر برغبة جياشة فى أن أسطر لك بضع كلمات لكى أخبرك أننى تسلمت قصتك الأخيرة المنشورة فى عدد الأطلنطى الأخير، بعنوان «حالة شاذة: Extraordinary Case» وأننى نعمت بقراءتها. وهذه القصة تجعلنى أرى أننى ربما أكون قد أسأت فهم مقصدك - جزئيًا - فيما مضى، وأن أحد مآربك عينا هو: أن تؤدى انطباعًا شبيهًا بالانطباع الذى يأتينا من الناس غالبًا فى الحياة، إن مدارات أفلاكهم تخرج من الفضاء وتضع نفسها فى وقت قصير فى محاذاة مداراتنا، ثم لا تلبث أن تدور بسرعة منطلقة إلى المجهول، تاركة إيانا بما لا يزيد على وقع أو انطباع عابر عن حقيقة وجودهم، وشعور من حب الاستطلاع الحائر فيما يتعلق بلغز بدء ونهاية وجودهم، وبالصفة الصميمية الوثيقة لذلك القطاع الذى رأيناه منها.

هل أنا على صواب فى حدسى أنك تهدف إلى ذلك هنا بوعى مقصود مدبر؟ إنك بحسب الظاهر، تقر بأنك لا تستطيع أن تستنفد مشاعر أو أفكار أية شخصية من شخصياتك، بعرضها عرضًا تفصيليًا واضح المعالم. وأنت تحجم عامدا عن محاولة جرجرتها وهى تزفر دخانها الكريه، وتقطر مسلوخة وفجة ونيئة بعجرها وبجرها على المسرح، كما يفعل معظم الكتاب ويخفقون فيه إخفاقًا ذريعًا. وبناء على ذلك فإنك قصداً وعلانية - تحصر نفسك وتقتصر على إظهار عدد قليل من التصرفات والأحاديث الخارجية - بوجود جسم كائن، وأنها لا تمثل سوى ملامح عرضية. إنك تبغى أن توحى بتكامل خفى لا تفضى بالقارئ إليه. ولا جناح عليك فى ذلك، فهذه طريقة مشروعة جدًا فيما يبدو لى. ولها تأثير عظيم عندما تفلح وتؤتى أكلها. بشرط أن تنجح. بيد أن طريقة التدفق أسلم عاقبة عندما تخيب ويطيش سهمها، حيث إنها تحتمل التسليم بضرب من دفء المشاعر وسلامة النية مروءة القصد التى ربما تسدى بين الكاتب والقارئ. إن أسلوبك يزداد يسرا ورسوخًا ودقة كلما مضيت فى الكتابة. لقد هجرت جنوحك فى الماضى إلى معاودة الفكرة وطرقها ودقها، وإعادة صبها فى قالب أكثر صقلاً ورقة، إنك الآن تصيب الفكرة من أول ضربة. إن سيماء القصة كلها مشرق ومتلألئ وخال من المواضع الخامدة الهامدة، وعلى وجه الأجمال فإن الإلحاد والشك، كما سيقول بعض الناس، وكذلك السلاطة والجرأة المتضمنة فى كونك تعطى قصة وهى ليست بقصة على الإطلاق، ليست فقط ضربا من السميدعة النبيلة التى لا تصدر إلا عن الأسياد الأماجد، وإنما لها تسويغ عميق فى الطبيعة، لأننا لا نعرف بداية ولا نهاية أى شئ. ومع ذلك فبينا أسلم لك بنجاحك هنا فلزام علىَّ أن أقول: إننى أعتقد أن الاستيعاب الكامل الوافى والإدراك العاطفى بشغف وولع لقصة ما، هو أعلى المنجزات فى ذروة بلوغها، كما تعتقد أنت طبعًا.

لقد شهدت ديفريانت وهو يؤدى دوره فى مسرحية هاملت. لم يسبق لى أبدًا أن أدركت الاكتمال الذى لا حد له فى هذه المسرحية كما أدركته الآن. إن المسرحية تنفذ إلى نخاع المرء.

إنهـا تطقطق كل شق وتشـدخ كل عـرق وتنبـجس من كل فج، ولعلهـا نفـدت إلى إحـسـاسـى بشكل مضاعف لأننى كنت منغمساً فى التفكير فى الروائع الكلاسيكية فى المدة الأخيرة -- وبهذه المناسبة فقد كنت بالأمس أزور متـحف التماثيل ثانية. إن مسـألة ما هو الفرق بين المفهوم الكلاسيكى للحياة والفن والمفهوم الذى تمثله مسرحية هاملت تحدق بى، وتضيِّق علىّ الخناق أكثر وأكثر، وأحسب أن السقسقة لمدة طويلة كافية فى منقوع أمثلة ماثلة من كل من المفهومين على حدة، كفيلة بأن تلقى بعض الضوء على المسألة.

وبعد ذلك فما زال يجحظ أمامى السؤال الأكبر والأهم: ما مستند كل من المفهومين؟ هل حاضرنا ليس إلا مرحلة فى منتصف الطريق تلقاء عصر كلاسيكى آخر يتميز بمفهوم للكون أكثر اكتمالاً من مفهوم الإغريق، أم أن الفرق بين الكلاسيكى والرومانتيكى ليس فرقا فى النهى والعقل، وإنما هو فرق فى الجنس والمزاج؛ بالأمس فقط كنت أفكر فى الفرق بين شعر الزهرة فى الروث والدمان المعروف بالشعر الحديث (على سبيل المثال فكتور هوجو هنا وهناك)، حيث كلما كان الروث أقذر كان شعر الزهرة أبلغ وأوقع فى النفس، وبين الفكرة الإغريقية التى ما كان فى وسعها أن تفطن إلى أو تدرك مثل هذا الشىء، وإنما كانت تتخذ إحدى سبيلين - فإما أن تنتزع الزهرة انتزاعًا من الروث والدمان، أو تطوى عنها كشحا وتولى لها ظهرها وتغفلها كلية، حيث إن التناغم شرط لازم لابد عنه، وهنا معرض أضيف فيه إلى «حاسَة إدراكى» للهوة بين الاثنين، هذا الهاملت الرهيب الذى يئن ويتأوه على هذا النحو بزحار لغز وسر الأمور، ويتوجع بما لا سبيل إلى وصفه أو البوح به لدرجة تؤنسه من محاولة التعبير عنها، وإذا تكلم فإنما يهذى بكلام فى غير محله ولا يتعلق بالأمر فى أى صيغة وبأى شكل، وإنما يفلت منه على غير وعى سعار مخبول من العجب والخيلاء، يدور بسرعة محمومة حول امتداد الموضوع وضخامته، كما لو كان اللسان يسخر من نفسه.

المخلص و. ج.»

وفى أول أبريل سنة ١٨٦٨، بدأ چيمس فى درسدن يدوِّن مذكراته فى مفكرة يومية حيث سجل فيها لمدة شهرين قراءاته وتأملاته. ثم ظل لسنوات عديدة يقيد فيها قراراته الحاسمة وما استقر عليه عزمه. وفى ربيع سنة ١٨٦٨ - كما يظهر ذلك أيضا من رسائله - كان يقرأ بغزارة وتوسع: هومر، ورينان، وشكسبير، وداروين، وتين، وكانت، وأجاسيز، وجانيت، وجوته، وليسنج «العاقل الحساس كالريح الشمالية الغربية»، و«المحبوب» شيلر، الذى هام شغفا «بمقاله النفيس: Uber Anmut und Wurde» لأنه يعرض للتناقض بين الخلقى والجمالى الذى ورثه من أبيه.

(١٢)

نحو علم النفس والفلسفة

تحولت أفكار چيمس الآن إلى هيدلبرج، حيث كان فى مرجوه أن يستأنف دراساته العلمية. فمن ذا الذى يراسله ويفضى إليه بدخيلة نفسه وما يعتمل فيها من تطلعات علمية؟ إنه بلا ريب - كما كان دائمًا - هنرى بوديتش:

تبليتز ٥ مايو سنة ١٨٦٨

«عزيزى هنرى

بعد عشرة أيام سأرحل إلى درسدن، حيث سأمكث زهاء شهر على الأقل وربما أكثر، محاولاً أن أحسن تدبير الآثار الطيبة لهذه الحمامات بالراحة، ولا أبددها من فورى كما فعلت من قبل. وبعد ذلك فأكبر الظن بل أقوى اليقين أننى سأيمم شطر هيدلبرج، وسأكون عندئذ قد طرحت كل أمل فى إحراز أى تقدم فى الفسيولوجيا، لأننى لا أصلح لأعمال المختبرات والمعامل. وحتى إذا لم تكن هذه هى السنة الوحيدة الحميدة لترفيه العلم على الإطلاق (وهى فعلاً الطريقة الوحيدة المعتبرة)، فإنها ستكون بالنسبة لى مع ضعف ذاكرتى وكساد اهتمامى بالتفاصيل، الطريقة الوحيدة العملية المتاحة أمامى للحصول على أية معرفة يعتد بها فى الموضوع. إننى ذاهب إلى هيدلبرج، لأن هلمهولتز هناك، وكذلك بها عالم اسمه ڤولت، أحسب أن فى وسعى أن أتعلم منه شيئًا عن فسيولوجيا الحواس دون بذل مجهود جسمانى مضن، ولعلى فى المستقبل أستطيع أن أطبق بعض هذه المعرفة تطبيقًا نافعًا. إن هلمهولتز الخالد عالم رياضى راسخ فى العلم لدرجة أحسب معها أننى لن أفيد منه كثيرًا! أما إلى متى أقيم فى هيدلبرج، فذلك أمر يتوقف على ما يتبين لى أن فى مكنتى تحصيله هناك، وكذلك على حالة ظهرى. إنها مكان لذيذ للعيش كما يقول الناس، وإن كان الألمانى الصافى موضع سخرية ألمان الشمال. ومن ثم، فإذا كان فى عزمك المجىء إلى ألمانيا هذا الصيف، وتكريس نفسك أولاً لإتقان اللغة والمران عليها وفق الخطة المعتادة، فنادرًا ما ينصحك أحد بأن تختارها محلاً لإقامتك فى أول الأمر.

أما من جانبى فاعتقد أن هذه الحذلقة العامة من جانب الأمريكيين عن سماع لغة ألمانية سليمة فى الشهور الثلاثة الأولى، هى أكثر الظواهر مدعاة للسخرية والفكاهة فى القرن التاسع عشر. فأما العوام من الشعب فإنك لن تفهم على أية حال أينما كنت، ولهجتك نفسها من المؤكد أنها ستكون أسوأ من الدرك الأسفل من أسوأ لهجة يقدر لك أن تسمعها من الناس المتعلمين. وعلى هذا فإن التدقيق فى هذا الأمر يبلغ من السخف مبلغ سخف منظف المداخن عندما يرفض الجلوس لأن المقعد عليه ذرات من الغبار!

وداعا وليحالفك الحظ الحسن حتى نلتقى،

المخلص و م. چيمس»

وثمة فقرة من رسالة بعث بها إلى هولمز من درسدن، تكشف لنا عن العراقيل التربوية والشكوك المهنية التى تساوره بالإضافة إلى شغفه الآخذ فى الازدياد بعلم النفس:

«لقد كان من مرجوى حتى نهاية زيارتى لتبليتز فى الشتاء الماضى أننى ربما أوفق إلى التمكن من متابعة الفسيولوجيا، لا لأن عندى أى شغف خاص بتفاصيلها. ولكن لأن ثمة عملاً فى مجال هذا العلم يتطلب من يؤديه. ثم هناك خاطر يساورنى (ولعله خاطئ) بأن علم النفس لن ينهج على منوال العصر، (à l'order du Jour) حتى تتخذ خطوات - ما زالت فى ضمير الغيب - فى فسيولوجيا الجهاز العصبى، فإذا استطعت بالدفع والتحريك المثابر الكدود أن أفسر بعض الحقائق الفسيولوجية - مهما كانت متواضعة فسأشعر بأن حياتى لم تضع كلها عبثًا. بيد أننى أرى الآن أننى ربما لا أستطيع أبدًا أن أعكف على عمل فى المختبرات والمعامل، ومن ثم فلزامًا علىَّ أن ألجأ إلى شىء آخر أستند عليه. ونظرًا لأن عبء زوجة وأسرة لم يحط على كاهلى بعد فى نفس الوقت الذى ينوء ظهرى بما عليه من هذا «النير الخفيف»، فليس ثمة قلق مادى يتهددنى وشيكًا. ولكننى مع ذلك أشعر بالحاجة إلى نوع من المسئولية الخارجية المعينة التى تحول بينى وبين تبديد وقتى. لذلك سأواصل الدرس أو بالأحرى سأبدأ الدراسة فى اتجاه سيكولوجى عام، مؤملاً أننى عما قريب سأجد سبيلا من التخصص أتعمق فيه. ولعل شيئًا من التطبيق العملى يعرض نفسه لى يومًا ما، والشىء الوحيد الذى فى وسعى أن أفكر فيه الآن هو؛ منصب أستاذ «الفلسفة الخلقية» فى إحدى الأكاديميات الغربية، ولكن ليست لدى أية فكرة عن طريق بلوغ مثل تلك المآرب، ولا عما إذا كان فى مقدور أى رجال من ذوى القالب اللاروحانى أن يبلغوه»(١).

(1) The remainedr of this letter will be found above, 93.

ولقد كان إبان تلك الأيام من سنة ١٨٦٨، فى تبليتز ودرسدن أن اكتشف چيمس جوته، ووجد فيه تلك الواقعية المتينة التى حاول بها أن يسلك سبيلاً وسطًا بين التشاؤمية ومذهب ما فوق الطبيعة. وفى هذا الموضوع كتب چيمس لأخيه هنرى ما يلى:

درسدن ٤ يونيه سنة ١٨٦٨

«عزيزى هارى:

لقد عكفت على قراءة جوته فى المدة الأخيرة، وفرغت اليوم من قراءة المجلد الثانى الخاص بأحاديث إيكرمان مع جوته. ولقد سبق أن قرأت الرسائل المتبادلة بينه وبين شيلر، وإنى لأحثك بكل قوة أن تطالعها بتمعن. إن مشهد مثل ذينك الرجلين العاملين الفوارين بالحياة ينعش روح أى إنسان، ولكنك ستجنى ربحًا خاصًا من مناقشاتهما الجمالية، فيما أتصور. ولعل أفكار جوته عن أهمية الموضوع فى صياغة الشعر تثير فيك التأمل، وإنى لأقر بأن كثيرًا مما قالا عن هذه الأمور يتطلب خبرة فنية - ليست عندى - لفقهه. ودواعى الإنصاف تقتضينى الاعتراف بذلك، واحسب إنك قادر على فقهها، لأنها ستكون كلها أمام عينيك حية نابضة. ولقد قرأت أخيرًا (Wilhelm Meister' Lehrjahre) وأعجبت جدًا بحيوية وجمال الجزء الأول. ولعلنى لست، بعد، كفئا للجزء الأخير، كما يقولون هنا. إنه زاخر بالمجازات والاستعارات والرموز، وأسلوبه فى الاختراع فاتر وثقيل. وبالإجمال فإن المتناقضات القديمة التى كانت تبدو لى وتزعجنى فى جوته لدرجة كبيرة، وافتقاره الظاهر إلى الدعابة، وإلى تلك اللمحة الحاسمة فى الشئون الجمالية والأخلاقية التى تفرز القمح من العصافة والجوهرى من العرضى، كل ذلك قد اختفى وتلاشى بلقانة البديهة.

ولست أدرى كيف كان جوته عادة يزعجنى ويضايقنى، بل يضجرنى، بذلك التصنيف الموصول والتبويب المتوالى فى فئات للتفاصيل الفردية التى لابد أنك لاحظتها فى كل ما قرأته له، وبطريقته التى لا ترحم فى تناول كل شىء يتعرض له بجدية وتزمت. كما لو كانت الدنيا وقت تناوله لتلك الأمور لا تحوى شيئًا آخر، وبملاحظته تجليد نسخة من مسرحية عطيل بنفس الأهمية أو الخطورة التى يلاحظ بها المسرحية نفسها، ثم لقد قوى هذا الانطباع فى نفسى عن جوته من جراء الخصيصة التنيسونية بعض الشىء فى فكاهته فى (Hermann and Dorothy) وفى تلك الأجزاء (Wahrheit und Dichtung) التى يسرد فيها نكتة من النكات. فعلى الرغم من الفكاهة المتجلية فى (Egmont)، واللجج السحيقة القعر فى «الكل باطل وقبض الريح»... إلخ... التى تفغر فاها فى «فاوست: Faust»، فإنه يبدو لى باعتباره رجلاً فى غاية التزمت! وكأنه لخشيته من أن يفقد أى شىء له قيمته، لا يملك أية بديهة حاضرة، فإنه يدخر كل شىء فى حوزته، واضعًا الأصيل والتابع والمهم والثانوى والمتن والإضافى فى جرزة واحدة.

كل تلك الآراء – يطيب لى أن أقول – إنها تبددت، ولست أعرف كيف على وجه التحديد. فلم يعد جوته يزعجنى أو يضايقنى أو يضجرنى: أولاً لأن موضوعيته أو حرفيته تبدو لى الآن ميزة فى حد ذاتها (وإن كانت فى بعض الأحايين مملة فى قراءتها) ومن ثم فإن هذه الموضوعية لا تغيظنى مثلما كانت تفعل فى شبابى الفج. أذكر أننى فى ذلك الوقت ما كنت أغفر له أسلوبه فى وصف مشاهد طفولته فى فرانكفورت بنفس اللون الجاف الكالح الذى كانت عليه إبان طفولته، لقد كنت أحسب أن لزاما عليه أن يتكئ ويسترخى ويعطى للناس تلك المشاعر الذاتية – العاطفية والموسيقية والمعلاقية أيًا ما كان يحلو لك أن تسميها – التى تسترجع بها ذكرياتها من أعماق الماضى السحيق فى سنوات شيخوخته. إننى أبتسم الآن ساخراً عندما أفكر فى سقمى ووهنى. وثانيًا لقد تعلمت كيف أميز بين اتجاهه الفلسفى العام وبين عادته المزاجية فى التجميع. لم يكن يطيق أن يضيع هباء أو يخزى أى نفدة أو نتفة – مهما صغرت – مما يقرع حواسه أو يخطر بباله. وحيث إن كل خلجة من خلجات نفسه، وكل خلية من خلايا عصبه، وكل مسمّة من مسام جلده، كانت تنبض بالحياة فى أوجها، وكانت تتلقى كل انطباع وتأثير بنوع من السنحة أو الخلو غير ساه ولا لاه، التى كانت تجعل حركات جهازه العقلى من أعجب خوارق الظواهر التى قدر لهذا الكوكب أن يشهدها أبداً، مما يجعل قارئه الأقل موهبة وعافية فى البصيرة يلهث وراءه، وكثيراً ما ينفد صبره من جراء جديته الدقيقة التى تحيط خبراً بتفاصيل التفاصيل. بيد أن جوته إلى جانب ذلك كان صاحب لمحة بدهية ذات شمول وإحاطة. وأما التفاصيل الدقيقة التى يزودك بها فقد كانت من قبيل العلاوة الإضافية فحسب، يلقيها إليك وأنت وشأنك. ثمة قصة صغيرة من قصصه تسمى «النادرة: The Novelle»، وهى قصة فيما يبدو لى تحتويه بكل ما فيه من غرابة مميزة وكمال خاص. جدير بك أن تقرأها بلغتها الأصلية – لأنها قصة قصيرة. فأما قصائده الشعرية فاقرأ منها النظم الرثائى. وأنا ألفت نظرك إليها، إذ تصادف وأنها القصائد التى فرغت لتوى من قراءتها. إنها تستحق عناءك لما فيها من الأقوال المأثورة بل برمتها. أما باعتبارى خبيراً يحسن استعمال اللغة، فقد كان جوته ساحراً، ولا توجد كلمة أخرى غير كلمة ساحر للتعبير عن تلك الظاهرة فيه. إن أشعاره لتكتمل وتكتنز وتمتلئ كلما أعدت تلاوتها، فمع كل قراءة تالية تنمو وتكبر. فى حين أن شيللر، على العكس يبدو مثقلاً فى أقصى درجاته أول الأمر كالحامل فى شهرها التاسع.

أما فيما يتعلق «بفلسفة» جوته فلن أقول الآن شيئًا، إذ لابد للمرء أن يستشعرها لكى يتذوقها، ولا يمكن استشعارها إلا عندما ترى مطبقة تطبيقًا مفصلاً... إنى على يقين من أنه لم يستنفد الحياة البشرية، ولكنه جمع أشتاتا كانت متفرقة وألف منها وحدة احتل بها رقعة فسيحة من البحث، مثلما فعل معظم الناس، وإنى لأشعر الآن بأننى أتقبل – بغير مقاومة – كل ما فى وسعى أن أراه من حسناته ومزاياه الإيجابية قبل أن أبدأ فى تعليل نقائصه وعيوبه.

اغفر لى هذا المجمح العجول. فارط حبى للجميع ومزيد منه لك من أخيك.

«و. ج.»

وفى نفس اليوم كتب چيمس إلى أخته رسالة عن موضوع السجايا الجرمانية - الذى لا ينفد إغراؤه أبدًا ولا يمل الكاتب أو القارئ فتنته.

درسدن ٤ يونيه سنة ١٨٦٨

«أخيتى الحبيبة

ألتقط القلم لكى أطيِّر لك حبى عبر أمواج الأطلنطى المتواثبة، ولكى أعبر لك عن أملى فى أن تكونى على خير ما يرام. منذ اللحظة التى جئت فيها إلى هنا وأنا موضع رعاية أموية وإكرام وفادة من كل طبقات الناس، وهى رعاية وإكرام وفادة ما كان يتسنى لى أن أجدهما عند بنى جلدتى وبين قومى لو أننى أنفقت طيلة عمرى فى التماسهما والسعى فى طلبهما فى أمريكا. إن الألمان جنس غريب فى وفرة كرمهم وفيض بساطتهم. فنحن فى الوطن نقدر الناس ونرفع مراتبهم لما فيها من إنتاجية وإيجابية، ونبذل أقصى ما فى وسعنا لكى نتمتع بهم بتجريد انتباهنا وسلِّه بعيدًا عن نقائصهم الشخصية ومساوئهم. أما الألمان فنظرا لكونهم مفعمين ببصيرة تميز خبرة من الخير، فإنهم يمضون قدما فى تحريك وتقليب شخصية مالكها برمتها - بل صانعين منها جميعًا نوعًا من المرق الذى لا يمكن تمييزه أو فرقه، واجدين فى مذاقه لذة غير طبيعية قد تبدو نصف مضحكة ونصف مكدرة فى عينى امرئ من جنسنا الشديد التأنق. إن بثرة اللثة أو الأسنان الناقصة لبطل من الأبطال، تظفر منهم بنفس الحب الرومانتيكى الذى يكنونه للبطل تمامًا مثل صفاته الأخرى البطولية سواء بسواء. وهذا الافتقار إلى ما نسميه نحن «التأنق» الذى يفضى إلى الأنواع المتعددة من التهذيب والرقة، يشيع ويتغلغل فى طوايا الخلق الألمانى بأكمله. (لقد اضطررت للانقطاع عن الكتابة عند هذه النقطة تلبية لداعى العشاء وهأنذا أعود ثانية). فلأستأنف موضوعنا السابق، إليك مثلاً من الخلط الألمانى لكل شىء من مرق من العاطفة، وإن كان قد يبدو لك لأول وهلة أنه ينتمى إلى نسق مختلف من الحقائق: عندما وضعت أمامنا أطباق الفراولة شرعت فى أكلها بالطريق المعتادة، ولم أكد أفعل ذلك حتى باغتتنى صرخة مفاجئة أفزعتنى انطلقت من فم الآنسة بور بالألمانية قائلة: «إنه يتذوق الفراولة بطريقة فى غاية العجب»، فرفعتُ إليها عينى فى دهشة، كانت عيناها مغلقتين، وبدت فى حالة من نشوة الطرب الصوفى الذاهل، وكانت قد هشمت ما فى طبقها من الفراولة بملعقتها بحيث تحول إلى ما يشبه العجينة بعد أن ربَّته ربا بالقشدة، ففتحت فاهى قائلاً: «نعم بطريقة مدهشة»، ولكن مدام سبانجنبرج نهرتنى لتركى الفراولة صحيحة كاملة على طبقى دون تهشيم، لأنها عندما تهشم «يصبح مذاقها أحلى بكثير». بيد أن ما بدا على وجهها من تعبير، وهى تنطق تلك الكلمات كان هو الجزء الألمانى بالذات من الحادث - الذى يميز الألمان عن أى شعب آخر - وليس فى مقدورى على أى نحو أن أنقل لك هذا التعبير بالكتابة. لقد كان يتضمن نوعا من الذوبان الدينى الكامل للطبيعة

العاطفية برمتها فى هذه الخبرة الصغيرة الواحدة من الإحساس بالتذوق. إن إزالة كل التخوم الفاصلة متضمن فى تطبيق كلمة «مدهشة» على مثل تلك الخبرة، وهى تستخدم باستمرار لوصف أدوات الطعام ومواد النظام الغذائى برنة تدل على أن المتحدث سابح فى العاطفة: «شرائح اللحم المحمرة مدهشة!!» ثم تتطلع العينان إلى السماء فى ابتهال، وبنفس الطريقة، فإن الألمان عندما يفعلون ما يسمونه «إقامة حفل» (أى الانطلاق إلى الريف فى الإجازات، وقضاء الساعات فى احتساء البيرة والقهوة على الموائد الصغيرة، فى الأماكن الوارفة الظلال إذا أمكن) فإنهم يظلون صامتين، وفيما يبدو فى حالة خواء عقلى معظم الوقت، ولكنهم يقطعون هذا الصمت فى فترات قائلين فى حماسة: «إنه لمدهش أن يجلس المرء هنا فعلاً!» إن فتحات تصريف تعجب الألمانى ودهشته وحبه فى حالة اهتزاز وارتعاش دائمين، بحيث لا داعى لفضها أو فتحها، فأقل لمسة تجعل الطوفان يتدفق كالسيل العرم. وإذا ما فاض فإن المخلوق يترك نفسه للعاطفة وينجرف فى تيارها، وقليلاً ما يحفل بسببها الأصلى الذى أثارها.

إنهم يفتقرون إلى الإحساس بالقالب أو الصيغة – على طول الخط. خذ مثلاً كلمة (Kunst) أو الفن. هذه الكلمة لها وقع السحر على الألمان بشكل نعجز عن تصوره أو إدراكه. إنهم يكتبون عنها أشعاراً ويمزجون بينها وبين الدين والفضيلة على اعتبار أنها أحد الأشياء المقدسة فى الحياة الإنسانية. وبالاختصار فإنهم يفقدون قوة النقد عندما يفكرون فيها تماماً مثلما نفعل عندما نفكر مثلاً فى كلمة أخلاق. ولكنهم (فيما عدا فى الموسيقى على الأرجح) لا ينتجون أعمالاً فنية لا نفع منها ولا جدوى، كما أننى لا أعتقد – كقاعدة – أن أولئك الذين تصيبهم قارعة قدسية الفن (Kunst) فى مفهومه المجرد، لديهم قوة التذوق المميز – من هذا – للفن فى محسوسه وملموسه. إن الانفعال الرقيق يطيح بحكمتهم وحكمهم ويلقى بهما عرض الحائط. إنهم يعتقدون أن رسالة الفن هى أن يمثل أو يخلق – سلفاً ومقدماً – عالماً متجدداً مولوداً بالهدى، وهم على ذلك يجنحون إلى أن يلقوا على أى عمل مما يسمونه فنياً، ومهما كان حقيراً ومبتذلاً، هالة تشتق من الفكرة الشاملة الجامعة المولودة بالهدى، ومن ثم يتقبلونه دون نقد.

ما أقرب وأحلى وأشهى إلىَّ هذا القلب من بنت أمريكية صلفة قليلة الحياء (مثلك أنت)، لا تخفى اشمئزازها ونفورها من أى شىء سقيم حولك، وتبدى من الاحتقار الفاضح لشخصيك بصفة عامة ما ينخسك نخساً ويستفزك استفزازاً، يحملانك حملاً على بذل جهود المستقبل لإظهار استرجالك وشهامتك وشجاعتك، لكى تحافظ على إبقاء رأسك فوق اللجة فى إباء وشمم، ولكى تتنسم عبير بشاشتها ومجاملتها فحسب.

أخوك المحب دائماً

و. ج.»

وفى الثالث والعشرين من يونيه كتب چيمس لأخته:

بعد ثلاثة أيام سأرحل إلى هيدلبرج. إننى واثق بحماسة بعد هذا الفوات الطويل أننى سأصعد على معراج الوجود. حالمًا أرتطم بحقائق الحياة الجهمة».

ولكن آماله خابت مرة أخرى. وبعد عدة أسابيع من السفر التمس علاجًا آخر فى ديفون، هذه المرة فى سافوى الفرنسية. وفى ١٤ مايو كتب إلى أخته يقول:

«إننى أشعر كما لو كنت أسلب هارى بكوريته بكيفية ما».

وعاد چيمس إلى هذا الموضوع مرة أخرى، موضوع تبكيت الذات:

ديفون ٢٦ أغسطس سنة ١٨٦٨

«عزيزى هارى:

لا ريب أنك تغبطنى طوال الأسابيع القليلة الماضية لدن سماعك بأننى أزور مرة ثانية المشاهد المقدسة لفترة صابانا: شواطئ ليمان فندق إيكودى جنيف، وشارع كورانيرى... إلخ. إن الغصة الوحيدة التى شعرت بها كان مردها إلى عدم وجودك، أو بالأحرى إلى وجودى بدلاً من وجودك، لأننى أعتقد أن روحك الشاعرية الشفافة العيوف كانت خليقة بأن تنال من الخير والنفع من الأشياء التى رأيتها هنا أضعاف أضعاف ما نالته طبيعتى الخشنة المحدودة النمو.

إن الانطباع الذى يتلقاه المرء وهو ينتقل بالتدريج من جو ألمانى إلى جو فرنسى، والإثم الذى تتركه فيه حالة الأمور فى كل من الجوين، انطباع لا يتوقعه المرء، ثم إنه من وجوه كثيرة انطباع كئيب. لقد كنت فى ألمانيا نصف مسرور ونصف جزوع من جراء بطء التنفيذ، وبسبب فظاظة الذوق وخشونة التعبير اللتين تتغلغلان هناك إلى حد كبير فى كل الأمور - ولكن بمجرد أن استبدلتهما بذكاء وتألق تدابير الحياة شبه الفرنسية هذه، وما فيها من ترتيب متقن ونظام محكم، وانتقلت إلى لهجة الأمة الفرنسية الحادة الحريفة، وجدت نفسى ميالاً إلى العودة ثانية من حيث أتيت، وظلت نفسى لبضعة أيام تحن وتهفو إلى أساليب الحياة الهينة الرخية الميسرة الجوهرية القبيحة التى خلفتها ورائى. إنى لأعجب عجبًا يستنفد كل عجب من قنوطنا نحن الشعوب الناطقة بالإنجليزية، ومن يأس الألمان، وهذا سبب أقوى للعجب، من محاولاتنا الدائمة لمنافسة الفرنسيين فى مسائل الشكل والصيغة أو الذوق النهائى من أى نوع. إنهم أصحاب حساسية حيال أشياء لا وجود لها بالنسبة لنا.

وإنى لألاحظ هذه الظاهرة فى آداب السلوك والحديث، وإلا فكيف يتسنى لقوم يتحدثون دون نبرات قوية أساسية فى كلماتهم إلا أن يكونوا أنق وأنظف فى التعبير عن أنفسهم؟ ومن جهة أخرى فإن حدود الأبعاد القادر على أن يبلغها العقل الفرنسى تلفت نظرى أكثر وأكثر وتثير دهشتى. إنهم يجدون لذة لا تفوقها لذة فى لم شعثهم حول معيار رسمى مقنن فى كل أمر، وفى عد وتأريخ كل شىء، متخذين بعض الشخصيات العظيمة بداية ونهاية للعد والتأريخ، وهم يشغفون حبا بتكرار وصلات الكلام والتعقيب والعبارات الدارجة الشائعة، مضحين باستقلالهم فى الرأى فى سبيل مجرد ملاقاة سامعهم أو مآربهم على أرض مشتركة، ثم افتقارهم الميتافيزيقى، ونقصهم فى الفكر المتخيل ليس فقط فى معالجة الأسئلة، ولكن أيضا فى معرفة ماهية الأسئلة. كل هذه الصفات تبرز أكثر وأكثر كلما توغلت فى قراءة الألمان ومؤلفاتهم. وإن المرء ليتساءل متعجبًا: ترى أين ومتى يتم الوفاق بين كل هذه الصفات القومية المنافسة التى يزاحم بعضها بعضا؟ وأحسب أننا نقف موقفًا وسطًا بين الفرنسيين والألمان فى كل من الذوق والبصيرة الروحية.

على أن أكثر ما سرنى وبهرنى كان بعض اللوحات الفنية من رسوم الأسفار بريشة الفنان ثيوفيل جوتيه. يا له من عبقرى. بل ما أشد كون العبقرية شيئًا مطلقًا؟ إنها لعبقرية فذة أن يستطيع هذا الإنسان - الذى لا يحمل بين جنبيه سوى روح كلب صغير الجسم طويل الشعر ممتلئ صحة وعافية - وليست عنده أية فلسفة أخلاقية ولا معرفة (لأننى أشك كثيرًا جدًا فى صحة معرفته بالاصطلاحات الفنية... إلخ)، على الرغم من كل ذلك، أن يعطى المرء متعة كاملة تفوق من يتفوقون عليه فى تلك النواحى، وهو يؤدى كل ذلك بقوة طبيعة الخير المفطور عليها فحسب، وبوضوح الرؤية وبتوفيقه السديد فى أسلوب التعبير. إن أسلوبه يبدو لى بالغا الكمال، وأعتقد أنك ستجنى أطيب الثمر إذا أخذت على عاتقك دراسته مرة ومرة.

أخوك و. ج.»

وبعد بضعة أسابيع، وفى رسالة بعث بها چيمس إلى والده، نجده يسجل قراءته للفيلسوف كانت، وبدء إلمامه بفلسفة تشارلز رينوفير، وهو حادث ما كان فى وسعه عندئذ أن يقدِّر ما ينطوى عليه من أهمية وخطر تقديرًا كاملاً(٢).

---

(2) October 5, 1868; L.W.J., I, 138; for Renouvier, cf. below, 121, 123, 135, 144, 148, 152-3, 352.

وثمة رسالة بعث بها إلى توم وارد تلَّمس فيها طريقته المعتادة فى الاعتراف وفى التأويل الأخلاقى:

ديفون ٩ أكتوبر (١٨٦٨)

«عزيزى توماس العتيد:

كل ما فعلته فى الشهور الستة الأخيرة هو الاستمرار فى الدهدهة (الدحرجة) التى أوصيتك بها، وعلى الرغم من أن ما أنجزه كل يوم يبدو ضئيلاً - هزيلاً - فإن الحصيلة النهائية لا بأس بها. إننى لم أبد بعد فى المضى قدمًا على الصراط المستقيم فى أى وجهة خاصة من فروع العمل، وإنما لا أزال أحوم وأرفرف وأغطس وأحفر وأنقر لولوج بوابات علم النفس. وليس فى وسعى أن أقول إننى - حتى هذه اللحظة - قد تعلمت شيئًا ذا بال، كما أننى لا أستطيع القول بأن قبلة واحدة قد لاحت لى فى الأفق، بيد أننى أشعر بنوع من الإحساس الباطنى بأن هذا الشتاء سيكون بشيرا بانقشاع السحب، وإننى سأجد نفسى أبربط فى بركة صغيرة من المحتمل أن تكبر وتزيد مساحتها. وأحيانا يداخلنى شعور بخيبة الأمل من جراء تفاهة نشاطى وإحساسى بأنه عبث باطل. والحقيقة إننى لست مؤهلاً بالطبيعة لكى أكون عاملاً فى حقل العلم فى أى نوع إلى درجة بادية العجز، ومع ذلك وبفضل ذلك القانون العظيم للكون، فإن مثلى الأعلى فى الحياة هو حياة علمية. وسأشعر بأن حياتى خالية من كل قيمة إذا اقتنعت بالعجز العلمى المطلق، فى حين أنه فى الحقيقة إذا كان هناك امرؤ لا عمل له سوى المحافظة على أم أبيه أو أم أمه حية، فإنه فى هذه الحالة يعتبر فاعل خير عظيمًا، كما قرأت فى كتاب رودين لتورجينيف منذ بضعة أيام... آه. ثم آه يا توم. أنتم أيها الأشبال الأقوياء البنية، الذين يسافرون بمحض إرادتهم وتحت مسئوليتهم الخلقية، موضع حسد أكثر من أى إنسان آخر فى الدنيا، ما أشد تماسك نسيج حياتهم! لا توجد خطوة يخطونها تافهة أو سخيفة. وبمعيار المبادئ المادية الصرفة فإنهم أعظمنا نجاحًا وحظًا من التوفيق، وأكثرنا قابلية للسعادة. هذا الطراز من الناس يدرك مأربا مطلقًا دون أن يخرج من إهابه. ويقوِّمون أنفسهم بما يسعون فى طلبه وليس بما يدركونه! يا لهم من فصيلة نفيسة فخمة من الحيوان، وإنهم ليدحرون البقر الذى تتحدث عنه، ويقرعونه باطلاً وكاذبًا على دربهم الموصول من الإطلاقية المتناهية. لقد تسممت بسم المذهب النفعى الزعاف؛ وأحيانا عندما ينتابنى اليأس من أننى لن أفلح أبدًا فى عمل أى شىء، فإننى أقول: «لماذا لا نخطو إلى الظلام الأخضر»؟ ولكننى لا ألبث أن أفكر أنه مهما تكن معظم نتائج عيشى كريهة وقبيحة ومدعاة للسخرية، ومهما يبد الاختمار والتقتيت والتبخير والإشعاع الذى سيعقبها سليم النية ومرغوبًا فيه إذا ما قورن بها. إلا فى طوايا نسيج الأولى توجد بعض أسمال ونسالة الجمال التى قد تظل أبد الدهر ما دامت قد قدت. إنها ستبقى وتعيش. بعض خرق ومزق من الرجولة (أفكار - ابتسامات)

وعلى الرغم من أنها خرق ومزق فإنها أكثر قيمة للعالم من الاختمارات والتفاعلات الكيميوية التى قد تحل محلها. وقد لا تكون أكثر استحقاقًا لوعيك بذاتك باعتبارك شخصًا، بل لعلها مجلبة للألم أكثر منها للمسرة، ولكنها إذا قوِّمت باعتبارها وجودًا فإنها فئة أكثر نبلاً من الأخرى. والكل فى الكل، فحتى قمامة الأخلاق وكناستها وأدرانها أفضل وأحسن من التفاعلات الكيميوية. وعلى هذا النمط أجلد ظهرى بالسوط، وأبدأ مرة ثانية، من جديد، ماضيا إلى غايتى. وداعا يا عزيزى.

المخلص

و.م. چيمس»

فلما عاد چيمس فى نوفمبر سنة ١٨٦٨، إلى كمبريدج كان قادرًا على متابعة دراساته الطبية على نحو موصول هيأه لأن يتقدم لنيل إجازة الطب فى الربيع التالى. وفى نفس الوقت الذى استأنف فيه دراساته، فإنه استأنف أيضا أحاديثه ومناقشاته مع أصحابه، وخصوصًا وندل هولمز وتشارلز بيرس الذى فتنه وخلب لبه بغوامضه وألغازه المبهمة، والذى أصبحت حياته المهنية مسئولية قدر له أن يحمل عبئها على ضميره زهاء أربعين عاما. ونظرًا لأن بوديتش كان يقيم بعيدًا فقد استمر چيمس يراسله، وظل يتابع أبحاثه الفسيولوجية باهتمام وشغف لا يخلوان من حسد. والرسالة التالية تمثل أصدق تمثيل هذه الفترة التى تتخلى فيها الاهتمامات الفكرية التى لا تردع ولا تقمع وهى تناضل وتجاهد ضد وهن العزم والصبو إلى الإخلاد إلى الراحة والهجوع. ولما كان يتعين عليه كتابة بحث علمى للحصول على دبلوم الطب فقد اختار موضوع «الجرد».

كمبريدج ٢٤-٢٥ يناير سنة ١٨٦٩(٣)

«عزيزى هنرى،

لقد فارقنى تشارلز بيرس لتوه، وقبل رحيله كنت أتحدث معه عن بعض مقالات له نشرت فى «مجلة سانت لويس للفلسفة التأملية: St. Louis Journal of Speculative Philosophy»، والتى كنت قد قرأتها من قبل. وهى مقالات فى غاية الجرأة والعمق والإبهام، ولا أستطيع القول بأن توضيحاته

(3) Parts of this letter are reprinted from L.W.J., I, 149-50.

الشفوية قد ساعدتنى كثيراً على فهمها، وإن كانت مع ذلك ذات وقع غريب فى نفسى أثار شغفى واهتمامى[٤]؛ إن هذا المسكين لا تلوح أمامه بارقة أمل فى شغل منصب الأستاذية فى أى مكان، ومن المرجح أن يمضى فى الرصد بقية حياته. وإنه لأمر يدعو للرثاء والأسى أن رجلاً مبدعًا أصيلاً من طرازه، راغبًا وقادراً على تكريس قوى حياته للمنطق والميتافيزيقا، لا يجد مجالاً خصيبًا يكسب منه عيشه، فى الوقت الذى توجد فيه عشرات من مناصب الأستاذية التى تصلح له ويصلح لها، وهى لا تغدق إلا على رجال مستقيمى الرأى «مأمونى» الجانب. وإنى لأعلم أنه محق وعلى صواب فى أن يشعر بالمرارة وخيبة الأمل حيال مستقبلة المأمول، ولكنى أحسب أنه يجب عليه أن ينتظر وينتظر - مثلما يفعل الألمان - حتى يشتعل رأسه شيباً... ما زلت «أنتظر وقتى» هنا. عندى ظن أريب (لن أضعه فى صيغة إعلان قاطع، خشية أن يسمعها حظى الملغم فينقلب علىَّ كما فعل من قبل)، وهو أن التوفيق بدأ يحالفنى، وأننى بدأت أمضى قدما. وندل هولمز يحضر كل أسبوع حيث نتشدق معا. أخى هارى سيذهب إلى الخارج فى الربيع - وفى مرجوى أن يحل بباريس قبل رحيلك.

أمل أن تكون هذه الرسالة قلمه وبلا ترتيب بالدرجة التى تكفيك. ماذا فى وسع امرئ أن يكتب عندما يطوى وجوده قلعة وكل مطمحه فى الحياة، هو شرود الفكر والذهول عن الحياة؟ ومع ذلك فستأتى أيام أحسن، وستحمل معها رسالات أحسن.

المخلص إلى الأبد

و م. چيمس»

وواصل چيمس مراسلاته إلى هنرى بوديتش عن دراساته الطبية وآماله المرجوة فى المستقبل:

كمبريدج ٢٢ مايو سنة ١٨٦٩

«عزيزى هنرى:

أننى أشعر بكمد من جراء الصمت الطويل الذى التزمته نحوك، ومع ذلك فلم أنقطع على التفكير فيك بحنين جياش، ولكنى كنت أفتقر إلى تلك الأخبار السارة البارة الحاسمة لكى أحملها إليك، والتى بدونها لا تبدو الكتابة عملاً طبيعيًا. من المستحيل علىَّ الآن - كلية - أن أدرس على أى نحو،

---

(4) Peirce published three articles in this Journal in 1868, as follows: "Grounds of Validity of the Laws of Logic," "Questions Concerning Certain Faculties clained for Man", "Some consequences of Four Incapacities". He was at this time employed as assistant at the Harvard Observatory.

ولقد أفلحت أخيراً فى الكف عن المحاولة، بإخلاص وصراحة. ومع كل ذلك، فلم يسبق لى أن شعرت بالابتهاج قدر شعورى الآن. لقد فعلت ما فى وسعى، وإنه لعمل خسيس من المرء أن يتبرم ويزمزق بما يفرض عليه من الخارج، ويحمل عليه حملاً قضاء وقدراً. سلمت بحثى وبطاقاتى للأستاذ هودجز بالأمس(٥). سيعقد الامتحان فى الحادى والعشرين من يونيه، وأعتقد أن الحظ سيكون حليفى وإن كنت أشعر بالخجل من قلة المعلومات الطبية التى أعرفها. كتبت بحثًا فى موضوع البرد، دون أى تجارب أو فرصة للرجوع إلى أى مراجع عن الموضوع إلا تلك المراجع التى فى حوزتى وعدداً قليلاً من الكتب كنت أطلبها بالذات من المكتبة - وعلى هذا فالرسالة لا قيمة لها. لقد كتب تشارلز بيرس عدداً من المقالات السيكولوجية/ الميتافيزيقية، المتميزة بالحدة الشديدة والابتكار، فى مجلة سانت لويس الفلسفية (St. Louis philosophic Journal)، وإن كان أسلوبها شنيماً عبوساً لدرجة أن المرء لا يستطيع أن يفقه معناها بالضبط. إنه كاتب مبدع، ولكنه ذو قدرة تعسفية تحكمية تجعل المرء يجنح إلى عدم الثقة به. بالأمس ثم تثبيت س. و. إليوت فى منصب مدير الجامعة. ولا أحد يجهل ما فيه من نقائص وعيوب شخصية فادحة، فافتقاره إلى اللباقة، وتدخله فى كل صغيرة وكبيرة، وجنوحه إلى الانتقام والأحقاد التافهة - كلها معروفة للجميع - ولكن أفكاره تبدو لا بأس بها، ومركزه الاقتصادى من الطراز الأول، ولذلك، ونظراً لعدم وجود مرشح آخر لائق، فاز بالمنصب. وإنه لأمر يدعو للعجب أن مثل ذلك المنصب يتسول مرشحين إلحافا لشغله.

أخى هارى فى إنجلترا الآن يتمتع بالمناظر هناك بصولة. أمل أن تلتقيا عاجلاً. وندل هولمز يزورنى مرة كل أسبوع. ولقد أخبرنى جون رويس(٦)، منذ بضعة أيام أنه لم يسبق له فى حياته أن عرف دارس قانون يضارع وندل فى كده وجده فى الدراسة (وهذا لابد أن يفضى به إلى منصب رئيس المحكمة العليا للولايات المتحدة الأمريكية). إن وندل يسلينى لكونه يتألف على الأقل من شخصيتين مختلفتين، ونصف شخصيته من الناس مطوية فى لفة واحدة. والطريقة التى يحتفظ بها بهذا المزيج معاً فى إهاب واحد دون عراك أكثر مما هو حادث فيما بينها، طريقة فائقة جديرة بالاعتبار. إننى أحبه وأبجله إلى درجة تفوق الحد.

اسمع يا فتاى العزيز العتيد، اكتب سريعاً إلى شخص عزيز عليك، وزوّده بصورة كاملة عن ميزانية تقدمك فى الشتاء، مبينا المكسب والخسارة جملة وتفصيلاً.

صديقك دائماً

و م. چيمس»

---

(5) Richard Manning Hodges was at this time adjunct professor of surgery at the Medical School.

(6) John Codman Ropes (Harvard LL.B., 1861) was a fellow student of Holmes at the Las School.

فأما هنرى چيمس الصغير فقد كان الآن فى أوربا، وبذلك أصبح وضع الأخوين معكوسًا، وحل كل منهما محل الآخر. هنرى يكتب أخبار المغامرات من بعيد، فى حين أن وليام يعبر عن الاهتمام الحماسى وما يعتمل فى دائرة الأسرة فى كمبريدج من بلبال وجزع.

كامبردج ١٢ يونيه سنة ١٨٦٩

«عزيزى هارى،

يا قوم ادعوا أخى ليعود إلى	O call my brother back to me,
لا أستطيع أن ألعب وحدى	I cannot play alone.
أقبل الصيف بزهره ونحله	The summer comes with flower and bee
وأخى لم يقبل، فأين ذهب؟	Where is my brother gone?

رسالتك الثانية من جنيف وصلت فى التو واللحظة، وأهاجت كوامن عاطفتى التى عبرت لك عنها فى الأبيات المذكورة المعروفة، لدرجة أننى لا أستطيع ضبط نفسى لحظة واحدة، وإنما جلست من فورى لأكتب لك. فى يوم الجمعة القادم سيتم امتحانى الإكلينيكى فى المستوصف (ولقد حاولت أن أعفى من هذا الامتحان، ولكنى لم أفلح) وفى يوم الاثنين الذى يليه سيكون الامتحان الكبير. إن فكرة الامتحان تبدو مريعة ومخيفة، وتزداد فى ذلك كل يوم، وكم أتمنى أن أفرغ منه وأنتهى. لقد كان البحث الذى قدمته لائقًا، وأحسب أن الدكتور هولز سيعارض فى نتف ريشى مهما كانت إجابتى فى الامتحان رديئة، ولكن الحقيقة التى لا سبيل إلى محوها هى أننى أشعر أننى لست مستعدًا استعدادًا كافيًا. وليس عندى شك فى أننى سأشعر بتحسن جسمانى واضح عندما ينتهى كل شىء. بيد أن شعورى بعدم استعدادى بدلاً من أن يحفزنى على الذاكرة أوجد فىَّ نفورا وتقززا من موضوع الدرس، ولقد اكتشفت اكتشافًا وأنا أسلم أوراق ووثائق سجلى الدراسى للعميد، ولقد سرنى هذا الاكتشاف وأبهجنى. أما هذا الاكتشاف فهو أنه إذا أضفت - بكل أمانة وذمة - كل أسبوع عملت فيه أى عمل سيصل بالطب على نحو ما، فإننى لا أستطيع أن أجمع ما يزيد على ثلاث سنوات وشهرين أو ثلاثة. وثلاث سنوات هى الحد الأدنى الذى يسمح للإنسان بدخول الامتحان، ولكن حيث إننى بدأت منذ وقت مبكر يعود إلى عام ٦٣، فقد اعتبرت نفسى درست نحو خمس سنوات، ولقد شعرت بالخزى من جراء الاستعداد الفائق لزملائى - الذين يفوقوننى - للإجابة عن الأسئلة وتشخيص الحالات. وضعى الجسمانى على ما هو عليه، ولكنى - كما قلت - أحسب أن الصيف سيحدث بعض الفرق. وفى غضون ذلك فأنا راض تمامًا بأن القوة التى منحتنى هذه الكفايات والقدرات، فى وسعها حتما أن تستدعيها جزئيًا أو كليًا وبأى نظام وترتيب تراهما مناسبين. وأعتقد أننى لن أقيم أى وزن

ولو مثقال ذرة - الآن - إذا أصابنى العمى... إنك تقول إنك تقصد الكتابة لى عما كتبته لك عن المانيا. لقد حررت رسالة أخرى عن نفس الموضوع منذ أيام قلائل. وفى مرجوى أن اللهجة التشريعية لنصيحتى لا تسىء إليك وتكدرك. إننى ألجأ إليها من أجل الاقتضاب والإيجاز كما يفعل واضعو القوانين.

المحب لك دائمًا

و م. چيمس»

على أن نجاح چيمس فى امتحانه الطبى «دون صعوبة» فى ٢١ يونيه سنة ١٨٦٩، جلب له الفرج فى معنيين: لقد أزاح عن كاهله عبئًا، وفى نفس الوقت كان بمثابة دعامة ومرتكز لثقته بنفسه. وقبل ذلك بوقت طويل كان قد كف عن أية نية لممارسة الطب. وبعد نجاحه سافر مع أسرته إلى بومفريت فى عطلته الصيفية ابتغاء الاستجمام، وابان وجوده هناك أوجز هذه المرحلة كما يلى:

«وهكذا أسدل الستار على مرحلة من عصور حياتى، وهى مرحلة لها أهميتها، وإنى لأشعر بها، فى «غلتها» لعلمية، وفى قيمتها التربوية العامة، باعتبارها تتيح لى أن أنفذ إلى داخل طرائق وأعمال مهنة مهمة، وأن أتعلم منها - باعتبارى رجلاً يمثل المتوسط العادى - كيف يؤدى كل عمل المجتمع النسانى. إذنى أشعر بنهم فكرى كبير فى هذه الأيام! أنا جوعان وظامئ إلى الفكر، وإذا سمحت لى صحتى فليس عندى أدنى شك أننى أريد أن أفيد من تحررى - فائدة مشكورة معتبرة - متميزة فى دراسة جادة. وفى مرجوى - حتى إذا ظلت صحتى كما هى الآن بحالتها الراهنة - ألا أركن إلى الكل والتراخى على الإطلاق، وسأحاول أن أقرأ كلما فى وسعى قراءته بحيث يكون متصلاً بالموضوعات السيكولوجية[(٧)].

وكان چيمس فى أثناء صيف سنة ١٨٦٩، قد تسلم عددًا من الرسالات من أخيه هنرى الذى كان يقوم بسياحة فى سويسرا، وكان يسبح على موجة عالية من جيشان العافية الجسمية. وفى سبتمبر استبدل قمم الجبال الطبيعية لسويسرا بالمرتفعات العاطفية والروحية لإيطاليا، ثم أخرج ما به من دوار وميدان فى سلسلة من الرسائل الطويلة المتوهجة الزاخرة بالمتعة التلقائية والتقويم الفاحص على السواء.

(7) W.J. to Henry Bowditch, August 12, 1869; L.W.J., 1, 154.

كمبريدج ٢ أكتوبر سنة ١٨٦٩

«الأعز هـاري:

فى مدى عشرة أيام تسلمنا منك رسالتين، إحداهما مرسلة من كومو، والأخرى من بريشيا، وحقا ما أحلاهما وما ألذهما من رسالتين. إنه لبلسم للقلب أن يفكر فيك وقد تمكنت أخيراً من أن تعب وتنهل جرعات كاملة من الجميل والعتيق. وكما قالت الوالدة العزيزة منذ أيام، «إنه يبدو أن حياتك كلها لم تكن سوى استعداد لهذا. منذ أن كتبت لك من بومفريت من شهرين حدثت، أمور كثيرة جداً، وجدت أحداث متنوعة، لدرجة أن جعبتى زاخرة بالكثير الذى أريد أن أخبرك به عن أمور شخصية وخلقية وروحية وعملية، الأمر الذى جعلنى فى حيرة من أين أبدأ، وكيف أستهل لك هذه الرسالة. وعلى أية حال فلا مفر من أن تتزاحم بعض الأمور وتتداخل بعضها بعضاً. على أية حال، أولاً أسمح لى أن أتحدث عن صحتى. لقد سارت الأمور على ما يرام، ودبت فىَّ العافية زهاء ستة أسابيع فى بومفريت، وبدأت أشعر بأن الأسقام هجرتنى إلى غير رجعة، ولكن فجأة هجرتنى الصحة وانتابنى السقم قبل رحيلى بأسبوع.

والنتيجة أننى أجد نفسى عاجزاً عن التنبؤ بحالتى كما كان فى وسعى أن أفعل من قبل، ولكنى على العموم أشعر أن ذلك مما يشجعنى، لأنه بينة على أن الحالة مهما تكن مدوارة ومتقلبة، وليست حتماً مقتضياً. إننى أشعر بهبوط كبير فى القوة العصبية، ولذلك عزمت على أن أقلل من قراءتى بقدر الإمكان فى هذا الشتاء، وأن أكف عن الدراسة مطلقاً. أى أننى لا أقرأ شيئاً يثير شغفى وتفكيرى. ثمة كتب كثيرة فى السير والتراجم والتاريخ والأدب، كان فى مرجوى دائماً أقرأها يوماً ما، ويظهر أن ميقاتها قد حل الآن. ولقد أصبح من هجيراى أن أرجئ زياراتى للمساء، فأقوم بزيارة كل ليلة ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، بدلاً من أن أقبع فى البيت كما كانت عادتى حتى الآن. وإنى لعاجز عن التعبير لك يا أخى العزيز عن مدى إعجابى بجسارتك الصامتة التى أفصحت عنها إبان هذه السنين الطويلة، وإن إعجابى ليزيد ويزيد على طول الخط، وقد بلغ الذروة فى المدة الأخيرة. لم أدرك أبداً – إلا فى خلال الشهور الثلاثة أو الأربعة الأخيرة – مدى طاقتك وتحملك للعبء الذى تنوء به العصبة أولو القوة، والذى يتطلبه إنجاز كل هذه الأعمال الأدبية وخصوصاً نشاطك الاجتماعى الجبر الذى لا يكل ولا يمل ولا يتقلص. اسمح لى أن أعترف بالهزيمة وأقر بعجزى باعتبارى رضيعاً إذا ما قارنت نفسى بك. وإن كنت من حين لآخر أجد قلبى متقد الجذوة، وعزيمتى تسترد قوتها بموجة مفاجئة من ذكرى سلوكك.

لقد عاد توماس سارجنت بيرى فى أطيب صحة بعد إجازته. إن تواضعه الصادق وشعوره الحانى الباسط نحو كل إنسان، علاوة على روح دعابته وحماسته، يجب أن تنال حظها من التقدير العظيم، وألا تبخسه ما هو أهل له من التجلة والاحترام. كلما عشت فى الحياة وزادت تجاربى،

أحسست بسوط عذاب برود وأنانية وغرور الناس يلهب ظهرى، وأحسب أن توماس سارجنت بيرى مبرأ من هذه العيوب إلى درجة العذوبة والحلاوة. خذ مثلاً - وندل هولمز - كل صفاته النبيلة مسممة بهذه العيوب. وبقدر ما أحب أن أكون له وليام حميما، بقدر ما أرى أن الخير الذى فعله معى من النوع الذى يجعلنى أريد أن أركله بقدمى أو أعرض عنه وأنأى بجانبى بدلاً من أن أقبل عليه وأتبعه وأعتنقه. لم أره إلا لماما فى الربيع، ولكنى أتوقع مجيئه الليلة إلى هنا. لقد نسيت أن أحدثك عن قصتك «جابريل دى برجيراك»، وما أنسانيها إلا وندل هولمز أن أذكرها. إن لمساتها رائعة بارعة، ولكن الخاتمة (dénouement) سيئة فى كونها لم تنته بموت كوكيلن فى ذلك اللقاء العاصف بدلاً من دخولها دير الراهبات. وعلى الأقل كان ينبغى أن يكون معها «أوراق اعتماد: Lettre de cachet» وتظل على مقاومتها للفايكونت ثم ينتهى الأمر بدخولها الدير. إن خاتمة القصة مملة وفى نفس الوقت بعيدة الاحتمال. فى مرجوى الآن أن أكون أكثر انتظامًا فى الكتابة إليك. اغترف ما شئت من المتع وطيبات الحياة هذا الشتاء.

محبك دائمًا

«و.ج»

وفى باكورة أكتوبر وفى أثناء زيارته لمدينة فلورنسا، وقع هنرى طريح الفراش بمرض أصابه لعدة أسابيع، ولقد أسهب فى وصف أعراضه طالبًا المشورة الطبية وملتمسًا العلاج من الطبيب النطاسى الجديد، وضمَّن رسالته أيضا ما اعتمل فى نفسه من هواجس أخوية وبلبال ينطوى على شبوب فلسفى فيما يلى:

«إننى أحس بالسقم عندما أفكر فى حياتك وقد أصابتها هذه الآفة الفظيعة. ولن أبوح للأسرة بشىء عنها، حيث إنهم لن يستطيعوا أن ينفعوك بشىء، ولن يصيبهم من ذلك إلا الألم والحسرة. ولكن أرجوك ألا تتردد من الآن فصاعدًا فى أن تحيطنى علمًا بكل تفاصيل حياتك. أدعو الله مخلصًا أن يهيئ لك من أمرك رشدًا، وأن يهديك إلى الطريق المفضى إلى الصحة والعافية وبركة الحياة. لماذا نتعذب على هذا النحو؟ لست أدرى، وأحسب أن فلسفة الوالد العزيز لن تفلح فى تفسير ذلك أكثر من أية فلسفة أخرى. ولكن على حد تعبير باسكال: (malgré les miséres qui nous tiennent par la gorge) (وعلى الرغم من التعاسة والبؤس والشقاء التى تمسك بخناقنا) فإن فى كل منا غريزة إلهية مقدسة، وفى ختام الحياة فإن الخير يبقى والشر يهوى خانرا فى أعماق الظلام (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض). وإذا كان وجود الشر ضربة لازب فى هذه الحياة،

فلماذا لا يصيبنا - أنت وأنا - كما يصيب بقية الناس؟ لماذا لا نكون من ضحاياه - أنت وأنا مثل أى إنسان آخر - والمشكلة هى: هل لابد من وجوده؟ وهل لا مناص من أن يكون له ضحايا؟ هذه هى المسألة(٨).

فلما أبل هنرى من مرضه ذهب إلى روما حيث «كان يمشى فى الشوارع يتمايل ويلف ويدور ويتأوهً فى نشوة من الطرب وحمى المتعة»، ومن هناك بعث بعدد من الرسائل الفائقة الرائعة، التى سجل فيها خبراته (الموضوعية والذاتية) لأسرته فى كمبريدج(٩).

كمبريدج ٥ديسمبر سنة ١٨٦٩

«عزيزى هارى:

إن رسالاتك التى بعثت بها من إيطاليا تتجاوز المدح والثناء. وإنه لمما يدعو إلى الأسف والحسرة أن مثل تلك الرسائل تنجب لكى تنزوى على استحياء بعيدة عن جمهور القراء والرأى العام، وإن المادة التى تحتويها عينا - وربما فى أسلوب أقل طوافا وهيمانا - لا تنشر على الملأ فى أعمدة «صحيفة الأمة: The Nation» إننا نقرأ أجزاء منها على بعض زوارنا من أصحاب الذوق والتذوق، فتحدث فيهم «طربًا حقيقيًا». ولقد حمل الوالد بعض رسائلك ليطلع عليها أمرسون فى كونكورد منذ بضعة أيام. فلما قرأها على مسامعه ألح عليه بإصرار أن يتركها له لكى يتمعن فيها ويدرسها دراسة مستفيضة، ولكن الوالد أبى. فلما قابلت إدوارد (أمرسون) فى المتحف الإغريقى فى اليوم التالى، قال لى إن أباه لا يفعل شيئًا سوى الحديث عن رسائلك. أعتقد أنه ينبغى أن تكون هذه العينة فيها الكفاية لك.

أما فيما يتعلق بشخصى المتواضع، فإن ملاحظاتك اللاقطة النافذة الجديرة بالإعجاب بخصوص الفن - أصابت كبد الحقيقة. إننى أفهم جيدًا وأشاركك وجدانيًا فيما لابد أن يكون قد اعتمل فى نفسك من أحاسيس حيال كل هذه الكنوز الغالية! إنى لأفهم جيداً ذلك الوازع العجيب الذى يشبه المخاض، والذى يحفز المرء إلى إخراج الروح واستخلاصها مما يحتويها من «أرواح شريرة»، ثم إنجابها حية نابضة فى كلام وتعبير، والتى يستحيل ترجمتها بموجب طبيعة الأشياء، ولكن كل محاولة لاقتحام معاقله فى علاها - تنتج مع كل غمرة ونزع وغصة من الفشل والإخفاق - إحساسًا أحد وشعورًا أشد بحقيقة الموضوع الذى يفوق الوصف ولا ينطق به ومن ثم ترحيبًا بشوشًا بالخضوع لنيره.

---

(8) October 25, 1869.

(9) To W.J., October 30, 1869; L.H.J.^{2}, 1, 24-5.

لقد مستنى تلك الجذوة وشعرت بحماها تسرى فى أوصالى إبان وجودى فى درسدن المتواضعة - فما بالك وأنت من أنت - وأمامك كل تلك الفرص الكبيرة المتاحة، لا ريب أنها ستفتح أمامك آفاقًا فكرية جلية تنضج خبراتك وتؤتى منها أكلا سابقًا لأوانه. من المرجح أنه ميسور النقل للآخرين وقابل للتداول والإيصال للغير. وما من نفع يرجى أو يفى بالغرض أو يثق المرء ويعتمد على المادة المترسبة فى الذاكرة. لا شيء يستطيع أن يحل محل تسجيل المذكرات وهى فى فورة حرارتها واتقاد جذوتها، وآمل ألا يفوتك ذلك لكى تفيد منها على مدى الزمن.

إن ما قلته عن الآثار القديمة وعن فن المعمار مس وترًا حساسًا من صميمى. إن الأمر ليبدو كما لو كان الفرق بين الكلاسيكى والرومانتيكى فيه شيء من التطابق الميتافيزيقى فى التوازن، وإن الفرق لم يكن سوى رمز من الرموز.

انقع نفسك فى الرمز، ولعل المعنى يبرق أمامك فجأة بأشعة الصواب. إنك لا تدرى مدى شعورى بالرضا لكونى أصبحت قادرًا - أخيرًا - على فقه هذه الأمور ورؤيتها بوضوح، وكم أدعو لك أن تبلغ فى النهاية من القوة ما يمكنك على أن تلك حياة عملية خصيبة تتيح لمواهبك أن تؤتى أكلها، وأن تحمل من الثمار ما هى خليقة به وما هو حلال له.

فى المدة الأخيرة عكفت على قراءة مؤلف ماكس مولر «شظايا» (من ورشة ألمانية)، وقد قرأته بسرور بالغ . وكذلك قرأت ما تيسر من ليوباردى، وأحسب أن لغته الإيطالية ليست بمستعصية بأية حال، ثم إن مادته وأسلوبه يروقان لى بشكل عجيب. إن الاقتباسات التى استخلصها س.ا. نورتون من شاعر فارسى، ونشرها فى العدد الأخير من (North American Review) روائع جبارة[10]. اقترض الكتاب منه إذا واتتك الفرصة... إن الزمن يدور بى كالإعصار... ولقد بدأت فى الانتظام فى عادة الزيارة المسائية. اكتب أخبارًا طيبة عن نفسك لأخيك،

«و.»

وبتاريخ ٢١، ٢٣ ديسمبر كتب هنرى لوالدته وصفًا لخليج نابولى وبومبى وبايستوم، وتفصيلاً لأحداث وصوله إلى روما:

«والآن وأنا على وشك الرحيل من إيطاليا، أشعر بقوة مضاعفة ببلاغتها الساحرة وحس بيانها، وأقلب فى كنوز هذه الشهور الأربعة الأخيرة بنفس الهيام الذى يقلب به جامع العملة الخبير فى مجموعة نادرة من السكة والنياشين النفيسة».

(10) Norton's citations from Fitzgerald's translation of Omar Khayyàm, October, 1869.

واحتوى رد وليام - فى التاسع عشر من يناير - على الفقرة التالية:

لقد تمتعت فى الأسبوع الماضى باللذة العظيمة لقراءة «بيت الثرثارات السبع: - The Hpuse of the seven Gables» - ولم أكن أتوقع أن يكون مؤلفًا عظيمًا بهذه الدرجة. إنه يشبه السيمفونية الرائعة، كل لحن فيها متناغم فى الكل بحيث لا تستطيع أن تبدل فيها لمسة أو همسة دون إخلال بالنغم. لقد أحدثت فى نفسى انطباعا عميقا، وإنى لأحمد الله أن هوثورن كان أمريكيًا. ثم إن هذا الكتاب، دغدغ عزتى القومية إلى درجة كبيرة من جراء وجه الشبه بين أسلوب هوثورن وأسلوبك وأسلوب هاولز، حتى لو كنت فيما مضى قد لاحظت وجه الاختلاف والعكس. وحقيقة كونك أنت وهاولز - على الرغم من وفرة النماذج فى الأدب الإنجليزى - أمامكما للنسج على منوالها - تجنحان إلى تقليد هذا الأمريكى بطريقة تكاد تكون غير إرادية، هذه الحقيقة تومئ إلى وجود خصيصة عقلية أمريكية حقيقية. ولكن. معذرة فلأقتصد فى بصرى وأكف عن الكتابة.

أخوك المحب دائمًا

«و م س.»

وأجاب هنرى على هذا التعليق الأدبى فى ختام رسالة حررها فى الثالث عشر من فبراير بعد عشرة أيام من عودته الموفقة إلى إنجلترا.

«أنا سعيد لتقبلك هوثورن بقبول حسن. وفى نيتى أن أكتب قصة - يوما ما، وعسى أن يكون قريبًا - (ولعلها) تضارع قصة «بيت الثرثارات السبع».

الاثنين ١٤. بهذه النبوءة المروعة التى انعقدت عليها نيتى بالأمس أمسكت بالقلم وشرعت. لذلك لا تلمنى إذا ختمت رسالتى، عندما بدأت فى كتابتها كان فى نيتى أن أتحفك بموجز عظيم لرحلتى فى إيطاليا. ولكنى عدلت - ولذلك لن تظفر بهذا الموجز. الآن، من حسن حظك... وداعا. بلغ حبى للجميع. أخوك إلى أقصى ذروة الأخوة.

«هـ. چيمس الصغير»

(١٣)

كبوة وصحوة

فى أثناء خريف وشتاء سنة ١٨٦٩، هبطت معنويات چيمس على نحو موصول. ولقد كتب إلى بوديتش عن مشاكله الخاصة ومتاعبه الشخصية، كما أحاطه علما بما يدور على الألسن من قيل وقال فى الشئون الطبية المحلية، وبما يعتمل فى نفسه من أسى وحسرة لهجره الفسيولوجيا التى كان بوديتش يواصل دراستها بنجاح وتوفيق بدلا منه، وأفضى إليه برأيه فى الحرب الفرنسية - البروسية التى أثرت فى وجدانه تأثيرا عميقا. والرسالة التالية إلى بوديتش تمثل كل ذلك أصدق تمثيل :

كمبريدج ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٦٩

« عزيزى هارى:

أعلم أننى شقى تعيس، لإهمالى لك كل ذلك الوقت دون أن أخط لك حرفا واحدا. لقد كنت فريسة للتقزز من الحياة طوال الشهور الثلاثة الأخيرة - بلغ حدا جعل كتابة الرسائل تكاد تكون مستحيلة ! لقد استمعت إلى جزء من رسالة بعثت بها إلى جيفريز وايمان، قرأها علىّ منذ ليال، وسعدت إذ علمت أنك بخير وعلى ما يرام، وأنك فى جوف هذا الترف الفسيولوجى الذى تصف به معمل لودويج. إليك آخر الأنباء هنا . فأما حالتى - فيؤسفنى أن أقول إنها تسير من سيئ إلى أسوأ بمواظبة فى كل النواحى، على الرغم من نهفة لطيفة لمدة ستة أسابيع فى هذا الصيف. على أننى بدأت أتجول فى المدينة وأقوم بالزيارات على الرغم مما بى، مما ينعشنى ويشرح صدرى. ولكنى هجرت كل طلب للدرس أو حتى أية قراءة جدية من أى نوع، بالمعنى الحرفى لكلمة هجرت. فأما الفسيولوجيا والطب فتبدوان لى كما لو كانتا صوتين غائمين آتيين من بعيد منذ أزمان غابرة ....

وذل هولز يعمل بجد وكد، وأخشى أن يرهق نفسه، إذ عهد إليه بعمل لمدة عامين لتحرير تفاسير "كانت .Kent ، " ونظرا لأنه طموح إلى بلوغ حد الروعة والإتقان، فإنه يقول إن الوقت قصير جدا بحيث لا يكفى لإنجاز كمية العمل التى أخذ على عاتقه أن يؤديها، ومن ثم فإنها تنيخ بكلكلها على روحه وتهبط أعصابه. سأترك لك أمانة تزويدى بأية مراجع جديدة ذات أهمية. سواء فى الفسيولوجيا أم السيكولوجيا.

أما فيما يتعلق بجدول المحاضرات الجديد للبروفسور إليوت[1]، فيبدو أن المقرر الفلسفى الذى يعطيه كان بداية موفقة، وفى مرجوى أن يواظب عليه ويجوّده. أما المقرر الأدبى فيبدو أنه (كشكول تافه) وعديم الفائدة. بالأمس استمعت إلى تشارلز بيرس يلقى أولى محاضراته التسع عن «المناطقة البريطانيين». وكان يلقبها بلا مذكرات، وكانت محاضراته رائعة بارعة فى المادة والأسلوب ووضوح العبارة. ولقد عين حديثا فى منصب مساعد فلكى بمرتب ٢٥٠٠ دولار فى السنة. ولكنى أتمنى له أن يحصل على وظيفة أستاذ للفلسفة بإحدى الجامعات. فهذا مجال مهارته وبراعته، ويقينا هو ضليع جدا فى هذا الاختصاص بالذات. لم أر فى حياتى رجلا أقدر منه على الغوص فى أغوار الأمور والإحاطة بأبعادها على هذا النحو من الشمول والإتقان.

والآن – فى وسعى أن أتوقع بكل ثقة واطمئنان أنك ستجلس فوراً وتحرر لى رسالة مطولة، بمجرد أن تتسلم رسالتى هذه. وأعدك بأننى سأكون عند حسن ظنك فى المستقبل. فإذا لم تجلس من فورك وتحرر لى رسالة فخير لك ألا تكون قد ولدت قط، لأننى سأتسبب فى موتك بألوان من العذاب – البطىء والفظيع – مما لم يسبق لعين بشر أن رأته أو لأذن أن سمعته أو لعقل أن تصور له نظيرا عندما تعود. هل فى طوقى أن أبخل بأى شىء نظير قضائى عشرة أيام أخرى معك فى ليبزج على غرار تلك النوبة السعيدة التى نعمنا بها معا فى باريس؟ لن أنسى ما حييت هناءة تلك الأيام. ولن أنسى ما حييت كل الأفضال والنعم التى أسبغتها علىّ.

تقبل خالص الود الأبدى من صديقك،

« وم . چيمس»

---

(1) The So-called "Univerity Lectures" designed for "graduates, teacher, and other competent persons.

فلما عاد أخوه هنرى فجأة إلى كمبرديج فى نهاية أبريل سنة ١٨٧٠، فإن معظم الذين كان يراسلهم من قبل أصبحوا - إبان السنوات القليلة القادمة - جيرانه أو أعضاء من أسرته مقيمين معه فى عقر داره. ومن ثم فإن الرسالات التى حررها فى تلك الفترة تعطى سجلا ناقصا جدا يزودنا بأحداث تلك المرحلة المهمة. ولقد كانت مرحلة خطيرة الشأن فعلا، لأنها تميزت ببلوغ الدرك الأسفل من كآبة چيمس وكساده وبدايات تحسنه الدائم وانتهاضه. ثمة خطوات ثلاث إلى الأمام واضحة المعالم والتحديد كل على حدة، على الرغم من الذبذبات والتأرجحات المتضمنة فيها والأقل بروزًا:

١- الأزمة الروحية لسنة ١٨٧٠.

٢- بدء احترامه لمهنة التعليم سنة ١٨٧٢.

٣- زواجه فى سنة ١٨٧٨.

ولست أقصد بأزمة چيمس الروحية الإشارة بصفة خاصة إلى تلك النوبة الحادة من داء السوداء، التى وصفها بنفسه فى الجزء الخاص بسيرة حياته فى كتاب أنواع الخبرة الدينية (The Varieties of Religious Experience)[٢] ولا يمكن تحديد تاريخ تلك الخبرة بالضبط، وربما يكون قد تعرض لها فى أى وقت بين عودته من أوربا والتحسن النهائى لصحته فى سنة ١٨٧٢ . على أنها كانت من الأعراض الدالة على حالة الوسوسة وضعف الأعصاب التى انتابته فى أثناء تلك السنوات، والتى أسهمت فى فهمه للتصوف الدينى وللعقلية المسوودة. ولكنها كانت تقبضا مرضيا لا أزمة روحية. على أن الأزمة الروحية الجوهرية كانت انحسارا من إرادة الحياة الذى استبد به لافتقاره إلى فلسفة للحياة يعيش وفقها، والذى تجلى فى نوع من الشلل فى التصرف والأداء مرده إلى إحساس طاغ بالعقم الأخلاقى. وفى اليوم الأول من فبراير سنة ١٨٧٠، سجل چيمس فى مذكراته اليومية ثبات رأيه على الإقرار بسمو الأخلاق وسيادتها :

---

(2) cf. below, 363.

« اليوم. كدت ألمس القاع وأدرك بوضوح أنه ينبغى علىَّ أن أواجه الاختيار بعينين مفتوحتين: هل أطرح المسألة الأخلاقية بصراحة وأضرب بها عرض الحائط على اعتبار أنها لا تتلاءم مع استعداداتى الفطرية، أم أتبعها وأمضى فى طريقها – فى طريقها وحدها – جاعلا من كل شىء آخر مجرد مادة حشو لها فحسب؟ على كل حال سأعطى الاختيار الثانى فرصة عادلة للتمحيص والاختبار. ومن يدرى، لعل الاهتمام الخلقي ينمو ويربو ويصبح متطورا، حتى الآن لقد حاولت أن أضرم نفسى بالاهتمام الخلقى وبالمصلحة الأخلاقية، بوصفها عاملاً مساعداً فى بلوغ غايات نفعية معينة».

بيد أن المشكلة الشخصية لم تحسم بعد، لأن صاحب الورع الأخلاقى قد يساق إلى اليأس بوجود الشر :

« هل فى وسع المرء – بمعرفة كاملة وبإخلاص – أن يروِّض نفسه على أن يرق بكل عواطفه لسبيل الكون بأكمله، وبكل جوارحه وقلبه، بحيث يرضى بالشر الذى يبدو فطريا ووليد ذاته فى تفاصيله؟ هل العقل سيال ومرن إلى هذا الحد من الصفاء والنقاوة ؟ إذا كان ذلك فالتفاؤل ممكن. أم، من جهة أخرى هل المصالح الخاصة والعواطف الشخصية للفرد لازمة وجوهرية لوجوده بحيث لا يمكن أبدا التهامها فى شعوره حيال السبيل الكلية؟ وهل الفرد – مع ذلك – يشتهى عاتبا نوعا من الوفاق أو الوحدة على نحو ما؟ إن التشاؤم فى هذه الحالة لابد أن يكون من نصيبه. ولكن – كما هى الحال فى هومر – إذا كان عالم منقسم مفهوما يمكن لعقله أن يطمئن إليه، وفى نفس الوقت تكون عنده من قوة الإرادة ما فيها الكفاية لكى يواجه حقيقة « كل من عليها فان » دون أن تطرف له عين، ففى وسعه أن عندئذ أن يحيا الحياة الأخلاقية. إن وجودا محاربا مجاهدا، توضع فيه الذات بوصفها عنصراً أحادى الذرات غايتها الخير وعزاؤها الأخير الوحيد هو المقت الذى لا يقبل المصالحة ولا المسالة، على الرغم من الشر يذبحنى، فإنه لا يستطيع أن يغلبنى على أمرى أو يجعلنى أعبده . إن القوة الوحشية كلها تحت تصرف الشر، ولكن الاحتجاج النهائى لروحى وهو يعتصرنى من الوجود عصرا ويستل أنفاسى – لا يزال يمنحنى – فى معنى معين اليد العليا »[٣].

وبعبارة أخرى إذا آثر المرء اختيار البديل «الأخلاقى»، سواء اتخذ ذلك شكل أمل فى قهر الشر، أو عقد النية على الموت ببسالة، ففى كلتا الحالتين يحتاج المرء إلى « قوة الإرادة » التى تنبع من الإيمان بحريتها.

(3) From loose sheets cut from a notebook, apparently of the same date as the Diary.

ولقد كان ذلك هو ما استقاه چيمس من تشارلز رينوفيير كما سجله فى مذكراته اليومية بتاريخ ٣٠ أبريل سنة ١٨٧٠:

« أعتقد أن الأمس كان أزمة فى حياتى. لقد أتممت قراءة الجزء الأول من محاولات (Essais) رينوفيير الثانية، ولست أرى سببا يدعو إلى دفع تفسير للإرادة الحرة على اعتبار أنها « دعم فكرة ومساندتها، لأنى أريد ذلك بمحض اختيارى فى الوقت الذى تكون فيه لدى أفكار أخرى » بأنه تفسير واهم غرّار، وعلى أية حال فسأفترض مؤقتا – حتى السنة المقبلة – أنه ليس بوهم ولا خداع، أن أول عمل لى من أعمال الإرادة الحرة هو أننى سأومن بالإرادة الحرة »[4].

ومن ثم، شعر چيمس بأن الشكوك القديمة التى ساورته بددتها بصيرة جديدة وثورية. ومن المهم ملاحظة أمرين، الأول: حقيقة أنه مارس أزمة شخصية لم يمكن تخفيف حدتها إلا ببصيرة فلسفية، والثانى: الكيف المعين بالذات للفلسفة التى يتطلبها مرض روحه كبلسم شاف. على أن مجرد حقيقة كونه قد مارس مثل تلك الخبرة على الإطلاق، كفيل بحد ذاته أن يزودنا بأحسن برهان ممكن على نزعة عقل چيمس الفلسفية. لقد ظل سنوات كثيرة يفكر ويتأمل ويتدبر فى طبيعة الكون وفى مصير الإنسان. وعلى الرغم من أن المشكلة نشّطت حب استطلاعه وخلبت لبه. فإنها فى نفس الوقت كانت مشكلة حيوية جوهرية. لقد كان يبحث عن حل لا يستند فى الدفاع عنه إلى أحكام المعايير العلمية فحسب، ولكنه يكون فى نفس الوقت موافقا ومناسبا بما فيه الكفاية للحياة فى كنفه. فالفلسفة عند چيمس، لم تكن أبدا مجرد بحث عن الحقيقة فى عزلة خالية من الغرض، بله أن تكون ترفا أو ضربا من اللهو والتسلية، وإنما كانت سعيا دائما وبحثا دائبا حصيلته موضع رجاء ومناط خشية روح – على المحك – وفى انتظار قضائها. صحيح أن مركز جاذبية سعيه الفلسفى اختلف باختلاف مزاجه وحالته النفسية والصحية. ففى فترات قوته وفورته كان يستطيب إطلاق العنان لقواه التأملية ومواهبه النقدية. وفى أثناء المدد الطويلة من الإنتاجية الناشطة بهمة وعزم

---

(4) L.W.J., I, 147..

أصبح – مثله كمثل أى باحثٍ ساع واع – مهتما ببعض المشاكل المعينة فى حد ذاتها، ولكن وراء ذلك كله كان هنالك شىء يعيد توكيد نفسه مع كل تعمق جديد من التأمل، شىء حاسم فى تقرير النغم الكلى وتحديد الاتجاه لحياته الفلسفية، ألا وهو مطابقته الفلسفة على العقيدة الشخصية. ففلسفته لم تكن أبدا مجرد نظرية، وإنما كانت دائما مجموعة وثيقة التركيب من المعتقدات التى وفقت بينه وبين الحياة، والتى نادى بها ودعا إليها كما يبشر صاحب الدعوة بسبيل الخلاص.

وإنه لجدير بالتنويه، من ثم، أن چيمس كان يتطلب فلسفة لخلاصه ونجاته. ولا تقل عن ذلك أهمية وفحوى الكيف المعين بالذات للفلسفة التى كانت تحتاج إليها روحه المعينة بالذات. فبالنسبة لمزاجه ونزعته ما كان يمكن لحيلة التسليم والإذعان أن تكون أبدا أكثر من محذر مؤقت، ولقد كان عميق الإنسية لدرجة تحول بينه وبين أن يجد سلواه فى السماء أو جنة المأوى. وكان حساسا جداً لدرجة تعصمه من تجاهل الشر، وخلقيا جدا لدرجة تحول بينه وبين التسامح معه وتحمله، وحمسا وحميا جدا إلى حد يحول بينه وبين تقبل الشر بوصفه أمراً محتماً لا مناص منه. لقد كان التفاؤل عنده مستحيلا كالتشاؤم سواء بسواء. وما كان فى وسع أية فلسفة أن توافقه إذا كانت لا تعترف صراحة وبإخلاص بالأقدار والخطوات المبهمة المريبة للجنس البشرى، وتشجعه باعتباره فرداً أخلاقياً على أن يشد سلاحه ويشمر عن ساعد الجد ويمضى قدما إلى المعركة. وبعبارة أخرى، فإنه لكى يشفى من ضعفه ويبرأ من عجزه، كان يحتاج إلى دواء الرجل القوى. ولقد كان رجلا قويا – أدركه الضعف والوهن – رجل عمل أقعده العجز والضعف الجسمانى عن العمل، رجلا لا يسيغ أى تعاليم تدعو إلى الركون وإلى الدعة وإيثار العافية، أو تدعو إلى التملص والهروب والمراوغة – فما كانت تلك تعاليم مقبولة ولا شهية ولا مغذية.

ولكن ما دواء الرجل القوى المشعشع لكى يلائم حالته المعجزة؟ بشرى الإيمان. لأن الإيمان عمل، وهو عمل من نوع معين لا يعفى حتى الرجل المريض من الوفاء به. والإيمان قد يكون العمل هو غايته. وكونك تعتقد – نتيجة لتصرف من عمل الإرادة –

فى فاعلية واقتدار الإرادة، فذلك إنجيل يلائم سجية العمل، ومن الممكن الإفادة منه لكى يعيد للمحارب السقيم لبوس الحرب وسربال الجهاد. لقد كانت أزمة أبريل سنة ١٨٧٠، نقطة تحول، ولكنها لم تكن دواء ولا علاجا. لقد كانت هناك أمامه سنوات عديدة ظل طريقه طوالها محفوفا بالمصاعب وإن كان خط سيره يمضى صعدا بالتدريج. وعلى الرغم من كل الإقرارات الدالة على العكس، فإن عقل چيمس كان عقلا ناشطا بلا توقف.

وفى اليوم السابع عشر من ديسمبر سنة ١٨٧٠، كتب إلى توم وارد:

« لقد أسفت لأننى لم أرك ثانية قبل عودتك. إن الحديث معك ثبت عزمى على البحث فى الرياضيات وإتمام النظر فيها - ليس الآن طبعا - ولكن إذا قدر لى أن أصبح قادرا على الدراسة. وفى غضون ذلك أحب أن أضع خطة للمشروع، لذلك أرجوك أن تكتب لى برنامجا للدراسة الرياضية وقائمة بالكتب التى يتعين علىَّ دراستها وبأى ترتيب أدرسها بادئًا بالهندسة التحليلية واللوغاريتمات ».

هذا نعت مميز لكلا مثابرة چيمس وكده الذى لا يكل، واعتقاده المخلص بأنه ما كان ينجز شيئا. وفى أثناء تلك السنوات من الكتب والإحساس بالإحباط قرأ چيمس كثيرا وبنهم كمية كبيرة من الكتب، كما كان ذلك شأنه دائمًا. وكان يقرأ قراءة هادفة مثمرة، إذ لديه مقدرة فائقة جدا على الالتقاط السريع والكشف العاجل لما عسى أن يكون فى كتاب أو مقال من مادة لائقة يضع يده عليها. ثم إنه لم ينفذ قراره بهجر الدراسة. وظل محتفظا بشغفه الحيوى بالفسيولوجيا، واستمر يرنو ببصره فى لهفة وشوق - وأحيانا فى أمل ورجاء - حيال هذا الاتجاه. وفى أثناء قراءته كان يفكر، وكلما فكر - كتب - كتب صفحات كثيرة من التحليل والجدل عائدا مرارًا وتكرارًا إلى المشاكل التى حيَّرته وأعيته.

وفى أثناء سنة ١٨٧١، استأنف چيمس - تدريجيا - دراساته العلمية، ورحب بتحمس وشوق لافتتاح بوديتش الرسمى لمحاضرات الفسيولوجيا التجريبية فى مدرسة الطب فى خريف تلك السنة. ولقد كان شتاء (١٨٧٢-١٨٧٣) فصلا مهمًا فى حياته يستحق الذكر بسبب حادثين بالغى الأهمية والدلالة :

١- بدء تراسل چيمس مع رينوفيير.

٢- وبدء حياته معلماً .

فأما علاقته مع رينوفيير فسنرجئ الكلام عنها الآن لكى نعود إليها فيما بعد، وأما بدء حياته باعتباره معلماً، فأول حقيقة فى هذا الصدد هى: أن ارتباطه وتعهده باحتراف التعليم بدأ فى أبريل سنة ١٨٧٢، عندما تلقى وقبل عرضا غير رسمى من هارفارد. وفى شهر أغسطس عين معلما للفسيولوجيا لكى يقوم بتدريسها فى العام التالى مشتركا بالزمالة مع أستاذ الترشيح، الدكتور تيموثى دوايت، وكان هذا المقرر اختياريا للطلاب فى كلية هارفارد تحت اسم «التشريح المقارن والفسيولوجيا»، وهكذا. وأخيرا. وبعد تأجيلات طال أمدها، وشكوك وحيرة وعدم تثبت كثيرة - دخل چيمس وقد بلغ سن الثلاثين الحياة المهنية التى قدر له أن يكرس نفسه لها، من ثم، زهاء خمسة وثلاثين عاما. فأما أنه يكون معلما وعالما باحثا فقد كان ذلك الآن، أمرا مقضيا ومستقرا، وأما ماذا ينبغى عليه أن يعلم ويبحث فقد كان ذلك - لا يزال - عرضة للتغيير. كانت الفسيولوجيا وعلم النفس والفلسفة، كلها تجذبه وتقول له « هيت لك ». ولقد انتهى به الأمر إلى تدريسها جميعها مبتدئا بالفسيولوجيا، لا لأن شغفه بها كان أعظم، ولكن لأن الفرصة الأولى واتته فى هذا الميدان. وكان على الفلسفة وعلم النفس أن ينتظرا يومهما، ولم يكن ذلك اليوم ببعيد. وعلاوة على ذلك فإن المواد الثلاث كانت متداخلة بعضهما بعضاً. فالتشريح المقارن والفسيولوجيا كانتا تفضيان عن طريق مفهوم التطور إلى فلسفة الطبيعة، وفسيولوجية الإنسان إلى علم النفس، فى حين أن علم النفس - كما عرفه چيمس - كان يتلمس تفسيره السببى عند الفسيولوجيا، وكان يبحث عن مضامينه العميقة فى نظرية للمعرفة والميتافيزيقيا.

وكان چيمس معلما صالحا بسبب ما فيه من نزعة وسليقة باعتباره رجلا وليس بسبب أية طريقة معينة اتخذها عامدا. كان فى قاعة الدرس - تماما كما هو فى أى مكان آخر. بنفس صفاته ونزعاته، لا يتقيد بنظام رتيب، فوارة حية تنعش كل ما حولها ومن حولها، شخصية جذابة أسرة لا سبيل إلى مقاومة جاذبيتها وسحرها الفتان. ولقد زعم

بعضهم أحيانا أن چيمس باعتباره أستاذًا - كان طائرًا حبيسا فى قفص، تواقا إلى أن يحلق فى السماء السابعة، ولكنه رهين محبس واجباته الأكاديمية وما تفرضه عليه من قيود الحذلقة والعمل النمطى المطرد النسق. ولكنه كان يعتبره أمرا فى المرتبة الأولى من الأهميـة، أنه ينبـغى على الرجل أن يكون له جـدول مـحـدد من العـمل والمسئولية، ولقد وصف هذا الدواء للآخرين وآمن بفاعليته بالنسبة لنفسه، ولقد كان - علاوة على ذلك - رجلا تواقا إلى سماع الحقيقة التى يعتقد أنها كانت فيه، ولقد زودته مهنة التعليم بما كان (بالنسبة له) المطلع الاجتماعى الذى لا غنى عنه لاختياره اللوذعى لدعوته فى الحياة. كان يتمتع بطلابه ويحبهم وينعشهم ويدفع بهم قدما، وأحيانا كان ينتهرهم ويعنفهم. كل ذلك ساعد على استنفاد طاقته. وكان حلول شهر يونيه، يجده عادة كليلا منهوك القوى راغبا فى الخلاص من تلك الأعباء.

وقبيل نهاية حياته فى المهنة عندما كان يناضل ضد المرض الذى قضى عليه آخر الأمر، ابتهج طربا لخلاصه الدائم من النير الذى ناء بحمله خمسة وثلاثين عاما. ولكنه بصفة عامة - كان فيما يتعلق بعمله باعتباره معلمًا كما هو شأنه فى أى شىء آخر - سرعان ما يضيق صدره ويتبرم بأى عمل يؤديه، وبنفس القوة سرعان ما يفتقده ويهفو إليه عندما يكف عنه.

وحتى الأمل المنظور فى احتراف مهنة التعليم، كان له تأثير نافع مباشر على صحة چيمس. ففى مايو سنة ١٨٧٢، كان أخوه هنرى قد سافر ثانية إلى الخارج، ومن ثم استؤنف تبادل الرسائل الأخوية:

سكاربورو ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٢

« هنرى الحبيب :

تسلمت رسالتك التى بعثت بها من جرندلوالد وميرنجن منذ عشرة أيام تقريبا فى اللحظة التى كنت فيها على وشك الذهاب للمرة الثانية إلى « جبل الصحراء Mt Desert» ... لقد جئت إلى هنا بالسيارة مساء الأمس من بورتلاند، حيث لم أستطع أن أقاوم إغراء التوقف هنا والاستمتاع بثلاثة حمامات فى البحر. وسأعود يوم الإثنين. إن الشاطئ يلمع ويتلألأ مثلما كان فى سالف العصر. إنه

رائع حقا ونفيس. والغابة بهيجة حتى بعد جبل الصحراء ... إننى أكتب لك فى الردهة الصغيرة المواجهة للمكتب. إن هدير أمواج الشاطئ الصخرى وزمجرتها الموصولة تنساب من خلال النافذة المفتوحة بحملها النسيم اللذيذ المرطب بأملاح البحر عبر الشاطئ المرصع بأشجار الصفصاف المتهدلة متخطيا السهل والجبل. أما أشجار القسطل الصغيرة العجدية اللون فما زالت كعهدك بها لم تكبر ولا إصبعا ، والبقرة ذات الوجه الملوح ما زالت تقرض الحشيش الأخضر والسماء الواسعة والبحر الفسيح يبضان بالضياء الرخيم النشوان. كل شيء كما كان وكما سيكون.

إنى لأغبطك كثيرا على ما ستراه فى إيطاليا، وأغبطك أكثر على ما تراه الآن، ما رأيته فى سويسرا. وعلى الرغم من أن الطبيعة - بالقياس إلى جوهرها - واحدة فى كل مكان، وكثير من التجعدات العصبية التى كانت فى عقلى عندما غادرت كامبردج فى يوليو قد ملستها وصقلتها - بنعومة وبرقة - التأثيرات الحلوة العذبة لاستلقائى مرارا وتكرارا على قمة جبل الصحراء والسماء والبحر والجزر أمامى، وكذلك التجديف فى البحر أكثر من مرة، وركوب السفينة بضع مرات، وحمام البحر والقيلولة فوق الرمل الساخن هذا الصباح. ولكنى مع ذلك كله أحسدك على عالم الفن الذى تعيش فى رحابه. فبعيدا عنه، كما نعيش، فإننا نغرق فى نوع من النفاق وضرب من الوغى المداهن، ونتغمس فى غفلة شبيهة بسهو النعامة عن أغلى وأثمن ما لدينا من إمكانات، ثم نصاب بالجفول والذعر عندما يلطمنا بذلة - مصادفة - عمل فنى إنسانى سخى تصويرى أو أدبى أو معمارى. إننى أشعر أكثر وأكثر كما لو كان ينبغى علىَّ أن أتعلم الرسم بالألوان المائية، ولكنى أكسل من أن أبدأ. إن رسائلك إلى مجلة الأم (The Nation) [5]، والتى لم يقدر لى أن أرى منها إلا ثلاثا، كانت رائعة شائقة جدا. ولقد وجدت فيها أنا وغيرى نبعا من الإنعاش والترطيب. بيد أن المرء كلما أصبح أكثر تذوقا وكلما راض نفسه على رقة الإدراك ورقة اللمسة الأدبية، سواء فى الشعر أم فى النثر، فإن المرء يجد أيضا أن ثمة عدداً قليلاً جداً من الناس من يقدره ويرق له وينعطف إليه. وأحسب علاوة على ذلك أن الكتابة الوصفية، ليست على الإجمال من النوع الرائج المألوف لدى الجمهور. ثم إن نزعتك الخاصة تجنح أكثر فأكثر إلى المبالغة فى التدقيق والتمحيص وإحكام الصنعة. تذكر أنه فى الكتابة الصحفية، فإن المعالجة الأوسع والأفسح تصيب أهدافا أوسع وأفسح ، وأولى بك أن تظل محافظا على تلك الطريقة ما استطعت إلى ذلك سبيلا، ودون أن ترهق نفسك من أمرك عسرا. وأحسب أن ترقيط أعمدة الصحيفة بتحليلات لخصائص الطبيعة البشرية، سيرقشها ترقيشا مستحسنا. ولعلك

(5) The reference is to a series of communications on the places of interest which he visited, reprinted afterwards in Transatlantic Sketches.

تريد أن أزودك بوصف لحالتي. فأما عيناى فتعملان لمدة من ثلاث ساعات إلى أربع ساعات يوميا. ولا أريد في هذه الإجازة أن أستخدمهما أكثر من ذلك - إلا نادرا - ولكنى واثق أنهما ستستجيبان لى إذا طلبت منهما المزيد. وأما أعراض أمراضى الأخرى، فإنها تعدل نفسها بالتدريج، إن تعيينى فى وظيفة معلم للفسيولوجيا عطية غير منتظرة فى غاية التوفيق، وخاصة الآن. فهى تهيئ لى حافزاً خارجيا للعمل، ومع ذلك لا تتطلب منى جهدا يرهقنى، وتتيح لى التعامل مع الناس بدلاً من مجرد التعامل مع عقلى، ثم إنها تصرفنى عن تلك الدراسات التأملية الباطنية التى أفضت بى فى المدة الأخيرة إلى ضرب من الوسواس الفلسفى، لا ريب أنه من الخير لى أن أكف عنه عاما أو بعض عام.

من أخيك المحب دائما

« و. ج. »

كمبريدج ١٠ أكتوبر سنة ١٨٧٢

« عزيزى هارى :

أحب أن أستهل رسالتى بأن أقول لك: ما أطيب رسائلك التى بعثت بها إلى الوطن والأسرة، وما أزخرها بالمعلومات - التى لم تترك - فى الحقيقة شيئًا لمستزيد. أما رسائلك إلى مجلة الأمة (The Nation) فقد شحت جدا، وإن كانت على قلتها مصدر متعة كبيرة لى، ولعدد كبير غيرى من الناس ازداد لدرجة أعترف أنها كانت مبعث دهشتى، لأننى حسبت أن الأسلوب لا يخلو من شيء غير قليل من التعقيد والنحويات التى لا تلائم العقل المتوسط. أو بصفة عامة قارئ الصحف العادى. وفى رأيى أن ما ينبغى عليك أن تربيه وتغرسه من الآن فصاعدا هو استقامة الأسلوب. فأما الرقة والكياسة والحذق والبراعة واللوذعية، فهذه جميعا ستتكفل بنفسها .. لقد ران علىَّ فى المدة الأخيرة نوع من السأم والبرم والارتياب فى نشاطى الفلسفى، وما أنفقت فيه من جهد، لدرجة جعلتنى أندم كثيراً وآسى على أننى لم أثابر على الرسم وألزمه، وأحسد أمثالك ممن يجدون فى العلاقات الجمالية للأشياء عالمهم الحقيقى. إنها يقينا تكشف بعدا من أبعاد الحياة الكونية فى شمولها، أعمق مما تكشفه كل التجريدات الآلية والمنطقية. ولو كنت مكانك لما تضجرت أبدا من أن حياتى دارت فى فلك تلك العلاقات وألقيت فى كنفها بدلا من أن تحط رحالها فى مجال آخر ... ولا أدرى أين ولا كيف تصل هذه الرسالة إليك، ولكنى أحسب أنك تؤثر البقاء فى إنجلترا بعض الوقت قبل أن تعود إلى الجنوب. ما أسعدك من وغد. أمل أن تحمد نصيبك الذى هيأ لك أن تقضى الشتاء فى بيئة تترك أعمق بصماتها على كل حاسة وجارحة فيك، وتثير كوامن شغفك واهتمامك، بدلا من هذه الأمريكا الخاوية العريانة، وفى جو ، على الرغم من مبلغ قرس بردانه فإنه - بصفة عامة -

لا يتدخل فى شئونك على نحو لا يفكر جوّنا اللعين أبدا فى أن يفعله، ثم إنه برىء من الرياح الشمالية الغربية، وما أدراك ماهيه؟ .

محبك الدائم

« و . چيمس »

كمبريدج ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٧٢

« عزيزى هارى :

من بين الناس الذين بينهم وبين قصصك ما يمكن تسميته بالنفور الشخصى، فإن معظمهم سيشمئزون من العنصر الذى يتجلى فى (بعض) العبارات، عنصر فيه برودة وقشعريرة ، أسل الدم خنزيزى عنيد يفلت بغتة ويطل فجأة بحيث يجمد التيار اللطيف ويحيل أنسه إلى وحشة. وفى رأيى أن ذلك هو العيب الرئيسى الذى يتعين عليك الآن أن تقى نفسك من مغبته. فأما فى مرونة الأسلوب ويسره وخفة قوته، فإنك بلا ريب تمضى قدما ونموك فى اطراد واضح. إننى أوجه إليك كثيرا من سهام النقد، بحيث قد أبدو مجرد مكابر ومماحك، ولكنى أعتقد أنه مما يعود عليك بالفائدة أن تتلقى نقداً تفصيلياً حتى من حكم خاطئ، ثم إنك لا تتلقى كثيرا من النقد على أية حال من أى امرئ آخر. واسمح مؤقتا لى ألا أقول شيئا عن الطرب العظيم الذى تبعثه كل قطعك فى نفسى، بما فيها من بصيرة ونفاذ فى ظلال الكون، وبما تزخر به من تعبير نفيس ومنطوق شائق وإحساس بالجمال ...

قضى وندل هولمز ليلة معنا هنا فى نهاية الأسبوع، ولقد ركز نفسه أكثر وأكثر فى القانون، بحيث احتل كل وعيه وسعيه. إن عقله يشبه اللولب الجاثىء الذى يتطلب اختطافا عنيفا، والذى - فى كل لحظة تتركه لنفسه - سرعان ما يعود سيرته الأولى مشدودا مطبوقا.

تشارلز بيرسى وحرمه سيذهبان إلى واشنطن ثانية مدة الشتاء. وربما ليقيما هناك بصفة دائمة . إنه يقول إنه يلقى هناك تقديرا واحتراما، فى حين أنه هنا يحتمل فحسب، وأنه يعتبر نفسه غبيا أحمق إذا لم يذهب إلى هناك. ولقد قرأ علينا منذ أيام قلائل مقدمة كتابه عن المنطق. إننى أذهب إلى مدرسة الطب كل صباح تقريبا لأستمع إلى محاضرات بوديتش أو لأبربط فى معمله. إنه لشىء رفيع يسمو بالروح المعنوية للمرء أن يكون لديه عمل مسئول يؤديه. إننى أتمتع جدا بقراءاتى الفسيولوجية التى بعثت بعد موتها، ولقد شعرت بتحسن - فى المعنى الجسمانى، طوال الأسابيع الأربعة أو الخمسة الأخيرة، بدرجة تفوق كل أيامى الماضية منذ تركتنا.

المحب دائما

« و. ج. »

(١٤)

تشـونسـى رايـت وتشـارلـز بـيـرس

لما كتب چيمس مقدمة مؤلفه «مبادئ علم النفس»، سجل اعترافه بالجميل والمنة لما أسداه إليه تشونسى رايت وتشارلز بيرس بفضل «زمالتهما الفكرية فيما سلف من الزمان». وكلا هذين الصديقين من أصدقاء الصبا - مثل هولمز ووارد - كان ذا نزعة عقلية ارتيابية مدققة، وبالتعرض لنقدهما أصبحت ميتافزيقية چيمس النابتة أصلب عودا.

ولقد قال چيمس عن تشونسى رايت «إن أحسن عمل أنجزه كان فى الحديث». وكان أستاذا صاحب مكانة مرموقة فى دائرة أصدقائه فى كمبريدج لا بسبب أى عمل إيجابى أنجزه وإنما بسبب ما لديه « من قوة العارضة ومنطقه التحليلى التقى البسيط » فحسب[١]. وفى سنة ١٨٦٥، عندما كان چيمس يعانى من علة الاشتياق إلى الوطن وعلة الحنين الفكرى إبان وجوده فى البرازيل، كتب يقول: « ليتنى أستطيع أن أستمع - ولو ليلة واحدة - إلى تشونسى رايت وهو يتفلسف »[٢].

---

(1) W.J., "Chauncey Wright, " in C.E.R, 20, 21. Wright's literary remains were edited and published by C.E. Norton in I 877 under the title of Philosophical Discussions. A volume of his letters (including correspondence with Darwin) was edited and published by James Bradley Thayer in I 878, under the title of Letters of Chauncey Wright, Wright was favorabley Known in England, especially in the Darwinian circle.

(2) C.f above, 75.

وفى أثناء العقد الذى تلا تلك الفترة حتى موته فى سنة ١٨٧٥، كان رايت صديقا حميما لأسرة چيمس، وكثيرا ما كان يحاور الوالد والابن على طريقة سقراط. فأما بالنسبة لوليام فقد كان بطلا جبارا وفارسا مناضلا فى حلبة النقاش، بحيث إن التغلب عليه فى الجدل كان يعطيه لذة خاصة: مثلما حدث عندما كتب فى سنة ١٨٧٢ مزهوا بنشوة الانتصار إلى عمته وأخته فى أوربا يقول: « تشونسى رايت الجبار الذى يرقد الآن بين ذراعى لا حول له ولا طول كالوليد الأليف (بالنسبة لمفهومه عن الكون)»[٣].

أما فيما يتعلق بعلاقات رايت بوليام چيمس، فقد أحدث فيه أولا تأثيرا نافذا وطويل الأمد فى تفكيره وتعبيره على السواء. كان چيمس كثيرا ما يبدأ ملاحظاته بقوله: « على حد تعبير تشونسى رايت ». ذلك أن رايت مثل بيرس كانت لديه تلك الجرأة فى الأفكار التى كانت دائما تجذب چيمس، ثم إنها كانت غالبا مقرونة بالعبارة الموفقة السارة. وكان چيمس يعتبره أستاذا ضليعا فى ميدان التفكير العلمى ويتقبل آراءه على اعتبار أنه حجة مبينة فى الدعوة إلى الأهداف والطرائق العلمية. وإلى حد ما - مثل جيفريز وايمان - كان يمثل المثل الأعلى للمزاج العلمى: فهو متحفظ وغير شخصى وشديد التدقيق (حنبلى). وكان يمثل شخصيا وبقوة النزعة المعاصرة للتفكير العلمى التى تتخذ شكلاً تجريبيا ووصفيا لا ميتافيزيقيا. ولقد تقبل چيمس هذا التأول التالى للعلم: « إن النظام المادى للطبيعة، إذا أخذ ببساطة، كما يعرفه العلم، لا يمكن حسبانه من حيث هو، كاشفا عن أى مقصد أحادى روحى متناغم «ولكنه» مجرد جو كونى كما سمّاه تشونسى رايت - فى حالة تفاعل موصول - ترتيبا وتفككا دون نهاية »[٤].

---

(3)To A.J. and Mrs. Walsh, May 30, I 872.

(4) W.B., 52. Wright's notiin of "cosmical weather" can be found in Philosophical Discussions, Ic, 23.

على أن الوفاق بين الاثنين تجاوز إلى ما وراء ذلك .

كان رايت من أشد المتشبثين بالفلسفة التجريبية، وليس ثمة أدنى ريب فى أنه أيد نفس الاتجاه لدى چيمس. وفكرة رايت بأن العلاقات المنظمة للأشياء وفئاتها المنسقة لا تتطلب أى تفسير، حيث إنها لا تتضمن شيئًا مدهشًا أو غير طبيعى، هذه الفكرة ترتبط ارتباطا وثيقا بفكرة چيمس بأن صلات الأشياء وعلاقاتها لا تعطى وتؤدى دون الأشياء نفسها[٥].

ولقد كان كل من رايت وچيمس على استعداد لتقبل صدع من القدرية التى لا تجبر فى الوجود، شىء لا يرد لأصله ولا جدوى ولا فحوى من المضى فى تقصيه. لقد كان الاثنان - بالاختصار - تجريبيين. ولقد أسهمت مقالة رايت « تطور الوعى بالذات » - التى نشرت فى سنة ١٨٧٣ فى تكوين وجهة نظر چيمس عن الدور البيولوجى للتفكير، والتى عرضها فى مقالته عن « الفكر البهيمى والإنسانى » التى نشرت فى سنة ١٨٧٨، ثم ضمنها بعد ذلك كتابه مبادئ علم النفس فى الفصل الخاص « بالتفكر » .

وأخيراً عندنا شهادة چيمس بأنه لم يدرك المذهب النفعى « دون ظهير » وإنما بتأثير ومؤازرة تشونسى رايت على الرغم من « رد فعله المضاد » ضد تعاليمه المضادة للدين[٦]. وعن طريق رايت كان چيمس مدينا لچون ستيوارات ميل بفضل حسن تفهمه وفقهه لنظرية « النفعية » على نحو يحررها مما علق بها من شوائب سوء السمعة، ومن ثم أعانه على أن يدركها على أنها فلسفة تتضمن « أسمى الحوافز التى يمكن أن تتألف منها سعادة الفرد »[٧].

---

(5) Cf. C.B.R., 234.

(6) Monist, XIX (1909), I56.

(7) Wriht, op. cit., 418. (٧)

ولكن . بعد أن يقال كل ذلك – تبقى مع ذلك حقيقة لا تقل صحة عن كل تلك الأسانيد – وهى أن رايت بالنسبة لچيمس كان خصما فلسفيا. والسبب طبعًا رابض فى « تعاليمه المضادة للدين » ونبذه لحقوق الميتافيزيقا. فبالنسبة لوليام چيمس ولأبيه أيضا كان رايت الشارح الموصل للفلسفة الوضعية (الذى يبحث فى الظواهر دون الأسباب) بكل مضامينها السلبية . وثمة بينة على أن چيمس فى السنوات (١٨٦٨-١٨٧٠) شايع تلك المدرسة الفكرية مشايعة وقتية شرطية. ولقد ظل يعتبر رايت مثالا لذلك الشح الفكرى الذى يحصر نفسه فى وصف الظواهر دون عللها. « لم يسبق أبدا فى رأس بشرى، أن كان التأمل معزولا عن الرغبة أكثر مما كان فى رأس رايت ».

وبعد كر سنين عديدة، كان چيمس يذكره «باعتباره صديقه القديم الصلب الدماغ تشونسى رايت، رفيق الصبا العظيم تجربى هارفارد» الذى اعتاد أن يقول: « وراء الحقائق الظاهرية المجردة، لا يوجد أى شىء »[8].

ولكن قبل سنة ١٨٧٥، كان چيمس قد وضع الوضعيين فى فئة أولئك الذين لكونهم غير واعين بالاهتمامات الذاتية (على سبيل الاقتصاد فى التفكير) والذين هم أنفسهم يتحركون بدوافعها، رفضوا الاعتراف بالتفضيلات المخالفة. ولكن – المضارعة – للآخرين. ولقد عزا چيمس ما فى رايت من شح فكرى إلى « عيب فى الجزء الناشط أو النازع من طبيعته العقلية[9]. وقصد عمدا بمبحثه فى « الدوافع التى تفضى بالناس إلى التفلسف » أن يقدم الدليل على أن الوضعية ضيقة حاصرة وتعسفية على السواء .

فإذا قارنا بين تأثير هولمز وتأثير رايت على چيمس، وجدنا أن تأثير هولمز كان تأثيرا خلقيا وشخصيا أجيجًا إثر أجيجًا من زمالة الصبا، فى حين أن تأثير رأيت كان

(8)C.E.r., 23; Pragm., 269.

(9) C.E.R., 24.

بصفة رئيسية ضربا من التحدى والمناهضة والإثارة. يشعر به چيمس فى المرحلة الأولية من تفكيره . فأما تشارلز س. بيرس فقد جمع فى تأثيره على چيمس بين النوعين من التأثير مضافا إليهما تأثيرات أخرى لا سبيل إلى حصرها. ولم يكن بيرس يكبر چيمس إلا بثلاثة أعوام فقط، ولكنه كان تخرج - سابقا - فى كلية هارفارد سنة ١٨٥٩، فى الوقت الذى كان فيه چيمس ما زال منهمكا فى خبراته التربوية التمهيدية فى الخارج. وعندما قابل چيمس لأول مرة ابن الأستاذ بيرس « الأنيق » ولكن «المستقل العنيف» كانا زميلين فى دراسة الكيمياء فى مدرسة لورانس للعلوم(١٠)، بيد أن بيرس كان بصدد تسلم شهادة دالة على ختام الدرس، فى حين أن چيمس كان لا يزال يحبو على أولى عتبات السلم. وبالإضافة إلى كون بيرس عالما مدربا، فقد أظهر علامات نبوغ وعبقرية، إذ على الرغم من أنه كان لا يزال غير معروف فى الدوائر الفلسفية الواسعة فى أمريكا، عندما قدمه چيمس فى سنة ١٨٩٨، على اعتباره مؤسس البراجماتية، فإن نزعته الابتداعية وما يبشر به من عظمة كانت دائما موضع تقدير واعتراف زملائه المقربين .

وفى باكورة العقد السبعين (١٨٧٠) كان چيمس وبيرس، وكذلك رايت أعضاء فى جماعة صغيرة تألفت ابتغاء المناقشة الفلسفية. ولقد وصفها بيرس نفسه على النحو التالى:

« كان ذلك فى باكورة العقد السابع (١٨٧٠) - عندما اعتادت زمرة منا نحن الشباب فى كامبردج العتيدة - وسمّينا أنفسنا على سبيل السخرية وعلى سبيل التحدى، « النادى الميتافيزيقى » لأن مذهب اللاأدرية كان عندئذ فى أوج رواجه، وكان ينظر بازدراء شديد إلى كل الميتافيزيقات - اعتادت أن تلتقى - أحيانا فى غرفة مكتبى وأحيانا عند وليام چيمس. ولعل بعض حلفائنا القدامى فى العصابة لن يحفلوا اليوم بأن يذاع على الملأ أننا كنا فى شهوات الشباب، على الرغم من أن كل نصيبنا من شهوات الشباب لم يكن سوى الشوفان المسلوق واللبن والسكر فى كل ورطة على المائدة المشتركة. فأما المستر چيمس هولمز فأعتقد أنه لن يسوءه أن نقول إننا فخورون بأن نتذكر عضويته، وكذلك العالم الموقر چوزيف وارنر. ولقد كان نيكولا سانت چون جيرين من أكثر الزملاء الأعضاء اهتماما وشغفا، وهو محام ماهر ضليع فى مادته، وأحد حواريمى جيرمى بنتام. ثم تشونسى رايت

(10) CF. above, 69.

الذى كان شيئًا فلسفيا مذكورا فى تلك الأيام، وفيلسوفا ذائع الصيت ، والذى لم يتغيب أبدا عن اجتماعاتنا. وكنت على وشك أن أسميه « المايسترو » قائد الأوركسترا، ولكنه خليق بأن يوصف أستاذنا فى الملاكمة الذى اعتدنا – وخصوصا أنا – أن نواجه لكماته ولطماته القاسية مرارا وتكرارا. وكان قد نبذ تعلقه السابق بالمذهب الهاملتونى لكى يألف مبادئ ميل ويأنس بها، التى كان يحاول أن يلحم فيها – وفى قريبها المشابه مذهب اللا إداريه – أفكار داروين المناقضة لها حقا. وكان چون فيسكه وفرانسيس إلبنجوود أبوت يحضران أحيانا، وإن كانت زيارات الأخير متباعدة ونادرة – ويعيران محييهما لشد أزر روح محاولاتنا، بينا يترفعان عن أى استصواب أو قبول لنجاحها. وكان رايت وچيمس وأنا من رجال العلم، نجنح إلى تقصى مذاهب الميتافيزيقيين وتحرى مبادئهم من جانبها العلمى بدلا من جحدهم والتبرؤ منهم على اعتبار أنهم فى غاية الخطورة روحيا. وكان نسقنا فى التفكير – حتما – على النمط البريطانى. وكنت وأنا وحدى من بين كل زمرتنا الذى دخل بيدر الفلسفة من مدخل كانت، وحتى أفكارى اكتسبت النبرة الإنجليزية »[11].

أما عن انطباعه الخاص فقد كتب بيرس إلى وليام فى اليوم السادس عشر من ديسمبر سنة ١٨٧٥ يقول :

« إننى أرى أخاك كثيرا. إنه امرؤ رائع، وأنا معجب به إعجابا عظيما، ولم أكتشف فيه إلا عيبين فقط: العيب الأول هو؛ أنه لا يملك معدة نعامة فى هضمها وطحنها، والعيب الثانى هو أنه ليس مشغوفا مثلى بالتحول عن الأسئلة، وإنما يحب أن يبت فيها ويفرغ من أمرها إلى غير رجعة. إنها سجية فيها نخوة وشهامة، ولكنها ليست سجية فلسفية».

والرسالة الآتية تختتم تلك الفترة المبكرة من صلة الود الوثيقة. وهى تكشف عن باطن ذلك الخيال أو الطيف الذى كان هنرى چيمس وهو فى باريس قد تأمله من الخارج :

---

(11) From a paper (circa I906) published for the first time in Vol. V, 8 12, of the Collected Papers of C.S. Perice, ed. by C. Hartshorne and P. Weiss, Harvard University Press, 1934. Joseph B. Warner, Harvard" 69, a Boston lawyer and lifelong friend of the James family, died in 1923. Green graduated from the Harvard Law School in I853. He was present at Chauncey Wright's deathbed and survived him only one year. F.E. Abbot (I836-1903), a classmate of Perce, was for one year (1887-8) an instructor of philospohy at Harvard, but spent mosat of his life as a private scholar and writer in than subiject.

فندق بريفورت - نيويورك أول مايو سنة ١٨٧٧

« عزيزى ويلى :

إننى على وشك الرحيل ولقد اضطررت للمجىء هنا لقضاء الليلة. تصور مدى استيائى وأنا أقرأ فى صحيفة الهيرالد هذا الصباح، أن البروفسور ت.س. بيرس، الأستاذ بكلية هارفارد مقيم فى بريفورت. وبصفة خاصة لأننى أكاد أخجل من إيثارى الإقامة فى بريفورت. ولكنى اعتدت الحضور إلى هنا سنوات كثيرة لدرجة أننى معروف شخصيا عند كل نادل وخادم فى الفندق، بحيث أجد نفسى وكأننى فى بيتى. هذا الفندق تؤمه طبقة من الناس من النوع الذى فى غاية الامتثال « كما ينبغى أن يكون » ولكنهم ليسوا فى دائرة عملى. وبطريقة غير محسوسة اتشحت بنوع من القنزحة هنا، والتى آمل ألا تكون لدى فى أى مكان آخر، ضربا من الاختيال الهادف لأن يقول : « أنت امرؤ لا جناح عليك - فى حالك وفى طريقك - أما من أنت فلست أعرف ولا يهمنى أن أعرف. ولكنى أنا - كما تعرف - المستر بيرس صاحب الشهرة وذيوع الصيت بسبب منجزاتى العلمية المتنوعة العديدة، وفوق كل شىء بسبب تواضعى الشديد الذى يحدونى إلى تحدى العالم ». وأنا ألاحظ أن المرء إذا تحرى الدقة تماما فلن يجد امرأ واحدا خاليا من القنزحة كليا - إلا نادرا - فى تلك القلة النادرة الخالية من القنزحة، فإن ما فيهم من جفاف ويبوسة يثير النفور والاستنكاف.

المطلوب: مقال عن الذوق السليم فى القنزحة . لم تقل لى كيف حال الوالد وبقية الأسرة. لقد تسلمت أخيرا رسالة من هـ. چيمس الصغير.

محبك

« ت . س . ب »

على أن بيرس لم يحتل مكانا مهمًا فحسب - ولعله المكان الأول - فى تاريخ البراجماتية، وإنما أثر تأثيرا عظيما فى ميتافيزيقيات چيمس النهائية. ومما لا ريب فيه أن الاختلافات الشخصية والمزاجية بين الرجلين، اختلافات صارخة. كان چيمس بالغريزة والسليقة مثلما كان بالتنشئة والخبرة مهيأ للمخالطة الاجتماعية متكيفا للأخذ والعطاء، وعلى الرغم من ميوله العصبية ونزعات الوسوسة المتأصلة فيه، وعلى الرغم من مشغولياته الفكرية كان رجل دنيا، فى حين أن بيرس كان مبلبلا قلقا ذا مزاج متقلب متردد، ووجد من الصعوبة بمكان وبشكل آخذ فى الازدياد كلما مضت به الحياة، أن يخالط زملاءه وأنداده وأترابه ويشاركهم اجتماعيا. ثم إن چيمس أيضا كان متوانيا فى

الهجوم على غيره أو الإساءة إليه، موسعا دائما للناس من حرج، معفيا إياهم من الشك بسليقة الأريحية التى تعد الناس أبرياء رغم الاشتباه فيما يقولون أو يفعلون، فى حين أن بيرس كان وعقا سريع الغضب، ميالا إلى الارتياب فى الناس. ومن ثم فإن چيمس كان رجلا يكاد يكون مفرطا فى تواضعه وخفض جناحه وتقديره للغيرة، فى حين أن بيرس كان يجنح منحدرا إلى الغطرسة والتعاظم.

فالفروق بين الرجلين كانت فروقا فكرية وخلقية فى نفس الوقت. فبيرس كان بالسليقة والاستعداد والتدريب من أنصار الحقائق العلمية المضبوطة الدقيقة، حيث يتسنى للمرء أن يتيقن على سبيل الجزم، وحيث يعتبر عدم الدقة أو الصحة أم الكبائر، فى حين أن چيمس كان يأنس بالأدب وعلم النفس والميتافيزيقيا، أنس المرء بين أهله وعشيرته من دون كلفة، وحيث تكون الدقة والصحة اللتان لا يأتيهما الخطأ من بين أيديهما ولا من خلفهما من قبيل الادعاء والحذلقة، وحيث تعوض العاطفة والمشاركة الوجدانية والبصيرة والخصوبة النفسية ورقة الشعور ما عساه أن يفتقد من دقة وصحة وضبط. ومن الأقوال الشائعة، أن چيمس لم يفهم بيرس، ولقد صرح چيمس نفسه بهذا القول ووافقه بيرس على ذلك. ومن المفترض بصفة عامة أن بيرس فهم چيمس، ولكن ينبغى التنويه فى هذا الصدد بأن چيمس نادرا ما زعم أنه فهم أى إنسان، فى حين أن من خصائص بيرس المميزة لشخصيته أنه كان يشعر بأنه يفهم كل شخص، وأن فهمه لكل شخص ينفذ إلى صميم الصميم.

فالفرق بين الرجلين، فرق لافت للنظر جدا، بحيث يحسن إغفال كلام الاثنين فى هذه المسألة. وفى نفس الوقت نضع نصب أعيننا أن الشعور بفهم أو إساءة فهم مذهب أو مبدأ ما، يعكس درجة توقع المرء ورجائه.

كان چيمس - عادة - يتوقع كثيرا ويؤمل عظيما، ولكنه كان يحتاج إلى وقت طويل قبل أن يستطيع الشعور بالثقة بأن إخفاقه أو عجزه عن رؤية الضوء كان مرده إلى حقيقة عدم وجود أى ضوء مطلقا. أما عند بيرس فقد كان ذلك فرضا طبيعيا ويسيرا.

وإلى هذا ينبغى أن يضاف أن چيمس كان تواقا جدا وبكل حماسة إلى أن يفهم، فى حين أن بيرس كان أحيانا يتعمد أن يكون غامضا، إما عابثا أو بخبث.

وفى نفس الوقت ينبغى أن نسلم بأن چيمس كان - نسبيا - به قصور فى المنوال الشكلى أو الرمزى للتعبير[١٢]، والذى كان بيرس يعتبره - بصفته رياضيا ومنطقيا مدربا - ذروة الوضوح. وقبيل ختام حياته سجل بيرس آراءه فى صديقه القديم بشىء من الإسهاب، على وتيرة من المفاجأة التلقائية للأيام السالفة، وبطريقته المميزة فى إدماج العاطفة والتحليل. وبعد أن أشار إلى عجز چيمس - الذى يكاد يكون لا نظير له عن التفكير الرياضى المقرون بالكره الشديد للمنطق - مضى يقول :

« بعد دراسة وليام چيمس من الناحية الفكرية زهاء نصف قرن - لأننى لم أتعرف إليه وهو صبى - حق علىّ أن أشهد أننى أعتقد أنه - وقد كان دائما طوال معرفتى به - محبًا كامل للحقيقة بقدر ما فى وسع المرء أن يكونه، وأحسب أنه لا يوجد أى حد معين أو نهائى لقدرة المرء على حب الحق والسعى فى طلبه ...

وفى معرض الحديث عن وليام چيمس من الزاوية التى أتناولها، فإننى أقول أعظم ما فى وسعى أن أقوله عن الخلق الفكرى لأى إنسان، ولم يكن هذا الخلق العظيم سوى جزء واحد من تاج كامل من الفضائل. وعلى الرغم من أن ما سأقوله يعتبر خارجا هنا عن الموضوع كلية (وأرجو أن يغفر لى القارئ استطرادى على هذا النحو من النقطة قيد البحث، فإننى أفتقر حقا إلى ضبط النفس الذى يمكننى من كبح تأملاتى بمجرد أن أذكر اسمه). فعلى الرغم من أن محاضراته كانت مطربة، فإنها لم تظهر أبدا أحسن ما فيه. ولقد كان مسلكه العادى الارتجالى هو المسئول عن ذلك، ونتيجة

---

(12) In The Famouse essay "How ATomake ourei deas".

لكمال آدابه وذوقه، حيث كان متحررا على نحو تام من الملق أو الإطراء أو النفاق أو أى تعبير آخر زائف أو لا يليق بالمناسبة. ولم يكن يعبر عن نفسه بسهولة، إذ كان بينه وبين الفصاحة تنافر روحى، وكان المنطق يثقل عليه ويبهظه. كان المرء منا دائما يشعر بأن القلم الرصاص لا القلم الحبر هو الرافعة التى كان ينبغى عليه أن يحرك بها العالم. ومع ذلك لا. لم تكن قشور الأشياء وخارجها، وإنما لبابها وروحها هى التى كان فى وسعه أن يصورها.

ولقد كان فهمه للناس - إلى صميم صميمهم - مدهشا إلى أقصى درجة. من، مثلا، كان أكثر اختلافا عنه فى الطبيعة منى أنا؟ كان هو فى غاية التماسك والحيوية، فى حين أننى لم أكن سوى فهرس أو قائمة محتويات، فى غاية التجريد وغاية التعقيد النافر. ومع ذلك ففى حياتى كلها لم أعرف أى روح قادرة على الفهم والاحتواء - طبيعيا - أفضل منه (لا) بالقياس إلى مفاهيمى، ولكن فيما يتعلق بالدافع الأصلى لحياتى. وكان فى تطبيقه لعلم النفس أعظم منه فى نظرياته »[١٣].

وحقيقة كون چيمس كان أكثر تأثرا ببيرس فى باكورة صلاتهما مما كان بيرس متأثرا به، حقيقة مقررة فيما أعتقد لا سبيل إلى دحضها. فلقد كان بيرس « الصاحب الأرشد » الذى خلص دارس العلم الصغير من سحر هربرت سبنسر. ومن المعلوم أن چيمس الذى ما قام أبدا برحلة فى آفاق الفكر ولو ليوم واحد دون أن يلقى فيها شخصا ما، والذى سجل تلك المقابلات، كتب كثيرا من أقوال بيرس منذ عهد يرجع إلى باكورة سنة ١٨٦٢. وكان تأثيرهما المتعادل مثل فهمهما المتبادل، إلى حد كبير، نتيجة لا مناص منها لاختلافهما فى المزاج. كان بيرس أكثر اكتفاء بذاته باعتباره مفكراً، فى حين أن چيمس كان رجلا يغذى عقله بالمخالطة الاجتماعية وبالتقبل الجزئى المؤقت لحشد من الأفكار التى كان وجدانه الملبى يجد فيها شيئا ذا قيمة.

كان عقل چيمس كريما مضيافا، وفى نفس الوقت مبذرا ومسرفا على السواء، أكثر من صاحبه، وفى حين أن قصده أو جهة وصوله لم تكن أقل ثباتا وتوطيدا من

---

(13) From "A Sketch of Logical Criticism". Collected Papers of C.S. Peirce, Vol. VI.

قصد بيرس أو جهة وصوله، إلا أنه وصل إليها بطرق أكثر انحرافا ومروقا، وكثيرا ما اضطر إلى الوقوف كثيرا - ضالا - زائغا على مساره الموصول.

وثمة نواح ثلاث كان فيها چيمس آخذا وحافظا لتأثير بيرس فى السبعينيات والثمانينيات. فأولا كان يستطيب جرأة بيرس فى التفكير وقلة وقاره الفكرى التى تصل إلى درجة الوقاحة، وكان يستسيغ طريقته الصفيقة القليلة الحياء فى عدم الاكتراث بالعقائد الفلسفية والمعلومات الاعتيادية التى تواضع الناس عليها. فالابتداع عند چيمس كان دائما له سحر لا يقاوم. وثانيا لقد غذى بيرس وشجع فى چيمس تبرمه وسخطه على مجرد الحصيلة المرجفة الحماسية للتجريبية. فأيا ما كان الاهتمام أو التركيز الذى يضعه التجريبى على ما يعرض على الحواس، فينبغى ألا يغفل ترابطات الأشياء وصلاتها فيما بينها، وألا يهمل شأن عنصر البداهة فى الحكم وسمو موضوع المعرفة بما يفوق العقل. ولم يسمح بيرس أبدا، الذى كان يحتقر الحس، بأن يتغاضى چيمس عن تلك الاعتبارات. ولقد تميزت تجريبية چيمس بأنها وضعت تلك الاعتبارات حيث ينبغى لها أن توضع. وأخيرا فإن بيرس مثل چيمس كان مهتما بطبيعة الشك والاعتقاد. ولقد عالجت مقالات بيرس التى نشرت عام ١٨٦٨، موضوع الشك وعالجت مقالاته التى نشرت عام ١٨٧٨، موضوع الاعتقاد. ولا يوجد شىء أكثر تعارضا مع مذهب بيرس القاضى بالاعتقاد المعين قبلا بالحقيقة والموافقة الاجتماعية، من إباحة چيمس للتفصيل الانفعالى. ولكن من الأهمية بمكان أنه فى وقت مبكر يرجع إلى سنة ١٨٦٨، نجد أن كلا الفيلسوفين - بيرس وچيمس - أحدهما لدواع نظرية والآخر بصفة أولية لأسباب شخصية ودينية، مهتمان بنفس المشكلة، وأن كليهما كان مستعداً سواء بسواء من أجل حلها وحسمها بصرف النظر عن الحدود القائمة بين الفلسفة وعلم النفس. وبسبب هذا الاهتمام - إلى حد كبير - وجد چيمس بيرس ليس فقط « شخصية مشوقة بنوع غريب »[١٤]، وإنما أيضا لائقة وسديدة وموافقة.

---

(14) Of. above, 112.

(١٥)

الاستتباب فى مهنة

على الرغم من الهواجس والوساوس المعتادة التى خامرت چيمس وأفضى بها إلى أخيه فى رسائله، فإنه بدأ تدريسه « للتشريح المقارن والفسيولوجى » فى يناير سنة ١٨٧٣ . ولم يكن ثمة شك فى نجاحه استنادا إلى وجهة نظره هو وإلى حكم طلابه. وثمة انطباعات أبوية سجلت فى رسائل إلى هارى:

كمبريدج ١٤ يناير سنة ١٨٧٣

« ويلى ماض فى تعليمه. لقد دقت الساعة الحادية عشرة فى هذه اللحظة، وهو الآن واقف على منصته يفسر أسرار الفسيولوجيا ويشرح ألغازها. وهو ينهك نفسه من حين لآخر بالزيارات وبكل ما يلحق بها مثل الجدل حول « Middlemarch » (أواسط مارس) وغيره من الموضوعات العابرة، ولكنه على العموم على خير ما يرام. وهو كثيرا ما يتحدث عنك. وطبعا كلنا نفعل ذلك ولكنه هو غالبا جدا الذى يستهل الحديث عنك. ولا حاجة بى إلى القول بأنه يتحدث عنك دائما بكل رقة وتقدير ومحبة إلى أقصى درجة. نعم نحن جميعا نكن لك أعمق الحب وأرق الود، أيها العزيز هارى، ولعل أكثرنا فى ذلك هو أبوك المحب.

« هـ . ج. »

كمبريدج ٢١ يناير سنة ١٨٧٣

« ويلى يعود من درسه ويلقى بنفسه على المقعد الأخضر الكبير فى ضوء الشمس الدافئة الفسيحة، فأقول له: « ماذا سأقول لهارى؟ » فيجيب « قل له إنه كان فى مرجوى أن أكتب له منذ زمن طويل، ولكننى الآن لا أستطيع أن أقول متى سيكون فى وسعى ذلك ».

أعتقد أنه يجد فى دروسه التى يلقيها كل ما فى وسعه. إن الجزء العقلى سهل جدا، ولكن الأمر كله يبهظ أعصابه الضعيفة ويفرض عليها ضريبة فادحة. وفى مرجوى أن العادة والخبرة كفيلتان بإخماد هذ الإرهاق. وهو يشكو من الأخلاق الفظة الجافة للشباب بصفة عامة، وإن قليلا منهم من تلوح عليه مخايل الذكاء أو يبدى اهتماما وشغفا بالعلم، وعلى أية حال فهو يقر بوجود تلك القلة. ولا جدال فى أن ذلك من الخبرات المعتادة المألوفة لدى أساتذة الكليات. أذكر أن المستر جورنى قال ذات مرة: «قل لوليام إنه، يجب عليه أن يتأكد من أنه لن يتوقع شيئا من الشبان الصغار».

« أملك المحبة »

وفى اليوم العاشر من فبراير سنة ١٨٧٣، كتب الفقرة التالية فى مذكراته اليومية:

« اليوم عزمت على أن أثابر على البيولوجيا باعتبارها مهنة إذا لم أطلب لشغل كرسى الفلسفة. بدلا من أن أحاول كسب نفس القدر من المال بالأعمال الأدبية، مع الاستمرار فى متابعة ثقافة عامة أو دراسة فلسفية. على أننى مع ذلك سأظل أعتبر الفلسفة مهنتى المختارة وحرفتى، ولن أترك أية فرصة تفلت من يدى دون أن أنال منها صفقة ».

لقد صرفه عمله باعتباره معلم عن الاستبطان المسئود فى فحص ذاته، وخلصه رينوفيير من الإحساس بالعجز من جراء الحتمية الفلسفية. لقد وجد لديه عملاً فى الدنيا يتطلب الإنجاز، وفى وسعه أن يأخذه على عاتقه بقلب سليم، حيث إنه أصبح يعتقد الآن بفاعليته وجدواه. ثم إن رينوفيير كان قد ساعد على تقليم أظافر العلم بحيث يمكن استئناسه وتدجينه دون تعريض الروح للخطر.

والرسالة التالية من والده إلى هنرى تلخص مجمل تقدم چيمس:

١٨ مارس (١٨٧٣)[1].

ويلى موفق فى تعليمه يسبح فيه كالإوزة. وطلابه (٥٧) يزهون بحظهم الموفق فى أن يتتلمذوا على مثل هذا الأستاذ. وأكبر الظن بل أقوى اليقين أن حلقة طلابه ستزيد اتساعا فى السنة القادمة، منجذبة إلى شهرته وبُعد صيته. لقد دخل المنزل عصر أحد الأيام، عندما كنت جالسا وحدى، وبعد أن

---

(1) Published in part in N.S.B., 264, and L.W.J. I, 169-70.

زرع أرض الغرفة جيئة وذهابا بكل حيوية وانتعاش لبرهة، صاح قائلا: « يا سلام ! ما أبعد الفرق بيني الآن وبيني في الربيع الماضي في مثل هذا الوقت، حينما كنت عندئذ مصابا بالوسوسة إلى حد الاكتئاب. (ولقد استعمل كلمة وسواس ربما في صيغة اسم موصوف) والآن أشعر أن عقلي صفا وراق وعاد إلى السلامة. إنه الفرق بين الموت والحياة » واستمر يتدفق فياضا بأفكاره، وخشيت أن أتدخل في تدفقه أو أكبح جماحه. ولكني غامرت بأن أسأله عما يعزى إليه بصفة خاصة -- في رأيه - فضل هذا التغيير والدفع به قدما. ولقد عزا التغيير إلى أمور كثيرة: عزاه إلى قراءة رينوفيير (خصوصا تزكيته لحرية الإرادة)، وعزاه إلى قراءة وردزورث الذي ما برح يتغذى عليه منذ مدة، ثم بصفة خاصة إلى هجره فكرة، أن كل اختلال عقلي لابد أن يكون منشؤه اعتلالا جسمانيًا. ولقد ثبت بطلان هذا الفرض تماما بالنسبة له. لقد اتضح له - في نفسه - أن العقل أدى وظيفته فعلا بصرف النظر عن القسر المادي، ومن ثم يمكن معاملته رأسا بلا وساطة، وكان ذلك بردًا وسلامًا عليه. ولقد كان اعترافه هذا جليلاً وباهرًا. وعلى الرغم من أنني كنت أعرف أن التغيير قد حدث من علامات محققة معصومة من الغلط، فإنني لم أكن في حياتي أبدا أكثر سرورا وطربا كما كنت عندئذ وأنا أسمع ذلك على لسانه دون أي تحفظ مطلقا. ولقد بدأ في الآونة الأخيرة ينفض احترامه رجال العلم المجرد في معناه الضيق، بل لقد أصبح أكثر عالمية وإنصافًا في أحكامه العقلية مما عرفت فيه من قبل على الإطلاق.

وداعا يا محبوبي هاري. إن الكلمات عاجزة عن أن تعبر لك عن مدى معزتك في قلبي، ومدى زهوي وفخري بطيبتك وصدقك، ومدى سعادتي بالوصف الذي يخلعه عليك المستر أرنولد « تعقلك العذب ». حقا إنني والد سعيد ومعترف بالجميل لقاء كل مرة أتذكرك فيها.

محبك دائما

« هـ . ج . »

وبعد أسابيع قليلة عندما عرض عليه إليوت تجديد تعيينه لتعليم البيولوجيا توطئة لتثبيته على الدوام، فإن أول خاطر دار بخلده كان هو الرفض:

كمبريدج ٦ إبريل سنة ١٨٧٣

« عزيزي هاري:

إنني ألتقط قلمي مرة أخرى بعد تلك الفترة الطويلة لكي أتحدث إلى أخي الذي أعتبره توأم نفسي من وجوه كثيرة. إننا لم نسمع منك شيئا لمدة أسبوعين، وكلنا نتوقع بلهفة رسالة تصل منك اليوم تصف فيها مباهج حسية جديدة وألوانا من الترف والمتعة، عسى أن يكون جسمي وروحك قد

تمرغا فيها وانغمسا. إن آليس وأنا نحتفظ دائما بنار المزاح والهزل متقدة، وأنت الذى تزودنا بوقودها. فأما هى فلا تتحدث عنك إلا بكلمة « ذلك الملاك » وأنا - بكل سخرية أدعوك « الملاك - البطل - الشهيد ». وعادة قبيل وقت النوم أطوف بغرفة الجلوس، حيث أجد الثلاثة جالسين وأقول : « أحسب أن ذلك الملاك يفعل الآن كذا وكذا »، ثم يسعفنى خيالى بموقف شرقى جدا أتمثلك فيه لا تجد أليس ما ترد به على أحسن من حملة قذف على الأحقاد الحقيرة التى توسوس فى صدور الناس. أتمنى أن تطول وتطول قدرتك على التمتع بكل ما فى وسعك أن تغترف منه من مباهج ولذات . لقد فرغت لتوى من ثلاثة شهور من التعليم، تعقبها أربعة أسابيع عطلة قبل استئناف التعليم لمدة شهر ختامى. وقد تبينت أن هذه المهنة أصلب وأجمد مما توقعت، بالقياس إلى المجهود الذى تتطلبه لأدائها، وبالقياس إلى المعلومات التى نقلتها - على السواء . ولقد عرض على إليوت منذ أيام قلائل الاضطلاع بالقسم كله (أى هذا الشطر من الفسيولوجى مضافا إليه شطر دوايت الخاص بالتشريح) ابتداء من العام القادم. ولكنى أخبرته بأننى صممت على خوض المعركة إلى آخر أشواطها فى سلك العلوم العقلية، وأنه نظرا لمتأخراتى فى الوقت التى يتعين علىَّ اللحاق بها، ونظرا لما يتطلبه عملى الحالى من اقتضاب الجهد المبذول فى النواحى الأخرى، فليس فى وسعى أن أقوم بهذه الرحلة أو الحملة المطلوبة منى فى التشريح. ولقد اقتضى منى اتخاذ هذا القرار شيئا من الحيرة والبلبلة، إذ لو قدر لى أن أقبل ذلك العرض فربما يفضى بسهولة إلى وظيفة دائمة فى البيولوجيا قد أخلف فيها وايمان . ثم إن هذه الدراسة، وإن كانت غريبة بعد الشىء على ذوقى، فإن مزاياها أرجح فى ميزان الاعتبار.

بيد أنه سرعان ما غيَّر فكره مسجلا هذا القرار فى مذكراته اليومية بتاريخ ١٠ أبريل، ومبلغا إياها لأخيه بعد شهر من ذلك التاريخ. ولم يكن مرد ذلك أن شغفه بالفلسفة اعتراه الفتور، ولكن لكونه لم يكن واثقا من قوته على متابعته وتحمله، وخشى تأثيره على صحته :

« بالأمس أخبرت إليوت بقبولى تدريس التشريح فى العام القادم، إذا كانت حالتى الصحية ستسمح بتحمل العبء، وأننى ربما ألازم هذا القسم. ولقد انتهيت إلى ذلك القرار بصفة رئيسية لشعورى بأن النشاط الفلسفى باعتباره عملاً أو مهنة حياة ليس أمرا طبيعيًا بالنسبة لمعظم الناس ولا لى. فكونى أصبح مسئولا عن مفهوم كامل للأشياء، أمرًا فوق مقدور طاقتى. وجعْل قالب معين لكل تفكير ممكن - المادة الرئيسية المسيطرة على تفكير المرء - يسبب الوسواس. وطبعا سيظل أعمق اهتمامى مثلما كان دائما، منصبا على أكثر المشكلات عمومية. ولكن حيث إن حنينى الخلقى واشتهائى العقلى فى أقصى درجاتهما يتجهان إلى تلمس واقع راسخ ثابت أرتكز عليه. وحيث إن الفيلسوف المحترف

الذى يعترف به لابد أن يقطع على نفسه عهدا أمام الملأ أنه لم يسبق له أبدا الاكتفاء بالشك حيال تلك الموضوعات، ولكنه مستمد كل يوم لأن ينتقد من جديد، ويضع على المحك الأسس التى بني عليها عقيدة اليوم السابق، فإننى أخشى أن الإحساس الدائم بعدم الاستقرار الذى يولده مثل هذا الموقف سيكون أكثر مما فى وسع العقيدة الطوعية التى أستطيع الاحتفاظ بها، بحيث يكفى لعملية التحييد المطلوبة فى هذه السبيل . فأما الترجيح الذى آثرته فكفيل بأن يزودنى بواقع أستطيع أن أضيِّع فيه مسئوليتى. ثم إن الحقائق الملموسة التى تقع فى دائرتها مسئوليات عالم البيولوجيا تشكل أساسا راسخا وطيدا يستطيع أن يستند إليه ويطمح كما يحلو له، ابتغاء الظفر والغلبة على القضايا الكلية فى الوجود، عندما يكون تصافى المزاج والريح مواتية، ثم إنها أيضا تهيئ ركيزة يستطيع أن يطفو عليها بلا مقاومة ويجدف بسلام، متغلبا على تيارات الضعف والضيق والكرب التى يحملها مد الزمان وجزره، مسلما زمامه كل الوقت لقوى الطبيعة الخيرة، واثقا منها ثقة عمياء، مؤمنا بالفرج بعد الكرب وبعودة الفرص الأعلى والأحسن.

إن الفيلسوف رجل نبذ على الملأ حق وميزة الثقة العمياء والتسليم الإذعانى الذى هو حق مخول لكل إنسان بسيط، ثم إن بصرى ليس دائما حديدا بما فيه الكفاية للالتزام بمثل هذا الواجب الدائم. وطبعا فى وسعك أن تقول إن فى استطاعتك أن تجعل من علم النفس الخالص ركيزة على هذا النحو تماما، ولكن ذلك ليس كذلك، إذ لا يمكنك تطليق علم النفس من التأمل الباطنى. ومهما بلغ حجم العمل الهائل الذى يتطلب شقه الموضوعى الفسيولوجى البحت، فإن الشق الآخر هو الذى يتوقع منه أن يكون الأستاذ مسئولا عنه أمام الملأ.

وليس من الضرورى الهجوم على مشاكل الكون العامة بطريقة مباشرة، ومن حيث هى مشاكل شاملة فى صورتها المجردة. إننا نعمل على حلها فى كل يوم ، بالعيش وبحل بعض القضايا الصغرى الملموسة، وحسم بعض المسائل الثانوية المحسوسة، حيث إنها متضمنة فى كل شىء وداخلة فى كل أمر من الأمور. إن طريقة الطبيعة هى الصبر، وهى ذلك الإيمان المطمئن المستكن، والذى لا توتر فيه ولا ضغط ولا عصرا وإنما يبتسم مع نزر يسير من الشك الذى لا يقنط من تأجيل حل ما، على غرار الشك الذى أبداه جوته فى شعوره نحو الفلسفة والطبيعة، ومثل ذلك الإيمان ليس اتجاها خسيسا أو دنيئا، ولعله ينتمى إلى أسلوب يأخذ الحياة أخذا أوفر وأفسح وأبعد مدى فيما تبشر به من آمال مرجوة، من طريقة الهجوم الغائلة العاتية الحامية. إن غابات الطبيعة تدرك كلها عن طريق وسائل، ولعل أسلم طريقة لاكتشافها وكسبها هى اقتفاء أثرها بوساطة كل الوسائل ».

على أن چيمس على الرغم من تحسنه عقليًا، فإنه لم يكتسب بعد الجلد الجسمانى الكافى الذى يعينه على تحمل إجهاد التعليم المستمر. ويقبل آخر مايو ليجده مرة أخرى غارقا فى بحر من الشك يفكر فى القيام برحلة أخرى إلى أوربا. بيد أن

هذه المرة مقتنع بأن الصحة فى متناول يديه، أيسر مثالا وأقرب إدراكا، وأن فترة من الاستجمام كفيلة بأن تحرره إلى الأبد من ربقة مرضه المزمن. ثم إن الأبدال المهنية أيضا اختزلت الآن فى حيز ضيق يتمثل أمامه فى ممكنات محسوسة ملموسة، يشعر أنه كفء لأى منها، وأن صحته تسمح بها. ولما طلب المشورة من أخيه هنرى أوصاه بذهابه إلى روما نظرا « لمناخها المسكِّن المخدر» وملاهيها الاجتماعية المسلية و « لكونها ملائمة بصفة خاصة لمساعدة المرء على السلوى واجتياز محنة الوقت »(٢). ولقد عرض عليه بكل تحمس أن يرافقه هناك، إذا قدر له أن يحضر. بيد أن وليام چيمس متَّع نفسه أولا بإجازة أمريكية، وذاق فى حضرة الطبيعة الإطراء المميز، الذى اختص به والذى وصفه فى الرسالة التالية لأمه:

ماجنوليا (٨ يوليه ١٨٧٣)

لم يسبق أبدا أن حدث لى فى خمسة أيام مثل هذا التعثر فى المشاعر مثلما حدث فى الخمسة الماضية. ولقد بلغت مزايا هذا المكان أوجها بالأمس فى فترة كاملة من فرط السرور والطرب استمرت طوال بعد الظهر. لقد كانت فكرة عظيمة أن أخلف عملى ورائى لمدة ثلاثة أسابيع سيترتب عليها بلا شك أننى سأقبل عليه بعدئذ بشهية. ثم إن جلب العمل معى إلى هنا الآن كان من المؤكد سيفسد علىَّ كل بهاء هذا الاسترخاء العقلى الحر المتهاون الذى أنعم به الآن. لقد قضيت كل فترات الصباح وبعد الظهر فيما عدا صباح الأمس فقط ، فى الغابات والحقول والصخور، ونسيم الغابات ينفد إلى رئتى، ورائحة شجر الغار فى أنفى، وإيقاع أمواج الشاطئ الصخرى يسجع على أذنى، ثم الضوء الغامر الجميل أمام بصرى. إنها تمحو تجاعيدك وتزيل تغضناتك وتغسل أدرانك كلها فتعودين نظيفة نقية من جديد ممتلئة شجا، وفى غنى عما عساه أن يحدث لك فى المستقبل، فى حين أن وعيك بيوم عملك المادى يمتلئ وخامة ووبالا بالعزلة النكدة والخلوة الشكسة والمخاوف المنذرة بالشر. لست أدرى كيف يتسنى للناس أن يعيشوا دون شهر فى السنة من هذه الحياة الطبيعية، لأننا إذا أخذنا الجنس البشرى فى مجموعه، وجدنا أن الوجود فى الهواء الطلق والخلاء من يوم ليوم كان دائما الحياة الطبيعية، وحب هذه الحياة والحاجة إليها لهما جذور عميقة فى طبيعتنا.

أستودعك الله بحبك إلى الأبد

« و. ج . »

(2) H.1.[2] to W.J. June 19, 1873.

وفى ٢ سبتمبر كتب چيمس إلى أخيه :

« قضى الأمر ونفذ السهم. مرتب الستمائة دولار الشهرية يسكن فى جيب آخر. ولمدة عام أجد نفسى ثانية طافيًا على وجه الماء حرًا. إننى أشعر بجلال اللحظة وخشوعها، وأنه يجب على أن أبل من مرضى الآن أو أقر بعجزى. ويبدو، كما لو كان ذلك حتما مقضيًا على أيضا، لذلك توقع أن ألحق بك نحو أول نوفمبر ».

وفى شهر أكتوبر أبحر على السفينة إسبانيا حيث نزل فى ميناء كوينز تاون، ومن ثم مضى قدمًا على الفور إلى فلورنسا، ولم ير من لندن أو باريس إلا لمحات خاطفة فى طريق السفر. وفى الثامن والعشرين من نوفمبر وبصحبته أخوه، سافر من فرنسا إلى روما حيث ذاق مزيجا من الرهبة والنفور عبر عنها بأعنف حميا فى رسائله التى بعث بها إلى الوطن. وبينما كان لا يزال معجبًا بروعة روما وآثارها الخالدة الغنية، فإنه شعر باشمئزاز خلقى قوى حيال انحلالها. ووثنيتها وتشبثها بالتقاليد السلفية، اشمئزاز خلقى اعتقد أن أباه وحده هو القادر على الجهر به على نحو كاف واف. أما كون صحته كانت فى تحسن سريع فيظهر من رسالة بعث بها أخوه إلى أبيه بعد بضعة أسابيع قليلة.

روما ٢٢ ديسمبر ١٨٧٣

« والدى العزيز ».

لابد أن ويلى سيكتب لك عن نفسه ويحيطك علما – فيما أرجو – بما أصابه من تقدم مثلما يفعل معى كل يوم، وكما ينطق بأجلى بيان مظهره كله، وتشهد بذلك مآثره اليومية وأعماله الباهرة. إنه يبدو راضيا جدا بحالته، ومدركا لتحسنه الموصول الآخذ فى الازدياد. لقد دخل لتوه إلى غرفتى يطفح وجه بالصحة وينضح بالعافية، لكى يسألنى عما إذا كنت قد وجدت أية رسائل لدى موظفى البنك هذا الصباح، وليستفسر منى عن المكان الذى ينبغى عليه أن يقصده اليوم. فلما رآنى مكبا على الكتابة قال: « بلغهم حبى وأخبرهم أننى على خير ما يرام ». والواقع أنه فعلا على خير ما يرام وتقدمت صحته جدا، وهو يمشى ويصعد السلالم الرومانية، ويشاهد المناظر بطريقة تملؤنى بالسعادة والرضا إلى أقصى درجة . إن ويلى الذى خاب أمله فى روما فى أول الأمر، اتقدت جذوته الآن حماسة لها، ويعترف بسلطان تأثيرها الجليل. بيد أنه يتمتع بكل كآبة العاديات تحت احتجاج دائم يملؤنى سرورا بوصفه علامة على ازدياد التفاؤل والمرونة فى نزعته ومزاجه. أما حديثه – كما تتصورون –

عن كل الأمور، فهو حديث زاخر بالدسامة والحيوية إلى أقصى درجة. إن مشاعرى وإحساساتى ومداركى البليدة لا يمكنها أن تواكب حديثه. تقبل يا ولدى الحبيب والجميع خالص حب.

وإعزاز محبكم

« هـ . ج . »

واضطر وليام إلى مغادرة روما فى نهاية ديسمبر بسبب حمى الملاريا التى انتابته، فعاد إلى فلورنسا حيث لحق به أخوه فيما بعد. وبعد ذلك فى فبراير بدأ وليام رحلته ميمما شطر الوطن، ولكنه عرج فى الطريق أولاً على فلورنسا حيث بعث بالرسالة التالية لأخته:

١٣ فبراير ١٨٧٤

« محبوبتى الجميلة الصغيرة :

ودعت فلورنسا منذ ثلاثة أيام، وبنفس لذعات من الأسى على فراقها لأننى لم أنصفها وأوفيها حقها فى الشهر الأخير الذى قضيته فيها، من جراء مرض « الملاك » وانحراف مزاجى اللذين جعلانى فى حالة غير لائقة الاهتبال الفرص المتاحة أمامى. ولكن مدينة البندقية أقالتنى من عثرتى وأعادت إلىّ شهيتى ومقدرتى على مشاهدة المناظر والتجوال مرة أخرى. ثلاثة أيام متوالية وأنا أركب الجندول وأتفرس فى المناظر والصور تحت سماء صافية، وإن كان الهواء: ثقيلا كثيفا وخصوصا فى الأكاديمية حيث تتقل وطأة برده على الحراس. لم أر فى حياتى قبلا مثل هذه العظمة فى الرسم والنقش يلازمها مثل ذلك الانحلال والتسوس. لقد تسلقت عصر اليوم هضبة الكامبانيل، وشاهدت من فوقها منظرا فسر لى الكثير من فن البندقية . أعنى الضوء باعتباره واحدًا من أشخاص الرواية. فى حين أن الجندول يجعل المرء يفهم كيف أن الأشكال التى ترى من أسفل تجاه السماء، كانت تأتيهم بشكل طبيعى للغاية . وعلى وجه الإجمال فإن زيارتى كانت موفقة توفيقا عظيما. وغدا أرحل إلى ميونخ متلبثا فى فيرونا ست ساعات، وفى درسدن، على أن أقرر إذا ما كنت سأعود فى مارس أو لا، وهى خطوة ليس من الهين البت فى أمرها. وداعا يا طفلتى الحلوة.

أخوك المحب

« و . م . »

وفي مارس أبحر چيمس من بريمن عائدا إلى الوطن، والرسالة التالية إلى أخيه تمثل حالة عقله المألوفة المعتادة بعد عودته من أوربا مباشرة.

كمبريدج ١٨ أبريل سنة ١٨٧٤

أي ثرثرة من فلورنسا ما زال في وسعك أن تحيطني بها علما سأعبيها عبا وبشراهة، لأنني أشيع نحوها مثلما أشعر نحو مرتع طفولتنا، المباني العنيدة بظلال أشجارها الواردة في العصاري ... إلخ. ولا تحسبن أن الأمر منوط بسعادتي هنا، بل لعلني أكثر سعادة هنا مما كنت هناك، ولكني لكوني في طريق مستمر مما يبرهن إلى كيف أن فكرة الكل تسيطر على: اللحظات الجزئية المعنية بالنسبة لطرازنا من الشخصية. إن كل لحظاتي هنا أدنى من لحظاتي في إيطاليا، ولكنها أجزاء من منهاج طويل فيه خير ونفع وبر. ومن ثم فهي ترضي نفسي أكثر من اللحظات الإيطالية التي وجدت من أجل ذاتها. إنني أشعر بقوة وعافية - بشكل لم أعهده - منذ ثلاثة أسابيع تقريبا . ولقد أنجزت قدرا كبيرا من العمل في معمل بوديتش؛ إن إقامتي القصيرة في الخارج زودتني بشعور جديد عليّ ما اعتدت أنت أن تسميه ضيق حيز بوسطون وريفيتها، ولكن لا ضير في ذلك، إن ما يكدرني هو افتقار الناس إلى القوة والإقدام والإنصاف والاستقامة، وتقاعسهم واستكانتهم الفائقة الحد. وحذرهم وخبثهم ومكرهم وهيئة مشيتهم المتوقرة التي تتخذ سمة أولي النهى. وما هم بأولي نهى ولا ذوي عقول راجحة. ولعل ذلك مما يفت في عضدك. ولكني مع ذلك ما زالت سعيدا. وهذا يذكرني بموضوع عودتك الذي فكرت فيه كثيرا. فمما لا ريب فيه أن عيشك لن يكون صفوا لبعض الوقت هنا، ومما لا ريب فيه أيضا أن الزمن ... كفيل بعلاج جزء كبير من مصادر الكدر، وأنك سوف توافق « وتوزن » أنغام حواسك الخشنة (في الوقت الحاضر) لكي تخطف متعة منتهية من أسوار خشبية ووجوه تجاريه - وهي متعة لها مزيد من الإثارة والإمتاع لكونها تقتلع على هذا النحو من المراوغة والدهاء. هل أنت مستعد للمجادلة الفدائية ؟ هذه هي معضلتك: خفة ظل أوربا وملاءمتها من جانب، مضافة إليها صعوبة كسب عيشك كله من إنشاء الكتابة وشذوذ ذلك بالقياس إلى الصحة العقلية، أم كآبة أحوال الحياة الأمريكية ووحشة مضافة إليها مهنة أو عملاً آلي مطرد النسق من الممكن الحصول عليه - يؤدي من يوم لآخر - ويفرغ من أمره عندما يؤدي مقرونا بالكتابة التي تقطر فيها جوهرك.

وصفوة القول، لا تحضر إلا بعد أن تحسم أمرك وتبت في مصيرك ... فإذا حضرت فستكون أسوأ سنواتك هي الأعوام الأولى. وإذا آثرت البقاء فالسنون العجاف قد تكون هي الآخرة لا الأولى عندما لا يكون في وسعك أن تغير مجرى حياتك. وعندي ريب وهو، أنك إذا حضرت واستطعت أن

تتأقلم وتوطن نفسك على الحياة هنا، فإن ما ستكتبه سيكون أرقى وأجود مما يقدر لك أن تكتبه في أوربا . إنها لحظة في غاية الحرج من حياتك، ولكن أمامك شهورا عديدة للتروِّي قبل أن تبت في الأمر .

وداعا .

« و . ج . »

وثمة صورة حية لمناشط وليام وصلاته الشخصية في أثناء تلك الفترة – تنقلها إلينا الرسالة التالية إلى أخيه روبرتسون الذي كان يعيش آنذاك في مروج الجرو (Prai-rie du chien) – بولاية ويسكونسن.

كمبريدج ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٧٤

« لقد استقر بنا المقام لفترة الشتاء، وهاري في أطيب صحة حقا بادي الفرح لعودته. أما الحادث المهم الوحيد الذي يستحق التنويه فهو زواج أمرسون والآنسة كيز بالأمس في دار آل كيز. ولقد ذهبت إلى الحقل في عزبة احتل نصفها عدد من المدعوين من المدينة، منهم آل فوربز وعدد آخر من الأقارب. وكان اليوم دافئا مرذا كثير المطر الضعيف، بحيث أكسب الريف الأخضر رونقا وبهاء وزاده اخضرار وجمالا، وكان عقد القران شيئا بهيجا وسارا بالنسبة لي، لأنه أول عقد قران من نوعه أحضره في حياتي، باستثناء عقد قران العمة كيت وعقد قران وندل هولمز (الذي تم في كنيسة). وكل أصدقائي قد أصابتهم في المدة الأخيرة جانحة من الأفعال الحادة، ت.س. ميري، آلين جورني، جون لافارج، كلوفر آدمو ، وهلم جرا، للتحمس للزواج سرا لا عقلانية، حتى لا تدنس عين من عيون البشر الفاني الحفل – ولقد تقبلت ذلك باستسلام على اعتذار أنه الطريقة الوحيدة التي تليق بشخص « مثقف » يحترم نفسه. بيد أن حفل الأمس فتح عيني كلية، وعندما أتزوج فأوثر أن أحاط بحشد فرحان مفرح من الناس من حولي. لقد كان كل المدعوين في حفل الأمس من هالي كوتكورد – تلوح على محياهم تلك النظرة الفاضلة الواثقة التي تنم عن عشرة كونكورد– وكلهم كانوا يتنادون بأسمائهم الأولى في ألفة ومودة، وكنت تشعر بأن الرجال – وخصوصا النساء – الواقفين إلى جوارك – على الرغم من أنك لا تعرفهم – كانوا جديرين باحترامك . توم وارد كان موجودا بالحفل، والمس ليزى

سيمونز الشهيرة ذات الحس والجمال، وأسرة بارتلت كلها بوجوهها التى تشبه التفاح المشوى، والمستر أمرسون العجوز شاحبًا وهزيلاً وغير متوازن الجنبين أكثر من أى وقت مضى، وكان هناك أيضا المستر سانبورن الذى كان يسند نفسه بالتوكؤ بيده على السقف، والذى يبعث إليك وإلى ويلكى بسلامه واحترامه. وكل الناس يتذكرونك، وكثيرون منهم سألوا عنك أكثر مما فى وسعى أن أتذكر الآن – وأذكر لك منهم على سبيل المثال لا الحصر ، المس إليزابث هور، والمسز سيمونز. ولقد بدت إلين أمرسون فاتنة فى ثوب أبيض وشال كريشة بنفسجى فاتح، وكانت أديث فوربز حاضرة فى ثبات، فاخرة ومعها أطفالها الثلاثة الذين تبدو على وجوههم نضرة النعيم. على أن أكثر من سرتى كانت زوجة مالكولم فوربز الشابة، ذات الوجه المليح والصوت العذب والحديث الطلى الشهى الذكى. وكان إدوارد فى أحسن صحة، وسلك سلوكًا طيبًا، فى حين أن المس كيز التى أبلت لتوها من مرض عنيف « معضمة » جدا بادية الهزال، وعلى وجنتيها البارزتى العظام بقعتان قرمزيتان[3]. ولقد دعانى ويل فوربز للذهاب إلى فوشون لقضاء بضعة أيام فى نهاية الأسبوع، وسيكون إدوارد وزوجته هناك، وسيؤلف الجميع حملة لصيد الغزال. سأكتب لويلكى عن أنباء الصيد. صدقنى يا بوب العزيز إننى دائما – محبك.

« و . ج . »

(3) The Bride was Miss Annie Shepard Keyes, daughter of Judge John S. Leyes. Dr. Josiah Bartlett was the well-Known Concord physician. Miss Elizabeth Hoar sister of Judge Ebenezer R. Hoar, had been engaged to Charles Emeroson, who died a few months before themarriage was to take place. Mrs. George Francis Simmons was formerly Miss Mary Ripley of Concord and Miss Lizzie Simmons eas her daguhter. Mrs. Sanborn was the well-Known Frank B. Sanborn whose shose school the younger James boys had attended. Mrs. John Maicalm Forbes was the ormer Miss Sarah Jones,

(١٦)

استقرار فى الحياة

فى عامى ١٨٧٤، ١٨٧٥ استأنف چيمس عمله باعتباره معلمًا، مضطلعا هذه المرة اضطلاعا كاملا بمقرر « التاريخ الطبيعى ٣ » عن « التشريح المقارن وفسيولوجية الفقاريات » وهو المقرر الذى استمر يعطيه خمس سنوات متوالية. وبعد موت جيفريز وايمان فى سنة ١٨٧٤، خلفه چيمس مؤقتا فى الإشراف على معمل التشريح المقارن الذى كان وايمان قد أنشأه فى قاعة بويلستون. ولقد أزاحه أساتذة الكيمياء من هذا البناء فى سنة ١٨٧٥، وحلوا محله. وأنا مدين للبروفسور تشارلز لورنج جاكسون بالقصة التالية التى رواها عن زيارة قام بها چيمس إلى المعمل فى أثناء الخريف لكى ينقل من المعمل بعض المواد والعتاد اللذين كان قد خلفهما فيه :

« لقد عدت حالا من أوربا بعد سنتين، وفى معرض الحديث عن عملى قلت إننى ذات مرة عندما كنت أجرى تجاربى على نترات النشاء فى برلين، بدأ رجل إنجليزى كان معنا أيضا فى الرواق - يغنى ويضحك كما لو كان ثملا. وعندما حل المساء وجدت نفسى فى مثل حالته. واهتم چيمس بهذه الظاهرة اهتماما بالغا، وطلب أن يجرب بعضها على نفسه. وفى أول الأمر أمسك بالقارورة بعيدا عن أنفه وحرك البخار المنبعث منها نحوه، ولكن عندما كان جوابنا عن أسئلته المستمرة « هل وجهى يتزهزه؟» هو « كلا »، قرَّب القارورة من أنفه ثم وضع فوهتها أخيرا فى منخريه وتنشَّق منها بكل

عمق. ثم تحسس المائدة بيده كالأعمى ووضع القارورة عليها وقال: « أوه - إننى أشعر بشعور غريب ». وتناول جرتين من النوع المستعمل للبطاريات، وكانتا مملوءتين بالكحول (نحو لترين إذا لم تخنى ذاكرتى) وهرول إلى الفناء لا يلوى على شىء ». ويبدو أن چيمس وصل سالما إلى مقصده الذى كان من المفروض أن يصل إليه ، وهو متحف علم الحيوان المقارن الواقع فى شارع أكسفورد.

وفى هذا الخريف من عام ١٨٧٥، أعلن چيمس عن مقرر الخريجى الجامعة بمثابة دراسة عليا بعنوان « العلاقة بين الفسيولوجيا وعلم النفس » ولقد أعطى مقررا مشابها لطلاب الجامعة فى السنة التالية. وبترقيته إلى وظيفة أستاذ مساعد سنة ١٨٧٦، رسخت قدم چيمس مهنيا على نحو مستقر.

وكذلك هنرى، استهل حياته المهنية بصفة قاطعة فى نفس الوقت تقريبا مع أخيه. ولقد بدأ أولى قصصه الطويلة «رودريك هدسون» Roderick Hudson فى فلورنسا سنة ١٨٧١. وعاد إلى كمبريدج فى خريف تلك السنة لكى يحسم الموضوع المهم الشأن الخاص بمستقره الدائم، بينما كانت قصة رودريك هدسون تنشر تباعا فى مجلة «الأطلنطى الشهرية The Atlantic Monthly»[(١)]، فلما اتخذ قراره الكبير بإيثار أوربا لاذ عائدا إليها فى خريف سنة ١٨٧٥، ولم يعد إلى أمريكا، إلا بعد ست سنوات سويا. وعلى ذلك استؤنفت المراسلات بين الأخوين.

وكتب هنرى من باريس فى الثالث من ديسمبر يقول:

« رأيت عددا قليلا من الناس .أهمهم تورجنيف، أنه رجل فى غاية الجاذبية، ولقد هوى فؤادى إليه بكل شغف. وكذلك تشارلز بيرس الذى يرتدى ملابس جميلة ... إلخ . وهو مشغول فى تحريك

---

(1) The trials of an author residing abroad, where he had no chance to read his own proofs, are illustracted by the misadventure with his letter to the Nation from Pisa, in which "Idle vistas and melancholy nooks " appeared as "idle sister and melanchol;y monks" Cf. letter of H.J.[2] to W.J., June 13 I1874).

وتطويح الرقاصات والخطارات « البندولات » فى المرصد، ويعتقد أن علماء باريس يعاملونه بشىء من عدم الاكتراث والبخس . ونحن نلتقى كل يومين أو ثلاثة لتناول العشاء معا، وعلى الرغم من أننا مؤتلفان ويود كل منا الآخر، فإن انعطافنا اقتصادى لا عقلى ».

وأجاب وليام بالرسالة التالية فى ١٢ ديسمبر:

« يطربنى ويسلينى أنك وقعت فى براثن ت. س. بيرس الذى أحسب أنك تجده كميعا متعبا، حسكيا ووعرا، ولكن سبيل معاملته السديده هى طريقة الرجعة المعروفة « بحشيشة القريص » الأسطورية. كبل عليه يمينك وناقضه من خلاف ثم غته غتا عنيفا واسخر منه سخرية لاذعة، فإذا به يتحول إلى حمل وديع لطيف المعشر، ولكن حذار ثم حذار من طريقته فى الإجمال المحكم وعباراته المتناقضة المثمرة - تريث وترو وافحصها مليا وانتظر كما يقولون حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. ولن تشعر حياله بيسر، ولن تجد أمرك معه هينا لينا رخيا أكثر مما وجدت أنا معه لسنين طويلة. حتى غيرت سياستى معه. وحولت مجرى دفتى حياله. وعاملته بشىء من المماحكة والمعاكسة. وإنى لأقر بأننى أحبه كثيرا على الرغم من كل ما فيه من غرابة وهجنة. لأنه رجل عبقرى، وصفة العبقرية تحمل المرء دائما على الانعطاف نحو صاحبها مهما كان .

قصة رودريك هدسون أصبحت على كل لسان وموضوع حديث شائع . وبنظرة فاحصة فى الكتاب يبدو لى أن القصة وهى كاملة منشورة أحسن مما بدت لى وهى أجزاء متفرقة، ولكن يجب علىّ أن أقول لك إننى مرة أخرى لا أستطيب جنوح شخصيات القصة إلى العود على أنفسهم باللوم والتقريع ، وسرد تصنيف حاد من النقد العلمى المستبطن الفاضح لدخيلة أنفسهم فى طبائعها وحالاتها العقلية على طريقة ج. صاند. خذ حذرك مرة أخرى. إن الشىء الوحيد الذى فعلته فيما عدا اهتمامى بالتشريح هو كلمة تقريع أكتبها لمجلة الأمة (The Jation)، وهى التى أرفقها بهذا وفى المدة بين إرسالها إلى المجلة ورؤيتها منشوردة غصت فى بودلير وشعره، وأنا مضطر لأن أعترف على مضض إن شيرر لا يقل خطأ عن سانتسيرى سواء بسواء .. إنه لما يؤسف له أن كل كاتب فى فرنسا ملزم حتما بإنصاف « المعسكر » المضاد. فبودلير حقا فى كتابه « أزهار الشوك » مبدع ومبتكر، ويبلغ مرتبة السمو فى معنى معين، وعلى: العموم أنا لا أستطيع تحمل أية سخيمة أو ظل ضده، وإن كان أحيانا يكتب كشخص نصف مستيقظ يتحسس الكلام ويتلمسه . على أن أعظ ما يسر ويطرب فى الأمر كله هو الانطباع الذى يستقر فى المرء عن براءة وطهارة جيل كان ينبغى أن تحدث فيه « أزهار الشوك » فضيحة، أنه كتاب رقيق ومعتدل وروحانى بمعايير اليوم. إذا راق لك فاحصل عليه واكتب عنه فى مجلة الأمة (The Nation) أو الأطلنطى (Atlantic) ، وأوصيك بصفة خاصة أن تقرأ

رسالة سانت بيف إلى بودلير فى خاتمة الكتاب التى بلغت منتهى الذروة فى التعبير من دهائه الشيطانى وخبثه الرجيم[٢].

قابلت ت.س. إليوت اليوم وهش وبش للقائى، وبشرنى بأن أتوقع ١٢٠٠ دولار هذا العام، وأن أمل فى ٢٠٠٠ دولار فى السنة القادمة، وستكون بركة ونعمة إذا تحقق الأمل. كلما تقدم الفصل الدراسى يزداد شعورى بأننى حقا أحسن مما كنت فى العام الماضى من كل ناحية تقريبا، مما يفسح لى أبواب الأمل المنظورة للمستقبل. وداعا. وليباركك الله. أنعم بالصحة وعشرة الناس ما استطعت إلى ذلك سبيلا. إن رسالتك الأولى كانت استهلالا طيبا، وإن كان المرء يحس من بين سطورها أنك إلى حد ما تبحث جاهدا عن النغمة الملائمة أو المنسوب المناسب. بودى لو صحبتنى معك إلى بعض المسارح. أستودعك الله.

«و. ج.»

حاشية: آخر نكتة أمريكية رواها جودكين مساء الأمس:

الطفل (الذى تاه فى المهرجان) : أين أمى؟ لقد أخبرت الملعونة أنها ستتوه منى!».

أما أن عقل چيمس الفلسفى كان مزدحما مشغولا فى أثناء ربيع وصيف سنة ١٨٧٦، فأمر يتضح من رسائله المتبادلة مع رينوفيير[٣]. ومن رسالة حررها إلى مجلة الأمة عن (تعليم الفلسفة فى كلياتنا). دافع فيها عن حرية التعليم التامة فى هذا الميدان، وناضل - بطريقة تمثل تفكيره وخبراته الأخيرة على نحو عميق - بأن القيمة التربوية الرئيسية للفلسفة تكمن فى «بلوغ أفق أوسع للعقل وإدراك أسلوب للتفكير أكثر مرونة»[٣].

---

(2) James's "squib" was a letter to the Nation in which he pretends to be composing a manual of the litterature of the nineteenth century and calls attention to the flat contradiction between Saintsbury's favorable (Fortnightly Review for Nov. 1875) and Edward Scherer's unfavorable (Etudes) Jndgment of Charles Baudelaire. Cf. the Nation, Dec. 2, 1875 (XXI), 255. Sainte-Beuve's letter to Baudelaire Appedrs in the Appe ndix of The first vloume of the latter's Oeuvres compietes, 1869.

(3) Cf. below, 152-3.

وفى الواقع من الأمر فلقد انقضت سنوات كثيرة قبل أن يقدر للمثل الأعلى للتعليم الفلسفى أن ينتصر على سلفه القديم المتمثل فى ادعاء التثقيف الغطريسى، ولا ريب أن چيمس نفسه قد قام بدور قيادى فى هذا التغيير.

وخريف سنة ١٨٧٦، يستحق الذكر لأنه كان إيذانا بافتتاح أول مقر دراسى فى علم النفس يعلمه چيمس لطلاب الجامعة، والذى كان اسمه « مقرر سبنسر الجديد الاختيارى »، والذى أشار إليه چيمس فى رسالته التالية إلى توماس و. وارد:

كمبريدج ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٧٦

« عزيزى توم:

لقد أثبت أن مقررى « سبنسر الجديد الاختيارى » فى غاية الإثارة والتشويق، وإن كان عسير المرتقى. لشد ما أحسدك على رصيدك من الطاقة التى لا تنفد. إن رصيدى لا يزيد على ملء ملعقة معدة لكل يوم، وعندما تنفد هذه الكمية الضئيلة - وهى عادة ما تنفد نحو الساعة العاشرة صباحا - أصبح كلاً على نفسى لا أصلح لشىء. ينبغى على كل إنسان أن تتوافر لديه فرصة خارج عمله لكى يرقى مائلته فى الحياة ويفلحها. ينبغى أن تتاح لى المقدرة على قراءة السير والتراجم وكتب التاريخ ... إلخ ... لبضع ساعات كل مساء، لأننى أعتقد أن الأستاذ بالإضافة إلى مادة تخصصه ينبغى أن يكون موسوعة ثقافية، ولكنى لا أستطيع قراءة أى شىء. وعلى وجه التحديد فإن جزءا من رسائل دودان (مادة طبية تشرح الخاطر) ونصف رسائل المدموازيل ليسبيناس(٥)، هى حاصل مجموع كل ما قرأته فى ثلاثة أشهر. وهذه الأخيرة تبين مرض الحب على نحو كامل يضاهى - إن لم يفق - كل ما قرأته فى هذا الصدد. بيد أننى أحب الطبيعة الإنسانية، ولا أستطيع أن أتنفس دون إيعاز ما بالصلة بحياة الناس الآخرين، عنى، أن تكون حياتهم من النوع القوى الشديد.

(4) L.W.J ,I, 190. For the article in ful, Cf. Nation Sept. 21, 1876 (XXIII).

(5) The letters of Mlle. Julie Elénore de Lespinasse were published in Paris in 1809 second edition in 1876.

كل الرجال هنا يبدون متيبسين بالغى الجفاف، وكأنهم خشب مسندة من النوع الذى يعلق على واجهة الحوانيت. عندى بعض الطلبة النجباء فى درس علم النفس - مقرر سبنسر - ولكنى متقزز كلية من الفيلسوف الرفيع الشأن الشاهق الذى يبدو لى أنه يزداد ويزداد فى عقمه المطلق فى كل المسائل الأساسية فى التفكير بقدر ما هو بارع ومعجب وحاذق وذكى فى المسائل الثانوية. إن عقله لغز محير لى تماما، ولكن محصل الانطباع الكلى هو الأثر الذى تحدثه باقة خانقة من الورق المقوى من فئة الشلنين وستة بنسات.

محبك دائما

« و . ج . »

ويبدو أن أنباء مقرر وليام الاختيارى الجديد كانت قد ترامت إلى أخيه هنرى، لأنه كتب فى اليوم الثامن والعشرين من فبراير (١٨٧٧) يقول:

« ما هذا الهربرت سبنسر الاختيارى »؟ الذى أشرت إليه، ولكن دون أن تفسر خلقه المفاجئ. وأيا ما كان فأنا سعيد بأنك تحبه. إننى كثيرا ما أتقيَّل إلى جوار هربرت سبنسر فى المتحف الأثينى، وأشعر كما لو كنت أسرق منك هذا الحق المخول لك. ثمة كلمة لماثيو أرنولد يبدو أنها أصبحت من الأقوال المأثورة الكلاسيكية هنا : «نعم، زوجتى امرأة سارة بارة، فيها كل عذوبتى وحلاوتى، ولا شيء من زهوى وعتوى واستكبارى».

وفى يونيه سنة ١٨٧٨ ، عقد چيمس صلته بمؤسسة هنرى هولت وشركاه للطباعة والنشر، التى أفضت (بعد اثنى عشر عاما) إلى طبع ونشر كتابه مبادئ علم النفس (Principles of Psychology).

وفى اليوم العاشر من شهر يوليو سنة ١٨٧٨ ، تزوج آليس هـ . جبنتر التى كان قد التقى بها منذ عامين بوساطة صديقه توماس دافيدسون[٦].

ولولا هذه الصلة الثانية لكان من المرجح ألا يستطيع چيمس الوفاء بالتزامه الخاص بصلته الأولى. لقد كانت المسز چيمس سيدة جديرة بالاعتبار فى ذاتها، ممتازة

---

(6) Cf. below, 166. If.

فى الجمال والبداهة وروح الدعابة والخلق. ومهما قيل فى تأثيرها الحميد على سعادة زوجها وخصوبة حياتها وفاعليتها فى أن تؤتى حياته أكلها ثمرا جنيا، فلن يكون موضع مبالغة. كانت تشاركه فى اهتماماته الفكرية والمهنية بنوع من الولاء الحانى البصير. وفى حالة غيابها كان يتحدث عن نفسه باعتباره شخصاً « ترك وحيدا أعزل محروما من الأذن المعتادة التى أسكب فيها كل ملاحظاتى ومثلى وحكمى وأمنياتى وشكاواى »[٧]. كانت ترعاه بحب وتكريس وإخلاص، لا تكل ولا تمل، واقية إياه من نتائج مروعته الطائشة وشهامته المتهورة.

وفوق كل شيء فقد أدخلت إلى بيته نموذجا مجسما حيا وملهما للسكينة التى تحتاج إليها طبيعته الحادة المتقلبة السريعة التأثر أمس الحاجة. ثم إنه كان هناك فى نفس الوقت ضرب من التتمة ومحط الختام فى حقيقة الزواج ذاتها، قوامه الإحساس بالرسو على مرفأ آمن، وبالمضى قدما ابتغاء حياة هادفة لها معنى. على أن المرفأ العائلى الذى لاذ به چيمس لم يكن دائما ساكنا وهادئا، وإنما كانت أمواجه تضطرب من حين لآخر بأمواج أحداث الحياة العادية التى تصاحب الحياة المشتركة للكبار ومن ينجبونهم من أطفال صغار. وكانت أعصاب چيمس حساسة بشكل عجيب حيال الضوضاء والمضايقات والإزعاج والهموم والبلبال والقلق، التى لا مناص منها فى حياة أى أسرة. ومن ثم كتب فى سنة ١٨٧٩، إلى أخيه الأصغر روبرتسون يقول : « إنى لأجد همًا وغمًا وعناية والد صاحب عيال « دادة » مختلفة جد الاختلاف عن هموم واهتمامات شخص أعزب. وداعا للعقل الهادئ »[٨].

وفى سنة ١٨٨٧، فى رسالة بعث بها من شو كوروا كتب يقول:

« إنه لما يعقد الحياة تعقيدا كبيرا، أن يكون للمرء أطفال. هذا إذا نحينا جانبا التعقيدات التى نسببها لهم. فإذا أضيفت إلى تلك التعقيدات الحموات وأخوات الزوج وأخوات الزوجة وعمات الزوجة

(7) W.J., to William M. Salter, May 11, 1893.

(8) August 18, 1879.

والزوج وخالات الزوج والزوجة فإنها « تجعل المرء نشوانًا وثملا » (مثل ذلك المدلك العجوز - كما قال هورن عن ظهرى). إننى أنظر إلى ماضى حياتى، إلى حياتى الضيقة « الهشة العقل فى عهد العزوبية، فأرى أنها كانت أكثر عصور حياتى تدرنا، وإن كان يشوبها شىء من الاعتراف بالجميل من جراء الإحساس بالإمكانية والاحتمالية المرتبطة بها »[٩].

والفقرة التالية من إحدى رسائل سنة ١٨٩٢، كتبت بشعور أصيل صريح، ولو أنه مشوب بما عهد فى چيمس من غلو وإغراق وإطناب:

« أحسب أن أقدس واجب يتعين علىَّ أن ألتزم به فيما بقى لى من عمر هو: أن أنقذ بنى جنسى الغفل الذين لا حظ لهم من خبرة أو تجربة بالحياة، فلا يصحبون صغارهم معهم - جهلا وغفلة - إلى الخارج عندما يذهبون إلى هناك للتسلية والترويح. إن الجمع بين ضروب الحيرة والبلبال والجزع التى لا عهد للمرء بها والشديدة الكرب، وبين تربية أطفالك وتعليمهم، واقتران صلات النهار والليل التى تبلغ أقصى الخصوصية والسرية بصراخهم وعويلهم وشجارهم وعراكهم وأسئلتهم وتمرغهم ودموعهم، وبالاختصار بكل وظائفهم الانفعالية والفكرية والجسمية - وحدوث ذلك كله فيما لا يزيد من الوجهة العملية فى تلك الظروف على غرفة واحدة، إن اقتران كل هذه الأشياء (أقول) بعطلة ينشدها المرء للترويح عن نفسه، فكرة جديرة أن تصدر من مستشفى المجاذيب »[١٠].

وثمة أيام مرت بچيمس أيضا - كما حدث فى منتصف العقد التاسع (١٨٩٥) - ناخ العبء المالى بكلكله عليه من جراء زيادة عدد أسرته، الأمر الذى أفضى به إلى مضاعفة المحاضرات العامة والمقالات، مما زاد من وطأة الجهد العصبى الذى كان يعانى منه من قبل، نتيجة لشهرته المتزايدة واهتماماته الفكرية الآخذة فى الاتساع على نحو موصول . بيد أنه ليس ثمة داع للظن بأن حياته العائلية كانت مصدر سخط وإثارة أو زاخرة بحوافز الكرب والهم إلى درجة يترتب عليها أنه فى حالة غيابها، لن يجدها فى أى مكان آخر. أما القول بأنه كان ينبغى عليه أن يكون رزينا كتوما فى سلام ووئام مع نفسه ومع العالم، فهذا ما لا يمكن تصوره. لقد تكفل مزاجه الفطرى بذلك. على أن

(9) To A. J., July 7, 1887.

(10) To Grace Ashburner, Jul;y 13, 1892, L.W.J. 1, 321.

ما هيأته له حياته العائلية هو أنها خلقت أحسن بيئة ممكنة لميوله الطبيعية، وزودته بأقصى ما يمكن من الاستقرار الموافق لعبقريته الزئبقية الألوبة، ووجهت طاقته العصبية المفرطة الفائضة بحيث تنساب فى مسالك إنتاجية إيجابية، وأوجدت فى بيته تلك العلاقات الإنسانية الرقيقة الحانية التى كانت طبيعته تحن إليها وتشتهيها، وغرست فى صميم قلبه ولب وجوده إحساسا شاملا أضفى على نفسه إيمانا بأنه يعيش حياة كاملة نافعة طيبة.

وقضى العروسان شهر العسل فى أثناء صيف سنة ١٨٧٨، فى وادى كين بنيويورك فى المنزل الريفى الذى كان چيمس (بالاشتراك مع بوديتش وآل بوتنام) قد حوّلوه إلى منتجع خلوى لقضاء الإجازات الصيفية. وهذا المنتجع الخلوى والمنطقة المجاورة له من جبال آديرونداك لعبا دورا خاصا فى تطور چيمس. فبعد سنين طويلة كتب يقول: « أحبه كفلاح. وإذا كانت مدينة كاليه قد نقشت على قلب مارى تيودور، فمن المؤكد أن وادى كين سيكون منقوشا على قلبى عندما أموت »[١١]. فهنا وفى الجبال البيض إلى جوار منزله الصيفى فى شكوروا بنيو هامبشاير وجد چيمس ذلك الوجه البرى الفطرى من الطبيعة الذى كان يشبع نفسه وينقع غلته إلى الأعماق. كان يقول: « على وجه الإجمال فإننى أفضل أعمال الله على أعمال الإنسان[١٢]. وعلى الرغم من أنه كان يملك عين فنان مصور للمناظر الطبيعية، فإن التجاءه للطبيعة وإعجابه بها وما بينهما من مناجاة متبادلة كان شيئا أعمق من النظرة الفنية بكثير. كان المنظر الفسيح الحر غير المعاق. يعطيه الإحساس بالفضاء الهامس والشعور بالتوقان إلى الملأ الأعلى، والنزعة إلى التجرد والتحنث. كان يتمتع بالغوص فى الفلاة حتى يصبح مغمورا فيها، وكان يستطيب بساطة الملبس والعادات الشخصية الطبيعية التى تتطلبها مثل تلك الحياة. كتب مرة من أوربا يقول: «إن أقصى ما تشتهيه نفسى هو بقعة من الريف

(11) To the Author, January 2, 1900.

(12) To H.J.2, August 11, 1898, L.W.. J., 11, 81.

الأمريكى الفطرى. إنها حاجة مصدرها إحساس عضوى عجيب. إن علاقات المرء بالمناظر الطبيعية الأوربية مختلفة تماما - فكل شىء مسور أو مزروع بحيث لا تستطيع أن تستلقى وترقد وتتمدد »[١٣]. كان يستطيب ما أسماه علاقات الأمريكى الشخصية الحيوانية المتوحشة بالطبيعة[١٤]. إن نظرة على قائمة مؤلفات چيمس تزودنا ببنية قاطعة، على أن عام ١٨٧٨، كان نقطة تحول فى حياته المهنية، وكذلك فى حياته الشخصية. ففى أثناء العقد (١٨٦٧- ١٨٧٧) كتب ما لا يقل عن خمسة وأربعين تقريظا ونقدا، وفحصا ومقالا قصيرا. وهى أعمال ذات أهمية ضئيلة نسبيا حتى على اعتبارها بينة تفصح عن اتجاهات مؤلفها المذهبية وكيفه العقلى. وأما فى سنة ١٨٧٨، فقد نشر ثلاث مقالات رئيسية هى:

« ملاحظات عن تفسير سبنسر للعقل باعتبارها مراسلة »

« العقل البشرى والبهيمى »

« نظرات فى المنهاج الذاتى »

والمقالات الثلاث كلها تمثل مميزات چيمس الخاصة إلى أقصى درجة، وتبين بجلاء أن بعضا من أفكاره الرئيسية المعينة فى الفلسفة وعلم النفس قد تبلورت فعلا. وبعد سنة ١٨٧٨، انساب تيار إنتاج چيمس بلا انقطاع، وزاد حجمه على نحو موصول لمدة ثلاثين عاما، أو حتى قبيل موته بشهور قليلة.

على أنه لم يفقد شغفه بالفن والأدب أو يتوقف عن الاهتمام بهما والتعبير عن نفسه حيالهما. ولقد ضاعفت زياراته المتكررة لأوربا من صلاته. وأيقظت اهتمامه بالسجايا القومية. وكذلك لم يفقد أبدا اهتمامه بحياة أخيه المهنية أو يتخل عن قراءة مؤلفاته ونقدها. وكان هذا الاهتمام بين الأخوين متبادلا، ولكنه لم يكن بأقدار

---

(13) To Frances R. Morse, July 1o; 1901; J.W.I., 11, 158.

(14) Ibid.

متكافئة من الطرفين. كان وليام يبعث بمقالاته لهنرى ثم بكتبه فيما بعد، وكان هنرى يتسلمها شاكرا ذاكرا وأحيانا يقرؤها، ولكنه كان قليلا ما يعلق عليها أو لا يعلق عليها مطلقا. ومن الواضح جدا أن الأدب كان يعنى لوليام أكثر مما تعنى الفلسفة أو العلم لهنرى.

وكان هنرى قد نقل محل إقامته من باريس إلى لندن نحو أواخر عام ١٨٧٦. ورسائل وليام إلى هنرى فى السنوات الأربع التالية لم يعثر لها على أثر، ولكن هناك أصداء لها وإشارات فى ردود أخيه عليها، والتى وصف فيها انطباعاته عن الأشخاص الذين يهم أمرهم وليام مثل: هكسلى ومورلى، وجلادستون، وتنيسون، و « سبنسر الراعد ». وفى غضون ذلك استمر وليام يضرم نار النقد ضد أسلوب أخيه الأدبى. ووصف كتابه « الأوروبيون: The Europeans » بأنه «هزيل وأجوف» وأنه خال من « الدسامة » أو « الضخامة » وبأن أسلوبه فيه يجنح - بالاختصار - إلى تضحية الموضوع على مذبح الشكل والصياغة(١٥). وكان هنرى عادة يسلم بهذا النقد ويقر بحقيقته دون أن يذعن للمبدأ ألبتة .

وقضى وليام صيف ١٨٨٠، يستجم فى أوربا. وكان إبان ذلك الصيف قد تعرف لأول مرة إلى الرجلين اللذين اعتبرهما « أسبق فيلسوفين » فى زمانه، ألا وهما: شادورث هودجسون، وتشارلز رينوفيير(١٦). ولقد قابل الأول فى لندن حيث كان يقضى بضعة أسابيع فى زيارة أخيه. ومن لندن رحل إلى ألمانيا حيث جدد صلاته بعلم النفس الفسيولوجى فى صحبة ستانلى هول. وكان ستانلى هول أحد تلاميذ چيمس ثم زميلا له فى هارفارد، وكانا يؤمان معا معمل بوديتش، ثم سافر هول إلى ألمانيا لاستكمال دراسته منذ سنة ١٨٧٨. والرسالة التالية موجهة إلى بوديتش الذى غيَّر خطته وترك ألمانيا قبيل وصول چيمس مباشرة.

---

(15) L. H. J. 2,1,65-6.

(16) C.E.R., 133. For Shadworth H. Hodgson Cf. below, 157.

هيدلبرج ١٩ يوليو (١٨٨٠)

يا لك من إنسان لا يستحى ... يا لك من قط غليظ القلب .. إلخ .. إلخ.

انظر ماذا ضيعت بنقضك وعدك وهروبك بهذه الطريقة الخسيسة النذلة. وصلت إلى كولون فى منتصف ليلة الأربعاء، ووجدت رسالتك وبطاقتك محولين علىّ من لندن تؤكد لى أنك ستنتظر يوم الخميس من أجلى فى هيدلبرج. وبناء على ذلك ضحيت بيوم كنت أزمع قضاءه على ضفاف الراين، وأبرقت إليك فى الساعة التاسعة وبلغت هيدلبرج مساء الخميس ولم أجد سوى رسالتك الشيطانية الأنانية الإذلالية! المليئة بالأخطاء الهجائية، والتى تقول فيها: إنك لم تستطع الانتظار، ثم تفخر بمنادمتك وقصفك ولهوك – بلا حياء ولا خجل – مع كوهنى[17]، (وبهذه المناسبة فسأبلغ كل ذلك لزوجتك المسكينة). وفى غضون ذلك فإننى وستانلى هول (الذى وصل أيضا مساء الخميس تحدثنا حديثا فى غاية السمو والتثقيف، كنا سنسمح لك بالاستماع إليه مجانا لو كنت هنا. لقد تحدثنا زهاء اثنتى عشرة ساعة بلا انقطاع يوم السبت، وقفينا عليها بثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة دون أى توقف ولو لحظة واحدة بالأمس. إنه إنسان رائع بارع ولقد ترسخ وتوطد بنوع غريب منذ حلوله هنا. وعلى محمل الجد، كما كنت أدعو أن تبقى وتنتظرنى، فثلاثه أحسن من اثنين وإن كان الثالث ليس سوى ذلك المدعو هـ. ب. بوديتش. لقد رحل هول هذا الصباح إلى باريس عن طريق كولون. وبعد ذلك سيعجل بالذهاب إلى لندن، وعلى سبيل الجزم، تقريبا سيكون بين أهله فى أغسطس حيث سيحصل – فيما أرجو – على وظيفة فى بالتيمور فى الشتاء القادم. بعد ساعة سأرحل إلى ستراسبورج ومنها إلى بازل ودير شويز.

المخلص دائما

« و . ج . »

ومن سويسرا حج إلى (Uriage-Les-Bains) ذات الينابيع والنافورات الطبيعية بالقرب من جرينوبل، حيث زار رينوفيير فى أغسطس وفقا لما ذكره فى الرسالة التالية إلى هودجسون التى بعث بها من كمبريدج فى اليوم الخامس والعشرين من سبتمبر :

كمبريدج ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٠

(17) Wike Kühne was professor of phvsiology at the University of Heidelberg.

« عزيزى هودجسون:

عيناى، عيناى، عيناى. لم يطرأ عليهما أى تحسن أكثر مما كانتا عندما تركت الوطن، ولعلك تلاحظ أننى أكتب بيد زوجتى. لقد ساءت حالتهما تماما بمجرد أن بدأت أمشى فى سويسرا، ولهذا لم أقرأ سطرا واحدا من أعمالك الخالدة منذ تركتك. ولقد عدت إلى الوطن مبكرا ثلاثة أسابيع عما انتويت، ولم اقض سوى ثلاثة أيام فى لندن فى طريق عودتى. وقضيت يوما لطيفا مع رينوفيير الذى هو صاحب أعجب شكل لولد عجوز يمكنك أن تراه فى حياتك!. ولقد تحمل بشجاعة « رواقية » ظاهرة - فيما عدا بربشة عينيه - ما قلته له عن مقالاتك، معترفا باهتمامه العظيم بكتاباتك، ولكنه قال: إنه وجدها فى غاية الصعوبة فى الفهم إلى درجة فظيعة، متصورا أن جزءا من الصعوبة مرده إلى عدم إلمامه بالإنجليزية.

مرفق طيه هجو لى مضاد لسبنسر ظهر الآن فقط [١٨]. ولقد كتبت هذا التنديد وألقيته كمحاضرة، وشطب المحرر كل الآثار الدالة على ذلك، ولم أر التجارب قبل طبعها. لا أستطيع الاستمرار فى الكتابة الآن، ولكنى لن أنسى أبدا الساعات التى قضيتها معك فى غرفتك. من الآن فصاعدا سيكون شارع « كوندوى »، مناط أعذب الألحان لأذنى اليانكى المنفيتين.

المخلص دائما

« و . م . جيمس »

(18) "Great Men, Great Thoughts and the Environment", which appeared ing. the Octoher number of the Atlantic.

(١٧)

الصلات الأوربية في (١٨٨٢، ١٨٨٣)

في صيف سنة ١٨٨٢ ، وقد حصل على إجازة دراسية لمدة عام، ذهب چيمس إلى أوربا في سياحة استمرت سبعة شهور ، وبالقياس إلى أثر هذه السياحة على تطوره الفلسفي، فقد كانت أهم مغامرات چيمس الأوربية على الإطلاق. لقد اشتغل بالتعليم ثماني سنوات متتالية بلا انقطاع، وكتب عدة مقالات. ولكن في هذه المرة كانت الراحة والصحة في المرتبة الثانوية من حوافزه للسفر. ثم إنه لم يذهب إلى أوربا لأن معينه من الأفكار نضب، بل على العكس تماما، كان معينه زاخرا بالأفكار ونفسه تواقة للكتابة، وكان يبحث عن مهرب من المقاطعات التي كانت تبدد وقته سدى. وما استطاع إلى ذلك المهرب سبيلا، ووجد أن كمية الكتابة التي نجح في إنجازها كانت ضئيلة هزيلة. ولكن معترضاته في أوربا كانت من نوع أكثر جدوى وثمرة قوامها بصفة رئيسية صلات شخصية أنعشت تفكيره ودعمت ثقته بنفسه على السواء.

وكان چيمس عندئذ ليس فقط ملتزما تماما بالارتباط بمهنة الفلسفة وحمل أمانتها، ولكنه أيضا كان قد بدأ يصبح معروفا في أوربا عن طريق مقالاته المنشورة. وفي ذلك الوقت أيضا كان قد اكتسب تلك السمعة التي وفق أحد كتاب السير المحدثين أعظم توفيق في وصفها بقوله: « كان ليستقبل في

أمريكا على اعتباره فيلسوفا عالميا إلى أقصى درجة، وفى أوربا على اعتبار أنه أمريكى قح »[1].

وأصبح چيمس الآن قادراً على أن يلعب ذلك الدور المهم الذى أهلته له نشأته وأسفاره، وكذلك سجاياه الشخصية بكيفية بديعة، ألا وهو دور سفير الفكر الأمريكى « والمبعوث الدولى للسلام والوئام » إلى دول غرب أوربا. وكأن الفكر الأمريكى يكاد يكون مجهولا فى أوربا. وكان چيمس يمثل تفكيره وتفكير غيره من بنى قومه. ولقد ساعده إتقانه للفرنسية والألمانية، وحديثه الطريف الفكه المسلى، وسرعة تذوقه وتقديره للفضل والجدارة، وشهامته الحارة ومروءته المتوهجة، على كسب ود وثقة ومحبة دائرة واسعة من الناس. وكان من هجيراه أن يزكى أولئك الذين يحمد صحبتهم بعضهم بعضًا، ويقوم بدور الوسيط فى تعارفهم وتوادهم. وكان بيته فى كامبردج قبلة يقصدها أصدقاؤه الأوروبيون أو أصدقاء أصدقائه للزيارة والصحبة. وكان يزود أصدقاءه الأمريكيين ببطاقات توصية لأصدقائه الأوربيين. بل إنه كان يقدم الأوربيين للأوربيين. ولقد حدث – فى مرات ليست بالقليلة – أن أصدقاءه الأوربيين أحبوه أكثر مما كانوا يحبون بعضهم بعضا.

وذهب چيمس أولا إلى ألمانيا حيث تعرفه إلى العالم الطبيعى والفيلسوف أرنسنت ماتش الذى شعر نحوه برباط فكرى متين، ولعل ذلك راجع إلى أن ماتش – على غراره – كان قد وصل إلى فلسفته التجريبية عن طريق العلم. وهنا أيضا أرسى أسس صداقة دائمة مع العالِم النفسى كارل ستامف. ورسائل چيمس المنشورة عن تلك الفترة تحمل فى طياتها نغمة عالية من الثقة بالنفس. فليس فيها ثمة أعذار يقدمها ويطلب فيها الصفح، من نفسه أو من هارفارد أو من أمريكا. ولقد أيدت أسفاره فى ألمانيا توكيد هذا الشعور وتثبيته فحسب :

---

(1) Il a pu passer en Amérique pour le plus cosmopolite et en Europe pour le plus américain des philosophes"; M. Le Breton, La Personnalité de William James. 1929. 35.

« لقد انتصرت ثرثرتي القومية الأصيلة حتى على صعوبات النطق الألماني. ولقد مضيت في المدرج سراعا أعدو عدوا فوق الحفر والوجرات والمتاريس لدرجة أنني كنت أنا نفسي في دهشة مذهلة لوصولي سالما غانما . في آخر الشوط. نحن أمة صحيحة مكينة، وفكرتي عن قيمتنا الجوهرية صعدت ولم تهبط. والشيء الوحيد الذي نفتقر إليه هو؛ العمق الجوفي في المزاج والقوة الذي يمكننا من أن نجلس ساعة نحتسي قدحا واحداً من البيرة دون أن نستطيع أن نقول في ختامه فيم كنا نفكر . رأيت في ألمانيا كل الرجال الذين تهمني رؤيتهم – وتحدثت مع معظمهم،. ومع ثلاثة أو أربعة منهم قضيت وقتا مغذيا مثمرا مباركا حقا. لم أر في أي مكان تفعل لكل طلابها شيئا يماثل ما تفعله هارفارد. إن مناهجنا أحسن على طول الخط . ولا ريب أنني أخذت فكرة واضحة جدا عن معلوماتي بالنسبة للمسائل الفلسفية الحديثة تؤيد أنها أوسع وأعم مما لدى أي امرئ ممن قابلتهم، واتضح لي أن مركز مراقبتنا الهارفاردي أكثر عالمية »(٢).

وفي أكتوبر يمم چيمس شطر البندقية، حيث قضى عدة أسابيع أحيت صراعاته القديمة من جديد: التناقض بين الاشتغال النظري بالفن وبين مجرد التمتع به، والتناوب المزاجي بين ازدراء إيطاليا وبين الاستكانة لفتنتها والاستسلام لسحرها وبهجتها. والرسالة التالية وصلت إياه قبيل وفاته بوقت قصير في ١٨ ديسمبر(٣).

« البندقية ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٨٢

« والدي العزيز العتيد:

إن منظر خط يدك القوي في الرسالة التي حولها إليَّ هاري منذ ثلاثة أو أربعة أيام، حفزني إلى الكتابة إليك مباشرة ولكني لم أستطع ذلك إلا الآن ... لقد مكثت هنا في البندقية زهاء ثلاثة وعشرين يوما وإني لأغادرها اليوم على مضض في ماخرة تريستا في منتصف الليل . إني أكره أن أترك هذا السحر الإيطالي الفتان لكي أعود ثانية إلى الشمال الغليظ الفظ. إن سماحة كل شيء في إيطاليا ، ودع المقادير تجري في أعنتها، ولا تبيتن إلا خالي البالي، التي تسود الحياة هنا، هي أرحب الوسائل المكنة – راحة وسلوى – التي يغرق المرء نفسه فيها، على نقيض إنجلترا تماما. لقد بلغ الأهالي المساكين حدا من الذلة وتقبل السراء والضراء، والتضرس بكل مناظر الحياة

---

(2) To A.H. J., November 2 and November 20, 1882, to H.J.[2], November 22,1882 L.W.J. 1, 212-216-7. For Carl Stumpf cf. below, 193 f.

(3) Cf. also abobe, 34.

من أسفل سافلين أحسن تقويم، لدرجة أن أى شىء لم يعد يثير دهشتهم أو استغرابهم أو يصدم شعورهم. لذلك يتركون كل إنسان وشأنه، ويتوقعون من كل إنسان أن يلبس ويتحدث ويأكل ويشرب ويتصرف كما يحلو له، على الرغم من أنهم لم يسبق لهم أن شاهدوا شخصا آخر يفعل ذلك الصنيع أمامهم.

إنى أكره أن أهجر الصور واللوحات الفنية الرائعة النفيسة التى يتعين على المرء أن يراها بهذه الطريقة الجهنمية المزعجة. هذه اللوحات ينبغى أن تقام على نحو ما فى مكتبة متنقلة تلف الدنيا بأسرها، بحيث يستطيع المرء أن يشترك فيها لقاء مبلغ يدفعه يتيح له الحصول على إحدى روائعها لمدة شهر على مدار العام. إذا كان هناك أى شىء يجعل المرء قدرياً فهو منظر الذبول والبلى والانحلال - الذى لا مناص منه - والذى يحيق بكل فن جميل بعد أن يبلغ أوج نضجه. ولقد فكرت فعلا فى أن أخط بضعة تعليقات عن هذا الموضوع وأبعث به لمجلة الأمة (The Nation) ، ولكنى عدلت عن هذا بعد أن فكرت مليا، وبعد أن تسللت روح الشاب الإيطالى القب البخس بالتدريج إلى روحى، والذى يرى أن الفلسفة الحقة على الإطلاق هى الفرشحة والفج بأوسع خطى فى ميدان سانت مارك، ومشاهدة آيات البلى والذبول وهى تنخر فى الآثار الفنية بابتسامة راضية على الوجه، وقبعة عالية مقرطفة مائلة على جانب الرأس تتسلل من تحتها خصلة من الشعر على الجبهة، ومعطف جرابى ملقى على الكتفين، وسيجار من فئة ستة سنتيمات بين الأسنان. هذه هى الفلسفة الحقة عنده فى أعلى منجزاتها. وأيا ما كان هذا الرجل، فإنه ليس رجل قواعد ومعادلات « ووصفات مرسومة ». ولقد أدركته فجأة منذ ليال أننى مطابق تماما لوضعه باستثناء خصلة الشعر، وشعرت فى نفس الوقت إلى أى حد يطيب مذاق ترك « القواعد والمعادلات والوصفات المرسومة » فى مرقدها نائمة بعض الوقت. بيد أن سمات السفاهة والرذالة البادية على الناس فى ميدان سان مارك، أمر فظيع بالمعنى الحرفى للكلمة عندما يفكر المرء فيما كان عليه هذا الميدان يوما ما. أوغاد من كل جنس - وبالنسبة للعين الخارجية لا يمكن أن يكونوا سوى أوغاد. إننى أتخيل أحد النبلاء القدامى وقد انسل من جدثه وعاد إلى الحياة الساخطة الحانقة مرة ثانية، لمجرد أن يصب علينا لعناته ويطردنا بعيدا . وأنا متأكد أننا سنفر جميعا من أمامه ونهرب بضمائر مثقلة بالإثم والعار لدن رؤيته، لأن نشاط البندقية وطاقتها وقوتها، مثلما اتضحت لى فى قراءاتى، لابد أنها كانت شيئا هائلا ضخما مدهشا ومتواصلا . لقد شعرت كثيرا يا والدى العزيز طوال الأسابيع القليلة الماضية بمدى إحساسك بالوحدة، وإلى أى حد مريع يكون الفراق حين لا يتسنى للمرء أن تصله رسائل. ولكنى آمل أن تكون جوزيت بهذه الرسالة خير تعويض. حبذا لو أرسلت لى تجارب طبع ما تكتب بمجرد أن تتسلمها. إننى أفضل أن أقرأها قطعة فقطعة . إننى دائما محبك .

« و . ج . »

ومن البندقية سافر چيمس مخترقا ألمانيا وبلجيكا إلى باريس، حيث كان فى مرجوه أن يقضى بضعة أسابيع ويرى رينوفيير فى أواخر الشتاء. بيد أن أنباء مرض والده حملته على الإسراع بالسفر إلى لندن حيث لحق بأخيه هنرى واحتل مسكنه بعد أن سافر هنرى إلى أمريكا. وهناك استقر به المقام حتى شهر مارس. وعلى الرغم من مشغولية البال والجزع والقلق بخصوص الأسرة، وعلى الرغم من علة الحنين والاشتياق إلى الوطن، وعجزه عن إنجاز أى مقدار كبير من الكتابة، فإن هذه الفترة كانت من أخصب الفترات وأثمرها فى تطوره الفلسفى. فلقد كان فى أثناء هذه الشهور بالذات وجد نفسه أقرب ما يكون تعاطفا فلسفيًا، وأوثق ما يكون مشاركة وجدانية فكرية مع رينوفيير وهودجسون وداعبه الأمل فى أنهما قد يجدان نفس الرباط الوثيق الذى يؤلف بين قلبيهما مثلما يؤلف بين قلبه وبين كل واحد منهما.

وعلى الرغم من الظروف التى حالت دون رؤية چيمس لرينوفيير بلحمه ودمه – كما كان فى فإن – فإن جوارهما استحث تراسلهما، الذى ظل قائما بينهما بلا انقطاع منذ سنة ١٨٧٢، عندما بعث إليه چيمس من كمبريدج يقول: « إليك يرجع الفضل فى أنه أصبح لدى لأول مرة مفهوم واضح ومعقول للحية. إننى أكاد أتقبل هذا المفهوم كلية. أما بالقياس إلى النقاط الأخرى من فلسفتك فقد بدأت أشعر وأمارس ميلادا جديدا للحياة العقلية، وأؤكد لك يا أستاذ أن ذلك ليس بالأمر الهين»(٤).

وعندما كتب چيمس تلك الرسالة كان شابا لا يتجاوز الثلاثين من عمره فى مستهل حياته المهنية، فى حين أن رينوفيير كان فى السابعة والخمسين من عمره، وشخصية راسخة منذ أمد طويل، وذائعة الصيت فى الحياة العقلية لفرنسا. وعلى الرغم من هذا الفرق فى العمر الزمنى فإن الاثذين تبادلا نفس الاحترام والتبجيل.

---

(4) November 2, 1872.

وبوصف رينوفيير محررا لمجلة «النقد الفلسفى: Critique Philosophique » فقد نشر ترجمات لأبحاث چيمس من حين لآخر. أما رينوفيير فكان أعظم تأثير مفرد على تطور تفكير چيمس، فهذا أمر لا سبيل إلى التشكك فيه. وفى كلمة الإهداء التى تتصدر كتابه: « بعض مشاكل الفلسفة »، والتى طبعت بعد وفاة المؤلف فى سنة ١٩١١، ولكن چيمس كان قد أعدها قبل وفاته، نجدها تحتوى الحكم التالى الناظر إلى الماضى:

« كان (تشارلز رينوفيير) أحد أعاظم الشخصيات الفلسفية، ولولا التأثير الحاسم الذى خلفه فى نفسى فى السبعينيات ببراعة دفاعه عن المذهب التعددى بأسلوب الأستاذ القدير لظللت إلى الأبد أسير الخرافة الوجدانية التى نشأت فى ظلها. وموجز القول، فإن هذا الكتب - لولاه - لما ظهر إلى حيز الوجود أبدا. ولهذا، وبشعور من الاعتراف بالجميل والشكران بلا حد، أهدى هذا الكتاب إلى ذكرى رينوفيير العظيم ».

وفى حين أن مذهب رينوفيير فى الحرية بتخليصه إياها من الوحدانيات السائدة المتسلطة، هو الذى وجد فيه چيمس خلاصه الشخصى والخلقى، فإنه لم يكن أقل انجذابا وتلبية لنظرية رينوفيير فى المعرفة. وفى نفس الرسالة التى صدر بها كتابه « بعض مشاكل الفلسفة » والتى اقتبسنا منها الفقرة السابقة نجد چيمس يقول: إن فلسفتك من جانبها الحاضر للمعرفة فى الظواهر (par son coté phénoméniste) يبدو أنها تروق بكيفية خاصة للعقول المدربة المتمرنة فى المدرسة الإنجليزية التجريبية ». وكان چيمس يشير هنا إلى تدريبه ومرآته نفسه. ولكن بينا شعر أنه من أتباع لوك وبركلى وهيوم وميل فى تقبله لفلسفة أساسها الخبرة، وبينا نجده قد غذى نفسه من كتاباتهم، فإنه لم يستطع أن يروض نفسه على الوسائل الشريرة من الارتياب والمادية والحتمية التى تردت فيها تلك المدرسة. كان يرغب ليس فقط فى الانضمام إلى المدرسة، ولكن تخليصها والأخذ بيدها من تلك الوهدة، وقد التمس العون من رينوفيير، من رينوفيير ومن شادورث هودجسون.

وفى أثناء الشهور التى قضاها چيمس فى لندن فى شتاء (١٨٨٢-١٨٨٣) كانت عنعنة المذهب التجريبى ذات سطوة وسمو مقام .

وثمة رجلان سبق أن طورا المذهب فى اتجاه الطبيعية والوضعية الذى لم يرض عنه چيمس، أحدهما و . ك. كليفورد الذى مات سنة ١٨٧٩، والآخر ت.س. هكسلى، الذى كان فى عنفوان قوته. وهذان الرجلان كانا نموذجى چيمس المفضلين للولع اللاشعورى بالعلم إلى درجة الوجد. وباسم العلم الذى أخلص له هذان الرجلان بكل عاطفة وانفعال، حضا الناس على نبذ انفعالاتهم والإقلاع عن عواطفهم. ولكن چيمس تساءل قائلا: « كيف يمكننى أن أقول إن معرفة الحقيقة مع السيدين هكسلى وكليفورد أجدى على عقلى من إحساسى بالخير واللطف مع السيدين مودى وسانكى؟»(٥).

ولقد عاش سبنسر حتى ١٩٠٢، وكان فى تلك السنوات المبكرة من العقد الثامن من القرن التاسع عشر يعمل بفدائية لاستكمال كتابه «الفلسفة المركبة ». ولكن كتبه العظيمة كانت قد ظهرت منذ زمن طويل، وشيوع مصطلحاته كان قد تجاوز طور ذروته. وبالنسبة لچيمس حقق له غرضا معينا، فقد كان له بمثابة تيمة تسنين - انصرمت مدتها - باعتبارها طوراً مضى من أحداث طفولته الفلسفية، أعقبته أطوار أخرى عاشت بعد انقضائه. وعلى أية حال فلم يبذل چيمس أية محاولة لرؤية سبنسر.

(5) C.E.R., 66, For the most important reference to Huxley and to Clifford, the "delicious enfant terrible", cf. W.b., 8, Clifford's scientific creed is set forth in "The Ethics of Belief" in Lectures and Essays, 1879, 11. James reviewed this work at length for the Nation in 1879 (cf. C.E.R., 137), and, while he concerded its brilliancy, compained of its thinness and inconclusiveness. Clifford was also to James a favorite example of the "mind-stuff theory", and both Clifford and Huxley of the "automaton" theory.

كان إلكسندر بين - على الرغم من أنه عاش حتى سنة ١٩٠٣- أقدم من چيمس بأسبقية أربعة وعشرين عاما. وكان مع هيوم وميل وتشونسى رايت ينتمى - فى نظر چيمس - إلى مدرسة المتشككين والعدميين، الذين رفضوا أن يعكر صفوهم وتعددية الحقائق المجردة. بيد أن چيمس فى نفس الوقت كان قد استقى منه بغزارة فى المدة من (١٨٧٦-١٨٧٩) فى تفكيره وكتابته عن حوافز التفلسف، وفيما بعد فى دراسته الفاحصة لسيكولوجية التفكير.

وكانت جمعية البحوث النفسية قد أنشئت فى انجلترا فى شهر فبراير سنة ١٨٨٢. وفى أثناء زيارة چيمس لإنجلترا كان رئيسها هنرى سد جويك. وكان ذلك بداية اهتمام چيمس بالموضوع وتعرفه إلى ذلك الرجل الشهير الجدير بالاعتبار. بيد أن تباعدهما الفلسفى بمعزل أحدهما عن الآخر كان بلا شك راجعا إلى تقسيم مجال اهتمامهما. فلقد كان شغل سد جويك الشاغل - أساسا - هو الأخلاق، فى حين أن اهتمام چيمس كان منصبا على علم النفس والميتافيزيقيا، وكان مرده أيضا إلى اختلافهما العميق فى المزاج، فلقد كان سد جويك حازما رزينا صارما مدققا وناقدًا بقدر ما كان چيمس متحمسا وحميا وتأمليا. ومن المحقق أن چيمس كان سيتطيب نكهة الشعور الذى حدا بليزلى ستيفن إلى أن يقول، فى معرض وصف أحد اجتماعات الجمعية الميتافيزيقية: « لقد أبدى سد جويك تلك الصراحة المتفكرة والإخلاص المتأمل اللذين يصبحان فيه أحيانا مصدر إزعاج وإثارة. أن المرء لا حق له فى إن يكون منصفا لخصومه إلى هذا الحد »[٦]. وكانت الجمعية الميتافيزيقية بلندن واحدة من عدد كبير من الهيئات التى وجدت فى إنجلترا فى ذلك الوقت بقصد الجمع بين الزمالة الطبية والفلسفة. وكانت الجمعية الأرسطوية قد أنشئت فى سنة ١٨٨٠، وكان مراد النادى الميتافيزيقى هو تهيئة جو أكثر تحررا من الرسميات والشكليات يتيح لأعضائه

(6) F.W. Maitland, Life and Letters of Leslie Stephen, 1906, 333-4.

صلات ودية وثيقة فى ألفة ودالة. وفى معرض الحديث فى هذا الصدد كتب چيمس إلى صديقه توماس دافيدسون فى الثامن عشر من يناير سنة ١٨٨٣ يقول:

« لقد انحشرت فى خضم المجتمع الفلسفى هنا ».

وفى الجمعية الأرسطوية قابل صاحب المقام الرفيع رتشارد ب. هالدين، الذى أصبح فيما بعد وزير مالية الدولة، ووزير الحرب المشهور: « ذهبت إلى الجمعية الأرسطوية مساء الأمس وقضيت وقتا مفيدا. وكان هناك أحد. تلاميذ كايرد، يسمى هالدين، ولو أنك سمعته لاعتقدت أنه بالمر العزيز، هو الذى يتحدث، نفس التدفق الذى لا نظير له ولا شبيه، ونفس الأسلوب السلس الذى لا تشوبه شائبة، ونفس صفاء التفكير»[٧]. بيد أن محور « مجتمع چيمس الفلسفى » كان نادى « الخدش ٨ » الذى أصبح هو فيه العضو التاسع. ولقد وصف أول اجتماع حضره فى الفقرة التالية المقتبسة من رسالة بعث بها إلى زوجته:

« بالأمس تناولت العشاء عند جورنى مع أعضاء « الخدش ٨ » المشار إليه فى الدعوة المرفقة مع هذه الرسالة، فأما جورنى نفسه صاحب كتاب القوة والصوت (Power and Sound) ، والذى انتهيت من قراءة نصفه، فلا شك أنه أحد عقول الطراز الأول فى زماننا، وهو رجل فى غاية الفخامة والروعة يشبه أدونيس(*)، ست أقدام وأربع بوصات فى الطول، يزينه وجه فى غاية الجمال وصوت فى غاية العذوبة وسمت مهم من الوجاهة، وهو من مفرق رأسه إلى أخمص قدمه النقيض التام للصورة الكلاسيكية عن الفيلسوف. أما السبعة الأعضاء الآخرون فهم روبرتسون وهودجسون وسلى وكارفيث ريد وفردريك بولوك وليزلى ستيفن وشخص باسم ميتلابد – باعتباره على قدر ما أعلم – الشخص الوحيد المغمور. ولقد شعرت بألفة ودالة كأننى بين أهلى وعشيرتى، ودعانى ستيفن وبولوك لحضور الاجتماع التالى ... إلخ ... إلخ. ولقد برهنت المناقشة – التى أخذ بزمامها سلى وهودجسون

---

(7) W.J. to A.H.J., Feb. 6, 1883. R.B. Haldane, like Robert Bridges and W.R. Sorley,was a member of " The Tramps", but not of the Scratch Eight. George Herbert Paimer was W.J.'s distinguished elder colleague.

(*) أدونيس (اسم عشيق أفروديت فى الأساطير اليونانية).

وروبرتسون بصفة أساسية - أن هناك منفذا كبيرا لدخول علم نفسي. وثمة قصة تعزى إلى كارليل أنه قال وهو على فراش الموت بمناسبة رغبة الأسقف ستانلى فى تقديم بركات كنيسة ويستمنستر: « ذلك الخطاف للجثث ... لن ينال جثتى » . ولكن كيف السبيل إلى رواية كل هذه الأشياء، وآذان أبى - التى تهيم شغفا بسماعها - ربما تكون غير قادرة على السماع. لقد جاء روبرتسون وذهب، ولابد من أن أسرع إلى بيت هودجسون لتناول العشاء ثم أذهب بعد ذلك إلى الجمعية الأرسطوية ».

وفى الاجتماعات التى تلت ذلك لنادى « الخدش ٨ » عرض چيمس أفكاره - الأفكار الرئيسية لعلم نفسه الجديد، وشعر بثقة متزايدة فى أفكاره وفى قدرته على جعلها فعالة مؤثرة فى السامعين - على السواء.

ومن بين أعضاء نادى « الخدش ٨ » كان جورج كروم روبرتسون أسبق من عقد معه صلة الصداقة وأوثق من ارتبط به برباط الود، وروبرتسون هذا شغل منصب أستاذ الفلسفة العقلية والمنطق من سنة ١٨٦٧، فى كلية الجامعة بلندن، وكان أول محرر لمجلة العقل Mind. وكان رجلا فى مثل عمر چيمس وعلى شاكلته. وفى الحقيقة كان واحدا من أولئك الرجال الذين من نصيبهم المحتوم أن يحتلوا فى قلوب أصدقائهم أعز وأحب مكان، بدلا من أن يتجسدوا فى تماثيل من صنع أيديهم. كان عالما لوذعيا كاملا ومعلما خلاباً جذابا، ولكن ضميره الحيى وذمته المتيقظة وشهامته ومروءته ذاتها هى التى حالت بينه وبين أى إنتاج علمى ضخم[8]. كانت أبرز صفاته الجوهرية هى الزمالة والاشتراك فى عمل مع غيره. وإلى روبرتسون يعزو چيمس فضل مراجعة وطبع عدد كبير من مقالات الفلسفة والسيكولوجية المبكرة فى سنة ١٨٧٩، عندما كانت درجة الأستاذية التى يطمح إليها على كف عفريت .

وماتت زوجة روبرتسون فى شهر مايو سنة ١٨٩٢، ولم يعش روبرتسون نفسه بعدها سوى أربعة شهور. وقبل موتها بعشرة أيام كان قد كتب إلى چيمس أنه يائس من شفائها، ووصلت الرسالة إلى چيمس فى أوربا وكان جوابه عليها هو الآتى :

(8) His scattered writings, other than his volume on Hobbes, were published in 1893 under the title of Philosophical Remains.

فريبورج ١٥ يونيه سنة ١٨٩٢

« صديقى العزيز القديم :

إن رسالتك التى تمزق نياط القلوب والمحررة بتاريخ ٢١ مايو لم تصلنى إلا الآن فقط بعد أن حولت إلىّ من كامبردج. ما أشد حزنى. ما أشد أسفى. وما أثقل العبء الذى اضطررتما لحمله - كلاكما - طوال هذه السنين. ولكن يا صاحبى العزيز -- فى كل الظلام « الدامس كالليل الخالد » الذى يُزَنِّرُنا - لابد أن يكون ثمة مغزى وراءه فى حقيقة أن قلوب الناظرين تضطرم بالغيرة والحرارة عندما يرون أن كوارث مثل التى حاقت بكما - والتى تنوء بها العصبة أولو القوة - قد أمكنكما تحملها بمثل هذه الروح الأمينة المتينة الوفية غير شاكية ولا متذمرة. إن الخبرة التى تؤلف منها ذلك جزء متكامل لا يمكن أن تكون فى باطنها بمثل السوء الذى تبدو عليه فى ظاهرها. إنك طبعا أدرى الناس بما يحتويك من عجز وضعف وإخفاق وتقزز، ولكنى أؤكد لك أن حياتك للآخرين كانت منبع أعمق الهام، ولس عندى ما أقوله أكثر من ذلك. وداعا يا عزيزى القديم روبرتسون. لك أحر الأشواق والحب من صديقك.

« و. م. جيمس »

وبعد سنة ١٨٨٠، ولمدة الاثنى عشر عاما الباقية من حياته، أصيب روبرتسون بمرض مؤلم مميت - اعتبره - وفقا لتعاليم الرواقيين فرصته ليعيش بنبل. وعندما كتب چيمس عن موته وعن « العطر » الذى خلفته رجولته ومروءته وشهامته وراءها عاد بذاكرته إلى تلك الفترة من ١٨٨٢، ١٨٨٣: « من ذا الذى لم يلق منه مساعدة إذا كان فى وسعه أن يمد إليه يد العون، حتى عندما كان هو فى أمس الحاجة إلى المساعدة ؟ أنا - على سبيل المثال - لا يمكننى أن أنسى أبدا ما أدين به لتشجيعه ومروءته وشهامته ولطفه التى لا تكل ولا تمل منذ سنوات عديدة، ولولاه لقضيت فى لندن شتاء قاتما قاسيا »[٩].

فلنعد إلى نادى « الخدش ٨ » كما عرف چيمس أعضاءه فى سنة ١٨٨٢، ١٨٨٣. فأما بالنسبة لليزلى ستيفن الذى كان أسبق من چيمس بعشر سنوات، فقد

(9) Philos. Rev., 11, (1893), 255.

شعر چميس نحوه بالإعجاب والحب معا. ولكن ما كان من الممكن قيام نوع من المشاركة الوجدانية العميقة بين الرجلين. كان ستيفن يجنح إلى الجناح التشاؤمى الجبرى أو بالأحرى اليسارى من التجريبية، فى حين أن چيمس كان يجنح إلى الجناح الأيمن. وأما چيمس سلى الذى قابله چيمس لأول مرة فى حفلة عشاء أقامها نادى « الخدش » فقد أصبح صديقا مدى الحياة، وكانت أحكامه موضع احترامه فى مسائل علم النفس لا مسائل الفلسفة. وكتب چيمس فى هذا الصدد يقول: « لقد ألف كل منا الآخر بطريقة هادئة وطيدة ». وفى سنة ١٩١٠، عندما مات چيمس وصفه سلى بأنه « إحدى الدعامات القوية لحياتى »(١٠).

والفقرة التالية كتبها چيمس بعد مرجعه من رحلة إلى أوربا فى سنة ١٩٠٨:

« كانت الأيام العشرة الأخيرة التى قضيتها فى إنجلترا مضطربة مهوشة وعجولاً . ويؤسفنى أننى لم أرك بعد ذلك كله. والحقيقة هى أن واجباتى باعتبارى رب أسرة تدخلت كثيرا فى ميولى ورغباتى التى كانت قعيدة وملازمة وألوفة ولطيفة العشرة نحو أصدقائى القدامى. لم أر صديقى العزيز القديم شادورث هودجسون، الأمر الذى ندمت عليه جدا. ما أشد تغير الزمان. من بين كل أعضاء ذلك النادى الفلسفى العشائى الذى كان لك الفضل فى انضمامى إليه فى سنة ١٨٨٢، أنت وهو وأنا فقط الذين ما زالوا على قيد الحياة، إذا لم ، تخنى ذاكرتى. أما جورنى وروبرتسون، وستيفن وميتلاند فقد حصدهم الموت »(١١).

وأول من « حصدهم » الموت من هذه الزمرة (فى ١٨٨٨ وفى سن الواحد والأربعين) كان أدموند جورنى، الذى كان أحبهم إلى قلب چيمس. وولاؤه لجورنى وإعجابه وتقديره « لإخلاصه لهذا العمل غير المألوف » كانا أحد الحوافز القوية التى حملت چيمس على ملازمة سفينة البحوث النفسية (١٢).

---

(10) James Sully, My Life and Friends, T.E. Unwin.Ltd, 1918, 221, 249.

(11) November 9, 1908. James had evidently forgotten Frederick Pollock, whp still survived..

(12) To Carl Stumpf, February 6, 1887; L.W.J., 1, 267.

بيد أن ذلك الحافز لم يكن - بأية حال - الفضيلة الوحيدة أو الرئيسية التى جعلت چيمس يحمد جورنى ويقدره. لقد رأى فيه بشيرا « بمركب فكرى » يلزم أن يكون « أرسخ وأوطد من أى مركب فكرى لأى شخص آخر. فيما عدا - ربما - رويس »[١٣]. فإذا أضيفت إلى « قوة » جورنى « الميتافزيقية النادرة »، « أرق قلب بين جنبيه » فلا عجب أن فى موت جورنى « غلب ملاك الموت، حتى نفسه فى القسوة »[١٤].

كتب چيمس إلى روبرتسون رسالة فى الثانى والعشرين من أغسطس سنة ١٨٨٨ يقول فيها :

« جورنى المسكين . لشد ما سأفتقد وجود هذا الرجل فى الدنيا. أعتقد - من قبيل مقارنة الأشياء الحقيرة بالعظيمة، أنه كان هناك نوع خارق للعادة من لحمة النسب بين عقلى وعقله. كانت مشكلاتنا واحدة، وحلولنا فى معظمها واحدة. لقد التهمت بكل شغف كل كلمة كتبها وكنت دائما على وعى خاد به باعتبارها ناقدًا وحكمًا. كان لديه الكم والكيف سواء بسواء وكنت أؤمل عملا فلسفيا عظيما منه قبل أن يمضى. والآن، لقد أصبحت الدنيا أكثر خواء !

والعبارات الأخيرة من التقدمة التى كتبها صديقهما المشترك ف . و. هـ، مايرز بعد وفاة جورنى، كانت صدى لما يعتمل فى نفس چيمس، وكان من الممكن أن يقولها بالحرف الواحد: « لم يذهب حزنه على بلايا البشر وهمومهم سدى، لقد أدمن الطرق على حواجز سجننا الأراضى الذى نعيش رهين محبسه، وأفلح فى شق فتحة ضيقة نستطيع أن نستنشق منها نسيم الخلود »[١٥].

وفى اليوم الثالث عشر من يناير سنة ١٨٨٨ ، كتب چيمس لزوجته:

---

(13) W.J. to H.j.2, July 11, 1888, L.w.J., 1,280. For Royce Cf. below, ch XVIII.

(14) Nation. XI. VII (1888). 53.

(15) Proce. of Soc. for Psych. Research, V. (1889-9). For Myers cf. below, 204 ff.

« قضيت ليلة مؤنسة مساء الأمس فى نادى « الخدش ٨ » كلهم رفاق فى غاية الظرف. إن جورنى يبدو لى رجلاً عظيماً ضخماً يملك قوة فياضة إلى غير حد. ولكن هودجسون ليس سوى ملاك من لحم ودم، إنه أروع وأنفس مخلوق بشرى رأيته فى حياتى، جنتلمان سميدع من فرع رأسه إلى أخمص قدميه، وفيلسوف محترف فى آن . إننى أحب هذا المزيج النادر ».

وفى حين أن جورنى أصبح عند چيمس أحب وأعز الرفاق فى الزمرة الإنجليزية، فإن شادورث هودجسون « المقدس » كان هو المصدر الذى استقى منه چيمس بغزارة معينه الفلسفى، هودجسون « أغنى منجم للفكر » قدر له « أن يلقاه فى حياته »[16].

كان هودجسون عالما خاصا غير مقيد، وكان يكبر چيمس بعشر سنوات، ولكن قدر له أن يعيش بعده، وكان موضع احترام معاصريه الذين عرفوه وتحدث معهم، ولكنه لقى إهمالا وإغفالا من الخلف الذين لا يمكنهم التفاعل معه إلا عن طريق كتبه. وكان - مثل چيمس ومن قبل چيمس - تجريبيا مقوّما يهدف إلى إعادة مقام التقليد البريطانى إلى سابق هيبته ومكانته. واعتبره چيمس حليف ظهيراً فى هذه القضية. وعلى غرار چيمس ورينوفيير شهر حربا ضد كل جوهر وكل قوام - فوقى أو تحتى - دفاعا عن الظواهر، عن الأشياء كما تعطى الخبرة. وكان أمل چيمس الحمسى - والذى قدر له أن يخيب - هو أن يكون هذان الفيلسوفان العظيمان عظيمين أحدهما حيال الآخر مثلما كانا عظيمين حياله . كان يمشى بينهما فرحا منبسط الأسارير متأبط ذراع هودجسون من جانب وذراع رينوفيير من الجانب الآخر، متلفتا إلى هذا مرة وذاك مرة أخرى، وقد برق وجهه بأشعة المودة والصداقة، بينا يستجيب له شريكاه ذات اليمين وذات الشمال بنفس المودة والصداقة، ولكن بنصف إحجام. ولكن كلا منهما كان يحيى الآخر بما لا يزيد على إيماءة ودية على أحسن الفروض. والذى حدث أن كلا من رينوفيير وهودجسون لم يخفقا فقط فى اكتشاف أن كلا منهما كان توأم الآخر وشقيق

(16) W.J. to Josiah Royce. February 16, 1879; L.W.J., 203.

روحه، وإنما چيمس نفسه على الرغم من عرفانه بالجميل أبد الدهر، سرعان ما شعر أن أحدا منهما لم يحقق المصير أو النصيب الذى كان قد عينه لهما. فعلى الرغم من إقرارهما واعترافهما بالتجريبية، فإن كليهما - فى نظره - استسلم فى النهاية لجراثيم المذهب العقلى (المعتقد بكفاية العقل دون الوحى)، بل لجراثيم الوحدانية التى أصابتهما بعدواها فى نشأتهما المبكرة.

على أن تلك الشهور التى جلبت لچيمس كثيرا جدا من الإنعاش الفكرى والشخصى لم تخل من منغصات. لقد زاد ثقل حنينه الطبيعى إلى الوطن وطأة عليه من جراء الثكل. فلقد ماتت أمه فى يناير من السنة السابقة، وجاء دور أبيه فمات فى ١٨ ديسمبر قبل أن يتمكن هنرى من الوصول إليه قبل موته. ولقد انعكست هذه الحالة من الكآبة فى تعليقاته على كل ما يحيط به فى رسالة بعث بها إلى أخيه فى بوسطن :

« لندن » ٩ يناير سنة ١٨٨٣ [١٧].

« عزيزى هارى :

إن الافتقار الكامل لأية دلالة إجمالية أو تعبير خارجى عن الذكاء الصافى المباشر هو الذى يسترعى نظرى هنا بشكل ضارب. فبعد باريس، تبدو لندن كقرية من قرى القرون الوسطى . بلا شىء سوى غطائها من القذارة المذهبة لكى تحل محل الأسلوب والجمال والبيان والإدراك. ثمة أوقات يشعر فيها المرء بأن الأولى كانت بديلا مسكينا ركيكا. ثم لا يلبث المرء فى أوقات أخرى - أن يضجر ويمل من ذلك الغباء الإجمالى الذى يعم كل شىء بأسره، غباء ثقيل كثيف يشوبه ضرب من التوطيد الذاتى الطوعى مما لم أر له مثيلا فى أى مكان آخر تحت الشمس. إن ألمانيا تعتبر جنة السماح والرشاقة فى أنقى مراتبهما ومثابة الإشراق والتألق إذا قورنت بهذه الحياة المعرقلة بكل أنواع ما لا لزوم له من فاقد الشعور. متحركة عبر القرون تحت أقمطتها الغليظة ولا تعى بما فوقها من عبء وإصر. إنها تروقنى بوصفها صورة مادية، لاشك أن لها مساسا بأحوال الظواهر الجوية التى أعيش فى ظلها هنا: هذه هى إنجلترا تحت ضباب قذر دنس ملطخ ملوث داخن قاتم، عفية سعيدة شديدة اليأس، سليمة قوية يلفها الأثير المتبع بضوء الشمس من خارجها. وهى مع ذلك لا تحسب أو لا يهمها أن تحسب أنها بنفخة واحدة من نفسها تستطيع أن تميط اللثام وتمزق الحجاب إلى الفضاء المطلق.

---

(17) A. Paragraph from this letter is cited abive, 41.

ليتك ترى معرض روزيتى. إنه من عمل إحدى الطالبات فى مدرسة داخلية، لا لون ولا رسم ولا مهارة من أى نوع، لا شيء سوى الوهن المجسم، وضرب من الغرض المنقح الحاضر إلى أقصى درجة دون أية قوة فنية خبيرة تعين على بلوغه. ولكن يا لهول ما سمعت من عبارات الإعجاب من المشاهدين. ثم المسارح وما أدراك ما المسارح ! وأصول الإعجاب والسرور التى تصدر عن المتفرجين والتى تشبه ما يصدر عن (سيد قشطة) ! إن مسارحنا بكل ما فيها من عيوب ونقائص لم تبلغ هذا الحد الكثيف الميئوس منه. إنها تجعل باريس تبدو كما لو كانت أثينا القديمة. ثم ذلك الإصرار من جانب كل الكتاب، على أن يكتبوا باعتبارهم هواة، فلا يستعملون أبدا أساليب ولغة الكاتب المحترف، وكل ما يعنى الواحد منهم هو أن يكون أولا من غير أرباب الفن أو المهنة، وقبل كل شيء جنتلمان سميدع ويدعى أن أفكاره تجيء إليه عفو الخاطر كيفما اتفق، وأنها أمور لا تعنيه ولا ناقة له فيها ولا جمل. كما قلت لك من قبل، إن المرء ينفد صبره أحيانا ويجد نفسه يتسا ل فى حيرة عما إذا كان فى وسع بريطانيا أن تمضى إلى الأبد فى هذا الشوط، فى الوقت الذى يعيش فيه منافسوها ومزاحموها على هدى ضوء العقل الصافى إلى هذه الدرجة العظيمة، وهى تتخبط خبط عشواء على مسار موصول من الخطأ بلا نظام ولا تدبر، حاسبة أن الحظ البحت سميد لها يده لكى يعينها على أن تجد الصالح والخير والنافع . بالقطاعى. إنه لغز محير ! إنها لم تفشل أبدا فى أن تجده - حتى الآن - وبنسبة أعلى من مزاحميها، بطريقتها الفريدة فى الانسياق فى الخطأ حتى تصادف الصواب بالحظ. ولكن هل سيستمر ذلك إلى الأبد؟ وهل يمكنها أن تحارب دائما دون أن تجرد سلاحا أو تشفشف ضرعا ؟ أفلا يكرهها الوضوح العام والمضاء والحدة المصاحبة لعصر عقلى على أن تطوح ببعض سفسافها وهرائها أو تتخلف عن الركوب؟

أخوك المحب دائما

« و . م . جيمس »

وبالنسبة لهنرى - الذى كانت وجهة نظره عن إنجلترا جد مختلفة فقد كان مما لا يمكن تصديقه أن يصر وليام على وجوب عودته عاجلا إلى الوطن. وفى رسالة حررها فى ١١ يناير، تقاطعت مع رسالة وليام فى الطريق، كتب يقول :

« إنك تتحدث عن إصرارك على أن تبحر « على أقصى تقدير فى التأخر على متن السيرفيا التى ستقلع يوم ١١ فبراير » وأن الأسى ليحز فى نفسى لدرجة تكاد تبكينى. وعندما أنظر إلى المشهد القفر الذى ينتظرك هنا (ما خلا زوجتك وأطفالك) أشعر بأننى محق فى فعل أى شيء يستبقيك على الجانب الآخر ... إنها فرصة ومصادفة، قد لا يجود بها الدهر مرة ثانية لسنوات قد

تطول وتطول . كل هذه الخواطر دهمتنى هذا الصباح عندما ذهبت إلى الفضاء القفر الذى تطالعك به كمبريدج. وقلت لنفسى: أهذا وحياتك فيه هو ما تتعجل العودة إليه ؟ مهما طال بقاؤك فى إنجلترا فإنك ستستأنف حياتك هنا عاجلا أم آجلا، فلم - لا تنتهز الفرصة وتعترض سبيل عودتك أطول ما يمكن قبل حلول ذلك اليوم. خليق بك أن تستمر أطول وقت ممكن فى أوربا مادامت الفرصة فى يدك فعلا . لذلك دعنى أقول لك، الزم أوربا حتى الصيف على الرغم من كل شىء، موطدا ثقتك بأنك تفيد من إقامتك هناك فائدة عظيمة، وأن ذلك عمل مجد وقيِّم ».

وأجاب وليام على هذه الرسالة فى الثالث والعشرين من يناير بقوله :

« إن الفزع الذى يبدو أنك تشعر به حيال كمبريدج شىء لا أشاركك الرأى فيه، ولم يجد له صدى فى نفسى، علما بأننى أفضل كمبريدج وأوثرها على أى مكان آخر فى عالمنا المعروف. فؤادى يهوى إلى كامبردج. وشعورى بنعيمها المقيم لا يدانيه أى شعور آخر، سواء أأكتب فى لندن أم فى أوربا، على الإطلاق.

الحقيقة هى أن كلا منا يتحدث من وجهة نظر عمله الخاص به، إن المكان الذى يستطيع المرء فيه أن ينجز عمله على أحسن وجه، يبدو وينبغى أن يبدو مكان الأمكنة بالنسبة له. أشعر بحافز يغرينى على العودة الآن، لكى أثبت لك فقط كيف يكون المرء سعيدا فى الظروف التعيسة التى تغم خيالك إلى هذا الحد ».

بيد أن چيمس لم يعد فورا إلى الوطن كما دبر وقدر. لقد طرأ عليه شىء من التحسن فى صحته وفى مقدرته على العمل، وأثمرت بعض صداقاته وأينعت، ثم استحثاثات أخيه هنرى، كل ذلك أفضى بچيمس إلى إطالة مدة إقامته فى لندن، ولكن إلى مارس فقط .

(١٨)

جوزياه رويس والمثالية

عندما استأنف چيمس إلقاء دروسه فى خريف سنة ١٨٨٣، كان قسم الفلسفة قد كبر بضم جوزياه رويس إليه، الذى كان قد دعى من كاليفورنيا ليحل محل چيمس فى أثناء غيبته، والذى استبقى الآن بصفة مستديمة وقدر له أن يصبح واحدا من أعظم علماء هارفارد شهرة وذيوع صيت، وزميلا وثيق الصلة وجاراً محبوبا كريما لچيمس.

وقصة علاقة چيمس برويس تؤلف الخيط الرئيسى فى نسيج علاقاته « بالمثالية » تلك الفلسفة التى انبثقت من كانت، ثم تطورت وراجت فى ألمانيا على يد فيشته، وهيجل، وشيلنج، وشوبنهاور. فلما نقلت بذورها وغرست فى إنجلترا، عبرت من هناك ثم إلى الولايات المتحدة الأمريكية واحتلت مقاما عليًا بسرعة. وكان زميل چيمس - جورج هربرت بالمر الذى كان أقدم من چيمس فى المهنة - أحد أنصارها المعتدلين. ولكن رويس هو الذى أصبح أقوى فرسان حلبتها، وأصبح عند چيمس أروع أبطالها بلا منازع .

بيد أنه بالنسبة لچيمس فى سنة ١٨٨٣، لم تكن المثالية ولا رويس أمرا جديدا عليه، فمنذ زمان طويل وهو يجمع الذخيرة استعدادا للحملة والجهاد. لقد كتب فى سنة

١٨٦٨، إلى هولمز يقول: « من الآن أرى سحابة كائنة من المثالية المطلقة تنتظرنى بعيدا على الأفق، وليس بى هوى أو شهوة للعراك»[١].

ولكن هذه الشهوة سرعان ما انبجست. ففى أول الأمر هاجم المثالية بالأسلحة الحقيقية التى كان يتقن استعمالها وتدبيرها. كان يشير إلى جماعة المثاليين الأمريكيين بعبارة « العصبة ذات الجناح الأبيض » الذين « تتعارض أهواؤهم الكهنونية » تعارضا عجيبا مع « عقم » فكرتهم[٢].

كان يتحدث عن مقاومة غزوات هذه الفلسفة « المتعفنة إلى الباب والمعطوبة بالتدجيل والشعوذة لدرجة لن تسمح لها بالبقاء طويلا ») كتسليته الرئيسية فى أثناء شتاء ١٨٧٩ - ١٨٨٠[٣].

وفى مقاله الشهير بعنوان « عن بعض الهيجيليات » الذى نشر فى سنة ١٨٨٢، فضح وهتك، أصدقاءه المثاليين، بمقارنة الهيجيلية الجدلية بتجربة التسمم بغاز أوكسيد النتروس المشبع بملح البارود. وكتب فى مقال آخر نشر فى سنة ١٨٨٤ ما يلى :

« يقينا، وفيما أعلم شخصيا، ليس كل الهيجيليين خنازير، ولكنى أشعر على نحو ما، كما لو كان من المحتم على كل الخنازير أن ينتهوا، إلى أن يصبحوا هيجيليين .. إن فلسفة « على طول وعلى طول » كما هى قائمة فعلا، يبدو أنها مرورة جدا وخانقة جدا بربطة رقبة بيضاء، وحليقة جدا ناعمة الملمس لدرجة لا تمكنها من التحدث باسم النظام الكونى البطىء التنفس بمهاويه الرهيبة وتياراته المجهولة »[٤].

(1) May 15, 1868; of. above, 96.

(2) To Royce, February 3, 1880: L.WJ., 1, 205.

(3) To Renouvier, December 27, 1880; L.W.J., 208.

(4) "Absolutism and Empiricism", mind IX (1884),285, reprinted in E.R.E., 276-8).

بيد أنه بمضى الوقت بدأ يزداد احترامه لهذه الفلسفة حتى عد الهيجيليين فى ختام حياته فئة « من أعظم أنماط البصر الكونى »[٥]. وفى حين أنه استمر يتمسك بأن « خط التقدم الفلسفى » لا يكمن « بوساطة كانت بقدر ما هو حوله »، وأن « الحق يمكن بلوغه على نحو أفضل بمد خطى لوك وهيوم فحسب »[٦]. فإنه أيقن أن المثالية لا يمكن إبعادها وصرفها بسهولة واستخفاف. لقد قضى أعواما فى الحصول على حق نبذها، والفضل فى تقوية عضلاته الفلسفية راجع - إلى حد كبير - إلى علاقاته وصلاته بجوزياه رويس. فى سنة ١٨٨٨ فى ٢٦ يوليو كتب چيمس إلى رينوفيير عن رويس : إننى إلى حد ما - راعيه - لأننى أنا الذى اكتشفته فى كاليفورنيا وأتيت به إلى كلية هارفارد، حيث أحدث كوكبه الدرى كسوفا لنجمى الفلسفى الخافت الضوء ».

ولد رويس الذى كان يصغر چيمس بثلاثة عشر عاما فى وادى المراعى على منحدرات جبال سيرا، وتعلم فى مدارس سان فرانسسكو العامة وفى جامعة كاليفورنيا. ثم أكمل دراساته فى جامعة جونز هوبكنز، وقضى عاما فى ألمانيا حيث تأثر تأثيرا عميقا بفلسفة وأدب الحركة الرومانتيكية. وإبان وجوده فى شرق أمريكا زار چيمس، ولقد وصف هذا اللقاء الأول فى حفلة عشاء أقيمت فى بيت چيمس سنة ١٩١٠:

« لقد بدأت معرفتى الحقيقة بمضيفنا أحد أيام صيف سنة ١٨٧٧، عندما زرته أولا فى دارهم فى شارع كوينسى، وأتيحت لى الفرصة أن أفضى بدخيلة نفسى لإنسان كان يبدو عليه أنه مؤمن حقا بأن من حق شاب فى مقتبل العمر أن يكرس نفسه وحياته للفلسفة، إذا اختار ذلك . لقد اكتشفنى چيمس فورا وتبين اهتماماتى الجوهرية فى أول لقاء لنا، وتقبلنى بقبول حسن، وبكل ما فىّ من نقائص وشوائب، على اعتبار أننى واحد من تلك الأرواح العديدة التى من حقها أن تتاح لها القدرة

(5) F.U., 108.

(6) C.E.R., 436-7: Noues made in 1896-7 for an article on Kant which he never published.

على اكتشاف ذواتها بطريقتها الخاصة. واستمع إلىّ بأذن صاغية واعية صبور وأنا أقص عليه ما فى جعبتى من أشتات خبرتى الفلسفية، ثم بذل نفوذه منذ ذلك الوقت فصاعدا لا ليكسبنى باعتبارى تابعًا، ولكن ليهيئ لى فرصتى .. فكيفما أكون فالفضل - فى هذا المعنى - راجع إليه ..

وأحيانا عبَّر بعض الناقدين عن ذلك بالقول بأن چيمس كان دائما مغرما جدا بالمعوجين الغلابين من الناس غير المأمونين، وأن هذه الفئة من الناس قد بادلته حبا بحب. فليكن أنا واحد من مريدى چيمس من تلك الفئة من المعوجين. كان طيبا معى وأنا أحبه. إن نتيجة صلاتى المبكرة بچيمس هى أنها جعلتنى لسنوات حواريه وتلميذه، وما زلت إلى حد كبير تحت سحر رقبته. فإذا كنت أخاصمه وأنازعه أحيانا، فأعتقد أنه بروحه الحرة المسماحة هو الذى علمنى هذه الحرية إلى حد كبير »[٧].

وعندما غادر چيمس الوطن إلى الخارج سنة ١٨٨٢ - ١٨٨٣، أوصى بأن يحل محله رويس طوال العام الدراسى، مؤهلا ومتنبئًا بأن رويس حين يوطد نفسه راسخا على أرض ثابتة، سيظفر بمكان ثابت فى القسم، كما حدث فعلا. وفى الفترة الأولى من تراسلهما وجد چيمس ورويس أنهما على وفاق فى الرأى لمدة ما، فكلاهما مهتم « بالحوافز التى تدفع الناس إلى التفلسف »[8]. وكان چيمس قد قاد زمام هذه المسألة بمقاله (الذى كتب فى سنة ١٨٧٧، ونشر فى سنة ١٨٧٩) عن « عاطفة التعقل »، ووجد الاثنان حوافزهما العميقة فى الإرادة بدلا من الفكر البحت. وثمة وشائج أخرى كانت تؤلف بين قلبهما، وشائج فلسفية ووشائج خلقية وصلة الجوار. ولكن بمضى الزمن أصبح من الجلى أكثر وأكثر أن الاتفاق بين سليلى المدرستين البريطانية والكانتية لا يمكن أن يكون أكثر من اتفاق موقوت وسطحى. كانت التجريبية والتعددية فى دم چيمس، وكانت العقلية والوجدانية فى دم رويس. وعندما ظهر كتاب رويس الأول « الناحية الدينية للفلسفة » فى سنة ١٨٨٥، زكاه چيمس لهودجسون ورينوفيير،

(7) Harvard Graduates" Magazine, XVIII (1910), 631-2.

(8) Mind (IV), 346, footnote.

لا بسبب ما يتفق معه فى آرائه التى عرضها بقدر ما حواه من مجادلة مبتكرة لإثبات « المطلق » - ذلك الكائن الروحى الشامل المحيط الذى وسع كل شىء، وإليه ترجع الأمور والذى وحده خلفاء كانت (وعلى وجه الأخص الهيجيليون) موافقا ومجانسا وممكن الإثبات . ولم يقبل چيمس شيئا من ذلك، واقتضى الأمر منه عددا من السنين لكى يجد الإجابات الوافية للرد على الحجج - وخصوصا حجة رويس - التى انبثقت من نفس نقط البدء التى أنطلقت منها حجته. والأفكار الإنسانية تشير إلى أشياء أو موضوعات تقع وراءها وتتجاوزها، وهى إما صحيحة أو باطلة، وصحتها أو بطلانها لابد إذن أن يكون رابضا فى نطاق وعى أعلى يتضمن الفكرة وموضوعها. ولم يقتنع چيمس إلا بعد سنة ١٨٨٠، وما تلاها - بصفة نهائية - وبعد « جولة أخيرة مع نظرية رويس »[٩]، بأن الفكرة وموضوعها، وإشارة الواحدة للأخرى، ومرجع هذه لتلك، يمكن أن يتم فى نطاق الخبرة الإنسانية، الأمر الذى يجعل. من ثم، المطلق لا لزوم له فكريا، مثلما كان غير مقبول أخلاقيا.

وثمة لمحة عن شخصية رويس تزودنا بها فقرات من رسالة إلى چيمس كتبها رويس عندما كان يقوم بإحدى رحلاته البحرية، حيث اعتاد أن يلتمس فيها الترويح والاستجمام من عناء العمل الأكاديمى:

« المحيط الجنوبى :

المدار: عليب بعد ٦٠٠ ميل من ملبورن.

خط العرض ٤٠° جنوبا.

خط الطول ١٣٥° شرقا.

٢١ مايو سنة ١٨٨٨.

---

(9) W.J. to Dickinusons. Miller, November 19, L.W.J., 11, 18.

عزيزى چيمس :

كان من المحتم أن تكون هذه الرسالة طويلة لو أننى تعهدت بأن أخبرك بكل ما جرى إلىَّ منذ وقعت عيناى لآخر مرة على منار ميناء بوسطون، ولكنى مضطر للإيجاز إذ لدىَّ رسائل أخرى كثيرة لابد أن أكتبها، مع رياح وطيور البحر الجنوبى أقبلت حياة جديدة . لقد نشط عقلى طوال الوقت ولم يكف عن التفكير. وفى أعماق خوائى أقرأ علم الميكانيكا والرياضيات ومارتينو وحتى كازانوفا ببصيرة نزيهة تحاول النفاد إلى جوهر خواء التكاملات الثانية، والعذارى اللاتى يسهل غزو قلوبهن، والقوانين المقدسة قاطعة . ولكن فى حين استغرقت فى التأمل فى عالم الشهوة، فإن عقلى كان بريئا طاهر الذيل إلى الذى تذهب إليه ميكانيكا التفكير المجرد. والآن أقبل الهوى مرة أخرى ويبدو إلى العناية الإلهية تغمس يدها فى ملكوتها الأرضى من الشمس والمجرات، الأمر الذى أيقظ ذكائى وزاده إيجابية، ومن ثم أصبحت أنظر أكثر وأكثر إلى المرحلة بوصفها خبرة تربية من أعلى طراز. وصفوة القول فقد حللت بعد لأىٍ العقدة الميتافيزيقية الكبرى من الخلود والحرية ومعادلة الكون - التى - كما تذكر - كانت تخبلنى عندما بدأت ...

ولقد وفقت إلى صحبة طيبة على ظهر السفينة. قبطان السفينة رجل يانكى من أهالى كيب كود - جدير بموطنه ونسبه - قرأ كثيرا فى ساعات أسفارة الطويلة فى البحر، ومن ثم فهو من الطراز التأملى المتفكر . ومن حين لآخر يضطرنى إلى أن أقر له الميتافيزيقيا على النحو التالى : نحن نجلس على ظهر السفينة فى المنطقة الإستوائية نرنو إلى السماء ونتحدث عن كتاب نيوكوم فى علم الفلك الذى يقرؤه القبطان. وهو الآن يزداد تأملا وتفكرا فى ملكوت السموات، وفى الأبعاد الهائلة بين النجوم والكواكب السيارة وبقية الأجرام السماوية ثم يبدى الملاحظة التالية: « حسنا - إنها تبدو لى وكأنها لا تشىء أى شىء سوى حلم. أفلم يخطر ببالك أبدا أن الأمر كله فى الملأ الأعلى. وفى الحياة أيضا، قد يكون حلما من نسج وهنا، وأنه ربما - لا يوجد شىء - أى شىء - حقيقى ؟ » وأقر له أن مثل تلك الأفكار طاقت بخاطرى. فيقول لى : « بإذن - ماذا تعلم فصولك فى هارفارد عن كل ذلك؟» ومن ثم، وقد طلب منى أن أشرح - وسط هبوب الرياح التجارى وتحت خفقات الأشرعة - ألغاز المثالية المطلقة، فإننى أطرح المسألة على النحو التالى : « كان يا ما كان، فى سالف الزمان، رجل من أهالى كيب كود ذهب إلى بوسطن لكى يستمع إلى محاضرة لمارك توين، وليمتع روحه ويطربها، بأعظم مازح تربع على عرش الفكاهة عندنا - ولكنه - عندما وصل إلى بوسطن - كما علمت - ضل طريقه وأخطأ قصده - وبدلا من أن يستمع إلى مارك توين استمع إلى إحدى محاضرات جوزيف كوك التى يلقيها يوم الإثنين من كل أسبوع، فلما عاد إلى أهله وعشيرته فى كيب كود سألوه عما وعاه من محاضرة مارك توين وقالوا: « هل كانت فكاهية جدا ؟».

فأجاب الرجل بحذر(*): « أوه ... لقد كانت فكاهية – نعم – كانت فكاهية . ولكن. يا إخوانى . لم تكن فكاهية إلى درجة تستحق اللعنة . إلى هذا الحد ». ثم أمضى قائلا للقبطان « وبالمثل يا سيدى القبطان، أنا أعلم فى هارفارد أن السموات والكواكب والملأ الأعلى كلها حقيقية – ولكنها ليست حقيقية، إلى هذا الحد ... إلى درجة تستحق اللعنة » . ومنذ ذلك الوقت والقبطان من أشد المتحمسين لقراءة كتاب « الناحية الدينية للفلسفة » يقبل على قراءته ودراسته بإخلاص من حين لآخر، وإن كان فى الفترات التى يقل فيها حماسه ويصفو ذهنه يؤكد أن الحصيلة برمتها هراء هذرى ... وبقية ألوان الحياة فى السفينة – سارة بارة – على الإجمال. ولقد نجوت تماما من دوار البحر فى مستهل الرحلة، ربما بسبب أعصابى المضطربة غير الطبيعية. فلتحل بركة الله على بيتكم.

المخلص جدا

جوزياه رويس »

وبمضى الوقت، انتقل چيمس من الدفاع إلى الهجوم، ثم من الهجوم إلى التسامح . ومن ثم كتب فى سنة ١٨٩٩:

« منذ أن بدأت تعليم « مفاهيم الله: The Conceptions ct God » وقد بدأت أدرك ما لم يكن فى وسعى أن أؤمن به من قبل، أن انحلال الفكرة هو عنصر « ر » الجوهرى. إنه يريدها ليس ثمة مفصل لاحم فى نسق فكرته . ولا مفصل واحد على سبيل الحصر. ولقد حسبت أن عقلا كعقله قادر على أن يقودنى فى متاهات الرياضيات والمنطق بألغازها ومعمياتها وأحجيتها – عقلا تسليته المفضلة هى التأليف والشغل فى هذه الموضوعات – لابد بالضرورة أن يخفى « كلمة » وضوابط محكمة من القياس المنطقى والاستدلال والاستخراج التى لا يتيح لى ذكائى أن أكتشفها، ولكنك لن تجد عنده مثقال ذرة من الاستدارة القاطعة أبدا، ولا مثقال ذرة من التمام أو الكمال أبدا. ولكن أليست الخصوبة أحسن من الكمال ؟ »[١٠].

(*) ربما يكون أكثر عونا للقارئ على فهم مضمون هذه القصة أن أنقل له النص الإنجليزى بحذافيره لاحتوائه تعبيرا – مهما برع المترجم فى ترجمته – فلن يضاهى الأصل على نحو يرضى ضمير المترجم:

"Oh, it was funny, Yes, - it was runny, but then, you see, it wasn't so damned funny".

(10) To Dickinson S. Miller, January 31, 1899; L.W.j.,11, 86.

وفى سنة ١٨٩٩ ألقى رويس مقرره المعروف بمحاضرات جيفورد.

وفى سنة ١٩٠٠، رحل چيمس إلى الخارج لنفس السبب. وثمة من الرسائل المتبادلة بينهما تكشف عن أن الصداقة القائمة بين الاثنين لم يصبها وهن أو فتور بسبب اختلافهما الفلسفى العميق. كتب رويس من كامبردج فى ١٢ سبتمبر سنة ١٩٠٠:

« إن العام الآتى سيكون عاما موحشا جدا بدونك. ثم إن شغفى بهارفارد مرتبط ارتباطا وثيقا بعلاقاتى وصلاتى بك أكثر من أى شىء آخر. فالفلسفة أنا أحبها لذاتها، والحياة أحبها لمغزاها العام. أما هارفارد فهى عنت لى أصلا أنت ورباطنا القديم الوثيق لا يزال على أعمق ما كانه. سأستمر وأمضى فى محاضراتى، ولكن القسم لا يمكن أن يكون له معناه الحقيقى بالنسبة لى شخصيا إلا وأنت هنا. ويجب علىَّ أن أفصح عن ذلك بوضوح بلسانى، لأننى لا أحسن كتابة الرسائل والتعبير فيها عن كل ما يعتمل فى دخيلة نفسى ثم إننى رجل صامت كتوم وأخشى أن تظن فى أن رباطى الوثيق بك أوهى مما هو دائما. إن عيبى باعتبارى كاتب رسائل هو نتيجة لكثرة ما أكتب فى غير الرسائل. إن مراكز الكتابة لا تدور ولا تثور إلا حول المحاضرات والكتب. ولكن للفؤاد حياته أيضا. لشد منا أفتقدك من صميم صميمى».

وأجاب چيمس عن تلك الرسالة بالآتى:

«نارهايم ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٠٠[11]

« الحبيب رويس :

كم كان سرورى لتسلم رسالتك الطويلة المبهجة مساء الأمس، لا حاجة إلى أن أقول يا فتاى العجوز العزيز، كم تأثر فؤادى بما أفصحت عنه من مكنون حبك وودك.، وكم أنعمت علىَّ من سرور إذ تقول لى إنك افتقدتنى. إننى أيضا أفتقدك جدا وأحن إليك من صميم فؤادى. إننى لا أجد فى نادلى الفندق ولا خادماته ولا مغسليه – الذين لا أكاد أحظى بصحبة أحد غيرهم – ذلك المزيج الفريد الفذ من : سعة الاطلاع واللوذعية والابتداع والعمق والشمول والإحاطة والذكاء والفطنة والسماح والهويناء التى بتعويدك لى عليها طوال كل تلك السنوات أفسدت علىَّ رضائى بالذى هو أدنى منها من أنواع الحديث والمعاشرة. إنك لا تزال بؤرة انتباهى ومركز بصرى وقبلة فؤادى والقطب الذى يجذب

(11) L.W.J. 11, 135-8.

مغناطيس عقلي . وعندما أكتب فإنني أكتب بإحدى عيني مثبتة على الصفحة والأخرى ترنو إليك. وعندما أؤلف محاضرات جيفورد - في عقلي - فإنني أضع نصب عيني قصدا واحدا لا أبتغي سواه وهو، أن أحب فكرتك ووجهة نظرك وأمحق سكينتك وأقوض دعائم سلامك. إنني أعيش حياة طفيلية عليك لأن أقصى ما ينشده مثلي الأعلى في طموحه هو، أن أصبح قاهرك وغالبك ويقول عني التاريخ إنني قاهر رويس، وقد اعتنق كل منا صاحبه في صمت (أو من الأفضل أن نكون لا نزال نرغي ونشقشق ونلهضم) عل إثر آخر جولة في الحلبة نموت بعدها وقد تشبث كل منا بحضن الآخر. آه يا عزيزي رويس هل يتسنى لي أن أنساك أو أشعر بالرضا بعيدا عن حوارك الوثيق ؟ وبقدر ما بين عقلينا من اختلاف فإن عقلك غذى عقلي ورواه كما لم يغذه أو يروه أي تأثير اجتماعي آخر، وكلما تحدثت معك، أشعر دائما أن حياتي لها طعم ومعنى، وأنني لا أعيش عبثا وإنما أعيش حياة لها أهميتها وخطرها. ثم إن عقلينا ليسا مختلفين في الموضوع الذي يتصورانه ه ويواجهانه. إنه السمك المادي - الخلقي - الروحي برمته الذي يسلخ منه معظم الناس شظية قشرية هزيلة. هو الذي يحتويه كلانا بعينه، ويحيط به بنظرته. كلانا « ينشده بصفة عامة » في حين أن معظم الناس لا يفعلون . أعتقد أننا لن نفترق في المقام إلى الأبد - على الرغم من أن معادلة كل منا في الحياة لن تلتقيا في مسكن واحد .

حبي لكم جميعا

« و.ج .»

ومن المستحيل أن نفهم علاقات چيمس بالحركة الكانتية المثالية لزمانه، ما لم ندخل في اعتبارنا وحسابنا المكانة العجيبة التي كانت تتمتع بها تلك الحركة. كانت تدعي لنفسها نوعا من حق الخلافة الرسولية بعد ليبنتز تختص بحوارييه خلفا عن سلف. على وتيرة الفلاسفة الكبار الذين انبجسوا من أفلاطون. ولقد لقيت هذه الدعوى اعترافا وإقرارا على نطاق واسع جدا، بحيث إن فلاسفة المدارس الأخرى في العقدين أو الثلاثة الأخيرة من القرن التاسع عشر، وخصوصا في إنجلترا وفرنسا شعروا بأنهم في موقف دفاع. وهذه الحالة العقلية تفسر ليس فقط كمية الوقت الذي أنفقه چيمس في التخلص من نيرها، ولكنها تفسر أيضا العنف الذي انتهجه في هذا الصدد. فقبيل ختام حياته حلت محل انفعالات وعواطف الاحترام والاحتقار نغمة

استواء ولهجة أكثر إنصافا. فلما انفثأت وانفش ورمها، وافتضحت مزاعمها المتعجرفة. ونزعت الثقة من ادعاءاتها المتكبرة، أخذت المثالية المطلقة مكانها بين العروض الرئيسية الكبرى التى يجب على الفيلسوف أن يختار من بينها ويتخذ سبيله فى الفلسفة.

ولقد كان فى أثناء نفس تلك الفترة التكوينية من الثمانينيات المبكرة عندما بدأ چيمس بعقد صلحا مع المثالية، أن عقد چيمس أواصر الصلة الوثيقة مع توماس دافيدسون وجورج هـ . هوويسون. وكان من مرجوه أن يفطمها من نزعتهما المثالية السابقة باللجوء إلى فرديتهما الذاتية، حيث إنهما - مثل چيمس - كانا يجحدان المطلق الواحدى، ولكن على الرغم من كل جهوده التى بذلها بسخاء فقد رفضا تقبل تلك التجريبية المخلصة من صميم الفؤاد، التى كان چيمس يؤمن بأنها الطريق الوحيد المفضى للتعددية. كان چيمس صاحب موهبة عظيمة فى فن المقال التذكارى. وكان ذلك إحدى طرائقه فى إحلال القلم محل فرشاة الرسم التى كان قد تركها منذ سنين عديدة. ولعل أجمل وأرق هذه المقالات التذكارية، المقال الذى أهداه للرجل الأسكتلندى الذى اقتلع من جذوره، توماس دافيدسون الذى سمّاه « الفارس الجوال فى تطوحات الحياة الفكرية ». وكان رجلا فى مثل سنه. رفيقا بشوشا، صاحب مزيج عزيز من السجايا، موطأ الأكتاف رفيع القدر. ويتحدث چيمس عن « جبهته العريضة، وصدره الواسع، وعينيه الزرقاوين البراقتين، وطلاقته فى الحديث والضحك » التى « تنم عن حيوية فوق العادة ». كان رجلا طيب الصحبة فى النزهة فى ذلك الخلاء المترامى الأطراف فى ربوع أدير نوداك ، الذى كان كلاهما يحبه حبا جما. وكان رقيقا بقدر ما كان سريع الغضب، وحساسا سريع التأثر بقدر ما كان عفيا قويا، ديكتاتوريا عدوانيا، ولكنه رقيق الحاشية، ورحيما إلى أقصى درجة، وفى جملته كان رجلاً « ذا أبعاد جسيمة مصمتة »(١٢).

(12) M.s., 767.

وعلى الرغم من أن دافيدسون كان لا يشغل مركزا أكاديميا، وكان يزدرى الحذلقة الأكاديمية، التفيهق، فإنه كان رجلا واسع الاطلاع غزير العلم، قوى العارضة، له ولع شديد بالمسائل الفكرية، ارتبط بالتقليد الأوربى لا البريطانى فى الفلسفة، يبجل كانت ويزدرى سبنسر وميل. وكان قد جاء إلى بوسطون فى سنة ١٨٧٥، ولم يمض وقت طويل بعد وصوله حتى عقد أواصر صلاته بمصير چيمس، بأن قدمه لآليس جيبنز التى أصبحت فيما بعد حرم وليام چيمس.

وفى سانت لويس، حيث كان دافيدسون يعلم اليونانى فى المدرسة الثانوية، أسهم فيهما سمى بحركة سانت لويس. وهذه الظاهرة الثقافية الجديرة بالذكر كانت نتيجة علاقة – تمت فى تلك المدينة – بين رجلين فذين هما: هنرى . س. بروكماير، ووليام . ت. هاريس. وكان الأول مزيجا معجزا من العالم المصلح والجندى والفنان والمغامر والسياسى. وكان قد هاجر من ألمانيا سنة١٨٤٤، واستقر به المقام فى سانت لويس، واقتحم ميدان الحياة السياسية فى أثناء الحرب الأهلية، ثم أصبح أخيرا وكيلا للمحاكم ثم قائما بأعمال حاكم الولاية (١٨٧٥-١٨٧٧). وفى غضون ذلك كان ينشر دعوة هيجل. أما وليام هاريس (الذى أصبح فيما بعد الأمين العام للتربية للولايات المتحدة الأمريكية)، فقد جاء إلى سانت لويس سنة ١٨٥٧ باعتباره معلمًا فى المدارس العامة. ولم يلبث أن التقى ببروكماير ووضع نفسه تحت إشرافه وتعليمه. وفى سنة ١٨٦٦، نظم الاثنان الجمعية المسماة باسم « جمعية سانت لويس الفلسفية » التى أصبح توماس دافيدسون وجورج . هـ . هوويسون عضوين فيها. وبعد ذلك يمم الجميع – هاريس ودافيدسون وهوويسون – شطر بوسطون، ومن ثم نقلوا بذور الهيجلية من الغرب إلى الشرق.

وفى محاجات چيمس الفلسفية مع دافيدسون فى السنوات الأولى من الثمانينيات وجد چيمس نفسه، وهو الفيلسوف التجريبى، فى موقف الدفاع عن الله، ضد دافيدسون، وهو المعتقد بكفاية العقل دون الوحى. كان چيمس فى ذلك الوقت حامى

حمى[١٣] فكرة إله دنيوى عالمى متناه تستطيع الإرادة الخلقية للإنسان أن تعتمد على تأييده وقوّته فى كفاحها ضد الشر، فى حين أن دافيدسون كان ينبذ هذه الفكرة على الإطلاق، ولكنه فى نفس الوقت عظم الإنسان لدرجة التأليه، وتصور العالم على أنه طائفة اجتماعية من « الأرواح » خالدة فى الطبيعة وموحدة بروح من التناغم والحب. وفى هذا الصدد كتب دافيدسون إلى چيمس فى الرابع عشر من ديسمبر سنة ١٨٨١:

« بالنسبة لإله حقيقى، فذلك ما نجهله على الإطلاق، وإنما نحن نسلم فقط بنوع من التحيز المزمن المدمن، وتكرر شعارا رائجا على غرار كلمة السر عندما نقول إننا نعلم. وعلاوة على ذلك فإننى أجد أن الحياة قصدية، وأن الكون زاخر وأكثر من زاخر بالهدف الذى يستدعى أحسن جهودى، ويضرم أعمق ما فىّ من حماسة وشغف دون عون من ذلك المعبود الذى تخر له الحياة. سعادة وغبطة وبركة لى وللآخرين.

لى - على يد الغير - وللغير على يدى - هذا أكثر مما فى وسع أية جنة من جنات إله قادر على كل أمر - أن تمنحه. إننى خالد - دون بداية أو نهاية - وهذه الحقيقة واضحة لى اليوم وضوح حقيقة وجودى فى هذه اللحظة الراهنة. وأنا متوكل فى بلوغ أعلى مراتب سعادتى وغبطتى وبركتى على قبول ورضا وعون كل « أنا » أخرى فى أية مرحلة من مراحل تطورى ونموى، سواء أكانت ملغاة بالتبادل بوصفها مادة. أم فطرة بالطاقة البحت - كأرواح متآلفة متجاوبة. وفى معنى معين فإن الفلاسفة الوضعيين على صواب. فالإنسانية هى الله، والإنسانية وحدها - بقدر ما نعلم وهذا هو كل ما نعلم - هى « القوامة بالقسط » - على الأقل - بوعى هادف. ولكن الكون كله متحرك تلقاء البركة والغبطة - على العميانى فى معظمه - وبتبصر وهدى فى الأخيار والأبرار - الله هو الحب فى أدق معنى للكلمة على سبيل الحصر. والشر هو نتيجة العماية والضيق - مجرد نشوز - مجرد خليط زائف. فإذا نسخنا الله ونقلنا مسئولية صلاح الكون وتدبير شئونه ووضعناها على عاتقنا - حيث ينبغى لها أن تكون - فعندئذ سنبدأ فى الشعور بواجبات الوعى والسعى حيال الكون، ولن نبلغ ذلك حتى نتخلص من تلك ».

---

(13) In his essay "Reflex Action and Theism", afterwards incorporated into his "The will to Believe and orther Essays, " 1897.

وأجاب چيمس فى الثامن من يناير سنة ١٨٨٢، بالرسالة التالية :

« إنها لمسألة عجيبة – مسألة الله هذه. فى وسعى أن أعطف تماما على أكثر كارهيه سعارا وأشدهم هياجا ضد فكرة الله عندما أفكر فيما حدث من استخدامه فى التاريخ والفلسفة باعتباره نقطة بداية أو فرضاً منطقياً يتخذ أساسا للاستنتاج والاستدلال والقياس. ولكن فكرة الله – بوصفها مثلاً أعلى ينشد ويناهز– فإننى أجد نفسى أقل وأقل استغناء عنها. ليس ثمة داع لأن يكون الله « وحدة ذاتية للكون » شاملة محيطة بكل شىء. وكل ما أعنيه هو؛ أنه لابد أن تكون هنالك وحدة ذاتية للكون على نحو ما ذات مقاصد ومآرب مطابقة لمآربى ومقاصدى بمقدار متعادل، وهى فى نفس الوقت تبلغ حدا من الشمول والإحاطة يجعلها – من بين كل القوى الأخرى المحتمل وجودها – أقواها. وعندما أقول: « الله موجود »، فكل ما يتضمنه قولى هو؛ إن غاياتى وأهدافى موضع رعاية وعناية من قبل عقل يبلغ حدا من القوة والمشيئة – بحيث – يدبر الكون ويتحكم فى تياره على الإجمال . والصعوبات الوحيدة للاعتقاد بوجود الله، هى الصعوبات الأخلاقية والخساسات والسفاسف، والتى – فى رأيى – صدرت دائما عن العقيدة التعسفية الاعتباطية بأن الله حقيقة منزهة عن كل شىء – مطلقة – حائلة لكل ما عداها – بمجرد أن تتصور أن الممكن قيام تعددية أصلية متشابهة – الله عنصر واحد فيها – ولا يوجد فيها مركب ذاتى واحد، وسرعان ما تتوقف التقوى عن أن تصبح لا تليق بالرجولة والشهادة، و« العقيدة » الدينية مناقضة للصواب العقلى ...

ماذا فى جعبتى من أخبار أحيطك بها علما ؟ لا شىء فى الكلية حيث ما زال كل شىء كعهدك به يمضى فى نسقه الرتيب. لقد أسس هارى « نادى هيجيل » الذى يجتمع أعضاؤه مرة واحدة كل أسبوع فى يوم السبت، حيث يفسر المجلد الثالث من كتاب المنطق على أسماع عشرة منا: بالمرء، كابوت، هول ، أفريت، امرى[١٤]، وبقية الآخرين. ولقد كسبنى إلى صفه ببراعته ونزعته الرسولية، ولكن كلمة واحدة مما قال لم تقع من نفسى موقع السحر ».

وفى أثناء أسابيعه الحزينة من تباريح الحنين إلى الوطن، ومن التردد والحيرة والتقلب إبان وجوده فى لندن سنة ١٨٨٣، تاقت نفس چيمس بقوة إلى اللحاق بدافيدسون فى إيطاليا، وكان دافيدسون هو الشخص الذى ظفر بأكبر نصيب

---

(14) I.E. Cabor, Emerson's biorgapher; for G. Stanley Hall cf. below, ,18 2 ff.; C.C Everett, Dean of the Harvard faculty of Theology, S.H. Emery, Jr. was director of the Concord School of Philosophy.

من رسائله بعد عودته. وكان قد وعده بأن يدبر له - إذا أمكن - وظيفة تعليمية فى أمريكا. وفى شهر ديسمبر أشار على مدير الجامعة إليوت بوجوب تعيين دافيدسون فى هارفارد. ولكن محاولته باءت بالفشل كما كان يتوقع فعلا. ولقد أفضى چيمس لدافيدسون بما خامر نفسه من هواجس وريب حيال هذا الأمر مقرونة بالنصح الودى:

« كمبريدج ٢٠ ديسمبر (١٨٨٢)

« عزيزى توماسينو :

هذه عجالة، أكتبها بسرعة لكى أقول لك هذا: مات سوفوكليس[١٥] منذ ثلاثة أيام، وفى اليوم التالى لموته ذهبت إلى المدير وقلت له إنه إذا كان ذلك الحادث قد أحدث فراغًا لابد من ملئه فحبذا لو نظر فى أمرك من جديد - معززا قولى بأن « الفلسفة القديمة » شىء يطيب لك أن تتولاه بنفس الرغبة والشهية والمقدرة التى أنت مستعد لأن تتولى بها أى شأن آخر. ويبدو أن كلامى كان له وقع فى نفسه، ولكنى لا أستطيع أن أخفى عنك - أيها الهوام الخالد العتيد - حقيقة أن المدير والمجلس سوف يسمعن كثيرا من الاستنكارات وهز الرءوس بخصوص الاطمئنان إليك شخصيا وخلقا. ستطل عليك اتهامات تصف ذنوبك وآثامك من بين ما تصف - بالطيش والنزق والغلو والافتقار إلى الكياسة، وحب العراك والخصام، والاستبداد بالرأى والغرور والانفعال الجامح بصفة عامة، مما يجعلهم يشككون - مهما كانت كفايتك العقلية والعلمية، فيما إذا كنت جديرا حقا بالانضمام والانتماء إلى أسرة سعيدة مثل هيئة تدريس الكلية. ولقد سمعت مثل هذه الاتهامات من قبل كلما ذكرت اسمك، ويبدو أنها جميعا تتلخص فى هذا: وهو أنه سواء أكنت مصيبا أم مخطئا فى أية حالة معينة بالذات، فإنك فى الواقع من الأمر قد نجحت فى فرش طريقك بالأعداء، الأمر الذى يعتبر طبعا حجة عليك توضع فى كفة نبذك. وعبثا أحاول أن أبين لهم أن أولئك الأعداء لا يعرفونك إلا معرفة سطحية، وأنهم إذا قدر لهم أن يعرفوك على حقيقتك مثلى، فإنهم على الأرجح سينتهى بهم الأمر إلى تفضيلك على أنفسهم، بيد أن مجرد وجود هؤلاء الأعداء يعتبر بمثابة تحذير كما لو كان علامة موضوعة عليك تقول : « حذار » . لذلك رأيت من الحكمة أن أحدثك بصراحة لكى أنبهك إلى اتجاه الخطر الذى يتعين عليك اتقاء مغبته، والذى قد يعينك على ملاقاته. وإنى لأدعو الله أن يسفر كل ذلك عن نتيجة مرضية

(15) Evangelinus Apostolides Sophocles, tutor and professor of Greek at Harvard,* 1842-83.

ولكنى لست واثق الأمل. ولعلك أنت أيضا لا تكون مؤملا فى الأمر كثيرا. إننى وغيرى « سنعمل » كل ما فى وسعنا من أجلك، ولتحتفظ أنت بكبريائك وعظمتك، وخلاك ذم. أن المرض الذى تعانى منه الكلية سكرات الموت هو افتقارها إلى عدد قليل من طرازك فيها، ولكن ماذا فى وسع المرء أن يفعل فى بلد يتخذ « السلامة » مبدأه الوحيد فى البت فى الشئون الفكرية .

صديقك المخلص دائما

« و . م. چيمس »

والسنوات التى تلت هذه الأحداث تنطق بالقصة المعتادة لصداقة تعمر أكثر من التجاوب الفكرى. كان چيمس يقول كلما ازدادت معرفته بدافيدسون وتغلغل فى طوايا نفسه، ازداد له حبا. وما كان فى وسعه أن يقول: « ازددت اتفاقا معه ». لقد مضى كل منهما فى سبيله متخذا لنفسه طريقة تفكيره الخاصة به. وحتى مذهب چيمس فى الذاتية الخلقية، لم يكن عند دافيدسون سوى « ضرب من المغامرة الاستيفنسونية – المقحامة السبهللية »[١٦]. وفى غضون ذلك بقى الحب القديم موصولا، وقد يكون فاترا بعض الشىء فى نكهته وشذاه لدن استعادة الذكرى، ولكنه سرعان ما يستعر أواره من خلل الرماد عندما تباغت الأحداث الكبرى أى واحد منهما مثل الكتب أو المرض.

ويمضى الزمن وتكر السنون ثم نجد چيمس يكتب من أوربا فى ١٦ فبراير سنة ١٩٠٠ «لخليله الحبيب وصفيه القديم ت.د»:

« فى وسع المرء أن يلاقى المرض المميت (أو المفضى إلى الموت وشيكا) إما بنوع من الاستخفاف الماجد ورباطة الجأش الرواقية التى لا تبالى بالذات أو الألم، وإما بالحمية الداينية. وأنصحك يا عزيزى القديم ت . د أن تتبع منهجى فى مداعبة الجمع بين الثلاثة معا، آخذا كل واحدة بالتناوب (pro re nata)[١٧] وفقا لمقتضى الحال. نحن هنا لمدة ستة أسابيع فى صحبة ف. و. هـ ظ

(16) Davidson to W.J., March 29, 1897.

(17) As occasion may require.

مايرز وأسرته، نقيم فى قصر تشالرز ويتشيت[١٨] الخالى بين طولون وهيربز، والذى حللنا فيه أهلا وسهلا بفضل كرم ت. و. الجو رائع . والظروف مواتية لإراحة الأعصاب. لقد بلغت أعصابى أسفل سافلين من التوتر فى إنجلترا حتى يناير. انهيار عصبى حاد إلى جانب اضطراب فى القلب. وطبعا المرض الأخير هو الشىء الخطير ».

وأجاب دافيدسون على تلك الرسالة بتاريخ ٤ مايو بالآتى:

« لا حاجة بى أن أقول لك يا صاحبى العزيز إن حالتك ملأتنى غما وحزنا فى الصميم. ويبدو أن مرضك أكثر خطورة من مرضى الذى لا يهدد الحياة، ولكنى واثق أنك تبالغ فى تقدير خطورة مرضك. إنك لا تزال قويا، وستكون قادرا على استئناف عملك إذا أخذت قسطا كافيا من الراحة وأمسكت التأمل هونا ما. إن الموت لا يعنى بالنسبة لى شيئا أكثر من الذهاب إلى الغرفة المجاورة. لقد كان الموت طوال حياتى أنيسى وإلفى، لا أشعر فى صحبته بوحشة أو غربة ».

ولم تحل حالة دافيدسون الصحية دون الذهاب ثانية إلى جلينمور بعد وقت قصير من تحريره لتلك الرسالة الأخيرة الزاخرة بالأمل. ولكن فى شهر سبتمبر التالى حمل الناعى إلى چيمس نبأ موته المفاجئ:

« ذات يوم من أيام سبتمبر سنة ١٩٠٠، وأنا فى « كورهاوس » بمدينة ناوهايم اشتريت نسخة من الطبعة الباريسية لصحيفة « نيويورك هيرالد » وقرأت فيها الخبر التالى مطبوعا بالحروف الكبيرة « موت البروفسور توماس دافيدسون » وكنت على علم بما عاناه من مرض عضال، ولكنه كان صاحب حيوية جبارة ،بحيث إن صدمة موته كانت غير متوقعة. لم أدرك حتى تلك اللحظة إلى أى حد كانت تلك الصحبة الحرة المسماحة الكريمة معه كل ربيع وخريف تحوطنا تلك الطبيعة الجميلة – تعنى بالنسبة لى. ولم أكن أدرى حتى تلك اللحظة مبلغ جسامة الفراغ الذى خلفه انتزاعه من حياتى بانتهاء حياته »[١٩].

وعلى الرغم من أن جورج هولز هوويسون كان يكبر چيمس فى العمر بثمانى سنوات، فإنهما كانا زميلين معاصرين فلسفيين. وفى سنة ١٨٧٢ قبل أن يبدأ چيمس

(18) The bond uniting Myers, Richer, and James was their common interst in psychical research.

(19) M .s ., 87-8.

عمله معلما بهارفارد - بسنة واحدة - أصبح هوويسون أستاذا للمنطق وفلسفة العلم فى معهد ماساشوستس للتكنولوجيا ببوسطون. وفى سنة ١٨٨٤، عين فى جامعة كاليفورنيا حيث ترك بصمات آثاره على عدة أجيال وراء الأخرى من الطلاب بقوة إيمانه وحجته، واستنهض هممهم بجده الخلقى. وعلى الرغم مما كان بينهما من بعد يبلغ آلاف الأميال، فإن چيمس وهوويسون احتفظا بصداقة وثيقة وطيدة حتى العام الذى وافت فيه المنية هوويسون.

وكان هوويسون فى أثناء إقامته فى بوسطون ينتمى إلى حلقة أولئك الذين - على غرار چيمس ودافيدسون وبالمر، كانوا يدرسون هيجيل يلهبهم هاريس - بل يحولهم من عقائدهم بتحمسه المتشبع. كانوا جميعا فى حالة اكتشاف لهيجيل، وكان كل واحد منهم - بسبيله الخاصة - يتصافق معه تراضيا واتفاقا. أما فيما يتصل بهيجيل وشانئيه فقد كانت عواطف هوويسون فى ذلك الوقت تميل إلى هيجيل كل الميل. ولكنه فيما بعد أيقن أن « هيجيل بكل نياته الشخصية القوية الضليعة لمحق المذهب الحلولى، فإنه لم يبلغ أبدا إلى منسوب نظرة منظمة منسقة تتناسب مع غاياته الدينية ومآربه السياسية. وفضلا عن ذلك فهو فى كل مكان، يؤسس شركة متحدة شائعة المسئولية للطمس المنطقى للإنسان الفرد ». ونظرا لتوكيد هوويسون للفرد الأخلاقى فى مدافعته فيما بعد بعد عما سمَّاه « المثالية الشخصية » فقد كان أمرا يدعو للدهشة، وسببا لشىء من خيبة الأمل عند هوويسون نفسه، أن فلسفته لم تلعب أى دور فى تعددية چيمس. وتفسير ذلك يكمن فى جذورهما المختلفة، حيث إن چيمس بالمزاج والسليقة والارتباط سليل التجريبية البريطانية، فى حين أن الدم الذى يجرى فى عروق هوويسون - مهما تخاصم معهم وتنافر - كان دم كانت وهيجيل. وبعد سنوات كثيرة - فى تعليقه على كتاب هوويسون « حدود التطور » وضع چيمس كتابه، أنه كان من الممكن أن يوجه نفس

الكلام لرويس أو دافيدسون - عن السبب الذى حدا به إلى عدم الاتفاق فى الأساسيات حتى مع أحسن سبط الكانتيه الهيجيلية :

« أولا، الأسلوب ممتع ومنعش، يرطب النفس ويبهجها فى هذا العالم المبتذل الفظ، بسموه ورقته وفذاذته وامتيازه إلى جانب وضوحه النادر وصراحته. إن الكتاب سميدع - جنتلمان (- أو خاتون ؟). إن قوته فى نظرى تكمن فى الطريقة المتطرفة المباشرة التى لا تلين، والتى يضع بها مفهوما للتعالم على وتيرة « اللياقة المنطقية »، إن قليلا من الفلاسفة اليوم لن يجرؤ على أن يمضى فى الفلسفة الغائية على هذا النحو من البغى واليقينية ... وشغف هذا الكتاب يبدو لى أنه يكمن فى « البحتية » التى تتسلى بها اعتبارات لياقة الفلسفة الغائية نفسها. إنك تكاد تكون على غير وعى بالتمرد الأول وهلة » لعالم الحقائق. ومن ثم فإنك تدوس عليها، فحسب قوى فى اعتقادك بالكمال النهائى، فى حين أنه بالنسبة لمعظمنا فإن وحشيتها وحماقتها هما الحافز الرئيسى للتفكير. وحل العقدة لا قطعها. هو الذى تتطلب المعونة فى عمله ...

فيجب أن أقول: إنه بالنسبة لعقلى فإن استدلالك على الشر من الحتمية المنطقية لعيب ما أو نقص ما، فى تفسير كل محدود أو متناه، لا يلاقى الحاجة، وإنى أجد نفسى أجنح أكثر وأكثر إلى الاعتقاد باللاعقلية، على اعتبار أنها الأصل الذى ينبثق منه الكمال بطيئا وتجريبيا بسبيل حقيقية فعلية من التطور، أو إذا شئت، بسبيل من التحسن بالتغيير. ولكن فليكن. لا أريد أن أماحك وأكابر لأن الكتاب سفر قيم جليل، وأنت على الجناح الأيمن، وأنا على الجناح الأيسر، فى وسعنا أن ننفذ واحدة من حركات كتشنر الكاسحة ونطهر البلاد من كل الأجلاف والوحدانيين والقدريين ونلحقها باسم الفلسفة التعددية »[٢٠].

(20) Howison to W.J., 1894 W.J.to Howison, June 17, 1901.

(١٩)

تعليم وكتابة وسفر

بعد عودة چيمس من أوربا فى مارس سنة ١٨٨٣ قر قراره على تركيز العمل فى علم النفس « فغاص فى بطاح ومستنقعات نظرية المعرفة » وحاضر فى يوليو فى مدرسة كونكورد («يونان بين الأنبياء»)[١] ثم حول المحاضرات إلى مقال مهم بعنوان « بعض ما حذف وأسقط فى علم النفس التأملى » والتى نشرت فى « العقل » فى العام التالى.

والعقد التالى شهد تكريسه لكتابه « مبادئ علم النفس » إلى جانب تحرير والده « الآثار الأدبية: Literary Remains »، وكذلك إلقاء المحاضرات الفلسفية المتنوعة التى طبعت بعد ذلك تحت عنوان « إرادة الاعتقاد: The Will To Believe». ولقد امتد نطاق تعليمه على مدى واسع تضمن تاريخ الفلسفة، وعلم نظام الكون، والأخلاق، وعلم النفس الابتدائى والمتقدم. وعلى الرغم من أحزان الأسرة ومسئولياته العائلية المتزايدة، واشتغاله ببناء بيته فى شارع أرفنج رقم ٩٥ بمدينة كامبردج، وشرائه لمزرعة شوكوروا ، فإنه وجد نفسه على الإجمال كفئا تماماً لعبء التعليم والكتابة، وإن يشعر بأنه لا ينجز إلا القليل، ومن ثم كتب فى سنة ١٨٨٦ ، إلى أخيه هنرى يقول : « إن الأشغال الصغيرة والنوافل تهلكنى، وتحول دون تقدمى فى الأشغال الكبرى للحياة

(1) To Renouvier, August 5, 1883; L.W.J., I,230; to Davidson, May 2, 1883.

وفروضها الأساسية»[٢]، بيد أن فهارس الكلية وبرامجها، وسجلاتها المكتبية، والمراسلات الأخرى تخبرنا بقصة أخرى.

ثمة عدد كبير من الاهتمامات الأدبية الجديدة التى هام بها شغفا يظهر فى رسائل چيمس لتلك الفترة. ففى سنة ١٨٨٥، كان يقرأ قصة دستوفسكى « الجريمة والعقاب »، التى اعتبرها، « دراسة نفسية رائعة - فى غاية العمق والمغزى الأخلاقى، على الرغم من كل ما فيها بحيث إن كل القصص الفرنسية «تبدو بالقياس إليها مجرد هنوف»[٣]، وفى فبراير سنة ١٨٨٦[٤] كانت قصة أنا كارينينا : Anna Karénina» هى التى قرأها على الأسماع. ولقد كتب چيمس إلى أخيه هنرى فى هذا الصدد يقول: « أليس تولستوى - بعد كل شىء - هو أكمل القصاصيين طرا؟ ثمة نوع من المعصومية من الخطأ، واليسر المواتى بلا سعى أو كد يلازمانه مثل الطبيعة الأم المنصفة المقسطية، كما لو كان كل شىء سواء وكل أمر سهلا، لا فرق بينه وبين أى شىء آخر» . والثالث من معبوداته الأدبية الجديدة كان روبرت لويس ستيفنسون.

وثمة لمحة عن مناشط چيمس ومزاجه تزودنا بها الرسالة الآتية - مرة أخرى - لأخيه:

كمبريدج أول سبتمبر سنة ١٨٨٧

« عزيزى هارى:

إنه لوقت طويل جدا إلى درجة الفظاعة، منذ أن كتبت لك آخر رسالة، لقد عشت هذا الصيف فى فوضى لا حد لها محاولا أن أكتب شيئا، وأشرف على بناء البيت فى نفس الوقت، بحيث إن كتابه الرسائل كانت أمرا مستحيلا ... شوكوروا، ن. هـ. ١٩ سبتمبر. هذا التاريخ تفسير للسطور السابقة. لقد حملت هذا الجواب معى إلى الأديروينداك، وعدت ثانية دون أن أجد فعلا فسحة من الوقت

---

(2) December 2, 1886.

(3) To H.J. 2, April 18, 1885.

(4) February 21, 1886.

تتيح لى أن أتمه على الرغم من أنى كنت متذكرا له كل يوم. وأخيرا حانت الساعة. أليس تتولى شئون النجارين والماهدين والأجراء، مما يتيح لى فترة الصباح بأكملها للجلوس إلى مكتبى. وأنا معوق للغاية بسبب عجزى عن الكتابة بالليل، ثم إن التوقف الكامل لعملى الفكرى طوال الصيف يجعلنى مكتئبا وخائر النفس جدا. ولكن الاضطرار مؤقت. وفى النواحى الأخرى مثل قوتى على المشى واستمتاعى بالنوم، فإن حالتى أحسن بكثير مما كانت عليه من قبل لمدة طويلة. بعد قضاء تسعة أيام فى ربوع الجمال الخالد لغابات وادى كين، وحصولى على أكبر قدر من الترويح، أتيح لى أن أحصل عليه من قبل فى مثل هذا الحيز من الوقت، عدت ثانية عن طريق ألبانى ونيويورك .. وسأعود بعد أسبوع لى كمبريدج مستعدا لإلقاء محاضراتى على جمهورى (لدى نحو مائة من الدارسين فى أحد مقرراتى) فى اليوم التاسع والعشرين من سبتمبر. وفى مرجوى أن أنتهى من كتابه مخطوط كتابى « علم النفس » قبيل عيد الميلاد، هذا إذا سارت الأمور على ما يرام. وعلى أية حال فسوف أنتهى منه هذا الشتاء، وعندئذ ينزاح عبء ثقيل من فوق كاهلى. ولابد أن سماعك لبطئى وتقاعسى يثير ابتسامتك، أنت الذى تستطيع إنتاج قطعة فنية رائعة كل ثلاثة شهور، ولكن وقتى منهوب فى أعمال كثيرة، وكل ورقة من كتابى هذا تكاد تكون مقاومة لشىء لا سبيل لك إلى معرفته فى الجو الرومانتيكى الذى نعيش فيه والذى لا يتحداك بأية مقاومة. لنبدأ أولا بمقاومة الحقائق، فلابد من رشوة كل منها لكى أضمها إلى وصفى، ثم مقاومة الفلاسفة الآخرين – أخيرا – إذ لابد من ذبح كل منهم على حدة. إن ذبح الهلمهولتزيين والسبنسريين ليس أمراً سهلا ولا فكها. وعندما أفرغ من هذا الكتاب فسأقول لعلم النفس وداعا – لفترة من الوقت – ثم أكرس نفسى لدراسة أشياء أخرى، قليل من الطبيعة، وشىء من تاريخ الفلسفة الذى أشعر أننى متخلف فيه إلى درجة فظيعة. تسلمت بيان تكنور فى الأسبوع الماضى – إن كتاب الوالد « الآثار الأدبية » لم تبع منه إلا نسخة واحدة فى الشهور الستة الماضية. مسكين. إنه أمر يدعو للرثاء والأسى ولكن ما باليد حيلة.

لو كنت مغرما بالوصف لكان خليقا بى أن أفصل لك تفصيلا نزلنا الصغير، ولكن يجب عليك أن تنتظر حتى تراه بنفسك . إنه منزل جميل الشكل جدا مغطى بالقرميد بقراطيف خضراء اللون، وله أحد عشر بابا خارجيا بحيث إن كل الغرف مستقلة عن الأخرى، ولا يوجد أى شىء عادى أو مألوف فى أى معنى فى منظر المنزل أو مخبره.

علمت أن ر .ل. ستيفنسون بين ظهرانينا فى هذه البلاد وقرأت فى الصحف أنه قد خصك بعدد من « التقدمات » المليحة فى بجلد أشعاره الجديد. أنا سعيد بذلك. وفى مرجوى أن أراه قبل رحيله - إذ لو أنه كان هناك مؤلف واحد أحبه - فهو ر . ل. ستيفنسون . وأنا على يقين من أنه إلى آخر الزمان ستذكره الأجيال وتعده واحدا من أساتذتنا فى الإنجليزية الكلاسيكية الراسخة. إلى متى يؤخرون إصدار مؤلفاتك؟ لشد ما أنا متعطش لشيء جديد ينقع غلتى.

أخوك

« و . ج »

وثمة رسالة أخرى لأخيه وأخته يستأنف فيها الحديث عن مناشطه المتنوعة.

شو كورو ١٤ أكتوبر سنة ١٨٨٨[٥].

« عزيزى هارى وأليس :

لقد نهضت لتوى الآن لأستقبل يوم السبت وأزور الأسرة ثم أعود أدراجى غدا. ونحن الآن بصدد نقل الخزن من أمام المنزل، لكى ينفسح المنظر قليلا، ونطل على المرج الأخضر المنبسط فى أسفل الوادى بأشجاره الوارفة التى تحف به والتى يجرى من ورائها الجدول الرقراق.إن معظم الناس يشترون الصقع أولا ثم يبنون بيتا فوقه، أما أنا فقد اشتريت بيتا وأنا الآن أخلق صقعا حوله بأن أخفض مستوى الأرض من كل جانب حتى يبدو المنزل مرتفعا بعض الشيء. إن الرجال والثيران والأرض السمراء وأكوام الأخشاب الجديدة المقطع، كلها أشياء طيبة يطيب للمرء أن يعيش فى كنفها، ولا يمكننى أن أتصور طريقة أكثر سحرا وفتنة لإنفاق المال إذا توافر للمرء، من امتلاك قطعة من الأرض يقيم عليها ويلعب دور « الفلاح الجنتلمان » .

يبدأ العام الدراسى فى كامبردج بحميا متوقدة ، فلدىّ فصل كبير فى الأخلاق، وسبعة دارسين من خريجى الكليات الأخرى لدراسة عليا فى علم النفس ، الأمر الذى يضع على عاتقى قدرا كبيرا من العمل. ولكنى أشعر بتوقد وشهية للعمل وقوة على نحو لم أعهده من قبل، وأحس فى قرارة نفسى

(5) A paragraph of this letter appeared in L.W.J., 1, 283. John Chipman Gray was professor at the Harvard Law School and lifelong friend of James.

أننى بلا شك سأخرج فى النهاية فى أتم عافية وصحة . ولم يكبر حجم الكلية هذا العام بشكل ملموس، فى حين أن الكليات الأخرى مثل : بيل، كورنيل ... إلخ ... قد كبرت وربت. وأخشى أن نكون قد وصلنا إلى الحد الذى لا يمكن تجاوزه فى الوقت الحاضر.

بنفسى جوع وظمأ لمزيد من تلك القصص الكثيرة التى تعمدت تلافى قراءتها فى مرحلة نشرها مسلسلة. إن قصة « الترجيع » قصة خالدة، لست أدرى كيف يتسنى لك أن تنتج بهذه السرعة أو كيف يتسنى لك تدبير الوقت اللازم للقراءة أو لأى شىء آخر. وأحسب أنك لابد تشعر بالخواء التام باطنيا، ومن ثم تحتاج إلى الامتلاء قطعا، أما أنا فيتعين علىّ أن أقرأ كثيرا ولا أكتب شيئا - بالنسبة لهذا العام - وفى مرجوى أن أجد فى ذلك لذة عظمى. إنه مما يفيد المرء جدا أن يقرأ الكتب الكلاسيكية. ومنذ شهر وأنا لا أفعل سوى ذلك لحساب تلاميذى فى مقرر الأخلاق - أفلاطون - أرسطو - آدم سميث - بتلر - بالى - سبينوزا ... إلخ . ليس ثمة كتاب يظفر بشهرة دون أن يستحقها، والكتب الحديثة التى لن يقدر لها أن تظفر بالشهرة وذيوع الصيت زاخرة بالخبيص . وندل هولمز سيعطى صوته لهاريسون - والله وحده العليم بالسبب - إلا إذا كان لا يريد سوى أن يظهر الجانب المعتم من نفسه - لقد عجز عن أن يعطى سببا واضحا بينا لذلك منذ بضع ليال. لقد قام برحلة طائرة إلى كاليفورنيا بصحبة زوجته، ورأى ما لا عين رأت وشاهد ما لا أول ولا آخر، مما جعله يتيه عجبا، ثم بعد ذلك أمضى شهرين فى كليفتون هاوس عند شلالات نياجرا، ونعم بكل سعادة وغبطة كما هو شأنه دائما. ولقد عكف على قراءة الإنجيل من أوله إلى آخره. وكما يقول جون جراى فإنه لشىء عظيم أن يتجه عقل بكر إلى كتاب رث قديم كهذا، لا يقل غرابة عن رسوم جوستاف دوريه. ولست أدرى كيف يتسنى له أن يجد كل هذا الفراغ من الوقت على الرغم من منصب القضاء الذى يشغله. وداعا لكما. تقبلا بركة أخ يحبكما.

« و . م. چيمس »

ولم يقدر لچيمس أن يبحر إلى أوربا ثانية حتى سنة ١٨٨٩، على متن السيفالونيا التى ألقت مراسيها على ميناء كوينزتاون. وكان بصحبته على نفس السفينة وندل هولمز « الذى جعل نفسه فى خدمة الجميع وأسرهم وأبرهم »[٦] وفى إنجلترا رأى أخته آليس كانت تعيش هنا منذ سنة ١٨٨٤ تحت رقابة أخيها هنرى. أما انطباعها عن تلك الزيارة فقد سجلتها بتاريخ ١٨ يوليو :

(6) W.J. to H.J.2, July 1, 1889.

« وصل وليام إلى لندن بالأمس فقط، لأن قضى ثلاثة أسابيع فى أيرلندا وأسكتلندا. إن السنوات الثلاث الأخيرة منذ فراقنا لم تجعله يبدو أكبر سنا مما كان. وكل ما يمكن أن يقال عنه طبعا، هو إنه ما زال هو هو، إنسانًا يتكلم بلغة أخرى، كما يقول هنرى، تختلف عن لغة بقية الجنس البشرى، وفى وسعه أن يصفى الحياة والسحر على معصره. كم كانت خبرة عجيبة مدهشة أن يجد المرء أمامه فجأة، ما كان قد ذبل وذوى وبدا أنه ذهب - كل هذه السنوات - وقد انبجس وأزهر، كما لو كان واحة وارفة الظلال فى عنفوان ريعانها فى هذه الصحراء الغربية، فواحة بعبير الأسرة الذى يذكرنا بالأيام الخوالى، ذلك العبير المؤلف عن اللمحات والإشارات ووجهات النظر المشتركة، بحيث إن إحساسى بالذرات السابحة تاه لمدة أو أكثر، تاه فى وهم أن ما كان تصدع إلى الأبد قد انبثق حيا من جديد، واستقر خارج ذاكرتنا، حيث يظل يانعا ومزدهرا أبد الدهر ».

وثمة تعليق أخوى آخر سجلته آليس فى هذه المناسبة إبان نفس تلك الزيارة فى الفقرة التالية:

« لقد عبر وليام عن نفسه وعن بيئته - إلى درجة بلغت حد الكمال - عندما أجاب عن سؤالى بخصوص بيته فى شوكوروا بقوله: « إنه أبهج نزل رأيته فى حياتك - له أربعة عشر بابا كلها مفتوحة إلى الخارج ».

ولعل عقله - من سوء الحظ - ليس محددا بأربعة عشر[٧]. وبعد قضاء عشرة أيام فى لندن - ذهب جيمس إلى باريس باعتباره عضوًا - يمثل الأمريكيين - فى المؤتمر الدولى لعلم النفس الفسيولوجى الذى عقد فى الفترة من ٥ إلى ١٠ أغسطس[٨]. ولقد وجد هذه الخبرة منعشة وباعثة على الثقة بنفسه فى آن، على الرغم من أنه باشرها فى أول الأمر تخامره الوساوس والريب بشأنها.

والرسالة التالية حررت عشية رحيله من لندن لأخته، حيث كان الاهتمام المشترك بالبحوث النفسية قد أفضى به إلى الاتصال بالعالم ف و.هـ . مايرز، والبروفسور هنرى سيدجويك وزوجته.

(7) A.J., Journal, July 18 and December 14, 1889.

(8) James wrote an account of this congress for Mind (XIV), 1889.

لندن ٢٩ يوليو سنة ١٨٨٩

« عزيزى آليس :

أنا راحل غدا – بنية صادقة – إلى بولونيا، حيث إننى مكثت هنا يومين أطول مما انتويت. ولقد ذهبت إلى برايتون وسرى ... إلخ . وأحسن ما حدث هو أننى ضللت طريقى بعد ظهر أمس فى الزحام عند ركوبى الحافلة إلى هامتون كورت عن طريق كيو، رتشموند .. الخ ... وإنى لأجد نفسى أزداد رغبة باستمرار فى السفر والتجوال غفلا من الاسم والتمتع بالديموقراطية أكثر من الجلوس معتدل القامة لأحدث الناس. إن مايرز وسيدجويك وزوجته يبهظوننى بالمسئولية المريعة حيال علم النفس، إنهم يحيطون علما بهذه المادة إلى درجة جبارة وهم فى غاية الحماسة والغيرة عليها. كيف أستطيع أن أجابههم لمدة عشرة أيام فى باريس – لست أدرى – ولكن يبدو أن هذا هو المقدر المحتوم. لقد نعمت جدا بوجودى مع هارى، أما بالنسبة للندن ذاتها فقد بشمت منها تماما، ولا يهمنى أبدا أن أرى سمرتها الصفراء ورحابتها التافهة المتبدلة ، مرة ثانية .

ما أتعس أمثالنا ممن لا يجدون نفس الشىء – هو هو – مرتين متتاليتين. إننى سعيد أن زوجتى قادرة على اجتياز امتحان اللقاء ثانية بعد الغيبة، أو على الأقل لقد نجحت فى ذلك حتى الآن. لقد وصلتنى منها رسالة صباح اليوم تقول فيها إن كل شىء على ما يرام. لقد كان هارى فى غاية الإمتاع أسهل منالا وأكثر تحررا مما كان عليه عندما كنت هنا من قبل، وتحت كل هذا التراكم من السنين ووطأة الحياة، فلا يزال هو نفس هارى العزيز الطاهر الصافى الذى عهدناه فى أيام الصبا. أما لهجته وأسلوبه واصطلاحاته الإنجليزية فليست « سوى صور دفاعية » إنه حقا، لا أقول بانكيا صميما، وإنما، هو مواطن لأسرة چيمس وليس له وطن سواها...

لقد أنفقت نصف مستقبل أطفالى على شراء ملابس لهيكل جسمى المتهدم الذى أكلف به مثل عابد الأوثان، وأشعر داخل كل تلك الملابس كما لو كنت نوعا من الحيوان الرخو الوارم. ما أبشع مسألة الحضور إلى الخارج هذه. لك حبى الكثير – دائما.

« و . ج »

وبعد العودة إلى كمبريدج شغل چيمس نفسه بإتمام كتابه « مبادئ علم النفس: Principles of Psychology » الذى نشر فى خريف سنة ١٨٩٠ أما كتاب أخيه هنرى « عروس الشعر والأدب الحزينة » فكان قد بدأ يظهر تباعا فى يناير سنة ١٨٨٩.

شو كورا ٢٦ يونيه (١٨٩٠)

« عزيزى هارى :

وأخيرا فعلتها، وكان لابد لك أن تفعلها حتما مقضيا. « عروس الشعر والأدب الحزينة » تاج الذروة. إنه إنتاج فى غاية الإبداع والأصالة، مدهش ومبهج وباهر إلى أقصى درجة. لابد أنك تشعر بالطرب، أن استطعت بكل هذا الحذق واللوذعية واليسر أن تنفى عن نفسك تهمة أنك لا تستطيع أن تفعل أى شىء سوى معالجة المسائل الدولية والوطنية العالمية، وعلى الرغم من أن جو الكتاب كله عالمى، فإن الناس والسياق والتركيب كلها إنجليزية وبطريقة سهلة وطبيعية، ثم أن الجو الكامل للمجتمع السرى الذى يسود الكتاب من أوله لآخره هو إحدى خصائص الكتاب البارزة. إن قراءة الكتاب تترك نكهة طيبة فى فم المرء، فكل إنسان فيه إنسانى وخير، وعلى الرغم من أن خاتمة الكتاب، كما هو عهدك دائما، تضع القصة فى متاهة، فإن هذه هى الطريقة التى تنتهى بها الأمور فى الحياة الواقعية الحقيقية، تتبدد تضيع فى الرمال.

وليس عندى ما أقوله بالتفصيل. فالكتاب كله فى مبناه جيد السبك متينا لتركيب، وأنه لما يدعو للرضا حقا أن يتبين للمرء أن التدريب والجهد المبذول والمثابرة تفضى بالمرء إلى أن يبلغ مآربه من الفيض والكمال والخصوبة ، التى استطعت أخيرا إن تنالها. أن عباراتك أكثر استقامة وبساطة مما كانت عليه قبلا، وسلاسة ملاحظاتك منثورة كالدر فوق كل صفحة. وكم كان بودى أن تمضى مع جوليا إلى آخر الشوط قبل الخاتمة. إن المشهد الذى تبث فيه لواعج حبها، مشهد فى غاية الروعة والنفاسة، ولكن يظهر أنه من الصعوبة بمكان رتق الفتق بين سحرها وفتنتها وأنوثتها، وبين صلابتها وبصرها بالعواقب. إن الأمر كله سراب رائع يظل سابحا فى فضاء عقل المرء، أما فيما يتعلق بحجم جمهورك، فأنا أرتجف. إن القصة فى غاية الرقة، وفى غاية الاتفاق، وفى غاية الدقة ، وتتطلب نوعا من القراء المستأنية التى لا تتسنى إلا للقلة المختارة. ولكن ينبغى عليك ألا تهتم بذلك. فهذا الكتاب سيظفر دائما بقرائه وجمهوره. على أن ذلك لا ينبغى أن يحول دون كتابة قصص أقل إحكامًا ودقة فى الصنعة ، لتكون موضع تقبل دائرة أوسع من القراء، وفى مرجوى أن تقدم الدليل المباشر على ذلك فى القريب العاجل.

تجارب طبع كتابى بدأت تأتينى الآن فقط، ولكنها تبشر بأنها ستدهمنى متلاحقة وسريعة وغزيرة. وإنى لا أشعر بأى زهو أو مسرة حيال هذا الكتاب اللعين الذى تشبث برقبتى تلك الفترة الطويلة، ولكنى سأكون سعيدا إذ يخرج إلى حيز الوجود، لا لشىء إلا لأثبت أن فى وسعى أن أكتب كتابا واحدا.

المحب دائما

« و . ج »

شو كوروا ٢٢ أغسطس سنة ١٨٩٠

« عزيزى هارى :

طربت جدا لتسلمى رسالتك التى بعثت بها من فالومبروزا نحو حوالى أسبوعين . ولعلك تدرك الآن لماذا كنت أحثك طوال كل هذه السنين لكى تمضى قسطا أكبر من إجازتك في أحضان الطبيعة. إن رسالتيك الأخيرتين تنضحان بروح الشباب، بنوع من الشبق الذى طالما افتقدته فى رسائلك منذ زمان طويل . والذى لا يمكن لشىء أن يمنحه لنا إلا أمنا الأرض الطيبة. إن التناوب بين الطبيعة وبين حياة العواصم الفاسدة المضاءة بالغاز هو خير ما فى قصارى مقدور الإنسان فى عالمنا الأرضى هنا.

ولكن لا تكفى واحدة منهما بمفردها، إذ لابد من وجود الاثنتين. أنا سعيد إذ تسنى لك أن تأخذ مثل هذه الإجازة من الكتابة. ولست أدرى كيف يتسنى لك أو لهاولز الاستمرار فى الكتابة بهذه الدرجة. لقد وصلت الآن منتصف كتابه « Hazard of New Fortunes : خطر الحظوظ الجديدة »، وهو كتاب فى غاية القوة لدرجة تفوق الحد، ويمكننى أن أقول إنه يضارع ديكنز فى الفكاهة رقة الملاحظة والأنس، مع وجود أشخاص مرئيين من دم ولحم على مسرح الأحداث بدلا من الدمى . وبهذا الكتاب وكتابك « عروس الشعر والأدب الحزينة »، وأخيرا وليس أخرا كتابى « علم النفس » ، فإن سنة ١٨٩٠، التى شهدت ظهور هذه الكتب الثلاثة فيها سيذكرها التاريخ على اعتبار أنها العام التاريخى العظيم الحاسم فى تاريخ الأدب الأمريكى. بالأمس فقط انتهيت من كتابة فهرس كتابى وأرسلته بالبريد، ومن ثم فإن عقلى أصبح حرا لكى يخلو إلى الكون ويتلقى منه ثانية. يا لها من نعمة وبركة وفضل بديعة. لقد قضيت ستة أسابيع فى كمبريدج بمفردى فى البيت حتى آخر أسبوع . وراجعت أربعمائة صفحة من تجارب الطبع معظمها من حروف الطباعة الصغيرة، وكنت لا أكاد أبرح مقعدى على المكتب حتى التاسعة مساء، ثم بعد ذلك كنت أخرج - وأنا أتضور جوعا - أدوى وأعجج فى حر الليل اللافح جالسا على المقعد الأمامى لعربة كهربية - ألطف وسيلة للانتقال فى العالم - لكى أتناول عشائى فيما بين الساعة التاسعة والساعة العاشرة فى مطعم يونج أو باركر، بعد أن أرسل تجارب الطبع من مكتب بريد بوسطون لكى تلحق بآخر بريد يرسل إلى نيويورك. ولقد أرهق كل ذلك جهازى الهضمى ، ولكنه لم يترك آثارا سيئة، وإنى لأرجع البصر إلىَّ هذا الشهر ولنصف الشهر الأخير فأراه من ألذ وأبهج الفترات، حيث لم يكن يشغل بالى سوى شىء واحد، وحيث كنت أنجز خطوات عظيمة من العمل كل يوم، وأشعر بأننى أمضى قدما، على نحو يختلف كثيرا عن العام الدراسى، حيث يشغل بالى خمسون أمرا من الأمور دون أن أتقدم تقدما محسوسا فى أيها على الإطلاق.

لقد تمكنت من الحصول على مبلغ ٤٠٠٠ دولار، دبرت من ميزانية الكلية لإنشاء معمل سيكولوجى وأجهزة ومنشآت . فمع هذا العمل مضافًا إليه أعمالى الأخرى أتوقع عامًا حافلاً بالمجهود الشاق فى السنة الدراسية المقبلة. وفى عزمنا أن نرحل إلى الخارج فى (١٨٦١ - ١٨٩٢) إذا كان فى مقدورونا تدبير تلك الرحلة، ولكننا لن نتأكد من أى شىء عن ذلك حتى الربيع القادم .

أخوك

« و . ج »

ولقد أفضى الشغف بالبحوث النفسية الذى حركه فىّ چيمس فردريك مايرز، وإدموند جورنى، وهنرى سيدجويك وزوجته فى أثناء إقامته بإنجلترا ١٨٨٢ . ١٨٨٣، إلى قيامه بأبحاث متقطعة وخصوصا عن الوسيطة الشهيرة المسز بايبر التى كتب عنها تقريرا قدمه للجمعية الأمريكية السيكولوجية فى سنة ١٨٨٦ .

وفى سنة ١٨٩٠، أرسل تقريرا مكتوبا[٩] عن نفس الموضوع لجمعية الآباء فى إنجلترا، وتلا أخوه هنرى التقرير فى غيابه، الأمر الذى اعتبره چيمس « أكثر الأشياء فكاهة » سمع بها فى حياته من قبل. وعندما قالت له زوجته : إن هذا الموضوع مازال يخلف راسبًا فى نفسه، وأنه لم يذب ذوبانا كافيا - كتب لأخيه هنرى قائلا: « تأكد أننى ذبت لدرجة الصهر التام. إنه أشهم وأكرم وأجمل عمل آخر عرفته فى حياتى، وآمل أن يكون ذلك بداية لحياة جديدة من جانبك تصبح فيها من الحواريين النفسيين فليباركك الله لقاءها . اكتب بإيجاز. ومرات كثيرة»[١٠].

وفى رسالة شهيرة بتاريخ ٦ يوليو سنة ١٨٩١، كتب چيمس لأخته بشأن الموت باعتباره انعتاقا وخلاصا من الألم والكبت والكظم[١١]، وأشار إلى بعض أفكار الخلود

(9) This report was published in the Proc. of the S.P.r., Vi (1890).

(10) October 20, 1890.

(11) This leter will be found in L.W.J., 1, 309, Iwl.

التى احتوتها محاضرته المعروفة بمحاضرة أنجرسول لسنة ١٨٩٧ . ولقد أعقبتها الرسالة التالية - عاجلا - التى كتبها من مقامه فى آشفيل بكاروينا الشمالية.

جبل رون ٢٢ أغسطس سنة ١٨٩١

« أختى العزيزة :

تجولت هنا بالأمس وصباح هذا اليوم المشمس المشرق الساكن بعالم الجبال المواج من حوله ومن أسفله، وبالنسيم العليل البلسمى (على الرغم من حيويته) كما لو كان علىّ السبح لا على ارتفاع ٦٣٠٠ قدم، هى الفرق بين السفح والهضبة. وهو جد مختلف عن هواء جبل واشنطن.

تسلمت رسالتك المدهشة - الملهمة قبل أن أغادر الوطن. إنه لما يشرح الصدر أن تتحدثى عن هذا العام باعتباره واحداً من أحسن سنى حياتك. عظيم أن أسمعك تتحدثين عن الحياة والموت من وجهة نظر راسخة مطمئنة على هذا النحو - على غرار ما تحدث عنه أحد مرشدى أديروندداك واسماه « السكون العلوى السماوى » فى وجهة النظر. ولقد جاءتنى رسالة من هارى - منذ أيام قليلة فقط تؤكد لى هذا الانطباع. إنه يقول إنه أقل « قلقا » عليك مما كان فى أى وقت مضى ، وأعتقد أنه ينبغى علينا جميعا أن نتحد فى وجهة النظر كما نحن الآن. لقد اتضح أن مرض لويل المسكين كان السرطان[١٢] ، وهو لم يعرف حقيقة مرضه أبدا، وفى صورة ألم إيجابى فإنه قاس قليلا نسبيا، وإن كان قد لقى من المتاعب المتعددة والمضايقات ما لا حصر له ولا حد. والآن وقد رحل، فهو يبدو شخصا أكثر فذاذة ونفاسة وندرة مما كان قبلا. واحسرتاه - هكذا الشأن دائما - وفى مرجوى أن تتركى بعض المذكرات عن الحياة الإنجليزية، بحيث يستطيع هارى أن يفيد منها فيما بعد لكى يؤلف أحسن كتاب فى حياته على الإطلاق. تشارلز نورتون - فيما علمت - يتسلم مخطوطات لويل حسب وصيته ... إلخ. إن الطريقة التى يلصق بها هذا الرجل اسمه بكل عمل عظيم وبكل عظيم طريقة تشبه الأساطير. لقد لصق اسمه بدانتى، وبجوته، وبكارليل ، وراسكن، وفيتزجرالد، وتشونسى رايت، وآلا لوويل ، إن اسمه سيحتل مكان الصدارة والسيادة فى التاريخ الأدبى لهذه الحقبة . وبعد مائة سنة من الآن ستنشر مجلة العالمين (Revue dex deux mondes) مقالا بعنوان « حياة الروح فى الولايات المتحدة الأمريكية قبل نهاية القرن التاسع عشر، دراسة عن شارلز نورتون ». إنه مركز ذكائنا (foyer dr lumiéres)

(12) James Russell Lawell died on Agugust 12, 1891.

.. وأسوأ ما فى الأمر أنه يؤدى عمل الجوقة كلها ضمن هذا . وفعلا يملأ المركز أحسن مما لو كان هو المقالة الحقيقية الأصيلة .

يبدو أننى أكثر قوة وعافية بدنية، وفى مستطاعتى إنجاز قدر أكبر من العمل العقلى المستمر - مما كنته فى كثير من سنواتى الماضية. ولقد أضحى كتاب علم النفس أكبر وأضخم مما ظننت، (ولقد فهمت) أن المجلات الفنية تتلهف عليه، وعما قريب ستذيع عظمته الحقيقية فى الآفاق وتخبر العالم بالنبأ العظيم ... أطفالنا يزدادون ظرفا ولطفا كل عام ... ويوحون بالثقة على نحو موصول، فليباركك الله يا أعز أخت.

محبك

« و . ج »

وفى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٩١، أبحر چيمس إلى أوربا على متن السفينة إيدار - لقد انتابته نوبة عاتية من القلق الحانى على أخته فذهب ليراها. وفى أول أكتوبر كان فى طريق عودته إلى الوطن ثانية - بعد أن مكث فى لندن عشرة أيام سويا.

ولقد ماتت هذه المرأة الموهوبة الباسلة فى شهر مارس التالى، ولما يتجاوز عمرها الرابعة والأربعين. وكانت سقيمة عليلة معظم سنى حياتها، وعانت من الآلام والأوجاع بدرجة كبيرة - من الآلام الجسمية ومن آلام الصراع الناشب من جراء عللها الجسمية من جهة، وروحها العالية ونخوتها وهمتها الجبارة من جهة أخرى. كانت تشبه والدها وأخاها وليام فى مرحها وفطنتها ونفاد بصيرتها وحيوية أسلوبها ونضارته. ولم تتخذ شجاعتها، لا شكل المكابدة العابسة ولا شكل الهروب من الواقع أو مراوغة الحقيقة، وإنما اتخذت نوعًا من السخرية الرقيقة التى نبذت بها الحياة، وفى نفس الوقت احتفظت بدفء وجدانها وتعاطفها.

وعلى الرغم من أنها كانت شبيهة بأخيها وليام ، فإن أخاها هنرى هو الذى كان من نصيبه أن يكون راعيها الأمين، فى أثناء السنوات الأخيرة. ويمكننا تبين درجة حبه وإخلاصه ومبلغ ما بلغاه من كيف فى كلماتها هى نفسها التى كتبتها فى سنة ١٨٩٠:

« حضر هنرى فى اليوم العاشر من الشهر – لقضاء اليوم – هنرى الصبور – كما ينبغى لى أن أسميه. منذ خمس سنوات فى نوفمبر ، عبرت المحيط – وعلقت نفسى – كعجوز البحر – فى رقبته – حيث تدل كل الظواهر أننى سأبقى متعلقة بها إلى الأبد. لقد منحته كل عنايتى وحبى واهتمامى ... دون حد، ولكن على الرغم من ذلك وعلى الرغم من طبيعة آلامى وهمومى التى لا يمكن تصورها، لم أر أبدا نظرة ضجر أو ملل ينم عنها وجهه. ولم أسمع أبدا كلمة خالية من الحنان أو الفهم تنبس بها شفته. إنه رهن إشارتى لأقل همسة، يسير المنال « تحت تصرف » أى عضو من أعضائى يتمرد علىّ أو يسىء التصرف، ويبعث فى نفسى السكينة والطمأنينة بأن يؤكد لى أن أعصابى هى أعصابه ومعدتى هى معدته، وهذه الأخيرة هى ذروة من الحب الأخوى لم يبلغها الجنس البشرى من قبل أبدا. ولم تصدر عنه أية إشارة ولو من بعيد جدا تلمّح إلى أنه يتوقع منى أن تتحسن صحتى فى أى وقت معين. ذلك العبء الذى يفرضه الصديق الحميم والقريب المحب – لا مناص – على المريض العزيز. لم يتغير أبدا – منذ الوقت الذى أستطيع تذكره – وإنه يكاد يتميز بنفس القوة – كالوالد – فى تلك الحساسية الشخصية – التى – ماذا يستطيع المرء أن يسميها. إنها تبدو كما لو كانت وشاحا جلديا مزودا بحاسة إضافية يستطيعان بها الإحساس بحالتك دون أن يشعراك بذلك بطريقة غفل ودون أن يعميا عينيك عن رؤيتها »(١٣).

وفى أثناء سنواتها الأخيرة، كن أخوها وليام هو حلقة الاتصال الرئيسية بينها وبين الوطن، مع دائرة الأسرة والأصدقاء القدامى ومع البلد الذى لم تهجره أبدا فى صميم قلبها. كان الوافدون تجديدا من أمريكا، أو الأصدقاء الأمريكيون الذين يرونها عشية رحيلهم عائدين إلى الوطن يذكرونها بطريقة أليمة واخزة بمنفاه. وفى إحدى تلك المناسبات سجلت انطباعها على النحو التالى :

« أى تيار جارف من الحنين إلى الوطن يكتسحنى من الأعماق فى هذه اللحظ. كم أنا تواقة إلى رؤية مسكة من أشعة الشمس تومض خلل أشجار الصنوبر، وأتنفس ملء رئتى من الهواء الزاخر بعبير صمغ الصنوبر، وألقى بجسمى الذابل الواهن على أمى الأرض الطيبة، وأدفن وجهى فى العشب الأحرش، ساجدة لكل ما يمثله الفضاء الغفل للأرض المباركة، مجسم ماثل لفرصة هائلة أمام إنسانية أحيط بها وضُيِّق عليها الخناق، حيث تمتد ظروفها وأحوالها المرنة لتشمل كل حجوم

(13) Journal, March 25, 1890.

الإنسـان، شـاحـبة وعـارية بالضـرورة لا تـكسـوهـا أوهـام وألـغاز طـحلب أو كشـة أومـاض شـع كنسـيج العنكبوت، وإنما تزدهر بفكاهة قدسية وسـلامـة حـميـدة، ويد حـانيـة معينة مـبسوطة للمـضطرب أو المتردد، وفكرة سمـوح تسـاير المسكين والضـائع وعديم الثقة وتأخـذ بيدهم ، وقلب زاخـر بالأمل لكل طريق وشريد ومنبوذ من ضحايا التقاليد»[١٤].

هذه النتف العرضية تعطينا فكرة يسيرة عن خصيصة أليس چيم. كانت لديها النزعة إلى الكتابة والمقدرة عليها فى آن. وكانت شغوفة – بشدة وشوق – بالحياة من حولها، زاخرة بالبصيرة الحصيفة والحكمة، يحركها باعث قوى خلاق يعتمل فى صميمها. أما أنها خلفت وراءها قليلا جدا من الآثار، فلا لوم عليها ولا تثريب، وإنما اللوم يقع على جسمها الواهن الضعيف الهش، وليس على الروح المتوقدة – التى تضطرم جذوتها فى داخلها – والتى لم تخمد أبدا حتى آخر دقيقة من حياتها.

(14) Journal, Ma;y 20, 1890.

(٢٠)

چيمس وعلم النفس

كان أول مؤلفات چيمس الكبرى هو « مبادئ علم النفس » الذى ظهر فى سنة ١٨٩٠، عندما كان المؤلف فى سن الثامنة والأربعين. وكان عملا فى غاية الأهمية، - ليس فقط بالقياس إلى چيمس، ولكن بالنسبة لتاريخ علم النفس، ثمرة أكثر من عشرين عاما من الدراسة والبحث والكتابة فى أثناء فترة حاسمة من مراحل تطور الموضوع الذى كرست نفسها له. ذلك أنه سواء اعتبر چيمس أم لا، باعتباره واحداً من مؤسسى علم النفس الحديث، ففى أى من الحالين كان موجودا إبان تأسيسه، وشعر فى نفسه بالحوافز التى أفضت إلى تأسيسه. وفى هذا الصدد كتب من برلين إلى توماس و. وارد فى خريف سنة ١٨٦٧ يقول:

« يبدو لى أن الوقت قد حان لكى يبدأ علم النفس أن يكون علما. لقد تم بالفعل عمل بعض التدابير والقياسات فى المنطقة الواقعة بين التغييرات الجسمانية فى الأعصاب، وبدء ظهور الوعى بها (فى صورة مدركات حسية) وقد يأتى المزيد منها. وأنا مستمر فى دراسة ما قد سبقت معرفته، ولعلنى أستطيع أن أفعل شيئا فيها . إن هلمهولتز وعالما آخر باسم فنت فى هيدلبرج يجريان التجارب فى هذا الميدان ، وأمل أن أجتاز هذا الشتاء بسلام لكى أذهب إليهما فى الصيف».

ولقد أشار چيمس فى العبارة السابقة إلى أهم علامات « علم النفس التجريبى » الحديث . وكان فشنار[١] سبق أن نشر فى سنة ١٨٦٠ كتابه (Elemente der Psychophysik)

(1) Cf. also below, 331.

وصاغ قانون ويبر - فشنار المشهور - الذى بالغ فى شدة وقوة ارتباط الحافز الجسمانى. وكان هلمهولتز قد عالج علم النفس عن طريق فسيولوجية الحواس. وكان ڤنت هو الرجل الذى فطم علم النفس التجريبى من هذه الأبوة الجسمية الفسيولوجية. كان يكبر چيمس بعشر سنوات فى العمر وفى المنزلة الأكاديمية، وكان، قد سبق له أن نشر فى سنة ١٨٦٢ مجلدا من الدراسات التجريبية عن إدراك الحواس(٢). وبدأ يلقى محاضرات عن « علم النفس باعتباره علمًا طبيعيًا ».

وفى نفس الوقت تضافرت خبرة چيمس الطبية مع خبراته الشخصية على أن تغرس فيه اهتماما عميقا بعلم الأمراض النفسية الذى حوَّل انتباهه تجاه المدرسة الفرنسية المعروفة بمدرسة تشاركوت(٢).

ولقد اكتملت فيه عناصر العالمية السيكولوجية بميراثه المباشر من التقليد البريطانى المتمثل فى چيمس وجون ستوارت ميل ومودزلى وسبنسر وبين.

وحقيقة أن چيمس كان أمريكيا تفسر الكثلكة العجيبة لعلم نفسه. لقد أفاد من الحركات الجديدة اليانعة فى علم النفس الألمانى والفرنسى والإنجليزى دون أن يخضع نفسه إخضاعا كليا لأى منها. واتساع دائرة معارفه وكثرة تنقلاته - بالنسبة للناس والعقل على السواء - مكنته من أن يغترف من كل تلك الولائم الحافلة، وأن يجمع بين كل قيمها الغذائية المتعددة.

وبعد أن تشرب چيمس بالاتجاهات الحديثة فى أوربا ثم أتبعها بدراسات فسيولوجية وتجريدية من لدنه، أصبح واحدا من من أوائل المعلمين الأمريكيين الذين اعترفوا بوجود علم النفس باعتباره علمًا مستقلاً. وعلى الرغم من أنه لم يكن من سجيته ولا

---

(2) Beitrige zur Theorie der Sinneswahrinhrmung.

(3) James was attending Charcot's lectures in Paris in 1882 when he received news of his father's last illness.

من خصائصه أن يدعى لنفسه حقا أو فضلا، فإنه أقحم فى نزاع عام حول مسألة السبق التى بالغ فى ادعائها منذ كان تلميذا له. ففى أكتوبر سنة ١٨٩٥، نشر ج. ستانلى هول - الذى كان وقتئذ مديرا لجامعة كلارك - فى دوريته « مجلة علم النفس الأمريكى: Journal of American Psychology » ، مقالا سرد فيه قائمة طويلة تحتوى أسماء الرجال الذين ارتبط بهم فى وقت أو آخر فى جامعة جون هوبكنز أو كلارك، ثم أردف قائلا: « وتحت تأثير هؤلاء الناس وبفضلهم أنشئت أقسام ومختبرات علم النفس التجريبى فى هارفارد، وييل، وفيلادلفيا، وكولومبيا، وتورونتو، وويسكونسون، وكثير غيرها من معاهد التعليم العليا». وعندما قرأ چيمس مقالة هول الغريبة كتب له على الفور (١٢ أكتوبر سنة ١٨٩٥)، رسالة مطولة قال فيها:

« بصفتى أستاذ كرسى، فأنا أقر بصراحة بنقصى باعتبارى معلمًا فى المختبر وباحثًا . بيد أن شيئا من الاعتبار ينبغى أن يولى للنية الحسنة التى حاولت بها أن أقهر طبيعتى، وللأعمال الفعلية التى أنجزتها. ومن هذه الأعمال - على سبيل المثال. إدخالك وتوصيلك أنت للبحث التجريبى، بطرق فى غاية السذاجة، هذا صحيح ولكن لعلك تذكر أنه لم يكن ثمة مكان آخر سوى هارفارد، حيث كان يتسنى لك فى تلك السنين أن تحصل حتى على ذلك. وإنى لأذكر أيضا أننى أعطيت مقررا متواضعا من المحاضرات فى على النفس فى جامعة جون هوبكنز قبل أن يقدر لك الذهاب إليها بسنوات طويلة[٤]، وكانت تلك المحاضرات على علم النفس التجريبى، ولقد قيل لى إنها كانت فاتحة عهد جديد هناك فى تقرير الرأى.

وأنا أدرك أيضا إلى أى حد كانت تلك البدايات ضئيلة وهزيلة وحقيرة، وإنك وتلاميذك، قد قطعتم شوطا بعيدا عنها فى تلك السنوات الأخيرة. ولكنك الآن تتصدى للتاريخ، ومن ثم فإن البدايات جزء منه لا مناص من تسجيله، إذ لا ينبغى أن يكتب التاريخ معكوسا. فى هذا العالم كل منا مدين للآخر بشىء. وأنا مدين لك ولكارك بدين عظيم، ولو أن الأمر كان يتعلق بشخصى أنا فقط، لكان لزاما علىَّ أن أتركك تقول ما تشاء دون اعتراض، لأن السامعين والمتفرجين - بصفة عامة - يعرفون الحقيقة ويرونها، ولكن الخطأ فى هذه الحالة التى نحن بصددها يظلم جامعتى ولا يصون ذمة التاريخ ».

(4) In 1878.

والتاريخ المبكر لتعليم چيمس لعلم النفس هو بإيجاز ما يلى :

ابتداء من سنة ١٨٧٢ ، ولمدة أعوام قليلة بعدها أعطى مقررات فى التشريح والفسيولوجى فى كلية هارفارد. وفى تلك المحاضرات أولى قسطا كبيرا من الاهتمام لفسيولوجية الجهاز العصبى وبعض الاهتمام للظواهر الطبيعية النفسية.

وفى سنة ١٨٧٥، أعلن عن مقرر من الدرسات العليا للخريجين عن « العلاقات بين الفسيولوجيا وعلم النفس » ، ومنذ ذلك الوقت أصبح هذا المقرر أو ما يناظره - يعطى بانتظام . وبدأ تدريسه لعلم النفس على مستوى طلاب الكلية قبل التخرج فى (١٨٧٦-١٨٧٧). وكان مجال هذا المقرر واسعا جدا يشمل علم النفس الفسيولوجى، والموضوعات التقليدية للترابطين، والمشاكل الفلسفية مثل: معرفة العالم الخارجى وحرية الإرادة. والواقع أن محتواه يضاهى بالتقريب محتويات كتاب « مبادئ علم النفس »، ثم إن معظم وجهات نظر المؤلف تم تكوينها فى محاضراته وفى نقده للكتب المقررة التى كان يفرض دراستها على الطلاب.

ومن الجلى أن چيمس كان يدافع عن الاعتراف بعلم النفس الجديد، «جديد» فى معنى ربط نفسه حليفا للعلم وللفلسفة كذلك، وفى الجمع بين طرائق الملاحظة والتجربة وبين طرائق التأمل والتمعن النظرى. وكان ذلك جبريا من التحديد الواضح. لأن علم النفس كما كان يعلم عندئذ فى الولايات المتحدة، كان لا يمكن تمييزه أو فرقه من فلسفة الروح، إذ كان يتضمن موجزا عن الحواس والترابط، ولكنه كان ينصب أساسا على العمليات الأخلاقية والمنطقية العليا.

فلا عجب إذن أن يجذب تعليم چيمس المبكر لعلم النفس الفسيولوجى فى هارفارد قدرا كبيرا من الانتباه. وفى إجابته المنشورة عن دعوى أسبقية ستانلى هول المشهورة قال چيمس: إن العمل السيكولوجى فى هارفارد نما ونشأ مرتبطا بتلك المقررات الجديدة:

« أنا نفسى « أنشأت » تعليم علم النفس التجريبى فى هارفارد فى (١٨٧٤- ٥ أو ١٨٧٦) لقد نسيت أيها. ولمدة سنوات طويلة كان المختبر يحتل غرفتين من بناء مدرسة العلوم اكتظتا أخيرا

حتى اختنقتا بالأجهزة والعتاد ، الأمر الذى تطلب نقل المختبر إلى مكان آخر. وبعد ذلك فى سنة ١٨٩٠، صممت على نقله إلى مكان جديد، ودبرت بضعة آلاف من الدولارات وجهزت قاعة دان، وأدخلت التمارين العملية باعتبارها جزءًا منتظمًا من مقرر علم النفس لطلاب الكلية[٥].

أما متى يمكن القول - على وجه التحديد - بأن معملا سيكولوجيا قد بدأ، فهذه مسألة لا يمكن البت فيها على نحو جازم، لأنه من المستحيل أن يحدد بالذات متى يصبح مختبر فسيولوجى أو طبيعى، مختبرا سيكولوجيا، ولا متى تصبح مجموعة من الآلات والعتاد المنظمة والمستخدمة فى الإيضاح أو البحث فى علم النفس - تصبح مختبرا. بيد أن معظم تعليم چيمس للطلاب على هذا المستوى كان بصفة رئيسية من الكتب، ولكنه كان سيخدم الأجهزة باعتبارها وسائل لتوضيح الدروس فى الفصل، وكان فى نفس الوقت يشغل طلابه المتقدمين على مستوى الدراسات العليا بمشكلات تجريبية، ويجرى هو قدرًا معينًا من البحث التجريبى لنفسه بنفسه.

أما بالقياس إلى ستانلى هول، فكان قد بدأ دراساته العليا فى سنة ١٨٦٩، فى ألمانيا، ولكن اهتمامه انصب أساسا على الفلسفة واللاهوت. وبعد أن قام بتعليم أشتات متنوعة من المواد الدراسية زهاء أربع سنوات فى كلية أنتيوك، جاء إلى هارفارد فى سنة ١٨٧٦. حيث انتظم فى الدراسة لمدة عامين، وارتبط ارتباطا وثيقا بچيمس فى دراسة علم النفس الفسيولوجى.

وعندما كان چيمس فى أوربا سنة ١٨٨٠ لحق به هول فى هيدلبرج، حيث خاضا معا فى مناقشات كلامية كثيرة فى علم النفس. وعاد هول إلى أمريكا فى نفس صيف ذلك العام، ودعى فى يناير سنة ١٨٨٢، إلى جامعة جون هوبكنز حيث بدأ فى إعطاء مقرر منتظم (يشمل علم النفس التجريبى فى المعمل) فى الخريف التالى، أولا محاضرا، وبعد ذلك فى سنة ١٨٨٤ باعتباره أستاذًا. ثم دعى إلى جامعة كلارك فى سنة ١٨٨٨. وإزاء هذه الحقائق، ماذا فى وسعنا أن نقوله بالقياس إلى أسبقية چيمس

(5) Science, N.S., 11 (1895), 629.

النسبية فى المختبر وأسبقية هول؟ لقد قال البروفسور لورنج عبارة يبدو أنها تجمل حكمة المسألة : « لا يوجد شيء يسمى « الأول » يمكن أن يكون الأدل بالمعنى الحرفى أبدا - إذ يظهر دائما أنه مسبوق بتوقعات وتقديمات ». ثم يضيف إلى ذلك قوله: « ومثل هذه التقديمات لا تنشأ إنشاء ، وإنما هى تحدث فحسب وتوجد. وكان مختبر چيمس واحدا من قبيل تلك التوقعات. لقد كانت أسبق ولكنها « ولدت » فى حين أنشأ هول مختبره. والفرق بين الايجاد والإنشاء هو فرق فى مزاجى الرجلين »[٦]. وبعد نحو خمس سنوات بعد ذلك « الإنشاء » (أوبعد عشر سنوات بعد « التقديم أو التوقيع ») ، يفضل تأثير هارفارد وچون هوبكنز، وبفضل الدراسات المستقلة التى قام بها علماء النفس الأمريكيون فى ألمانيا، بدأت المختبرات والمعامل تتكاثر بسرعة. وما وافت سنة ١٩٠٠ حتى كان هناك خمسة وعشرون منها أو أكثر فى الجامعات الأمريكية. وفى سنة ١٩٠٥ نقل مختبر هارفارد من قاعة دان إلى قاعة أمرسون، وكان هذا المختبر من أول المختبرات السيكولوجية - إن لم يكن أولها - التى صممت أصلا وبنيت لهذا الغرض.

على أننا عند الحكم على علاقات چيمس بعلم النفس التجريبى بصفة عامة، ينبغى أن نتذكر أن هناك أكثر من معنى واحد للفظ « تجريبى ». ففى ؟ المعنى الواسع للفظ الذى يفيد اختبار الفروض على منك الخبرة والتجريب فقد كان عقل چيمس غريزيا وبعمق - عقلا تجريبيا. فما لا يزيد على خمس كتابه « مبادئ علم النس» يمكن أن يقال - إنه حتى - يتصل بالعمل التجريبى للآخرين. أما أنه كان لا يطيق قضاء ساعات طويلة فى مختبر، فقد كان ذلك راجعا لأسباب جسمانية، وكونه كان لا يجنح إلى استعمال القياسات الكمية، فقد كان راجعا إلى نزعته العقلية غير الحسابية.

وأما أنه كان لا ينظم التجارب ويستمر فيها على نحو موصول لسنوات طويلة من المثابرة الجهيدة فقد كان ذلك راجعا إلى قلة صبره.

(6) E.G. Borings, History of Experim entral Psycholog , The Century Company, 1929, 318, 507.

وإلى هذا العجز المثلث أضيفت فكرة أن طريقة المختبر الجديدة لم تؤت نتائج مهمة أو تسفر عن حلول يعتد بها.

وسواء أخسر علم النفس أم كسب بهذا العجز وهذا النفور، فمن ذا الذى يتسنى له أن يقول ذلك؟ وكون الخاصية العجيبة لتأثير چيمس راجعة إليها - إلى حدها - يبدو واضحا .

لم يكن فى مقدوره أن يقف فى المختبر. ولكن كان فى مقدوره أن يتحرك وينشط فى الخارج. ومثلما كان متحررا لا يقيِّد نفسه بأية حركة قومية، فكذلك لم يقيد نفسه بأى طريقة. كان ملاحظا حادا نافذا - بشكل نادر المثال - للإنسان الطبيعى فى كل نواحى حياته المتعددة. وكان صاحب خيال خصب حيوى صحيح. وكان يستخدم أية حقائق يستطيع أن يحدها ، من ثم، أو يجمعها من غيره من الملاحظين، ويفسرها بعقلية متحررة، ويكون صورة عن الطبيعة الإنسانية لم تعقم بعد أربعين عاما.

(٢١)

تأليف كتاب علم النفس

في يونية سنة ١٨٧٨، في ختام العام الدراسي الذي حول فيه مقرره العام إلى قسم الفلسفة، وقبل زواجه بشهر واحد، تعاقد چيمس على كتابه « علم نفس » مع الناشر هنري هولت ضمن « سلسلة العلوم الأمريكية »، وأبى أن يتعهد بتقديم المخطوط في ظرف عام واحد، ولكنه ارتأى أن في وسعه أن يعد المخطوط في عامين، وبدأت الشكوك تساور هولت منذ وقت مبكر يرجع إلى خريف سنة ١٨٧٨، وبدأ يلمِّح إلى احتمال اللجوء إلى هول أو مؤلف آخر من منافسي چيمس. وفي الواقع من الأمر استغرق تأليف الكتاب زهاء اثنى عشر عاما وانتظر هولت.

بيد أن علاقات چيمس بهنري هولت لم تكن مجرد علاقات مهنية وتجارية فحسب. لقد كانت فعلا مهنية وتجارية. ويظهر ذلك بكل جلاء في المراسلات المتبادلة بينهما والتي امتدت إلى فترة تبلغ عشرين عاما. والتي اتسمت بطابع الصراحة من كلا الرجلين، والتي يبدو فيها ما يحدث عادة من مضايقات بين الناشر والمؤلف، وكيف يزعج الناشر المؤلف. ويزعج المؤلف الناشر وهكذا دواليك ... ولكن هولت كان رجلا صاحب اهتمامات فكرية خاصة به، مكنته أن يلاقي المؤلف الذي يعمل معه ثابتا في مركزه

وعلى أرضـه هو، ثم إنه كـان رجـلا قـادرا على الدعـابة والفكاهة واللذع واللسـع، الأمـر الذى كان يقع من نفس چيمس موقع الابتسامة وطيب النكهة بلذة عظيمة.

وبين سنة ١٨٧٨ وسنة ١٨٩٠، كان چيمس يعلِّم علم النفس باستمرار. والكتاب – كما يخبرنا هو فى المقدمة – نشأ ونما « مرتبطا بتعليم المؤلف فى قاعة الدرس »[1].

ويعـزى أسلوب الكتـاب – إلى حـد كـبيـر – إلى طريقـة چيمس الحـيـة الفـوارة والزاخـرة بالجـدل والنقاش فى التـعليم – وإلى مـا فـيـهـا من قوة الإقناع ووفـرة الحـجج وفيض الإيضـاح وضـرب الأمـثـال والسـخـاء فى الاسـتـشـهـاد بالمؤلفين. ولقد كان تأليف كتاب « علم النفس » – على غرار كل مـؤلفات چيمس – عملا شـاقا متـعبا، وكان چيمس سرعان ما يدب فى أوصاله التعب إثر أى جهد يبذله. ولما كان رجلا متعدد الاهتمامات، وصـاحب عقل نهم، ونزعـة خـلاقـة دافـقـة، وقلب كريم شـهم، فـمـا أكـثـر مـا كـان يـتـعـبـه ويضنيه ويرهقه من أمره عسرا! فإذا كانت العبقرية تتضمن تلقائية موصولة دافقة سيالة بلا فرك ولا حك، فإذن لم يكن چيمس عبقريا. كانت فترات التـدفق تتناوب مـع فـتـرات الجـهـد المضنى والسـعى المؤلم. لقد كـافـح، وقـاسى وعـانى، وعلى الرغـم من أنه أنجز الكـثـيـر، فـإنه كـان يبـدو فى نظر نفـسـه وكـأنه لم ينجـز إلا القليل، وكـان يـغلو فى الإعـجـاب ويبـالغ فى التـقدير، لما اعتبـره كثـرة خـصـوبة وإنتـاج مـعـاصـريه الأكثـر موهبـة، والذين كانوا فى نظره يفوقونه فى الخصيصتين على السواء.

وعلى الرغم من أعبائه الأخرى – التى تنوء بها العصبة أولو القوة – وعلى الرغم من مرضـه وقنوطه ونوبات فتوره وتململه وتذمره وتبرمـه، فإنه مـع ذلك مـضـى إلى غـايـتـه بعزم وحزم ومواظبة – مضيفا فصلا إلى فصل من فصول الكتاب.

وحـتى عـامى ١٨٨٢ ، ١٨٨٣، التى قضـى منهمـا چيمس سبـعـة شـهـور سـويا فى الخـارج، كان چيمس قد نشـر سـت مـقالات يمكن أن يقال إنها أسـهمت فى عمل كتاب

---

(1) Psychoiogy, V.

« علم النفس » ، وإن كان لم يضمن الكتاب غير مقال واحد منها بصورته الراهنة. وكان من أهم الحوافز الرئيسية لتلك المرحلة الأوربية الحصول على فرصة مواتية لكتابة هذا الكتاب، دون مقاطعة. ولكنه فى ديسمبر سنة ١٨٨٢، اضطر إلى الاعتراف بأنه على الرغم من أنه « كان يأمل أن يبدأ فى الكتابة نحو مستهل نوفمبر » فإنه « لم يكتب - بعد - سوى ست صفحات ». وفى باكورة السنة الجديدة انحسر الجزر وتحول إلى مد، ففى ٢٢، ٢٣ يناير سنة ١٨٨٣، كان قد « كتب شيئا من علم النفس »[٢].

والفقرة التالية مقتبسة من رسالة لزوجته حررها من لندن فى اليوم العاشر من فبراير سنة ١٨٨٣:

« بالأمس كنت فى حالة مخاض - يعتمل فى نفسى - بالحق السيكولوجى - حالة من تلك الحالات المحمومة التى تنتاب المرء عندما تنبجس الأفكار جمعا، بحيث تنزع المرء نزعا من عالم المحدود والمتناهى، لقد كتبت كثيرا دفعة واحدة وبسرعة متهورة، وفى المساء - نظرا لوقوع الاختيار على للكلام فى نادى الخدش ٨ - تلوت عليهم ما كتبت عن الفرق بين الشعور والتفكير ».

ويبدو أن هذا « الحق السيكولوجى » كان مادة محاضرات كونكورد لسنة ١٨٨٣، وركيزة مقاله « عن بعض ما أغفل فى علم النفس التأملى » الذى نشر فى مجلة «العقل Mind » فى سنة ١٨٨٤، والذى وزع فيما بعد على فصول عديدة من كتابه (علم النفس).

على أن تقدمه فى وضع الكتاب يرجع لسببين: أولهما سبب شخصى مرده إلى وقته المحدود وقدرته المحدودة على العمل، كما سجل ذلك فى مثل هذه الفقرات التالية المقتبسة من رسائل بعث بها إلى أخيه:

(2) W.J. to Renouvier, December 6,1882, W.J. to H.J.2, Junuary , 23, 1883.

١٨ أكتوبر سنة ١٨٨٤

« لم يسبق لى فى حياتى أبدا أن بدأت عامى الدراسى بالكلية بمثل هذه الخفة والنشاط، وبمثل هذا القدر الضئيل من التوتر والضيق . وفى مرجوى أن يتيح لى ذلك أن أفعل شيئا حيال كتابى « علم النفس ». Nن يوم عملى قصير إلى درجة محزنة، ومع ذلك فسأبذل قصارى جهدى علما بأنى لا أستطيع أن أروض عينى على عمل أى شىء تحت ضوء المصباح دون أن أدفع الثمن غاليا فيما بعد، وأحيانا يستبد بى الشغف للقراءة فى المساء إلى درجة تبلغ فى شدتها حدا فى غاية القسوة ».

أول إبريل سنة ١٨٨٥

« إننى أمضى فى عملى كالسكين فى الزبد . بكل سلاسة ويسر. وعيناى , لا يمكنك أن تتصور أبدا مدى ما طرأ عليهما من تحسن . لقد بدأت بداية طيبة فى الكتابة، وسأعمل فيه باعتدال طوال الإجازة، وفى مرجوى أن أفرغ منه بعد عام من الخريف القادم على سبيل الجزم. ويومئذ ينكسف نجم رواياتك الرومانتيكية[٣].

والمعوق الثانى لتقدمه المواظب كان صعوبة العمل ذاته. لقد أخذ على عاتقه أن يكتب، ليس موجزا للمعرفة السيكولوجية الراهنة، وإنما توسيع وإطالة ومد ومراجعة لها. كان يجد « كل مشكلة محفوفة ومنتفشة بالمعوقات والسدود » تتطلب سنين « لتطليفها وتخفيفها ». كل عبارة كان يتعين صهرها وطرقها « لكى تسبك فى أسنان الحقائق العنيدة التى لا تقبل التنقيص ». كان لزاما عليه أن يتغلب ليس فقط « على مقاومة الحقائق وعنادها » ولكن أيضا « على مقاومة وعناد الفلاسفة الآخرين ». لم يكن من « الهين ذبح الهلمهولتزيين ولا الإسبنسريين»[٤]. لقد كان « علم » علم النفس فى حالة من التخليط والتهويش والنقص، لدرجة أن كل فقرة كانت تعرض « أمرا معقدا غير منتظر ولا متوقع »[٥].

(3) Reprinted from L.W.J., 1, 342-3.

(4) Cf. above, 173.

(5) W.J. to H.J. 2, April 12, 1887. L.W.J.,1,269.

وبعبارة أخرى فإن چيمس بين سنة (١٨٧٨- ١٨٩٠) لم يكن فقط يؤلف كتابا منظما عن علم النفس، وإنما كان يلاحظ ويرصد ويبحث عن فروض مقبولة ويعلن حربا جدلية عنيفة.

وشهدت سنة ١٨٨٤، نشر « نظرية چيمس - لانج » المشهورة عن الانفعال[٦].

وفى سنة ١٨٨٥ كتب بحثه المهم عن « الحقائق الضرورية وآثار الخبرة » الذى أصبح الفصل الأخير من كتابه « علم النفس ». ووجده شتاء ١٨٨٦، ١٨٨٧، ماضيا فى عمله « بيسر »، يكتب بمزيد من المواصلة، وقد فرغ من « كتابة ثلثى الكتاب » مؤملا إتمامه فى مدى عام واحد[٧].

وكثير من الفصول التى فرغ من كتابتها تباعا، أرسلت إلى كروم روبرتسون لكى تنشر فى مجلة العقل (Mind) . فلما اقترب بالكتاب من ختامه، أصبحت مراسلات چيمس مع ناشره هنرى هولت، كثيرة وغزيرة وضخمة الحجم وحادة. وكان هولت فى غاية الحساسية والتنبه لعادات مؤلفيه التى لا تتسم بطابع رجال الأعمال. كان يتلقى اللوم ويكيل اللوم بكل تسامح وتغاض. ومن ثم كتب مرة إلى چيمس يقول له : « رويس العزيز القديم، كان عندى فى المكتب « يعلن أن المحاولة الوحيدة لحياته هى « أن يتحرر من فضائل رجال الأعمال ». ومع ذلك فأنا أحب هذا المخلوق البرم اللعين [٨]»

ذلك أن المؤلفين الذى كان هولت يتعامل معهم، لم يكن لهم فقط دستورهم الخاص بهم فحسب، والذى كان يختلف عن دستور الناشرين.

وإنما كان يؤمن تماما بأن دستورهم الأخلاقى كان أسمى وأرفع. ولم يكن يستطيع إخفاء هذا الشعور - إلا جزئيا - تحت قناع من المزاح والدعابة.

---

(6) "What is an Eimotion" ? Mind, IX..

(7) W.J. to H.J. 2, April 12, 1887; L.W.J., 1, 269.

(8) Jul;y 24, 1893.

كمبريدج ٢١ مارس سنة ١٨٩٠

« عزيزى هولت:

الناشرون شياطين، ما فى ذلك أدنى ريب. ما أسخف أن يهب المرء فى وجه الرصيد المجمع من حكمة الجنس البشرى، ويظن أنه لمجرد أن واحدة منها تبدو لطيفة اجتماعيا، فمعنى ذلك أن القانون الطبيعى العظيم قد كسر ، وأنه هو أيضا بشر بموجب مقدرته المهنية. تبا لهذا الضعف. لن أقترف هذا الإثم مرة ثانية.

أما فيما يتعلق بالمخطوط، فأعترف أننى فى عجب من أمرك، لا أعرف لماذا تريد المخطوط برمته – فى يدك – قبل أن يبدأ الطبع!. بعد انقضاء الأسبوع الحالى من الراحة، سأكتب فصلا قد يستغرق ثلاثة أسابيع ويكمل الكتاب. وعندئذ سيكون هناك نحو ١٧٠٠ صفحة من المخطوط معدة للطباعة دون أن أمسها مرة أخرى. وسيتبقى خمسة فصول أو ستة تحتاج قليلا من اللمسات والإضافات، وهذه يمكن لى أن أنجزها على أكمل وجه فى فترات مراجعة تجارب الطبع، كما يمكن مراجعة التجارب أن تبدأ فى مستهل مايو حيث يكون الكتاب برمته، كما قلت، قد كتب بأكمله فيما عدا الفصول القليلة التى لم تراجع. إن الوقت ثمين جدا الآن ، بحيث إننى لا أرى أية مخاطرة فى المضى فى طبع المخطوط الذى تمت مراجعته. وفى الإمكان طبع الجزء الباقى دون مراجعة، وإن كان من الأوفق أن ألقى نظرة ثانية عليه. اكتب لى وقل لى ما يقر قرارك عليه. أريد أن أمضى قدما الآن دون أقل تأخير ممكن . لقد وجدت أننى فقدت العقد الذى أرسلته لى فى الربيع الماضى. ولم أحفل بفحصه عندئذ ، بالله عليك أرسل لى عقدا آخر لكى أعرف التزاماتى.

صديقك دائما

« و . م . جيمس »

نيويورك ٢ أبريل سنة ١٨٩٠

« عزيزى جيمس:

إذا « لم يكن الناشرون شياطين » فذلك مثال فذ على طول المعاناة فى البأساء والضراء وحين البأس. لدىّ أدلة هنا – ووعودك صدرت منذ أعوام – بتقديم مخطوط لم يخرج أبدا إلى حيز الموجود. إن رسالتك توضح صراحة ما سلمت به تسليما، وهو أن مخطوطك لن يكون معداً فى مستهل مايو. وطبعا أنت « لا تعرف لماذا أريد المخطوط برمته قبل بدء الطبع ». ولا جناح عليك ألا تعرف ذلك. فهذه أمور لا تدخل فى دائرة عملك. فإذا قدر لك أن تتحول تدريجيا إلى شيطان مريد بسبب المزعجات والمضايقات التى يسببها المؤلفون من حين لآخر، فسوف تعرف كل شىء عن ذلك.

لم يسبق فى حياتى أبدا أن بدأت فى طبع جزء من مخطوط - بقدر ما فى وسعى أن أتذكر - دون أن أضطر إلى وقف العمل قبل إتمام الكتاب، وبذلك أكره الطابع على أن يحفظ عدة الطبع كلها فى مكانها انتظارا للباقى، الأمر الذى يعطيه أسبابا ويهيئ له أعذارا (وهم دائما يستغلونها إلى أبعد مدى) للتلكؤ والتوانى وإضاعة الوقت بالنسبة لبقية المخطوط عندما يجىء، ومن ثم يتأجل إنجاز العمل، وبعد حدوث كثير من الاحتكاكات التى ما كان أغنانا عنها لو أن الطبع لا يبدأ إلا بعد أن يكون المخطوط برمته حاضراً.. ومن ضمن الأمور التى تجعلنى شيطانا هو اضطرارى إلى تقديم هذا التفسير المتعب مرارا وتكراراً. ومما يثلج صدرى أنك «تريد أن تمضى قدما الآن دون أدنى تأخير ممكن». ولكى تتجز ذلك - وصدقنى إننى لا أقل عنك رغبة فى ذلك - ضع بعض الثقة فى خبرتى، وأكمل مخطوطك قبل أن تؤدى أى عمل آخر .

على أن خلقى الشيطانى لم يتطور ويزدد كثيراً، بسبب المؤلفين الذين لا يكترثون بالنظر فى عقود الاتفاق المبرمة بينى وبينهم ، وبسبب فقدها، مثلما يتطور ويزداد من جراء السبب الآخر، ولهذا فسأكون ملائكيًا على قدر الكفاية لكى أرسل لك نسختين أخريين من العقد أرجوك أن توقع على كلتيهما وترسل لنا واحدة منهما. لقد وقع بصرى حالا على عقد مذيل بتوقيعك الكريم تتعهد فيه بإعطائنا ذلك المخطوط فى يوم ١٢ يونيه سنة ١٨٨٠، ومع ذلك فأنت - أنت، أنت ، يا بليد - تسبُّنى وتعيب على أن أكون شيطانًا .

ومع كل ، فأنا أسف جداً ، أنك لن تحضر وتتناول معنا الغداء، ولكن لا بد أن تجىء الفرصة فى الوقت المناسب .

المخلص دائما

« هـ . هولت، شيطان محترف »

كمبريدج ٥ أبريل سنة ١٨٩٠

« عزيزى هولت:

وجدت رسالتك فى انتظار مرجعى من نيويورت. أيها الناشر المسكين ، الشريك المسكين، الإنسان المسكين، الشيطان سابقًا.

لابد أن أولئك الواغش من المؤلفين قد فعلوا بك الأفاعيل ، وأمعنوا فى الكيد لك والمكر بك فى سالف أيامك، بحيث أجبروك على مثل هذه الحملة. حسنا ، لقد أفدت درسًا بأن أحطت علمًا بوجهة نظر الناشر . على أن السقطة المهلكة التى ترديت فيها هى: أنك لم تدرك أننى طراز من المؤلفين جد مختلف تمامًا عن أى من أولئك المؤلفين الذين أعتقد أن تلقاهم ، وأن تلك الرشاقة - الرشاقة

المتجسدة - هى باعث ونتيجة كل خططى وأعمالى . وليس من الإنصاف أن تقذف بذلك العقد السابق فى وجهى ، وأنت تعلم أو ينبغى لك أن تعلم أنه عندما انقضى أجل السنوات العشر أو ما يزيد عليها قليلاً من وقت التوقيع عليه ، كتبت لك أنه لاجناح عليك من أن تحصل على رجل آخر ليكتب هذا الكتاب لك، فلم أكن أدرى عندئذ كيف يتسنى لى إتمام هذا الكتاب أبدًا فى الظروف والأحوال التى كانت قائمة إبان ذلك .

ولم أكن لأتردد فى أن أعيد هذين العقدين وعليهما توقيعى طيه، لولا نقطتين:

أولا، الشرط القاضى بأن المؤلف «يتعين عليه إعداد» المادة للطبعات الجديدة من الكتاب «كلما طلب منه الناشرون ذلك» ..

وثانيًا : وجدت فى العقد السابق إضافة بخط اليد تفيد بأنه عند صدور الكتاب فإنك تتفضل بتسليمى عشرين نسخة بلا مقابل. وليس فى ذلك أى إجحاف. ولكنى أحسب منذ أيام عدد الذين يلزمنى أن أهدى إليهم نسخا من الكتاب ووجدتهم، على الأقل خمسة وعشرون، ومعظمهم أساتذة هنا وفى الخارج . دعنى أعرف رأيك فى هاتين النقطتين وسأوقع العقدين.

المخلص دائمًا

و . م . چيمس

نيويورك ٧ أبريل سنة ١٨٩٠

« عزيزى چيمس :

« الرشاقة » طيبة. ولا أريد أن ألقى بأى شىء فى وجهك ، ولكنى أقسم بروحى لست أفهم - بعد الاتفاق على أداء أمر معين - كيف أن اقتراحا بأن شخصا آخر ينبغى عليه أن يؤديه، يحسب بديلاً صحيحًا عن أدائه، ولكن ذنوبك الكثيرة - مغفورة - كما تعرف. لا تخش شيئًا من ذلك الشرط الخاص بالطبعات الجديدة. لقد أثبتت الخبرة والتجربة أنه من المحتم الاتفاق حول هذه النقطة مقدمًا بشكل حاسم.. ولن نسىء استعمال هذا الشرط وتنفيذه بحذافيره معك .

المخلص دائمًا

هـ . هولت

كمبريدج ٨ أبريل سنة ١٨٩٠

عزيزى هولت :

إليك نسخة من العقد عليها توقيعى . لقد وجدت نسختك ثانية . وإنى أضيف – حسب اقتراحك– الشرط الخاص بالعشرين نسخة من الكتاب، وأترك الشرط الخاص بتقديم المادة الجديدة للطبعات الجديدة ، ولكنى أحذرك بكل صراحة بأننى لن أوافق على تقديم مثل تلك المادة الجديدة إلا فى حالة واحدة فقط – حالة كونها لا تتضمن أية تضحية جبارة . بوسعى أن أتصور نفسى بسهولة غارقًا فى عمل آخر فيما بعد ، وأننى قد بلغت حدًا من الزهد فى علم نفسى القديم ، بحيث أجد أن إعادة معالجته عمل فكرى مستحيل . وفى تلك الحالة فسأضم ذراعى بكل هدوء وأقول: «لقد بلغ الكتاب أجله وانتهى زمانه، وإذا كان لابد من أن يعاد طبعه، فليطبع على أنه نصب تذكارى تاريخى. وليس باعتباره معرضًا لعرض أرائى الراهنة » . لابد أن يحين وقت بالنسبة لكل كتاب لا يتسنى للمؤلف عنده أن يرممه على أى نحو ، إنما يتعين عليه أن يكتب مؤلفاً جديدًا على الإطلاق .

المخلص دائمًا

و . م . چيمس

كمبريدج ٩ مايو سنة ١٨٩٠[9] » عزيزى هولت :

لقد راودتنى الآمال بأنك ستقترح الانفصال عن « السلسلة » الشهيرة وتنشر الكتاب مستقلا عنها فى مجلدين. وعندئذ يمكن إعداد موجز لينشر فى السلسلة . إذا كان هناك أى شىء أمقته فهو صفحة من ورق حقير يزيد عدد سطورها على المعتاد ومطبوعة بالحروف الصغيرة ، وأعتقد أن مشاعر المؤلف ينبغى أن تراعى إلى حد كبير فى حالة الفأر الهائل الذى تمخض عنه حمل عشر سنوات. لا يمكن أن يكون هناك من هو أكثر منى تقززًا عند النظر إلى الكتاب. لا يوجد موضوع يستحق أن يعالج فى ألف صفحة . لو أن لدى عشر سنوات أخرى لكان فى وسعى أن أعيد كتابته فى خمسمائة صفحة ولكن الكتاب – بصورته الراهنة – إما أن يكون كذلك أو لا شىء مجرد حشد كريه تعافه النفس فى حالة تمدد وتورم وانتفاخ ، مفرط السمن كالمريض بالاستسقاء ، يشهد بحقيقتين لا ثالث لهما : أولا ، أنه لا يوجد شىء يسمى علم النفس، وثانيًا ، أن وليام چيمس غير أهل وعاجز .

المخلص – بشرط أن تكون عجولا:

و . م . چيمس

(9) Reprinted from L.W.K., 1, 293-4.

وتمت كتابة كتاب علم النفس فى شهر مايو ، وظهر الكتاب فى الخريف . وقضى چيمس الفترة بين هذين التاريخين فى كمبريدج يصحح تجارب الطبع . وهذه رسالة لأخته تزودنا بلمحة عنهNبان تلك الفترة :

كمبريدج ٢٣ يوليو سنة ١٨٩٠

« أليس الأعزة :

لقد ارتأيت - كما تعرفين بلا شك - أنه من الضرورى المجىء إلى هنا منذ بضعة أسابيع وأعكف على تصحيح تجارب الطبع . والطابعون ماضون فى إغراقى ودفعى إلى أن أطلب الرحمة الآن (لأننى سبق أن شكوت فى أول الأمر من التأخير والبطء) بحيث إن كل بريد - أربع مرات فى اليوم - يحمل لى حزمة كبيرة . ولقد تحملت العبء - على ما يرام - حتى الآن . ولكنه عبء مؤذ للرأس والمعدة . وكل ليلة أحمل آخر دفعة وأرسلها من مكتب بريد بوسطون ، وغالبًا ما لا أستطيع تناول عشائى قبل التاسعة مساء . أما فطورى كل صباح فعادة ما أتناوله فى بيتنا القديم بشارع كوينسى ، الذى تجددت واجهته وطليت بطلاء براق وأحدثت فيه تغييرات فى بعض أجزائه، مما محا تمامًا كل الخواطر القديمة المتعلقة به . على أن المنظر من النوافذ ما زال كما هو فيما عدا أن الأشجار الخلفية والجانبية قد كبرت وسدت المنظر وأكاد أستقل بالبيت الآن، والشخص الوحيد الذى يتحمل أن أراه هناك هو جيم مايرز[١٠] ، وإنى لأعترف بأنه مما يثلج صدرى أن ترحب بى تلك البقعة ثانية وتعرف مشيتى. حيطان البيت مشبعة بأناتى ودموعى ، وتنضح بهمساتك وصرخاتك وزحيرك وعبراتك. ولكن ورق الحيطان الجديد، يلتصق بها التصاقًا شديدًا ولا يسمح لأى منها بأن تتبخر أو تشيع.

ولكن ها هو ذا موزع البريد قد أقبل يحمل تجارب الطبع، أربعين صفحة تجربة أولى، وستا وخمسين تجربة ثانية على أن أفرغ منها وأرسلها كلها الليلة، الساعة الآن الثالثة والنصف - ومعنى ذلك أنى لن أستطيع طبعًا. على أية حال ، لا مداعبات ولا مغازلات ولا عبث مع أمثالك ... بعد الآن ... وداعًا وألف قبلة.

و . ج

---

(10) The House are 20 Quincy St. has become the Colonial Club, where one of (١٠) the most familiar figures was Hon. James J.Myers, Harvard 69, Speaker of the Massachusetts House of Reprenratives.

وبينما كان شعور چيمس فى أول الأمر الإحساس بالتعب والنفور والكراهة، فإن هذا الشعور سرعان ما تبدد بمضى الصيف وحل محله شعور سعيد غامر ببلوغ المأرب وإتمام الإنجاز . كان على وعى بأن مرحلة من مراحل حياته قد بلغت أجلها ، وأن عصرا قد انتهى ودخل فى ذمة التاريخ . وليس ثمة ريب فى أن معظم الكتاب « كان غير مستساغ القراءة من أية وجهة نظر إنسانية » ولكنه مع ذلك شعور لدن رؤيته « كوحدة » كما لو كان الكتاب «قطعة مكعبة عفية قوية سخية الألوان». هو الذى اعتبر نفسه دائمًا « طيفًا من الأطياف ، ضربًا من الانقطاع . فى المنظر » قد تمكن أخيراً من كتابة كتاب كبير فى علم النفس « وكتاب عظيم صالح بالقدر الذى تتيحه علوم النفس »[١١].

(11) L.W.j., 1, 295, 8.

(٢٢)

مصادر ومذاهب وأثر كتاب علم النفس

إن الذى يتصدى لمصادر كتاب چيمس « علم النفس » لابد أن تمتلئ نفسه روعة وإعجابا بعددها وتنوعها. على أن هذا الفيض الزاخر من الروافد المساعدة، لم يكن من قبيل المصادفة، ولا هو يتضمن أى افتقار إلى الابتداع من جانب المؤلف. وإنما هو أمر يمضى مع مفهومه لمجال علم النفس – المفهوم الذى وصفه عينا – « بالوظيفى » أو « الإكلينيكى »:

« اعتدنا أن نسمع كثيرا فى هذه الأيام عن الفرق بين علم النفس التركيبى وعلم النفس الوظيفى. ولست متأكدا من أننى أفهم الفرق، ولكن من المرجح أن هذا الفرق له مساس بما اعتدت فيما بينى وبين نفسى أن أميز فيه بين وجهتى النظر التحليلية والإكليكية فى الملاحظة السيكولوجية .. فالمفاهيم الإكلينيكية – وإن كانت أكثر غموضا من المفاهيم التحليلية، فإنها يقينا أكثر كفاية وإيفاء وأكثر إعطاء للصورة الملموسة المحسوسة للطريقة التى يعمل بها العقل برمته، ومن ثم فهى أكثر لزوما وأمية عملية»[1] .

وبعبارة أخرى، فإن علم النفس، عند چيمس كان يعنى إحاطة النظر بالإنسان وفحصه فحصا شاملا كما يعرض نفسه على الطبيب وعالم البيولوجى والمسافر والفنان أو القصاص. ومن ثم فقد كان چيمس على استعداد ورغبة لأن يتعلم عن الإنسان من أى مصدر، بما فى ذلك علماء النفس الصالحون والطالحون على السواء.

---

(1) " The Energies of Meh," Philos, Rev., XVI (1907). 1,20.

وعلماء النفس الذين استقى چيمس من كتاباتهم إلى أكبر حد، كما يتجلى ذلك فى الاستشهاد والمراجع المذكورة فى كتاب علم النفس، هم: سبنسر وهلمهولتز وقنت وبين. فأما سبنسر وقنت فقد استخدمهما وأفاد منهما ونبذهما فى آن. استخدمهما باعتبارها مستودعين للحقائق ونصوص للدرس والمناقشة، ونبذ أفكارهما السائدة المميزة لهما.

ومن بين معاصريه الذين تأثر بهم أعظم تأثير، كان چيمس وارد من جامعة كمبريدج، وكارل ستامف، صاحبى أقوى تأثير عليه. وكلا الرجلين أصبح له صديقًا حميمًا. وعند هذه النقطة يتوقف التطابق. كان چيمس ممتدا، انتشاريا، نيرا، زاهى الألوان، فى حين أن وارد كان حاضرا دقيقًا تحليليًا ورتيبًا. كان وارد يفتقر كلية إلى المزاج العقلى المتطرف الذى كان من خصائص چيمس الجوهرية، وفى كتابه « المبادئ السيكولوجية » الذى نشر بعد ثمانى سنوات من موت چيمس، لم يذكر إلا قليلا عن مزايا چيمس، وذكر الكثير عن « سخافاته »[٢]. وثمة فرق مزاجى يفصل بين الرجلين فلسفيا، على الرغم من حقيقة أن وارد - مثل دافيدسون وهوويسون - كان يدين بالتعددية. بيد أن الرجلين ظلا صديقين حميمين، وكانا كثيرا ما يلتقيان قبيل نهاية حياة چيمس، عندما حمله المرض ومحاضرات چيفورد على السفر إلى أوربا. أما عالم النفس التجريبى الأثير المفضل لدى چيمس، فقد كان كارل ستامف الذى علم فى ورزبرج وبراغ وهال وميونخ وأخيرا برلين. كان ستامف غملاجا يتميز بصفات التقلب والتغير والانطلاق التى كان چيمس يحبها، وعلى الرغم من أنه كان يصغر چيمس بست سنوات فإنه كان سابقا لأوانه ونابغا بالنسبة لعمره، وحصل على درجة الدكتوراه فى سنة ١٨٦٨، وعمره لا يتجاوز العشرين عاما، بحيث إن السبعينيات والثمانينيات وجدت الرجلين فى نفس المرحلة من تطورهما العلمى والأكاديمى. ولقد تلقى ستامف تعليما فلسفيا كاملا وظل فيلسوفا طوال حياته. أما أول مؤلف له فى علم النفس فقد كان عن

(2) He declares James's treatment of th emotions and the self to be absurd, and these are the only doctrines of James which he treats ar length. (Cf. Psychological Principles, 1913-379-270.

الإدراك الحسى للفراغ. وفى الديباجة التى أقر بها چيمس بفضل من سبقوه فى هذا الميدان قال چيمس: « ستامف يبدو لى أكثر الكتَّاب - طرا - فلسفة وعمقا وأنا مدين له بالكثير»[٣].

ويعزى - إلى تأليفه لهذا الكتاب عن الفراغ - أن چيمس بحث « عن ستامف الأمين ذى الأنف المدببة » فى براغ فى نهاية أكتوبر سنة ١٨٨٢، وبعد أن تحدث معه لمدة اثنتى عشرة ساعة فى مدى ثلاثة أيام خرج من عنده وقد صمم على أن يشغله بالمراسلات[٤].

ولقد بدأت هذه المراسلات على الفور. واستمرت تنتابها من حين لآخر فترات من الفتور والحمى حتى موت چيمس. وكان لا مناص من أن التعاون الفكرى بين العالمين يضمحل ويهبط بمرور السنين، ولكن حرارة الود والصداقة الشخصية بين الرجلين لم يصبها أى فتور، ولما انتقل چيمس إلى ميادين الأخلاق والدين والميتافيزيقيا، حاول بحميته المعهودة أن يحمل ستامف معه. وبصدد الحديث عن كتاب «مبادئ علم النفس» باعتباره يتجنب نظريات التفسير الروحية والترابطية أو غيرها من النظريات الميتافيزيقية كتب چيمس:

« فى هذه الوجهة النظرية الوضعية البحت تكمن القسمة الوحيدة منها التى فى وسعى أن أدعى الابتداع»[٥].

وعلى الرغم من هذه الدعوى فإن أية مقارنة بين كتاب چيمس «علم النفس» وبين أى كتاب آخر أو معاصر يدعى أنه يعالج علم النفس، هذه المقارنة تكشف أن چيمس استقى من المادة الفلسفية الموجودة بسخاء مع استقلال فى الرأى.

(3) Psychology, 11, 282. Stumpf;s work was Ueber den psychologischen Ursprung der Raumvorstellung, 1873.

(4) W.J. to A.H.J., September 24, 1882; L.W.J., 1, 211, 212.

(5) Psychology, vi.,

وصادف تأليف كتاب علم النفس، چيمس ولديه نظرية عن المعرفة نصف كاملة. فإذا كان عليه ألا يصب تفلسفه فى علم النفس، فعليه أن يعقد هدنة. وبعبارة أخرى فإن فلسفته الوضعية لم تكن مجموعة من الفروض الكاملة السابقة المحكمة المدبرة لعلم النفس، وإنما كانت نوعا من التسوية أو المصالحة قصد بها أن تعطيه مهلة مؤقتة تريحه من التفلسف. وهذا يفسر قوله فى سنة ١٩٠٠: « أعترف أننى فى أثناء السنوات التى مرت منذ صدور الكتاب، أصبحت مقتنعا أكثر وأكثر بصعوبة معالجة علم النفس دون إدخال مذهب فلسفى صحيح ومناسب »[٦]. على أن وضعية چيمس السيكولوجية كان لها معنى إيجابى لا مجرد معنى سلبى، كانت مجافاة صريحة للميتافيزيقيا، ولكنها كانت تفضح ضربا من الجنوح نحو ميتافيزيقية طبيعية. ولقد أفضى به كلا الحافزين - مثلا - إلى تقبل النظرية المسماة بنظرية « قوس الانعكاس.

وثمة مقالة نشرت فى سنة ١٨٨٨، تحتوى الفقرة المهمة التالية:

« إن المفهوم الوحيد - الذى يعتبر مجددا وأساسيا - والذى أثرى به البيولوجى علم النفس - أن النقطة الجوهرية الوحيدة التى تجعل علم النفس الجديد متقدما على القديم، يبدو له أنه الفكرة العامة جدا والتى أضحت شائعة ومألوفة جدا الآن، القائلة بأن كل نشاطنا يرجع فى أساسه جذريا إلى نوع من الفعل المنعكس، وأن كل وعينا تصاحبه سلسلة من الأحداث أولها تيار وافد فى عصب حسى معين، وأخرها يصب فى عضلة ما أو شريان أو وريد دموى أو غدة . فإذا نظر إليها فى ضوء ذلك، فإن الأجزاء المفكرة والشاعرة من حياتنا لا تزيد على كونها منازل فى منتصف الطريق حيال السلوك، ووفقا لهذا فإن علم النفس الحديث يجنح أكثر وأكثر إلى معالجة الوعى كما لو كان يوجد فقط من أجل المسلك الذى يبدو أنه يدخله، ويحاول تفسير خصائصه (بقدر ما يمكن تفسيرها على الإطلاق) بنفعها العلمى »[٧].

وهكذا استصوب چيمس نظرية « قوس الانعكاس » لأنها فى حين أنها تدخل العقل إلى محتوى الطبيعة، فهى فى نفس الوقت تعترف بتلك الصفة من الغرضية التى تميز العقل .

(6) Preface to Italian translation of Pswchology. xi.

(7) Whot the will Effects" Scribner's III (1888) 240.

فإذا انتقلنا إلى مبادئ چيمس السيكولوجية الأكثر نوعية، فينبغى أن نعطى أول مكان « لتيار التفكير »[٨]. إن أكبر علامة دالة على « اغفال علم النفس التأملى » كما رآها چيمس، كانت الحالة المتعدية أو النسبية، التى إذا أدركت إدراكا تعطى الوعى مظهرها من الاستمرار الشبيه بالجريان المتصل للتيار المائى. وباستثناء فكرة اعتماد المعرفة على الإرادة، فقد كانت هذه هى أهم بصائره على الإطلاق، ذلك أنها كانت تتضمن نبذا « للترابطية » وتدل على انفصام حاد من التقليد. وهذا المذهب يتغلغل فى نسيج الكتاب برمته، وكان چيمس يشعر أنه جديد ومهم.

ويلى ذلك فى المرتبة الثانية من مبادئ چيمس الأساسية، مذهبه المعروف « بالخلقية الأصلية »، وهو اصطلاح عام توسع چيمس فى استعماله بمعنى الاتجاه إلى وضع مركز الثقل على ما هو فطرى وأصلى بدلا مما هو محصل ومكتسب. ولقد اتخذ ذلك شكلين: أولا، تحت تأثير داروين، حظى العقل البشرى بنصيب سخى من الخلال والاستعدادات الفطرية. وثانيا كان يعتقد بتنوع واختلاف وتعدد وإخصاب الخبرة الأولى، وكان مرتابا فى إمكان توليد خبرة من الأخرى، لأنه كان حاد الانتباه والإدراك للخصائص الفريدة لكل خبرة على حدة، ولم يكن يشعر بالحاجة إلى مثل ذلك السياق التوليدى، لأنه كان واثقا من وجود الخبرة المشتقة بين الخبرات الأصلية.

ومن الجلى أن بذرة نظرية چيمس الشهيرة القائلة بأن الانفعالات هى صهر وامتزاج واتحاد من الأحاسيس العضوية تثار بالتعبير الجسمانى - بأننا « نشعر بالحزن لأننا نبكى، وبالغضب لأننا نضرب، وبالخوف لأننا نرتجف »[٩] - هذه الندرة

---

(8) His "radical epmiricism" in a philosophical application of this doctrine.

(9) Psychology, 11, 450. This theory is now commonly caled the "James- Langu Theory," because the Danish physiologist C.Lange published a similar view in 1887. James first published his view in Mind in 1884, (What is an Emotion?)

غرست فى عقله فى تاريخ مبكر جدا. وكان هناك تأثيران عامان أفضيا به نحو هذا الاتجاه، أولهما تأثير داروين الذى جنح به إلى ربط الانفعالات بالغرائز، وإلى توكيد الناحية البيولوجية فى التعبير الانفعالى. وثانيهما تأثير التجريبية البريطانية التى جنحت به إلى توكيد الجانب الحسى للمحتوى العقلى.

ولقد جذب الانتباه كثير من فصول وفقرات كتاب علم النفس، وغالبا ما كانت مستحقة التنويه ونافذة التأثير، لا بسبب أى ابتداع سيكولوجى فيها، وإنما بسبب تألق الأسلوب وإشراقه، وغزارة الشواهد الملموسة التى بعثت حياة جديدة فى موضوع قديم قدم الدهر. كان ذلك هو الشأن مثلا فى المناقشات الخاصة بالعقيدة والغريزة. بيد أن أية الحالات دلالة فى هذا الصدد كانت الفصل الشهير عن العادة. وفى رسالة بعثت بها إلى روبرتسون أشار چيمس باستخفاف إلى أول مقال عالج فيه هذا الموضوع، فوصفه بأنه « مجرد قدر للغلى رقد فى قمطرى طويلا بعد أن كتبته .. لا جديد فيه، لذلك أنصحك بشدة أن تقرأه »(١٠).

بيد أن چيمس الفنان والمعلم، الذى يجمع بين الحيوية والعقيدة الأخلاقية، خلق عملا كلاسيكيا محبوبا لدى الجمهور. ولم يكن الأمر دون ارتباط بنجاح الكتاب، أن الكتاب لابد أن يكون قد انبثق من عقيدة مبكرة لازمت المؤلف طوال حياته، عقيدة خاصة به تؤمن بالنتيجة الحميدة للنسق المطرد والأهمية التراكمية الصغيرة. وعلى هامة الفصل الخاص بالعادة فى المقرر الموجز (Brief Couroe) كتب بخط يده: « ابذر عملا، تحصد عادة، اغرس عادة، تجن خلقا، ازرع خلقا تنل مصيرا ».

وكان كتاب « مبادئ علم النفس، ناجحا فى معنى غير عادى بالنسبة لكتاب علم، فلقد اتسعت دائرة قراءته، ليس فقط من قبل علماء النفس الآخرين أو دارسى علم النفس، ولكن من قبل أناس لم يكونوا مقيدين بأى التزام لقراءته. ولقد قرئ الكتاب لأنه

(10) (The article, entitled "The Laws of Habir," was published in Pop. Science Mo, XXX (1887); W.J. to Robertson, March 19, 1887.

كان سائغ القراءة، وقرأه أناس من كل طراز ونوع، وغالبا ما كانوا يقرءونه لنفس الصفات التى عابته فى أعين بعض علماء النفس المحترفين.

كان كتابا عجيبا يتميز بالسماحة واليسر، ولأن مؤلفه رأى ذلك المدى الفسيح من الممكنات، وكان مضيافا لها بلا ترتيب، فإن أى تطور لاحق فى علم النفس يستطيع أن يقتفى أثرا من الأسلاف هناك يربطه بسلسلة موصولة من النسب. لقد قيل أن هناك ثلاث مدارس لعلم النفس: « الوعيية، واللاوعيية، والضدوعيية »[11]. إشارة إلى المدرسة التأملية ومدرسة التحليل النفسى، والمدرسة السلوكية ومن السهل أن تجد المدارس الثلاث كلها مجتمعة فى چيمس، ونفس القول ينسحب على مدرسة « الجشطالت » أو مدرسة « الأداء » أو المدرسة « الوظيفية ». ولقد دفع چيمس قدما بطريقة التأمل الباطنى التقليدية فى المدرسة البريطانية. واستورد نتائج وطرائق المدرسة التجريبية من ألمانيا. وكان مهتما بعلم النفس التطبيقى وعلم النفس المقارن. والفصل الذى كتبه عن الغريزة كان بمثابة محرك قوى استحث علم النفس الاجتماعى. ثم إن منهاجه الطبى وتركيز اهتمامه على « الحالات العقلية الشاذة » أفسحا له مكانا فى تطوير سيكولوجية الشواذ والمرض النفسى. ومن ثم لقى كتاب علم النفس استحسانا وتهليلا من غير أرباب المهنة، ومن المبتدئين، ومن طلاب المواد الأخرى الذين كانوا يبحثون عن تطبيق معين لعلم النفس على مشكلاتهم الخاصة، ومن دارسى علم النفس الفلسفيين أو غير الطائفيين الذين لم يصبحوا مدمنين لأية طريقة معينة فى البحث، فى حين أن الكتاب فى نفس الوقت نظر إليه نظرة يشوبها شىء من الاستنكار والاستهجان من جانب التجريبيين المعمليين والترتيبيين من أصحاب السنن المطروقة ومن ضمن الذين قرظوا الكتاب؛ جورج سانتايانا الذى بعد أن علق على افتقاره إلى التدقيق والنظام انتهى إلى الآتى:

---

(11) Crace Adams, "The Babel of the Psyche", American Mercury, xx (1930),463.

« ولكن من الحذلقة، التأسى على فقدان الوحدة المنطقية فى كتاب غنى خصب حى بهذه الدرجة، حيث تنفجر طبيعة كريمة سخية فى كل نقطة، وحيث تناقش المشكلات الدائمة للعقل البشرى على هذا النحو من التواضع والحياء ، وبهذه الدرجة الفائقة من المتانة والرسوخ الموطد الموطأ. ويمثل هذا الإخلاص العميق المحرك للعواطف »(١٢).

على أن Nتمام كتابه علم النفس فى سنة ١٨٩٠، دفع چيمس إلى الجهر بآراء ليس فقط عن كتابه بصفة خاصة، ولكن عن علم النفس بصفة عامة. ومن أهم الأحكام المشوقة التى أصدرها چيمس فى هذا الصدد، ما كتبه فى صيف سنة ١٨٩٠، إلى چيمس سالى، الذى كان من سوء حظ جهوده ومحاولاته الباهتة فى علم النفس أن تكون معاصرة لعبقرية چيمس الزاهية:

« يبدو لى أن علم النفس يشبه الطبيعة قبل عصر جاليليو، ليس ثمة قانون أولى واحد يلوح فى الأفق بعد. وهى فرصة لجهبذ من جهابذة علم النفس فى المستقبل لكى ينال لاسمه شهرة أعظم من شهرة نيوتن. ولكن من ذا الذى سيقرأ عندئذ كتب هذا الجيل؟ لا أخال أن كثيرا سيقرءونها. وفى غضون ذلك فلا بد من كتابتها »(١٣).

أما حكم چيمس بأن ما قدمه لعلم النفس سوف يحل محله، ويستحق أن يحل محله، علم نفس آخر أكثر « علمية » فقد سبق أن أصدره فى رسالة بعث بها لأخيه، ويبدو منها أن الموضوع كان يحتل مساحة كبيرة من تفكيره آنذاك:

« فى حدود علوم النفس » الراهنة، فالكتاب لا بأس به، ولكن علم النفس فى حالة من القبل علمية بحيث إن الجيل الراهن منها برمته مقضى عليه – ضربة لازب – أن يصبح ركاما بائدا لا يقرأ من سقط المتاع، حالة تبدو أول بادرة صحيحة من البصيرة. وكلما كان ذلك أسرع، كان أحسن بالنسبة لى »(١٤).

---

(12) Atlantic, lxVII (1981), 556.

(13) Jly 8, 1890.

(14) June 4, 1890, L.W.J.,1, 296.

ومن الواضح أن چيمس لم يتقبل علم النفس التجريبى لزمانه على اعتبار أنه دليل على حلول العصر الجديد. فلا ريب أن ذلك لم يكن هو ما يبحث عنه. وصحيح أنه من أول الأمر نظر باحترام - ولم يفقد هذا الاحترام أبدا - إلى الحقائق والوقائع. ولكنه بالنسبة لعلم النفس التجريبى شعر بنفور متزايد مرده إلى أسباب جسمانية ومزاجية. كان يفتقر إلى القوة التى تعينه على قضاء ساعات طويلة فى مختبر أو معمل لإجراء التجارب، وكان يعانى من ألم فى مستدق الظهر ينتابه من حين لآخر ويحول دون احتماله للوقوف، وكان ما بعينيه من سقم يتدخل فى قدرته على استعمال الميكروسكوب.

وجنبا إلى جنب مع صحته المزعزعة الخرعة، كان يلازمه ضرب من التقلب المزاجى مما أعياه وأعجزه عن الاستمرار فى نسق مطرد. ثم مع ذلك كله كان چيمس صاحب عقل رومانتيكى تواق إلى المغامرة الجديدة، نفور من التفصيل، التكرار. وكان انتقاله من النفور إلى الازدراء سهلا وطبيعيا. وفى فقرة كالتالية من المستحيل تحديد أى من تلك الاتجاهات كان صاحب القول الفصل الذى يغلب عليه:

« إن النتائج التى تأتى من كل هذا العمل فى المختبرات تبدو لى أنها تزداد سخفا وتفاهة وخيبة أمل. أن الذى نحتاج إليه بشدة هو الأفكار. ومقابل كل رجل عنده فكرة واحدة، يجد المرء مائة لا هم لهم إلا الكد والعناء بكل صبر وطول أناة فى تجربة لا طائل وراءها ولا أهمية لها »[١٥].

وموجز القول إن چيمس لم يكره المختبر السيكولوجى فحسب، وإنما انتهى إلى الكفر بأى إنتاج مفيد منه يتناسب مع الجهد المبذول.

ولكن ، هل أعطى چيمس أى شىء عوضا عن علم نفس المختبر التجريبى الذى بخل عليه باحترامه؟ هل كانت لديه أية إرهاصات تومئ إلى الاتجاه الذى يتقدم فيه جاليليو سيكولوجى؟

---

(15) W.J. to Thoedore Flournny, December 7, 1896; L.W.J., 11, 54.

ليس ثمة ريب فى أن چيمس كان يبحث عن علم نفس يفسر ويؤول ويشرح، ومن الجلى أنه كان يعتقد أن خير ما يرجى من تفسير عرضى هو ما تزودنا به علاقات العقل والجسم. وكان يشكو من علم النفس التأملى البحت أنه مضجر - « مضجر - ليس من قبيل الأشياء الصعبة حقا - كالطبيعة والكيمياء - ولكنه مضجر وممل وشاق تماماً مثلما يكون إلقاء الريش ساعة وراء ساعة مضجرا ومملا[١٦].

وبعبارة أخرى فإن چيمس كان ساخطا على مثل هذا العلم الدنس، لأنه كان هينا جدا، وهذا الهوان كامن فى حقيقة أنه يتحاشى مشكلة التفسير العرضى. لابد إذن من قوانين عرضية - لأجل التنبؤ والضبط - فى العلم العقلى مثلما هى الحال فى العلم الطبيعى وإلا فلا .

« بصفتها تشكل الحياة الباطنية لذوات الأفراد الذين يولدون ويموتون، فإن حالاتنا الوعيية أحداث وقتية تنبثق فى المجرى العادى للطبيعة - وعلاوة على ذلك فهى أحداث تقوم ظروف حدوثها أو عدم حدوثها من لحظة لأخرى - بكل تأكيد - وعلى الإجمال - فى العالم المادى الطبيعى . ليس هذا فقط، وإنما هى أحداث ذات أهمية وخطورة لنا بالغتين من الوجهة العملية، بحيث إن التحكم فى تلك الظروف على نطاق واسع يعتبر إنجازا إذا قورن به التحكم الحادث فى بقية الطبيعة المادية فإنه يبدو طفيفا نسبيا »[١٧].

وفى سنة ١٩٠٦، ألقى چيمس محاضرة أمام نادى علم النفس بهارفارد، ومن يرجع إلى مذكراته الخاصة بتلك المحاضرة يقرأ الآتى: « عندما كنت طالبا أتعلم علم النفس، كنت دائما لا أعتبره إلا جزءا من العلم الأكبر للكائنات الحية. إن علم النفس الرسمى جزء صغير جدا ». ثم مضى چيمس فى تفصيل خصائص علم نفس « ثابت » أو «وظيفى» يتعين عليه - بعد أن يتم له اكتشاف القوى التى تتحكم فى الحياة الخلقية والدينية - أن يصطنع طريقة للتحكم فيها وضبطها. وفى نفس السنة دعا

---

(16) C.E.R., 343.

(17) Ibid., 318 -9.

چيمس إلى دراسة « دينامية النشوء » فى كلمة الافتتاح عن « طاقات الناس » التى ألقاها أمام الرابطة الفلسفية الأمريكية:

« ينبغى علينا – كيفما كان – أن نتزود بتخطيط مفصل (طبوغرافى) لحدود القوة الإنسانية فى كل اتجاه يمكن تصوره – شىء شبيه بخريطة إخصائى العيون الموضحة لحدود المجال الإنسانى للإبصار. وستكون هذه الدراسة حتما – دراسة ملموسة محسوسة ثابتة – تدبر باستعمال المادة التاريخية وسيرة حياة الإنسان – بصفة رئيسية. على أن حدود القوة ينبغى أن تكون حدودا قد لمست فى أشخاص واقعيين، والطرق المتعددة لإطلاق منابع القوة ينبغى أن تتجلى فى حيوات فردية. هنا برنامج لعلم نفسى فردى ملموس فى وسع أى إنسان أن يعمل فيه إلى حد ما. وهو برنامج مفعم بالحقائق الممتعة المشوقة، برنامج يشير إلى مسائل عملية تفوق فى أهميتها أى شىء نعرفه»[١٨].

وأخيراً. وقبل سنة واحدة من وفاته، رحب چيمس بالتحليل النفسى وهلل لأهدافه حتى عندما كان لا يثق فى أنصاره باعتبارهم أفراداً:

« إننى أرتاب بشدة فى أن فرويد بنظريته فى الأحلام هلجا منتظما يهذى. ولكنى آمل أن فرويد وحوارييه سوف يدفعون بالنظرية إلى آخر حدودها، حيث إنها بلا شك تعطى بعض الحقائق، وسوف تضيف إلى فهمنا « لعلم النفس الوظيفى الذى هو علم النفس الحقيقى »[١٩].

بيد أن ذلك الذى أوصى الآخرين به، هو عين ما أخذ چيمس على عاتقه أن يؤديه بنفسه، فى مدى الوقت المحدود الذى كرسه بعد سنة ١٨٩٠، لعلم النفس. ولقد واصل اهتمامه بالبحوث النفسية وبعلم نفس الشواذ.

وتطبيق نظرية «الانتقال» على مسألة الخلود كان فرضا من فروض الدماغيين. وفى مقاله «طاقات الناس » وضح چيمس قوة العقل فى مقاومة التعب الجسمانى والتغلب على العوائق المادية. وكان مدار اهتمامه هو أنماط العقلية فى تمام اكتمالها،

(18) Philos, Rev., XVI (1907) .

(19) To Professor Mary W. Calkins, September 19, 1909.

على غرار تلك التى تتجلى فى الدين والحرب، كما كان مهتما بعلم النفس التطبيقى وخصوصا بالتطبيقات الخلقية والتربوية. وفى كل تلك المقالات وضع نصب عينيه الرجل الكامل، والتمس التفسيرات العرضية عن طريق إدخال الجسم والبيئة فى الاعتبار. ولم يشعر أبدا بثقة بأنه قد وجد مثل ذلك التفسير، ولكنه مارس عقيدته السيكولوجية وترجمها إلى سلوك عملى.

(٢٣)

ربة كتاب علم النفس

عقب صدور كتاب علم النفس، شعر چيمس بلا شك بإحساس عميق من الفرج وبرغبة فى أن يرتع فى مراع أخرى. وصحيح أيضا أنه لم ينتج بعد ذلك أبدا أية مقالة ضخمة أو أى سفر جليل يتناول المشكلات الأساسية لعلم النفس. وإلى هذه الدرجة دعم حكمه الذى كتبه سنة ١٨٩٤: « لا توجد صفحة واحدة زيادة من المؤلفات النفسية فى هذا الجهاز العقلى للطفل. إن شهرتنا تبدأ فى البزوغ عندما تبدأ موهبتنا فى الأفول »[1].

ولكن من الخطأ أن نحسب أنه هجر علم النفس - الآن أو فيما بعد - لقد استمر يقرأ فى المؤلفات والرسالات، وكذلك فى المقالات والنبذ والمطبوعات الدورية. وكتب عدداً كبيراً من الفحوص والتقريظات السيكولوجية، تبلغ فى جملتها خمسا وخمسين بين سنة ١٨٩١ وسنة ١٨٩٨و لدرجة أنه عندما طلب منه فى سنة ١٨٩٨، أن يقرظ كتاب هنرى رانجرز مارشال « الغريزة والعقل » كتب إلى المؤلف يقول:

« لقد اضطررت تحت قوة الغريزة والعقل - يعملان معا - أن أحمى وأصون جسمى وروحى، وأن أقلع عن تقريظ الكتب وأنبذه إلى الأبد. لقد أتممت مدة خدمتى ونلت حريتى، ويجب علىَّ أن أستخدم ما بقى لى من عمر - أخذ فى الأفول - فى أشياء طفيلية، سفيهة، وغير قاطعة »[2].

---

(1) W.J. to Henry Rutges Marshall (1894)

(2) Ibid, Novermbrer, 22,1898.

وفى سنة ١٨٩٢، نشر چيمس كتابه المسمى « بالمقرر الموجز » أو الوجيز – وهو كتاب صغير – خمسا مادته جديد أو أعيدت كتابته، والباقى « مقص ولصوق ». وعلى وجه التخصيص – وعلى مضض منه – أضاف فصولا عن سيكولوجية الحواس المتعددة. وكانت حوافزه صراحة وعلانية تجارية بحتة، ولقد تحققت توقعاته وأحس بقوة مسوغاتها عندما أصبح الكتاب وظل – لسنين طويلة – أوسع الكتب الإنجليزية انتشارا بين الطلاب فى هذه المادة.

وفى التسعينيات استغل چيمس شهرته الصاعدة الذائعة بأن ألقى عددا كبيرا من المحاضرات العامة. وكثير منها كان يتناول موضوعات أخلاقية وفلسفية، ولكن كانت منها سلسلتان من المحاضرات فى علم النفس: أولاهما نشرت فى كتاب بعنوان « أحاديث للمعلمين عن علم النفس »(*)، وهو مجموعة من المحاضرات ألقيت أصلا فى كمبريدج سنة ١٨٩٢ ثم أعيد، إلقاؤها بعد ذلك فى أجزاء مختلفة من أمريكا. وأما الثانية فكان عنوانها « الحالات العقلية الشاذة أو غير الطبيعية ». ولقد ألقيت هذه المحاضرات – أول ما ألقيت أمام معهد لوويل (Lowell Institute) فى سنة ١٨٩٦، ولم يقدر لها أن تنشر أبدا.

ومقدمة ومحتويات كتاب « أحاديث للمعلمين » كما ظهرت فى صورتها النهائية، توضح بأجلى بيان كيفية تفكير چيمس فى أفضل الطرق التى يستطيع العالم النفسى أن يخدم بها المعلمين – ليس عن طريق تأويل وتفسير علم النفس فى اصطلاحاته الفنية باعتباره علمًا – ولكن بتمكين العلماء من أن « يتصوروا – إذا أمكن – من أن يتمثلوا وجدانيًا فى أخلادهم الحياة العقلية للطالب الذى يعلمونه، باعتبارها الوحدة الناشطة العقلية التى يشعر الطالب نفسه بها فى قراره نفسه[٣]. وفى هذه السلسلة لا نجد فقط صدى

(*) أحاديث للمعلمين عن علم النفس » قامت مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بنقل هذا الكتاب إلى العربية . ترجمة الدكتور محمد على العريان. الناشر عالم الكتب.

(3) T.T., iv.

لما جاء فى كتاب علم النفس، وإنما نجد أيضا ذكرى لتلك الأيام الخوالى عندما كان هو نفسه الطالب الذى يتعلم، وتعلم شيئا عن الحياة العقلية لمعلميه.

لقد اهتم چيمس اهتماما صادقا وحانيا وبصيرا بعمل المعلم، وأسهم إسهاما أساسيا فى تطوير وإنماء علم النفس التربوى. وكان لنبذه لفكرة إمكان انتقال أثر التدريب فى الذاكرة، أى اعتقاده بأن خاصية أو قوة الحفظ العامة غير قابلة للتغيير أو التبديل، وأن المرء لا يستطيع تحسين ذاكرته إلا فى مجالات معينة بالذات، بأسلوب المرء فى معالجة موادها، كان لنبذه لتلك الفكرة أثر يستحق الذكر والتنويه، ولعل الأهم من ذلك - وبسبب علاقاتها ومساسها الأوسع بالتعلم - كانت فكرة چيمس الخاصة بوضع مركز الثقل على الشغف والأداء وتوكيد أهميتهما فى عمليتى التعليم والتعلم. فالطالب - مثله مثل غيره من الكائنات الإنسانية - جهاز تفاعلى بالفعل ورد الفعل - جوهريا وحتما، ومن ثم فإن هذا الجهاز لا يمكن أن يتأثر إلا ببواعث وحوافز مناسبة لقابلياته واستعداداته الراهنة، والتى لابد أن تشكل - لا مناص ونتيجة لرجوعها عادات تكيف أرجاعها - المقبلة وتتحكم فى ردود أفعالها ..

وفى خريف سنة ١٨٩٢، أقبل هوجو مونستربرج الذى كان قبلا أحد طلاب ڤنت، من جامعة فرايبورج لكى يريح چيمس من عبء الإشراف على مختبر هارفارد السيكولوجى. ومكث ثلاثة أعوام سويا. ثم انقطع لمدة عامين. عاد بعدهما لكى يبقى فى هارفارد حتى موته فى سنة ١٩١٦. وكان چيمس معجبا بكيفية عمل مونتسربرج واعتبره « أقدم عالم نفسى تجريبى فى ألمانيا، مع التجاوز عن حقيقة كون عمره لا يزيد على ثمانية وعشرين عاما ». وكان معجبا أيضًا بجرأة ومرونة عقله وبقوة أسلوبه. وعلى هذا فإن چيمس فى سنة ١٨٩٢، عندما كان يبحث عن رجل لكى يحل محله مؤقتا باعتباره معلمًا، ولكى يصبح فى نفس الوقت مشرفا - بدلا منه - على المختبر السيكولوجى، اتجه « إلى ذلك العالم النفسى القوى العفى الفتى » « الشاب مونستربرج العديم المبالاة »[٤].

(4) W.j. to H.J. 2, April 11, 1892; L.W.J.,1, 318; Psychology, 11, 189, 500.

وعلى الرغم من أن مونستربرج دأب على تهييج التجريبية وإثارتها بين طلابه فى المختبر، فإنه مثل چيمس، أصاخ السمع إلى صوت نفير الفلسفة، وسرعان ما أصبح أكثر شغفا واهتماما « بمبادئ » علم النفس مما هو باكتشاف حقائق جديدة. ولقد ذاعت شهرته فى أمريكا للوذعيته « وبراعته وإشرافه ، ولإسهامه فى الشئون العامة، ولكتاباته الوفيرة الفياضة السائغة لدى الجمهور، ولتطبيقاته التجديدية لعلم النفس على الصناعة والقضاء والطب الشرعى والطب .

وعلى الرغم من أن چيمس احتفظ بوده واحترامه لمونستربرج، فإنه بكل تأكيد أخلف ظنه من جراء تشتت اهتماماته . وفى نفس الوقت، وبمضى السنين ، انبثق لا مناص - البون الشاسع والفتق الذى لا يمكن رتقه بين فلسفتيهما. وكانت المناسبة المباشرة لأول دعوة لمونستربرج لهارفارد، هى تدبير چيمس لرحلة أوربية أخرى. وفى مستهل يونيو سنة ١٨٩١ ، كتب چيمس لأخيه يقول:

إن العام القادم . سيكون عاما مشرفا رائقا، لأننا سنأخذ « إجازتنا الدراسية » فى ختامه، وحسب نيتنا الآن فسنرحل إلى الخارج، كلنا بقضنا وقضيضنا. يا لها من فكرة عذبة وأمل حلو يشرح الصدر وينزل السكينة فى القلب. إن « النشاط الإنتاجى » الموصول يتطلب فترات من الترويح. إن القلوب إذا كلت عميت. « والقلب نفسه يجب أن يتوقف ليتنفس، والحب نفسه ينبغى أن يأخذ قسطه من الراحة ».

على أن النتيجة أثبتت أنها « أقل عذوبة وسكينة » مما ظن وتوقع. لقد وعد نفسه « بإجازة مكينة » بإحضاره الأسرة كلها إلى القارة، ولكنه اكتشف أن « الاستهلاك والهرش والعناء الحادثة من جراء التعرض المستمر للطفولة ودواعيها فى الغرف الضيقة والحيز المحدود الذى يتعين على المرء أن يتحمله ويكابده فى الفنادق، شىء لا يمكن تصوره إلا بالممارسة الفعلية »[٥]. كانت فترة ذات مناشط متقطعة وشتى، من رعاية الأسرة، والانصراف إلى المجاملات الاجتماعية، والانغماس فى الفن

---

(5) To S. Hodgson, July 13, 1892.

والأدب، والقراءة والتفكير الفلسفي، الذى فى أثنائه وبعد غطسة طويلة فى أعماق علم النفس، رفع رأسه فوق الماء ونظر حوله. ولقد نعم بفترات من الراحة والسكينة والترطيب استعادت روحه المعنوية فى أثنائها نشاطها وخفتها. واستغرقت الأسرة مدة الشتاء فى فلورنسا، ومن هناك قام چيمس برحلتين إلى بادوا والبندقية. وفى بادوا مثل جامعة هارفارد فى الاحتفال بمرور ثلاثمائة عام على ذكرى جاليليو. « وكانت متعة عظيمة »(٦). أما عن بادوا نفسها فقد كتب إلى زوجته بخصوصها فى ٢ نوفمبر ما يلى :

« نادرا ما قضيت فى حياتى يوما - يماثل يومى هذا فى الرضا والامتنان . والامتنان ليس مصدره غيابك، « بل ذلك أبعد ما يكون عن الحقيقة - إذ لا شىء يشغلنى سوى رغبتى فى أن تكونى إلى جوارى » ولكن مصدر الامتنان هو الخطوة الفائقة التى يخلعها هذا المكان على العصر. إنها ترطبه وتلطفه كما يرطب الهدوء السمع ويلطفه أو كما يرطب الماء الدافئ الجلد ويلطفه . إننى أستسلم لإيطاليا، وأعتقد أن أى رسام مستعد لأن ينسلخ من جلده فى مقابل أن يهيم على وجهه هنا من بلد لآخر. إن المرء يريد أن يرسم كل شىء يقع عليه بصره فى مكان كهذا - وبوصفها مدينة فإن فلورنسا فى المحاق بالقياس إليها. صحيح أنها زاخرة بالمتاحف الفنية والقصور والقناطر. ولكن الباقى ثقيل وكاتم للأنفاس. أما هنا فالمدينة برمتها وبكل شبر فيها تنطق للمرء بكل سحر وفتنة وجمال، لا عوج فيه ولا أمت ولا اصطناع، بطريقة تبلغ الذورة فى الحلال. الآن فهمت سمو جيوتو ورفعة شأنه. لقد جاشت الدموع فى عينى لدن رؤية ما كلف هذا المسكين الصغير العتيد نفسه لكى يعمل بكل هذه الروح وبكل هذا المرح . وإنه لشرف للطبيعة الإنسانية أن كثيرا من الناس يشعرون تحت وقع غرابته وندرته، أنه رسام خلقى ».

ومن البندقية، بعد أربعة أيام، كتب چيمس لأخيه:

« بالأمس قضيت أربع ساعات فى الأكاديمية وطفت ببعض الكنائس، وعما قليل سأذهب إلى القصر الدوقى. وإنى لأجد الأكاديمية أقل روعة مما استقر فى ذاكرتى، وبنفسى نوع من الانطباع بأن صور ولوحات البندقية أقل تحملا لبلى الزمان من الصور واللوحات الفلورنسية. إن جيوفانى بلينى والفنانين المبكرين هم أخلد الفنانين طرا - مدق العالم - اللحم والدم - الشيطان -

(6) To C. Stumpf, December 20, 1892.

الأناقة والمقدرة الواعية - كلها تؤلف طبقة سميكة تطغى على غيرها. وعلاوة على ذلك فهى مفرطة الحلاوة ولذيذة جدا. وأيا ما كانت فهى تقيِّد من المشاهدين أبصارهم. والأمر العجيب فيها أنه على الرغم من أن شهيتى لرؤيتها شهية ضارية، فإننى لا أتذكر شكلها بعد ساعة واحدة من إدارة ظهرى لها. ليس ثمة أخيلة بصرية - يا له من عناد لطيف لخبير عليم ذواقة - باعتبار ما سيكون. وعلى أية حال فالشىء المهم هو أن تكون قادرا على استعمال عينيك مطلقا. إننى حقا أتمتع بهذه النعمة بشدة ».

بيد أن چيمس كان أقل زهوا بمنجزاته اللغوية، كما يتجلى فى الفقرة التالية التى كتبها حالما عاد إلى فلورنسا.

« إن قدرتنا اللغوية الإيطالية فى الدرك الأسفل من الجهنمية والخبث، والعجيب فى أمر الأهالى هنا هو إذعانهم الحزن لهذه اللغة وأشباهها التى يتلقونها منا جميعا معشر الأجانب . إن منظرهم يحرك العواطف ويثير الشجون. قرون من العبودية ولدت فيهم روحا تختلف جدا عن روح الجدل والبسط والازدراء التى يلقى بها الأنجلو ساكسونيون الأحرار هجمات الأجانب على لغة قومهم ».(٧).

فلما انتقل چيمس إلى سويسرا فى الربيع لخص زيارته لإيطاليا وما طرأ عليه من تغير فى المزاج، فى رسالة بعث بها إلى ستامف من ميجين يوم ٢٤ أبريل سنة ١٨٩٣:

« لو قدر لك أن تشهد الفوضى التى قضيت فيها أسابيعى الستة الأخيرة، لغفرت لى أى إهمال من جانبى. اجتماعات متوالية فى فلورنسا بلغت حدا من التطرف، لدرجة أن زوجا من الشباب الأمريكى حضرا ووضعا طفلا. فى شقتنا، إذ لم يكن هناك مكان آخر مناسب للحدث السعيد سوى شقتنا المباركة. ومن حسن الحظ أن زوجتى كانت قد حضرت منذ ثلاثة أيام ثم تركتهما محروسين - « الأم والطفل - فى خير أمان ورعاية ». فى نيتنا أن نقضى معظم الصيف فى إنجلترا وقد اتخذنا طريقنا خلال سويسرا. نحن الآن فى البقعة المباركة، والأشجار من حولنا وارفة الظلال فى أوج ازدهارها، وسنمكث أسبوعين على الأقل قبل أن نواصل سيرنا. أنا سعيد بأن قلت وداعا لمدن إيطاليا الحلوة ورميمها الخلاب، الذى سأحتفظ له فى خلدى بأرق الذكريات، وإن كنت سأشعر

---

(7) To Francis Boott, november 18, 1892..

دائما فيه بأنى غريب. إن وجوه السويسريين الدميمة. وملابسهم الشنيعة، ولغتهم القبيحة، تبدو لى لذيذة، وفطرية ونقية، وزاخرة بالصحة الإنسانية، وفياضة بالخير الأخلاقى. والهواء - وما أدراك ما الهواء - لا مثيل له فى العالم ».

وعاد چيمس إلى كمبريدج فى سبتمبر سنة ١٨٩٣، شاعرا بأن خمسة عشر شهرا كانت « إجازة طويلة جداً » بالنسبة لرجل مثله: « فالتعليم عادة ونظام ونسق اصطناعى إلى حد كبير، بحيث إن المرء يكاد يفقد عادته على الفور، ويبدو أنه قد نسى كل ما عرفه على الإطلاق ». وعندما طلب من چيمس بإلحاح أن يحضر المؤتمر الدولى لعلم النفس فى ميونيخ سنة ١٨٩٦، كان لا يزال تحت تأثير هذا الإحساس. وفى هذا الصدد كتب إلى ستامف يقول(٨):

« لقد أفلست ماليا من جراء رحلتى الأخيرة بصحبة الأسرة إلى أوربا. وليس ثمة ما يمكن أن يسوِّغ سرعة تكرار العملية سوى الحاجة إلى السفر للخارج من أجل صحتى. وعلاوة على ذلك فإن كثرة سفرى إلى الخارج يزعزع أمريكيتى (تلك الشجرة الرقيقة)، وإن كان ذلك ينبغى أن يوضع فى الكفة المقبلة للمزايا الفكرية والاجتماعية للمؤتمر. فليس بالأمر الهين أن يشعر المرء بالغربة فى وطنه وعقر داره. ولم أكد أشعر بأمريكيتى ثانية حتى أقبل هذا الإغراء. إن عبء عملى ثقيل هذا العام، ولكن لا جديد فيه ولا يتطلب ابتداعا. وكلما كبرت سنى ازداد فروغ صبرى (وعجزى) عن التفاصيل، وازداد تحولى نحو التجريدات الشاملة الفسيحة. بودى أن أرتاح من علم النفس بأسرع ما يمكن، ولكنى أحاول فى الوقت الحاضر أن أحتفظ بعش مونتسربرج دافئا لحين عودته، التى نرجوها جميعا، لأنه برهن على أنه رجل كفء ، وفى الحقيقة هو رجل لا غنى عنه هنا ولا يقدر بثمن. هناك سجايا قيمة كثيرة حتى فى أستاذ، بالإضافة إلى العصمة والتنزه عن الخطأ، وإذا تساوى إعجابنا برجل مع سرورنا برجل آخر فإن مونتسربرج يتساوى فى العصمة والتنزه عن الخطأ مع أى إنسان آخر يدلى بدلوه فى ميدان فسيح كميدانه ».

على أن منشطين عن مناشط چيمس إبان التسعينيات ساعدا على ربط اهتماماته السيكولوجية بشغفه المستغرق الآخذ فى الازدياد فى الأخلاق والدين والميتافيزيقيا. فأما المنشط الأول فكان إسهامه الموصول فى « البحوث الروحانية » ، بيد أن هذا

(8) To Stumpf, January 24, 1894 and Dermber 18, 1895.

الاهتمام « بالبحوث الروحانية » لم يكن من قبيل الوهم والشرود والهوى، وإنما كان اهتماما مركزيا ونموذجيا. لقد نشأ في دائرة كانت فيها البدع والضلال الديني والهرطقة موضع تسامح بشوش أكثر من صحة المعتقد والتمسك بأهداف اليقين. فرجال من طراز أبيه وأصدقاء أبيه، ممن كانوا ينجذبون إلى المذهب الفوريرى، وإلى الاشتراكية المتطرفة، وإلى علاج المثل بمثله، وإلى حقوق المرأة وإلغاء الرق، وإلى مخاطبة الأرواح، ما كانوا على الأرجح ليكون عندهم أية كراهة أو تعصب ضد الوساطة ، والبصر المغناطيسى، ورؤية الأشياء غير المنظورة، والتنويم المغناطيسى، والكتابة التلقائية اللدنية، وفتح المندل، والعرافة بالنظرة البلورية. فمنذ صباه، وچيمس يتأمل فى مثل هذه « الظواهر » دون نفور أو كراهه أو صد. وبعقل مفتوح .

ولم تكن البحوث الروحانية سوى واحد من أمثلة كثيرة لشغف چيمس بجوب وارتياد السفلى العلمى. ثم إن تحرره من التعصب وخلوه من التحامل ضد نظريات أو شبع ذات سمعة مريبة - تحول إلى شىء أكثر إيجابية على يد شهامته ومروءته وفروسيته. فلم يكن موقفه موقف التسامح فحسب، ولكن موقف التفضيل والإيثار لما هو محتقر ومنبوذ فى الحركات وفى الناس على السواء. كان العلم المعتقد بصحته لمجرد أنه معتقد، رمزا للغطرسة وللنجاح التسولى المبتذل الذى يجنح إلى المبالغة فى ادعاءاته وإلى استعمال قوته. وفى أى نزاع بين العلم وشقيق أضعف كان يبدو العلم فيه أنه هو المعتدى. فكان چيمس لا يتوانى عن التدخل فى النزاع دائما. ومن ثم اقترح شعارًا مناسبًا لمؤلف مايرز الذى طبع بعد وفاته أن تتصدره آية الكتاب المقدس.

"And base things of the world and things which are despised hath God Chosen, yes, and things which are not, to bring to naught things that are."[٩].

(9) L.W.J, 11, 157. The motto was not adopted .

على أن چيمس كان يأمل فى أن البحوث الروحانية - مثلها مثل الدراسات الأخرى للظواهر الشاذة - قد تلقى ضوءا على النظام المركزى والأسباب العميقة الإنسانية . ولقد رأى فيها أيضًا إمكان علاج للآلام والمعاناة الإنسانية أكثر شفقة ورقة. وكانت مرتبطة فى ذهنه بإمكان البرء العقلى، وهذا بدوره كان مرتبطا بأسقامه الشخصية والإبلال منها .

ولقد أنشئت جماعة البحوث الروحانية فى سنة ١٨٨٢، سنة إقامة چيمس فى لندن إبان صلته الوثيقة بأمثال جورنى وما يرز وسيدجويك وزوجته، أولئك الذين يعزى إليهم أساسا فضل نجاحها. وأصبح چيمس عضوا فيها فى سنة ١٨٨٤، وظل عضوا فيها حتى وفاته. وشغل منصب نائب الرئيس زهاء ثمانية عشر عاما واحتل مقعد رياستها فى (١٨٩٤-١٨٩٥ و ١٨٩٥ - ١٨٩٦).

أما الجماعة الأمريكية المناظرة لها فقد أنشئت فى سنة ١٨٨٤، وكان چيمس من مؤيديها والعاملين فيها.

وكان فريدريك مايرز - عند چيمس - ليس فقط زعيم الداعين إلى البحوث الروحانية وقائد زمامها، ولكن خالق نظرية علمية جريئة ، ألا وهى النظرية الأوسع للوعى الناقص المستور وراء الوجدان والوعى الزائد عدا الوجدان، والتى تعتبر أن « جهاز الوعى برمته الذى يدرسه علم النفس الكلاسيكى ليس ملخصا أو اقتباسا». ولكن فى حين أن چيمس شعر بأحر انعطاف نحو هذه النظرية، فإنه مع ذلك كان على وعى تام بأن دعائمها كانت غير مأمونة. وكما لاحظ، بمناسبة نشر كتاب « الشخصية الإنسانية وبقاؤها » الذى طبع بعد وفاة مؤلفه : « أن أسياخ الحديد الثاقبة للرمال الحية عددها قليل جدا لإقامة مثل هذا البناء وتوطيده »[١٠].

(10) M.s., 163-4; W.J. to F.C.S. Schiller, April 8, 1903, for Schiller Cf. below. 301 if.

على أن چيمس لم يكف أبدا عن الأبحاث الروحانية - النفسية. ففى سنة ١٩٠٩ نشر أعظم أبحاثه طموحا فى هذا الميدان فى صورة تقرير كبير الحجم عظيم الجرم عن (Mrs. Piper's Hodgson- Control) وبعد ذلك فى نفس السنة وقبل موته بأقل من عام واحد نشر مقالا لقى رواجا لدى الجمهور بعنوان « متيقنات باحث روحانى »(١١).
(The Confidences of a " Psychical Researcher).

هذا باختصار هو تاريخ اشتراك چيمس وإسهامه فى البحوث الروحية. فإلى ماذا انتهى؟ وما النتيجة التى خرج بها؟ أولا من المهم أن نذكر أن هذا المجال من البحث الخارج عن العلم تقريبا كان بالنسبة لچيمس موصولا بعلم المرض النفسى وعلم نفس الشواذ ومطردا معه. لقد رأى ظواهر، مثل التنويم أو الاستهواء المغناطيسى، ومثل انقسام الشخصية وتعددها، تخرج من دائرة التدجيل والشعوذة والخرافة، وتدخل فى حظيرة العلم، ولم ير سببا يحول دون وجوب الاعتراف المماثل بالظواهر التى كانت لا تزال طريدة القانون. وقبيل انتهاء خريف سنة ١٨٩٦، بدأ فى إعطاء مقرر مؤلف من ثمانى محاضرات عن « الحالات العقلية الشاذة» ألقاها أمام معهد لوويل ببوسطون. وكانت موضوعات المحاضرات هى :

١- « الأحلام والتنويم المغناطيسى ».
٢- « الهوس (الهستيريا) ».
٣- « التلقائيات اللدنية ».
٤- « الشخصة المتعددة ».
٥- « المس الشيطانى ».

(11) Proc. of the Soc. for Psychical Research, XXIII (1909); and American Magazine, October 1909. Richard Hodgson had died in 1905.

٦- « السحر والعرافة ».

٧- « التنكس والانحطاط ».

٨- « العبقرية ».

ولم يقدر لهذه المحاضرات أن تكتب أبدا، وإنما المذكرات الباقية منها تبين غزارة مادتها ووفرة الأمثلة والشواهد الملموسة المحسوسة التى جعلتها سائغة لدى جمهور المستمعين .

ولقد صدرت عن چيمس الإشارة التالية إلى الميدان الماثل وراءها فقال :

« (أنا) واقف على بوابة البحث الرومانى - التى قلت إننى لن أقتحمها. وأنا بالذات ليس عندى أى ريب فى أن معادلة الشخصية المنحلة ستقوم بتفسير الظواهر التى عرضتها أمامكم. ولكن القول بذلك شيء وإنكار أى مدى آخر للظواهر شيء آخر، واحتمال حدوث قوى خارقة من المعرفة والدراية فى بعض الأشخاص أمر تقرره البيئة ».

وتبقى هنالك مسألة حكم چيمس النهائى على هذه الظواهر « الخارقة » المتبقية. كان مستاء من جراء الفظاظة والتبذل والفضيحة والافتراءات التى كثيرا ما تصاحب « المظاهر » الوسيطية والروحية. وكان مدركا تماما لضروب النصب والاحتيال والادعاء التى كانت تمارس عادة، وكان يعتبر القسط الأكبر من مزاعم الرؤيا والوحى « والكشف » ، حشارة وقشاشا « ونفاية ». ومع ذلك، وعلى الرغم من كل ذلك فقد « وجد نفسه مؤمنا »[١٢]. بأنه لابد أن « يكون فيها ثمة شيء، فضلة من المعرفة الخارقة للعادة، نمط من العقلية لا يقره العلم الأرثوذكسى.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان لدى چيمس فرض زعم أنه « قوى الاحتمال » وهذا الفرض قوامه « أن هناك نسقا مطرد الاتصال للوعى الكونى، وأن ذاتيتنا لا تبنى

(12) M.S., 196 ff.

سوى أسوار عفوية فى مواجهته، وأن تقوم عقولنا العديدة تغطس فيه كما لو كانت تغطس فى البحر الكبير الأم أو خزان مياه خضم »[١٣].

على أن هذا الفرض لم تتحقق صحته فى أى معنى يجعله موضع التقبل من العلم. فلم تؤيده التجربة، ولم يستطع أن يقدم أى أساس للضبط أو التنبؤ. ولقد تقبله چيمس باعتباره تعميمًا يكاد يرضى كل المطالب المتشعبة لفلسفة ما، ويتعهد بتقديم حقائق الخبرة والحاجات الذاتية للموضوع الأخلاقى.

ولقد طبق چيمس نفس الفرض على موضوع الخلود، واستخدمه هنا فى ربط علم النفس بالدين. وفى سنة ١٨٨٨، ألقى چيمس « محاضرة إنجرسول عن خلود الإنسان، لتى نشرت فيما بعد تحت عنوان « الخلود الإنسانى: اعتراضان مفترضان ». وأول الاعتراضين المفترضين كان حجة العلم بأن العقل متوقف على الجسم، ومن ثم لا يستطيع أن يعيش بعده. ورد چيمس بأن حقائق علم النفس الفسيولوجى لا تتطلب إلا اعتمادا « وظيفيا » للعقل على الجسم. ومثل هذا الاعتماد لا يتضمن بالضرورة أن المخ ينتج العقل، وإنما قد يطلقه فحسب أو يسيبه ويعتقه[١٤]. وفى هذه الحالة فإن المستودع الأكبر للوعى يظل على حاله غير ممسوس بعد تحلل المخ، وقد يحتفظ بآثار من تاريخ حياة انبعاثه الذاتى. ولقد داعب چيمس نفس الفرض فى رسالة بعث بها إلى دافيدسون. ومن ضمن الاستعارات التى كان دائم الاستعمال لها (وأحيانا مخلوطة) كانت الاستعارات الخاصة بالضوء « الإشعاع الأبيض للخلود » المبقع بقبة من زجاج

(13) Ibid., 204.

(14) This idea that the brain, instead of creating mind, merely strains ad canalizes it, was an idea that James had long entertained, and an idea which seemed to him entirely congruent not only with th alleged phenomena of psychical research but .with the mystical religious experience

مختلف ألوانه - « والبحر الأم الذى تقسمه الأخاديد أو الذى يفيض على حواجزه بطوفانه »[١٥].

كمبريدج ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٩٨[١٦].

« عزيز توماس:

لو أن لديك أقل شرارة من الخيال العلمى لرأيت أن البحر الأم ذو قوام غرورى دبق، وعندما يرشح أجزاء من كيانه خلال القبة ذات الزجاج المختلف الألوان، فإنها تلصق بشدة متشبثة بحيث لا بد أن تهز نفسها بشدة هزا عنيفا لكى تتخلص منها. وحيث إنه لا يوجد فعل دون رد فعل، فإن الهزة يشعر بها كلا العضوين، وتظل مسجلة فى البحر الأم على غرار « كعب » دفتر الشيكات أو الصكوك، بحيث يحتفظ « بذكرى » العملية. وهذه الكعوب تشكل أساس الحساب الخالد الذى نبدأ عندما تتحطم القبة المنشورية الشكل. هذه المسائل كما ترى فائقة البساطة وسوف تتكشف لك لو أن لديك قلبا أكثر تواضعا وأكثر قابلية للتعليم. إن كل أسئلتك التحاملية العيابة العقيمة تصدر عن عتو فكرى - ما فى ذلك أدنى ريب - وهى أسئلة مجردة من أى رغبة صادقة للتعلم، ولذلك لن أحفل بالإجابة عنها كلها .. فى غاية العجلة.

المخلص

« و . م . ج »

---

(15) H.J., 1899, 16.

(16) This letter has also been printed in J.S. Bixler's Religion in Philosophy of William James . 1926, 152.

(٢٤)

إرادة الاعتقاد

فى سنة ١٨٩٩، فى اليوم العاشر من سبتمبر، كتب چيمس إلى ستامف:

« أخشى أننى توقفت عن أن أكون عالما نفسيًا وأصبحت مقصوراً على أن أكون أخلاقيًا وميتافيزيقيًا». على أن هذه المشكلات الأعمق عرضت نفسها أولا باعتبارها مشكلات حياة لا كمشكلات نظرية، الأمر الذى كثيرا ما دفع چيمس إلى توكيد وتضخيم عقيدة صباه. بيد أن التحرر من الضغط والنظام اللذين فرضتهما عليه كتابة مؤلف علم النفس جعله مرة ثانية عرضة لهجوم الكآبة التأملية والغم المستغرق فى التفكير، وشعر ثانية بالحاجة إلى إنجيل مخلص. وفى نفس الوقت اتسعت دائرة عواطفه الإنسانية ومناشطه السياسية والاجتماعية على نطاق كبير. وكان ذلك إبان العقد الذى شهد الحرب الإسبانية وقضية دريفوس. وكلاهما حرك عواطفه الأخلاقية جذريا. ثم إن مناشطه فى البحوث الروحانية أحيت شغفه القديم بالتصوف الدينى، وأعطته أملا جديدا لتسويغها. ولقد تآمرت كل هذه الأسباب لتجعل العقد من سنة ١٨٩٠، إلى سنة ١٩٠٠ أو على وجه التحديد من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٢، هى الفترة التى شهدت تقوى چيمس وإنجيليته.

والمجلد المعنون « إرادة الاعتقاد ومقالات أخرى فى الفلسفة الشائعة » كان يتألف من المقالات والمحاضرات التى سبق أن كتبها على فترات متقطعة من سنة ١٨٧٩

إلى سنة ١٨٩٦. أما المحاضرة الشهيرة التى اشتق منها اسم الكتاب فهى المحاضرة التى ألقاها فى سنة ١٨٩٥[1].

والمذاهب التى يعرضها الكتاب تقع طبيعيا فى ثلاث فئات: فئة تعالج - أساسا - الصدق العقلى والتعددية والذاتية. فأما الصدق العقلى فيمس نظرية المعرفة، وأما التعددية فتمس الميتافيزيقيا وأما الذاتية فتمس الأخلاق، ولكن فى كل الحالات الثلاث نجد أن النبرة الشخصية والعملية هى الغالبة.

وفى باكورة حياته، فى فترة ربما تعود إلى سنة ١٨٦٨، سجل چيمس الملاحظة التالية فى إحدى مفكراته: « الفلسفات تدين بوجودها إلى حافزين فى العقل: ١- الحافز الهادف إلى الوحدة الفكرية أو التناغم الفكرى، ٢- والحافز الهادف إلى مضمون يتكفل باهتماماتنا».

وفى يوليو سنة ١٨٧٩، نشر چيمس فى مجلة العقل (Mind) مقالاً بعنوان « عاطفة القوة العاقلة: The Sentinentof of Rationality» ، أضاف إليها عبارة أن هذا المقال « هو أول فصل من مؤلف سيكولوجى من الدوافع التى تفضى بالناس إلى التفلسف ».

ولقد قسم چيمس تلك الدوافع ثانية إلى فئتين :

« الدوافع النظرية أو المنطقية » « والدوافع العملية والانفعالية ». فأما الصدق العقلى فيقع فى الفئة الثانية من تلك الدوافع التى تعبر عن « قوى الإنسان الناشطة. وتحمل الاعتقاد إلى ما وراء مادة الخبرة.

ولقد كان ذلك ذريعة للإيمان والثقة بوصفهما مضادين للارتياب والشك. وكون هذه الذريعة عبرت عن حماسة وحرارة مزاج چيمس الشخصى، فإنه هو نفسه آخر من ينكر ذلك. ثم هنالك أيضا - ولا مراء - ارتباط محقق بنشأته. فحقيقة كون چيمس لم

(1) "...luckles title, which should have been "Right to Believe" (W.J. to F.H. Bradley, June 16, 1904.

يلتزم فى صباه بأى ضرب من ضروب التسليم أو سرعة التصديق أو فيض الإيمان أو اليقين فلم يكن هنالك ما يندم عليه أو يتوب عنه فى كهولته أو شيخوخته. ولكن فى حين أنه كان تواقا إلى الاعتقاد فإنه التمس ذلك الاعتقاد بشىء من التحفظ والكبح والاعتدال والأناة. كان يدافع عن قضية الاعتقاد بحميا وسوْرة، لأنه كان يخاطب فئة « الدوائر الأكاديمية »[٢] الذين كانوا يعيشون فى الجو غير الطبيعى للمساعى العلمية. وكان يخاطب نفسه أيضا. لم يكن سريع الاعتقاد من النوع التسليمى، ولكنه كان يعانى من الريبة وعدم الاعتقاد. كان معنيا من صميم صميمه بالحاجة إلى الاعتقاد وبحق الاعتقاد، ولكنه لم يستعمل هذ الحق إلى أى مدى كبير.

ونفس هذه الروح من التجريبية الخالية من الادعاء والتظاهر – هى التى استحثت چيمس على تثبيط حميا الأصدقاء الذين حملوا مذهبه فى الصدق العقلى على محمل الجد جدا:

« أما فيما يتعلق بالإيمان – فلا تعاملوه باعتباره اصطلاحاً فنيًا. إنه يعنى فحسب ذلك النوع من الاعتقاد الذى قد يدين به الفرد فى حالة مشكوك فيها، وقد يحمل إحساسا « بالحرارة فى حلقك » – واستعدادا للنضال فى سبيله، وضربا من الإباء الحماسى الحار الذى يرفض الهزيمة ، أو ما يدانيها، كما هى نفس الحالة عندما يطبق المرء على بعض الشئون العملية الخاصة بك أو على عقيدة دينية سواء بسواء[٣].

فإذا فرضنا أن الاعتقاد قد تمليه تفضيلات طبيعتنا العملية، فما الذى تمليه تلك التفضيلات؟ إن الإجابة تكمن فى « التعددية ». على أن هذا المذهب بدوره، يتعين تفسيره فى ضوء باعثه الذى يحركه. فهو ليس مجرد مذهب من التعدد وإنما تعدد فى صلته ومسامه وتأثيره على المشاعر والقرارات الإنسانية. وعلى هذا فإن التعددية تعنى إلها متناهيا يستدعى ولاء حارا، لأنه – إلى حد ما – معوَّقٌ بظروف ومعول على معونة

---

(2) W.B., X,.

(3)To Mrs. Glendower Evans, July 29, 1897.

غيره أو بسبب كون شر العالم خارجيا بالنسبة له، فأولى أن يحب دون تحفظ. وچيمس فى مقاله الرائع البارع عن « معضلة الجبرية » التى تشكل جزءا من « إرادة الاعتقاد » لا يعنى بنبذ الجبرية بصفة عامة بقدر ما يعنى بنبذ الجبرية الواحدية، التى يتحتم فيها - لكون العالم كله قطعة واحدة - تقبله أو نبذه باعتباره وحدة. فالإرادة الأخلاقية بالضرورة مشايعة - تدرك ما ينبغى أن يكون وتعترف به وتدفع به قدما - فى محتوى أشياء كان من الخير ألا تكون قائمة، وفى نطاقها تسعى بكل قوتها وطاقتها أن تجعلها كما لو كانت كأنها لم تكن أبدا.

ولكن الإرادة الخلقية تحتاج إلى بيئة تعددية لسبب آخر: ليس فقط لأن الخير يجب أن يتحرر من أى تسوية أو تراض متبادل مع الشر، ولكن أيضا لأن إرادة خلقية ما ينبغى ألا تتراضى بالتبادل مع إرادة أخلاقية أخرى، إن صميم خير الحياة ذاته لا يمكن فصمه من وجه حريته الخصوصية. إن العالم ضرب من « الوليمة الجمهورية. حيث تحترم كل خصائص الوجود القدسية الشخصية لبعضها البعض الآخر، ولكنها تجلس على نفس المائدة المشتركة للفراغ والزمان »[٤]. ومن ثم فإن التعددية تتحد مع الذاتية . على أن تعددية وذاتية « إرادة الاعتقاد » لچيمس لم تكن فقط رباطًا يوثقه بأصدقائه القدامى من أمثال دافيدسون وهوويسون، وإنما جلبت له أصدقاء جددا.

فى سنة ١٨٩٣، جاء إلى أمريكا الأستاذ ونسينتى لوتوسلاوسكى، العالم الحجة فى فلسفة أفلاطون والجهبذ اللغوى والمصلح الاجتماعى، ونصير اليوجا. والبولندى المتعصب لوطنه، وأخيرا البروفسور المشهور فى ويلنو. أقبل هذا العالم إلى أمريكا ليحضر مؤتمر الأديان فى معرض شيكاغو العالمى، وانتهز الفرصة وزار چيمس فى كمبريدج. وكانت هذه السنة بداية التراسل المتبادل - الشخصى والفلسفى بين الرجلين. والذى استمر حتى سنة ١٩٠٩. ولقد اهتم چيمس اهتماما وودا حارا بحياة

(4) W.B., 270.

صديقه المهنية وشئونه الشخصية، واحتفى به فى بيته، وحاول - موفقا - أن يحصل له على دعوات للمحاضرة وغيرها من المهام والوظائف فى أمريكا. وقرأ كتاباته وروّج لها وشجعها ما استطاع إلى ذلك سبيلا. ولقد هلل چيمس لفلسفته التعددية - الذاتية، ومذهبه الأخلاقى الباسل: « ثمة وداد حار يبلغ ذروة الكمال، وحب وأخوة، تشدو بأعذب الألحان خلال صفحاته »[٥]. بيد أن تحمس لوتوسلاوسكى وسوْرته وحمياه زادت على حدها قليلا حتى بالنسبة لچيمس: « هؤلاء السلافيون يبدو أنهم أعظم الناس تطرفا فى اعتصار نظرياتهم إلى آخر قطرة فيها » مما أفقد النظريات نفسها معقوليتها وتقبلها الظاهر بسبب إسرافهم وتبذيرهم.

وفى سنة ١٨٩٩ زار لوتوسلاوسكى چيمس فى ناوهايم « وقرأ عليه فى ترجمة إنجليزية ارتجالية كثيرا من روائع الأدب البولندى ». ويعطينا وصف چيمس لهذه الزيارة موجزا للفلسفة والفيلسوف كليهما.

« كان فى زيارتنا بولندى معجز اسمه لوتوسلاوسكى، يبلغ من العمر ستة وثلاثين عاما. وهو مؤلف لكتب فلسفية بسبع لغات مختلفة. وملم بلغات أخرى عديدة، وهو رجل وسيم مليح، وأنيس ولطيف إلى آخر درجة. وهو صاحب فلسفة فريدة - فلسفة الصداقة. وهو يحمل على محمل الجد من صميم صميمه، ما يقر به معظم الناس - ولكنهم لا يؤمنون به إلا على حرف - أعنى أننا أرواح (وهو ينطقها زولز (Zoolss) بدلا من سولز) وأن الأرواح خالدة، وأنها محركة لمصائر العالم، وأن الاهتمام الرئيسى لروح ما هو أن تمضى قدما بمعونة الأرواح الأخرى التى يمكنها أن تقيم معها علاقات ودية سرية. إنه رجل رائع مدهش (Wunderlicher Mensch) : وصفوة القول، مجردا، هى أن مشروعه مقدس، بيد أن هناك شيئا لا أستطيع، بعد، أن أضع إصبع تفسيرى عليه، مما يجعل المرء يشعر أن ثمة عجزا فى حكمه الإصلاحى الجازم تفتقر إليه طريقته فى تنفيذه »[٦].

---

(5) James's Preface to Lutoslawski's World of Souls, G. Allen and Unwin Ltd., 1924, 8,

(6) The last three quorations are taken from W.J.'s letter to Frances R. Morse of Septembe 17, 1899, L.W.J., 11, 103.

ومن بين أعنف الناقدين وأكثرهم حدبا وتعاطفا لكتاب « إرادة الاعتقاد » كان بنجامين بول بلود من حى أمستردام بمدينة نيويورك – الذى كان قد استمع إلى والد چيمس وهو يعظ منذ خمسين أو ستين عاما، « ومال قلبه آنئذ لاسم الأسرة واستلطفه »[٧]. ولقد ولد بنجامين بول بلود سنة ١٨٣٢، وعاش ستة وثمانين عاما. وفى أثناء ذلك الوقت كتب كثيرا ولكن بلا نظام ولا اطراد. وكانت وسيلته المفضلة فى النشر هى كتابة الرسائل للصحف، وبصفة رئيسية الصحف المحلية ذات التوزيع المحدود. وكان بلود رجلا من الطراز الذى يهوى إليه فؤاد چيمس، سواء فى مزاجه وأسلوبه أم فى مادة تفكيره. وكان فيلسوفا غير أكاديمى يكتب من أعماق خبرته أو من ضحالتها – سيان – مطابقا أسلوبه لمحتواه. وكان صوفيا، وهى خصيصة بحد ذاتها كانت خليقة بأن تمتدحه لدى چيمس. ولكنه كان أيضا رجلا ذا قوة بدنية خارقة وواقعًا بما فيه الكفاية تحت تأثير تنوع واختلاف وتعدد وتفاصيل هذا العالم لدرجة تجنح به إلى التعددية بدلا من الواحدية.

وفى مقدمة كتاب « إرادة الاعتقاد » استشهد چيمس ببينات من كتيب بلود « الصدع الفالج للسمو » ولقد أشار فى تلك المقدمة إلى المؤلف باعتباره « كاتبًا موهوبًا » وحليفًا تعدديًا [٨]».

أمستردام ١٨ أبريل سنة ١٨٩٧.

« عزيزى الدكتور:

لقد ذهبت زوجتى إلى الكنيسة، أما أنا فقابع فى مكانى متردد حول مزيد من المشكل فى محاولة بعض الإنصاف لكتابك « المقالات » – التى قرأتها وأعدت تلاوتها مرارا وتكرارا كل يوم منذ

(7) Blood to W.J. August 9, 1882, "... The first man of genius 1 ever saw alive

(8) was Henry James, He preached at the presbyterian church here." Cf. also below, 352, 363,

تسلمتها ... وتقول زوجتى إن هذه هى الشهرة التى نلتها فى حياتى والتى لها أى فائدة، إنها معكرة وماجنة . ولما أخبرتها بفكرتك عن « عاطفة القوة العاقلة » على اعتبار أنها تفكير ينساب بيسر دافق ... إلخ ... قالت إن فيها ما هو أكثر من ذلك، شىء لابد أن يكون لكى يضع فى الدنيا أى حماسة، ثم ضربت مثلا بما كانت تفعل بقولها: « إذا اخترت سمك القد عشاء لك يوم الجمعة فيتعين عليك أن تأكل كبيبة سمك القد فى فطورك يوم السبت. هاك حكم نقى صاف لا عوج فيه ولا أمت . ولكنى سأحتاج إلى مادة تبلغ حجم ما يحتويه كتابك لكى أقول لك رأيى فيه، لأن كتابك كله فى مقدمة الركب، وكل ما فيه على طول الخط يساير الأمور التى تهمنى جدا . أما الأسلوب فلم يبلغ حد الكمال. والمعانى كلها كلاسيكية، ولكن هناك نوعا من اللامبالاة اللغوية الدارجة التي لا يأتيها رجل يكتب لكى يكسب عيشه، إلا إذا كان حقا لا يبالى مطلقا سواء أعاش أم مات .

بالنسبة لقصد الكتاب الرئيسى: « التعددية » - أنا تعددى بكل سهولة وراحة، ولا أومن إلا بالملأ الأدنى من الآلهة، ولا أعتقد بأية نتائج حرجة أو خطيرة للوجود تتسم بالجلال والشمول، فليس ثمة ختام ، ليس هناك درس واحد يلقن .. كل شىء يحدث فى وسط الأزلية. كل الأيام - أيام قيامة وحساب، وكل صباح - صباح خلق ووجود - فعلام كل هذا الدفع والهز واللغط والضجيج والعجيج ! علام كل هذه اللهفة والقلق اللذين ينتابان الرجل منا إذا ضاع منه يوم واحد ؟ علام كل ذلك، وفى عنقه أمانة يحملها، وعنده إله يمجده، وبين جنبيه روح لن تموت أبدا، وعليه خلاصها، وعليه التزامات خلقية تطالب بالوفاء ، علام ذلك وقد استأصله من « سلالة رحم من رحم ؟»[9]، « ذلك أن الأجرام البطيئة تحبذ نفسها فى فضوة من الفضاء الخالد الأخضر ». بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره. إن الآلهة تضطجع على البروق ، غير مكترثة بتلك المآرب المتلهفة الهلوع، وليس ثمة ما يزعج استرخاء هجوعهم الكريم. ولكن هل يكفى وينفع إحلال التعددية محل الفلسفة ؟ ليس ثمة ريب فى أنه ما فتئ صحيحا - على الرغم من استبدال حرف التاج من لفظ الجلالة بحرف صغير - « إن الواحد يبقى ، والكثير يتغير ويمضى ويزول »[10]. - إن « معضلة الجبرية » هى أروع « قطعة فنية بارعة » فى كتابك، وإن كانت « عاطفة القوة العاقلة » ربما تكون أكثر ابتداعا ولكنها جميعا جيدة ولها مستقبل ، صحيح أنها سلبية ومحطمة للصور والتماثيل الدينية. ولكنها قوية وفوارة. إنك لا تبنى، وكيف يتسنى لك أن تبنى على أسس تجرى فى كل اتجاه؟ ولست متأكدا من أنك تعمم على الإطلاق. لقد أمن العالم طويلا بالفضاء المحدود (الذاتى) وبوحدة الذكاء، وبالمجتمع وبأسره، وجنة، وواجب،

---

(9)Tennyson's "Lady Clara vere de vere".,

(10) Shelley's Adonais.

ونظام ، وبفرصة للشهرة يذيع صيتها بين الجميع، ليس عالما ولكن العالم - تحت ضبط وتحكم - كل حقائقه وممكناته معروفة ومحققة، سلام عاهلى .

وحتى فى التعددية فى حد ذاتها فلا بد أن يتم ذلك فى وقت ما فى حين ما، فإذا أردنا أن نحصل على كل شيء، فلا بد أن نحاول الواحد لوقت ما إلى حين، مهما أصبح ذلك الحين المؤقت باليا ومتبدلا حتى «ينفخ فى الصور».

إن التعددية يصعب تجميعها فى نقطة مركزية، إنها كالرمل أو الدقيق. إنها مفهوم ضرورى، ولكن الواحد كذلك مفهوم ضرورى سواء بسواء. وإنى لأترك لك وللزمان مهمة التوفيق بين الاثنين. ولك الفضل الكبير فى أن دافعا حفزك إلى الكتابة منها، وأنا شاكر لك فضل السماح لى بقراءتها ... صدقنى لقد أنعمت بنعمة جزيلة وحظ عظيم على صديقك المتواضع.

« بنجـ . بول بلود »

كمبريدج ٢٨ إبريل سنة ١٨٩٧

« عزيزى بلود:

رسالتك ممتعة لذيذة أنيقة. ولكونك لم تقر، بعد، بوصول الكتاب فقد بدأت أتساءل: يا ترى هل تسلمته أولا؟ ولكن هذا الإقرار الذى تضمنته رسالتك فيه الكفاية . أما فكرتك فغامضة، ومضات من البرق، لمحات مندفعة بسرعة السهم - ولكن هذه هى سبيل الحقيقة دائما فى انطلاقها. وعلى الرغم من أننى « أضع التعددية محل الفلسفة » فإننى لا أفعل ذلك إلا بقدر ما تعنى الفلسفة التبيينى والعلمى. فالحياة والصوفية تتجاوزان التبيينى، وإذا كان هناك الواحد، (ويقينا لن يعظم الناس أبدا من فكرته) فلا بد أن يظل التعبير عنه تعبيرا صوفيا فقط.

لقد طفقت أزمجر وأزأر مستشهدا ببعض أقوالك فى رسالتك التى طربت لها زوجتى بقدر ما طربت لها. نقودك الخاصة بإنجليزيتى فى محلها، وعلى العين والرأس أتقبلها بكل تواضع. أعلم أن بى جنوحا إلى الإفراط فى اللغة الدارجة، وأنا أثق بذوقك اللغوى أكثر مما أثق بذوق أى ناقد آخر فى طول البلاد وعرضها. لدى عمل هائل فى هذه اللحظة، علىَّ أن ألقى خطابا - بمناسبة ازاحة الستار عن نصب عسكرى[11]- على مسمع من ثلاثة آلاف من القوم، وعلى رأسهم المحافظ والفرق العسكرية...

(11) The monumen to Robert Gould Shaw, unveiled in Boston, May 31, 1897. The address is published in M.s.

إلخ ... أما لماذا وقع اختيارهم عليَّ، فالله وحده العليم بذلك، أما وقد اختارني ودعوني للنزال، فلن أنكص على عقبي. والمهمة مهمة آلية، والنتيجة تكاد تشبه إنشاء صبي في المدرسة. ولولا خشية أنها ستبعث فيك الملل والسأم لأرسلت إليك نسخة منها لتنقيحها من الناحية اللغوية. ولعلي بعد ذلك أتبعك في كل تصحيح تشير عليَّ به. ما قولك في هذا؟

المخلص

« و . م . جيمس »

وبعد بضع سنوات كتب چيمس إلى بلود:

« إنك صاحب أعظم موهبة في الثرثرة الفائقة منذ شكسبير ».

ولكن التماس چيمس من بلود لكي يراجع خطاب شو ظفر بالإجابة الفورية الحاسمة التالية:

« كلا وشكرا . ليست لدي البسالة الكافية لآخذ على عاتقي تحسين إنجليزيتك، التي هي بالنسبة للأغراض العادية، سواء أكانت للدعاء أم اللعن، لغة مفهومة وسائغة، والحاصل عندي أنها ذات سحر وفتنة وروعة خاصة بها ».

وعلى الرغم من أن مكاتبة چيمس لبلود اعتورها الفتور والذبول فيما بعد من السنين، فإنها لم تنطفئ وتنته أبدا . لقد ظل چيمس يبدي إعجابه بأسلوب بلود على الرغم من افتقاره إلى التماسك والالتحام. وفي هذا الصدد كتب له چيمس في سنة ١٩٠٧: « في الكلمات والجمل المفردة المعجزة البعيدة الرمية ذات الومضة الساطعة كخفق البرق، فأنت أكبر عبقري أعرفه، ولكن عندما يتطلب الأمر بناء حجة كاملة أو إنشاء مقال كامل، اختلط حابلك بنابلك»[١٢].

(12) W.J. Blood, November 28,1909, Blood to W.J., April 29, 1897; W.J. to Blood, March 13, 1907.

والبينة على مدى متانة صلة چيمس الشخصية وعاطفته الوثيقة نحو بلود، تتجلى فى حقيقة أن آخر مقال كتبه چيمس ونشر فى أثناء حياته كان بعنوان « صوفى تعددى »، ولقد كرس هذا المقال لفلسفة وعبقرية صديقه القديم. ومن الجلى أنه وجد فى هذا المفكر الهاوى الغامض « تحقيقا صوفياً لصحة التعددية »:

« أعترف أن وجود هذا الطراز الجديد من الصوفية شد قامتى وجعل حالة انحنائى تولى فرارا. إننى أشعر الآن بأن تعدديتى ليست بلا ظهير وسند من قبل التعزيز الصوفى. إن الواحدية لا تستطيع من الآن فصاعدا أن تدعى أنها المستحق الوحيد لأيما حق قد تملكه الصوفية فى إضفاء الاحترام والهيبة والمقام ».

ولقد ذكر چيمس أن فلسفة بلود « ليست مختلفة عن فلسفتى » وكان يرغب فى أن كلمة بلود « الأخيرة » باعتباره صوفيًا، ينبغى أن تكون كلمته الأخيرة باعتباره فيلسوفًا.

« فلتكن كلمتى الأخيرة إذن – باسم الفلسفة الفكرية – هى كلمته « ليس ثمة بت. فى أى بت وفض حتى نبت فيه ونفضه؟ لا يوجد بخت يفتح ولا نصيحة تعطى. جفت الأقلام وطويت الصحف وداعا »[13].

ومن بين ناقدى « إرادة الاعتقاد » كان هناك ناقد واحد على الأقل عاب على چيمس، ليس جرأته، ولكن حذره المفرط.

إن اعتقادا – عاما إلى هذه الدرجة – ومسوغا بكل هذا التدقيق والتأنق والقصد العامد، ليس اعتقادا مطلقا. كان جون جاى تشابمان فى ذلك الوقت يشتغل بالمحاماة فى مدينة نيويورك، وكان صديقا قديما لچيمس منذ سنوات كثيرة ومن أقرب المقربين لروحه.

---

(13) M.S., 374-5, 411.

نيويورك ٣٠ مارس سنة ١٨٩٧

« عزيزى المستر چيمس:

إن شوط التفكير المنطقى – أو قل حالة عقل امرئ يسوغ الاعتقاد بالاعتبارات التى تذكرها – لا جناح عليه – أنه يجعل نفسه قانعا وراضيا. وعشته التى أسكن نفسه فيها تبقى إلى يوم دينونته. ولديه نوع من الطلاء المقطرن أو الآمال التى تحفظ الاعتقاد فيه وتصونه وتحول بينه وبين التبخر. ولكنه لن ينقله أبدا – لن يثيره أبدا – لن يستحضره أبدا فى غيره . هذه طريقة مداورة بعض الشئ للقول بأن مثل هذا الرجل ليس عنده اعتقاد مطلقا.

إن الاعتقاد الذى نتحدث عنه لقى من التسويغ والتدعيم ما لا حصر له، وتجرع الناس عقاره علوا وسفلا، وكبل بالحديد والسلاسل وأحيط بالأسلاك الشائكة. تبا لى إذا سمَّيت ذلك عقيدة. ملعون أنا إذا سمَّيت ذلك عقيدة. ولو أننى كنت معنيا بمثل هذه الأمور وحملتها على محمل الجد والاهتمام، لصيرنى مقالك كاثوليكيا رومانيا. أعتقد بصدق أن النظام الرومانى يحتوى بيانا أحسن للحق الروحى من هذه الرمية المتهيبة. إن المسألة مسألة وضوح وجلاء التعبير. لعلك تذكر فى قصة ديكنز – (Pickwick Papers) – أن رئيس الحمام – لكى يفتح الحديث يسأل سام ولتر إذا كان قد لاحظ كربونات الحديد الطبيعى فى مياه الغسل، فيجيب سام: « لقد لاحظت طعم مكواة الثياب الحارة، ولكننى لم ألحظ أى كربونات حديد، وأعتقد أن كربونات الحديد كلمة غير واضحة التعبير ».

وشئ آخر، ظللت أتساءل فى عجب « ولم كل هذا التشويش – هل ثمة فرق يحدث سواء أكان المرء يعتقد أم لا يعتقد؟ ما الذى يعطى هذا السؤال كل هذه الأهمية لكى يطرح على بساط البحث؟ » لقد افترضت أن فكرة تلك الرسالة المختصرة – الصلة المزعومة بين الاعتقاد والسلوك – كانت واحدة من الأفكار التى ضج بها العالم ولفظ، مثل : علم التنجيم أو العصا السحرية .

المخلص

« جون چاى تشابمان »

كمبريدج ٥ أبريل سنة ١٨٩٧

« عزيزى تشابمان:

أرجوك الاستمرار فى تفجراتك الرسائلية. لقد أثلجت الرسالة الأخيرة صدرى. إنك تنتمى إلى حزب جيش الخلاص، ثم إن الحنجلة والدحلبة الشبيهة بسن الموسى التى ترمونها وأنتم معشر الشخصيات الأكاديمية بين أصابعكم، لابد وأن تبدو بغيضة حقا عند الأمزجة الأكثر عافية وقوة فى

الطرف الآخر ... إنك تذكرنى بالفلاح الذى قال لمطرانه بعد موعظة تثبت وجود الله: « إنها موعظة جميلة جدا، وفضلا عن ذلك فأنا أعتقد أن هناك إلها موجودا ».

الاعتقاد – حقا – وأنا أيضا سحقا لى إذا سمّيت ذلك اعتقادا. أنها تعد فقط للجو الوخيم مرتع قاعة الدرس ذات الفلسفة الوضعية المستنيرة. أما بالنسبة لضحايا شلل العمود الفقرى الذى تسببه هذه الدراسات فإن علاج المثل بمثله – وإن كنت قد لا تعتقد به – علاج مفيد حقا، لقد بلغنا من الرقة والتهذيب حدا أفسد علينا أمرنا، بحيث انسلخنا كلية من الحياة الحقيقية. لذلك أربط نفسى إليك كما تحاول قطعة من ورق المرحاض أن تربط نفسها إلى قطعة من الحجر إذا كانت تخشى أن تقصف بها الرياح.

كل هذه النفاية والقشاش والخسارة لست إلا للأغراض العامة. أما فى صميم قلبى شخصيا فأعتقد تماما أن إيمانى يضارع إيمانك عافية وقوة. والمشكلة فى عقائدكم القوية العفية هى أنها سرعان ما تبدأ فى قطع رقاب بعضها بعضا. ولكى تتقدم وتحرز قصب السبق فى هذا العالم وترسى مواثقه على العيش بسلام، فلا مناص من أن تتسلل هذه التهذيبات الوبائية والتعقلات الوبيلة والاعتدالات المهلكة. أنا آسف من جراء فقرتك الخاصة بالصلة المزعومة بين الاعتقاد والسلوك. إنها ليست واحدة من الأفكار التى ضج بها العالم ولغط، بأى من الأحوال، بل على النقيض إنها واحدة من أروع القوى فى العالم.

على أية حال، اكتب لى حالا، واقرأ مقدمتى إذا لم تكن قد قرأتها بعد، واقبل خالص ود ومحبة صديقك.

« و. م. جيمس »

فى سنة ١٩٠٤ نشر ل. ت. هوبهاوس مقالا هاجم فيه جيمس واتهمه بأنه مزدوج المذهب: « الأول هو أنه باعتقادنا بشىء فإننا نجعله صحيحا، والثانى هو أننا نستطيع أن نعتقد فى شىء دون أن نسأل أنفسنا جديا عما إذا كان صحيحا أم باطلا ».

وأجاب جيمس:

« إننى أصرخ إلى عنان السماء لكى تنبئنى من أية شجرة مجنونة أكل « سادتى جهابذة المعاصرين » بحيث تصيبهم آفة كل هذا العمى بالنسبة لمعنى النصوص المطبوعة. أم هل نحن الآخرون عاجزون على الإطلاق عن جعل معنانا واضحا؟ وأحسب أنه لا توجد هناك شجرة مجنونة ولا كتابة غير واضحة، ولكن المسألة هى أنه فى هذه الشئون، كل امرئ يكتب من مجال وعى يكون فيه «

البعبع » الرابض فى مؤخرة الوعى هو الموضوع الرئيسى. فأما بعبعك فهو الخرافة. وأما بعبعى فهو التيبس، وكل واحد بدافع تأثير المقابلة الضدية - يتشبث بأى نص يستطيع أن يضع يده عليه على اعتبار أنه يمثل العدو. بصرف النظر عن الخواص التفسيرية. وفى مقالتى، كان شبح الشر صورة « للعلم » فى صيغة تجريد وصلف ونشارة تتسلط على كل شىء. خذ أعقم وغد مغرور علمى تعرفه، وقارن بينه وبين أخصب قريحة دينية تعرفها، وستجد أنك لن تعطى الأول، أكثر مما أعطى أنا - الحق المخول الوحيد للطريقة »[١٤].

وأساس شكوى چيمس واضح تماما. لقد اتهم بتشجيع مشيئة أو نزق الاعتقاد، أو بالأحرى اتهم بالمدافعة عن الاعتقاد من أجل الاعتقاد، فى حين أن هدفه كله كان تسويغ الاعتقاد. لقد أكد أن الاعتقاد طوعى، ولكنه، طبيعى، افترض أن الخيار - فى ذلك كما فى غيره من الحالات الأخرى - محكوم بالحوافز ومضاء ومفسر بالعقل والصواب والنهى. لقد اتهمه ناقدوه بالمدافعة عن الرخصة فى الاعتقاد، فى حين أنه، على النقيض، كان غرضه صياغة قواعد للاعتقاد. وأيا ما كان رأى المرء فى التطبيقات الدينية الواسعة لقواعده، فإن أطروحته فى غاية البساطة. لقد حاج بأنه فى حالات معينة، حيث يكون كلا الاعتقاد والشك ممكنًا، فعلى الأرجح الوصول إلى الحقيقة بالاعتقاد أكثر مما يحدث بالشك، أو على الأقل تتساوى كفتا الترجيح، مع إضافة المزايا والفوائد الأخرى. وعلاوة على خطر التعرض للخطأ، الذى يتأثر به العلم بشدة، فثمة خطر آخر يتعين اعتباره، ألا وهو خطر فقدان الحقيقة. أما أية حقيقة كانت، فذلك أمر لم يأخذ على عاتقه أن يبيته، ولكنه استأنف هذا الموضوع فى البراجماتية.

---

(14) Hobhouse, "Fith and the will to Believe, "Proc. of the Aristotelian Sec, IV (1904), 91; W.J. to Hobhouse, August 1, 1904.

(٢٥)

الذاتية الأخلاقية

لقد عبرت « إرادة الاعتقاد » بالإضافة إلى كتابات چيمس ومناشطا الأخرى لنفس الفترة عن مذهبه الأخلاقى الأساسى. ولقد كان هذا المذهب هو الذى وقف فى طريق انعطافه وميله ووده - على نحو أكثر تماما وصفوا - حيال أعظم أصدقائه القدامى خفة ظل وتوافقا معه وإنعاشا لنفسه. ففى اليوم السابع من مارس سنة ١٩٠٠ أقامت رابطة المحامين ببوسطون حفل عشاء تكريماً لهولمز، الذى كان وقتئذ يشغل منصب رئيس المحكمة العليا لماساشوستس. وفى هذه المناسبة ألقى خطابا كان بمثابة صياغة موجزة لفلسفة حياته:

« إننا لا نستطيع أن نعيش أحلامنا. وإنا لنكون من أصحاب الحظ السعيد إذا استطعنا أن نعطى عينة من خير ما فينا، وإذا استطعنا أن نشعر فى صميم فؤادنا أننا فعلناه بنبل ومروءة .. إن متعة الحياة هى أن يبذل المرء طاقته وقوته بطريقة طبيعية ونافعة أو غير مؤذية. وقاعدة المتعة وقانون الواجب فى نظرى واحد. وأعترف بأن الحديث الغيرى والحديث الأنانى الساخر يبدوان لى كلاهما غير حقيقيين سواء بسواء .. فمن وجهة نظر العالم فإن غاية الحياة هى الحياة. والحياة عمل، وهى استعمال قوى المرء. وكما أن استعمال هذه القوى إلى أسمى مراتبها هو متعتنا وواجبنا، فكذلك الأمر بالقياس إلى الغاية الواحدة التى تسوغ بنفسها . الحياة غاية فى ذاتها. والسؤال الوحيد عما إذا كانت تستحق الحياة هو عما إذا كانت لديك الكفاية منها »[1].

(1) Speeches by oliver Wendell Holmes, Little, Brown and Company, 1913.

فلما قرأ چيمس هذا الخطاب كتب لصديقته الآنسة فرانسيس ر. مورسى، الرسالة التالية:

« أشكرك لإرسال نص كلمة رئيس المحكمة العليا التى ألقاها فى مأدبة رابطة المحامين. وأبادر إلى القول بأننى أشعر بخيبة أملى فى أ. و . هـ لكونه عاجزا عن إلقاء كلمات أخرى سوى خطاب موضوع أو محضر يبرزه فى كل مناسبة، ولا جناح على المرء أن يفعل ذلك مرة. فى فورة الشباب ليحتفل بالتهيج الحيوى البحت، بمتعة الحياة، كاحتجاج ضد التشوقر المضجر والتزمت الممل. أما أن يجعله مطردا بنظام ويضعه موضع التعارض، باعتباره مثلاً أعلى وواجبًا من الواجبات العادية المعترف بها، فمعناه صده ومنعه كله – وخصوصا إذا كان الشخص قاضى القضاة. إن الأمر يبدو لى صبيانيًا – بشكل عجيب، ووندل ينسى دائما أنه وفقا لشروطه هو فإن الناس الممتثلين للواجب أيضا يحققون قانونه، حتى إذا كانوا يعيشون عيشة ضنك ويتمتعون بالكفاح ضد شياطينهم الواقفين فى وجوههم. ومن ثم فاتركوهم لشأنهم. وندل يذكرنى ببيت من الشعر للشاعر براوننج الذى يقول سانتيانا فى كتابه الجديد إن آتيلا أو آلاريك ربما كان قد كتبه:

« مربوط بوثاق مائد إلى عجلة التغير

ليروى ظمأ الله » ...

إن مجرد التهيج ماثلة فجة لا تليق بالمفوض الرسمى للمحكمة العليا .»[٢].

على أن صلة چيمس القوية بهولمز واتفاقه الوثيق معه فى أمور أخرى، يجعل هذا الشقاق أكثر لفتا للأنظار، ويضفى عليه مزيداً من الدهشة الأخاذة. وتزداد أهميته من حقيقة أن چيمس نفسه كان فيما يبدو كثيرا ما يدعو إلى نفس الإنجيل، إنجيل العمل من أجل العمل ذاته. ولكن ليس ثمة رب مطلقا فى إحساسه وسرعة تأثره بالنسبة لأى وصمة مريبة تلطخ الغيرة الأخلاقية أو لأى هجر خائر العزم لقضية الاستقامة والبر. فإذا كان هناك أى شىء قيِّم فى العيش وليد فطرة الحياة. فلابد أن يكون عيشا من نوع ما، يخدم فيه المرء ماثلة أخلاقية ويؤمن بها فى نفس الوقت. وسواء كان چيمس

(2) April 12, 1900; othter parts of this letter appear in L.W.J., 11, 124-9, and below, 257.

فى هذا يردد صوت عبقرية أسلافة - فى رعونتهم وطيشهم وخفتهم الأسكتلندية الأيرلندية، وقد كبحتها وردعتها رزانة ووقار الكنيسة المشيخية (Prebyterian) - فذلك أمر لا أجرؤ أن أقوله، ولكن هناك ارتباطا - لا سبيل إلى إنكاره - بين ذلك وبين حاجة چيمس الشخصية إلى مثبت وموطد لمزاجه الزئبقى.

على أن نفس هذا المذهب الأخلاقى أثر على موقف چيمس حيال قصص أخيه، وعلى تمتعه بالشعر الوجدانى الغنائى البحت.

وفى معرض الرد على نقد تشارلز إليوت نورتون لكتاب (Oxford Book of English werse) - كتب إليه فى ١٤ أغسطس سنة ١٩٠٧ ما يلى:

« رسالتك .. منحتنى ما هو أكثر من المتعة - لقد وضحتنى وفسرتنى لنفسى. لقد خيل إلى دائما أننى « أكره » الشعر الإنجليزى، لأننى ما تسنت لى فقط قراءة قصيدة إلى آخرها. لقد وضحت لى أن الخطأ كامن فى الشعراء وليس فى أنهم لا يستطيعون أن يتموا قصائدهم نفسها. هذا يبرئ ساحتى، وأنا متفق معك تماما. لا علم لى بمجموعة قصائد كوبلر كاوتش، ولكنى أرى أن أقباس « الكنز المذهبى : Golden Treasury » - « أحسن مائة قصيدة شعر فرنسية ؟ » إنها تبدو لى - من الوجهة الموضوعية - تفوق أية مجموعة إنجليزية ، ولكن يتعين علىَّ أن أقر - من أول الأمر - أننى لا أملك الأدب الشعرى - أنا أصم شعراً ».

وثمة أمر آخر يرتبط ارتباطا وثيقا بغيرة چيمس الأخلاقية وهو نفورا القوى من أى شىء يتوجس فيه الانحطاط والتدهور. ولم يكن ذلك لمجرد أنه يستهجن الاختلال الأخلاقى، ولكن لأنه كان يشعر بما يشبه التقزز الفسيولوجى من أى شىء مفرط التنقيح أو مفرط التوابل مفرط النضج. لقد هلل لملاحظة بلود بأن الكون « متوبل بطيوب الصيد كجناح الصقر »[٣]. ولكنه ما كان يريد أن يكون صيده فى أعلى عليين. كان يحب البساطة ويؤثر النقاء ويبتغى النجيع فى الحياة وفى الطبيعة على السواء .

---

(3) W.B,, ix.

أما أنه كان فى نفس الوقت متسامحا حيال الاختلاف مدمنا لعلم النفس المرض وكاثوليكيا فى حبه للفن والأدب، فذلك أمر لا سبيل إلى إنكاره، وإنما اعتراف به باعتباره برهانًا على مدى رسوخ الشجرة - إلى أبعد الأعماق - التى استطاعت أن تقاوم تلك التأثيرات المضادة.

ثمة بينات كثيرة على هذا الجانب « الصحى » من أخلاقية چيمس. يتجلى ذلك فى تنافره الروحى المعجب مع فلسفه سانتيانا « بكمال عفونتها » و« تعريبها المحتضر »[٤]. والأحسن من ذلك كله ما يتجلى فى شعوره نحو غواية إيطاليا وهتك عرضها، من التناوب بين الاستسلام وبين النبذ. وعندما حكم على وهن وهزال « وفساد إيطاليا اللذيذ »[٥] فقد كان عادة على سبيل المقابلة والتباين بينها وبين عدم الطلاوة أو « السلاخة » الصحية لسويسرا. « سويسرا طيبة ! قوم طيبون ! »[٦].

ولقد تجلى هذا الشعور فى رسالة بعث بها إلى تشارلز ريتر من فلورنسا فى الخامس من أكتوبر سنة ١٨٩٢:

إن فلورنسا تبدو لى أكثر جاذبية وفتنة حتى مما كانت عليه عندما كنت هنا منذ ثمانية عشر عاما . ولكن ما أسمى وأطيب سويسرا. إنها تشبع كل الحاجات الأساسية للجسم والروح بها لا مثيل له فى أى بلد آخر، فى فصل الصيف. بعد بديعيات، ووبالة وفساد إيطاليا، كيف يعوزنى مرة ثانية أن أرتد إلى عالمكم الأرضى!!

لا شك أنك صدمت لموت رينان. كان ساحرا حقيقيا، ولكنه كان رجلا تسبب فى خيبة أمل مشروعه بالصيغة التى وجدتها قريحته أخيرا أكثر موافقة له. كان يستعمل لغة الحياة الأخلاقية والدينية بكل عذوبة وسخاء بالنسبة لامرئ يرفض تفكيره أن يتقيد بتلك المثل العليا. إن المثل العليا الأخلاقية تمضى جنبا إلى جنب مع الإنكار والنبذ والرفض والتضحيات. ولكن هنالك شيئًا

(4) L.W.J., 11, 122-3.

(5) L.W.J., 1, 342.

(6) Ibid, 1, 328, journal, May 10, 1905.

صاعقًا حول الوظيفة الموسيقية البحت التى يلعبونها فى صفحات رينان. لذلك أسميه سطحيا بعمق. ولكن يا له من فنان ».

فلا غرو أن تكون قوة الباعث الجمالى لدى چيمس أمرا معروفًا وشائعًا وزاخرًا بالشواهد والأدلة.

ولقد أعجب فى شبابه إعجابًا عميقًا بلا أخلاقية جوته. ولقد تكرر هذا الإعجاب وتأكد مرارا حتى وقت متأخر فى حياته يصل إلى سنة ١٩٠٢. كان يحترم شرائع الذوق فى مسلكه وفى أحكامه على السواء. أما نزعته الفنية، وقد تحولت عن الرسم، فقد وجدت تعبيرها فى التفلسف الذى تضمن نفس « العنصر القربانى » (وبالنسبة لچيمس على الأقل) نفس الامتزاج والصهر والاتحاد بين الأسلوب والمادة - اللذين لا سبيل إلى فصمهما.

ومن وقت لآخر - وعلى الخصوص فى باريس ودرسدن إبان صباه. ثم بعد ذلك فى فلورنسا بعد خمسة وعشرين عاما، انغمس بشهية نهمة فى الفنون البصرية. وكان كثيرا ما يقول إنه ليست لديه ذاكرة بصرية ولكن تأثير هذه الظاهرة أنها جعلته أكثر لا أقل اعتمادا على الخبرة البصرية المباشرة.

ومن ثم فإنه إذا كان قد شعر بعقم البديعيات النظرية، فلم يكن مرد ذلك إلى الافتقار إلى دقة الإحساس الفنى أو الحط من قدر قيمة الفن. ثم إنه لم يغفل المشكلة. لقد عاد إليها مرارا وتكرارا ولكن بنفس الإحساس بالإخفاق دائما. وبمرور الوقت تحول هذا الشعور بالعقم إلى حكم نهائى بأن الخبرة الجمالية كانت شخصية وذاتية على نحو لا يقهر. وما كان السبب هو أن چيمس اعتبر هذه الخبرة خبرة انفعالية عديمة التمييز بل على النقيض تماما. ففى كتابه « علم النفس » يصف زوجين مسنين جلسا أكثر من ساعة أمام لوحة تيتان « الوهم » فى البندقية يغيثهما « زخيخ من العاطفة الزائفة التى لو شهدها تيتان العجوز المسكين لأصيب بدوار ». لقد أخطأ المرمى. « ففى كل فن، فى كل علم يوجد تمييز حاد لعلاقات معينة يدرك إذا كانت صحيحة أو لا، ثم هناك الفورة الانفعالية والراجفة الناجمتان بناء على ذلك »(٧). ولكن

هذه « الفورة » أو « الرجفة » هى المعيار النهائى، وهذا أمر نسبى جداً بالنسبة للملاحظ الفردى، بشكل يستحيل معه أى تعميم فى القاعدة. فإذا تركنا نسبيتها على جنب، فإن الخبرة الجمالية تأبى التقنين والصياغة فى قواعد لأنها تتألف من إحساس. وفى هذا الصدد كتب، فيما بعد، إلى هنرى راتجرز مارشال فقال:

« إن الفرق بين أسمى مراتب الإنتاج الفنى وما هو دونها مباشرة - يبدو أنه يفلت من التحديد الكلامى على الإطلاق - أنها مسألة شعرة، ظل، مثقال ذرة، رجفة باطنية من نوع ما، ولكن ما أبعد أمادها بالنسبة للنفاسة. وقطعا، تنطبق نفس الصيغة الكلامية على النجاح الفائق وعلى الشىء الذى يفوته النجاح بالتمام، ومع ذلك فالصيغ والقواعد الكلامية هى كل ما عند بديعييك وبديعياتك »[٨].

وهذا الاعتراض هو تطبيق لأعم مبدأ فى فلسفة چيمس، ألا وهو أسبقية الخبرة الأصيلة على التمثيلات أو الأوصاف أو الدلالات، « التباين بين ثروة الحياة وخصوبتها وبين فقر وجدب كل الصيغ والقواعد الممكنة»[٩]. ولقد أصر على هذه الأسبقية أينما كانت خبرته الخاصة الأصيلة - حيوية وزاهية - بطريقة مميزة. ثمة معين للتأمل فى حقيقة أنه فى حين كتب بإسهاب عن الخبرات الدينية، فإنه أعرض بعيدا ونأى بجانبه عن التصدى لأى خبرات جمالية. وأكبر ظنى أن التفسير يمكن أن يلتمس فى حقيقة أنه كان يملك الخبرة الجمالية فى حين أنه افترض الخبرة الدينية، التى كانت، من ثم حتى فى « مصادره » قد تحولت إلى كلام من قبل .

يكفى هذا القدر فيما يتعلق ببديعيات چيمس أو نبذه للبديعيات « العامة » و « الموضوعية » لزمانه. وهذا بحد ذاته لا يتضمن أى حط من قدر الخبرة الجمالية أو الفن فى سلم القيم. ولكى تقرر هذا الخط ينبغى أن نلتفت إلى اعتبارات أخرى ونلاحظ أولا أنه كانت فى چميس خصيصية من الفطرية تنازع وتحاج لتملك روحه.

---

(7) Psychology, 11, 471-2.

(8) February 7, 1899?0; L.WJ.,11, 87.

(9) Natrion LIX (1894).49.

فـإذا سلمنا بأن الفن، بل حـتـى المنظر الطبـيـعى أيضـا يتـضـمنان بعض الاعـتـبـارات للصيغة والشكل، فإن التمتع بهما كان يتصادم فى چيمس مع استطابته - لما لم يأخذ شكله وما لم يتم تكوينه وصياغته - للخام والغفل.

« يحدث أحيانا أن أتمتع بشىء مصادفة عندما يعترض طريقى مثل يورك أو دارم، ولكن كونى أسعى سعيًا حثيثًا فى طلب البهى الذى يستحق التصوير - فلتعمل السماء بإزالتى من الوجود - إذا فعلت. أن الشىء الوحيد الذى يفيدنى حقا هو الريف فى المعنى الأمريكى على اعتبار أنه شىء تستطيع أن توغل فيه وتستلقى على أرضه مع كتاب طوال اليوم. أما هذا الريف (الإنجليزى) فرائع إذا كانت لدى المرء الأرجل المناسبة والأنفاس التى لا تنقطع، وهو ما ليس عندى. إنه ملىء بالصخور الشامخة والشقوق والمنحدرات وأماكن العزلة. ولكن صوره كلها قد رجفت عليها المدنية بقضها وقضيضها وزخر بجو المدنية إلى أقصى حد، وتناثرت فيه الأبنية الصلدة وأحاطت به الأسوار من كل جانب »[10].

ففى حيز عالم محدود منظم، سواء أكان من صنع الإنسان أم من صنع تفكيره وخـيـالـه، كـان چيـمس يشـعـر بنوع من الخـوف الحنونى من الأمـاكن المغلقـة (Claustrophobia)، وكان التاريخى يثير فيه شعورا مماثلا. وكانت طقوس عبدة الفن مرتبطة فى ذهنه بالمذهب النقلى السفلى وخصوصا فى إيطاليا، فى حين أن چيمس كان يفضل المستقبل غير المحدود أو الحاضر الموافق فى حينه. كان چيمس من أنصار المعاصرية. فثمة شىء يتعين عمله الآن - حالا ومباشرة - لجعل العالم أحسن وأفضل وأقوم سبيلا. ولقد كان هذا هو مزاجه عندما كتب إلى أخته من روما فى اليوم الرابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٧٣:

« إن إيطاليا مكان بهيج وسار ومفرح - لكى يغطس فيه المرء غطسة واحدة - لا أكثر. ولا أستطيع أن أتصور إلى أى حد - ما لم يكن المرء منهمكا فى دراسة التاريخ على نحو ما - تستطيع إيطاليا فى المدى الطويل أن تسهم فى إيذاء كل قوى المرء الناشطة. إن وطأة عالم الماضى هنا وطأة مهلكة، بحيث تنتهى بالمرء إلى أن يصبح مجرد كل طفيلى على الماضى بدلا من أن يكون ندا

(10) To Chaarles A. Strong. June 28, 1909.

له.

هذه العبادة للناس الآخرين وهذا الاعتماد على الناس الآخرين، أمر شاذ غير طبيعى. إن القدامى عملوا ما عملوا بتصريف شئون حياتهم فى يومهم، وليس بفغر أفواههم مبهوتين أمام قبور أسلافهم. والرجل الطبيعى اليوم سيفعل مثلهم وينسج على منوالهم. خمسون سنة من كامبردج أفضل من فلك الصين الدوار. وداعا. أخوك المتوحش الذى لا يهتم إلا بالماديات.

وعلى هذا، نعود ثانية إلى أسبقية الإرادة الخلقية، على الشعور، وكذلك أيضا على التفكير. كان چيمس أبعد ما يكون عن طلب إلغاء الشعور إلغاء. ولقد اعترف به على اعتبار أنه يؤلف جزءا كبيرا من تلك الدخيلة الباطنية للحياة التى يستمد منها الود فذاذته وتفرده وكرامته. بل لقد ذهب إلى أبعد من ذلك. لقد دافع عن حدة الشعور والمبالغة فيه:

« نتيجة لقانون التنبيه ». إنه بصرف النظر عن التأثير الحركى وفى حد ذاته، فإن الشعور يعد خيرا. أيهما يعيش أكثر، ذلك الرجل المنظم المرتب الذى تمضى حياته على قضبان مزينة من اللباقة والحشمة والمناسبة، ولا يفعل أبدا ما يشين، أو يهفو هفوة، أو يرتكب خطأ، أو يخالجه ندم، أو تكربه غصة، لأنه لا يحيد عن الصواب قيد شعرة، ولأن العمل الصواب فى كل مناسبة يفرض نفسه على عقله وهو يؤديه فحسب ؟ أم ذلك الرجل الحماسى الجاد الطبع الضجاج المضطرب الأرعن الخطاء، الذى حياته كلها عبارة عن تعاقب من الثوران والنهجان والخفة والطرب، ومن الندم الفظيع التوقان إلى الخير الذى حاق به الدمار والخراب؟ هذا يشعر، أما الآخر فيؤدى. فإذا قدر لهذا الطراز من الناس أن ينقرض، أفلا تضيع من الحياة - يقينا - عندئذ - واحدة من أسمى وأقدس المواهب الإنسانية. ألا وهى موهبة حدة الشعور؟ »[11].

ولكن چيمس - كما قال - كان « قوة محركة »[12]. لقد كان من أحد الملامح الجوهرية لفلسفته، علاوة على ذلك، أن الانفعال نهاية مطاف غير طبيعى للعقل. فالدورة المكتملة للحياة الواعية لابد أن تبلغ أوجها فى عمل. والأحاسيس التى تقتصر

(11) Froma loose undated mote entitled "AEsthetics"..

(12) To Pauline Goldimark, September 14, L.W.J., 11, 163.

على المتعة فحسب تقضى إلى ضمور الإرادة وذبولها.

« حتى عادة الانغماس المفرط فى الموسيقى بالنسبة لأولئك الذين لا هم عازفون ولا لاعبون، ولا هم أصحاب موهبة موسيقية كافية بحيث يتخذونها بطريقة فكرية بحت]، هذه العادة ربما يكون لها أثر على الخلق يفضى به إلى الترهل والتراخى. فالمرء يصبح مفعما بانفعالات تمر اعتيادياً دون أن تحفزه لأى عمل، وبهذا تستمر حالة الجمود العاطفى وتظل هامدة خامدة. والعلاج هو ألا يسمح الفرد لنفسه بأن يكابد أى انفعال من جراء جوقة موسيقية دون أن يعبر عنه فيما بعد بطريقة إيجابية نشطة على نحو ما »(١٣).

ولقد تساءل چيمس فى سنة ١٨٧٩(١٤):

« ما الذى يعنى الغيور الأخلاقى فى فلسفة الأخلاق؟ » إن الفيلسوف الأخلاقى والحياة الأخلاقية » التى كانت فى الأصل محاضرة ألقاها فى سنة ١٨٩١، ثم ضمنها بعد ذلك كتابه « إرادة الاعتقاد » هى إجابة چيمس عن هذا السؤال. وهى معالجته الوحيدة للأخلاق النظرية التى وجدت طريقها إلى النشر. لقد أقر بفذاذتها ولكنه شعر بخيبة الأمل مما قوبلت به. ولقد استخلص الآراء التى انتهى إليها من قراءاته وتفكيره وهو يعد لمحاضراته عندما عهد إليه بتدريس مقرر الفلسفة ٤ محل بالمر فى (١٨٨٨ - ١٨٨٩). ولقد احتفظ بمسودة هذه المحاضرات فى سجلاته، والمختارات التالية تصلح لتكملة البيان الذى طبع ونشر:

ما دمت أشعر بأن أى شىء خير، فأنا أجعله كذلك. فهو كذلك بالنسبة لى . ولأول وهلة فإن الطيبات تشكل غاية متعددة الأنواع متضاعفة التركيب. فهل ينبغى علينا أن نتركها على ما هى عليه أم فى وسعنا أن نوحدها. إن أفضل تجريد هو أن كل الطيبات ينبغى أن تستوعب وتنال. وهذا مستحيل مادياً، لأن كثيرا منها تحجب ويطرد بعضها بعضا الآخر، وصعوبة الحياة الخلقية كلها قوامها البت، عندما تكون الحالة بهذا الوضع، فأى خير نضحى به وأى خير نحتفظ به . والحل

(13) Pyschology, 1, 125-6.

(14) "Sentiment of Rationaliry".. Mind, IV (1879), 338.

هو (أن) تعتبر كل خير خيراً حقيقياً ونحتفظ بأكبر عدد فى مستطاعنا. وهذا العمل هو أحسن إجراء يؤدى إلى الكل الأحسن، على اعتبار أن الكل الأحسن هو ذلك الذى يسود بأقل نفقة، والذى تكون فيه الطيبات المقهورة هى الأقل إلغاء كليا إلى الحد الأدنى ... اتبع التقاليد المشتركة، ضح بكل الإرادات غير القابلة للتنظيم والتى تتصادم جهازاً ضد الكل. ولا أحد يدعى - على العموم - تنقيح الوصايا العشر أو العدوان ضد الحياة أو الملكية أو الصدق أو اللياقة . فى الكل الدائم. فإذا كانت هذه طيبات رجل، فالرجل ليس عضوا فى الكل الذى نقصد االاحتفاظ به، ونحن نضحى بكلا الرجل وطيباته دون أن نسكب دمعة وحدة. وعندما تكون المنافسة بين طيبات حقيقية قابلة للتنظيم، فالقاعدة هى أن الفائز منها ينبغى أن يحافظ- بقدر الإمكان - على تمثيل المقهور، موسعاً مخرجاً بريئاً».

المبدأ واضح، فالقيمة تشتق فى نهاية الأمر من مصالح الفرد، والكل الاجتماعى يسوغه احتواء أجزائه الفردية والتوفيق بينها. فالذاتية أساسية.

بين سنة ١٨٩٣ وسنة ١٨٩٩، ألقى چيمس عدداً كبيراً من المحاضرات والخطب العامة فى أجزاء مختلفة من الولايات المتحدة الأمريكية: فى هوث سبرنجز (فرجينيا)، شوتاكوا، بافالو، شيكاغو، ليك جينيفا (ويسكونسن)، كولور سبرنجز، كاليفورنيا. وفى أثناء أسفاره اكتشافات إنسانية وكذلك جغرافية. ولقد كان التنافر الخارجي والتفاهة البادية للعيان فيما شهده تحديا لذوقه ووجدانه. ومن ضمن المحاضرات التى ألقاها كانت هناك واحدة بعنوان « عن عمى معين فى الناس »، وفى هذه المحاضرة تكلم عن وجوب تصحيح منظر الملاحظ الخارجى بفهم متخيل للخبرة الداخلية. وعندئذ فإن الحياة الإجمالية للإنسان التى تبدو وحشية ومملة وتافهة تتخذ شكلا من الكرامة والتنوع الخصب. وعندما كتب چيمس إلى المسز جلندوور إيفانز عن كتابه « أحاديث للمعلمين » الذى تضمن المحاضرة المذكورة [١٥] آنفا، والذى أرسل إليها نسخة منه، قال:

---

(15) In an appended portion referred to in the sub-title: and to Students on Some of Life's Ideals.

« أرجوك ألا تخوضى فى الجزء الخاص بالمعلمين الذى هو الملل مجسما. لم أرسل إليك هذا الكتاب إلا لتقرئى الفصل المعنون « عن ظاهرة عمى معين »، الذى هو فى الحقيقة البصيرة التى ترتكز عليها فلسفتى الذاتية برمتها ».

وفى نفس السنة كتب إلى صديق آخر: « إننى أهتم جدا بالحقيقة التى يحاول الكتاب - بشكل غير كاف ولا واف - أن يعبر عنها »[١٦].

وفى مقدمة كتاب « أحاديث للمعلمين » نقرأ :

« بودى لو استطعت أن أجعل الجزء الثانى « عن ظاهرة عمى معين فى الناس » أكثر تأثيرا ووقعا. إنها أكثر من مجرد قطعة عاطفية كما قد تبدو فى نظر بعض القراء. وأولئك الذين شرفونى بقراءة مجلدى الخاص بالمقالات الفلسفية سيدركون Bننى أعنى الفلسفة التعددية أو الذاتية. وطبقا لتلك الفلسفة فإن الحقيقة أكبر من أن يعيبها كلها عقل واحد حقيقى، حتى إذا منح هذا العقل لقب « المطلق ». إن حقائق وقيم الحياة تحتاج إلى عارفين كثيرين لاستيعابها. لا توجد وجهة نظر عامة على الإطلاق وشاملة على الإطلاق . والنتيجة العملية لمثل تلك الفلسفة هى ذلك الاحترام الديمقراطى الذائع المصيت، لقدسية الفرد »[١٧].

ومن عجيب الاتفاق أن بيرس ورويس اللذين كانا فى عزلة ويكادان يكونان غير لائقين للعلاقات الاجتماعية والعامة، قد وضعا مركز الثقل على الجماعة المشتركة على المجتمع باعتبارها حقيقة ومثلاً أعلى على السواء، فى حين أن چيمس الذى كان أكثر الناس لباقة اجتماعية ودماثة أخلاق وتحضرا، والذى كان بكل حماسة وشغف ونشاط وإيجابية - بل بألم أيضا - مهتمًا اهتمامًا كبيرًا بحالة وطنه وحالة العالم ، فقد نادى بالقيمة السامية لتلك المجاهدة والكد والكدح والكفاح، التى هى فريدة فذة فى كل فرد على حدة، والتى تتجلى خصيصتها الأصلية الصحيحة بشكل مباشر فيه هو وحده. وهذه الخصيصة، صفة فردية معتقة مخلصة ما دامت مصحوبة بنكهة من الإخلاص

(16) Reprinted from Atlantic,, CXLIV (1929), 377; to Pauline Goldmark; April 18, 1899.

أو الشجاعة، « وما العمى المعين فى الناس » الذى يشيع فيهم علوا وسفلا سوى إخفاقهم فى الفطنة إلى تألقها الباطنى. كتب چيمس مرة إلى ابنته عن كلب كان يرافقه يوما ما فى بيته: « إنه يظل يبصبص بذيله طوال الوقت، والانطباع الذى يتركه فى نفسى هو انطباع ملاك يتوارى وراء سحابة. إنه تواق لأن يفعل الخير»(١٨).

وكذلك الأمر بالقياس إلى الناس - فهم كالكلاب - كانوا عادة يبصبصون بذنبهم فى حضرة چيمس، وكانوا تواقين لفعل الخير » الأمر الذى - بلاشك - أكد إنجيله بأن كل إنسان هو ملاك متوار وراء سحابة .

وبقدر ما يتذوق المرء مكامن المغزى الباطنى فى حياة الناس الآخرين بقدر ما يعطى أهمية للاختلافات:

« إن الإصرار العنيد على أن نغمة الكمان ليست هى نغمة الربابة هو لب ونخاع الحياة. انظر إلى اليهود والاسكتلنديين بتحزبهم وتعصبهم وفتنهم التعسة ومنازعاتهم الطائفية، وموالاتهم وتشيعاتهم وطردهم وإبعادهم لكل من لا يدين بملتهم، لقد أصبحت تواريخهم تراثا كلاسيكيا لأن رجالا من العباقرة اشتركوا فيها وتغنوا بها . إن الشيء مهم إذا اعتقد المرء أنه مهم»(١٩).

إن الحياة الوضعية للناس ينبغى أن تبنى بالضرورة على رغباتهم وما يحبون، ولكن هدفها أن تفسح لاختلافاتهم أن ما يندس فى شباك التصنيف ويأبى التنظيم هو ما يسوغ، أما التصنيف أو التنظيم. لقد قال چيمس: « إن ذكرى دافيدسون ».

ستقوى دائما إيمانى بالحرية الشخصية وبتلقائياتها، وستجعلنى أخفف من غلواء احترامى للحضارة أكثر مما كنت قبلا - الحضارة بتقسيماتها للناس إلى إسراب وقطعان، وبوصفها العلامات والأنواع، والتمغة على صنف وفئة، وبإعطائها الرخص والبراءات، وبمنحها الشهادات والدرجات العلمية، وبتخويلها السلطة ووضعها فى يد من تشاء. وبتعيينها وتنصيبها ومراسيمها وتدابيرها، وعلى

(17) T.T., V.

(18) August 8, 1895; L.W.J., 11, 26.

(19) Psychology, 11, 674-5. note.

العموم تنظيمها وإدرتها لدقة حياة الناس بالنظام والنسق والجهاز . وبالتأكيد فإن الفرد، الشخصى فى صيغة الفرد هو الظاهرة الأكثر جوهرية وأساسية، فى حين أن النظام الاجتماعى، أيا كانت مرتبته، ليس سوى ثانوى ووسلى. وأيا ما كان عدد المصالح والرغبات التى تؤديها وتشبعها النظم الاجتماعية، فلابد أن تبقى دائما مصالح ورغبات غير مشبعة، ومن بينها مصالح ورغبات يجوز عليها النظام - من حيث هو نظام - كلما وضع يده علينا. إن أحسن جمهورية مشتركة ستكون دائماً هى الجمهورية التى تفسح أرحب مجال لصفاتهم المميزة ورغباتهم»[٢٠].

على أن القيمة الباطنية المحسوسة لحياة إنسانية ما، مستقلة عن احترام العالم أو هى فى غنى عن معايير مثل الشهرة والأهمية. ومن هذه البصيرة انبثقت مصادقة جيمس على الديمقراطية. فبينا يؤلف الجنس البشرى، إذا أخذ بالجملة وخارجيا مشهدا غير مهذب ولا مثقف، نجد أنه إذا أخذ فرادى، واحدا واحداً، كل فرد منه بقبسه الخاص به من المثالية، فمن المرجح أنهم يحترمون ويقدرون حق قدرهم.

على أن التسامح جزء جوهرى من مقومات نفس الإنجيل، فعندما يبحث المرء عن القيمة الباطنية لحياة الآخرين فإنه يعترف بحقهم فى الوجود، بل هو يتهلل جذلا لو جودهم. كان جيمس يشعر بالتسامح خيال الجنس البشرى حتى فى جمهرته. ولقد عالج هذه المسألة فى الجزء الأخير من محاضرته عن « الخلود الإنسانى »، لم يكن يخشى أن تضيق الجنة على من فيها بما رحبت .

فلنثق بأن الإله الذى ابتلى بنا، قادر على أن يبتلى بكثير غيرنا ممن يماثلوننا فى غرائبنا وعجائبنا، وممن لا يدانوننا فى البسط والانشراح . من جانبى أنا فأنا راغب فى أن كل ورقة نبات قدر لها أن تنمو فى غابات هذه الدنيا وتخشخش بحفيفها فى النسيم، يجب أن تصبح خالدة[٢١].

---

(20) M.S, 1000-3.

(21) H.J., 43-4. This is a very old motive in James's thought. In the "Sentiment of Rationality," where referrring to " a too infinite accumulartion of population in the heavents", he goes on to say that the real wonder of existence is not that there should be so many, but that there should be any. Mind, lv (1879), 344.

كان التسامح شعار شباب چيمس، ليس فقط من قبيل التعاطف الوجدانى مع ما هو مختلف، ولكن أيضا التسامح الفكرى وخفض الجناح الذى ينجم من الإحساس بما فى العطف الوجدانى من حدود. ومن ثم كتب فى سنة ١٨٧٣:

« منظر الفيلة والنمور فى معرض وحوش بارنوم، الذى يتسم وجوده بهذا الطابع الشخصى الغريب، ومع ذلك يقوم هنالك حقيقيا واقعيا بكل قوة وحيوية، كما لو كان ملكك الخاص لدرجة أن المرء يشعر ثانية بتوقد وحدة، عمق علم الكائنات وحقيقتها، الذى لا يسبر غوره، على فرض وجود علم لكائنات وحقيقتها على الإطلاق، إنها تلتحم مع نفسى، ومع ذلك فأنا بادعاءاتى أو على الأقل بطموحى وآمالى فى تمثيل العالم ، تمثيلا كافيا لا يمكن أن آمل فى أن أشترك وجدانيا فى أى معنى حقيقى للكلمة. مع وجودها. والافتقار إلى الانجذاب هنا، ليس كما هو الشأن فى بعض أشكال الحياة الإنسانية المشوهة أو التى تعافها النفسى، لأن كيانها مدهش ويدعو للإعجاب لدرجة أن المرء يشتهى أن يكون على نحو ما شريكا أو زميلا أو مواطنا لها. ومن ثم فإن أجنبيتها تحرى تظاهر المرء بأضواء الحياة، فى حين أن خصائصها المدهشة المعجبة تقوض العقل الذى يستند إلى مرجع رواقى أو أخلاقى يقول فيه المرء إن المعنى الحقيقى للحياة هو عملى. هذا العالم العظيم من الحياة فى غير صلة بعملى. حقيقى للغاية »[٢٢].

وفى نفس تلك الفترة من حياة چيمس التى امتدح فيها هكذا الاعتراف بالجهل، وضع نفسه معيارا من التساهل فى أحكامه الأخلاقية:

« إن ارتياب « رجل الدنيا » . يبلغ ذروة ذكائه ولطفه فى تلك الشخصيات الكريمة المسامحة الذين يبدون ارتيابهم بالنسبة للحظ فيما يعطى وفيما يسلب. مثل هؤلاء الناس يستطيعون أن يسخروا من القدر، وفيهم مرونة وتعاطف وجدانى مع مجرى الحياة الماضى فى طريقه لا يلوى على شىء، هم يؤمنون دائما بالخير، ولكنهم راغبون فى وجوب تغيير شكل الخير. وهم لا يطبقون أيديهم على ما يملكون ولا يجعلونها مغلولة إلى أعناقهم، وعندما يعلنون عن رغباتهم فى لزوم إعطاء الحرية لقوم معينين، فإنهم لا يعنون بذلك ما يعنيه معظمنا عندما نجهر بذلك مع تحفظ فكرى، مثل ذلك القاضى بأن الحرية يجب أن تستخدم استخداما حسنا، وما يشبه ذلك من الغش والخداع والدجل - وإنما يعنون ذلك بكل إخلاص، ودون أن يطلبوا أى ضمان ضد سوء الاستعمال، الذى إذا حدث فإنهم

---

(22) This note is dated May 16, 1873, and the followin is probably of the same year.

يتقبلونه بلا شكاية ولا غل، على اعتبار أنه جزء من مصادفات وحظوظ اللعبة. إنهم يطلقون طيرهم فى الفضاء ليطير دون أن يربطوا خيطا فى رجله ».

إن باطنية إحساس الفرد ووجده - ثمينة عزيزة - ولكن مم تتألف قيمتها العالية ونفاستها؟

إن الملحق المكمل لموضوع « عن ظاهر عمى معين فى الناس » يبدأ عنوان بسؤال « ما الذى يجعل لحياة ما مغزى؟ » والجواب هو أن الذى يجعل لحياة ما مغزى هو الشجاعة والكفاح والمغامرة - وفى كلمة واحدة هو البطولة - وهذه تنكشف لعين العطف - للبصيرة الحانية المشاركة للغير فى حالته الوجدانية.

لقد اقتضت زيارة چيمس لمجمع شوتاكوا أن يشعر بأن « البطولات العليا والطيبات العتيقة النادرة بدأت تختفى من الحياة » - حتى لاح فى خلده فجأة أن هناك « مجالات عظيمة من البطولة قائمة من حولنا » - « فى الحيويات اليومية للطبقات العاملة »[٢٣].

وهذا موضوع مألوف ودائم لدى چيمس. إنه انجيل كارليل القديم الذى لقح به چيمس فى طفولته. إنه الإجابة التى أعطاها فى « إرادة الاعتقاد » عن سؤال « هل الحياة تستحق العيش ؟ » نعم، إنها تستحق العيش لأن فى الإمكان جعلها تستحق العيش، بأن ننقل إليها « كيف » العمل الجرىء الغيور الجهيد. وكانت الروح العسكرية متضمنة فى ثنائية چيمس الأخلاقية. فالخير خير والشر شر، ودور الاستقامة والبر هو أن تحب الخير، وأن تكره الشر بنفس الإخلاص القلبى سواء بسواء. وبالنسبة « لمحرك » فإن الكره لا يمكن أن يعنى سوى الهجوم والتدمير. ولقد كان هذا هو اتجاه چيمس منذ باكورة شبابه.

---

(23) T.T., 265, 273-4; L. W.J.m 11, 40, f.

« إن كره الشر ليس معناه الإغراق فى إحساس حاضن ضد شرور معينة، بمعنى أن يصبح الشخص هينة ويستولى عليه. كلا، وإنما هو صرف الانتباه عنه حتى تواتيك الفرصة ثم تضرب ضربتك فى الصميم وتصيب الهدف. ومشكلتى هى أن وجود الشر قادر على أن يزعجنى وينتابنى، ما زلت أتشبث بمعبود العصمة، وعندما يتجسم الشر ويقعد فىّ فعلا ليقيم إقامة دائمة، فأنا أفضل أن أنزل عن كل شيء بدلا من أن أتقاسم معه فى الوجود »[٢٤].

على أن الباعث البطولى لدى جيمس كان مرتبطا بميله إلى الوسوسة (النوروستانيا) . فالمرض يجعله يحمل على نفسه. وبعد ذلك تنتابه سوْرة انفعال تجعله ينفجر بحجة يتذرع بها للعمل. وثمة حادثة من هذا النوع سجلت فى مفكرته يدرسدن سنة ١٨٦٨، عندما كان شابا فى السادسة والعشرين:

هذه الليلة – وأنا أستمع لعزف المس هافن الساحر، وغناء الدكتور والسيدة الإيطالية، انتاب مشاعرى نوع من الأزمة. إن سرعة إدراكى بأن شيئا هنا – مطلق وتام – إلى درجة ما – بعث فى نفسى تقززا لا سبيل إلى التعبير عنه – من جمود حياتى الماضية التى كانت كالريشة فى مهب الريح لوقت طال أمده. يا إلهى . وداعا إلى غير رجعة – للإغراق الأحمق التافه العقيم فى المقدمة الذى لا يتناسب مع الموضوع. كل خبرة صالحة ينبغى أن تفسر عمليا ... احتفظ بشدة عصبك وقوتك كل الوقت – واعمل فى الحاضر باعتقاد صوفى فى حقيقة الإنسانية – وفسره كيفما تشاء ».

وكون دعوة جيمس للروح الحربية كانت تعكس حاجته لا إنجازه، فذلك ما يقربه صراحة بصدقه وإخلاصه المعهودين فى رسالة بعث بها إلى لوتوسلاوسكى فى ١٨ أغسطس سنة ١٨٩٩:

« أعلم، طبعا، كما يعلم غيرى أن الذى يمجد ويبجل شفهيًا بالكلام عملا ما فإنه يشهد على نفسه مؤقتا بأنه إنسان لا يمارس هذا العمل، وإنما طمح إليه ويتطلع إلى بلوغه وأنه يحاول أن يبعث فى نفسه الحماسة ويرفع من روحه المعنوية وشجاعته. ومن ثم، وإلى هذا الحد، فإن كل كاتب هو من نسميه « مستضعفا » . ولكن للإنسان – باعتباره انسان – بالضرورة مستضعف. والبطولة دائما على حافة هاوية. ولا تحتفظ بحياتها إلا بالجرى وكل لحظة هى هروب. وكل من هو حساس جياش ومحرك يعرف ذلك جيدا وينبغى ألا يخجل من جراء ذلك ».

---

(24) From a lose undated note, circ, 1868.

ويمكن اعتبار مقال چيمس - الذى كتبه فيما بعد فى سنة ١٩٠٧ عن « طاقات الناس »، ممثلا لوجهة نظره فى سيكولوجية البطولة. فهنالك حد لقوة الناس فى حياتهم اليومية يقفون عنده، وفيما وراء هذا الحد توجد مجالات وآماد للنشاط نادرا ما تبلغ ضروبًا من التهيج والثوران والاستفزاز تحملنا فوق السد الفاعل عادة. ثمة خيط مشترك يشيع فى كل ملاحظات چيمس عن الدين، والوسوسة (النوروستانيا)، والحرب، والزلازل والصوم والقصاص الاعتباطى بلا قانون، وحب الوطن، خيط موصول يتغلغل فى النسيج الكلى لآرائه، قوامه الاهتمام بدراسة السلوك الإنسانى تحت وطأة ضغط ثقيل والانتهاء إلى أن الظروف الاستثنائية قوة باطنية استثنائية. ولهذه الظواهر علاقة بالميتافيزيقيا، لأن مثل هذه القوة الاستثنائية توحى بالإزاحة الفجائية لعائق، وبالاستقاء من معين أكبر من الوعى. ولهذه الظواهر أيضا علاقة بالأخلاق، حيث إن هذه القوة تختلف - فى الدرجة لا فى النوع - عن القوة الأخلاقية ، تلك الروح المناضلة المغامرة، تلك الصفة البطولية التى تضفى على الحياة لون وبهاء المقدمة .

ومن الخصائص المميزة للذاتية، أنها ينبغى أن تكون قابلة للتقسيم إلى حافزين متفاجين يخلقان توترا حتى عندما لا ينفلقان ويدخلان فى عداوة علنية. فأما الحافز الأول فهو حافز لتوكيد الذات، وأما الحافز الثانى فهو حافز المشاركة الوجدانية: حافز التعبير عن شخصية المرء الذاتية وحافز تقدير ذاتية الغير.

وفى حالة چيمس كان كلا الحافزين أصيلاً خليقًا فيه وقويًا.

ومن ثم فهناك تذبذب بين أخلاق الوفاق والسلام والمنفعة الاجتماعية وبين أخلاق العدوان والاشتباك فى الحرب والفروسية.

ولقد تبع تحمسه الأدبى هذين الحافزين حينا هذا الحافز، وحينا آخر ذاك. وكان يشيد بمدح شعراء وكتابة القصة الخيالية لإحساسهم الجياش بجوانبه الطبيعية

أو لخلقهم شخصيات حية تسعى. ولقد روى عن تولستوى، وهاولز، ووردزورث، وهويتمان، واقتبس من أقوالهم جميعا - باعتبارهم شهوداً يشهدون بقيمة الحياة كما تتكشف لبصيرة حانية متحرر. وأضيفت إليهم ، فيما بعد، ثلاثة كواكب درية أخرى: و. هـ. هدسون، روبرت ليوس ستيفنسون ، هـ .ج. ويلز. ولقد تحدث عن هدسون بغيرة تكاد تبلغ حد التقديس. ففى سنة ١٩٠١، فى معرض الكتابة إلى صديقه أرسلت إليه صورة هدسون، قال: « حبذا لو كان فى وسعى فقط أن أعتقد أنه هو الذى أرسلها بنفسه. إنه ليس مجرد وغد كلاب، ولكنه كائن علوى من الملأ الأعلى، تجسدت فيه ثانية روح بوذا أو ما يشبهها. فى مرجوى أن أكون على مقربة منه فى الآخرة»[٢٥].

وإلى قصة ستيفنسون « حملة الفوانيس » يدين چيمس بفضل المجاز الذى ينطوى عليه كل مذهبه فى النورانية الباطنية للحيوات المتواضعة.

وإلى ويلز « الذى هو تولستوى مشمس عفى صحى العقل » والذى كان چيمس يستطيب مذاق أسلوبه الشفاف وغيرته الأخلاقية « وقلبه الإنسانى المثلث الأبعاد » وفلسفته الإصلاحية ومنهاجه التجريبى الإنجليزى - كان فى سنواته الأخيرة - يدين بفضل منحه تعزيزا قويا شد أزره وثبت تفاؤله المتقلقل[٢٦].

ومن جهة أخرى فقد ظل حبيباه القديمان، كارليل وأمرسون، الهاتفين المفضلين الناطقين بوحى الإنجيل المضاد، والمعلنين حق الفرد الموقوف عليه وقفا مؤيدا فى توكيد ذاته وتحقيقها، وواجبه فى تنفيذ مثله الأعلى الخاص به.

على أن أغرب ساكن حل بهيكل آلهة چيمس الأدبى، كان راديارد كبلنج، نبى الاستعمار الإمبراطورى.

---

(25) To Mrs. E.L. Godkin, September 21, 1901.

(26) T.T., 234-40; To H.G. Wells, November 28, 1908 and June 5, 1905; L. W.J., 316, 231. James visited Wells at Sandgate in Uuly 1908..

والرسالة التالية التى بعث بها چيمس لأخيه تلقى ضوءا على منشأ هذه الصلة الودية:

كمبريدج ١٥ فبراير سنة ١٨٩١

« عزيزى هارى:

تناولت عشائى يوم الأحد الماضى مع هاولز ... وطربت جدا لسماعه يقول إن كليكما صديق لراديارد كبلنج ومن أكثر الناس إعجابا به. يخجلنى أن أقول إننى كنت أخجل من الكتابة عن هيامى بهذه الظاهرة الوليدة، ولم أكن أعلم، كيف يمكن لمثلكما ولكما كل هذا الذوق البديع الفائق - أن يتأثر به، لذلك خشيت النزاع ولذت بالصمت. وبقدر ما يطربنى الآن أن أعلم ذلك بقدر ما أتعجب لماذا لم تخبرنى بذلك قبل الآن؟ إنه أقرب الناس شبها بشكسبير أكثر من أى كاتب آخر - حتى الآن - فى جيلنا هذا، فى رأيى. ثم إن رؤية الآثار الجديدة التى أحدثها أخيرا فى « الضوء الذى خبا ». وقصة سيملابول وشخصية المسز هوكسبى المنشورة فى (Illustrated London News) تجعل المرء واثقا الآن من أنه ليس إلا على أول الدرب فى بداية حياة مهنية تتسع دائرتها بسرعة، وأن أمامه فرصة لا حد لها للنمو والتطور. إن كثيرا من خشونته وغلاظته ونزعته فى القذف والرج - ليست سوى فورة شباب - شباب قدسى. ولكن يا له من شباب. إنه أكبر ظاهرة أدبية لزماننا المعاصر بلا مراء. إن له أحشاء فى غاية القوة، ولا يحتاج إلا إلى أقل وقت لكى ينفذ إلى صميم شخصياته ويضع أنامله على أوتار قلوبها ويحركها كيفما شاء ، وهو فى ذلك يفوق أى شخص آخر أعرفه. وعلى العموم فطوبى له.

كل الأعمال الفكرية متشابهة ، إن الفنان يغذى الجمهور من صميم باطنه الدامى. ما الفرق بين كتاب الفيلسوف كانت « النقد » وموسيقى الفالس لستراوس؟ لا شىء » ولقد شعرت منذ أيام وقد انتهيت من قراءة « الضوء الذى خبا » ومن كتابة محاضرة أخلاقية سألقيها فى كلمة ييل - فى نفس الوقت[٢٧]. إنه ليس هناك ثمة فرق جوهرى بين راديارد كبلنج وبينى بالقياس إلى عنصر التضحية هذا .

لقد زارنى عصر اليوم المسز هـ. من برنستون واستمرت زيارتها ساعتين ... إن زوجها ضحية من ضحايا السخريات الفظيعة البشعة لحضارتنا، وهو الآن يقضى مدة عامين بالسجن، تنفيذا

(27) "The Moral Philosopher and the Moral Life".

لعقوبة حكم بها عليه، بسبب إرسال كلام بذىء وفاحش للناس عن طريق البريد، على شكل صفحة صغيرة جدا تسمى « الصوت » ، أخذت على عاتقها - من بين كل الأسباب التى يمكن أن يتصور المرء أنها مدعاة للتظلم - الدفاع عن بعض كلمات ساكسونية معينة لا تذكر عادة فى المجتمع المهذب. وهذه الكلمات القليلة هى شهيدة وضحية الإجحاف والتعصب، ويجب على المرء أن يموت فى سبيل ردها إلى ما كانت عليه. يا لعظمة وتفاهة الإنسان (Grandeur et Néant de l'"Homme!).

هل يستطيع أى إنسان أن يتصور مثل هذه الحملة الصليبية؟ إن المسز ه. سيدة موهوبة على منوالها الخاص بها، ولكنها فعلا مجنونة تماما. ولابد أن الله جل جلاله قد ضحك وهو يراها تنشب مخالبها فى الدكتور بيابودى[28] فى أثناء سير المحاكمة. وجاءت هذه المرأة إلى هنا لكى تظفر ببعض العلماء الذين يدافعون عن زوجها ويقفون إلى جانبه. ولما كانت لا تعرف أى أسماء، فقد طرقت باب أحد البيوت كيفما اتفق سألت عن أسماء « المتحررين » فى الكلية . « هل تقصدين متحررين بمعنى متساهلين فى العطاء؟ » « كلا - متحررين فى التفكير ».

فقيل لها عليك ببيابودى و س. س. إيفريت. ثم تذهب المرأة إلى بيابودى فيقول لها: « أن زوجك - رجل شرير - شرير جدا. جزاؤه السجن » ... فقالت له المرأة إنها تكره البكاء وإنها قد غفرت له مقالته. ثم خرجت من عنده ولم تكد تغادر بابه حتى هطلت دموعها على الأرض ...

والافتقاران إلى الدعابة المتضادان فى الاثنين هما: بالنسبة لها : « الكلمات » خير على الإطلاق وبالنسبة لبيابودى شرير على الإطلاق، ما أغبانا وأحمقنا جميعا ....

« و . ج . »

فى صيف سنة ١٨٩٦، عندما صدته خبرة زيارته لمجمع شوتاكوا بعيدا عن القطب البطولى لفلسفته الأخلاقية، اتجه إلى كبلنج باعتباره ظهيراً وزميلاً له، واستحثه على أن « يكرس نفس للطبقات العاملة ». وكتب من فندق باج بمدينة يوتيكا - ولاية نيويورك فى ٢٦ أغسطس، حيث قضى ليلته فى طريقه من الأديرونداك إلى شيكاغو، معبرا عن القصة السامية فى حياة الناس المساكين المتواضعين، وصب هذا التعبير فى شريان محاضراته المشهورة بعنوان « ما الذى يجعل لحياة ما مغزى ؟» : أن القداسة مبعثرة

(28) Dr. Andrew Preston Peabody, former Plummer Pofessor of Christian Morals.

من حولنا فى كل مكان . والثقافة ضيقة العقل وحاضرة جدا لدرجة لا تتيح لها حتى أن تدرك الحقيقة. فهل فى الإمكان تجنيد رسول من طراز هاولز أو كبلنج لهذه الرسالة ؟» [٢٩].

وكان كبلنج على وشك الإبحار إلى أوربا على متن السفينة لأهن.

موريستون . ن. ى. (٢١ - أغسطس سنة ١٨٩٦)

« عزيزى چيمس:

كانت رسالة عادلة ونيرة بينة (ولكن بالله عليك لماذا اخترت فندق باج بالذات من بين كل الأماكن؟) والشىء الذى جعل لهذه الرسالة وقعا خاصا على نفسى هو: أننى انتهيت لتوى من كتابة قصة طويلة سرت فيها عمدا على منوال النهج الذى تقترحه . بمعنى أننى أخذت تفاصيل حرفة مضنية خطيرة (صيد الأسماك على الشواطئ الكبرى) واستعملت هذه التفاصيل فى نسج كل حكاية تخيلية فى بناء القصة وفى إضفاء الطابع الرومانتيكى على كل واقع يقع عليه البصر[٣٠] . لقد فكرت على نفس وتيرتك - ثم إننى أيضا قضيت أربعة أيام سويا فى شوتاكوا، منذ سبع سنوات عندما فكرت فى أمور لا سبيل إلى الجهر بها. إن نصف مشكلتك هو لعنة أمريكا الملل المطبق ، اليائس الرتيب . ويوما ما ستكون هذه اللعنة هى لعنة العالم بأسره. إن الشعوب الأخرى ما زالت تعانى من جراء الحصول على ثلاث وجبات فى اليوم، ولقد حصلت أمريكا على الوجبات الثلاث، وهى الآن لا تعرف ماذا تريد، وبدأت تدرك بغشاوة وعلى نحو مبهم أن المواعظ والمحاضرات التوسعية، وأرضيات البيوت من مصقول الخشب والغاز الطبيعى، وعربات الترام ، لا تملأ جريدة المطلوبات . وعندى أن « حضارة » شوتاكوا على نفس الصعيد بالضبط مثل قرع الطبول الرتيب بطقوسه المضنية. والرقص والكش والطلع المقدسة بكل ما فيها من كهنوت ورهبوت التى أصطنعها الزونى Zuni (وغيره من الشعوب البدائية الأخرى) لكى يحض روحه الضجرة المتململة ضد عزلة ووحشة بيئته. (لست عالما نفسيا، وأنت فارس حلبة علم النفس، وقطعا ستدرك ما أعنى). اهبط إلى حيث يعيش قومك من رجال الحرف، ولن يعوزك الدليل على وجود الحادثة والواقعة واللون فى حياتهم

(29) T.T., 277.

(30) Captains Gouragenus, which appeared in McClure's Magaine in November and December 1896,

– وصيغة الحديث الشجية الإيقاع المؤثرة التى يلجأ إليها دائما فى أوقات الشدة والضغط أو الحدة والولع. أما نحن البورجوازيين، فتصبح بكما، مدغمين – غير واضحى اللفظ أو – إذا نطقنا – فإنما ننطق كلاما سخيفا أخرق فى غير محله. إنه موضوع شاسع وفاتن ، وسترى فيما بعد كيف أنتوى الإفادة منه. لقد أطرف عويلك « وتجشؤك » روحى .

المخلص دائما

رادیارد كبلنج »

وصفوة القول – فى التحليل النهائى – أن چيمس كان يؤثر إنسانية السلام على بطولة الحرب القاسية. إن قبضة اليد على السيف تتراخى بالتأمل فى أن قضية الطرف الآخر قضية حقيقية وحارة لديه مثلما تكون قضيتى بالنسبة لى سواء بسواء، ولها نفس التسويغ الباطنى الذى عندى سواء بسواء. فإذا أعطى لمبدأ المشاركة الوجدانية الأسبقية على مبدأ توكيد الذات، فلا يزال من الممكن مع ذلك الاحتفاظ بالصفات البطولية والجهادية. على أن مبدأ المشاركة الوجدانية هو نفسه قضية تستدعى شجاعة أدبية بل شجاعة جسمية أيضا.

هناك عدوان ينبغى أن تشن عليهما الحرب بلا هوادة . الأول : الطبيعية المادية : « على اعتبار أن المثل الأعلى لميدان الأخلاق هو تحالف المصالح البشرية ضد البيئة المادية، وما يلحق بذلك من لجوء إلى التعقل والتفكير فى كل شىء – يبدو لى أنه أحق والبداهة المنطقية والذوق السليم التى لا غالب لها »[٣١].

والعدو الثانى الذى يظل قائما عندما تتربع الإنسانية على العرش هو عدم الإنسانية – الفظاظة – غلظ القلب – أيما شىء يضعف أو يقاوم أو يعارض الإرادة الخلقية .

---

(31) W.J. to the author, Julu 17, 1909.

وقضية الحياة الرئيسية هى الحرب بين الخير والشر. وهذه الحرب فضائل الجهاد مثل الشجاعة والتحمل والصبر والأمانة والإخلاص والطاعة والولاء. وعلى الرغم من أن الحرب - فى معناها الحرفى - تهيئ بنوع خاص ظروفا مواتية لشحذ هذه الفضائل، وخصوصا فى شدتها وحدتها البطولية، g;k تلك الفضائل تظهر فى كل الحياة عندما تستدعى هذه الحياة تحمل المشاق أو التغلب على المقاومة. على أن من الجلى أن چيمس لم يكن يعتقد أن السلام فى حد ذاته هو « العرض الأخلاقى عن الحرب » . وعندما ألف المقال الذى يحمل هذا العنوان، فقد ذلك بسبب اعتقاده أن الصفات الجهادية الباهرة متوقعة على الحرب، لدرجة أنه لا يمكن الاحتفاظ بها إلا بإثارتها العامدة وتنبيهها المقصود. ولقد نشرت رابطة الوفاق الدولى هذا المقال فى سنة ١٩١٠ ولقى نجاحا عظيما ورواجا، ووزع منه أكثر من ٣٠,٠٠٠ نسخة، وأعيد طبعه مرتين فى المجلات الشهيرة. وهطلت على الكاتب رسالات التأييد والاستحسان من جميع الأنحاء - ليس فقط من أنصار السلام المؤيدين لدعوته، ولكن أيضا من عدد كبير من غيرهم، ومن بينهم ضباط الجيش الذين راق لهم اعتراف چيمس الصريح المخلص بالدواعى النفسية والأخلاقية للحرب. ولم يثر چيمس ضجة حول تعطش الإنسان الطبيعى للدماء، وأبدى تفهما وعطفا على أولئك الذين يسوِّغون الحرب على أساس أنها الحافظ العظيم الذى يصون المثل العليا للبسالة والإقدام والجرأة:

إنهم يحاجون « بأن فظائعها ... »

« ثمن بخس ندفعه لقاء الخلاص من البديل الوحيد المفروض من عالم الكتاب الديوانيين والملقنين، من عالم التعليم المختلط الجنسين وعشق الحيوان ، من « أحلاف المستهلك » و « الصدقات المتحدة » ، من السياسة الصناعية بلا حدود ولا قيود، من مبدأ مساواة المرأة بالرجل مساواة مطلقة بلا استحياء . لا ازدراء ولا قساوة ولا بأس بعد ذلك. تبا وسحقا لمثل هذه الحظيرة للأنعام فوق هذا الكوكب. وإلى الحد الذى يذهب إليه الجوهر الأساسى لهذا الشعور ... فلا يملك شخص ذو عقل سليم إلا أن يشترك فيه إلى درجة ما ».

ولكن هدف المقال كان دعم قضية السلام وتأييدها باقتراح وسيلة لتسامى هذه الروح الحربية :

« ينبغى أن نجعل الطاقات والبسالات الجيدة تستبقى الرجولة والنخوة والشهامة التى يتشبث بها العقل العسكرى بكل هذا الإخلاص والغيرة. إن الفضائل الجهادية ينبغى أن تكون الإسمنت الساند المستديم، ويجب أن تظل البسالة، واحتقار النعومة والميوعة، وإخضاع المصلحة الشخصية، وطاعة الأمر، هى الصخرة المنيعة التى تبنى عليها الدول ».

وبتجنيد كل الشباب لكى يؤلفوا - لعدد معين من السنين - جزءًا من الجيش المتطوع للحرب ضد « الطبيعة » ، اعتقد جيمس أن ذلك كفيل بنسج المثل العليا العسكرية للبسالة والنظام فى نسيج الناس، وفى خيوط قوتهم ونشاطهم النامى، ولكن دون القساوة والغلاظة والصرامة والعنف والانحطاط التى تصاحب الحرب(٣٢).

(32) M.s., 276, 287-8. 290-2.

(٢٦)

عواطف اجتماعية وسياسية

على الرغم من أن هناك مبدأين بارزين بينين بشكل واضح جدا فى فلسفة چيمس الأخلاقية: مبدأ توكيد الذات الحربى. ومبدأ الإنسانية، فإن المبدأ الثانى كما رأينا هو أكثرهما رسوخا وجوهرية، نظريا وعمليا على السواء، على أن عاطفة چيمس الإنسانية انبثقت من منابع عديدة . فأولا كانت عنده حساسية المعاناة والتألم حيال آلام الآخرين. وكانت هناك لحظات - اتخذت فيها هذه الحساسية عند چيمس مثلما بلغت عند أبيه - مظهر السوداء والوبالة. ودراسة علاقاته بأخته آليس خلال مرضها الذى لازمها طوال حياها وموتها البطىء المتوانى، تمدنا بسجل كاشف جدا لهذه الخصيصة.

بيد أن ما كان من الممكن أن يصبح بسهولة عيبا ونقصا وخللا فيه، أصبح فى نهاية الأمر - بسبب التأثير التعويضى والتخفيفى لسجاياه الأخرى - مصدر قوة. وبدلا من أن تفضى رقته المفرطة فى الاستجابة الوجدانية إلى اتقاء الحياة والتملص منها، امتزجت بالعناصر الأخرى فى سجاياه مؤلفة صداقات ودية وولاء إيجابيا ناشطا للإنسانية بل ميتافيزيقيا تعددية.

على أن وجود رحمة غير معقولة فى چيمس، فرضت على كلا أفكاره وأعماله أن تلائم نفسها لها، يتجلى فى عجزه التام عن أن يطرح من عقله أية حالة من حالات الكرب إذا ما استرعت انتباهه. فهو لا يتركها إلا ليخضع ثانية لحافز لا سبيل إلى

مقاومته. وهذه الرحمة التى تذهله عما عداها أفضت بچيمس إلى شفا الموافقة على أن « الشفقة رذيلة ينبغى أن تستأصل هى وموضوعها ». ثم قال « وأعتقد أن هذا كذب ولكنى أقر بأن حفر مصارف الشفقة مشكلة هندسية صعبة »[١].

والوجه الآخر للشفقة هو كره القسوة التى كانت من أبغض الأمور لدى چيمس عندما تقترن بمهنة ذات غرض سام. حتى الواجب يخسر دعواه عندما يحجر القلوب. ومن ثم ينضح مزاج حكمه على « محاكم التحقيق » التى يشير فيها إلى « الإحساس العجيب الشبيه بإحساس الفأر فى المصيدة » الذى توحى به إلى الضحية « وجمعها بين السلطة وضعف العقل وبين قوى الحياة والموت مع جهاز عقلى يكاد يبلغ مبلغ الجنون بسفالته وجبنه وخسته وانعدام شهامته، عقل لا يزيد على رأس دبوس يوجه إرادة تخبط خبط عشواء لمجرد شهوة القسوة »[٢].

ونتيجة الشفقة هى أنها دفعت چيمس إلى أن يقف - على الدوام - إلى جانب المغلوبين على أمرهم والمعذبين فى الأرض تحت نير الظلم إلى جانب البوير والأيرلنديين ضد إنجلترا، وإلى جانب الفلبيين ضد الولايات المتحدة الأمريكية، وإلى جانب الدين والبحوث النفسانية ضد صلف العلم، وإلى جانب الجنود أو الأهالى ضد الضباط، إلى جانب الكل ضد الأرستقراطية، إلى جانب المغمورين ضد أصحاب السيادة والاحترام، إلى جانب الشك والارتياب ضد العقيدية المطلقة، إلى جانب الشباب ضد الشيخوخة، أو إلى جانب الجديد ضد القديم.

وثمة مصدر آخر - مستقل تماما - لعاطفة چيمس الإنسانية الرحيمة هو لطف عشرته ومؤانسته الاجتماعية. كان شخصا اجتماعيا من أعلى طراز، ليس بمعنى أنه مشرب بالتقاليد أو واقع تحت سيطرة الجماعة، ولكن بمعنى تذوقه العجيب واستطابته

(1) To Mrs. Glendower Evans, April, April 13, 1900.

(2) Notes for the Lowell Lectures of 1896-7..

وموهبته الفذة فى المعاملة الإنسانية. كان كريما رحيمًا خيرا بشكل ثابت متماسك. كان يتسامح مع الناس، ليس من ناحية المبدأ فحسب، ولكن عمليا، ثم إنه لم يكن يتسامح معهم فحسب، ولكنه كان ينعم بوجود الناس بلحمهم ودمهم. وعندما كان يصفو مزاجه كان سخيا وصريحا ومتفتحا ومتسعا فى علاقاته بغيره، ولكن هذا المزاج - مثله مثل كل أحوال چيمس وأمزجته -كان معرضا للتقلبات من حين لآخر. كان يكره المناسبات الرسمية أو المناسبات العامة المزدحمة عندما يطيب تشجيع العلاقات الإنسانية السارة وفى نفس الوقت يستحيل ممارستها. ولما كان من أكثر الناس إدراكا لما يعتمل فى نفس شخص ذى حساسية اجتماعية من إحساس بالوحشة والكآبة فى وسط عديم الحساسية الاجتماعية، فقد كان كثيرا ما يجامل ضيوفه بموجب هذا الإحساس، وسيظل دائما عالقا بالأذهان أن چيمس ذات مرة عجل بخروج أحد طلابه - دون أن يأخذ قبعته - من الباب الخلفى، كان چيمس قد تصور خطأ أنه يتوق إلى الهروب من كزازة الحفاوة وإكرام الوفادة.

وثمة حادثة أخرى من هذا النوع حفظتها لنا سجلات حياته:

« فى أثناء دراساتى عليه، دعانى چيمس لحفلة شاى بعد الظهر فى منزله. وكنت شابا خجولا وتهيبت الذهاب. ولكنى رأيت لزاما علىَّ أن أذهب. فلما دخلت الدار بدا لى المكان مزدحما بالناس وشعرت بحرج وعدم ارتياح بكل تأكيد. وقابلت چيمس فى صالة المدخل، وكان هناك شىء فيه يوحى بالثقة التامة، ويبعث فى النفس الطمأنينة ووجدت نفسى أبوح له بمن يخالجنى من شعور، فقال: « نعم، أنا أدرك ذلك، وعندما أرى هؤلاء الناس الذين يعرفون بالضبط ماذا يقولون وماذا يفعلون بالنسبة لأى أمر من هذه الأمور، فإنى أشعر برغبة قوية فى أن أحطم رءوسهم بصخرة من صخور رصف الشارع». ولقد شعرت بفرح كبير وانشرح صدرى بسبب فهمه الحانى العطوف وطريقته القوية المعهودة فيه فى التعبير عما يخالجه ويخالجنى من إحساس»[٣].

على أن هناك ناحية أخرى من إنسانية چيمس يصعب وصفها وتحديدها أكثر من النواحى الأخرى. فإذا وصفت بلفظ « الخلط » لكان الوصف أقوى جدا مما يجب، فى

(3) From a letter to the author by George D. Burrage, Harvard' 83.

حين أنها إذا وصفت سلبيا على اعتبار أنها غياب المناكفة فيه، لكان الوصف أضعف جدا مما يفى بالغرض.

ومن بعض صفحات معينة من كتاب « مذكرات ولد وأخ » نستدل على أن هنرى چيمس كان يشعر بأن أخاه وليام چيمس يفتقر إلى الذوق فى اختيار خلطائه. والحقيقة هى أن وليام كان عنده تحرر الفاحص الطبى من التعصب أو التحيز. فالإنسان المتألم هو إنسان متألم، أيا كان وأنى كان .

وكان لديه رفاقه المختارون، ولم يكن هناك من هو أسرع منه إدراكا للفرق بين الخفيف الظل والثقيل الظل . ولكنه كان يتجاوز إلى ما وراء وإلى ما فوق هذا الانطباع، ولم يكن من النوع الذى لا يتضايق من المتطفلين، ولكن كدره كان ينفثئ بمجرد أن يجد « تحت القبة شيخا ». ولقد كان جزءا من عبقريته أنه يجد شيئا فى داخل غيره لم يكن فى وسع الآخرين تبينه، وكان جزءا من فلسفته أنه يؤمن بأن هناك دائما شيئا فى داخل كل إنسان ، يجده من ينفذ إليه ببصيرة حانية. على أن تعميم رقة قلب چيمس إلى عاطفة إنسانية رحيمة وعقيدة خيرية. كان راجعا إلى حد ليس بالهين، إلى انعدام التأفف والقرف عنده. كان خلقه قادرا - على نحو ما - على الجمع بين ذوق انتقائى مدقق الأصدقاء الحميميين ويؤثر الصحاب، وبين عاطفة وجدانية مشاركة شاملة محيطة تضم عابر السبيل كما تضم أقرب المقربين. عاطفة كانت تمد عقيدته الإنسانية الخيرية بالإخلاص والصدق وسلامة النية.

وكل صفات چيمس الخيرية تتجلى فى صداقاته. كانت الوحشة والغربة والرسميات والشكليات سرعان ما تذوب فى حضرته. والمعرفة تنضج وتثمر إلى ود والود إلى حب مقيم.

وتتجلى موهبته للصداقة فى علاقات شبابه مع وارد وهولمز. وفى علاقاته فيما بعد مع هودجسون وروبرتسون ورينوفيير ودافيدسون وحورنى وستامف. وإنا لنجد الحرارة التى أثمرت بذرة الصداقة وأخصبتها وعجلت بنمو شجرتها النامية. فى رسالتيه إلى

المسز فرانسيس تشايلد وتشارلز إليوت نورتون. فأما أولاهما فقد كتبها ردا على رسالة تهنئة بمناسبة تعيينه فى منصب أستاذية الفلسفة. وكانت المسز جيمس فى ذلك الوقت مريضة بالحمى القرمزية.

(كمبريدج) ٢٧ مارس سنة ١٨٨٥

« عزيزتى المسز تشايلد::

إن رسالتك هى أحسن ما ظفرت به بمناسبة ترقيتى، تساوى أكثر من كل ما تضفيه علىّ هذه الترقية من شرف أو سلطة أو دخل. لقد أضاءت رسالتك بيننا بضياء الوداد والتعاطف. لقد فرغت لتوى من قراءة رسالتك على آليس من خلال الباب الذى حشيت شقوقه بالقطن، وكل ما سمعته منها هو نوع من القرقرة والهديل فى صوت « تخنقه عبرات» السعادة. إنها تشعر - كما أشعر - أن كلمة واحدة من المشاركة الوجدانية الصادقة تساوى كل فلسفات وأستاذيات الدنيا بأسرها. مع صادق حبى وإعزازى لأسرتك المباركة، اقبلى أخلص الود والمحبة من ...

و. م. جيمس

حاشية:

كما يقول شوبنهاور الخالد: فى وسع أى إنسان أن يراسى غيره فى أحزانه، أما مشاركة الغير فى سعادته فذلك وقف على الملائكة»[٤].

وبعد اثنى عشر عاما من هذا التاريخ، قدم جيمس لنفس الصديقة كتابه « إرادة الاعتقاد » وكتب لها إهداء بخط يده، « إلى المسز تشايلد، من محبها و.ج، ثم ذيل الإهداء بعبارة « ليس هذا الكتاب للقراءة - وإنما لمجرد الاقتناء فحسب، والابتسام من حين لآخر لحب المؤلف ».

ولقد استمرت الصداقة القديمة بين أسرتى جيمس ونورتون طوال حياة جيمس - فى صلته الوثيقة مع جريس نورتون وتشارلز إليوت نورتون.

(كمبريدج) ١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٧

---

(4) "Anyone can sympathize with another's sorrow, but to sympathize withe anothes joy is the attribute of an angel".

« عزيزتى تشارلز:

لا يمكننى أن أترك يوم عيد ميلادك الثمانين يمر دون أن أكافئك بدمعة رخيمة عذبة، ولعلك الآن تتلقى اليوم سيبلا لا عدد له من التهانى والتمنيات بالسعادة يهطل عليك مدرارا، ولكن لا يمكن لأى منها أن تفوق فى الإخلاص والقلبية – تهنئة آليس أو تهنئتى أو تهنئة أولادنا أيضا لأنهم « رضعوا من نفس النبع » ، ولقد كنت بالنسبة لعقولهم وإخلادهم وأفئدتهم عبقرية الجيرة الحارسة التى تكلؤهم برعايتها – كنت لهم بمثابة العم الرفيق الحميد الوهاب الذى يتحفهم دائما بكلمة طيبة أو هدية لطيفة تسرهم وتبرهم وذكراك ما زالت خالدة فى أفئدتهم باعتبارها إحدى القوى الودودة الصديقة الحانية التى تعرش على عالم الطفو. إنه لمثال عظيم أن يعيش الإنسان ثمانين عاما مجسمة، كل عام منها لاهث خافق يلتهم أحدها « واطئا طبقاتها بخطو الدهور » ومختزنا فى أعطافه كل تلك الخبرة حتى فى حالة ما تكون الخبرة عاطلة هامدة، فالمنال عظيم، فما بالك إذا كانت الخبرة ناشطة حية كخبرتك تلعب دورا حيويا فى كل محاولة وفى كل مشروع يعرض فى حياتها، وما بالك عندما يكون صاحب تلك الخبرة، رجلا مثلك مد يده بالعون والتأييد والسماح لمثل هذا الجم الغفير من الناس، الذين كانوا يكافحون فحولت عسرهم يسرا ؟ إن الناظر إلى ماضى هذه الحياة لا يسعه إلا أن يشعر بالرضا والسعادة وبركة العمر. إنك واحد من أولئك الذين جعلوا من حياتهم توفيقا ونجاحا فى أسمى معانى النجاح والتوفيق . أما الأمانى بأن يطول عمرك سعيدا مديدا موفقا للسعادة والبركة والطمأنينة والسكينة، فهذا هو الدعاء الذى يبتهل به صديقاك المحبان:

« وليام وآيس جيمس »

أما ما كانت تعنيه صداقة جيمس بالنسبة للآخرين، فيتجلى فى رسالة بعث بها إليه أحد أصدقاء شبابه، تشارلز ريتر، شاكرا وذاكرا لتسلمه آخر كتاب ألفه :

جنيف ١٥ يونيه سنة ١٩٠٢ (٥)

« وصلنى سفرك الجليل «الأنواع المختلفة للخبرة الدينية يوم الإثنين الماضى ٩ يونيه وملأنى سرورا وسعادة، باعتباره رمز للحياة من صديق قديم، ودليلاً على قدرتك على إنجاز مشروع كنت مهتما به للغاية. وأخيرا من أجله ذاته ... والآن يا صاحبى العزيز تلوح مروءتك نحو صديق مريض قديم قعيد دار شارع سانت ليجبر بأن ترسل إليه صورة شخصك العزيز وصورة مدام وليام جيمس وصور أطفالك العزاز . فإذا تفضلت أنت (أو المدام) بأن تضيف كلمة صغيرة عن حياتك الراهنة

---

(5) Translated by the author.

فقد أوفيت المئة. أمنح صداقة قديمة، بعد اثنين وأربعين عامًا، صيف سان مارتن، وشمس أواخر خريف رائع . وطوال هذا الأسبوع وأنا أقلب صفحات سفرك الجميل، كنت أتوقف لأتذكر مراحل تلك الصداقة :

أولا: أيام سنة ١٨٦٠ الجميلة « عندما كان يبرق جبينك ببهاء، الضياء . أيام ما أسرع ما مرت . أيام ما أقصرها وأسفاه. وبصفة خاصة أيام عيد الربيع فى مودون، عندما كنت تسخر من حماستى الفتية لرينان، وعندما كنت تستشهد بعبارته « بالنسبة لى أعتقد أنه لا يوجد فى العالم كله ذكاء يفوق ذكاء هذا الرجل » يقينا ليست صيغة بالغة الأرثوذكسية.

وبعد ذلك زيارتك لجنيف سنة ١٨٦٨، وتقابلنا فى غرفة نوم أحد الفنادق. ثم اجتماع الشمل اللذيذ فى محطة برن مايو سنة ١٨٩٢ من عشر سنوات.

ثم ذلك اليوم الحلو فى ميجين على شاطئ بحيرة لوسيرن فى مايو سنة ١٨٩٣.

وأخيرا الأوقات الطيبة فى أبريل سنة ١٩٠٠ . ولقاؤنا القصير فى الخريف.

وتمضى الأيام يا صاحبى . وبعد خمسة عشر يوما أبلغ العام الرابع والستين من عمرى، فلقد ولدت فى اليوم التاسع والعشرين من يونيه سنة ١٨٣٨ . وليس عندى الكثير الذى أشكو منه، بل على العكس، ينبغى أن أعتبر محظوظا فى هذه المغامرة مع القدر. تلك المغامرة المحفوفة بالصعاب والمعرضة للمصادفة.

وعلى أية حال فإن من أسعد المصادفات التى كانت من نصيبى فى حياتى، كانت مصادفة لقائى فى عامى الثانى والعشرين من حياتى الصديق الفاتن الذى يسبى العقول، والذى قدر له أن يصبح رجلاً مشهورا ذائع الصيت، والذى يطيب لى أن أشد على يده بكل برقة وبأعمق ما فى فؤادى من ود وحب وولاء .

« تشارلز ريتر »

وآخر هذه البيانات التى تومئ إلى الصداقة . تأتى من تشارلز بيرس. وهى رسالة كتبها بعد موت چيمس بوقت قصير إلى ابنه هنرى وليم چيمس:

ميلفورد ٢١ سبتمبر سنة ١٩١٠

« عزيزى المستر چيمس:

كان أبوك آخر البقية الباقية من أولئك الرجال القلائل الذين قطعوا نياط قلبى. ولم يسبق لإنسان آخر أن انفطر قلبى حزنا عليه، مثلما انفطر عليه، حتى ولا والده چيمس الكبير. ما كانت نفسى تطيق البعد عنه أياما قليلة دون أن تهفو للقائه. وعندما كنت أسكن فى شارع بريسكوت وأطل من النافذة وأراه – أخيرا – يمر من الشارع، فما كانت أشد لهفتى على أن يزورنى. إن تغلغله فى قلوب الناس ونفاذه إلى فؤادهم – بلغا ذروة الإعجاز. ولم يكن واحدا من أولئك الناس الذين يرون فى القلوب شرورها وآثامها أساسا. واعلم أن رسالتى لابد أن تبدو فى عينك أنانية جدا، ولكن عذرى أن أباك كان زميلا يحب ويحب بكيفية شائقة رائعة، بحيث إنه لا جدوى من أن أقول لنفسى ما أكثر ما لابد أن يقاسيه أولئك الذين كانوا يرونه كل يوم . ومع ذلك فليس فى وسعى أن أخفف من لوعة حزنى عليه. لا ريب أن لافونتين كان يعنيه عندما كتب:

Qu'un ami véritable est une douce chose.

Il cherche vos besoins au fond de votre coeur;

Il vous épargne la pudeur.

De les lui decouvrir vous-mëme.

ما أعذب وأحلى أن يكون لك صديق حميم

إنه ينفذ إلى صميمك مفتشا عن حاجتك ويلبيها

فيعفيك من الاستحياء من الإفصاح عنها بنفسك.

ثمة نقد يمكن أن يوجه إلى كتبه الثلاثة الأخيرة، ولكن كل الرءوس السليمة والقلوب السليمة ستمجد وتحب إلى الأبد . الرجل .

« ت. س. ب. »

بيد أن نعومة وطراوة وليونة قلب چيمس لم تنتشر لتبلغ رأسه، لقد اقتضت منه

أعمالا من المروءة والشهامة والنخوة كانت كثيرا ما تكلفه عنتا وتعبا ومشاكل وترهقه من أمره عسرا. ولكنه كان لا يزيد على سواه من الناس فى تعرضه للخطأ فى أحكامه الشخصية. والفرق بينه وبين غيره هو؛ أنه حين كان يرى ضعف الناس مثلما يرى قوتهم، فإنه كان يعجب بما فيهم من مزايا بدلا من أن يحتقرهم لما فيهم من نقائص وعيوب. ومما يعزى إليه أن عاطفة الرحمة كانت تعمى عينى، وخصوصا رحمته بالأشخاص القلّب غير المأمونين. والحقيقة هى أن الخبرة الطويلة زودته بمعرفة بصيرة ذكية بالنوع الإنسانى. وعندما كان يشفق على شخص « ملتو » قد كان على وعى تام بأنه يمنح عطفه ورحمته لشخص ملتو. ولكن حتى فى الأشخاص الملتوين من طراز أسفل سافلين، فقد كان يجد شيئا يمس قلبه. وفى هذا الصدد كتب الرسالة التالية إلى هنرى هولت:

(كمبريدج) ١٩ يونيه سنة ١٨٩٦

« عزيزتى هولت:

ملتو مسكين - يهودى روسى - من شيعة سبينوزا استدر شفقتى برغبته فى أن أساعده على نشر مؤلفه العظيم (الذى لا يزيد على ثلاثمائة صفحة اختصرت من أصلها البالغ ١٤٠٠ صفحة). وهو يموت حزنا - بالمعنى الحرفى - بسبب عجزه عن نشرها. والموضوع كان من الممكن أن يثير بعض الاهتمام فى سنة ١٦٥٠، ولكنه - طبعا - ميئوس منه الآن. ومع ذلك فباعتباره زميلاً له فى الالتواء والاحتيال، فقد اندفعت بباعث العطف الإنسانى إلى الإسهام بمعونة الأصدقاء بمبلغ خمسين جنيها لطبعها، وكتبت له أننى ساكتب إلى ناشر من معارفى أستشيره فى الأمر، وكنت أقصدك أنت. كم ينبغى أن يطلب ناشر ضمانًا فى مثل هذه الحالة، لنشر كتاب من ٣٠٠ صفحة وطبع ٥٠٠ نسخة من ورق ورخيص، وطبعا دون تصحيف (فى الطباعة)؟ هل لك رغبة فى أن تسمح لهذا الكتاب بأن يحمل اسمك؟ إن الفتى المسكين صاحب أسلوب عظيم على طريقته .

صديقك المخلص دائما

وليام جيمس.

وكان لعادة توجيه اعتباره للجانب المعجب من أى رجل، أثر عميق على علاقات چيمس المهنية. لقد أخصبت أشعة وده التربة التى أضاءتها بنورها - والتى كثيرا ما تكون تربة - ظلت حتى ذلك الوقت - جرداء قاحلة متوارية لا يحفل بها أحد ولا ينتظر منها أحد ثمرا أو خصوبة، لأنها مطمورة فى روح إنسان مغمور خجول. كان الطلاب والزملاء يحاولون أن يرتفعوا إلى مستوى الخير والصلاح الذى كان چيمس يتوقعه منهم. كانوا يحاولون أن يكونوا عند حسن ظنه.

كتب مرة إلى مونستربرج: « أقرأ الآن كتاب أوستوالد « محاضرات عن الفلسفة الطبيعية: Vorlesungen über Naturphilosophie » وإنى لأجده كتابا أنيقا لذيذا إلى أقصى درجة. ولست أعتقد أنه سبق لى أن غبطت عقل أى رجل مثلما غبطت عقل أوستوالد - باستثناء عقل ماش »[٦]. وهذا التحفظ الذى يؤثر ماش على من عداه يكشف عن دخيلة نفس چيمس تماما. كان يغبط كل إنسان تقريبا على عقله، لأنه كان يرى فى كل عقل صفة طيبة معينة ليست عنده، وكان يقر بقيمتها بالتعبير عن رغبته فى أن يحوز تلك الصفة.

كان چيمس يؤمن بحكمة أن الناس يبلغون أوج ازدهارهم فى ضوء شمس الاستصواب والاستحسان، وكان يمارس هذه الحكمة عمليا. وعندما هنأه صديق له تهنئة حارة على أحد كتبه أجاب چيمس:

« تصور مبلغ غبطتى لدى تسليمى بطاقتك هذا الصباح، إنها أول مدح حقيقى قدر لى أن أظفر به لقاء هذا العمل . ومن مثلك . إن ما قاله صديقى هوويسون صحيح، إذ إنه قال:

« إن أكثر ما يشتهيه فيلسوفك الأصيل هو المديح والإطراء، المنزلة، المديح الأحرش بلا صقل ».

(6) July 23, 1902..

(7) To Theodore Flournoy, June 2, 1902, the book was: The Varieties of Religious Experience..

هاريس ... يسميه الاعتراف بالفيلسوف، ولكن المديح فى الحقيقة هو ما نطلبه جميعا ونسعى إليه ونعمل من أجله. ومنذ تسلمت مديحك وأنا أشعر أن كتابى يقينا قد أفلح[٧].

وكان أثر حضور چيمس بين أى جماعة، هو أنه عادة ما يرفع درجة الحرارة العامة للترحاب والإنعاش. كان الناس يتبادلون العبارات اللطيفة، وحيث إن الناس كانوا بدورهم آخذين متلقين للسلام والوئام، لقد كانوا غريزيا يبحثون عن كسب السلام والوئام، الأمر الذى يوضح حكمة چيمس الفلسفية المأثورة القائلة بأنك إذا أردت أن تعتقد الخير فى الناس، وشئت أن تحسن الظن بهم، ففى وسعك أن تخلق الخير الذى تعتقد به.

وفى هذا الصدد قال چيمس فى سنة ١٩٠٠: « إن الفائدة العظمى لحياة ما هى أن تنفق فى سبيل شىء يخلد بعدها »[٨]. وهذا الحافز لما هو أدوم وأخلد وأبقى، كان عندئذ مثلما كان دائما فى سابق الأيام هو سعادة البشرية. بيد أن چيمس لم يكن يوتوبيا (خيالى التفاؤل بكمال البشر). لقد قال « أومن بكل ورع وقنوت بسيادة حكم السلام، وبالمقدم التدريجى لنوع ما من التوازن الاشتراكى »[٩]. كتب هذه العبارة فى سنة ١٩١٠، كتبها قبل أن يقول الآتى باثنى عشر عاما.

« على المجتمع أن يمضى. قطعا نحو توازن جديد وأفضل، وتوزيع الثروة لابد أن يتغير ببطء دون شك، ومثل هذه التغييرات حدثت دائما وستحدث إلى آخر الزمان، ولكن، بعد كل الذى قلته، إذا توقع أى منكم أنه سيحدث أى فرق حقيقى حيوى على نطاق واسع فى حياة خلفنا، فإنكم بذلك يفوتكم مغزى محاضرتى كلها. إن المعنى المجسم للحياة هو دائما نفس الشىء الخالد، ألا وهو الزواج بين مثل أعلى غير اعتيادى، مهما كان خاصا، وبين إخلاص وأمانة وشجاعة وصبر، وبين

(8) To W. Lutoslawski, Novenber 13, 1900.

(9) M.S., 286.

ألام رجل أو امرأة - وأيا ما كانت الحياة وأينما كانت، فستكون هناك دائما الفرصة لكى يتم هذا الزواج»[١٠].

وبين هذين التاريخين - حدث فيما أعتقد. تغير فى مركز الثقل. مرده جزئيا إلى الاشتراكية الفابية لهربارت جورج ويلز[١١]. ولكن هذا التغير لم يبلغ من التطرف حدا يكفى لإزالة اللبس الأساسى الذى لفتنا إليه النظر آنفا. هل تلتمس الحياة الطيبة فى تلك الحالة من الأمور التى تبدأ بعد القمع الظافر للشر، أم هى تلتمس فى القمع ذاته؟

فمن جهة، كان چيمس يمقت الشر ويمقت التجاوز عن الشر. ومن جهة أخرى كان يشعر أن الصفة الفادية المستنقذة للحياة هى تلك البطولة التى لا يمكن أن توجد إلا إذا كان هناك شر ماثل يقاوم ويقهر ويقمع. ومن ثم فإن الاعتراف بأن الشر ظرف لا غنى عنه لحدوث الخير، معناه التجاوز عنه، ومعناه الانزلاق إلى « الذاتية الذهنية » التى كان چيمس قد فهم مفاتنها الفلسفية المخاتلة فهما جيدا، والتى درأها بعنف شديد فى الثمانينيات المبكرة.

ثمة طريقة، طريقة چيمسية . يمكن بها تلافى هذا التناقض الظاهر، فالمطلوب لجعل الحياة ذات معزى هو معركة فعلية »[١٢]. مغامرات ومخاطرات واقعية وعوائق حقيقية. فإذا اعتقد امرؤ أن المخاطرات والعوائق موضوعة هناك فقط من أجل تأثيرها الأخلاقى، فإن روح المغامرة لديه تتقوض. إن أعظم عالم ممكن - من وجهة نظر أخلاقية - هو، إذن ، عالم لا يدبر عمدا لهذا القصد، عالم تكون فيه ظروف الحياة

(10) T.T., 298-9.

(11) Especially this author's First and Last Things, which James read with high approval.

(12) W. B., 169 ff.

ذات المغزى عفوية وليست قصدية. وحيث إن هذه الظروف - فى الواقع من الأمر - تحدث فعلا، وتحدث بالمثل فى كل عصر وعمر، فليس ثمة تقدم بالنسبة للمكنات البطولية للحياة. ولكن الحياة البطولية قد تكون حياة كلها شفقة ورحمة وإنسانية ، وهنا يجب على المرء أن يبحث عن التقدم - فى جعل الصفة البطولية للحياة الفردية لشخص ما لا تكلف الآخرين ثمنا باهظا. « كلنا على استعداد لأن نكون متوحشين فى بعض القضايا. والفرق بين رجل خير ورجل شرير هو اختيار القضية»[١٢].

والمنشأ الجذرى لسياسة چيمس العملية. لا يلتمس فى أخلاقياته وفلسفته، وإنما فى حقيقة أنه كان ينتمى إلى الطبقة المثقفة، وأنه بموجب هذا ارتضى لنفسه دورا خاصا ومسئولية معينة بالذات. كان مستقلا فى السياسة الأمريكية، مناهضا للاستعمار مصلحا للجهاز الحكومى، مسالما يكره الحرب، ومن المدافعين عن دريفوس[*]، دوليا وليبراليا أى سيماء تؤلف هذه الملامح؟

إنه - بكل وضوح - نصير التخفيف والمعرفة باعتبارهما مضادين للعنف والهوى الجامح. وما تضمنت ديموقراطيته ولا إنجيل سلوكه وعمله رفعا للفروق. وما كان يؤمن بأن الناس سواسية كأسنان المشط، ولا فرق بين رجل ورجل. وما كان يؤمن بأن قضايا الحياة على حد سويفى قيمتها. وكانت سياسته يحكمها مبدأ التمييز. فالرجل المتربى هو الرجل الذى يعرف كيف ينقد، وأخذ على عاتقه فى السياسة أن يقوم بدور المقاصة والموازنة بخير ما فيه من قوة، بين وصولية الطامحين الانتهازيين وبين الأهواء الضالة للجماهير.

---

(12)To E. L. Godikin, December 24, 1895; L.W.J., 11, 28.

(*) قضية مشهور اتهم فيها دريفوس - ظلما - بالجاسوسية لحساب دولة أجنبية ثم ظهرت براءته. وقد تحولت القضية إلى مسألة سياسية، وعجلت بمبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة فى فرنسا. ولقد انقسمت فرنسا إزاء هذه القضية إلى شيع وأحزاب لمدة عشر سنوات. وكان للقضية صدى فى أمريكا. ولقد ظهرت براءة دريفوس بعد أن حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة (١٨٩٤). ولقد ساند دريفوس الجمهوريون والاشتراكيون والمضادون للكنيسة، ووقف ضده الملكيون والعسكريون والكاثوليك.

ومما لا ريب يه أن أعظم أثر مفرد على تفكير چيمس السياسى، كان ذلك الأثر الذى أحدثه أ.ل. جودكين. ففى أثناء إقامة جودكين فى كامبردج فى السبعينيات الأخيرة أصبح صديقا حميما لأسرة چيمس. وكان وليام چيمس وهنرى چيمس ودائرة أصدقائهم فى كمبريدج يقرءون مجلة الأمة وصحيفة الإيفننج بوست ويكتبون لهما. وكانت صحف جودكين هى أهم وسيط فى ذلك الوقت يجد فيه المتحررون والساخطون متنفسا فاعلا وتعبيرا نافذ المفعول لآرائهم السياسية. وكانت هناك فترات من الزلل والنشاط تنتاب چيمس فى صلته بهذه الحركة، فأما الزلل فقد كان مرده إلى كره چيمس لإنكارات جودكين ومجادلاته، وأما النشاط فقد كان راجعا إلى إحساسه بأن جودكين - فى كل ما يتعلق بالمسائل المهمة - كان دائما يحارب فى صف وجانب الحق. والرسالة التالية حررها چيمس لجودكين فى سنة ١٨٨٩:

« فى السنوات السابقة من حياتى - لا جناح علىَّ من أن أقول إن كل تربيتى السياسية كانت تعزى إلى مجلة الأمة، ثم جاء بعد ذلك وقت حسبت فيه أنك تنظر إلى أعمال تيرانس باودرلى وشركاه من الخارج كثيرا جدا، ومن الداخل قليلا جدا، والآن أثوب إليك ثانيا كعزائى الوحيد فى عالم ضل سعيه. كله عوج وأمت. إن لك أعجب طريقة فى كونك دائما على صواب، لذلك لا أجرؤ أبدا - الآن - على أن أثق بنفسى عندما تكون ضدى ».

وبعد ست سنوات من هذا التاريخ، وبمناسبة حادثة فنزويلا، كتب چيمس معبرا عن تعهده بالولاء لجودكين، وهنأه بحرارة على شجاعته، ولكنه فى نفس الوقت حثه، ابتغاء الفاعلية، أن يتحاشى « الحشو » وأن يصطنع الصبر فى التفسير والشرح جهد استطاعته: « لا تلعن الله وتموت، يا زميلى العزيز القديم. عش وصابر وكافح من أجلنا - زمنا طولا - ما زال أمامنا - فى الحرب الجديدة»[١٤].

---

(14) April 15, 1889 and December 24, 1895; L.W.J., !, 284,11, 30.

على أن چيمس مستقل سياسيا - فى كلا المعنى التاريخى والمعنى العام. والرسالة التالية تمس موضوع حملة بلين (Blaine) التى فى أثنائها شاع استعمال لفظ مستقل سياسى (Mugwump) »، ولقد كتب چيمس هذه الرسالة إلى ف . ج . برومبرج الذى كان زميلا له فى الدراسة فى مدرسة لورانس للعلوم، والذى أصبح عضوا فى الكونجرس عن ولاية الباما.

سيرنجفيلد سنتر . ن . ى.

٣٠ يونيه سنة ١٨٨٤

« عزيزى برومبرج

إن ما تقوله عن بلين . مؤثر. وكنت أؤمل أن أجدك فى الحزب الجمهورى « الفتى ». صحيح أن بلين لم تشبه أبدا أية شائبة بالنسبة إلى الفضائح والرشاوى والمفاسد المالية الجسيمة. ولكنا لا نلومه على ما هو عليه بقدر ما نلومه على ما هو ليس عاليه. ولهذا السبب نتأهب لإدخال الديمقراطيين لهزيمته. إنه أعمى. وكل قطاع الجمهوريين الذين يمثلهم عمى . لا يبصرون حياة البلاد الحقيقية اليوم. كل ما يشغل بالهم هو كلمات السر القديمة الميتة التى تميز حزبا عن الحزب الآخر، ويجعلونها بمثابة برزخ بين هذا وذاك. إنهم يعيشون على كره ومقت اسم الديمقراطى، تماما كما يعيش الديمقراطيون على كره اسم الجمهورى. إذا رشح أى ديمقراطى لائق نفسه، فسوف يسعدنى جدا أن أعطيه صوتى، لكى نقضى قضاء مبرما إلى الأبد على الحفرية الراهنة للحزب الجمهورى، ولكى يتسنى لنا بعد أربع سنوات طرد الديموقراطيين بنفس الطريقة، باسم حزب قومى جديد له صيغة فكرية فى هدفه، بحيث كرس نفسه للخدمة المدنية والإصلاح الاقتصادى، وربما - أخيرا - يكرس نفسه لإحداث تغييرات دستورية معينة نحن فى مسيس الحاجة الملحة إليها، انظر إلى إعلان بارنوم المسمى بالساحة الجمهورية. هل فى إمكانك بأية حال - أن ترغب فى رؤية حزب بهذا الشكل ينيخ بكلكله وثقله المعرقل على وجه الأرض بعد ذلك ؟ حاشا وكلا ...

صديقك دائمًا

« و . م . چيمس »

وكان چيمس أيضا. عمدا وصراحة، مستقلا سياسيا فى المعنى الأكثر تعميما للكلمة. لقد تحالف مع الأقلية التى كانت وظيفتها تطبيق التفكير التأملى الناقد على

الشئون العامة، والتى كان مصيرها أن تظل أقلية. أما فى الشئون الاقتصادية فإن المستقل ينظر وراء الحافز المباشر للكسب ويتجاوزه إلى المبادئ الأخلاقية التى تنطوى عليه، وإلى الغرض الإنسانى الوسيع للنظم الاجتماعية. ولما كان چيمس متحررا من النظرة القومية البحت أو النعرة القومية، فقد كان مستعدا لتمجيد الصفات الإنسانية السامية بصرف النظر عن مكانها أو قوتها. وفى السياسة الداخلية لوطنه لم يكن يتقيد بأى ولاء حزبى، ولكنه كان مستعدا لاستعمال صوته لكى يرجح كفة ميزان العقل والقسط. أما بالنسبة لواجبات المستقل سياسيا فكان چيمس على بينة من أمره. وبالنسبة لفاعليته فقد كان چيمس واقعيا خاليا من الأوهام الغرارة. كان يتساءل عما إذا كانت التربية تحدث حقا أى فرق بالنسبة للخير، حيث إن المتعلمين كانوا على كلا الجانبين - الخير والشر - بالنسبة لكل القضايا، وكانوا على استعداد لأن يعطوا أو يبيعوا ثمرات تعليمهم لمساندة أى هوى أو انفعال أو شهوة مهما بلغت الحضيض . ولقد أحدث نقده للتعليم العالى شيئا من سوء الفهم، الأمر الذى اضطره فى ١٢ يونيه سنة ١٩٠٥ إلى أن يكتب إلى إليوت من شيكاغو، ويشرح له أنه لم يقصد أن يقول إن الكليات، كانت مدارس تدريبية للجريمة ». « لم أقل إلا تعليقا واحدا فى إحدى الصحف - فقرة واحدة - ولكنها كانت جهنمية وفى غاية الخبث. ولقد أرسلها إلى مراسل غير معروف قال إنه يحمد الله الذى أنشأ « رجلا واحدا لديه من الشجاعة الكافية ما يحمله على أن يقول الحق بشأن الكيان « مضيفا » لم أتلق أبدا أى تعليم فى أى كلية ، إن دم عيسى يكفينى ».

على أن چيمس كان يدرك قوة السياسى المحترف ونفوذه.

« إن أقوى قوى فى السياسة هى التدبير الإنسانى، ومدبرو المكائد لن يدخروا وسعا فى القبض على زمام أى جهاز يمكنك أن تقيمه فى وجوههم ».

وكان چيمس يفهم الدعاية ، « ذلك التسمم الذاتى الذى يخدر به المجتمع نفسه بالإفراز الصحفى ».

ولكنه رفض أن يستسلم للقنوط واليأس مؤمنا بأن حزب الذكاء الناقد قد يقوم بدور المقاصة التى تعوض افتقارهم إلى الحرارة بمزيد من الاستقامة.

وفى ٩ يناير سنة ١٩٠٢، ألقى جيمس محاضرة أمام مدرسة الدراسات العليا بهارفارد، أسهب فيها فى موضوع الوظيفة النقدية التى يتعين على الطبقات المتعلمة أن تمارسها فى الشئون العامة:

«.. وإذن فحيث إن رسالة العقل المتربى فى المجتمع ليست هى أن يوجد أو يخترع الأسباب والمسوغات التى يفرضها الهوى، فيتعين على هذا العقل أن يقتصر على هذه الوظيفة الصغيرة - ولكن المستمرة - وظيفة النقد والمعادلة.

ولكى يقوم بهذه الوظيفة يتيعن عليه أن يطفئ نار التهيج والانفعال الحار، وأن يضرم نار الحافز الهامد الخامد البارد، وهذا الاتجاه الحكيم القضائى المحايد، ينبغى[١٥]. أن تعترف، أنه أحيانا يتخذ مظهر الغرور والتصلف، وعادة ما يكون منفرا ومكروها.

والناقد العقلى - من حيث هو ناقد عقلى - ملم بكثير من المصالح والرغبات، لدرجة أنه يبدو للحزبى الحمسى ، وكأنه ليس عنده أية مصلحة أو رغبة وكأنه ثقيل عديم الدم ومستقل سياسى سمح. والذين يتوقعون حكم التاريخ ويقيمون لقضائه وزنا، مثل أنصار إلغاء الاسترقاق، أو المفكرين كما سمى أساتذة الجامعات. الذين وقفوا فى صف دريفوس ، ومثل المناهضين الحاليين للاستعمار ... إلخ ، هؤلاء يثيرون حفيظة من يناهضونهم ويستفزون نفورهم إلى درجة تكاد تصل إلى حد التقرز الجسمانى .وغالبا ما يكون جمهورهم الوحيد هو الخلف ... هو الأجيال المقبلة. إن أول تكريم ينالونه أو شرف يخلد أسماءهم هو عندما تفارق الحياة أجسامهم ويصبحون فى عداد الموتى، ومثلهم كمثل أصحاب « بوالص » التأمين على الحياة. فإن لزاما عليهم أن يموتوا أولا لكى يسكبوا رهانهم . وبصفة عامة، لا يوجد أبدا أكثر من حزبين أساسيين فى أية أمة من الأمم، حزب الدم، كما يسمى نفسه، وحزب التأمل برفق وهوادة، حزب الغريزة البهيمية والصليل والشغب. والهرج والمرج والإثارة والتضخم، وحزب التفكر والتنبؤ والنظام الذى ينال بالنمو والتطور والوسائل الروحية . وصفوة القول

(15) W.J. to Lutoslawski, March 20, 1900, and recollection by Professor A. Forbes ,letter to the author of March 29, 1932.

حزب العنف وحزب التربية. إن المحافظين فى أى بلد والدهماء - يتكاتفون دائما - بعضهم لبعض ظهير فى حزب الدم الأحمر عندما تدبر له الشعارات كما يجب، مثلما حدث منذ عهد قريب على يد دزرائيلى، أما حزب الأحرار فستجده بين شقى الرحى إذا لم يكن له قائد جذاب خلاب .. والعيب المزمن للتحررية هو افتقارها إلى السرعة والحدة، فمرارا وتكرارا يحدث أن التعميمات تنتهى إلى درجة من التوقف وحبيوط المسعى بحيث يلزم عمل ثقب فى السد - فى مكان ما - وبعد ذلك يوسعه الماء المتدفق. إن رصاصة البندقية تحدث ثقبا بسرعتها فقط فى حين أن الضغط الساكن لكتلة أثقل منها لا يحدث شيئا . ولكن من حين لآخر يجيء قائد ذو أطماح وآمال تحريرية وعنده قوة دفع رصاصة البندقية. وقد يكون شخصا متعصبا ، أو رجلا من طراز كرومويل أو غاريبالدى أو بسمارك أو ربما يكون مغامرا مثل نابليون . وطوبى للدولة التى تبرهن على أنها قادرة على أن تفيد من أمثال هؤلاء الرجال لما يصلحون له فى الوقت المناسب، ثم تلقى بهم وتنبذهم نبذ النواة قبل أن يجعلوها ضحية من ضحاياهم . مثل هذه الدولة دولة متربية حقا ».

على أن التفسير الناضج لدور چيمس السياسى. من الممكن أن يلتمس فى محاضرة بعنوان:

« القيمة الاجتماعية للمتعلم الجامعى »[16]. إن وظيفة المتعلم الجامعى هى حراسة « نعم » المجتمع، وإنماء « وإنضاج الحساسيات النقدية » أو « الإعجاب بما يستحق الإعجاب حقا » وتقديس « القادة الأفضل والأقوم سبيلا »:

« ينبغى أن يكن عندنا وعينا الطبقى الخاص بنا « المفكرون »: Les Intellectuels! « هل يوجد اسم نادر أكثر فخرا وكبرياء من هذا الاسم - الذى يطلقه عليه - من باب السخرية والاستخفاف حزب « الدم الأحمر » حزب كل تعصب أحمق وهوى خانق، فى أثناء اللوثة المعادية لدريفوس، لكى يلمز أولئك الرجال فى فرنسا الذين ما زالوا يحتفظون بالحاسة النقدية والحكم المميز[17].

(16) Delivered November 7, 1907. First published in McClure's, Magazine in February 1908, and reprinted in M.s.

(17) M.s., 314, 319-20, 323.

(٢٧)

چيمس باعتباره مصلحًا اجتماعيًا

فى ضوء عقيدة جيمس الأخلاقية العامة، ومفهومه لدوره فى الإصلاح الاجتماعى والسياسى، فقد حل الآن الميقات لمراجعة مناشطه بإيجاز. فمن وقت مبكر يرجع إلى سنة ١٨٨١، ألقى جيمس على طلاب كلية هارفارد أحاديث تتناول موضوع ضبط النفس والاعتدال والعفة، ثم بعد ذلك تحدث مرتين أمام "رابطة الزهد الكلى".

وفى محاضراته الأولى عالج - بصفة رئيسية - التأثير الضار للكحول وفقًا للأدلة التى أوضحتها الفسيولوجيا التجريبية[١]. ومن الواضح أن جيمس كان بينه بين استعمال المنبهات تنافر روحى أساسى، الأمر الذى يبدو أكثر عجبا لأن جيمس كان صاحب اهتمام غريب وشغف مفتوح العقل واسع الأفق بكل الخبرات الشاذة (ومن الطبيعى أن التسمم الكحولى ربما كان من ضمنها) ولأنه كان يعطف ويحنو على الخلاص من الكبت الذى يزعم بعضهم أنه إحدى مزايا الخمر. والأمر الذى لاشك فيه أن حكمته الأساسية التى اتخذها - بوصفها مبدأ مقررًا للطهر واضحًا - كانت هى منشأ المسألة، ولكن كانت هناك فى نفس الوقت جاذبية مضادة، لقد وجد أن الزهد أكثر إحداثا للنشوة من الانغماس فى الشهوات، والمذكرة التالية كتبت بمناسبة الإعداد لمحاضرة ألقاها سنة ١٨٩٤ أو سنة ١٨٩٥:

---

(1) "Willim James on Temperance", Independent, June 23, 1881

"إن العذر الأكبر هو الأنس.. وحتى هنا فإنك تدفع الثمن - ولكنك هنا بالذات ما تدفعه بقيمة الثمن... إن قيمة الحساب كلها المرفوعة ضد الخمر هى غدرها وخيانتها. فالسعادة التى تحدثها وهم غرار، وفى أعقابها سبعة شياطين.. من كل وجهة نظر - أيا ما كانت - تتضح لنا نتيجة واحدة. من الأسلم أن نشرب ماء باردًا أو ماء ساخنًا أو نوعًا آخر من الماء. وفى العصر المحمل بالأعباء الباهظة، وخصوصًا هنا فى أمريكا فكل أوقية تضاف من التعويق ينبغى تحاشيها، والتعاطى اليومى لأقل مقدار من الخمر ربما يكون معوقًا حقيقيًا يترتب عليه المزيد من تعب الحياة ومن استهلاكها، مما يقلل من قوة الاحتياطى المذخورة وينقص من مرونتها ولدونتها ويؤدى إلى تقصير الحياة. قل ما شئت عن كيف الوجود. إن البهجة الزائفة المصطنعة التى يعقبها المرض ليست هى الكيف الحقيقى... وإنها لتبدو طريقة دنيئة أن نبت فى مسألة كهذه. بالخوف. إن أفضل طريقة لفطام الناس من إدمان السكر هى أن نملأهم بحب ضبط النفس والعفة والاعتدال لذاتها. وبعبارة أخرى ضع محل معبود الشراب وماثلته - ماثلة أخرى. ماهى هذه الماثلة؟ إنها ماثلة التمتع ببنية فى أتم صحة وتركيب جسمى فى مرونة الفلين، بحيث لا يكسر أبدًا أو يعلوه الصدأ أو يواجه أى موقف لا يستطيع أن يلاقيه بخفته ونشاطه وطفوه الذاتى من لدنه".

وفى أثناء التسعينيات شغل جيمس بالمشكلات التربوية التى تجابه عادة عضوًا فى هيئة تدريس هارفارد. ولقد أفضت به عقيدة الذاتية المتحررة - باعتبارها قاعدة - لمساندة سياسة إليوت. وجنح به تدريبه العلمى وحبه للتجديد وأسلوبه العصرى العام إلى تأييد تحرير المنهج على حساب المكانة المميزة التى كانت تتمتع بها اللغات القديمة بين مواد المنهج وفى هذا الصدد قال:

"يجب علينا أن نهز الطيبة المزدوجة للقلع وننشرها، بحيث تتعرض للريح وضوء الشمس، ثم ندخل كل مادة حديثة، ومن المؤكد أن كل مادة ستبرهن على أنها إنسانية، إذا ما كان وضعها فسيحا واسعا بدرجة كافية[٢].

---

(2) M.S., 321.

وبين سنة ١٨٩٠، وسنة ١٩٠٩، كانت هناك محاولة طالت وأرجئ تنفيذها لإنقاص المدة العادية المطلوبة للحصول على درجة الليسانس من أربع سنوات إلى ثلاث. وكان جيمس عضواً فى لجان هيئة التدريس العديدة التى وكل إليها التداول فى الاقتراح[٣]. وفى سنة ١٨٩١، دافع عن المشروع الجديد فى مقالة عن "الإنقاص المقترح لمقرر الكلية" نشرها فى مجلة هارفارد الشهرية (Harvard Monthliy) والفقرات التالية نماذج بيانية:

"كل معلم سرعان ما يجد نفسه مجبراً على الانتباه إلى حقيقة أنثروبولوجية معينة. هذه الحقيقة هى أن هناك فرقاً عميقا جداً بين نوعين من الطلاب. نوع يولد للحياة النظرية وفى مستطاعه المضى قدماً إلى ما لا نهاية فى حذقها وفى الإلمام بأسرارها وخاصياتها.. والنوع الثانى من الناس قد يكون ذكيا ولكنه ليس نظرياً، ثم إن اهتمام أفراده فى معظم الموضوعات يصل إلى درجة التشبع بعد الوصول إلى نتائج أوسع نطاقاً وقوانين تبلغ أقصى درجات التعميم. ثم إن معلم النوعين يدرك جيداً وطأة وثقل تلك القوانين الخالدة التى تجعل من المستحيل صناعة حيوان آكل عشب من حيوان آكل لحم بتقديم وجبة مستمرة من العشب للحيوان آكل اللحم. هؤلاء الزملاء البارعون يحتاجون إلى الاحتكاك من نوع ما بالجانب العراكى للحياة، بالعالم الذى يعيش فيه الرجال والنساء ويكسبون فيه عيشهم وزبدهم ويحيون ويموتون، لا بد أن يحمل ما تقدمه لهم رائحة الدم، على نحو ما، وإلا فلن ينتبه اهتمامهم. والدم المسفوح فى مقرراتنا الاختيارية لا يفلح فى إشباع حاجاتهم مدة طويلة. إن درجة الليسانس ينبغى أن تتلاءم مع حاجات طلاب هذه الفئة الثانية، ونظام الثلاث سنوات بالنسبة لهم مدة تكفيهم وزيادة"[٤].

---

(3) The result of the agitation was to make the three-year degree possible by an increase of the number of courses taken each year. This possibility having proved more and more unrealizable, the number of men who thus obtained the degree soon became negligible.

(4) Harvard Mo., 11-2 (1890-1), 132-5.

وفى سنة ١٨٩٤، سنة ١٨٩٨، استعمل جيمس نفوذه ضد مشروعات قوانين معروضة أمام مجلس تشريع ماساشوستس بقصد وضع الشروط المطلوبة لامتحان الأطباء والترخيص لهم بمزاولة المهنة. وقال چيمس: إن المعرفة الطبية ناقصة جداً وفى تغير سريع متلاحق، وإن الخبرة ينبغى أن يرحب بها من أى مصدر. كان يفضل التربية على التشريع، والتسامح على التحريم، والتجربة على الأحكام السابقة [٥]. وكان ظهوره فى جلسة تشريعية يسبب كثيراً من الفضحية لزملائه بمدرسة الطب، ولكنه "كان أيسر عليه مواجهة سخطهم من مواجهة سخط ضميره". ولقد كتب فى هذا الصدد إلى جون جاى تشابمان فى ٤ مارس سنة ١٨٩٨: "أقول لنفسى: هل ستظل الفضيلة المدنية محصورة كلياً فى زولا، ج.ج. س والكولونيل بيكار؟ فتقول نفسى أبداً، وعلى هذا أمضى فى طريقى غير عابئ".

أنفذ الرئيس كليفلاند رسالة فنزويلا فى ١٧ ديسمبر سنة ١٨٩٥، ويبدو أن الأزمة التى تلت ذلك أجبرت جيمس لأول مرة على التنبيه للخطر الكامن فى "غريزة المقاتلة" – "ثلاثة أيام من هستريا القتال من الدهماء فى واشنطن كفيلة فى أى وقت بأن تجب وتنسخ كل عادات السلام التى تكونت فى قرن من الزمان" [٦].

لقد اعتبر جيمس، أن اتخاذ أية خطوات لإثارة هذه الانفعالات الحادة، جريمة سياسية. وبعث برسالة إلى صحيفة هارفارد كريمزون (Harvard Crimson). وكان تيودور روزفلت – الذى كان عندئذ رئيس هيئة أمناء الشرطة لمدينة نيويورك – سبق أن كتب فى نفس عمود تلك الصحيفة معلناً احتجاجه ضد الضغط الذى يقوم به معارضو سياسة الحكومة على الكونجرس. ورداً على ذلك، أجاب جيمس بالآتى:

---

(5) Boston Evening Transcript, March 24, 1894; "I ssauredly hold no brief for any of these healers." (L.W.J., 11, 69).

(6) W.J. to E.L. Godkin, December 24, 1895; L.W.J., 11, 28-9.

"يبدو أننا متهمون بالخيانة العظمى فى نظر المستمر روزفلت، وعلى الرغم من أن رئيسا مجنونا قد يلزم الدولة – دون سابق إنذار – بحياة جديدة على الإطلاق، ويفرض عليها تاريخا جديدا على الإطلاق، فليس من حق أى مواطن، مهما كان شعوره، أن يفتح فمه، وإنما يجب عليه أن يلوذ بالصمت ولا يبوح بما فى نفسه ولو للمثل المعين بمقتضى الدستور لكى يكبح جماح الرئيس عند الضرورة. هل تسمحون لى أن أعبر عن الأمل – بأننا فى هذه الكلية – إن لم يكن هناك مكان آخر على هذه القارة، ستكون لدينا الوطنية الكافية بحيث لا نقف مكتوفى الأيدى فى الوقت الذى تدبر فيه مصائر أمننا بالمباغتة. فلنكن إما (مع) وإما. (ضد)، فإذا كنا (ضد)، فإذن نقاوم بكل وسيلة فى طاقتنا وقوتنا عندما نشهد سياسة تشكيل يترتب عليها حتما تغيير كل المثل العليا القومية التى غرسناها حتى الآن، فلنرفض أن نتقيد بين عشية وضحاها ببلاغ يعلن أو ننوم تنويما مغناطيسيا ونحن أيقاظ، بعبارات تتخذ مظهر السر المقدس. أوْلى بنا ثم أوْلى أن نحكم عقولنا ونتفكر فيما هو أفضل. ثم بعد ذلك نؤدى واجبنا باعتبارنا مواطنين بكل ما فينا من قوة (٧).

وكتب جيمس الرسالة التالية إلى فردريك مايرز فى اليوم الأول من يناير سنة ١٨٩٦، فى أثناء نفس تلك الفترة العاصفة:

"لا مراء. فى أن بلدينا سرعان ما يلغان فى دماء بعضهما. وستكون حرب فناء لا تبقى ولا تذر عندما تنشب، لأن أى الجانبين لن يستطيع أن يعرف متى ستحيق به الهزيمة، وآخر رجل سيقوم بدفن الرجل الوحيد الباقى قبله، ثم بعد ذلك يموت هو نفسه. وعندئذ سيحتل الفرنسيون إنجلترا ويحتل الإسبانيون أمريكا. وسيتحد الاثنان ضد الألمان ولن يستطيع أحد أن يتنبأ بالخاتمة. ولكن على سبيل الجد، كل الوطنيون الصادقون وصادفوا فى حياتهم أوقاتا عصيبة من الهم والغم والكرب. من أعظم الدروس والعبر التى يتلقاها دارس التاريخ المنصف هو، أن يرى إلى أى حد تكمن غريزة المقاتلة القديمة، قرب السطح عند معظمنا، وإلى أى حد تنتبه من غفلتها لأقل إثارة فتزأر وتعوى بضراوة. وبمجرد أن تستيقظ فعلاً فلا سبيل إلى قمعها وتراجعها، ومن ثم فإن كل حكمة الحكام ينبغى أن ينصب على تلافى الإثارات المباشرة".

---

(7) Harverd Crimson, January 7, 9, 1893.

واستناداً إلى مذهب مونرو، كما قرره كليفلاند وأولنى، كتب جيمس فى الثالث عشر من فبراير إلى زوج أخت زوجته، و. م. سالتر:

"إن توكيدات مثل" إرادتنا ستكون هى القانون"، تشكل جزءًا متكاملاً من حياة أمة، وهذا المذهب يمكن اعتباره على نحو ما جزءا من حياة أمتنا. وتعبر هذه التوكيدات أولاً وقبل كل شىء عن الطموح، ولكنها بطبيعة الحال تسعى (عن طريق) السابقة والحجة أن تسوغ نفسها. إن كليفلاند ليس صاحب حق فقط وإنما واجب أيضا (مع مراعاة كل الاعتبارات) فى حمل إنجلترا على الرضا والتحكيم، وطبعا كان فى وسعه أن يفعل ذلك. تلك السياسة لو أنها نفذت، لجعلتنا الرسل الحقيقيين للحضارة دون اضطرار مطلقًا إلى الخروج عن حدود القضية المعينة موضوع النزاع، ودون أن تتبجح إلى نظرية جامدة مثل لغو أولنى. عن المصالح المعنوية لأمريكا على اعتبار أنها مختلفة بشكل عديم الاتفاق عن مصالح أوربا، وعن الاتحاد السياسى الدائم بين الولايات الأوربية والأمريكية على اعتبار أنه أمر غير طبيعى لا ينفع ولا يفى بالغرض، وعن جمهوريات أمريكا اللاتينية على اعتبار أنها حليفاتنا الطبيعة المجانسة، وعن حكمتنا التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها وعن عدلنا وعن قسطنا وإنصافنا وهلم جرا.. لقد كانت الأمور فى حالة تتيح لعقيدة ناشئة أن تتودك أو لا تتودك: وفى نظرى أن كل حكمة الناقدين المنصفين المنزهين عن الغرض فى مثل وقت كهذا، قوامها مقاومة عملية التودك ".

على أن القضية السياسية التى أثارت جيمس أعمق إثارة وأرهقته من أمره عسرا واستنفدت منه أكبر قدر من الوقت والجهد، كانت قضية التوسيع الاستعمارى. لقد نشر ثمانى مقالات ورسالات، أو أكثر بما فى ذلك محاضرة ألقاها أمام "عصبة مناهضة الاستعمار" التى كان نائبًا لرئيسها فى وقت ما. وكان للحرب الإسبانية ولحادثة فنزويلا وقع شديد على نفس جيمس يرمز إلى قوة حمى الحرب. التى لا تدفع ولا تقاوم. والرسالة الثالثة كتبت إلى صديقه السويسرى ثيودور فلورنوى فى السابع عشر من يونيه سنة ١٨٩٨، بعد شهرين من نشوب الحرب:

"هذه أسوأ لطمة تصيب كرامة الحكم الشعبى، قدر لى أن أشهدها فى حياتى. لقد كان مجلس شيوخنا مخلصًا قطعًا فى إنكاره أى رغبة فى الغزو أو الضم. ولكن انظر كيف تتغير المثل العليا لأمة بين لمحة عين وانتباهتها. بانتصار ديوى المفاجئ، نشأ هنا "حزب" استعمارى، سيكون من

الصعب مقاومته، حيث إنه سيضرب على وتر العنجهية القومية، ويسوق الوطنية الفجة والبربرية للبلد. وفضلاً عن ذلك فإن عظمة أى أمة عظيمة ترتكز على تلك البراعة الغريزية البحت والطموح.. ذلك الشعور بمستقبل عظيم ومصير عظيم..، وهذا الشعور متوافر لدينا - إلى كبير. ولكن على المرء أن يرتفع إلى مقام هذا المصير العظيم - وأن يكون كفئًا له... ولكن واأسفاه. إن تربيتنا - باعتبارنا أمة - حتى الآن - لا تهيئنا للنجاح فى إدارة جزر يقطنها سكان أدنى منا وأحط. إن إسبانيا تستحق فقد هذه المستعمرات، ولكن هل نستحق نحن الحصول عليها؟ ومهما يحدث، على أية حال، فسوف يحدث ليس نتيجة لأى شد أو نهى معين، وإنما نتيجة للهوى والشهوة، ونتيجة لشعارات معينة - تعلمت الأمم - أن تعتاد طاعتها - شنشنة مستحكمة".

كان چيمس يرى الاستعمار منفثا للشهوة الجامحة يتلفع بقناع من فعل الخير:

"لقد أطلقنا غريزة المقاتلة وشهوة التسلط من عقالهما، لأننا زعمنا أن فى استطاعتنا أن نستأنف مثلنا العليا وخلقنا بين أن تنفثئ نوبة القتال. ولقد تبين لنا الآن كيف قدرنا وحسبنا دون تدبر للعواقب. لقد رأينا إلى أى حد تبلغ دائمًا شهوة الغزو العسكرية من الوحشية المطلقة، ورأينا كيف أن الضمان الوحيد ضد الجرائم التى من المحقق أنها ستجر الأمة التى تستسلم لهذه الشهوة هو قمع هذه الشهوة واعتقالها مكبلة بالأغلال إلى الأبد.. إننا الآن منهمكون - مجاهرة وبلا حياء - فى سحق أقدس شىء فى هذا العالم الإنسانى العظيم - ألا وهو محاولة قوم طال استرقاقهم لكى يمسكوا بزمام أنفسهم وينظموا قوانينهم وحكومتهم، وأن يكون لهم الخيار والحرية فى تصميم مصيرهم وفقًا لمثلهم العليا التى يرتضونها.. لماذا إذن نمضى فى هذا الشوط؟ أولاً: حمى الحرب ثم العنجهية والعتو والتكبر التى ترفض دائمًا أن تتقهقر عندما تكون وسط المعمعة وتحت السعير. ولكن هاتين الشهوتين - انفعالان جامحان يتدخلان فى التدبير العاقل لأى أمر. وفى هذا الأمر يتعين علينا أن نعالج عنصرًا غريبًا - كلية - عن اعتقادنا... فى مصير قومى ومستقبل يتحتم أن يكون "كبيرًا" بأى ثمن. نحن رسل الحضارة.. ولنتحمل عبء الرجل الأبيض. مهما كان مؤلمًا. وكثيرًا ما هو. أما حيوات الأفراد فلا شىء. واجبنا ينادينا، ومصيرنا ينادى، وقافلة الحضارة لابد أن تمضى... لا تلوى على شىء. هل هنالك تهمة أبشع خبثًا من ذلك المعبود الوارم المنتفخ المسمى "الحضارة الحديثة"، التى تسوغ كل هذا الباطل العقيم الذى ينتهى إليه كل المنطق السقيم؟ إذا كان هذا هكذا فالحضارة إذن هى السيل

الجارف اليعبوب، العارم. الأجوف، المفسد، الطنان الرنان، المضلل، المغالط، الذى يقصد به تمويه الحقائق وبلبلة النفوس، إنها تيار مدفوع بقوة الزخم الوحشى البحت وبعدم التعقل والتمييز التى تقذف بنتائج نجنى منها مثل هذا الثمر المر"(٨).

وفى الحادى عشر من أبريل سنة ١٨٩٩، ألقى روزفلت خطابه الشهير عن "الحياة الجهيدة"، الذى استدعى من جيمس الرد الآتى:

"هل سيسمح للمحافظ روزفلت أن يصيح فى أفاق بلادنا دون أن يرتفع صوت يماثله فى الجلجلة بالرد عليه؟ وحتى "الثرثارون الذين يقبعون آمنين فى بيوتهم يهذرمون بإنسانياتهم الساخرة الخرقاء" لابد أن يشعروا بأن دماءهم "الخسيسة" و"النذالة" تفور فى عروقهم من جراء مثل هذا التحدى. وأنا واحد من الناس أشعر أن من الشائن أن أتركه يصول ويجول فى الميدان بلا رادع ولا صاد. من بين كل التجريدات العريانة التى قدر لها أن تطبق على الشئون البشرية على الإطلاق، فإن ما انهمر من روح المحافظ روزفلت فى هذا الخطاب يبدو أكثرها عريًا وتجردًا. وعلى الرغم من أنه فى أواسط العمر، وفى مركز مسئولية جسيمة مقررة - بما فيه الكفاية - فإنه لا يزال عقليًا فى مرحلة المباهاة بالقوة (Sturm und Drang) من المراهقة المبكرة، ومن ثم فإنه يعالج الشئون الإنسانية عندما يلقى عنها خطبا من وجهة النظر الوحيدة الخاصة بالإثارة العضوية والصعوبة التى قد تجلبها، ويتدفق فيض الحرب على اعتبار أنها الحاجة المثالية للمجتمع الإنسانى استنادًا إلى الشهامة العنيفة والرجولة الجريئة والتحمس الجرىء الذى تتضمنه، ويعالج السلام على اعتبار أنه حالة من الخسارة الوارمة المنفطرة بالبكاء التى لا تليق إلا بالمستضعفين الواهنين الدوارين العنقاشين - القاطنين فى الغبش - المؤثرين للعافية غير مكترثين بالحياة السامية. ولا كلمة واحدة عن القضية وأى عدو لابد أن يكون كمثل أى عدو آخر فى كل شىء يأمرنا به. ثم ولا كلمة واحدة عن شروط النجاح ودواعى التوفيق. وإنما يغرق كل شىء فى مستنقع وحل من طوفان من الانفعال الحزبى المجرد"(٩).

(8) Letter to Boston Evening Transcript, March 1, 1899.

(9) Letter to Springfield Republican, June 4, 1899.

وقد ختم چيمس إسهامه الإيجابى فى الحركة المضادة للاستعمار بخطاب ألقاه أمام "عصبة مكافحة الاستعمار" فى بوسطون فى خريف سنة ١٩٠٣، وفى هذا الخطاب قال:

"إن الحوافز الملائكية والشهوات المفترسة الضارية تتقاسم قلوبنا تمامًا كما تتقاسم قلوب الدول الأخرى إن القضية السياسية لا تتبع التقسيمات الجغرافية، وإنما تتبع الفروق الخالدة داخل كل دولة، بين نوعين من الناس وبين طرازين من الرجال، وبين الحيوانيين الشهوانيين وبين المفكرين أولى النهى، بين النزعة الوراثية والنزعة التحررية، بين شهوة القتال الصائلة وغريزة الحيوان التى تدفع إلى تسيير دفة الدنيا بالعنف والقوة والاقتنائية الوحشية، وبين الضمير الناقد المتفكر الذى يؤمن بالطرق التربوية وبالقواعد المنطقية للحق. إن الحزب الدولى التحررى الكبير، حزب الضمير والذكاء فى كل بقاع الدنيا بأسرها، قد امتصنا بالاختصار، ونحن لسنا سوى جزء منه فى القطاع الأمريكى نشن الحرب ضد قوى الظلام هنا، ونقوم بدورنا فى الجهاد الطويل من أجل الحق والعدل والقسط، التى ينبغى أن تستمر فى كل بلاد العالم حتى آخر الزمان. فلنتقبل دورنا الأبدى راضين، ولنشرع فى المضى فيه ونحن أوفى ما نكون سعادة وغبطة. والكفاح واحد - فى كل مكان - تحت أسماء مختلفة الضوء ضد الظلام. والحق ضد القوة، والحب ضد الكره. إن الله معنا. وليس فى وسعنا أن نفشل على الدوام " (١٠).

وما أكثر ما تلذذنا وتعلمنا تغييرات اتجاه جيمس حيال ثيودور روزفلت. ففى سنة ١٨٧٧، ١٨٧٨، كان الأخير أحد أعضاء مقرر جيمس عن "التشريح المقارن وفسيولوجيا الفقاريات". وكان فى ذلك الوقت يستطيع أن يفاخر بأنه قد بلغ بعض الشأو فى ميدان دراسة الطبيعة، حيث إنه سبق له أن قام برحلات كثيرة إلى الريف لدراسة الطيور، وإلى مرافئ ميناء بوسطون، بحثا عن نماذج جراد البحر والكركدند البحرى والأسماك.

(10) Report of Fifth Annual Meeting of the New Englan Anti-Imperialist League, November 28, 903.

والفقرة التالية مقتبسة من مذكرات عضو آخر من جماعة الفصل:

"كانت المقابلات كثيرة بينه وبين الدكتور جيمس. وكانت الكلمة الأخيرة دائمًا لثيودور روزفلت. وأعتقد أن تلك المناوشات والمفاخرات البسيطة ألقت ضوءًا كبيرًا، على سجاياه. كان ساطعا ووهاجا أينما حل أضاء كنور الكلس. أما رأيى فى مادته فى تلك الحالات فهو أنها كانت خارجة عن الموضوع إلى حد كبير وكثيرة المراوغة. وفى كل المناسبات ما تسنى للدكتور جيمس أن يستمر فى المجادلة، وأستطيع الآن أن أستحضره فى ذهنى، وأراه لابسا سترته الزرقاء ذات الصفين، ورباط رقبته السميك، وقد اضطجع على كرسيه إلى الوراء وقد افتر ثغره عن ضحكة عريضة. منتظرًا أن يفرغ ثيودور روزفلت من حديثه" (١١).

وباعتباره مناضلاً فى سبيل المثل العليا، كان روزفلت رجلاً على مرام جيمس وهواه، فى حين أن عنف وسائله وافتقاره إلى الذوق والمشاركة الوجدانية لغيره والتمييز كانت كريهة ومزعجة جداً.

وفى سنة ١٩٠٢، كتب يقول: "وعلى الإجمال فقد نعمت بصحبة روزفلت حتى الآن. ولكنى نفضت يدى من الرجل الذى يستطيع أن يتفوه بمثل هذه الأكاذيب الوقحة السليطة. إن نسيجه الأخلاقى خشن جدا بحيث يستحيل صقله. يا ليت لى قلم فولتير" (١٢).

وبعد ثلاث سنوات كان جيمس شفيعا لانتخاب روزفلت لرئاسة هارفارد:

"فكروا فيما تزخر به نفسه من نية طيبة جبارة، وفى رضاه عن وظيفته وتمتعه بها، وفى قوته ونفوذه باعتباره واعظًا وخطيبًا، وفى عدد الأشياء التى يستطيع أن يوليها انتباهه، وفى أمان ترويه فى الأمور بعد أن يفكر فيها للمرة الثانية، وفى الشجاعة المتزايدة التى يبديها، وفوق كل شىء فى حقيقة أنه قائد صريح مجاهد لا يداور ولا يلجأ إلى الحيل الخفية أو التحتية، قائد يستطيع الناخبون

(11) From a letter to the auther by Dr. Samuel Delano Harvard' 79.

(12) To Charles E. Norton, August 23, 1902.

أن يتحكموا فيه مرة واحدة فى أربع سنوات عندما يهرب، له قلب فى مكانه الصحيح، عدو للإجراءات الرسمية العقيمة والأسلوب الديواني، وعدو للمماحكة والمحاوتة، ولكل شيء ترمز له كلمة "سياسى محترف" بصفة عامة. إن مغزى روزفلت لدى الرأى العام ميزة قومية عظيمة، وإنه من العار تبديد هذه الميزة أو تركها حتى تنجز لنا مزيدا من العمل أكثر وأكثر"[١٣].

وبعد سنتين تطوّح البندول ثانية. كان روزفلت قد ألقى خطابا فى ٢٣ فبراير سنة ١٩٠٧، فى "اتحاد هارفارد: Harvard Union" سخر فيه - على سبيل الدعابة - من العلم والدراسة، مما أرضى الطلاب وأضحكهم على حساب هيئة التدريس التى كانت جالسة فى الرواق. ولم يطق جيمس صبرا، وعلى الرغم من أنه كان من المبشرين بإنجيل القوة والشدة، فإنه كان عميق الاهتمام بمجال القوة والشدة. كان هناك دائما شرط سابق للخصام المشروع ألا وهو طهارة قضية المرء.

وكانت مناهضة جيمس للاستعمار تطبيقا لتعدديته وذاتيته. كتب ديكنسون س. ميلر ذات مرة عن جيمس: "ليس الفصل ولكن الوصل كان صفته" [١٤]. وهذه ملاحظة عميقة. فحسن المعاشرة عن جيمس وصلاته الاجتماعية الواسعة النطاق، والتى تكاد تبلغ حد التشويش، لم تفصل جيمس عن أسرته، وإنما ضاعفت صلاته فحسب. وكذلك الأمر بالقياس إلى وطنيته العالمية. فإنها لم تعزله عن قومه أو تفصله عن أمريكا، وإنما أخصبت ونوعت صلاته بتقديم موضوعات إنسانية جديدة لشهيته المتفتحة الشرهة التى يبدو أنها كانت لا تقنع ولا تشبع. وعلى الرغم من أنه ما كان بأية حال أعمى عن نقائصهم وأخطائهم، فإنه كان يجد شيئًا يحترمه ويحبه فى كل أمة عرفها. وذات مرة، بعد أن امتدح إيطاليا وإنجلترا، أضاف قائلاً: "نعم أنا أؤمن (أو أحس) أن مصيرنا - أخيراً - هو الأكبر إذا استطعنا فقط أن ننجح فى أن نرتفع إلى منسوبه ونحيا كفئا لتبعاته. وفى غضون ذلك - كما كتب أخى هنرى ذات مرة - فالحمد لله

---

(13) W.J., to Henry L. Higginson, July 18, 1905; L.W.J., 11, 232.

(14) "Mr. Santayana and William James," Harvard Graduates' Magazine, XXIX (1920-1), 351.

على عالم تقوم فيه إنجلترا ثرية خصبة إلى هذه الدرجة، وتقوم فيه إيطاليا نادرة عزيزة إلى هذه الدرجة[١٥]». وكان سيقول نفس الشيء عن ألمانيا قوية عفية إلى هذه الدرجة، وفرنسا مهذبة مؤدبة إلى هذه الدرجة، وسويسرا شريفة عفيفة إلى هذه الدرجة...

الحمد لله على عالم كريم سخى بحيث يحتويها جميعا.

وكان چيمس مغرما بالقول بأنه «يؤثر الأمم الصغرى والأشياء الصغرى بصفة عامة»، «سحقا للإمبراطوريات العظمى. بما فى ذلك إمبراطورية المطلق. أعطنى أفرادا ومناطق نشاطهم»[١٦].

وإليك تقرير أوفى وأكمل عن المسألة:

"أنا ضد الكبر والعظمة فى كل أشكالهما. ومع القوى الأخلاقية الذرية الخفية التى تعمل من فرد لفرد متسللة خلال شقوق الكون مثل كثير جدا من الجذيرات الدقيقة الناعمة أو مثل نز الماء الرفيع مثل الشعر، ومع ذلك فهى التى تصنع أصلب نصب لكبرياء الإنسان وكرامته إذا أتحت لها الوقت الكافى. وكلما كانت الوحدة التى تتعامل معها أكبر، كانت الحياة التى تبديها أجوف وأكثر وحشية وإفكا وميتا. ومن ثم فأنا ضد كل التنظيمات الكبيرة، وأولها وفى مقدمتها التنظيمات الوطنية. إننى ضد كل ضروب النجاح الضخم الكبير والنتائج الضخمة الكبيرة، وأفضل القوى الخالدة للحق التى تعمل دائما بالطريقة الفردية التى لا تنجح مباشرة والتى لا تؤتى أكلها إلا بعد حين. إنما قوى المغلوبين على أمرهم دائما، الواقعين تحت نير الظلم والصنف .. حتى يأتى التاريخ بعد أن يمضى وقت طويل على موتهم ويرفعهم إلى أعلى عليين"[١٧].

---

(15) To Pauline Goldmark, July 2, 1908; Lw.J. 11, 305.

(16) W.J. to W.Lutosiawski, August, 10, 1900, and to Mrs. Glendower Evans, February 15, 1901.

(17) W.J. to Mrs. Henry Whitman, June 7, 1899; L.W.j., 90.

بيد أن أمريكية چيمس ما تخلخلت قط بشكل جدى خطير. كان وليام حميما - بالغريزة والفطرة - لكل ما ينتمى إليه - سواء أكانت الأسرة أم الصديق أم الوطن، وفى سنة ١٩٠١، عندما اضطره المرض إلى جانب محاضرات جليفورد إلى البقاء فى الخارج زهاء عامين تقريبا.

قال: "كم أتوق إلى أن أغط نفسى فى أمريكا ثانية، وأدع جذيراتى المكسورة تلتحم من جديد فى أعماق تربة قومى. إن الرجل الذى يغازل دولا كثيرة لا يقل سوءا عن المتزوج بامرأتين، وهو يفقد روحه بالكلية.(١٨)

ذلك كله رد فعله المعهود فيه، والذى لم يتغير حيال أية فترة طويلة من الغياب عن وطنه وقومه.

على أن وطنيته سارت مع اثنين من اتجاهاته الأخلاقية الأساسية. فأمريكا فى نظره كانت أقل نظامية وضعيفة وأقل خضوعا لتحكم الكنانات غير الشخصية الشائعة المسئولية بالتضامن - من أوربا. وباعتباره نصير الفلسفة الذاتية فقد كان چيمس ينفر من التنظيم النسقى المطرد، ومن الآلية ومن الرسميات الشكلية والأصول والطقوس المقررة رسميا. أما الاتجاه الثانى الذى عزز بقوة ودعم أمريكية چيمس، فقد كان اشمئزازه من العاقر والعاجز والمتهور - وإيثاره للبسيط والطبيعى والقوى العفى والناظر إلى الأمام ... ولقد وجد هذه الصفات فى أمريكا، ووجد أنها فى النهاية ترجح المفاتن المقابلة فى كفة الدول الأوربية - مهما كانت قوة وجاذبية تلك المفاتن والمزايا، فلا يزال المرء يحب أمريكا - فوق كل شىء - لشبابها وخضرتها ومرونتها وبراعتها ونيّاتها الطيبة وأصدقائها وكل شىء »(١٩).

---

(18) W.J. to C.E. Norrton, June 26, 1901; L.W.J., 11, 152.

(19) W.J. to Mrs. Henry Whitman, Octobr 5, 1899, L.W.j., 11, 105.

وفى ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٢، كتب چيمس رسالة مطولة إلى صحيفة – (Springfield Republican) – عن موضوع القصاص العرفى بلا قانون (lynckhing). ولقد طبعت من هذه الرسالة أعدادًا كبيرة، ووزعت على نطاق واسع، ولقيت كثيرا من التعليقات لدرجة أن چيمس عقد مؤتمرًا صحفيا مع صحيفة "بوسطون جورنال: Boston Journal". عن نفس الموضوع.

ولقد جلبت له هذه التصريحات المنشورة فى الصحف كثيرا من رسائل التأييد والاستحسان من الشمال، وكثيرا من رسال السخط والاحتجاج من الجنوب.

فعند چيمس، كان القصاص الوفى وحكم الغوغاء ظاهرتين سيكولوجيتين وخليقتين على السواء، تفصحان عن قوى الاندفاع الانفعالى القادرة على اكتساح كل ضروب الكبح العادية، عندما تلقى تحريضًا اجتماعيًا:

"فى وسع المرء أن يقول: إن الفرد العادى المتحضر الذى يذهب إلى الكنيسة، لا يفقه شيئا مطلقا عن التيارات العميقة للطبيعة البشرية، أو عن المقدرة الأصلية على الاثارة الفتاكة التى تكمن راقدة فى عقر صدره. إن الحاجز المسبك المحكم الإغلاق الذى يحتبس وراءه الوحش الضارى الكامن فينا حاجز صناعى وليس عضويا أبدا. وأقل وهن فى الضغط الخارجى، وأقل مزغل أو كوة من الاستثناء المباح، تجعل الحاجز كله يرشح، ومن ثم يبدأ الفتك الضارى مرة ثانية فى الطغيان ومجاوزة الحاجز. وحيث يكون الحافز جماعيًا، وحيث يعتبر القتل والفتك والجريمة واجبا للقصاص والثأر أو واجبا وقائيا، فهنا يكون الخطر على الحضارة أعظم ما يمكن فداحة وتخريبا. وبعد ذلك، كما هو الشأن فى عملية أخذ الثأر المتوارثة، وفى المبارزة وفى المذابح الدينية، فإن التاريخ أصدق دليل على مدى صعوبة محو عادة القتل الإنسانى إذا ما رسخت واستقرت" (٢٠).

وفى حالة "وباء القصاص العرفى"، مثلما هو الشأن فى حالة الروح الحربية والنعرة القومية، فإن چيمس كان فى غاية القلق العميق من جراء الدور الجديد للصحيفة الشعبية الرائجة:

---

(20) Springfield Daily Republican, July 23. 1903.

" لقد اعتدنا أن نزعم أننا - معشر الأمريكيين - أصحاب فطنة خاصة صائبة الفكر صلبة الرأى. واليوم يبدو أن القوم أصيبوا بقارعة من الحماقة المطبقة. فمبادئهم التى يقرون بها ويجهرون بها لا تعنى شيئا بالنسبة لهم، وأى عبارة مثيرة ينعق بها ناعق، أو إرجاف مثير للانفعال، يسلبهم عقولهم ويستبيها. والصحافة المثيرة المرجفة هى أداة نشر وإذاعة وإصدار هذه الحالة العقلية، الأمر الذى يعنى. " عصورا مظلمة " جديدة قد تدوم قرونا أكثر من العصور المظلمة القديمة التى سبقتها. بيد أن الأمية فى العصور المظلمة الأولى كانت وحشية وبكماء، والقوة كانت سلابة نهابة ضارية بلا استخفاء. أما الآن فالأمية تملك تنظيما أدبيا كتابيا هائلا جبارا، والقوة مراوغة بالمكر السيئ، والنتيجة المحتمة هى ظاهرة جديدة فى التاريخ - ضربة لازب - ظاهرة تتضمن كل ضروب الإثارة المعتلة والإرجاف السقيم والنفاق والرياء والكذب فى العقل الجماعى " (٢١).

أما آخر القضايا التى ظفرت بتأييد جيمس فهى الصحة العقلية والأسباب التى حركت جيمس واستفزته. فقد عرضها على أحسن وجه فى الرسالة المطولة التى بعثها بتاريخ ٢ يونيه سنة ١٩٠٩، إلى المستر جون د. روكفلر الكبير، على أمل الحصول على معونة مالية للقضية:

"فى أثناء حياتى "باعتبارى عالمًا نفسيًا" كان لى شغل كثير مع ملاجئنا ومستشفياتنا الخاصة بالمجانين، ولقد حاك فى صدرى وأثر فى نفسى تأثيرًا مؤلما جسامة وضخامة الشر الإنسانى الذى ينطوى عليه لفظ "جنون"، إلى جانب عجز تدابيرنا عن مكافحته.. لدرجة أننى منذ زمان بعيد سجلت على نفسى عهدا، بأننى إذا قدر لى، بفضل الله أن أكون قادرا على أن أترك أى مال للنفع العام، فلابد أن يخصص هذا المال " للجنون " فقط.

إن تدابيرنا العادية المألوفة لا تراعى العلاج الوقائى ولا الرعاية بعد المرض. وما يتعين اعتباره مرضًا وظيفيًا عاديًا، يعامل بوصفه وصمة عار اجتماعية.. أما مناسبة وضع سخطى تحت نظر رجل عملى، فمرده إلى كتاب رائع نشر حديثا بعنوان " عقل وجد نفسه " وهو من تأليف كليفورد و. بيرز من نيوهافن... فإليه يعزى فضل إقناعنا جميعا بأن ميقات عمل شىء - وليس مجرد الإحساس والرغبة وتسجيل الخواطر - قد حل ".

---

(21) July 27, 1903, to Dr. Samuel Delano who in a letter in lynching, Evening Post, July 24, 1903 had emphasized the importance of public opinion.

إن تأييد جيمس الإيجابى " للقضايا " يكشف الطبيعة المحددة لمثاليته العملية. فالخير ليس شيئا لمجرد التأمل والتبصر فيه، وإنما هو شيء يستحضر ويسعى فى إتمامه. صحيح أنه يتعين الشعور به، ولكن الوسيط وليس المشاهد هو الذى يشعر به. فالمثل العليا منوطة بالإرادة، وليست موضوعات للذوق. هذه هى وجهة النظر التى ينطوى عليها رد فعله العنيف حيال سانتايانا. ففى سنة ١٩٠٠ بعد أن قرأ كتاب سانتايانا " الشعر والدين " كتب جيمس إلى بالمر ما يلى:

" إن الحدث العظيم فى حياتى أخيرا هو قراءة كتاب سانتايانا. وعلى الرغم من أننى أنبذ أفلاطونيته نبذا مطلقا، فإننى صهلت طربا (بالمعنى الحرفى لكلمة صهيل) للكمال الرزين الرابط الجأش الذى يبسط به الموقف على صفحات كتابه واحدة وراء الأخرى.. من المنعش رؤية ممثل للاتينية المحتضرة ينهض من حالة النزع ويسدد مثل هذا اللوم والذل والتوبيخ لنا معشر البرابرة والهمج فى ساعة انتصارنا. ومع ذلك فما أغرب هذه الفلسفة الوهمية.. كما لو كان "عالم القيم" مستقلاً عن الوجود. إن شيئًا ما أحسن من شيء آخر... بكينونته فقط. إن فكرة الظلام لا تزيد ولا تنقص من فكرة الضوء -- باعتبارها فكرتين. ثمة قيمة أكثر فى وجود الضوء فى كينونته.. وعندما تهبط إلى الوقائع.. فإلام تنتهى نظمك المثالية المتناسقة المنظومة الكاملة؟ إلام تنتهى – عمليًا بشكل ملموس محسوس؟ دائما تنبثق الأشياء بالمحتوى المتزايد النامى للخبرة الوحدات التمثيلية، قوانين قرض الشعر، النظم الكنسية، المذاهب اللاهوتية، المبادئ المدرسية، باطل الأباطيل وحصاد الهشيم وقبض الريح..

أعطنى رالت هويتمان وبراوننج عشر مرات علاوة على القبح الجموح الذى يغبطينى ويسخطنى في براونج أحيانًا، وبشدة كما تمتعت بهجوم سانتايانا، إن البرابرة فى صف الصحة العقلية، وأولئك الذين يصرون على أن المثل الأعلى والواقع مطردان مستمران باتصال ديناميكى، هم أولئك الذين سيقدر لهم إنقاذ العالم وخلاصه. ولكنى مع ذلك مسرور بأن وجهة النظر الأخرى الموجودة فى العالم دائمًا وجدت أخيراً من يعبر عنها بيننا بمثل هذا التعبير الباهر الوقاحة والسفاهة والسلاطة»[٢٢].

(22) April 2, 1900; L.W.J., 11, 122-3.

ولقد أرسل بالمر إلى سانتايانا الرسالة المحتوية تلك الفقرات. ورد سانتايانا يوم عيد الفصح بالجواب التالي:

«لا مراء أنك اكتشفتني في كتاب « الشعر والدين » أكثر مما اكتشفتني في أشعاري أو في كتاب «معنى الجمال»، وإن كنت أحسست أن هذه الكتب الأخرى ليست أقل إفصاحا عما في دخيلة نفسي من كتاب الشعر والدين ... وأعتقد أنك ستتبين - بصرف النظر عن المزاح - أنني أقرب إليك مما تعتقد الآن. فما تقول مثلا عن قيمة الخير على اعتبار أنها قائمة في وجوده ، وعن اطراد واتصال عالم القيم بعالم الواقع ليس مختلفا عما ينبغي على أن أقر به وأعترف. إن المثل العليا فارغة عقيمة إذا لم تكن تحقيقات طبيعية ماثلة في الوجود، إذا لم يستدعها شيء موجود قائم، وإذا، بناء على ذلك، لم يصر تحقيقها حاضرا ومتجليا في خير واقعي...

لقد ضربتني مرات عديدة بضربة الوقاحة والسلاطة والعلو والاستكبار ، يا ترى هل تدرك سنوات كظم الغيظ التي قضيتها وسط بروتستانتية غير مفهومة ومتظاهرة بالتقوى، بل غالبا ما كانت مراوغة ماكرة كاذبة، مما جعلها غريبة عني تماما ومقززة لنفسي. ومما دفعني إلى الحاجة إلى أن أضع يدي في يد شيء يبعد عنها كثيرا ويعلو عليها كثيراً. إن عواطفي الكاثوليكية لم تسوغ لي أن أجهر بما عندي ، لأني شعرت أنها لا تزيد على كونها مجرد عواطف ليس لها سند عقلي وإنساني، ولكن دراسة أفلاطون ، وأرسطو أعطتني لغة، واستنادا إلى مثل هذه الحجة التي يمثلانها ويمثلها كل من يتقبلهما، فمن حقي أن أكون خلصا، ومن حقي أن أكون موضوعيا وفي اعتذاري على الإطلاق ، لأن الذي يتكلم ليس أنا، وإنما المنطق الإنساني هو الذي يتكلم فيّ. حقا إن برج بابل الذي نعيش فيه ليس فيه ما هو أكثر احتراما من وضع أسمى تقاليد العقل البشري موضع الدفاع. ولا شك، كما تقول إن اللاتينية في حالة النزع، مثلما كانت اليونان نفسها عندما نقلت إلى بقية العالم بذور فلسفتها العقلية، ولهذا السبب فثمة حاجة أكثر إلى ثقل ونشر التفكير المستقيم بين الشعوب التي تأمل في أن تسود العالم في المستقبل القريب، وإلا فسيصبحون سادته الجسميين الماديين فقط، وستحلق آلة الفنون الجميلة فوقهم من بعيد وتتجاوزهم لكي تحط فوق جنس آخر في المستقبل - ما زال في ضمير الغيب - ربما يكون أقدر على فهم الآلهة».

وفى حين أن چيمس عارض بشدة الطلاق الأفلاطونى للخير من حيز الوجود، وأصر على أن « المثل الأعلى والواقع مطردان مستمران باتصال ديناميكى»، فإنه لم يكن أقل معارضة من سانتايانا لأى اختزال للمثالى الواقعى. فالمثل الأعلى شكل مفضل للحياة - شيء يتحول إلى واقع عن طريق طاقة الإرادة . ومن ثم فإن چيمس رفض - باستمرار - مطابقة المعانى بالأصول، واختلافات القيمة بالاختلافات المادية، والأهمية بالجسامة والضخامة أو التقدم الأخلاقى بالتاريخ الطبيعى[٢٣].

(23) W.B., 100; L.W.J., 11, 345-6.

(٢٨)

الأنواع المختلفة للخبرة الدينية

إن فترة انشغال بال جيمس بالفلسفة العلمية بلغت أوجها فى محاضرات جيفورد لسنة ١٩٠١، وسنة ١٩٠٢. وفى نشر هذه المحاضرات فى سنة ١٩٠٢، تحت عنوان "الأنواع المختلفة للخبرة الدينية". وكان ذلك، أولا وقبل كل شىء، عملاً من أعمال الطاعة البنوية.

كتب جيمس إلى زوجته فى السادس من يناير سنة ١٨٨٣، بعد موت أبيه مباشرة فقال:

"سيضاف إليك عمل واحد جديد بعد الآن، أو بالأحرى ليس عملاً جديداً بقدر ما هو" عقلنه " جديدة لعمل قديم، يجب عليك ألا تتركينى حتى أفهم شيئًا أكثر عن قيمة ومعنى الدين - فى معنى أبى - بالنسبة للحياة العقلية للإنسان ومصيره. إنه ليس الشىء الواحد المفرد المطلوب كما قال، ولكنه محتاج إليه مع الباقى. أما أصدقائى فقد أسقطوا الموضوع كلية. وأما أنا - فبصفتى أباه (إن لم يكن من أجل أى سبب آخر) فيجب على أن أساعده على نيل حقوقه فى أعينهم، وأن أضع الأمور فى نصابها. ولهذا السبب يجب علىّ أن أتعلم أن أفسره التفسير الصحيح - كما لم أفعل من قبل أبدا، ويجب عليك أن تساعدينى ".

وكتاب " الأنواع المختلفة للخبرة الدينية " هو الوفاء بهذا العهد بعد انقضاء عشرين سنة تقريبا. ولعل مما يثير الدهشة، ألا يكون فى هذه المحاضرات سوى النزر

اليسير من العلامات الخاصة الدالة على أثر أبيه(١). ولكن الأثر لم يمتد إلى التفاصيل. كما أنه لم يتضمن المبادئ اللاهوتية التى زخرت بها مؤلفات أبيه. لقد قال جيمس مرة: " أنا نفسى أعتقد أن الشهادة على أن لا إله إلا الله، تكمن - بادئ ذى بدء - فى خبرات شخصية " التى كان أهمها بصفة رئيسية الإحساس المعين بالتأييد من قوة علوية (٢).

وبالقياس إلى جيمس نفسه فإن الأفكار الواردة فى " الأنواع المختلفة للخبرة الدينية " تمثل أحد خيطين يمكن اقتفاء أثرها باطراد إلى فترة شبابه. كان هناك دائما نوعان من الإيمان. إيمان الجهاد وإيمان السلوى، أو - كما لا جناح من تسميتها - إيمان ضد التيار (مشرعة النهر)، وإيمان مع التيار (إدبارة النهر). فالأول هو الإيمان الذى ينثبق من القوة. فإيثارا للخير على الشر، يجاهد الشخص الأخلاقى ويكافح ويناضل، من أجل الخير بذلك الضرب من الثقة التى يشعر بها الرجل الشجاع فى نفسه وفى حلفائه، متهللا وجذلا بالخطر، ومعتزا بالتباس الأمر عليه، وبأنه غير محقق. هذا هو إيمان الصلابة العقلية (٣) عند جيمس، الهواء المنعش الذى يفضل أن يتنسمه عندما يصفو مزاجه وتطيب نغمته الصحية، ثم هو أيضا إيمان الملاذ الأخير الذى يلجأ إليه عندما يحرمه الشك والارتياب من كل سند آخر. إنه نوع الدين المميز بنوع خاص "لإرادة الاعتقاد". والثانى هو الإيمان الذى ينثبق من الضعف الإنسانى

---

(1) He refers to his father's conversion at Windsor in 1844 as an instance of "panic fear", but did not introduce it becaues there was "too much context required". (V.R.E., 161, W.J. to F. Abauzit, June 12, 1904) There is something reminiscent of his father in the vivid thrust at Calvinism in a footnote, "The very notion that this glorious universe, with planets and winds, and rafters laid in technicalities of criminality, is incredible to our modern imagination,,. (V.R.E., 448).

(2) Pragm., 109; cf. L,R.H.J., 13-4, 72.

(3) Opposed to "tender-mindedess", ct. Pragm., Lect. I; not to be confused with "healy-mindedess", as Jams discusses it in the Varieties.

ويطلب المأوى والمهرب والسلامة والأمن [٤]. ففى إيمان الجهاد يكون الدين منبها للإرادة، فى حين أن إيمان السلوى قابع فى استرخاء وفتور فى قاع قلب المرء. وعلى الرغم من أن الإنسان قد يجذف بتحمس وجد، فإنه يعى ويدرك تماما أن الذى يحمله إلى بر الأمان - بسلام وبعناد - هو التيار ذاته الذى يطفو عليه المرء.

ولقد فهم جيمس الحاجة إلى هذا النوع من الإيمان، بسبب ما انتابه من كلال وإعياء وضجر من حين لآخر، وبسبب عطفه ومشاركته الوجدانية وإحساسه بتلك الحاجة القصوى وبتلك الورطة المحزنة التى يشترك فيها الناس. ولهذا النوع الثانى من الإيمان - إيمان السلوى - أولى جيمس عناية خاصة فى محاضرات جيفورد.

وهناك أيضًا علاقة وثيقة بين وجهة نظر جيمس فى تغيير الدين أو الملة، وبين " أزمته " التى تعرض لها فى (١٨٧٠ - ١٨٧٢). ولقد أفاد من إحساسه باليأس المظلم والخوف الوبيل المسؤود، فى كتابه "الأنواع المختلفة للخبرة جعلته "يحس بالمشاعر الوبيلة المسؤودة للآخرين" وبأن كآبته (ماليخوليا) وخروجه منها، كانت لهما "علاقة دينية". أما خلاصه هو نفسه فقد أتى عن طريق الاعتماد على النفس وفكرة الحرية الأخلاقية، لا عن طريق الإحساس بفضل الله المعين، ولكنه أحس بتغيير واضح فى المزاج وبشعور بتجدد الحياة ثانية شبيه بالإحساس " بالميلاد مرة ثانية " [٥].

على أنه فى نفس الوقت الذى انبثقت فيه محاضرات جيفورد من الوفاء البنوى ومن خبراته الشخصية، فإنها أيضًا عبرت عن الاهتمام السيكولوجى الذى سيطر عليه فى أثناء التسعينيات. ولقد زوده الدين بأعظم مجموعة مفردة - أعظم فى كلا الحجم والمقام على السواء - من تلك "الحالات العقلية الشاذة " التى عنى بها أيضًا" فى أبحاثه الروحانية النفسانية"، وفى اعتراضه على الحرب وعنف الغوغاء، وفى دراساته للأمراض النفسية.

---

(4)This alternativ appears clearly as early as 1861; cf. L.W.J., 1, 128 ff.

(5) Cf. above 135, and below, 360; V.R.E., 160-1, L.W.J., 1, 145-8.

كتب فى سنة ١٩٠٢ يقول "أعتبر كتاب الأنواع المختلفة للخبرة الدينية – فى معنى معين – بمثابة دراسة فى علم النفس المرضى، يقوم بدور الوسيط والمفسر للماديين، شارحا لهم الكثير مما كانوا يحتقرونه وينبذونه نبذ النواة – برمته – خلافًا لذلك".

كان جيمس قد سبق له فى محاضرة إنجرسول عن "الخلود الإنسانى" أن قدم الغرض الخاص " بالبحر الأم " من الوعى الذى فى وسع الوعى المحدود المتناهى للإنسان أن يتلقى منه العون والسند وضمان البقاء [٦].

كما أننا يجب ألا ننسى، وإن كانت مقتضيات السياق المنظم لا تسمح إلا بإشارة عابرة إليها هنا، أن أول إعلان على الملأ للبراجماتية حدث فى سنة ١٨٩٨، بعد أن شرع جيمس فى إعداد محاضرات جيفورد بوقت قليل. وفى محاضرة كاليفورنيا عن "المفاهيم الفلسفية والنتائج العملية" أشار جيمس إلى تطبيق خاص للبراجماتية فى فقرة تحدد بوضوح ميدان البحث الدينى:

"إن الذى يحفظ استمرار الدين هو شىء آخر خلاف التفاسير المجردة ونظم النعوت المتسلسلة فى ارتباط منطقى، وهو شىء مختلف عن كليات اللاهوت وأساتذتها. كل هذه الأشياء هى نتائج بعدية، تراكمات ثانوية على جمع من الخبرات الدينية المحسوسة الملموسة مرتبطة بالإحساس والمسلك تجدد نفسها (In Saecula Saeculorum) فى الحياة الخاصة للناس المتواضعين. فإذا سألت ما هذه الخبرات، فاعلم أنها محادثات مع الخفى الذى لا يرى، أصوات وأشباح ورؤى، واستجابات للدعاء، وتحولات وتبدلات فى القلوب، وخلاص من المخاوف، وانسكاب داخلى للعون، وتوكيدات التأييد فى ساعة العسرة، كلما عقد أشخاص معينون نيتهم على أمور معينة بالذات وبطرق معينة سديدة"[٧].

وعلى الرغم من أن تعيين جيمس فى منصب محاضر جيفورد لم يعلن رسميًا حتى سنة ١٨٩٨، فإنه رشح له قبل ذلك منذ عام ١٨٩٦، وبدا بطريقته المعهودة يجمع المراجع والكتب والقصاصات، والاقتباسات، والبيانات والأوصاف والرسائل، وكلها

---

(6) To Boris Sidis, September 11, 1902; cf. above, 206.

(7) C.ER., 427-8.

مادة لم يبدأ فى وضعها فى شكلها النهائى المكتوب حتى سنة ١٩٠٠. وتصادف أن اتفقت هذه الفترة مع انهيار جسمانى عنيف. فلقد كان فى ذلك الصيف سنة ١٨٩٨ أن جيمس، بعد مجهود جسمانى فائق الحد، قضى (his Walpurgis Nacht) فى جبال الأديروانداك [٨].

وفى حين أنه ليس ثمة ريب - كما قال هو نفسه، أن مشروع محاضرات أدنبرة التى أزمع إلقاءها عن الدين " عقَّدت الأمور تعقيداً شديداً... لقدام" [٩]، لكن مجهود عشر ساعات ونصف ساعة من المشى المتعب مع حمل حقيبة، وخصوصا بعد عام شاق مضن، تسبب فى إحداث تلف فى صمام قلبه لا سبيل إلى إصلاحه، لقد دفع ثمناً غالياً لإخصاب خبرته. وفى أواخر صيف نفس السنة أفرط فى إجهاد نفسه ثانية فى تسلق الصمد (جبال متسلسلة وعرة تعرف بال: Sierr). ثم بعد ذلك فى يونيه سنة ١٨٩٩ "ضل طريقة فى جبال الأديروانداك، وحول ما كان من المفروض أن يكون جولة إلى ثلاث عشرة ساعة من التسلق الزاحف دون طعام. وفى حالة من القلق الشديد".

وهذا لسخرية واحدة من سخريات القدر، عانى من سوء الحظ مرتين فى نفس البقعة التى أحبها أكثر من أى مكان آخر فى الدنيا، ومن ذلك الحين حيل بينه وبين ذلك النوع من الترويج الذى اعتبره "حصنه الرئيسى الذى يلوذ بسلامته الفطرية ابتغاء صحة روحه" [١٠].

وابتداء من يوليو سنة ١٨٩٩، بدأ يدخل فى فترة من السقم والضعف والوهن من نوع خاص غريب يكاد ينفرد به من دون الناس جميعا، فترة لم يشعر فى أثنائها إلا بالكبت فقط، ولكنه استطاع فى أثنائها - على نحو ما - أن يدبر أمره بتثمير شظايا وقته والإفادة من الفقرات المتقطعة من نبضان قوته، لكى يمضى قدما ويقطع أشواطاً طيبة فى العلم والكتابة. وسوف نلاحظ، وهذا أمر جدير بالتنويه، أن الجزء

---

(8) Cf. below. 364.

(9) To A.H.J., July 9, 1898; L.W.J., 11, 76.

(10) To H.J. 2, August 8 and June 21, 1899.

الأكبر من إنجاز جيمس الفلسفى "ليس فقط الأنواع المختلفة للخبرة الدينية"، ولكن أيضًا إنشاءه للبراجماتية برمتها، وبلوغه أوج إثماره الميتافيزيقى، بالإضافة إلى كل المحاضرات والأسفار والمحاجات والمراسلات التى تضمنتها كل تلك المناشط، هذا كله حدث بعد أن حسب جيمس أن حياته المهنية قد انتهت، وعندما كان قد وقع فعلاً فى براثن ذلك المرض الذى ثبت أخيرًا أنه مميت. فلا غرو أن جيمس كان شاهد إثبات على "الطاقات الكامنة للإنسان" فى رصيده المذخور.

على أن معظم ما كتبه فعلا فى تلك الفترة تم وهو فى فراشه، وفى أوقات عندما كان الحد الأعلى الذى تسمح به قوته ساعتين أو ثلاث ساعات فى اليوم. وكان من الضرورى تأجيل المحاضرات من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٠١، ثم كان هناك دائمًا خوف ينتابه ويوجس فى نفسه خشية ألا يستطيع إلقاءها حتى إذا تمكن من إكمال أعدادها. ولقد بدأت السلسلة الأولى من المحاضرات فى أدنبرة فى السادس عشر من مايو سنة ١٩٠١، أسبوعين فقط قبل أن يكتب.

"أما فيما يتعلق بنفسى الحزينة - فإنى أشعر الآن بأننى متأكد من أننى سأكون قادرًا على إلقائها بنفسى (المحاضرات تبدأ يوم ١٦ مايو - وأرجوك أن تدعو لى بالتوفيق فى سرك فى ذلك اليوم). إذا استطعت أن أتحمل الالتزامات الاجتماعية فسيكون ذلك شيئا عظيما، فلقد أصبحت خلال العامين الماضيين هيابا جدًا من كل شىء، لدرجة أننى أخاف من الالتزامات الاجتماعية كما لو كانت كابوسا. لقد أصبحت نباتا نباتا متألما، إذا جاز أن يكون هناك شىء كهذا، وحيث إن الشبيه ينجذب إلى الشبيه، فلن تتحسن صحتى بشكل رصين حتى أستطيع أن أجد نفسى مستلقيا على خضرة أمريكية، راقدا تحت شجرة أمريكية عليها سنجاب يناغينى من فوقها " (١١).

وأحرزت المحاضرات نجاحًا باهرًا فى عدد جمهور المستمعين وفى اهتمامهم وشغفهم بها على السواء، وأعاد إليه النجاح ثقة المحاضر فى نفسه. وبعد قضاء فترة الشتاء فى بيته عاد إلى أدنبرة ثانيا فى ربيع سنة ١٩٠٢.

---

(11) To Frances R. Morse, April 30, 1901.

وفى التاسع من يونيه كتب إلى تيودور فلورنوى فى سويسرا، ما يلى:

"انتهت آخر محاضرة اليوم ومضت إلى غايتها - نحو أربعمائة مستمع صامتين ومصغين، وكأن على رءوسهم الطير. وتحمس منقطع النظير فى ختام المحاضرة. ولكن ما أسعدنى بانتهائها. أنى لأشعر بالفرج بعد كرب. وفيما بعد لن أتعاقد ثانية على مثل هذا الالتزام. أنا مرهق وفى حالة إعياء تام، مضن وسأعود إلى أهلى لاستئناف حياتى العادية لكى أسترد عافيتى".

وكان جيمس قد أعد هذه المحاضرات للطبع والنشر قبل أن يغادر أمريكا إلى أدنبرة، وظهرت فى يونيه تحت عنوان " الأنواع المختلفة للخبرة الدينية، دراسة فى الطبيعة الانسانية ". ولقى الكتاب، كالمحاضرات، نجاحًا منقطع النظير. وفى هذا الصدد كتب جيمس فى التاسع من يناير التالى، رسالة أخرى إلى فلورنوى قال فيها:

"لقد راج الكتاب رواجًا، فائق الحد - بين قراء الإنجليزية - بالنسبة لكتاب ثمنه ثلاثة دولارات. والطبع ماض على قدم وساق، وقد بلغ الآن عشرة آلاف نسخة. وتهطل على رسائل التأييد والتحمس من أغراب لا أعرفهم، أما المقرظون والنقاد، دون استثناء واحد، فكلهم يستعملون كلمة "غير مرض"، وبعد أن أرضوا ضمائرهم باستعمال هذا اللفظ شرعوا فى معاملتى برفق وهوادة وعطف ومديح وإطراء".

بيد أن هذا الناجاح كان متوقعا، فالشىء الذى لا شك فيه أن جيمس كان يتوقعه، بشىء من الريبة حقًا عندما قال: "سيكون كتابا رائجًا لدى الجمهور - لاشك - وإن كان بيولوجيا جدا بالنسبة للمتدينين، ودينيًا جدًا بالنسبة للبيولوجيين" [١٢].

والمبحث الرئيسى لكتاب "الأنواع المختلفة للخبرة الدينية" يتجلى على أحسن وجه، فى رسالة كتبها جيمس إلى المس فرانسيس ر. مورس جاء فيها:

" إن المشكلة التى أخذتها على عاتقى مشكلة صعبة: **أولاً**: الدفاع عن "الخبرة" ضد الفلسفة، على اعتبار أن الخبرة هى العمود الفقرى الحقيقى لحياة العالم الدينية. **وثانيًا**: أن أجعل السامع أو القارئ يؤمن بما أومن أنا به نفسى إيمانا لا يتزعزع، وهو أنه على الرغم من المظاهر الخاصة

(12) To C. Stumf, July 10, 1901,

للدين ربما كانت تبدو سخيفة وغير معقولة (أعنى مذاهبه ونظرياته)، فإن حياته ككل هى أهم وظيفة الجنس البشرى على الإطلاق " (١٣).

وبعبارة أخرى فإن الدين ليس ناتجا ثانويا، مجرد حالة من الشعور أو الأداء تستدعيها نظرة دنيوية للعالم، ولكن الدين له بينته المباشرة والمستقلة الخاصة به. هناك معلومات دينية أو حقائق ومدلولات. وليس مجرد أفكار دينية أو عواطف. ومنذ وقت مبكر يعود إلى سنة ١٨٨٤، كان جيمس قد كتب إلى دافيدسون أنه أولى به أن ييأس "من أى دين رائج له صبغة فلسفية" ووجد نفسه يتساءل:

"عما إذا كان من الممكن إقامة أى دين رائج شعبى على أنقاض المسيحية القديمة، دون وجود اعتقاد فى حقائق وممكنات روحية ونفسانية جديدة. إن النظر وإمعان الفكر والتأمل.. المجردة عن الروح وعن حقيقة نظام أخلاقى، لن تفعل فى عام واحد ما تفعله فى لحظة واحدة، ومضة أو لمحة تنفذ إلى صميم عالم من الممكنات الظواهرية التى تغلف ممكنات الحياة الراهنة، والتى يزودنا بها نفاذ بصيرتنا فى نظام الطبيعة " (١٤).

ولقد كانت تلك "الممكنات الظواهرية" هى التى انصب عليها اهتمام "الأنواع المختلفة للخبرة الدينية". ولكن، فى حين أن جيمس طابق الدين – على سبيل التماثل – بخبرات معينة خاصة، وبحقائق معينة، وبأحداث وقوى وبمواجيد وكيانات تكشفها تلك الخبرات، فإنه لم يطابق الدين – على سبيل التماثل – بأى عقيدة معينة بالذات. كان يعنى بالدين الأديان التاريخية، ولكن بالقياس إلى محتواها المشترك وليس بالقياس إلى مذاهبها التعسفية الخاصة. فالدين شىء أكثر أصالة من العقل والمنطق، وند لهما فى السلطة سواء بسواء. "فالإيمان يتفرع بعيداً عن طريق المواصفات الرئيسى قبل أن يبدأ العقل" ذلك ما قاله جيمس لأحد طلابه الملحدين (١٥).

---

(13) April 12, 1900; L.W.J., 11, 127; for other parts of this cf. above, 216.

(14) March 30, 1884, L.W.J., 1, 236-7.

(15) Reported to the auther by Francis G. Allinson Harvard' 77.

وكتب جيمس فى مذكراته التى أعدها لمحاضرات جيفورد تحت عنوان "الإيمان"، ما يلى:

" يبدو أن الصراع بين الجزء الأقل وضوحا وتفصيلا، والاكثر عمقا من طبيعتنا، لكى يثبت ويصمد ويقاوم ضد محاولات الجزء الأكثر سطحية ووضوحا، أو الأكثر ثرثرة وشقشقة من طبيعتنا، لكبته وقمعه وإخماده. فالجزء الأعمق يؤمن، ولكنه لا يستطيع أن يقول إلا قليلا جدا. فهل ينبغى لهذا الجزء أن يرعب؟ أن يخضع؟ أم ينبغى له أن يصمد ويقف على قدميه مستعينا بمدده من الضوء والنور والسنا الذاتى. إن المرء لا يستطيع أن يحول كافرا حقيقيا بالدين أكثر مما يستطيع أن يحول بروتستانتيا إلى كاثوليكى. ولعل عرضى لأمثلة صارخة ومتطرفة وغير معقولة ربما يؤيد ويثبت مثل أولئك الجاحدين بالكلية. ومن المرجح أنهم سيقولون: أرأيت أسخف من هذا السخيف؟ ولكن يجب علىَّ أن أضرب الأمثلة وأشكل الأشياء وأسوق الحجج المفضية إلى نتيجة أن دين المرء هو أعمق وأحكم شىء فى حياته. يجب علىَّ أن أقرر بصراحة وأشيد - بلا مواربة - الثلمة القائمة بين حياة العقل البين وبين دفع اللاوعى الجزء الغريزى غير العاقل، الذى هو أكثر حيوية وفى الدين تصدر الحاجات الحيوية والمعتقدات الصوفية العلوية. من منطقة وراء أو أبعد من أو فوق العقل. وهى مواهب أو منح. والمسألة مسألة حياة، حياة فى هذه المواهب أو عدم حياة. وهنا تعرض فرصة لعمل شىء قوى ولكن الأمر من الصعوبة بمكان ".

والفقرة الأصلية التى كتبها جيمس ليستهل بها محاضرات جيفورد، وأكدت فذاذة الخبرة الدينية، وأكدت قطع علائقها مع " العقل البين ".

" ثمة شىء فى الحياة - عندما يشعر الإنسان بوجوده، ويبدو أنه يتحدى كل المصادر الممكنة للتعبير اللغوى.. إن الحياة تتحدى أساليبنا البيانية، ليس فقط لأن الحياة موصولة على الدوام إلى ما لا نهاية، ومراوغة وفرارة ومغطاة بالأستار والحجب، فى حين أن ألفاظنا الكلامية مميزة ومنفصلة، وخام وقليلة، ولكن لأنه لا يزال هناك تباين أعمق من ذلك بكثير، فكلماتنا تأتى معا مستندة بعضها إلى بعضاً جانبيا لكى تتماسك، فى تسلسل وتتابع ومحمولات (مسند ومسند إليه). ولا يوجد أبدا محمول لا يحتاج إلى محمولات أخرى بعده لتقويه وتعظمه، وتقيده أو لتخلصه - بطريقة ما - من التمويه أو الزيف بسبب النقص أو المبالغة التى يحتويها. وكذلك الأمر بالقياس إلى الحياة أيضاً،

فإنها فى معنى ما، تتعثر فى حقيقتها نفسها بطريقة مشابهة، لأن لحظاتها السابقة تغوص بلا توقف فى اللحظات اللاحقة التى تعيد تفسيرها وتصحـحها. بيد أن هناك شيئا آخر غير ذلك فى الحياة - شيئا لا نظير له مطلقا فى التفكير الكلامى . واللحظات الحية - بعض اللحظات الحية - على أية حال فيها من الإطلاق والحرية والتمام التى لا تحتاج إلى إسناد جانبى. ويبدو أن معناها يتبع من نفس مركزها ذاته، بطريقة يستحيل وصفها بالكلام. إذا أخذت قرصا على سم حلزونى متحد المركز، ثم أدرت هذا القرص حول محور، فسيبدو لك القرص وكأنه يكبر باستمرار وعلى نحو غير محدود، وهو مع ذلك لا يستوعب أى شىء من الخارج، ويظل إذا ركزت انتباهك على حجمه الحقيقى، دائما بنفس الحجم. ثمة شىء - شبيه بمثل هذا التناقض الظاهرى - يكمن فى كل لحظة واهنة من لحظات الحياة. وهنا، أو أبدا - كما يقول أمرسون - الحقيقة برمتها. فاللحظة تقوم وتحتوى وتوجز كل الأشياء ، وكل التغير فى جوفها، تمامًا مثما يقع النظر المترامى الأطراف بكل حجمه وزيادته فى النطاق المحصور للمربع الزجاجى للنافذة الخلفية من آخر عربة من عربات قطار يهب الأرض بأقصى سرعة. هذا الإسناد الذاتى وسط المحور الذاتى، الذى يميز كل الواقع والحقيقة، شىء غريب على الإطلاق عن طبيعة اللغة، بل عن طبيعة المنطقة كما اصطلح على تسميته. شىء يتجاوز دائمًا التعبير ويفلت من البيان وينسحب من التحديد، يجب أن يلمح ويستشعر، لا أن يقال، ولا أحد يعرف ذلك مثل أستاذك الحقيقى للفلسفة، لأن ما يتشقشق كالبصيص ويتلألأ فى طرفة عين كجناح طائر فى ضوء الشمس، فمهمة الفيلسوف بالذات أن يختطفه اختطافًا ويثبته تثبيتا.

وفى كل مرة يطلق فيها طلقات ألفاظه الخنفشارية من بندقية رشه الفلسفية، فمهما شعر بحميا النجاح ظاهريا، فإنه فى دخيلة نفسه، يدرك فى نفس الوقت الباطل الأجوف وعدم تعلق ما يفوه به، بالأمر وبصفة خاصة تكون هذه هى الحالة عندما يسمى الموضوع المطروح على بساط البحث بفلسفة الدين. إن الدين هو المركز الداخلى واللب الجوهرى للحياة الإنسانية، والزعم الذى يدعى أنه مترجم على نحو كاف واف إلى ألفاظ مفرودة تعبر عن أفكار مجردة ، ضرب من الخبرة تذوب فيها القريحة والشعور والإرادة، وكل وعينا ولا وعينا، فى مزيج كيميوى مذاب ، هذا الزعم فظيع وشنيع ومدعاة للاشمئزاز والمقت على الأخص. دعونى أقول بصراحة فى مستهل حديثى. إننى أومن بأن من المستحيل على ما يسمى فلسفة الدين أن يمكنها أن تبدأ أن تكون ترجمة وافية لما يجرى فى دخيلة الإنسان الفرد، حالة كونه يعبر عن نفسه - حيا يرزق - بإيمان وتصرف دينيين».

فالدين لا عقلى، وهو أيضًا ذاتى شخصى وهو مرتبط بما يجرى فى دخيلة الإنسان الفرد».

والجانب الاجتماعى أو النظامى للدين لم يظفر باهتمام چيمس أو يبدو له مهمًا. فالدين أمر يتعلق « بالطريقة التى تقع بها الحياة من نفس صاحبها، وبحاجته الصميمية ومثله العليا، وما يعتمل فى نفسه من كآبة ووحشة وحزن، أو من سلوى وعزاء وتأس، وما يصيبه من إخفاق وفشل وخيبة، أو من نجاح وفلاح وتوفيق»(١٦). كان هذا - على أية حال هو ما له قيمة وحساب - أما الباقى فمجرد الوسيلة - ولقد نشأت من توكيد چيمس لفذاذة الخبرة الدينية ومضامينها الواقعية الخاصة، علاقته المتناقضة مع المسيحية المعاصرة. إن نوع الدين الذى كان يهتم به كان أقرب إلى التقوى البسيطة للمذاهب الإنجيلية ، مما هو للتحررية الدينية الحديثة، فعند چيمس، كما هو الشأن مع طائفة النظاميين (Methodistrrs) كان الدين حدثًا ظاهرًا منظورًا، واضح المعالم فى تاريخ الفرد لا سبيل إلى نسيانه، وكان مغرما بأن يذكر - بشىء من المداعبة والمزح - أرثوذكسيته الإنجيلية لأصدقائه المتحررين من خدمة الدين المسيحى. وخصوصا لصديقه بوردين. ب. باون، أستاذ الفلسفة بجامعة بوسطون، الذى كان من طائفة النظاميين ، وكان من طراز حديث فلسفى بلغ درجة انتهت به إلى أن حوكم بتهمة الإلحاد. وبمناسبة أهدائه نسخة من كتابه «الأنواع المختلفة للخبرة الدينية»، لزميله الأستاذ فرانسيس ج. بيابودى كتب له «ستصنفنى باعتبارى نظاميًا ناقصًا «مسيح « أ » وكتب إلى فلورنوى الواقعة التالية : «جاءت رسالة بالأمس من قسيس متحمس يقول فيها إننى أحشر فى زمرة عيسى والقديس بطرس. وكتبت له من فورى الرد التالى (على طريقة هويسلار): « ولم نقحم القديس بطرس وعيسى؟(١٧).

(16) "Theological School Lectures" of 1902 or 1906.

(17) To Peabody, June 21, 1902, to Flournoy, July 23, 1902..

ووراء هذا القناع من الدعابة والفكاهة يكمن المعنى الجدى لمحاولة چيمس برمتها، كان يعتقد أن التحررية خلصت العقل على حساب نبذ الظاهرة التاريخية العظمى للدين، وفى المذكرات التى أعدها لمحاضراته جاء ما يلى :

« تذكر أن جوهر المسألة كلها يكمن فى الاعتقاد حقا وصدقا بأنك بواسطة جسر معين فيك أو نقطة معينة فيك تمتزج وتتطابق مع الخالد. وهذا فيما يبدو هو الإيمان المخفض فى كلا المسيحية والفيدانتية(*). وهذا الإيمان لا يقع من نفس المرء إلا فى أوقات معينة بالذات. والحياة الدينية الحقة الأصلية - دائمًا غنائية منشدة نابعة من الوجدان - "فالناسك لا يملك شيئا سوى قيثارته" وجوهر هذه الحياة هو أن تغطس فى مملكة أخرى وتشعر بنظام خفى محجوب عن الأعين. بحيث إن القيم المنقوطة بالإدراك والفهم والإحساس العادى تختفى فعلا على حسابها. وهنا حقًا. العداوة الحقيقية بين الإدراك العادى وبين الدين. وبين عقائد الأنبياء أصحاب المعجزات والخوارق - أيا كانوا وأنى كانوا. فكل فريق من جانب يرى أن الفريق الآخر مجنون فى نظره فى ضوء عالم مختلف متباين يعيش كل فريق فيه على حدة".

فى صيف سنة ١٩٠٢، ألقى جيمس محاضرتين أمام مدرسة هارفارد للاهوت. وبهذه المناسبة كتب إلى مونستربورج من شوكوروا فى الحادى عشر من يوليو يقول:

"سأحاضر فى كمبريدج، يومى الاثنين الثلاثاء. وإذا مضت على هذا المنوال فلا شك أنهم سينصبوننى مطرانا. أما بالنسبة لكتابى فلا تقرؤه حتى تقترب منيتك وتصبح على فراش الموت لكى يخلص روحك. وأحسب أن مثلك لابد أن يمقت هذا الكتاب إذا نظر فيه الآن"(١٨).

وفى هاتين المحاضرتين وسلسلة المحاضرات الخمس التى ألقاها فى صيف سنة ١٩٠٦، واصل جيمس توكيد التناقض القائم بين الاتجاه الحديث للتسويغ العقلى وبين جوهر الدين التاريخى:

(*) Vedantism: Hindu philosophy based on the veda (ancient Hindu scrip tures written in old form of Sanskrit). (المترجم)

(18) M. Münsterberg, Huge Münsterberg: His Life and Work, D. Appleton and Company 1922, 89.

" بين الرجل العادى الذى يذهب إلى الكنيسة وبين القديس العاطفى بوجد وحماسة يوجد ذاك العداء المستحكم المزمن بين أولئك الذين يميلون فطريا إلى " أن يجعلوا الدين موافقا للعقل " وأولئك الذين يدينون به ويطيعونه بطرق لا تلين ولا تحيد، ولا تقبل المشارطة ولا التسوية، وبوسائل متعبة مضايقة ثقيلة. وهذا العداء فى جوهره الأصيل هو العداء المستحكم بين مذهب طبيعى بمجمل مخفف هين لين، وبين مذهب غيبى فوق الطبيعة بمركز اهتمامه خارج هامش هذا العالم كلية. والحل الذى أراه - أنا - يؤثر وجهة النظر الأخيرة هذه".

وحتى فى داخل حزب مذهب ما فوق الطبيعة فإن جيمس طابق نفسه مع الجناح الأيسر. فثمة "فوق الطبيعية طبيعية" (عن كارليل) "فوق طبيعية فطرية داخلية أو كونية شاملة". وهى تميز القيمة من الحقيقة، ولا تكترث بالوصف العلمى لأنواع الوجود المعينة، وتؤول المجموع على اعتبار أنه فوق طبيعى. ولم ينبذ جيمس هذا الاتجاه نبذا مطلقا وهو فى مناقشته للدين لا ينبذ أى اتجاه. حيث إن من الخصائص الجوهرية لوجهة نظره أنه يتقبل ويحترم - باعتباره دينيًا - أى شكل من أشكال التقوى - أيا كان - ينطوى على الإحساس بالخلاص. ولكنه مضى من جانبه إلى الدفاع عن القضية القديمة الخاصة بما فوق الطبيعة " الثنائية، "الخاصة" أو المنفصلة "قطعة" "فقطعة" التى تبيح دخول ما فوق الطبيعة إلى نفس حيز الواقع مع الطبيعى. ولقد أحيا هذه القضية "بوصفها ممكنًا" مستشهدا بسيكولوجية الشواذ والخبرات الدينية للجنس البشرى بوصفها بينات لتأييد وجهة نظره.

مثل هذا التقرير الثابت كان فاجعا لمعظم الناس، ولكنه بالنسبة لجيمس كان على النقيض. فما كان يفجعه هو " الطرق المجردة البعيدة لاعتباره الحقائق الفردية " [١٩].

وجدير بالتنويه أن كتاب "الأنواع المختلفة للخبرة الدينية" كان يحمل تحت عنوانه الرئيسى "دراسة فى الطبيعة الإنسانية". وكانت نية الكاتب فى الأصل أن يجعل

---

(19) MThe same thema of "cress" vs. "refind" supernaturalism, is briefly presented in V.R.E., 520 ff.

الجزء الأول من السلسلة" وصفيا " والجزء الثانى " ميتافيزيقيا "، ولكن الجزء الوصفى زاد وامتد إلى درجة كبيرة جدا، بحيث اضطر إلى تأجيل الجزء الميتافيزقى إلى مناسبة أخرى. هذا هو على الأقل ما قرره المؤلف نفسه فى هذا الشأن. لقد اعترف بأنه يقدم الحقائق تاركا للقارئ استخلاص النتائج التى ينتهى إليها. وفى هذا الصدد كتب إلى بولين جولد مارك قائلاً: "الكتاب زاخر بفيض كبير من الطبيعة الإنسانية، ويجب أن يكتب على نحو "موضوعى" لأن أصدقاء الله وأعداءه على السواء - فيما يبدو - سيجدون فيه تسويفا وافرا لوجهات نظرهم المختلفة " (٢٠).

على أن الانطباع الذى خلفه الكتاب على القارئ هو: أن أصدقاء الله هم أصحاب الكلمة العليا فى الكتاب. فلم يكن وصف جيمس من ذلك الطراز المعقم الذى يسمى نفسه عادة علميا. صحيح أنه أدخل تخصصيين للتفرقة مثل: "مولود مرة واحدة"، "مولود مرتين " على سبيل التصنيف، ولكنه لم يقم لذلك كبير وزن، ثم إنه لم يستخدم الفروض التفسيرية لعلم النفس العام - بشكل منظم - سواء الفروض الشائعة المصطلح عليها التى كانت مألوفة فى الوقت الذى نشر فيه "الأنواع المختلفة للخبرة الدينية" باستثناء الفكرة المخالفة للتعاليم المسلم بها بها القائلة " بالوعى الناقص (وراء الوجدان)". ولقد ترك جيمس وثائقه الدينية تتحدث عن نفسها بنفسها، أو بالأخرى أعانها على أن تتحدث نفسها بنفسها.

وهكذا نجد، أنه فى حين اعتبر "الأنواع المختلفة للخبرة الدينية" بمثابة "دراسة فى علم النفس المرضى" ألا أنه بذل جهدا عظيما فى المحاضرة الافتتاحية لكى يخلص سامعيه من أى تحامل قد يشعرون به ضد حالة عقلية ما لمجرد كونها مريضة. وفى هذا الصدد قال فى مناسبة أخرى: " إن مجرد السلامة العقلية هى أكثر خصائص المرء مادية، وهى (فى واقع الأمر) أقلها جوهرية وضرورة " (٢١).

(20) To Pauline Goldmark, August 1, 1902.

(21) Letters of Charles Eliot Norton, 1913, 11, 348.

ومن ثم فإن الانطباع الذى خلفه جيمس فى القارئ هو: أن جيمس اعتبر الخبرات الدينية، على الرغم من أنها قد يحكم عليها بأنها مرضية بمعايير السيكاتيرى البحت، خبرات ملهمة، فى معنى ما وإلى حد ما. وهذه الصفة "الاستثنائية" الشاذة عن القاعدة هى التى جعلتها عنده حميدة وموضع استصوابه. ومما لا ريب فيه أن جيمس كان يسوغ الخبرة الدينية ولم يكن مجرد واصف لها فحسب. لقد وضع نفسه فى بؤرة وعى المؤمن أو المعتقد، وحاول أن ينقل حرارتها وشغفها بنفس ما فيها من إحساس أصيل. وكان مهتما بالقيم الدينية، وبأمل وإطراء الأشخاص باعتبارهم أشخاصًا من لحم ودم، ذلك الأمل والإطراء اللذان ينبغى الإحساس بهما وجدانيًا إذا قدر لنا أن ننقلهما على الإطلاق. وبعد ذلك وخصوصا فى الجزء الأخير من الكتاب دافع المؤلف عن دعاوى الخبرة الدينية.

إن الفلسفة فى شخص وليام جيمس، أكدت حقيقتها.

ثمة ثلاثة اختبارات يمكن تطبيقها على الحقيقة الدينية: الإشراق المباشر، والتعقل الفلسفى، والإسعاف الأخلاقى وهذه أسماء جديدة لمعايير المعرفة تظهر مرارًا وتكرارًا فى فلسفة جيمس. فهناك البينة المباشرة للحقيقة، وهناك توافق الحقيقة المزعومة مع العقائد المسلم بها من قبل بالاختصار البينة غير المباشرة للحقيقة، ثم هناك ائتلاف وتجانس الاعتقاد مع الطبيعة الهوية وخصوصا مع الإرادة الخلقية. والدعوى العالمية الشاملة للإيمان الدينى " بأن الشخص الواعى متواصل مطرد مع نفس أوسع وأعم تأتى عن طريقها خبرات الخلاص"، هذه الدعوى ترضى كل هذه المعايير على نحو كاف واف. " فالخبرات الصوفية إدراك حسى مباشر للحقيقة بالنسبة لأولئك الذين يمارسونها ". وهى فى هذا تتفق مع العلم، والفضل يعزى إلى الفرض السيكولوجى الذى قدمه فريدريك مايرز الخاص " بالنفس المتسامية " [٢٢]. أما تطابقها واتفاقها مع الفلسفة فيأتى عن طريق فرض التعددية. فالصوفية وجدانية عمومًا، وفوق الطبيعية عقيدة تعسفية عموما، ولكن جيمس يقترح تحولا جوهريا: صوفية تعددية وفوق

(22) V.R.E., 18, 515, 423-4, 242, cf. P.U., 299, 309.

طبيعية تجريبية. ولم يكن ذلك التماسا خاصا على سبيل المرافعة من جانب جيمس، وإنما كان بلوغ نهاية المطاف السديد لواحد من خطوط تطوره الفلسفي.

وفي وقت مبكر يعود إلى سنة ١٨٧٤، كان جيمس قد قرأ كتاب بنجامين بول بلود "الكشف المخدر"، الذي يعتبر معراجا من أهم معارج تفكيره كله فيما بعد. وفي سنة ١٨٨٨، راقته فكرة إدموند جورني التي سمَّاها " فوق الطبيعة الفضية " بمفهومها الخاص " بنظام خفي متواصل مع النظام الحاضر للطبيعة "، ومن هذه يوجد تحول طبيعي إلى فوق الطبيعة المنفصلة قطعة فقطعة أو "الخشنة" لسنة ١٩٠٢" (٢٣).

وأخيراً فإن "الإسعاف الأخلاقي" أو الائتلاف الهووي لمثل ذلك الإيمان الديني التعددي، يكمن في كونه ينقل إحساسا بالفرصة المفتوحة وبالمسئولية الجدية للوسيط الفردي. ويلحق بذلك "تلك الحالة العقلية العادية الأخلاقية" التي تجعل خلاص العالم متوقفا على "النجاح الذي تؤدي به كل وحدة دورها"(٢٤).

ولقد أثار كتاب "الأنواع المختلفة للخبرة الدينية" تعليقات كثيرة قادحة ومادحة، منشورة وغير منشورة، من زملاء المهنة ومن الأصدقاء الشخصيين. ولقد أوجز جيمس في ردوده على التعليقات، خلاصة ما جاء في الكتاب وقوَّمه. ومن بين الردود التي رد بها على قادحيه ومادحيه على السواء، كان أعظمها تألقا وإثارة هو ذلك الرد الذي كتبه لجاره في كمبريدج وصديقه القديم جريس نورتون:

شوكوروا ١٢ سبتمبر سنة ١٩٠٢

"عزيزي جريس:

رسالتك الخاصة بكتابي وصلت في حينها وملأتني بمزيج من مشاعر الشغف والأسى. وأنا لا أعجب من أن بلى وتعفن وحصيبية (نسبة على مرض الحصبة) كل هذا العدد الكبير من القديسين بعث فيك كل هذا النفور والتقزز والاشمئزاز الذي نأى بك عن عالم الغيب وحوَّلك إلى الطبيعية والإنسية.

---

(23) James's review of Gurney's Tertium Quid, in Nation, XLVI (1888) The varieties ends with a references to this writer.

(24) V.R.E., 526.

إن رسائلك هى فى التعبير وأعمقها فى الإحساس. وأعتقد أن وجهتى النظر يجب أن تؤثر إحداهما فى الأخرى، حتى تؤلفا محتوى مشتركا وطريقة حياة معا، بحيث إن مادة الحياة المباركة يكون التفكير فيها بالنسبة للانسانية خاصة ومقصوراً عليها، وبحيث إن الإلهام يكون الشعور به باعتباره علاقة إلى ملأ أعلى من الكون غير منظور الآن. ولكن الوقت سيطول ويطول قبل أن تتمكن الصيغ المختلفة للأشخاص من عدم إحداث سوء فهم فى عقول بعضهم. وثمة فرق عملى - حتى الآن - هو الفرق بين أصحاب العقول السليمة (وأنا أعتبرك من ضمنهم باعتبارك كاتباً لرسائلك) وأولئك الذين يقنطون جديا من السلامة العقلية المستقيمة باعتبارها حلاً جوهرياً. وأنا نفسى لا أستطيع أن أرى كيف يمكن أن يكون حلا عالميا شاملا، عندما يكون العالم مركزا لكل هذه التعاسة التى لا سبيل إلى البرء منها حقا بالطرق العادية، ولكنها تشفى (فى أفراد كثيرين) عن طريق خبرتهم الدينية. وليس فى وسع المرء أن يتجاهل الأشخاص التعساء، ولا الطريقة المعينة الخاصة التى يفرّجون بها كروبهم، على اعتبار أنها حقائق فى التاريخ الإنسانى لا سبيل إلى جحدها، ولما راجعت التاريخ الإنسانى - موضوعياً، لم يكن لى بد من أن أرى هناك، ظاهرتها المميزة على أرجح الاحتمالات. ولكنى من أنصار الذاتية إلى أبعد مدى، وأومن بأن المسألة بوصفها مشكلة عملية للفرد، تفرض أن الدين الذى يظاهره المرء يجب أن يكون الدين الذى يجده أحسن وخير دين بالنسبة له هو، على الرغم من أن هناك أشخاصا أحسن منه ودينهم أسن بالنسبة لهم. مثل رباطة الجاش هذه التى تدافع عنها، هى من أنبل الاتجاهات الشاملة المحيطة التى وجدت حتى الآن، وهى فى مواجهة جنون واختلال وعته الاعتقاد بالله بصرف النظر عن الوحى سيكون لها دور جبار ستؤديه يقيناً.

الصيف أخذ فى الزوال. وأنا أيضاً أدخل فى المحاق. ولعل ذلك مجرد "حاجة إلى التغيير فحسب" ولكنه أمر مثبط للعزم، خصوصا فى ظروف وأحوال تبدو وكأنها قطعة من جنات النعيم، أن يجد المرء أن تقدم كل هذه الأسابيع الكثيرة، يذعن ويستسلم للنكوص والارتداد. وفى مرجوى أن، بل وليس عندى شك، فى أن الأمور ستتحرك إلى أعلى ثانية عندما يبدأ الفصل الدراسى. أشكرك مرة أخرى يا عزيزى جريس، أشكرك ألف مرة لرسائلك الطيبة ولما تحتويه من نصيحة طيبة. وتقبل من أليس كل تمنياتها الحبيَّة مقرونة بالمحبة الدائمة من.

و م. چيمس

(٢٩)

إيمان چيمس الشخصي

من العسير التمييز بين إيمان چيمس الشخصى وبين تلك المعتقدات التى آمن بها الآخرون، والتى لم يتسامح معها ويحترمها فحسب، وإنما فهمها وأدركها بكل ما فيه عطف ومشاركة وجدانية، بحيث إنه أحس بصداها فى فؤاده.

وعلاوة على ذلك، فقد كان جزءاً من عقيدته لزوم وجود عدد كبير من العقائد، وليس من السهل أن نعرف متى كان يفصح عن مبدئه العام، ومتى كان يدافع عن إنجيله الخاص الذى يعزى إليه هو خلاصه. وفى معنى ما فإن عبقريته كلها كانت تكمن فى مضاعفة الفروق والأبدال وفى تسويغ كل مزاج وجبلة وفطرة من حيث هى.

وأخيراً، فإن چيمس كان رجلاً متقلب المزاج والأهواء. ونوع الإيمان الذى كان يستطيبه كان يتوقف على حالة مشربه الروحى، وهذا المشرب الروحى بدوره كان يعكس حالته الجسمية العامة ونغمته العقلية.

وكان چيمس فى صباه يجنح إلى التبشير بإنجيل الرواقية (فلسفة عدم المبالاة بالمؤثرات الجسدية كاللذة أو الألم) وخصوصاً لصديقة توم وارد، الذى وعظه فى وسط "ظلام ديسمبر" بأن يتذكر أن العالم لا يزال "حقًا" زاخراً بالحياة والمتعة كما كان دائماً[١].

(1) L. W.J., I, 128.

ولقد استمر هذا الدافع يعتمل فى نفس چيمس. ولأن چيمس نفسه كان يتعرض للوسواس ووهم المرض من حين لآخر، فقد كانت رباطة جاش الآخرين وشجاعتهم فى تحمل الآلام صابرين تمس قلبه، وتحرك عواطفه، بل تظفر بإعجابه وتقديره. ولما كان چيمس نفسه فريسة للتقلبات المزاجية بنوع خاص، فقد سعى إلى تبديدها وإلى تطهير وجهة نظره من تأثيرها المشوه:

"إن عزاءنا ينبغى أن يلتمس فى الركون إلى العالم. ومن الخسة أن يشكو المرء فى حالته الخاصة، من الذى يتعين على طاقة اللحم والدم - حتى فى حالة أكثر أعضاء النوع زينة وزخرفا - أن تقاسى منه. وفوق كل شىء فإن العالم ما زال زاخراً بالشباب والبكارة كما كان دائمًا من قبل، لو أننا قد أدركنا هذه الحقيقة عندما يهن العظم منا ويشتعل الرأس شيبا"(٢).

فهناك، إذن، ذخيرة مذخورة، واحتياطى مدخر أخير، من الرجولة والشهامة والموضوعية تعين الفيلسوف على الوفاق مع عالمه مهما قل نصيبه من الوئام معه. ولقد كان هذا جزءًا ثابتًا دائمًا من إنجيل چيمس، وإن كان أقل الأجزاء تميزًا له بنوع خاص.

والاعتراف التالى، الذى كتبه فى سنة ١٨٧٦، يكشف عن تبرمه بإنجيل من الشجاعة البحت فحسب، وكذلك الحوافز الإضافية التى حركته بقوة أخذت فى الازدياد بمرور السنين. قبول الدين باعتباره حقيقة تاريخية، وتسويغ العقيدة بالحاجة الذاتية، والاحتفاظ بالعقيدة الدينية للحظات التى تصبح فيها الحاجة على أشدها:

"إن صلابة رواقيتى تظلمنى أحيانًا. وموقفى من الدين هو موقف الإكرام والرعاية لا موقف التبنى والاتخاذ. فأنا أرى مكانه، وأشعر أن هناك أوقاتًا عندما يسقط فيها اعتبار كل شىء آخر، ويبقى ذلك الاعتبار وحده، ومع ذلك فإنى أسلك وأتصرف كما لو كان يجب على أن أتركه بلا مساس حتى تأتى مثل تلك الأوقات ثم أنجذب إليه بضغط الجو المحض. وأنا متأكد أننى على صواب جزئيًا. وأن الدين ليس عزاء وسلوى وراحة يومية. ومع ذلك فأنا أعلم أننى مخطئ جزئيًا".

---

(2) To S.H. Hodgson, June 25, 1902.

على أن أكثر العناصر تمييزًا فى إنجيل چيمس هو؛ إصراره على أنه حيثما تكن الذاتية الإنسانية على درجة كافية من العمق والشمول، ففى وسعها أن تفرض - بسداد - مطالبها على البيئة. فماذا كان المطلب الذاتى الذى شعر به چيمس أعمق الشعور واعتبره فى ذروة الصحة والشرعية.

لقد كان - كما رأينا - هو مطلب الإرادة الخلقية، تعتمد فيه قضية العدل والقسط، وقد تحررت من ربقة الشر، على حماسة وغيرة المخلصين لها والمكرسين ذاتهم لها.

بيد أنه كان هناك حافز آخر فهمه چيمس فهما غير مباشر عن طريق المشاركة الوجدانية للغير، وفهما مباشراً عن طريق آلامه ومعاناته بنفسه. هذا الحافز هو الحنين إلى السلامة والأمن والطمأنينة.

وهذا الحنين لم يتوقف أبدا عن حفز چيمس على الرغم من أنه كان خاضعًا - بلا ريب - لاستطابته الشديدة للجدة واقتحام المخاطر. ومن ثم، نجد أنه على الرغم من أنه أعلن فى سنة ١٨٨٥، فى "معضلة الجبرية"، حرب الإبادة ضد الشر، لكنه تردد فى إغلاق كل باب للسلام. وفى نفس السنة فى كتابه "الآثار الأدبية لهنرى چيمس" نادى بالتعددية والصحة العقلية من قبله، وبالوجدانية للروح المريضة من قبل أبيه. ولكنه، من ثم، مضى إلى القول:

"نحن جميعًا هؤلاء المرضى - على سبيل الاحتمال والإمكان - فأعقلنا وأحسننا من نفس طينة المجانين والمعتوهين ونزلاء السجون. وكلما شعرنا بذلك - انتابنا إحساس جارف بغرور وباطل حياتنا الطوعية المريدة، لدرجة أن كل أخلاقنا تبدو كما لو كانت لصوقا يخفى تحته قرحة رمت على فساد، ولا سبيل إلى البرء منها أبدا، وكل عملنا الطيب يبدو كما لو كان أجوف بديلا عن تلك الكينونة الطيبة التى ينبغى أن تكون هى فعلاً لب حياتنا، والتى - نحن بكل أسف - لسناها".

"إن التعددية نظرة - نكاد كلنا نجنح إليها عندما تكون تمام الممارسة الناجحة الموفقة لطاقتنا الأخلاقية"، وقد كان هذا هو إنجيل چيمس عندما يكون فى أحسن حالاته وأعلى منجزاته[٣].

ولكن أى رجل لا يكون دائمًا فى أحسن حالاته وأعلى منجزاته وإخفاق التعددية بحالة اليأس وعلى آخر رمق حجة عليها لا لها.

وفى سنة ١٩٠٧، فى معرض المقارنة بين تعدديته الأخلاقية والفلسفية الواحدية للمطلق، قال چيمس:

"كلتا العقيدتين تؤكدان أمزجتنا العنيفة الغيور. (فالواحدية) تلائم جيدًا الأرواح المريضة والأرواح النشيطة سواء بسواء. ولكن المرء لا يستطيع أن يقول ذلك عن التعددية: فعالم التعددية عالم عرضة دائمًا للهجوم، عالم مكشوف، وقابل دائمًا لأن يتوه جزء منه ويشرد. والمشايعون له لابد أن يشعروا دائمًا - إلى حد ما - بعدم الطمأنينة. وحاجات الأرواح المريضة هى - بكل تأكيد - الأكثر إلحاحًا والمعتقدون فى المطلق أولى بهم أن يروا أن من مزايا فلسفتهم أن فى وسعها أن تلاقيهم على هذا النحو من التمام. أما البراجماتية أو التعددية التى أدافع عنها، فعليها أن تستند على نوع معين من البسالة الأساسية، على نوع معين من الإرادة والرغبة فى الحياة دون توكيدات أو ضمانات"[٤].

وحيث إن الإنسان ليس دائمًا باسلا، فإن إنجيل التعددية لا يلاقى دائمًا حاجاته. ولكن چيمس كان، على الإجمال وفى المدى الطويل، باسلا روحيا، ومن ثم فإن إنجيله كان التعددية. وبالإضافة إلى ذلك، فحيث إنه يستعمل لفظ "صحى" للتعددية "ومريض" للواحدنية، فمن المستحيل تلاقى الاستدلال بأن الصحة الروحية السديدة كفيلة بأن تفضى بالإنسان إلى تلك الحالة الأحسن التى تكون فيها التعددية سائغة ومقبولة، وبأن الرجل القوى المتحمس للجهاد والذى يتمتع بروح المخاطرة هو النمط الأكثر مثالية.

(3) L.R.H.J., 118, 116.

وإذن، فإن دين چيمس الجوهرى من النوع الأخلاقى التعددى. وقيمة الله هى أنه بمثابة "حليف أكثر قوة لمثلى العليا". وهذه الحاجة الملحة إلى الله وإلى الدين بمثابة تعزيز وظهير للإرادة الخلقية، هى السبب الرئيسى لعقيدته الشخصية. فما كان چيمس بالرجل الذى يتحاشى صرامة وقرص الفكر. لقد احتفظ بعضلاته الفكرية قوية. لقد قال يومًا لطلابه: "بعد أن تأخذوا حمامًا فى الدين اخرجوا ودوروا دورة أخرى مع الفلسفة حاصروها"(٥).

ولكن بالنسبة للحقيقة الدينية ذاتها، فإنه لم يول اهتمامًا يذكر - نسبيًا - للحجج الفلسفية، حتى حججه نفسها. كان من رأيه أن البينة المقنعة بينة عملية ومباشرة.

وفى سنة ١٩٠٤، فى السابع عشر من أبريل كتب چيمس إلى العالم النفسى چيمس هـ. ليوبا ما يأتى:

"إن موقفى الشخصى بسيط. ليس عندى أى إحساس حى بالتجارة مع إله. وإنى لأحسد أولئك الذين لديهم هذا الإحساس لأننى أعلم أن إضافة مثل هذا الإحساس سيساعدنى إلى حد كبير. إن الإلهى المقدس - بالقياس إلى حياتى الناشطة - مقصور على مفاهيم لا شخصية ومجردة، وهى كمثالات تهمنى وتقرر أمرى وقصدى، ولكنها تفعل ذلك بضعف وخفوت إذا قورنت بالأثر الذى يحدثه الإحساس بالله إذا كان لدى هذا الإحساس. على أن ذلك - بالتأكيد - إلى حد كبير مسألة حدة وشدة، ولكن أقل ظل من الحدة والشدة فى وسعه أن ينقل كل مركز طاقة المرء الخلقية. وبناء على ذلك، فإنه على الرغم من أننى خال إلى هذا الحد من الوعى الإلهى (Gottesbewusstsien) فى معناه الأكثر مباشرة والأقوى، فإن هناك شيئًا فى أعماقى يستجيب عندما أسمع نطقا وتلفظا وترويحا صادرة من هذه الناحية من لدن الآخرين. إننى أدرك ذلك الصوت الأعمق الآتى من بعيد، والذى يدعو إلى بعيد. ثمة شىء يقول لى: "هنالك يكمن الحق" - وإنى لعلى يقين بأنها

---

(4) M.T., 226-9.

(5) L.W.J., II, 214; author's notes in Philos. 3, 1896-7.

ليســـت التحيزات اليقـــينية القـديمة للطفولة التى لقنـت فيها الاعتقاد بوجود الله. ولقد كانت تلك المعتقـــدات - فى حالتى - هى المعتقـــدات المسيحية، ولكنـــى تجاوزت المســـيحية إلى درجة، بحيث إن الارتباك ضمن هذا من جانب تلفظ صـــوفى تجـريدا منه وتغلبا عليه قـــبل أن أستطيع الإنصات. سم ذلك - إذا شئت - جرثومتى الصـــوفية. إنـها جرثومـــة شـائعة جداً ومشـتركة بين الناس. وهى التى تخلق الجماع الأعظـم للمعتقـــدين والمؤمنين. وحيث إنها صمدت فى حالتى، فكذلك ستصمد فى معظم الحالات، كلها نقد جمالى بحت".

ومن ثم، فعلى الرغم من أن چيمس لم يمارس نفسه خبرة وجود الله، فإنه شعر بأنه محق فى تقبل الشهادة بهذه الخبرة من أولئك الذين "حسدهـم". لقد كان معجباً "بالحيوية الفائقة لتبادل الإنسان الحديث السيكولوجى مع شىء مثالى يشعر كما لو كان هو أيضاً حقيقياً"[٦].

ولقد اقتنع بتقبل هذا الشعور بالوجود الحقيقى الواقع للمثالى الغيبى، لأنه وإن كان لم يمارسة بنفسه، فإنه مارس خبرات مشابهة، ليس مجرد الخبرات العادية الطبيعية التى شكلت السمة الرئيسية لتجريبيته الفلسفية والسيكولوجية، وإنما أيضاً خبرات "شاذة" من النوع الصوفى. فهناك على سبيل المثال، تلك الليلة فى غـــاية عندما تلقى "صفاة الانطباع" التى ترك لنا عنها وصفا فى غاية الحيوية. وهو لم يدع أنه شعر بالله، وإنما فقط أنه استطاع من ذلك الوقت فصاعدا أن يفهم كيف يشعر الناس إذا ما شعروا بالله فعلاً. ولقد قال فى هذا الصدد: "ولا ريب أن ما قلته فى محاضرات أدنبرة يمكن اقتفاء أثره إلى تلك الخبرة بالذات".

ولم تكن هذه سوى واحدة من أمثلة عديدة من تلك "الجرثومية الصوفية"[٧]، التى أفضت بچيمس إلى تصديق صوفية الآخرين فى أنضر ازدهارها أو إلى ذلك التعرف على فضيلة الصوفية التى أفضت به إلى تقبل جنسها الدينى.

---

(6) To James H. Leuba, April 17, 1904; L.W.J., 11, 211; to Charles A. Strong, April 9, 1907, L.W.J., 11, 269.

(7) Cf. below, 364; L.W.J., 11, 269.

هل أمن چيمس بخلود الروح؟

من الجلى، أنه هنا، كما هو الشأن فى حالة الإيمان بالله، دافع أولاً وقبل كل شيء عن شرعية الاعتقاد، ليس لحسابه الخاص ولكن للإنسانية عموماً. ففى محاضرته الموسومة "بالخلود الإنسانى" حاج بأن الخلود لا يتناقض مع نظرية المخ لوعينا الدنيوى الحاضر.

وفى هذا الصدد كان معنيا بالدفاع عن الاحتمال النظرى الممكن للخلود.

ولكن ماذا عن موقفه الشخصى؟

إنه يخبرنا بأن ذلك الاعتقاد لم يكن "حاداً" أبدا. لقد كان واحداً من أولئك الناس الذين يجدون فكرة موتهم أنفسهم فوق مقدور الاحتمال.

صحيح أنه كان عندما يشعر بجيشان وتدفق الحافز الخلاق، فإنه كان يكره فكرة كونه يقاطع: "ولكن... رباه. ما أشد حاجتى إلى أن أقرأ وأكتب، وأمامى هذا القدر الكبير الذى أريد أن أنجزه ولما أتمه. لقد أصبحت فى غاية القلق حقًا خشية أن أموت قبل الأوان"(٨). ومع ذلك فقد كان فى چيمس دائمًا نوع من الاستسلام الباطنى، ففى معرض الحديث عن مرضه فى سنة ١٨٩٩ كتب يقول:

"إلام ينتهى المصير؟ فالله وحده هو العليم. وإنه لأمر يخمد العزيمة، ويبعث فى النفس الأسى، لأننى أحب أن أنتهى من هذين المجلدين من محاضرات جيفورد قبل أن أولى ظهرى لهذه الحياة الدنيا متاع الغرور. "ولكن الإنسان يقدر والقدر يسخر" على حد تعبير أحد الرفاق السود فى كامبردج فى تأويله للمثل الفرنسى، ولن أتبرم بما سيحدث أيا كان المصير. ومن بين كل الأباطيل الدنيوية، عندما تمعن النظر فيها وتنفذ إلى لبابها فإن المحاضرات عن فلسفة

---

(8) L.W.J., II, 214; W.J. to F.C.S. Schiller. April 8, 1903.

الدين التى يلقيها رجال القانون هى التى تظفر بالجائزة الأولى فى باطل الأباطيل وقبض الريح"(٩).

وهكذا نجد، أن جزءا من ميثاق جيمس الأخلاقى، أنه ينبغى على الرجل أن يلقى الموت بشجاعة أو حتى عرضا بشيء من عدم الاكتراث. وفى شبابه عندما كانت التعاليم الرواقية موضع إعجابه القوى، كتب الفقرة التالية فى مذكرته اليومية لدن سماعه نبأ موت ابن عمه مينى تمبل:

"بذلك الجزء الكبير منى الذى يرقد معك فى القبر، فلأدرك وأومن بفورية الموت. ولأشعرن بأن كل عذاب نقاسيه هنا ينتهى - ويمر كما يمر نسيم الريح - وكذلك كل لذة أيضًا. أن الأعمال والمثل باقيات. الدهر طويل. وحياة إنسانية واحدة هى لحظة فى عمر الدهر. هل صبرنا قصير الأمد وفضولنا ميت هامد خامد، أو حزمنا هش لدرجة أن لحظة واحدة اختطفت من عمر الدهر اللانهائى تذهب أنفسنا حسرات ولا نستطيع أن نتحملها بطيب نفس؟ مينى... إن موتك يجعلنى أشعر بتفاهة وعدمية كل غضبنا الأنانى. أن انعتاقنا - المحتم - ضربة لازب. فلماذا لا نأخذ دورنا بلطف وكرم أيا ما كان ينطوى عليه؟ لم لا نسمو إلى نوع من الزمالة مع القدر، وحيث إن المأساة فى صميمنا فلم لا نذهب للقاء الموت ونطوعه لغاياتنا، بدلا من أن نراوغ الموت ونتنصل منه طوال أيام حياتنا ثم يدهمنا فجأة فى نهاية المطاف؟ أفد من موتك (أو من حياتك - فالأمر سيان والمعنى واحد) (tut twam asi)(١٠).

وعلى الرغم من أنه بدأ ينظر إلى المسألة نظرة أقل خشوعًا، فإن هذا الحافز ظل متحكمًا فيه دون توقف أبدا.

ففى سنة ١٩٠٠، اقترح أن موقف الإنسان من الموت، ينبغى أن يكون مزيجًا من "الاستخفاف النبيل" و"الرواقية السامية الفكر" و"الحماسة الدينية".

---

(9) W.J. to Theodere Flournoy, November 13, 1899.

(10) "Thou art". Ebtry tor March 22, 1870.

أما فيما يتعلق بالمغزى الأخلاقى للخلود، فقد اتخذ وجهة النظر السلبية التى انشق عنها ستامب. فلم يكن يرى من سبب يحملنا على الرغبة فى تسليم حماية ورعاية مثلنا العليا إلى "أيد أخرى"(١١).

بيد أن چيمس بمرور السنين وكبر السن ابتدأ يؤمن بالخلود. فلم تأت سنة ١٩٠٤ حتى كان لديه إحساس "باحتماله". وفى السابع عشر من يوليو من تلك السنة كتب إلى ستامب ما يلى:

"لم يسبق لى أن شعرت أبدا بالحاجة المنطقية إلى الخلود. ولكنى كلما تقدمت بى السن، فإنى أعترف بأننى أشعر بالحاجة العملية إليه، أكثر مما شعرت فى أى وقت مضى، وهذه الحاجة تضاف إلى أسباب، لكى يعطينى إيمانًا متزايدًا بحقيقته".

ماذا كان الباعث العملى لذلك الإيمان؟

فى تفسيره للسبب الذى حدا به فى خريف عمره إلى الإيمان بالخلود لأول مرة، قال چيمس: "لأننى على وشك أن أصبح لائقًا للحياة".

وبعد خمس سنوات من بوحه بهذه العبارة قال:

"كثيراً ما قلت إن أحسن حجة أعرفها لحياة خالدة كانت وجود رجل يستحقها مثلما استحقها الابن"(١٢).

وبحبه الذى طبع عليه لكل ما هو حى، وعواطفه الودود ووجدانه المشارك للغير، واستحساناته الأخلاقية المتوقدة، انتهى به الأمر إلى أن يعمق فى وجدانه أكثر فأكثر الإحساس بأن الموت ضرب من الإنكار أو النفى السالب العابث الغامض للإحسان والخير. ويظهر هذا الباعث أو الخليط من البواعث فى تعليقاته على اثنين من

---

(11) Above, 169; V.R.E., 524.

(12) L.W.J., 11, 214; Proc, of the Amer. Soc. for Psychical Research, 111 (1909), Pt. 1, 580.

أصدقائه. ولقد كتب التعليقين الأولين فى سنة ١٩٠٤ أما التعليق الثالث فكتب فى سنة ١٩٠٦.[١٣]

"لقد حضرت للاشتراك فى جنازة سارة، وحيث إننى هنا فقد مكثت حتى حفل التخرج بالجامعة، ولكنى عائد اليوم. ولا يمكننى أن أذهب دون أن أفضى لك بما تطفح به نفسى. لقد كان موت سارة بغتة ومحيرا. هذه المخلوقة العاطفية الحنون، المبهمة المحبة للحياة، السباقة للخير، الباذرة للود أينما حلت، أين هى الآن؟ وما معنى كل ذلك؟ لم يسبق لى من قبل أبدا، أن شعرت بمس الشجن أو اقتنعت باللغز، على هذا النحو من الحدة واللذع المؤلم، مثلما شعرت به حين موتها، وكل فكرتى عنها الآن، هى الرقة. إلى أى حد تكون حياة الناس أكثر واقعية وحقيقية من كل نقدنا لهم. هذا درس لنا جميعًا لكى يرعى كل منا الآخر ويسقيه ويفلحه، ما دام يملك بعضنا الآخر قبل أن نصبح نسيًا منسيًا".

"كل شىء فى هذا العالم الجميل خير فيما عدا الشيخوخة والموت، إذا افترض المرء عدم وجود شىء "وراء الحجاب" من أى نوع. لقد كانت جنازة المسز هويتمان مدهشة من الوجهة الجمالية، ولقد غمر حشد الأصدقاء عند القبر نفس الانفعال من الشجن وهى الآن تبدو – بالتأمل فى الماضى – مثل مخلوقة نحيلة رقيقة، وحيدة، أمنة، عمياء تشق طريق حياتها الساذجة السليمة النية وتبرمها بولع وشغف ماضية إلى ذلك الكفن الأسود كنهاية مطافها. عجب يستنفد كل عجب.

"لقد كان موت المسكين (رتشارد) هودجسون هو أهم حادث قبل رحيلى. لقد سقط ميتًا بغتة وهو يلعب بالكرة. وقبل موته بأسبوع واحد قال لأحد أصدقائه: إنه يأمل – بكل معقولية – أن يعيش خمسا وعشرين سنة أخرى، وأنه يركن إلى هذا الأمل أمنا مطمئنا. كل عمله لم يتم، لا أحد يستطيع أبدا أن يدرس تلك الوثائق كما عرفها هو – لو لم يخب أمله ويباغته الموت لكان بكل تأكيد قد كتب كتابين أو ثلاثة من أحسن الكتب. وا سوأتاه. وا سوأتاه. ومن ذا الذى اختطفه الموت؟ أشهم وأنبل وأزهد الناس جميعًا. لعله لا يزال يتنشط فى مكان ما، ليست هذه دعوى استرداد: requiescat".

(13) To Frances R. Morse, June 30, 1904; to Pauline Goldmark, June 28, 1904, and to F.C.S. Schiller, January 16, 1906.

وفى باكورة حياته، عبر چيمس عن سخطه وتبرمه بالجنائز، وصرح عن عزمه "على أن يعرض عنها إعراضا تاما" حتى يرتفع مستواها. وكان يجهر بأن طقوس العبادة المسيحية ومراسمها لا هى طبيعية ولا مقبولة. وما كان فى وسعه أن يصلى لأنه كان يشعر بأنه "أحمق واصطناعى" فى أدائها(١٤).

وفى معرض الحديث عن هذا الموضوع، كتب إلى ف. ت. س. شيللر من أدنبرة فى ١٧ مايو سنة ١٩٠٢، يقول: "عدت لتوى من الكنيسة. آليات وحركات وكلام وشكليات على طول الخط. فلنحذر من ذلك اليوم الذى تصبح فيه البراجماتية آلية فى أفواهنا".

وكان چيمس يحضر الصلوات اليومية فى مصلى هارفارد، ولكن الذى كان يجذبه بلا شك هو بساطة العبادة وقلة جماعة المصلين. ولعل المصلى - باعتباره قضية مهملة ومخذولة بعض الشىء - ضربت وترا حساساً من نفسه، فلبى دعوتها بسليقة الفروسية والشهامة والمروءة التى كانت تهيب بنخوته إزاء كل ضعيف وكل مغلوب على أمره. ولقد حاول چيمس أن يعرف أولاده بالتعاليم الروحية، كما سجلت ذلك أخته، حيث كتبت فى دفتر يوميتها فى العاشر من أكتوبر سنة ١٨٩٠ ما يلى:

"لقد درج وليام - لسنين عديدة فى الماضى - على قراءة الإنجيل لأولاده، وكان يفسر ويشرح ويؤول، وهو يقرأ. ومنذ أيام صاح بيلى قائلاً: " ولكن يا أبى: من هو يهوذا هذا على أية حال؟" ولا بد أن ذلك كان صدمة، بعد ثلاث سنوات من الهمة فى الوضوح والجلاء والنورانية المزعومة. ومنذ بضع سنوات عندما كان هارى فى الخامسة من عمره أو نحو ذلك، أخذ وليام على عاتقه أن يشرح له طبيعة اللّه. فلما سمع الطفل من أبيه أن اللّه فى كل مكان سأله عما إذا كان اللّه هو المقعد أو المائدة. فأجاب الأب: "كلا.. أبدا. ليس اللّه شيئًا. إنه موجود حولنا فى كل مكان. إنه متغلغل" فقال هارى: "إذن فهو ظربان". أى شىء آخر كان من الممكن أن توحى به كلمة "يتغلغل" لطفل أمريكى؟".

---

(14) Cf. above, 70: L.W.J., 1., 212.

وعندما سئل چيمس عما إذا كان الإنجيل منزلاً قال: "كلا. كلا. كلا. إنه كتاب إنسانى جدا لدرجة أننى لا أفهم كيف يستطيع الاعتقاد بأنه منزل من السماء، أن يبقى حيًا بعد قراءته".

كان چيمس يشعر بالتناقض بين الطبيعة وبين الكنيسة:

"إن روح النظاميين مختلفتان تمامًا، بحيث إنه بالنسبة لخيال تغذى على أحدهما، فمما يكاد يستحيل تصوره أن يمده الآخر بالقوت والعول. ويجب علىَّ شخصيا أن أعترف بأن تدريبى فى العلم الطبيعى قد جردنى من كل صلاحية وأهلية للمعالجة التعطفية للعالم الأكليروسى. من المستحيل الاعتقاد بأن نفس الله الذى أنشأ الطبيعة، يشعر فى نفس الوقت أيضًا بنوع خاص من الزهو فى أن يمثله تمثيلاً مباشرًا نفر من القسيسين بدلاً من العلمانيين غير الكهنوتيين. أو أنه يجد وقعا عذبا لصوت النصوص الكنسية وترنيمها أو نكهة لذيذة فى التمييز بين الشماسين ورؤساء الشمامسة والأساقفة. إنه لا يتكلف الجد إلى هذا الحد، ولا يبلغ به التظرف والتأنق فى المزاج هذا المبلغ"(١٥).

إن دين چيمس لم يتخذ - لا شكل العقيدة التعسفية الحازمة ولا شكل الولاء المذهبى. كان چيمس جوهريا - رجل إيمان - وإن لم يكن مشايعا لأية كنيسة أو مذهب أو ملة أو عقيدة ضد الباقى. وعلى خلاف أبيه فلم يكن يعنى بأحكام الصنعة ولا بالصياغة الخاصة حتى لمعتقداته الشخصية. وإنما اقتصر على التقبل الفكرى لما اعتبره جوهر كل الأديان، وعلى اتجاهات انفعالية شديدة التعميم. ولقد أصر على الاحتفاظ ليس فقط بمثالية الله، ولكن بواقعيته أيضًا باعتبارها قوة واعية علوية، يستطيع المرء أن يتصل بها اتصالا أريحيا. ولقد آمن بالنصر - بوساطة نفس هذه القوة - لقضية العدل والقسط التى تعهدت بها إرادته الخلقية، ولقد خامره أمل يرتفع إلى مقام نصف الاعتقاد بالخلود الشخصى.

---

(15) L.W.J., 11, 214; and notes for lectures at Harvard Summer School of Theology, 1902, 1906:

هذه التوكيدات الفقهية المعينة، مع اعتقاده بالاعتقاد وعطفه على كل إيمان شخصى يجلب للشخص العزاء والسلوى، أو يبعث فى نفسه الحافز الذى يتطلبه، وكذلك خصيصة الرقة وسليقة السلام والوئام ونزعته الحمسة للخير التى تغلغلت فى كل علاقاته مع الناس، هذه كلها تشكل جوهر دينه الشخصى.

فإذا أضيفت الرسالة التالية، إلى ما سبق، فإنها تنقل إلينا النكهة الخاصة الفريدة لاتجاهه. لقد كتب جيمس هذه الرسالة إلى تشارلز إليوت بورتون عندما دهم الأخير مرض الموت الذى أودى بحياته بعد أربعة أيام من هذا التاريخ.

كمبريدج ١٧ أكتوبر سنة ١٩٠٨.

"عزيزى تشارلز،

لقد فاضت نفسى أسى وحسرة. لأنباء آلامك وما تعانى من كبت وكظم. ما أضل طريق الشيخوخة الأسبق! وما أغرب ذلك النصيب المختل النغم الذى تأخذه منها أعضاؤنا المختلفة. يبدو أن مخك لم يحظ من الشيخوخة بأى نصيب يذكر، وأن المرء لا يدرى أيجدر به أن يهنئك أم يشاطرك الأسى؟ على أن وظائف مخك لم يعتورها الوهن وإنما ما زالت مشحوذة عفية. إننى على يقين تام بأن خبرتنا هذه فى الحياة الدنيا ليست سوى جزء فقط من خبرة الكون الكلية، وإنما مرتبطة بها على نحو ما، ولكن ما الأجزاء الأخرى أو أين هى، فهذا ما لا أستطيع التكهن به. إنها فقط تمكن المرء من أن يقول: "وراء الحجاب وراء الحجاب". على نحو أكثر أملا ورجاء مهما كان حظ هذا القول من الاستفهام والتساؤل والخبرة والغموض، مما يكون الحالى خلافا لذلك.

أشكرك يا عزيزى تشارلز على زهور الأقحوان اللؤلؤية النفيسة، التى تدل على أن المرء مهما كان طريح الفراش فإنه لا يزال قادراً عى أن يؤدى دوره فى إشاعة الجو واللطف والكرم بين الناس. إن الشمس تجد دائمًا منفذًا لتبذر أشعتها كالذرور من خلال الشقوق.

(Toujours le soleil poudroie par quelque trou).

سأذهب إلى شوكوروا بعد ساعتين.. وفى مرجوى وفى يقينى أننى بعد عودتى سيكون فى وسعى المجىء إليك "والشد على يدك". ثق - يا عزيزى تشارلز - فى عسرك الراهن بأن هناك قلوبًا تحمل لك أعمق التبجيل وأحر الوداد والحب، وأن أكثرها لك تبجيلاً وحبًا وودًا هو قلب صديقك المحب دائمًا.

وم. چيمس

(٣٠)

التجريبية الراديكالية

ثمة فكرة شائعة بأن الفلاسفة ينفقون أعوامهم فى خريف العمر فى إصلاح أو استرداد المعتقدات التى شكوا فيها أو نبذوها إبان عنفوان قواهم العقلية. وحيث إنهم يصابون بتصلب الشرايين ويصبح شغلهم الشاغل هو الخلاص لأرواحهم، فمن المفروض أنهم يزلون من النقد إلى الإصلاح والتقوى اليقينية الجازمة.

فإذا كان هناك مثل هذه القاعدة، فچيمس هو الشذوذ منها بلا مراء.

فعلى الرغم من أن تيار اهتماماته لم ينحصر أبدا فى أى مجرى ضيق، فإن الثلاثين سنة الأخيرة من عمره يمكن تمييزها بوضوح بالتوكيد والتركيز: على الفلسفة العامة فى الثمانينيات، وعلى الأخلاق والدين فى التسعينيات، وعلى الفلسفة النظامية فيما بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩١٠. فبدلا من أن يكرس أعوامه الأخيرة للإيمان والتعود والتعاطى والوعظ، كرسها لفنيات البحث النظرى. كتب إلى صديق له فى سنة ١٩٠٢: "أريد الآن - إذا استطعت إلى ذلك سبيلاً - أن أكتب شيئًا جديًا منسقًا منظمًا وقياسيًا (منطقيًا)، لقد طفح الكيل من الأسلوب الهابد الكابس للمحاضرة الشعبية"[١].

---

(1) August 25, Mrs. Glendower Evans.

أما كون محاولته قد قدر لها الحبوط إلى حد كبير - فمرد ذلك إلى سلسلة من الحوادث من النوع الذى كان چيمس عرضة له بشكل غريب. كان يدعى إلى المحاضرة باستمرار، وكان عادة يقبل الدعوة بكثير من الأنين والزمجرة والتهيب. أما الهيئات المسئولة أولاً عن إخفاق چيمس فى إنتاج ميتافيزيقياته المنظمة فهى: أوصياء مؤسسات جيفورد وهيبارت، ومعهد لوويل، وينبغى أن تضاف إليها سلطات جامعة هارفارد وجامعة ستانفورد. كانت المحاضرات تستنزف تدفق الأفكار التى كان من الممكن أن تنصب فى إنتاج مؤلف منظم. ولقد كانت شهرته هى التى جلبت له هذه الدعوات، ولقد جلب له قبولها مزيداً من الشهرة وذيوع الصيت. وكان رفضها يتطلب قدراً غير إنسانى وغير چيمسى من التقشف والتنسك لا طاقة له عليه. بيد أنه من المغرى أن نتأمل فيما عسى أن تكونه محتويات ذلك المؤلف "مبادئ الفلسفة" الذى كان من الممكن أن يكون حصيلة عقد من العمل الفلسفى الشاق الموصول، على غرار ذلك العمل السيكولوجى فى الثمانينيات الذى أنجب "مبادئ علم النفس".

فليس من بين الكتب الخمسة التى كتبها چيمس فى العقد الأول من القرن العشرين، كتاب واحد يمكن القول بأنه هو الميتافيزيقيات المنظمة التى اختلط مشروعها چيمس، والتى أشار إليها مراراً وتكراراً فى مناسبات كثيرة.

لقد كان من المفروض أن يكون هذا المؤلف - فنيًا - مصممًا من أجل زملائه ومن أجل طلاب الدراسات العليا، لا من أجل الرجل العادى من غير المختصين. ولكن چيمس، كان عندما يكتب محاضراته إنما يكتبها للسامعين لا للقارئين، ولم يكن ممن يبالغون فى تقدير قدرة جماهير المستمعين ولا قدرة الطلاب غير الناضجين.

والنتيجة أنه، فى حين أنه بلغ شأواً عظيمًا، ونفوذاً كبيراً، وطبَّقت شهرته الآفاق على نحو يكاد يكون فريداً بين الكتاب الفلسفيين، فإنه استمر فى "أسلوبه الهابد الكابس للمحاضرة الشعبية" وأخفق فى إنتاج ذلك "الشىء الجدى المنسق المنظم القياسى" الذى عقد النية على كتابته وتأليفه.

على أنه ينبغى ذكر استثناءات معينة من هذا الحكم. فالمقالات التى نشرت بعد موته تحت عنوان "مقالات فى التجريبية الراديكالية"، كان قد كتبها لمجلات فلسفية لكى يقرأها العلماء. وهذا أيضًا صحيح بالنسبة لبعض الإجابات التى رد بها على ناقديه والتى نشرت فى كتاب "معنى الحق: The Meaning of Truth" وينبغى أن يضاف إلى ذلك أيضًا حقيقة أن أجزاء من كتاب "بعض مشكلات الفلسفة" مثل تلك الأجزاء التى تعالج موضوع اللانهائى، يمكن اعتبارها "جدية" و"قياسية" مثل أى شىء آخر كان من المرجح أن يكتبه چيمس تحت أى ظروف.

بيد أنه مع ذلك، تبقى حقيقة أن چيمس لم يقدر له أن يكمل أبدًا أى أطروحة منظمة جمع فيها مبادئه ومذاهبه وعرضها بتدقيق وتتابع على التوالى. ومن حسن الحظ أن آثاره التى لم تنشر تلقى بعض الضوء على ما كان من الممكن أن يكون.

ومن الطبيعى أن أفكار چيمس الفلسفية كانت تنضج وتكتمل على نحو موصول فى أثناء التسعينيات، وكانت قد ظهرت بالفعل - من قبل - علامات التذمر من ضميره الفكرى. فلقد كتب إلى چيمس م. بولدوين فى سنة ١٨٩٤، يقول: "إننى فى الوقت الحاضر أحاول أن أستخرج بعض الحقيقة العقلية من أعماق نفسى. ولكنها تخرج بصعوبة، ولا بد من تفجيرها، وأخشى ما أخشاه أن تنتهى النتيجة إلى حطام وأنقاض لا شكل لها"[٢].

وفى ديسمبر من تلك السنة، ألقى أمام الرابطة الأمريكية للفلسفة خطابه الرياسى عن "معرفة الأشياء معًا" وفى هذا الخطاب أسلف - بنوع أخص - بعض الأفكار الرئيسية التجريبيته الراديكالية. ولكنه كان لا يزال يدافع عن المثالية البركيلية، وإن كان من الواضح أن تفكيره أصبح لا يدين بالولاء لتلك العقيدة.

---

(2) August 25, 1894.

وكان چيمس فى كتابه "علم النفس" قد أرخى لنفسه العنان وسمح لنفسه ببحبوحة الثنائية، ولكن الاتجاه الكلى لتفكيره الفلسفى قبل وبعد نشر "علم النفس" كان ضد ذلك المهرب المؤقت أو المخلص الاحتياطى. لقد رأى الآن بمزيد من الوضوح أنه لا يستطيع أن يتمسك برأى باعتباره عالمًا نفسيًا، وبرأى آخر باعتباره فيلسوفًا، وأصبح نبذه للثنائية بشكل متزايد حافزًا يغلب على تفكيره. لقد استبان له أن عليه أن يصحح علم نفسه.

وفى سنة ١٨٩٦، سنة ١٨٩٧ كرس چيمس النصف الثانى من مقرر دراسته العليا لطلابه لمناقشة "المشكلات النظرية، كالوعى والمعرفة والذات وعلاقة الجسم والعقل... إلخ".

وتومئ مذكراته إلى عزمه على اتخاذ فرض "التجريبية الراديكالية" المضى فيها إلى آخر الشوط. وكانت "الظاهرة" تسمى أيضًا "المدلول" أو المعلوم أو "الخبرة الصرف". وكانت الفكرة الرئيسية هى استعاضة "مجالات" من الخبرة الصرف، متجانسة الأجزاء متشابهة النوع ومستمرة فى معنى ما، ولكنها ذات علاقات وظيفية خاصة، بكل من التناقض الثنائى للعقل والجسم والاختزالات الوحدانية للعقل إلى مادة أو للمادة إلى عقل. ففى مقدمة كتاب "إرادة الاعتقاد" التى كتبها فى ديسمبر سنة ١٨٩٦، يقول چيمس (فيما يشبه الاعتذار) إن تجريبيته الراديكالية تسمح بأن تناقش وتحاج وتمارى بشكل فنى اصطلاحى كما يرغب أى إنسان" إنه من المرجح "أن يسمح الوقت فيما بعد بإنجاز قسط من ذلك العمل"[٣].

ومن الجلى أنه كان فعلاً يقوم بذلك العمل. ففى سنة ١٨٩٧، ١٨٩٨ استأنف چيمس هذا العمل فى حلقة الدراسات العليا تحت عنوان "المشكلات الفلسفية لعلم

(3) W.B., ix-x.

النفس". وكان شغله الشاغل - بصفة رئيسية - هو "فرض الخبرة الصرف" فى محاولة كلها عزم وتصميم لحسم بعض التفكير الكيانى التقليدى إلى فروق علاقية أو وظيفية.

فى اليوم السادس والعشرين من أغسطس سنة ١٨٩٨، ألقى چيمس محاضرته عن "المفاهيم الفلسفية والنتائج العملية"، فى جامعة كاليفورنيا. وكانت هذه هى المحاضرة التى قدم فيها الحركة الفلسفية التى أعطاها اسم "العملية" أو "البراجماتية". بيد أن الحركة لم تمض قدمًا فى الحال. وفى الواقع من الأمر لم تثر المحاضرة كثيرًا من التعليق حتى بعد سنة ١٩٠٤، عندما أعيد طبعها مع تغييرات طفيفة تحت عنوان "الطريقة البراجماتية"[٤]. ولم تتضمن هذه المحاضرة المذهب البراجماتى للحق الذى أصبح فيما بعد الموضوع الجدلى الكبير الذى أثار كثيرًا من المحاورة والمناقشة والمناظرة.

إن البراجماتية لم تحتل المركز الرئيسى على المسرح الفلسفى فى إنجلترا وأمريكا إلا بعد ظهور كتاب چيمس فى سنة ١٩٠٧، الذى يحمل ذلك الاسم.

على أن ذلك ينبغى ألا يحجب عنا حقيقة أن الدافع البراجماتى كان أحد الجذور الأصلية لتفكير چيمس، وأنه قد أكد نفسه بقوة من سنة ١٨٩٨، وأنه لعب دورًا مهمًا فى تكوين "نظامه للميتافيزيقيات" بعد سنة ١٩٠٢.

وفى سنة (١٨٩٨ ، ١٨٩٩) أعطى چيمس مقررًا دراسيًا عن الميتافيزيقيات أعلن فيه أنه سيناقش "المشكلات الأساسية للفلسفة النظرية، ووحدة أو تعددية الكون، وقابليته أو عدم قابليته للمعرفة، والواقعية والمثالية والحرية، والفلسفة الغائية وفلسفة الاعتقاد بوجود اللَّه".

---

(4) Jour. of Philos., I (1904).

ومن المذكرات القليلة جدا التى بقيت، لا يبدو أن هذا المقرر تميز بأى حركة أمامية ذات أهمية فى تفكير چيمس. فمبحثه الرئيسى كان الدافع عن "عالم أخلاقى قلق هيلى" ضد الوحدانية والمطلق اللادهرى. وكانت الأعوام من ١٨٩٩ إلى ١٩٠٢، أعوام اعتلال صحى كرس فى أثنائها ساعات عمله - كما نعرف - للتأليف وإلقاء ونشر محاضرات جيفورد عن الدين.

وفى هذه المحاضرات "أوعز بدلاً من أن يقرر" نتائجه الفلسفية، وعبر عن أمله فى إنمائها وتطويرها وإكمالها "ذات يوم فيما بعد". "كل الحقائق ولا فلسفة"، كما كتب لصديقه، ف. ت. س. شيللر الأكسفوردى[٥]. والمجلد الحالى "سيعقبه آخر.. وسيتناول ليس فقط حجج البروفسور رويس، وإنما حجج غيره من أنصار الإطلاقية الواحدية، مع كل التمام الفنى الذى تستدعيه أهميتهم العظيمة".

وفى خريف سنة ١٩٠٢، بدت الأحوال كما لو كانت تؤيد هذا المشروع. صحيح أن بعض الوقت قد ضاع من جراء المرض والتعب والمقاطعات المعتادة بما فى ذلك قراءة أمرسون بقصد "إلقاء خطاب لا يتجاوز خمس عشرة دقيقة"[٦]. ولكن من الجلى أنه كان يعتقد أن ميتافيزيقياته قد أثمرت وحان قطافها. لكى تنشر على الملأ.

وكان چيمس قبل ذلك بعشر سنوات قد كتب رداً على هوويسون الذى أشار - بتوقع ولهفة إلى "كتاب عن الميتافيزيقيا" يقول فيه: "لم أبلغ أبداً مرتبة الحلم بإمكان مثل هذا الشىء فضلاً عن إنجازه، والآن أدرك أننى لن أستطيع ذلك أبداً، إن خلطى وملطى الفكريين لا يمكنهما أبداً أن يفضيا إلى نظام من الميتافيزيقيا"[٧].

---

(5) Cf. V.R.E., 454 (note); to Schiller on April 20, 1902; L.W.J., 11, 165.

(6) W.J. to Th. Flournoy, April 30, L.W.J., 11, 187.

(7) October 28, 1893; Howison's letter is missing.

ثم عاد چيمس وكتب إلى هنرى برجسون:

"فى نيتى إذا عشت أن أكتب نظامًا عامًا من الميتافيزيقيا"(٨). وهذا التغير فى موقفه يعكس تطوره المثابر إبان التسعينيات فى شمول نظرته ورسوخ إدراكه وإحاطته على السواء.

ثمة مصدران خصيبان - هيآ - الآن طريقًا لإجمال مذاهبه المتنوعة فى نفس الوقت الذى لاءمت عبقرية عقله ودعمت ثقته بنفسه. وكان هذان المصدران هما البراجماتية والتجريبية الراديكالية أو الخبرة الصرف. وبعبارة أخرى فإن چيمس شعر بأن لديه شيئًا يقوله للفلاسفة، شيئًا يسهم به فى تيار الإنارة الفلسفية.

وفى غضون ذلك، وفى أثناء هذا العام الجامعى نفسه (١٩٠٢ ، ١٩٠٣) نظم چيمس تفكيره الأساسى لإعداد مقرر دراسى عن "فلسفة الطبيعة" (فلسفة ٣). والمنهاج الذى أعده لذلك المقرر، وإن كان يتألف فى معظمه من رءوس مسائل فقط، فإنه يعتبر أشمل بيان لفلسفته قدر له أن يسجله فى حياته كلها. وهو يكاد يناظر وصفا لنظامه شرحه بعد عام من ذلك لصديق رينيفوار، فرانسوا بيللون:

"إن فلسفتى هى ما أسميها بالتجريبية الراديكالية، التعددية، التقدمية(٩)، التى تمثل النظام على اعتبار كونه يكسب تدريجيًا ودائمًا فى صيرورته. إنها فلسفة تعتقد بالله، ولكنها ليست بالضرورة والحتم كذلك. وهى ترفض كل مذاهب المطلق. وهى متناهية، ولكنها لا تعزو إلى مسألة اللانهائى الأهمية المنهجية العظمى التى تخلعها عليها أنت ورينوفوار. أخشى أنك ربما تجد نظامى لا قرار له وخياليًا جدًا، ولكننى على يقين - سواء أكان الحكم عليه فى النهاية بالصواب أم الخطأ - أنه

---

(8) December 14, L.W.J., 11 178. For Bergson, cf. below. ch. XXXVI,.

(٩) فى الأصل الإنجليزى "TYCHISM".

A term borrowed from Charles Pierce to signify there is an element of pure chance in nature.

نظام ضرورى وجوهرى لتطور الوضوح والإبانة فى التفكير الفلسفى أن يلتزم شخص ما بالدفاع عن التجريبية التعددية دفاعًا راديكاليًا".

لقد كان چيمس يعتقد بأن مثل هذه النظرة إلى الكون ليست فقط أكثر وصف اقتصادى للحقائق الممكنة الاكتشاف، ولكنها أيضًا تفرض نفسها باعتبارها أحسن فرض للعمل. فهى تلغى مشكلة الشر "وتتناغم مع التجريبية والتشخيصية والديمقراطية والحرية"(١٠).

ولقد أذاع چيمس "مقرر الفلسفة ٣" بين زملائه الفلسفيين. ولقد كتب الجواب التالى ردًا على شيللر، الذى كان قد تسلم نسخة منه وكتب له مهنئًا "بتقدم نظامه":

"لقد حررت الآن فقط أول جملة فى كتابى القادم - الجملة الوحيدة التى سطرتها حتى الآن "الفلسفة شىء عجيب غريب - فهى فى نفس الوقت أسمى المهن الإنسانية وأحقرها"!. لا يوجد شىء أروع من توفيق المرء فى الاستهلال. ومن ثم فينبغى على ألا أندهش إذا ما تدفق الباقى كالسيل المنحدر من أعلى الجبل إلى السفح. وإنى لعلى يقين بأن كتابًا من النوع المنسق النظامى - فى الإمكان كتابته - فلسفة من الخبرة الصرف - ستبرهن مباشرة على مركز تبلور ونقطة استجماع ولم شعث للآراء فى الفلسفة. إن الدهور تصرخ - ولها حق - مطالبة بها. لقد سررت بدرجة فائقة من البساطة واليسر التى استطاع بهما طلابى الجدد فى هذا العام هضم الاتجاه واستيعابه، وإعادة إنتاج نبضه الحى فى امتحانهم وفى أعمالهم التحريرية الأخرى. هذه هى أول مرة حاولت فيها أن أوضحه وأنسقه (ex cathedrs). أن نجاحى يجعلنى أشعر بالثقة والحماسة والحرارة إلى درجة كبيرة"(١١).

وعلى الرغم من أن الجملة الأولى من الكتاب القادم كتبت فى شهر أبريل، فإن ذلك لم يحسب فيما يبدو، استنادًا إلى التقرير التالى الذى كتبه چيمس إلى هوويسون فى الرابع من يوليو سنة ١٩٠٣ عشية رحيله إلى شوكوروا:

---

(10) "Syllabus of Philosophy 3".

(11) Schillerto W.J. February, 1903, W.J. to Schiller, April 8, 1903.

"لقد تخلصت من عائق وراء الآخر وأزحتها من طريقى، وبمجرد عودتى إلى الريف غدا سأبدأ كتابى الجديد "نظام الفلسفة "System der Philosophie": وسيكون تعددية تجريبية أصيلة، وسيمثل العالم على النسق القوطى لدرجة فنية تحمل الناس على أن التعجب والدهشة من أن أية فلسفة كلاسيكية كانت موضع اعتقاد فى يوم من الأيام. إنك يا عزيزى هـ. كلاسيكى على الرغم من تعدديتك".

وما كان من الممكن أن يتوافر لچيمس كثير من الوقت للكتابة المتوالية فى أثناء هذا الصيف، فما حل شهر أغسطس حتى كان فى طريقه إلى مدرسة دافيدسون فى جلينمور قرب، حيث قبيل نهاية الشهر ألقى خمس محاضرات عن "التجريبية الراديكالية باعتبارها فلسفة". كان عقله "يعمل فى المشكلة الجهنمية القديمة" مشكلة العقل والمخ وكيفية إنشاء العالم من خبرات صرف"[١٢].

ثم بدأ عامه الجامعى الجديد يحدوه أمل قوى فى سرعة التأليف، وخصوصًا أن جدول محاضراته كان خفيفًا. ولكن فى ربيع سنة ١٩٠٤، كان يشكو لأصدقائه من حبوط مساعيه وفشل خططه. وفى هذا الشأن كتب إلى لوتوسلاويسكى ما يلى:

"منذ عامين، بعد أن نشرت (الأنواع المختلفة للخبرة الدينية)، استقر رأيى عندى أن الطريق قد مهد أمامى، وأن واجبى يحتم علىَّ أن أبدأ مباشرة فى كتابة نظامى الميتافيزيقى. وحتى شهر أكتوبر الماضى - عندما بدأ العام الدراسى - كنت قد فرغت من كتابة ما يقرب من مائتى صفحة من المذكرات. أى خليط من شتى النتف المفككة. وكان فى مرجوى أن أكتب فى هذا العام أربعمائة صفحة أو خمسمائة من التأليف المنظم المنسق، وكان فى إمكانى أن أنجز هذا القدر دون المقاطعات. ولكن الذى حدث - فى الواقع من الأمر - ومع توافر أقوى إرادة فى الدنيا، هو أننى كتبت على سبيل التحديد اثنتين وثلاثين صفحة"[١٣].

---

(12) W.J. to Dickinson S. Miller, August 18, 1903; L.W.J., 11, 198. The lectures were not written out and his notes have disappeared.

(13) L.W.J., 11, 171-2.

بيد أن المتاعب الشخصية والخارجية لم تكن هى العوائق الوحيدة فى سبيل إكمال عمل چيمس الميتافيزيقى. لقد كانت هناك أيضًا الصعوبات الملازمة للمشكلات ذاتها. فبدلا من التقدم للغز والسريع العاجل لمنطقة الميتافيزيقيا، قسم المؤلف قواته، وحاصر قلاعا، واحتل حصونا، وتسوَّر مدنا، واضطر إلى ترك جزء من قواته فى كل تلك المراكز قبل أن يتمكن من المضى فى الغزو. وسجل هذه الاشتباكات المحلية وفيها "الصفحات المائة من شتى النتف المفككة" المشار إليها من قبل، فى سلسلة من المفكرات الحاوية لكتابات ومسودات شتى، بالإضافة إلى مذكرات خاصة بحلقة الدراسات العليا فى الميتافيزيقيات بعنوان "وصف تعددى للكون" الذى ألقاه فى سنة ١٩٠٤، وموجود كذلك فى مجموعة من الأغلفة الليفية الموسومة بعناوين مثل: "الاستمرار"، "موضوع مشترك لعقلية"، "الضرورة"، "عالم الخبرة الصرف". وقد احتوت هذه الأغلفة الليفية أيضًا مخطوطًا عن "عالم من الخبرة الصرف" وعلى رأسه عنوان "الفصل الأول" الكتاب الذى كان من المفروض أن يكون ذلك هو الفصل الأول منه، كان سيسمى "التجريبية الراديكالية" بمعنى "إنكار تجاوز الخبرة المحسوسة الملموسة"، و"الإصرار على أن العلاقات الواصلة والفاصلة، هى علاقات حقيقية سواء بسواء - عندما تمارس".

وهذا الشتاء من سنة (١٩٠٣ ، ١٩٠٤)، الذى شعر چيمس فى أثنائه بالحبوط المستديم، كان فترة من الغرس سرعان ما أنجبت وآتت أكلها، وإن لم تكن من النوع الذى كان فى مرجوه. فنصل رمحه لم يتوقف عن الطعن وإنما تشظى وتكسر. فبين يوليو سنة ١٩٠٤ وفبراير سنة ١٩٠٥، أعد وألقى سلسلة جديدة من المحاضرات وكتب "ثمانى مقالات فلسفية جديدة"[١٤]. ولقد نشرت هذه المقالات الثمانى بعد موت چيمس

(14) W.J., To The Flournoy February 8, 1905.

تحت عنوان "مقالات فى التجريبية الراديكالية" (وهو العنوان الذى كان چيمس قد اختاره لها قبل موته).

وعندما أتم چيمس كتابة تلك المقالات، كتب إلى أحد أصدقائه الأوربيين "إننى معنى بنظام ميتافيزيقى (التجريبية الراديكالية) ظل يعتمل فى نفسى ويتكون وينمو، وفى الواقع أنا مهتم به أكثر مما اهتممت بأى شىء آخر فى حياتى"(١٥).

ويتضح من هذه العبارة أن التجريبية الراديكالية كانت عزيزة فى فؤاده لدرجة كبيرة، وفى بؤرة تفكيره لدرجة أنه لم يتردد فى خلع اسمها على نظامه برمته، ولدرجة أنها أيضًا أجبرته على الاتصال بتلك النواحى الاصطلاحية الفنية من الفلسفة التى كان كثيراً ما يشعر حيالها بالنفور والإعراض. وما كان فى وسعه أن يبلغ الوضوح الذى يبتغيه فى هذا المحتوى بذاته، كما كان يشتهى.

ولكن فكرة الخبرة الصرف كانت أعمق بصائره، وأكثر أفكاره إيجابية وإنشاء، وحله المفضل للصعوبات الفلسفية التقليدية. ولقد أمدته البراجماتية بمنهاجه أو طريقته وأمدته التعددية بهندسة البناء للناتج المتمم، ولكن التجريبية الراديكالية هى التى أعطته مادة البناء.

على أن نقاوة "الخبرة الصرف" تعنى صفتها الأصلية أو الأولية فى منشئها، أسبقيتها على التمييزات والتفرقات وبصفة خاصة على التفرقة بين الذات والموضوع.

وكان من العسير على قراء چيمس، أن يدركوا أنه كان قد نبذ المثالية، وأنه فسر الخبرة على أنها مجال أفسح وأوسع يمكن فى نطاقه تحديد تخوم الوعى والذات.

---

(15) To G.C. Ferrari February 22, 1905.

واللوم من جراء سوء الفهم هذا يقع على چيمس نفسه إلى حد كبير. كان مرتدا حديثا عن المثالية، وكان سرعان ما ينزلق إلى عاداتها فى الكلام. ثم إن چيمس لم يصبح أبداً واضحًا تمامًا فى تفكيره عن المسألة القاطعة الباتة بين المثالية والواقعية، ألا وهى وضع تلك الأجزاء من الطبيعة القائمة وراء الإدراك العقلى للإنسان. إنها تتكون من خبرات إضافية - أبعد وأقصى - بلا شك، ولكن خبرات من؟ وكان أولى بچيمس تلافياً للتناقض لو أنه نبذ ذلك بوصفه سؤالاً خاطئًا، لأنه إذا كانت الخبرة الصرف سابقة على الوعى والذات، فإذن يكون الضمير الشخصى غير قابل للتطبيق عليها. ولكنه تردد بين نسبة هذه الآفاق الأبعد للخبرة إلى أشكال أوطى من العقل (على منوال الروحانية الجماعية) وبين معاملتها على اعتبار أنها الخبرات "الممكنة" للإنسان. فلا عجب إذن أن نجده مضطرا باستمرار إلى ترديد وتكرار تشبثه بالواقعية ومشايعته لها.

ولقد راق فى نظره اثنان من أنصار الفلسفة الوضعية فى عصره، هما رتشارد آفيناريوس وهنرى بوانكاريه، من جراء مطابقتهما لمحتوى الحيزين المادى والعقلى، والفلسفة الوضعية (بحكم كونها تبحث فى الظواهر دون الأسباب) أما أنها تنكر كل الميتافيزيقيا أو أنها تحت شبهة تكفف المسألة الميتافيزيقية لمصلحة المذهب الطبيعى. وبالنسبة لچيمس، الذى كان نصير الميتافيزيقية روحانية، فكلا البديلين كان موضع رفضه ونبذه. وفى هذا الصدد قال: "لا يمكننى أن أستنبط ما سيصير إليه الكون"(١٦). ومن ثم نجد أنه فى حين أن چيمس كان يشترك فى الكثير من الفلسفة الوضعية المعاصرة، وخصوصا فى التجائها للخبرة واعترافها بمعيار من النفعية أو الموافقة والراحة فى صياغة الفروض، فإنه كان عديم العطف إلى أعمق درجة حيال إنكاراتها السلبية.

---

(16) W.J. to S.H. Hodgson, June 14, 1900.

وعلى هذا نجد أن أول مقال فى "مقالات فى التجريبية الراديكالية" يحمل العنوان المسترعى للنظر: "هل الوعى موجود؟" ثم يعرض المبحث الأساسى للخبرة "الصرف" أو "المحايدة". وعالجت المقالات التى تلت هذا المقال تطبيقات هذا المبحث الأساسى" علاقة الإدراك بموضوعه، دور المفاهيم المجردة والمدركات الحسية، المشكلة العامة للعلاقات والاقترانات، المعنى الذى يمكن أن يقال فى نطاقه إن عقلين عندهما نفس الموضوع، مكان الشعور فى الخبرة، علاقة العقل والجسم، مسألة النشاط السببى والفاعلية، طبيعة الحقيقة. وثمة نغمة جديدة من الثقة بالنفس الفكرية فى هذه المقالات. لقد بلغ ما فيه الكفاية من النواة فى المذهب، ودرجة كافية من الوضوح تجيزان له أن يصدر نظامًا من لدنه.

وفى زهاء فترة تبلغ عامين ونصف عام، مبتدئة من خريف سنة ١٩٠٥، داوم چيمس على تسجيل أفكاره فى يومية فكرية. وعلى الورقة البيضاء التى تتصدر إحدى مفكراته المخصصة لهذا الغرض، كتب چيمس ما يلى:

"إن الأفعى الملتوية للفلسفة – على حد تعبير بلود – هى حبل واحد هائل الحجم من بيض الأنوق".

وتحت كل ذلك التعذيب للنفس، المطول والمزدوج المجاز، كان يكمن صراع مذهبى أساسى، لدرجة أنه يتطلب إعادة النظر فى كل أفكار چيمس الفلسفية تقريبًا.

لقد فعل ما فى وسعه فى كتاب "علم النفس" لكى يفحم فذاذة وتفرد التيار الذاتى للوعى، وخاصية عدم التجزئة أو الانقسام فيه. وكان فى وسع چيمس من ثم أن ينزع من هذا الرأى دون تحيز إلى وجود عالم مشترك ودائم بسبب تمييزه بين الأفكار وموضوعاتها، حيث إن الأخيرة تملك عنصرى المشاركة والديمومة التى تفتقر إليها الأولى. ولكنه الآن كان قد نبذ هذه الثنائية قطعًا، وفى محل الأفكار والأشياء لا توجد

سوى "خبرات" فقط. أما كيف تدرك الخبرة بحيث يصبح فى مقدورها الاحتفاظ بكلتا المجموعتين من الخواص اللتين تؤلفان الحياة المباشرة والعابرة للموضوع، وكذلك العالم المستقر للموضوعات العامة المشتركة - فهذه كانت مشكلة چيمس.

وفى نفس الوقت الذى كان فيه چيمس يحاول حل هذه المشكلة، كان مشغولاً بتقرير ما إذا كان يقبل أو يرفض "الروحانية الجماعية" التى ألح عليه بها صديقه تشارلز أ. سترونج. لقد انجذب دائمًا إلى الروحانية الجماعية، واستسلم لفاتنها وسحرها لفترات وجيزة. ولكنه فى النهاية نبذها نبذ النواة. كانت الروحانية الجماعية نوعا من الكيانية - تعطى الأشياء لبا - فى حين أن چيمس كان قد نشأ على المذهب التريبية القائل بأن الشىء هو مجموع مظاهره.

وفى الروحانية الجماعية لدى سترونج، فإن الشىء المادى الحقيقى لا يمكن أن يعرض مباشرة إلا لنفسه، أو هو ما يشعر نفسه بأنه يكونه، فى حين أن فى التجريبية الراديكالية لدى چيمس، فإن الشىء المادى يعرض على الحواس الإنسانية، أو هو ما يحس بأنه يكونه، وكان ذلك اختلافا بعيد المدى. ومع ذلك فإن چيمس كان مدينًا بالكثير لسترونج وخصوصاً فى تنمية البراجماتية. فإلى واقعية سترونج الملحة يعزى - إلى حد كبير - رفض چيمس الانزلاق إلى حُفر المذهب الذاتى التى حاول زملاؤه من جناحه اليسارى أن يجروه إليها، ولقد أكد مراراً وتكراراً أن المعرفة والتجربة الإنسانية ينبغى أن تتلاءما لبيئة خارجية ليست من صنعهما.

(٣١)

منازعات ودية مع تشارلز بيرس[1]

تشارلز بيرس صديق العمر، الفكرى، الملهب المثير، استمر يلعب دوراً مهماً فى حياة چيمس الفكرية. لقد أهدى چيمس إليه مؤلفه "إرادة الاعتقاد" قائلاً: إلى صديقى القديم تشارلز ساندرز بيرس الذى أدين لرفقته الفلسفية فى الأيام الخوالى وإلى كتاباته فى السنوات الحديثة، بالبحث والعون أكثر مما فى وسعى أن أعبر عنه أو أرد فضله".

وفى المحاضرة الموسومة "المفاهيم الفلسفية والنتائج العملية" التى ألقاها چيمس سنة ١٨٩٨، قال إنه سمع بيرس يعلن "مبدأ العملية - أو البراجماتية - كما سمّاها" فى كمبريدج فى باكورة السبعينيات، ولعل الإشارة هنا - فيما يبدو - إلى "النادر الميتافيزيقى" الذى كان چيمس ورايت وبيرس أعضاء فيه، والذى قال عنه بيرس فيما بعد: "لقد كان هناك، إن اسم ومذهب البراجماتية رأيا النور". وفى محاضرة سنة ١٨٩٨، يشهد چيمس لبيرس بإعطاء فكرته "أرجح الاتجاهات التى تفضى نقطة البدء منها إلى اقتفاء أثر الحقيقة". ويفسر هذا الاتجاه على اعتباره أنه الفكرة القاضية بأن:

---

(1) Letter to Mrs Ladd-Franklin, written in 1904-5, and published in the Jour. of Philos., Psych. and Sc. Methods, XXII (1916), 718-20. Peirce here dates the club "in the sixties".

"المعنى الفاعل لأى فرض فلسفى يمكن دائمًا أن ينتهى إلى نتيجة معينة - على نحو ما - فى خبرتنا العملية المقبلة، سواء أكانت إيجابية أم سلبية، بمعنى أن المسألة كامنة فى حقيقة أن الخبرة يجب أن تكون معينة، وليست كامنة فى حقيقة أنها يجب أن تكون ناشطة"(٢).

ففى هذه المحاضرة وفى إشارة ألمح إليها فى سنة ١٩٠٢، يطابق چيمس البراجماتية "بالطريقة الإنجليزية العظيمة لبحث مدرك كلى" أى البحث عن قيمته الفورية بالقياس إلى الخبرة المعينة"، ويسند إلى بيرس فضل فرز وتسمية المبدأ الذى "استرشد به الفلاسفة الإنجليز والإسكتلنديون غريزيا"(٣).

وفى سنة ١٩٠٤، نجد چيمس بنسبة كلمة "براجماتية" إلى بيرس ويقول إنه (أى چيمس) يستعملها للدلالة على "طريقة للمضى فى مناقشة مجردة"، وطبقًا لها "يكمن المعنى الجدى لمفهوم ما... فى الفرق المحسوس الملموس لشخص ما، الذى يحدثه كونه حقيقيًا"(٤).

ويبدو من هذه العبارات، أن بيرس جعل چيمس على وعى حاد بفكرة كان مشربا بها من قبل، واستمر يمتصها من مصادر كثيرة، وأن هذه الفكرة فحواها أن معنى أى مفهوم يكمن فى خلعه مظهرًا معينًا على موقف، مثيرًا بذلك عملاً معينًا من نوع خاص.

---

(2) C.E.R., 412.

(3) Peirce states, in his contribution to the article on "Pragmatist and Pragmatism" in the Dictionary of Philos. and Psychol., 1902, that he derived this view from Kant it would equally correct to attribute his view to Duns Scotus, or the influence of scientific techique. Though the origin of pragmatism be obscure, it is clear that the ides that pragmatism originated with Peirce was originated by James.

(4) C.E.R., 448; M.T., 51.

ويفترض چيمس أن الحقائق المدركة عندما تتغير فإن شيئًا يحدث حيالها ومن جرائها، وأن معنى أى مفهوم يتألف من توقعات إدراكية (ومن ثم عملية). فإذا كانت هذه التوقعات متشابهة، فإن مفهومين يعنيان الشىء، وإذا لم تكن هناك ثمة توقعات، فالمفهوم عديم المعنى.

ولكن فى حين أنه من الواضح، أن هذه هى الفكرة التى ساعد بيرس على أن يودعها برسوخ وتركيز فى عقل چيمس، فإنه ليس من الواضح بأية حال أنها كانت فكرة بيرس. وفى معرض الحديث عن الفرق بين براجماتيته وبراجماتية چيمس، كتب بيرس إلى المسز لاد - فرانكلين فى سنة ١٩٠٥ قائلا: "على الرغم من أن چيمس يسمى نفسه براجماتيا - ولا شك من أنه استقى أفكاره عن الموضوع منى - فإنه يوجد فرق جوهرى جدا بين براجماتيته وبراجماتيتى"[٥].

وفى نفس العام، وبمناسبة الحديث عن الانتهاكات الجارية للفظ وصنوف سوء استعماله، قال بيرس:

"وإذن، فما على الكاتب - وقد وجد براجماتيته الوليدة وقد بلغت أشدها - إلا أن يشعر بأن الوقت قد حان لكى يقبل وليده قبلة الوداع ويتركه لمصيره الصاعد، وهو فى نفس الوقت لكى يخدم الغرض الدقيق للتعبير عن التفسير الأصلى، فإنه يتوسل ليعلن ميلاد كلمة البراجماتية، التى فيها من القبح الكافى ما يحميها من الخطافين"[٦].

وإنه لسؤال طريف يلح علينا الآن: هل من الممكن استقاء أفكار من فيلسوف ولم تكن لديه أبدا؟ وهلا يشك المرء فى أبوته لوليد، وهو كلما كبر يزداد اختلافا وتباينا عن أبيه؟

(5) Jour. of Philos., XIII (1916), 718.

(6) Monist, XV (1905), 165-6.

ولعله من الصواب ومن الإنصاف لكل الأطراف أن يقال إن الحركة الحديثة التى تعرف بالبراجماتية هى - إلى حد كبير - نتيجة سوء فهم چيمس لبيرس. وطبقًا لتفسير بيرس نفسه فإن براجماتيته أو مذهبه البراجماتى يختلف عن براجماتية چيمس فى ناحيتين:

أولاً: فى كون معنى مفهوم ما يفسر بالنسبة للمسلك وليس بالنسبة للإحساس.

ثانيًا: فى كونه يفسر بالنسبة للتعليم وليس بالنسبة للتخصيص. فعند چيمس تشير الفكرة إلى تعرف حسى، فى حين أن بيرس يفسر الفكرة ليس بالقياس إلى النتائج المباشرة التى تفضى إليها ولكن بالنسبة للأداء والضبط.

وثمة فرق ثان يعكس توكيد بيرس على التعميم. "فالملابسات العملية" تعنى ملابسات على غرض العمل الذى نتيجته "تعقل معين"، أو الذى يصبح "محكومًا بالقانون" أو "الغريزة بأفكاره عامة"(٧).

وصفوة القول، إن المفهوم - ليس له معنى عند بيرس إلا طالما أنه يعبر عن فكرة حياة أحسن تنظيمها وتدبيرها وينميها ويدفع بها قدمًا. فهو عادة يعكس استقرار واطراد وتناسق الأشياء، وتكوينها هو فى نفس الوقت ملاءمة لهذا الاستقرار والتناسق، ومشاركة فى نموه.

أما عند چيمس، من جهة أخرى، فإن معنى المفهوم يكمن فى إفضائه إلى مجال التخصيصات والجزئيات المعينة، وملاءمة الوسيط للمقتضيات واللزوميات التى تنجم فيها.

---

(7) Dict of Philos. and Psychol., loc. cit., Monist, XV (1905), 481.

فالفرق بين الاثنين، ليس مجرد أن بيرس أكثر ربطا للبراجماتية بمثل أعلى أخلاقى، بنوع قطعى بات، وإنما هنا فرق مهم فى هذا المثل الأعلى.

فالخير عند بيرس يكمن فى التناسق والنظام والاتحاد والالتئام والوحدة، وعند چيمس فى الذاتية، فى التنوع، فى الاختلاف، فى إشباع الميول المحسوسة الملموسة.

وثمة مجموعة أخرى من أفكار بيرس أثرت فى تجريبية چيمس الراديكالية. ولقد برزت هذه الأفكار إلى حيز الوجود فى سلسلة من المقالات نشرت فى مجلة الأحدى (The Monist) فيما بين أعوام (١٨٩١ ، ١٨٩٣)، والتى تنبأ لها چيمس بأنها "ستبرهن على أنها منجم ذهب من الأفكار لمفكرى الجيل المقبل"(٨).

لقد كانت "الصدفية" و"الآبدية" و"العيدية" هى الألفاظ التى استعملها بيرس لمذاهبة الخاصة بالمصادفة والاستمرار والحب، كل على حدة.

وعلاقتها بالمذاهب المقابلة عند چيمس تطابق حالة البراجماتية: كان چيمس يستمد العناوين والعون والتأييد من لدن بيرس، ولكن نسق أفكار الاثنين كانا فيه مختلفين اختلافًا عميقًا.

فچيمس الذى يحب التمعن وإطالة النظر فى النظائر المذهبية والتعاون الفلسفى، كان يؤكد عنصر الاتفاق والمشابهة، فى حين أن بيرس الذى كان اهتمامه بدقة آرائه أكثر من اهتمامه بسيمائها العامة، كان يؤكد عنصر الاختلاف والتباين.

---

(8) P.U., 398 In this passage James goes on to identify Pierc's ideas with Bergson's cf below, 291-2.

وبالقياس إلى چيمس، فإن "الصدفية" أو مذهب المصادفة لقى منه استصوابا أولاً على اعتبار أنه مدد للحرية الأخلاقية، وكان موافقًا أيضًا لتجريبيته الأساسية لرأيه القائل بأن الوجود - فى تحليله النهائى - لا يمكن شرحه أو تفسيره. ولكن بيرس لم يكن مهتما بأى من هاتين الفكرتين.

"فالصدفية" كانت موضع تقبله - أولاً وقبل كل شىء - لأنها تعكس منطق الاحتمال أو الطريقة الإحصائية أو التقريبية للعلم. وبمرور الزمن. فإن نظرية چيمس عن المصادفة على اعتبار أنها مجرد وقع لما لا يمكن شرحه أو تفسيره، مجرد حادث سماوى، أذعنت لفكرة "الجدة" أو "الندرة". فالجديد أو النادر غير العادى أمر غامض - فى معنى معين - بحيث لا يمكن شرحه أو تفسيره، ولكن ليس من المحتم أن يكون فجائيًا أو بغتة، لأنه قد ينمو ويتطور مما سبقه، وبهذه الطريقة فهو ينتمى إلى المحتوى أو السياق الذى ينجم منه.

أما "الأبدية" فكانت تعنى عند چيمس، أن الواقع، فى كونه مستمرًا وانسيابيًا على نحو موصول، فإنه يفلت من منطق المطابقة أو المماثلة. فى حين أن "الأبدية" عند بيرس كانت طريقة للتوفيق بين المصادفة والمنطق. فاستمرار الأشياء معناه أن هناك دائمًا مجالاً لمزيد من التحليل. فبالنسبة لچيمس يوجد غامض لا يمكن تفسيره أو شرحه، وهو لا يتطلب أى تفسير أو شرح، لأن الخبرة تنقله على نحو كاف واف.

وبالنسبة لبيرس فإن هذه البقية أو الفضلة ذاتها من الغامض غير المفسر، تعنى أن الكون - إلى الأبد - قابل للشرح وممكن التفسير.

ولقد خلع بيرس اسم "العيدية" على مذهبه فى "الحب التطورى". ولكن الاختلاف بينهما فى التفاصيل اختلاف أصيل يستوقف الأنظار. ذلك أن بيرس يولج الكره فى الحب على اعتبار أنه وجه من أوجهه اللازمة، وبهذا يحل مشكلة الشر بهذه الطريقة

الوحدانية التى أنكرها چيمس بكل شدة. ثم إن بيرس يضع مركز الثقل على الشخصية الاجتماعية أو الشخصية المتضامنة الشائعة المسئولية، بطريقة مناقضة تماماً لمذهب چيمس فى الذاتية الذى لا يلين.

كانت المراسلات بين چيمس وبيرس من جانب واحد، حيث إن رسائل بيرس كانت كبيرة الجحم بالمعنى الحرفى للكلمة، ولم يكن ذلك بسبب أن چيمس لم يكن عنده الكثير لكى يقوله لبيرس، وإنما كانت عنده مسالك أخرى للتوزيع والمحاصة. فبالنسبة لچيمس كان بيرس واحدا من بين عشرات ممن يراسلونه، مئات من الأصدقاء، وآلاف من القراء، فى حين أن چيمس بالنسبة لبيرس كان بمثابة أمين سره وجمهوره فى آن.

وعندما كان چيمس يكتب لبيرس، فقد كان عادة مشغولا بمشكلات بيرس الشخصية، بحيث إن حالته لم تكن تناسب التفلسف.

وفى سنة ١٨٩٣، خطط بيرس برنامجًا لأطروحة عن "مبادئ الفلسفة"، فى اثنى عشر مجلداً.

ورداً على طلب بيرس من چيمس بأن يكتب رسالة يعبر فيها عن مدى اهتمامه بالمشروع، أرسل چيمس إلى بيرس الرسالة التالية، التى لم يكد يتسلمها حتى طبعها ووزعها:

"لقد غمرنى الفرح من صميم فؤادى إذ أعلم أنك تستعد لنشر نتائج أبحاثك وتفكيرك الفلسفى فى شكل كامل مترابط. أرجوك أن تعتبرنى مشتركًا فى السلسلة كلها. لا يوجد مفكر أكثر ابتكاراً وابتداعًا منك فى جيلنا برمته، لقد أوحيت لى شخصيًا بأمور فى غاية الأهمية أكثر من أى شخص آخر قدر لى أن أعرفه، ومع ذلك فلم أعطك أبدا ما فيه الكفاية من الإقرار على الملأ بالفضل لقاء ما أدين لك به مما علمتنى من لدنك. وأنا واثق أن هذا العمل المنسق سيزيد من دينى لك".

ولم يدخر چيمس وسعا فى جهوده لتحسين مركز بيرس، دون كلل أو ملل. ونجح فعلاً فى أن يحصل له على عدد من المناصب المؤقتة باعتباره محاضراً، ولكن محاولته فى سنة ١٨٩٥، لإقناع مدير الجامعة إليوت بمنح بيرس منصباً دائماً فى هارفارد، منيت بالإخفاق.

كمبريدج ٣ مارس سنة ١٨٩٥

"عزيزى المدير

"إنى لأبغض أن أطاردك بمشكلات كريهة تتصل بالكلية. لكن كيف يتسنى لكائن أسمى أن يحتجب عن مخلوقاته؟ وخلاصة المشكلة هى هذه:

اجتمع قسم الفلسفة لكى يدبر المقررات الدراسية للعام القادم. ومعنى أننى مسئول عن علم النفس. هو أن المقرر المهم فى "علم نظام الكون" أو "فلسفة الطبيعة" ينبغى إما أن يلغى فى العام القادم أو يعهد به إلى أستاذ من خارج الكلية. وأريد الآن أن أقترح عليك شخصاً لا يقل عن تشارلز س. بيرس، الذى لن يثير اسمه حماستك لأول وهلة – فيما أحسب – ولكنك ستنصفه وسيروق فى نظرك بعد قليل من التأمل. سيقبل الطلاب النجباء المتقدمون فى دراساتهم على محاضراته. زمراً، ويتقاطرون أفواجاً للاستماع إليه، فاسمه الآن يحمل إلى نفوسهم ضرباً من العظمة الساحرة، وسيخلف فيهم موجة من التأثير والتقاليد والفضول والقيل والقال ... إلخ. لن تنحسر لسنين طويلة. أما أنا فيقينا سأتعلم الكثير من مقرره، وليس من شك فى أن الكل عالم بأن بيرس متعب شخصياً، ولكنى لو كنت المدير لما توقعت نهاية منظومة حسنة الإيقاع موائمة لعلاقته بالجامعة، ولاعتبرت ذلك جزءاً من مناكفات العمل اليومى، وأغمضت عينى ومضيت فى طريقى، واتخذت قرارى عالما بأن ذلك – من وجهة النظر الفكرية فى أسمى مراتبها – ستكون أحسن شىء يمكن أن يصادف طلاب الدراسات العليا فى قسم الفلسفة. وسيكون لذلك ميزة أخرى، بمثابة إعلان عنا يبين للناس أننا نفعل كل ما فى وسعنا، وأننا نحول كل شاردة إلى فائدة، وفى نفس الوقت سيكون ذلك اعترافاً كريماً منا بقوة ت. س. بيرس – وهو اعتراف فى يقينى – ليس إلا من قبيل الإنصاف والعدل لذلك الزميل المسكين. إننى مؤمن حقاً بأن طريقاً (ربما) أقل راحة هو هنا الطريق الصحيح، ولذلك لا أتردد فى أن أكون لجوجا فى دفع رأيى واستحثاثك على الأخذ به.

المخلص دائماً

و م. چيمس

وكات إليوت مهذبا فى رده ورقيقا ولكنه لم يستحث:

"إن كل ما تقوله عن قدرات وعلم ت. س. بيرس صحيح، وكم كان بودى - من كل قلبى - أن يكون فى إمكان الجامعة أن تفيد منها"(٩).

ولقد توثقت عرى الصلات الفكرية بين چيمس وبيرس، وبلغت أوجها فى العقد من (١٨٩٧ ، ١٩٠٧) . وتأثر بيرس جدا من إهداء چيمس مؤلفه "إرداة الاعتقاد" له اعترافا بفضله، ولما بدأ چيمس فى تجميع نظامه للميتافيزيقيا شعر بأن بيرس فى صفه باعتباره مشايعاً ليس فقط "للمذهب العملى" ولكن "للتحولية الكونية"(١٠).

وبمرور السنين تلاشت قشرة الاتفاق وظهرت تحتها ضلوع الاختلاف الصلبة، فى المنهاج والتفاصيل على السواء.

وثمة موضوع ثانوى ولكنه ملح ومنير - تقدمه مشكلة محاضرات بيرس العامة فى هارفارد - متى، أين، ماذا، كيف؟

كتب بيرس إلى چيمس فى ٣ مايو سنة ١٨٩٧ يقول:

"سمعت منذ بضعة شهور من الدكتور (بول) كاروس، أنك كنت تحاول أن تهيئ لى الفرصة لكى أعلم المنطق فى هارفارد. وعلى الإجمال، فأنت وأنا فى تمسكنا بأن العقيدة هى أساساً مسألة عملية، فيبدو أننا متفقان تمام الاتفاق، ولو اجتمعنا معاً هناك فسوف نترك بصماتنا على العالم الفلسفى، ومن ثم على رجال العلم والمعلمين وفى النهاية على تيار تفكير العالم".

---

(9) Eliot to W.J., March 26, 1895.

(10) Expression used by W.J. in 1897, Philos. 3.

وفى ديسمبر أرسل بيرس إلى چيمس مسودة المحاضرات الثمانى المزمع إلقاؤها، وكانت رءوسها كالآتى:

١ - الرسوم البيانية المنطقية.

٢ - دروس منطق المعادلات.

٣ - الاستقرار والفروض.

٤ - الفئات.

٥ - جذب الأفكار.

٦ - الاستدلال الموضوعى.

٧ - الاستقرار والفروض الموضوعية.

٨ - الخلق.

وفيما يلى إقرار چيمس بتسلمها:

كمبريدج ٢٢ ديسمبر (١٨٩٧)

"عزيزى تشارلز،

يؤسفنى أنك ملازم للمنطق الشكلى إلى هذا الحد. إنى لأعرف قسم الدراسات العليا هنا حق المعرفة، وكذلك رويس وكلانا متفق على أنه لا يوجد هناك إلا ثلاثة رجال فقط يستطيعون متابعة رسومك البيانية ومعادلاتك. أليس من الأوفق أن تقرأ مثل هذه الرياضيات العليا والتصورات المجردة بدلاً من أن تسمع ، أليس الأولى بك - ولو على حساب الابتكار - وأنت تعلم أن المحاضرة ينبغى أن تنجح باعتبارها محاضرة - أن تقتصر على الحد الأدنى من المنطق الشكلى وتمضى قدمًا إلى الميتافيزيقيا وعلم النفس ونظرية خنق العالم. مباشرة؟

ثمة مادة كافية فى المجلدين الأولين من مشروع نظامك[11]. لتعطى منها مقررًا قصيرًا دون التعدى على أى رموز رياضية بكل تأكيد، هذا طبعًا بالإضافة إلى بقية المجلدات. اسمع كلامى وكن ولدًا مطيعًا وفكر فى خطة أكثر رواجًا وتقبلاً. إنى لا أريد أن يتضاءل حجم جهودك إلى ثلاثة أو أربعة، ولست أتصور كيف يمكن تلافى هذا المصير إذا أصريت على البرنامج الذى تقترحه. لعلك ربما لا تتصور مدى قلة الاهتمام الموجود بالنواحى الشكلية البحت من المنطق. إن الموضوعات التى من هذا النوع ينبغى أن تطبع وتوزع على القلة المبعثرة هنا وهناك. إنك مكتظ بالأفكار، وليس من المحتم بأى حال أن تؤلف المحاضرات كلا موصولا. فالموضوعات المتفرقة ذات الطابع الحيوى المهم كفيلة بأداء الغرض على أتم نحو. إن الذى أتمناه هو مضادات للاسمية، والفئات، وجذب الأفكار والفروض والصدفية والأبدية. وأكتب الآن بأنك موافق على هذه الشروط، وباللّه عليك اجعل محاضراتك خالية من الرياضيات والحساب كما تخلو منها أكاذيبك.

مع أحسن تمنياتى - اقبل صادق ود وإخلاص،

و م. چيمس

نيويورك ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٩٧

"عزيزى وليام،

قبلت كل شروطك. وليس عندى شك فى أنك تقيس مقدرة طلابك بمعيارها الصحيح، الأمر الذى يتفق مع كل ما أسمع عن كمبريدج، ومع القليل الذى قدر لى أن أشهده منها، وإن كانت طريقة الرسوم البيانية قد استساغها النيويوركيون بكل سهولة. ورب من يقول إن عقول النيويوركيين تنعشها وتنبهها حياة نيويورك، ولكن الطلاب الدارسين هم أبعد الناس عن عالم الرياضيات كأى إنسان آخر فى نيويورك. على أننى أحب أن أؤكد أن فلسفتى ليست "فكرة" طفحت بها وفاضت بها نفسى، وإنما هى بحث جدى خطير وعر المسالك، والجزء الذى يرتبط منها بالمنطق الشكلى أوثق رباط، ليس هو أسهل جزء فيها ولا أقلها تعقيدًا بأية حال من الأحوال. والذين لا يستطيعون التفكر بدقة (وهو النوع الوحيد من التفكر) لا يستطيعون أن يفهموا فلسفتى، لا سبيلها ولا طرائقها ولا نتائجها. إن إغفال المنطق فى كمبريدج إغفال مطلق ما فى ذلك أدنى ريب. وطلابكم فى هارفارد من دارسى

(11) According to the prospectus, the title of vol. I was "Review of the Leading Ideas of the Nineteenth Century", and of col. II, "Theory of Demonstratvie Reasoning".

الفلسفة يجدون مشقة بالغة فى أن يتفكروا بدقة. وإذا سارت الحال على هذا المنوال، فعما قريب ستجد أن مهندسيكم سيؤثرون ترك الأعمال الكبيرة بلا تشييد، كى يتحاشوا القيام بالحسابات اللازمة وعمل الإحصاءات والتقديرات الخاصة بها. وهارفارد لا تتقدم إلا قليلاً عن بقية بلادنا فى هذا المضمار. وبلادنا لا تتقدم إلا قليلاً عن أوروبا. وسيأتى اليابانى ويرفسنا، وفى نهاية المطاف سيصادف الأسئلة التى تجيب عنها فلسفتى، وسوف يعتصم بالصبر والتأنى إلى أن يجد المفتاح، كما وجدته.

إننى لا أكترث مطلقًا بالأوقات والساعات. وسأكون كالطينة فى يد الخزاف. وما أحب إلى نفسى أن أكلف بالغناء الفكاهى والرقص، وإن كنت متأكداً من أن غنائى ورقصى فى غاية الرداءة. لست حنبليًا إلى الدرجة التى لا أفهم معها لذة هذه الانغماسات فى "موضوعات ذات صبغة حيوية مهمة". إنى لا أفكر فى أنه خير لجمهور المستعمين أن يذهبوا إلى بيوتهم ويصلوا صلاتهم الأخيرة استعداداً للقائى.

ت. س. ب.

وانتهى الأمر بأن تم إلقاء الثمانى المحاضرات (ابتداء من ١٢ فبراير سنة ١٨٩٨) فى مسكن المسز أوب بول، القائم فى شارع براتل بكمبريدج. أما العنوان الذى أعلن عن سلسلة المحاضرات كلها فقد كان موسوما "بالتفكير ومنطق الأمور".

وكانت هذه هى المحاضرات التى عناها رويس عندما كتب إلى چيمس فى ٢١ يونيه سنة ١٩٠١ ما يلى:

"أما بالقياس إلى الأفكار الواردة فيها، فيبدو أننى أيضًا فى المدة الأخيرة قد وضعت قدمى على أول الدرب فى إثر عدد كبير من المسائل المهمة الطريفة فى المنطق. إن تلك المحاضرات التى ألقاها ت. س. بيرس المسكين، والتى كان لك فضل تدبيرها، ستظل أبد الدهر بالنسبة لى من أبرز مميزات عصرنا التى تركت بصماتها واضحة على سجل التاريخ. لقد أوحت إلىَّ بارتياد هذه المسالك الجديدة".

ولما تسلم بيرس كتاب چيمس "الأنواع المختلفة للخبرة الدينية" كتب إليه الرسالة التالية بهذه المناسبة:

ميلفورد ١٢ يونيه سنة ١٩٠٢

"عزيزى وليام،

"لزام علىَّ أن أعبر لك عن اعترافى بفضلك لكل ما بذلته من أجلى لحمل معهد كارنيجى على معونتى فى إنتاج كتابى فى المنطق. حاول أن تفكر فى مزيد آخر من العمل تؤديه، إذ يبدو أن الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ محملة بالغم والهم وامتقاع اللون.

ثمة نقطة فى علم النفس شغلت اهتمامى.. والمسألة هى ما يمر فى الوعى.. فى شوط تكوين عقيدة جديدة. لقد وقفت عند هذه النقطة فى اللحظة التى أقبل فيها موزع البريد العاجل حاملاً نسخة من كتابك الجديد. وقضيت خمس دقائق أقلب صفحاته. وأستطيع أن أتبين السمة العامة لموقفك، بدرجة تسمح بأن أقول إننى على وفاق صميم معك. إننى أقول للناس – على سبيل المناجاة الخيالية – إذ ليس عندى من أتحدث معه: إنكم تظنون أن فرض أن الحق والعدل هما أعظم القوى فى هذا العالم – فرض ميتافيزيقى. فليكن – أنا من جانبى أتمسك بأنه حقيقى واقع. ولا ريب فى أن الحق لا بد أن يكون له مدافعون لكى يؤيدوه ويعلوا كلمته. ولكن الحق يخلق أنصاره ويعطيهم القوة. إن الطريقة التى تؤثر بها فكرة الحق فى العالم هى جوهريا نفس الطريقة التى تدفعنى بها رغبتى فى تحريك نار المدفأة بالمنكاش إلى أن أنهض وأحركها. فهناك تسبيب فاعل موجد، وتسبيب نهائى أو مثالى. وإذا كان علينا أن نقرر أيهما نعده استعارة فهو الأول بلا مراء. إن البراجماتية مذهب صحيح فقط طالما أن يكون من المعترف به أن العمل المادى هو مجرد العشرة الخارجية للأفكار فحسب. إن العنصر البهيمى قائم ولا ينبغى أن ننفض يدنا منه بالتفسير. ولكن نهاية التفكير هى العمل فقط طالما أن نهاية العمل هى تفكير آخر.. بكل أفكارك وآرائك عن النفوذ الروحى لم تنضم إلى الكنيسة؟ وأكبر الظن بل أقوى اليقين أنك لن تسمح للصيغ الميتافيزيقية الميتة كدياميس سراديب الأموات، بأن تحرمك من حقك فى تأثيرات ونفوذ الكنيسة. لقد عكفت على دراسة كتاب رويس (العالم والفرد). الأفكار فى غاية الجمال، والمنطق ممقوت ولعين إلى أقصى درجة. أعتقد أنه ليس من الذوق السليم أن يحشوه كل هذا الحشو بلفظ اللّٰه. إن المطلق – على سبيل التحديد الدقيق – هو اللّٰه فقط فى المعنى البيكويكى، أى فى معنى ليس له أثر. اغفر لى هذه الثرثرة التى مردها إلى حياتى الناسكة وليباركك اللّٰه.

ت . س . بيرس

وفى ربيع سنة ١٩٠٣ (٢٦ مارس – ١٤ مايو) حاضر بيرس ثانية فى كامبردج، ولكن تحت رعاية الجامعة هذه المرة، وعن موضوع "البراجماتية".

وفى خريف نفس السنة (٢٣ نوفمبر ١٧ ديسمبر) أعطى مقرراً ضمن محاضرات لوويل فى بوسطن عن "المنطق وموضوعات فلسفية أخرى". وحدثت بينه وبين چيمس البوادر المعتادة. وعلى هذا صدر من "وليام" إلى "تشارلز" فى ١٣ مارس ما يأتى:

"وأخيراً "وفى ظل العناية الإلهية"، استطعت أن أساعد أمورك - قليلاً - على الصعود والسير. لقد وافق مجلس جامعة هارفارد - بأغلبية الأصوات، على تخويلك حق إعطاء ست محاضرات جامعية.. ولك الخيار فى تسميتها حسبما تشاء. والخمسون طالبا الذين درسوا على مقرر الفلسفة (الذى أرسلت لك منهاجه) ضليعون جدا فى "البراجماتية" و"الصدفية" وسيكون من دواعى اغتباطهم أن يسمعوا عنها منك مباشرة. أما "الأبدية" فستجدهم غفلا منها. وستجد الأرض بكرا لتبذر فيها ما تشاء".

ورد بيرس على هذه الرسالة فى ١٦ مارس بقوله:

"تسلمت رسالتك الآن فقط بعد الظهر. لا يوجد شيء أكثر إبهاجاً لى وإرضاء من ذلك. وأعتقد. أن المحاضرات الست ينبغى أن تنحصر جميعها فى موضوع واحد فقط هو البراجماتية، الذى كما أفهم هو إحدى القضايا الرئيسية فى المنطق.

ودراسة أساسه وتفسيره وحدوده وتطبيقاته على الفلسفة، وعلى العلوم وعلى تسيير دفة الحياة تكفى جدا لست محاضرات. عزيزى وليام أنا لم أشكرك بعد.. إنك من بين كل أصدقائى الوحيد الذى يوضح البراجماتية فى أكثر أشكالها طلباً. إنك جوهرة البراجماتية".

ولم يقدر لأى من هذه المحاضرات أن تنشر فى حياة بيرس، ولكنها كتبت وحفظت. وكان لدى چيمس المخطوط الأصلى لمحاضرتين منها[١٢].

(12) The Cambridge lectures on “Pragmatism” appear the Collected papers, Vol. V, with short extracts in other volumes.

شوكوروا ٥ يونيه سنة ١٩٠٣

"عزيزى تشارلز،

لقد أرسلت محاضرتيك فى مظروف مستقل إلى عنوانك فى ميلفورد، ولكنى أرسلت لك هذه الرسالة إلى كامبردج ظنا منى بأنك ربما تكون ما زلت هناك. إنهما فى غاية الإبداع ولقد قرأت المحاضرة الثانية مرتين، إنها فى غاية الابتكار، ثم إن فتاتك غير مألوفة جدا لدى العقول الأخرى، لدرجة أننى على الرغم من أننى أتعرف على منطقة التفكير وأدرك عمق الحقيقة المستوى الذى تتحرك عليه، فإننى لم أستوعب بعد المباحث المتعددة، بمعنى أن أصبح قادراً على الإفادة منها لأغراضى الخاصة. لقد أشرت إلى نشر هذه المحاضرات، ولكن آمل ألا تنشرها كما هى (tel quels). فهى بحالتها الراهنة – لن يستطيع إلا الراسخون فى العلم والملمون بالمصطلحات أن يستنشقوا منها العبير النادر لتفكيرك، وبعد موتك يعزون الأمر كله إلى عبقريتك، ينبغى أن تظفر بجمهور أكبر وأنت على قيد الحياة، وإذا تسنى لك فى العام القادم فقط أن تحرز نجاحا لدى الجمهور، فسيكون ذلك أكبر عون لك بالقياس إلى آمالك المرجوة فى المستقبل. وإنى لأخشى إذا أعددت مقرراً من المحاضرات جديدا بالكلية فإنها ستكون ملبدة بالاصطلاحات الفنية ومثيرة للدهشة والاستغراب، ولن تكون منيرة بالدرجة الكافية المطلوبة. فى حين أنك إذا أعدت فحص هذه المحاضرات ونقحتها، فلن توفر على نفسك كثيراً من العناء فقط، وإنما ستكون أيضاً قد فعلت أحسن ما فى وسعك لجمهور مستعميك وقرائك. لا يمكنك أن تبدأ بفكرة حقيرة جدا عن ذكائهم. انظر إلىَّ أنا باعتبارى واحداً منهم.

و م. چيمس

إن مشهد فيلسوفين يشكوان من أن أحدهما لا يفهم الآخر مشهد ليس بغير عادى، كما أنه ليس دائماً مشهداً تثقيفياً. وطرافة هذه الحالة تكمن فى اقتران سوء الفهم بشىء كثير من الاتفاق والمشاركة الوجدانية والنية الحسنة.

وبعد سنة ١٩٠٣، كانت رسائل چيمس (ويبدو أنه لم يكتب منها إلا رسائل مقتضبة وعلى فترات متباعدة) تكاد تكون مفقودة تماماً. فى حين أن بيرس ظلت جذوة نار تعليقه على كتابات چيمس متقدة دون انقطاع، محاولا أن يوضح آراء چيمس، ونادبا عدم دقة الأخير وعدم ترويه.

والرسائل التالية مباشرة، تنصب بصفة رئيسية على المقالات الخاصة بالخبرة الصرف أو التجريبية الراديكالية والتى تبدأ بسؤال "هل الوعى موجود؟". ففى سبتمبر سنة ١٩٠٤ كتب بيرس إلى چيمس رسالة قدم فيها - بعد أن اشتكى من غموض فكرة چيمس القائلة بأن «الوعى غالبًا ما ينظر إليه على اعتبار أنه وحدة» رأيا مضادا من لدنه. ورد چيمس عليه بأنه لم يفهم "كلمة واحدة"(١٣). والرسالة التالية هى رد بيرس على أقوال المدعى:

ميلفورد ٣ أكتوبر سنة ١٩٠٤

"عزيزى وليام،

إنه لما يكيدنى ويغيظنى جدا أن يقال لى فى كل نوبة إننى غامض أقول كلاما لا سبيل إلى فهمه، على الرغم من دراستى الدقيقة للغة. وعندما أقول إن ذلك يكيدنى ويغيظنى فلست أعنى أننى لا أريد أن يقال لى ذلك، بل على النقيض، صحيح أننى واع تماما أن أساليب تفكيرى وتعبيرى غريبة غامضة، وأن عشرين سنة من الحياة المعتزلة قد زادت من غرابتها وغموضها، وأعترف بالفضل للناس الذين يساعدوننى بتصحيحى. ولكن عندما أكون قادرًا، كما هو الشأن فى الحالة الراهنة، على أن أبين أن الاتهام ليس سوى مجرد ضرب من الإيحاء الذاتى مرده إلى كونك قد قلت لنفسك مرارًا وتكرارًا إن كل شىء يقوله بيرس غير مفهوم، وأنك فعلا وحقا قد صممت على أن تفهم، فعندئذ أجد شيئًا من الطرب وانشراح الصدر فى أن أشعر بأن من حقى أن أستسلم لإحساسى الطبيعى بالكيد والكمد. ولعله مما يسرك، وأنت صاحب طبيعة كريمة حقا، أن تكون صاحب الفضل فى أن هيأت لى كل تلك المتعة البريئة. إن عقلك وعقلى غير متلائمين للتفاهم إلى أقصى ما يمكن لعقلين أن يكونا عليه من سوء التفاهم، ولذلك فأنا أشعر دائمًا بأن علىَّ أن أتعلم منك أكثر من أى شخص آخر. وفى نفس الوقت فإن مما يزيد من وزن تفكيرى، أن أجد بينك وبينى اتفاقات عديدة فى الرأى. إن ما تسميه "الخبرة الصرف" ليس خبرة على الإطلاق، وينبغى بالتأكيد أن يكون لها اسم. ومن المحقق أنه من سوء الأخلاق إساءة استعمال الكلمات على هذا النحو، لأن ذلك يحول بين الفلسفة وبين أن تصبح علما. من الأشياء التى ألح فى الحث عليها. إن من المقتضيات اللازمة التى لا غنى للعلم عنها أن

---

(13) C.S.P. to W.J., September 28, 1904, W.I.to C.S.P., September. 30, 1904.

تكون له مصطلحات فنية معترف بها، تتألف من كلمات تبلغ من النفور والكراهة حدا يغرى المفكرين السائبين الفضفاضين بعدم استعمالها. وإنه لأمر حيوى بالنسبة للعلم أن من يدخل مفهوماً جديداً ينبغى أن يلزم بواجب يحتم عليه أن يخترع سلسلة من الكلمات للتعبير عنه، فيها القدر الكافى من النفور والكراهة. بودى لو أنعمت النظر جديا فى الناحية الأخلاقية لوضع المصطلحات الفنية.

المخلص دائماً

ت. س. بيرس

وفى ٣٠ أبريل سنة ١٩٠٥، قرأ چيمس بياناً بالفرنسية أمام المؤتمر الدولى لعلم النفس المنعقد فى روما. واحتوى ذلك البيان موجزاً للأفكار الواردة فى مقالات چيمس فى التجريبية الراديكالية. ولقد أرسل چيمس المقالات ومعها الموجز إلى بيرس:

ميلفورد ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٥

"عزيزى وليام،

أولاً قبل كل شىء أحب أن أؤكد اعترافى بالجميل بنوع خاص لإرسالك هذه المقالات. لقد قرأت البيان الفرنسى أولاً[١٤]. ولقد وجدته فى غاية الوضوح تماما وفى غاية الجمال من ناحية أسلوب الكتابة. عندما تكتب بالإنجليزية (من الأحسن أن يقول المرء الشىء الكريه) فنادراً ما يكون فى وسعى أن أقنع نفسى بأننى أعرف ما تقصد. وإنى لأرى أن كتابتك ستكون قوية جدا ونافذة المفعول إذا عرف المرء ما تقصد، لكن المرء رقم (١) لا يعرف. خذ مثلاً، عندما تتحدث عن التشكك فيما إذا كان الوعى "موجودا"، فإنك تدفعنى على الفور إلى الرجوع إلى عدد كبير من الكتب، لكى أتبين ما عسى أن تعنيه، ولكنى أخرج منها بخفى حنين، وفى التيه الذى كنت فيه من قبل. أما عندما تكتب بالفرنسية وتتقيد بقواعد البلاغة الفرنسية فإنك تكون فى غاية الوضوح التام، بودى، وبود كثيرين غيرى أن تلتزم هذا التقيد عادة، لأن هذا "الالتزام لا يفعل لك شيئًا سوى أنه يساعد على قوة أسلوبك ونفاذه. وطبعاً فى وسعك أن تبتسم ساخراً من جرأة مثلى، على أن يسدى إليك المشورة والنصح فى

---

(14) "La Notion de Conscience"; cf. E.R.E.

أى أمر أيا كان. وحقيقة كونك قادراً على أن تفعل ذلك، إذا شئت، هى التى جرأتنى على أن أقول لك ما أقول.

ثم إننى متفق معك فى كل كلمة تقولها فى هذا البيان الفرنسى، فيما عدا استثناء واحد، وهو أننى على يقين تام بأن المذهب ليس جديداً على النحو الذى تذكره. وطبعاً من الخير والأوفق ألا يكون جديداً. أنا نفسى سبق أن بشرت بالإدراك الحسى المباشر، كما تعلم. وفى مرجوى أن تكون كلمة "براجماتية" موضع القبول، على أنها اصطلاح يعبر عن تلك الأشياء (ولعلنا لا نستطيع أن نتأكد تماماً مما هى بالضبط) التى يتفق عليها كلانا بالقياس إلى تفسير التفكير. أما بالنسبة لمذهب الإنسية، فيبدو لى أنه مذهب حليف يتناغم تماماً مع البراجماتية، وإن كان لا يرتبط بالضبط بنفس المسألة. إننى أفضل كلمة "علم الإنسانية" باعتباره معبراً عن الرأى العلمى. إننى أوقع بإمضائى على علم الإنسانية بالإجمال. أما التعددية فهى لا ترضى، لا عقلى ولا قلبى.

وأما فيما يتعلق "بمشكلة الشر" وما شابهها، فلست أرى فيها إلا محاولات ملعونة تجديفية لتفسير مقاصد العلى الأعلى. لا يوجد شىء أنجع لنا من أن نجد مشكلات تتجاوز قوانا، وينبغى أن أقول أيضاً إن ذلك ينقل إحساساً لذيذاً بالتدليل فى مهد أمواه البحر، وهو شعور يلازمنى دائماً وأنا أركب البحر. فمثلاً محال علىَّ أن أفهم لماذا تبدو لى فئاتى بكل هذا الضوء دون أن تكون لدىَّ القوة لكى أجعلها مفهومة لدى أولئك الذين هم وحدهم فى حال تسمح بأن يروا معناها، ألا وهم زملائى البراجماتيون. وأشد ما أرزح تحته من كآبة سببه هذا الأمر بالذات. ولكنى عندما أبسط شكاتى أمام ربى وأقدم كتابى بين يديه، فأنا متأكد أننى طالما يكون فى وسعى أن أقول إننى استنفدت كل محاولاتى، فلا لوم علىَّ ولا تثريب، وأن مسئوليتى انتهت وبحسبى ذلك سعادة وغبطة، وأن المسألة فى يد المؤلف الأسمى لكل التفكير.

عندما بدأت كتابة هذه الرسالة كنت أعانى من كرب عدم تحقيق أملى فى ذلك الأسبوع فى المدرسة الصيفية، مضافة إليه هموم أخرى أقل أهمية، ولكنها عظيمة البلية. ولكن مجرد استقرارى وسردى لهذه النقاط القليلة المتعلقة بالاعتقاد الحقيقى الصحيح بالله، قد جلب إلى نفسى السرور، بحيث إن آلامى بدأت تنفثئ فعلا. إننى أشتم أن لا أمل لى فى فصل من الفصول هذا الصيف. محال أن أفهم.

ت. س. بيرس

والرسالة التالية كتبت من الأديرونداك، حيث كان چيمس يحاضر فى مدرسة دافيدسون.

هاريكين أول أغسطس سنة ١٩٠٥

"عزيزى تشارلز:

كتبت إليك عجالة قصيرة، وأنا أتأهب لمغادرة كمبريدج. والآن، وبعد أن أعدت تلاوة رسالتك أشعر بالرغبة فى أن أكتب لك ثانية. إن تشجيعك لى لكى أصبح أحد أساطين البلاغة الفرنسية يرضينى ويطربنى فى نفس الوقت. سأفعل، إذا فعلت أنت، فكلانا سيكون أوضح بلا شك. على أن الشىء الغريب فى أمر تلك المحاولة الخاصة بى هو أننى كتبتها مرتين بنفس السرعة التى اعتدت أن أكتب بها أى شىء بالإنجليزية. وعندما أكتب بالإنجليزية فإن عندى مجالا للاختيار من طرق ممكنة للتعبير عن نفسى، وأحاول دائمًا أن أتحسن. أما فى الفرنسية فإن الجملة الأولى التى ترد إلى خاطرى هى القذيفة الوحيدة الممكنة، وبناء عليه فلا بد أن تبقى. ولقد شعرت بما يشبه الزغزغة لكونى قادرًا على كتابتها على الإطلاق، لدرجة أنها بدت فى نظرى وكأنها بلغت حد الكمال مباشرة، الأمر الذى جعلنى أسارع إلى كتابة واحدة أخرى من نفس الصنف، وكلما كانت ذكريات مختزنة فى الحافظة لجمل سبقت لى قراءتها ثم أعيد إنتاجها آليًا.

وطبعًا، نقطة بدايتى هى مبدأ الإدراك المباشر، ولكنى لم أظفر بالمعالجة المتقنة للموضوع فى أى مرجع سوى حديث عند اثنين من الألمان، حيث وجدت أن وجهة النظر اللا ثنائية التى تفسر الحالة "العقلية" و"الشىء المادى" لعلاقات مختلفة للمحتوى، تشبه كثيرًا تفسيرى. لقد أقلعت عن قراءة ڤنت، إنه يرتب الفلسفة بنفس الطريقة التى يرتب بها ونستون تشرشل وآخرون القصص التاريخية.

عندما كتبت بخصوص "المدرسة الصيفية" ظننت أنك تعنى أما هارفارد أو شيكاغو. ولكن يظهر أنك تعنى هذا المكان، هنا لا تأس على ما فات. لقد ألقيت محاضرتين على نحو ست من المستمعات ورجلين ممن يستطيعون فهم الفلسفة. إنه لأمر يرثى له، والأجر لا يكاد يفى بنفقات الرحلة. لا تسكب دمعة واحدة على فوات مثل هذه الفرصة. لقد جئت إلى هنا لأنى أحب المكان، وسبق أن اشتريت قطعة أرض للبناء، ولذلك أحب الحضور هنا وأتفرس فيها.

إننى آسف جدا يا عزيزى تشارلى لما أنت فيه من مأزق صعب. وثق يا صاحبى أننى المخلص لك أبدا،

و م. چيمس

وعندما ظهر مجلد چيمس عن "البراجماتية" كان بيرس فى كامبردج يحاضر أمام نادى الفلسفة فى هارفارد.

كمبريدج ١٣ يونيه سنة ١٩٠٧

"الأعز وليام،

لقد تسلمت فى هذه اللحظة كتابك، البراجماتية. وتصفحت الفهرست وبحثت عن بيرس، ت. سانتياجو[15] س. ووجدت تعبيراً عن أفكارى نفسها، وأنا أقدر من يقدرها لأننى عانيت مخاضها وازدحم طريقى -شهوراً، وشهوراً طويلة- بحشود من الاصطلاحات الفنية والاعتراضات والسخافات، وأنا أحاول التعبير عنها. ولكنك وفقت أعظم توفيق فى أن تبسطها على صفحتك بكل هذا الوضوح والجلاء والصفاء فى أسمى مراتبها وبيسر سائغ. لم يكن فى الإمكان أبدع مما كان.

ت. س. بيرس

حاشية

.. صدقنى يا أعز عزيز إننى لن أتسبب لك فى أى إزعاج أو كدر ولو فى مقابل الدنيا بأسرها، ولقد مضى اليوم الذى أريد فيه أى شىء لنفسى. وهذه حقيقة أكثر صدقًا مما تظن، ولكن لا جناح عليك على كل حال فلتظن ما تشاء. بقيت لى رغبة واحدة فقط لا تزال تعتمل فى نفسى، من أجلك أنت ومن أجل العقود الكثيرة التى لا يحصيها عد، والتى تؤثر فيها مباشرة أو غير مباشرة. هذه الرغبة هى إذا لم تكن قد بلغت من الكبر والجمود عتيا، أن تحاول أن تتعلم كيف تفكر بمزيد من الدقة والإحكام، أعطنى خمسة عشر يومًا من وقتك وأنا كفيل - فيما أعتقد - بأن أفعل شيئًا من أجلك، وعن طريقك، من أجل العالم، ولكن لعلنى لا أدخل فى حسابى بما فيه الكفاية الظروف الروحانية الأخرى إلى جانب الظروف العقلية البحت. كثيرًا ما أشرت فى محاضراتى وعلى صفحاتى المطبوعة إلى مدى سمو ملكة التفكير من أفكار غير دقيقة، بحيث إنها تكون أسمى وأرفع من التفكير من تعريفات وتحديدات شكلية، وعلى الرغم من أننى أكاد أكون أسيِّر طرقى الضيقة، بحيث إننى غالبًا ما أنوح على أنك لا تستطيع أن تمدنى بالصيغ المضبوطة الدقيقة التى لدىَّ المهارة والمقدرة على

(15) A name adopted by Pierce, presumably in honor of James.

معالجتها، لكنى أتبين، بكل إعجاب ودهشة كيف أنك مع ذلك تصل إلى النتائج الصحيحة فى معظم الحالات، والأكثر إعجابًا وعجبًا هو، مدى قدرتك الفائقة على أن تنقل إلى مستمعيك وقارئيك أقرب ما يمكن إلى الحقيقة الدقيقة المضبوطة بالقدر الذى يتسنى لهم فهمه وإدراكه. هذه الملكة تجعل المرء مفيدًا، فى حين أننى كالبخيل الذى يلتقط الأشياء ويكتنزها على احتمال أنها قد تكون مفيدة للشخص المناسب فى الوقت المناسب، ولكنها فى الواقع من الأمر عديمة الفائدة على الإطلاق لأى شخص آخر، وتكاد تكون ذلك بالنسبة له نفسه، ما المنفعة إذا اقتصرت على شخص واحد بطريق المصادفة؟ الحق عام وعلى الشيوع".

ولقد استؤنف الموضوع ثانية بعد سنتين بمناسبة الملحق "ج" المضاف إلى آخر كتاب "الكون التعددى" والذى شبَّه فيه چيمس بيرس ببرجسون فى اعتقاده بأن الجدة الحقيقية تحدث فى التيار الموصول الانسيابى للأحداث الطبيعية.

ميلفورد ٩ مارس سنة ١٩٠٩

"عزيزى وليام،

فى اللحظة التى تسلمت فيها مسودات الطبع التى أرسلتها إلىَّ عكفت على دراستها، وبمجرد أن تفقهت فى الملحق "ج" جلست إلى مكتبى لكى أكتب لك عنه. ولكنى أتأنىَّ فى الكتابة بسبب ضرورة وزن كل كلمة عندما أناقش مسائل المنطق، وبعد أن ملأت أربعين صفحة وهممت بكتابة الصفحة الواحدة والأربعين، انتهيت إلى أن المسألة قد لا تهمك ولا تثير شغفك. إننى أصر على "صدفيتى" أكثر من أى وقت مضى، ولكن تشبيهك لى – على هذا الاعتبار – بشخص يتحدث عن الصيرورة إلى حقيقة، (devenir réel) – يبدو لى تمامًا مثل الطبيب الذى يعلن بأن مريضًا عنده شيء مثل الشلل البطيء أو الاختلاج الحركى لأن عنده حبة هشة تحت عقبه.

لقد كنت أحسب أن كتابك "إرادة الاعتقاد" كان تلفظًا فى غاية المبالغة، بحيث يضر رجلاً جادًا ضررًا بليغًا، ولكن تلفظك بما تتلفظ به الآن أكثر انتحارية بكثير مما فعلت من قبل. لقد ظللت مؤرقًا ليالى عديدة متوالية، وأنا فى غاية الحزن والأسى من جراء عدم اكتراثك إلى هذا الحد بما تقول.. إن الشيء الوحيد الذى حاولت فى كل حياتى أن أفعله فى الفلسفة هو؛ أن أحلل مفاهيم شيء بكل دقة وضبط، ولكى يفعل المرء ذلك فمن المحتم أن يستعمل ألفاظًا بدقة علمية صارمة شديدة التحفظ. ولكن، لما كانت هذه هى دعواى الوحيدة للاعتبار، ونظرا لأننى أومن إيمانًا عميقًا بأن الفلسفة إما أن تكون علما أو لغوا وهذرا وثرثرة، وأن الرجل الذى ينشد الدفع بالعلم قدما لن يستطيع أن يرتكب إثمًا أكبر

من استعمال ألفاظ علمية دون رعاية أو غيرة أو عناية باستعمالها بكل دقة وصحة وضبط شديد، فإنه لم يسىء لمشاعرى أن تلحقنى ببرجسون الذى فعل ما فوق الكفاية لتهويش كل الفروق ومزج كل الأنواع وخلط الحابل بالنابل.

المخلص جدا والمحب جدا والمعترف بالفضل جدا

ت. س. بيرس

كمبريدج ١٠ مارس سنة ١٩٠٩

"عزيزى تشارلز.

أمام من ألقيت بتلك اللؤلؤة من الملحق؟ لقد خلتها أصفى وأنقى روح لصدفيتك الأبدية، وأعتقد مع ذلك أن غلطتى الوحيدة كانت فى إرساله لك دون المتن برمته الذى يقدم للملحق ويسوغه. وطبعًا إنك محق فى العالم المنطقى، حيث كل لفظ ثابت لا يتغير ولا يتبدل إلى أبد الآبدين، ولكن العالم الواقعى عالم مغاير متناقض، كما حسبت دائمًا أنك تقرر بأنه (غير محقق أو معين إلا جزئيًا)، والألفاظ المنطقية لا تشير إلا إلى مواقف ساكنة فى تدفق غير ساكن فى أى مكان. ولكن انتظر وتريث حتى ترى الكتاب (مرفق طيه نشرة عنه). وفى مرجوى أن أرسله إليك فى ظروف أربعة أسابيع، وإنى لنادم لأننى أثرتك وأهجتك برد الفعل هذا المزعج قبل الأوان. أربعون صفحة. رحماك يا إلهى.

أقبل خالص ودى

و م. چيمس

ميلفورد ١٤ مارس سنة ١٩٠٩

"عزيزى وليام،

لا بد أننى كنت فى حالة اليأس من العقل عندما كتبت لك، إذ لم أوضح لك، كما قصدت، أنك قد بينت موقفى بمهارة بالنسبة لمجرى عالم الوجود. ولكنى أحب أن تضع فى اعتبارك شرطًا فى غاية الأهمية ولا مناص منه، لجعل نفسك واضحًا، وهو أنه يجب أن يكون لديك مقياس ثابت لا يتغير أو معين بدقة. لقد كان ذلك اللاذع ولكن الضحل - تشونسى رايت - هو الوحيد الذى أفدت منه باعتباره مسنًا لشحذ الفطنة والذكاء والحجا، ولكنك احترمته أكثر من اللازم، الأمر الذى ربما يعزى إليه أنه أوقعك فى شرك فكرته القائلة بأن فى بعض أجزاء الكون (واحد + واحد) ربما لا تساوى اثنين.

عزيزى وليام، ثمة شىء فى طريقة تعبيرك عن نفسك يجعل الناس البسطاء من أمثالى عاجزين عن فهم ما تعنى، وإليك السبب: إنك تريد أن تجعل عالم الممكن والمحتمل (لأنه من المحقق عالم حقيقى) غير صحيح أو غير مضبوط بنفس الدرجة التى أرى أنا عليها العالم الوجودى. ولكن ذلك مستحيل، لأن الممكن هو معيارنا الوحيد للتعبير. فى وسعى أن أوضح لك المسألة وضوح شمس الظهيرة، لولا أنك متزوج من نظرية أنك لا تستطيع أن تفهم الرياضيات. ولو أنك فقط، أجزت بأنك ربما تكون مخطئًا فى هذا الظن، فأنا أضمن أن أجعل منك عالما رياضيا من الطراز الأول. ولكن عندما يفرض المرء على نفسه حقيقة مقررة باعتبارها بدهية بأنه لا يستطيع أن يفهم الرياضيات، أى أنه لا يستطيع أن يفهم الواضح، فذلك يسد الطريق أمامه، أفلا تعقل؟

ت . س . ب .

كمبريدج ٢١ مارس سنة ١٩٠٩

"عزيزى تشارلز،

لا أستحق منك كل هذه الرسالة المحكمة المتقنة التهذيبية من لدن حكيم خبير، كما أننى لا أستحق تماما كل لومك وعذلك، على الرغم من أن حملى ومولدى وفصالى تمت كلها فى الخطيئة الفلسفية، لأننى صراحة، أعتقد فعلا معك بأن العلاقات فى عالم الممكنات، ذات الصدق العقلى البحت، كما يسميها لوك، علاقات مضبوطة. إن الزمن الذى ينساب فى استواء وحدة تصورية لفكرة مجردة، واللحظة التى تشعر أنت فيها بالملل والكلال، وأنها تمضى ببطء السلحفاة، قد أشعر فيها أنا بأنها تمرق كالبرق، ومع ذلك يمكن تدبيرها وتخطيطها ومعادلتها بطريقة صناعية، الأمر الذى يناسب الإجراء الإنسانى أعظم مناسبة ويلائمه، وكل علاقاتها المضبوطة تشكل نظامًا رائعًا صناعيًا من التقسيم والترتيب إلى جداول يمكن بواسطتها الإمساك بأى عنصر مهما كان من عناصر التدفق الوجودى. إن صدفيتى مثل صدفيتك لا تتعلق إلا بالتدفق والكرور والتتابع. ولكن تريث حتى ترى كتابى القادم.

و . م . چيمس

(٣٢)

البراجماتية

"هذا العام - هو قطعًا عامى الأخير من المحاضرات، ولكنى آمل أن يكون عامى الأول من عدم المحاضرات. لقد اتضح لى أكثر وأكثر أن تبسيط مجال واجباتى هو أسمى مبدأ أخلاقى بالنسبة لى هو سدرة المنتهى. وإنى لأعيش متوجسا خيفة أن يدهمنى المنتقم الجبار (الموت) ويقصفنى قبل أن أبلغ رسالتى، وما ذلك بسبب أن الجنس البشرى يحتاج إلى رسالتى، إذ لا ريب فى أن الجنس البشرى يستطيع أن يمضى فى سبيله ويعيش على خير ما يرام دون أى فيلسوف: ولكن - موضوعيًا - إنى لأكره أن أترك المجلدات التى نشرتها فعلا دون تتمتها المنطقية. إنها لمأساة جمالية أن تبدأ بناء قنطرة ثم تتوقف فى وسط حنية"[١].

وفى أثناء أعوام چيمس الأخيرة، كانت رغبته فى أن يتم نظامه، ورغبته فى مقاومة ضعف إرادته فى تلبية المحاضرات العامة، فى حرب مستديمة. ففى ربيع وصيف سنة ١٩٠٥، ألقى چيمس سلسلة من خمس محاضرات فى ولزلى وشيكاجو وجلينمور على التوالى. ولقد لقيت نجاحًا باهرًا خصوصًا فى شيكاغو، حيث تقاطر إلى استماعه جمهور يربو على الخمسمائة.

ولقد كتب إلى إليوت فى هذا الصدد يقول: "شعرت أنهم يسبحون معى كما لو كانوا سمكة واحدة"[٢].

(1) Septmber 10, 1906; L.W.J., 11, 259.

(2) July 12, 1905.

كان يحاضر فى تلك الفترة باعتباره إنسانًا لديه رسالة ينبغى أن يوصلها. ومن الجلى أنه كان يندفع بتحريك الباعث المعهود فيه، الهادف إلى إيصال آخر ما عنده من أفكار دون أن ينتظر لإعطائها الشكل الفنى أو الصيغة المنظمة، ثم إنه كان فى نفس الوقت شغوفًا بوضع أفكاره الخاصة على محك الاختبار الاجتماعى.

ولقد بينت هذه المحاضرات ما سمَّاه چيمس "بالفلسفة الذاتية"، ولقد بدأها بمدح الفلسفة بصفة عامة، على اعتبار أنها تتألف من ممارسة الفرد "للوظيفة النقدية"، ودافع عن الفلسفة ضد تهمة أنها غير تقدمية. وأنكر التعارض السائد بين الفلسفة والعلم - فكلاهما ليسا سوى الإنسان يفكر بكل وسيلة فى حوزته" وخير الفلسفة هى التى تتحاشى "الاختيال والسلبية"، وتحاول دائمًا أن تلحم نفسها فى مقومات "صبغة الواقع الدارج السوقى". ثم استعرض بعد ذلك البراجماتية، مسميًا لوك وبركلى وهيوم على اعتبار أنهم أول "البراجماتيين"، ومستشهدا بمفهوم كانت عن اللّه باعتباره إيضاحًا للطريقة البراجماتية فى تضادها وتباينها مع الطريقة اللاهوتية للقرون الوسطى. ومضى چيمس يقول إنه طور التعددية بتطبيق الطريقة البراجماتية على المشكلة "الواحدة والكثير". فكل وجهات النظر للكون ترتكز على قياس التمثيل بواحد من أجزائه. فبعضهم اختار "الضرورات الأدنى" أو الملأ الأدنى، وبعضهم اختار "المثل العليا" أو الملأ الأعلى. ومن ثم تصور العالم باعتباره فكرة، جملة، قطعة موسيقية، أو حلمًا، أو عملاً فنيًا، أو فرصة تتصيد، أو حقيبة تختطف. ثم أضاف چيمس إلى ذلك قوله: إن التجريبية الراديكالية ترتئى.

"القياس التمثيلى الاجتماعى، تعددية الأفراد، بعلاقات خارجية جزئيا، وحميمية جزئيا، متناظرة ومتباينة، مختلفة فى المنشأ والمقصد، ولكنها تعيش معا فى مسكن واحد يتدخل بعضها بعضا الآخر، وتلتئم وتمتزج وتتحد وتلتقى وتفترق، وتجد أسبابا جديدة للانبثاق إلى أن تستقر لها عادات راسخة بالتدريج، وتكسب نظاما ونسقا، وتنفي من نفسها ما لا خير فيه. ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)﴾ (سورة الرعد الآية ١٧).

هذا هو العالم الصدفى، الذى يتفق مع الأفكار الجديدة "الذاتية" للعلم (حيث إن الاطراد ليس إلا إحصائيًا)، والذى يمدنا بالجدة والحرية، والفاعلية الحقيقية للإرادة، والنبذ الذى لا يلين للشر. والله ليس هو المجموع الكلى ولكنه فقط "الجزء المثالى"، فهو يساعدنا ونحن فى وسعنا أن نساعده. وفى مضامينها الأخلاقية فإن هذه الفلسفة الذاتية، فلسفة تفاؤلية، تحررية، تسامحية، ديمقراطية، جهادية، رحيمة.

وأعاد چيمس فى مقرره عن الميتافيزيقيا فى (١٩٠٥، ١٩٠٦) بيان نفس الفلسفة وأسهب فيها وتوسع. ولقد أوجز الملامح "السارة" للفروض التعددية على النحو التالى:

"فهى تعتقنا من التجريد، من الاستمرار فى قيد حسابنا فى دفترين، على غرار مسيحية الأحد. وتعيد إلى الفلسفة سجية العلم وعريكة الحياة العملية، وتنزل المثالى إلى الأشياء، وتتيح للنظام أن يزداد وينمو، فهى من ثم فلسفة تقدم. وهى تجعلنا عوامل وعناصر من النظام. وهى تفسر الكون صراحة بموجب قياس تمثيلى إجماعى. وتقر بنظم مختلفة من التسبيب مستقلة نسبيًا، المصادفة، بناء على ذلك وقس عليه".

وعلينا إذن أن نحمل التطور على محمل الجد (au grand sérieux) باعتبار أنه يمدنا بالتغيير الحقيقى والجدة الحقيقية والتقدم الحقيقى. والدين بالضرورة اتكال على الذخر "الاحتياطى" أو "الحيوى"، و"حياة فينا تجد حياة تستجيب لها".

وأخيرًا كانت هنا مناقشة طبيعية المذهب الإنسى للحق. "فالطريقة البراجماتية تؤكد أن ما يعنيه مفهوم هو نتيجته. والإنسية تقول إنه عندما تكون هذه مرضية ومشبعة، فالمفهوم صحيح"[٣].

وفى أثناء النصف الأول من العام الدراسى (١٩٠٥، ١٩٠٦) أعطى چيمس أيضًا موجزا منظما لفلسفته بشكل يلائم المبتدئين. ثم عاد وألقى نفس المقرر

(3) These lectures were never published, but full notes have been preserved.

فى النصف الثانى من العام فى جامعة ليلاند ستانفورد، وفى هارفارد أيضًا فى (١٩٠٦، ١٩٠٧) تحت اسم فلسفة د، الذى قدر له أن يكون آخر مقرر نظامى من التعليم لچيمس.

وأبان وجوده فى ستانفورد (فى ٨ يناير سنة ١٩٠٦) كتب فى مفكرته اليومية "أشعر بالعزلة والوهل"، ولكنه عاد وكتب فى ١٠ يناير "انتهى الذعر. كل شىء مضى على ما يرام". واستمر كل شىء يمضى على "ما يرام" وأدى إلى حياة متنوعة مجهدة منهكة لقواه، زاخرة بالأعباء الاجتماعية والمحاضرات الشتى فى سان فرانسسكو وبركلى وكذلك فى ستانفورد. وتعبر رسائله عن تحمسه وإعجابه بجامعة ستانفورد "ونضارة وعذوبة وشغف" مستمعيه:

"الفراغ الإنسانى عجيب. إن الصمت التاريخى يرن صداه فى أذنيك. ولكن هذا الجيل هو الطبقة الأولى من الطلاء، الزرعة الأولى من البرسيم لحرث التربة بعد بوارها. يا للبساطة. ويا لروعة التحرر من التشتت، ويا لجمال هذا الوسط النقى العنيف النبيل!"(٤).

ولقد تعين محتوى هذا المقرر الأخير - أولاً وقبل كل شىء - بعامل صبغته باعتباره مقدمة. ومع ذلك فقد لعب هذا المقرر دورًا مهمًا فى تطور چيمس الفلسفى، فلقد أفضى إلى كتابة المجلد الذى لم يتمه، والذى نشر بعد موت چيمس. ولكن وفقًا لتعليماته بأن يحمل عنوان "بعض مشكلات الفلسفة". ثم إنه اضطر چيمس أيضًا لأن يفكر فى فلسفته ككل، وكان أكثر شمولا وإحاطة من أى مؤلف آخر نشر له، ويمكن اعتباره مقالاً فى نسق نظامى مطول.

وفى أثناء سنة (١٩٠٥، ١٩٠٦) عندما كان چيمس غارقًا إلى أذنيه فى المحاضرات العامة، كان "الكتاب" لا يزال يشغل تفكيره، ولقد أعد وصفين

(4) W.J. to Pauline Goldmark, February 13, 1906.

مختصرين له، ولكنه بدلا من أن يضعهما موضع التنفيذ انحرف فى تيار المحاضرات العامة.

وفى أثناء صيف سنة ١٩٠٦، أعطى مقرراً قصيراً أمام مدرسة هارفارد الصيفية للاهوت، وبعد ذلك فى الخريف ألقى محاضرات لوويل عن البراجماتية، وهى نفس المحاضرات التى أعاد إلقاءها فى جامعة كولومبيا من ٢٩ يناير إلى ٨ فبراير سنة ١٩٠٧، وكانت قد بدأت فى الفترة الواقعة بين الاثنين فى تأليف الكتاب الخاص بالبراجماتية، وكان قد فرغ من إلقاء آخر محاضرة له فى الكلية يوم (٢٢ يناير).

ولقد ألقى محاضرات كولومبيا أمام جمهور يربو على الألف. ولقد تحدث عن تلك الأيام القليلة التى قضاها فى نيويورك - المحاضرات والاستقبالات - على أنها "يقينا أوج وجودى بالقياس إلى أثرها فى إنعاشى، وإلى ما لقيته من "اعتراف وتقدير"[٥].

بيد أن كلا المحاضرات والمجلد اللاحق أملتها عليه أسباب شخصية وإستراتيجية. بدلا من أن يمليها عليه منطق تطوره الفلسفى. ولقد اضطر المؤلف تحت وطأة الإقبال العام عليها والانتباه العام الذى قوبلت به إلى مقدار ضخم جدا من الاعتراف بالجميل والتقدير، ومن التفسير والشرح، ومن الخلاف والتأويل، بحيث إن الأطروحة الفنية أجلت ثانية. تلك كانت عقوبة النجاح.

لقد ألحق چيمس بعنوان كتابه البراجماتية عنواناً آخر إضافيا موسوما بـ "اسم جديد لبعض الطرق القديمة من التفكير". وكان چيمس يعضد بلا شك أنه لم يخترع شخصياً هذه الطرق من التفكير، وأن جذورها ليس فقط يمكن اقتفاء أثرها إلى

---

(5) W.J. to H.j2. and W.J., Jr., February 14, 1907; L.W.J., 11, 265.

الماضى البعيد، وإنما أيضًا تمثل اتجاها معاصرًا واسعًا يشترك فيه چيمس مع الآخرين. وكان هذا الاتجاه يتضمن المنطق الحديث بتوكيد على الوظيفة الأدائية للأفكار لتمييزها عن الوظيفة التمثيلية لها، ويتضمن مذاهب التطور والنسبية التاريخية التى تؤكد أهمية التغير والمرونة والتكيف فى المعرفة الإنسانية، ويشمل أيضًا "موضة" الاحتمال والفروض فى الطريقة العلمية التى أصبحت طراز العصر، وكلها أمور احتضنها چيمس من بدء حياته الفلسفية.

على أن هناك اثنتين منها تفوقان الباقى فى الأهمية: الأولى هى الطريقة البراجماتية التى ترتئى تفسير المفاهيم بالقياس إلى نتائجها للخبرة أو الإجراء العملى. والثانية هى النظرية البراجماتية للحقيقة، القاضية بأن الحقيقة تعزى إلى الأفكار وليس إلى الواقع، وإنها تلحق بالأفكار بنسبة ما تبرهن الأفكار على فائدتها ونفعها للغرض الذى استحضرت من أجله.

ولكن عندما يتقرر هذان المبدآن الأساسيان، يتجلى على الفور أنهما يتطابقان برحابة صدر مع المذهبين اللذين يكونان "تجريبية" چيمس، واللذين سبق أن كوناها من بدء نضجه الفلسفى، ألا وهما اعتماده على الخبرة وعلى التجريب.

وفى باكورة السبعينيات كان چيمس فعلا قد جنح إلى الاعتراف بأنه إذا لم يستطع المفهوم أن يترجم إلى خبرة أو ممارسة عملية، فهو عديم المعنى، وسرعان ما تلا ذلك انشغال باله بالتجريبيين البريطانيين. وفى إعلانه على الملأ للمذهب البراجماتى فى سنة ١٨٩٨، فى خطابه عن "المفاهيم الفلسفية والنتائج العملية"، طابق بين ذلك المذهب وبين "الطريقة الإنجليزية العظيمة لتمحيص مفهوم ما"، وضرب مثلاً بلوك وبركلى وهيوم وأتباعهم ممن كانوا أقل منهم شأنًا.

وعلى الرغم من أن ذلك الخطاب كان يتسم بطابع البلاغ أو النطق بالحكم، فإن چيمس نفسه لم يكن واعيًا بأنه قد بلغ مرحلة جديدة فى تطوره الفلسفى. لقد كان

الموضوع الذى اختاره، نتيجة لرغبته فى انتقاء شىء، "محببا لدى الجمهور وعمليا بدرجة كافية" من بين "ترسانة" أفكاره الموجودة(٦). ولقد نفع هذا الاختيار بوصفه استعراضاً لبداياته الفلسفية، واعترافاً بالدين والفضل لتشارلز بيرس الذى كان فى "باكورة العشار السابع" قد أعرب صراحة عن الطريقة التى تبعها التجريبيون الإنجليز "غريزيا"(٧)، أما لدى چيمس نفسه فسرعان ما توقفت الطريقة عن أن تكون مجرد "غريزية".

فبمجرد أول قراءة مستأنية لكتاب لوك "المقالة" ولعل ذلك كان فى وقت مبكر يعود إلى سنة ١٨٧٦، كتب چيمس لفظ "العملية" على الهامش المقابل للفقرة التى يحتاج فيها المؤلف بأنه ليس من المهم مم تتألف مادة الذات، بشرط أن تظل وظائفها هى نفسها لفظ "العملية" التى استخدمها فيما بعد مرادفاً "للبراجماتية".

وفى معرض الرد فى سنة ١٨٧٨، على دعوى الوضعيين بأن مسألة المادية لا حل لها أو عديمة المعنى، قال:

"كل مسألة لها معنى وتفرض نفسها لا مراء، عندما تتيح بديلاً عمليًا واضحًا على منوال معين، بحيث إنه وفقًا للطريقة التى يجيب بها المرء عن السؤال بطريقة أو أخرى، فإنه مضطر لاتخاذ واحدة أو آخرى من سبيلين من السلوك"(٨).

ومن ثم فإن البراجماتية فى المعنى الأولى أو المنهجى، باعتبارها قاعدة للمعنى، ترجع إلى مستهل الوقت الذى بدأ عنده چيمس يكون له عقل فلسفى خاص به. ثم ظلت تعاود الظهور بصراحة ووضوح فى كل كتاباته بعد ذلك.

---

(6) W.J. to G.H. Howison, July 24, 1898; L.W.J., 11, 79.

(7) C.E.R., 410, 434.

(8) C.E.R., 76, translated by the author.

على أن المبدأ الثانى أو التجريبى لم يكن أقل وغولاً فى ماضى چيمس الفلسفى. فبمجرد أن أصبح له أى مذهب من لدنه بالقياس إلى العقل البشرى، فإنه أصر على نشاطه، ومبادرته، وتحيزه لوليده. فالإنسان يفكر لأن هناك اهتمامات وميولا وأغراضا تحكمه، وهى التى تحفزه إلى التفكير. وهنا أيضًا وجد چيمس الطريق ممهدا بوساطة التجريبيين الكبار. فلما قرأ مقالة لوك، هلل لوجهة نظره الخاصة "بالجوهريات الاسمية" بوصفها أدوات "غائية". وفطن سريعًا إلى اعتراف لوك بالحوافز العملية فى المعرفة، واختار الفقرة التالية "كشعارًا مناسبًا للمذهب العملى":

"إن الذى لن يأكل حتى يتضح له أن الأكل سيغذيه، والذى لن يتحرك حتى يتحقق - على سبيل الجزم من أن العمل الذى سيؤديه لا بد أن ينجح، لن يفعل شيئًا آخر سوى أن يجلس كالصنم ويركد ويموت"(٩).

وفى نفس الوقت تقريبًا (بعد سنة ١٨٧٥ مباشرة) عرض چيمس المذكرة التالية مبينا نزعته لاعتبار الحقيقة منظورًا مقبلاً لا رجعيًا يسرى على الماضى:

"إن حقيقة الشىء أو الفكر فى معناه، أو فى مصيره، فى ذلك الذى ينمو منها وتفضى إليه. وهذا سيكون مذهبًا يقلب عكسا رأى التجريبيين بأن معنى الفكرة هو ذلك الذى نمت منه. وما لم نجد طريقة للتوفيق بين فكرتى الحقيقة والتغير، فيجب علينا أن نقر أنه لا توجد حقيقة فى أى مكان. ولكن هذا التوفيق لا بد أن يحدث بالضرورة على كل من يقرأ التاريخ ويسلم بأن مجموعة (سابقة) من الأفكار كانت فى سبيل التطور من أفكار فى ضوئها ننبذها الآن. وطالما أنها أدت إلى تسبيب تلك، فقد كانت صحيحة، تمامًا، كما أن هذه ستسبب غيرها ثم توضع هى نفسها على الرف. فحقيقتها تكمن فى وظيفتها فى استمرار التفكير فى اتجاه معين. ولو أنها انحرفت عن هذا الاتجاه، لكانت باطلة".

فإذا أخذت الحقيقة باعتبارها منظورًا مقبلاً، فيتعين تفسيرها بالقياس إلى الأغراض أو الغايات التى تتحكم فى التفكير.

---

(9) Locke's Essay, 1853, 499, and inside front cover of W.J.'s copy.

كان هذا هو موضوع أول عمل منظم اختط چيمس مشروع كتابته، والذى كان أهم جزء منه هو "عاطفة القوة العاقلة" الذى نشر أول مرة فى سنة ١٨٧٩ .

أما مدى شرعية وجوب تحكم تلك الغايات فى قبول فكرة عندما تكون الغايات عملية وانفعالية لا نظرية، فهذا هو السؤال الرئيسى فى مقال "إرادة الاعتقاد". وفى غضون ذلك فإن چيمس فى كتابه "علم النفس" لم يطور ويتقن وجهة نظرة العامة الغائية للعقل، وإنما أيضًا، فى الفصل الأخير عن "الحقائق الضرورية وآثار الخبرة" توسع وأسهب فى وجهة نظره بأن العقل تحكمه ميول ونزعات فطرية، وهى، مثل التنوعات الداروينية، تدين ببقائها إلى وظيفتها التلاؤمية.

على أن من بين بياناته المبكرة عن النظرية البراجماتية للحقيقة، نجد أن چيمس أولى اهتماما لا نظير له للمقال الموسوم "عن وظيفة الإدراك" الذى نشر فى سنة ١٨٨٥، "إنه قاع ولباب وأصل كل براجماتيَّتى" ذلك ما كتبه عنه فى سنة ١٩٠٧، ثم إنه أعطاه مركز الصدارة فى مجلده عن "معنى الحقيقة"، وذكر تشارلز بيرس باعتباره مبينًا لنفس المذهب(١٠).

وترجع الأهمية التاريخية لهذا المقال إلى حقائق عديدة. فهو يشير إلى التطابق الحاسم والنهائى "للحق" بنجاح الأفكار. وهو يطبق هذه الفكرة ليس على الموقف العملى المفرط فى الفظاظة، ولكن على ما يسمى بالموقف النظرى، مبينا أن الموقف النظرى، فى معنى أكثر دقة وحذقا، هو أيضًا عملى. وهو يبين كيف أن الفكرة فى مثل هذا الموقف، تشير إلى نهاية مطاف مناسبة أو خاتمة عملية، وكيف أنها تفضى إلى

(10) W.J., to C.A. Strong, September 17, 1907; M.T., 1, 136; Mind, X (1885), 43 note.

موضوعاتها عن طريق وسطاء، تقع كلها فى نطاق نفس مجال الخبرة، وكيف أن نجاحها يفسر بالقياس إلى بلوغها الآمن إلى محطة وصولها.

وموجز القول: إن هذا المقال فاق كل أقواله السابقة عن الموضوع بالدرجة التى عمم بها وأطلق السبل النظرية والعملية تحت صيغة مشتركة عامة، وبالفاعلية التى طبقت فيها الصيغة على التفاصيل المحسوسة الملموسة للإدراك.

وظهر كتاب "البراجماتية" فى مايو سنة ١٩٠٧، والأدلة زاخرة بكل جلاء على أن چيمس كان يستقى من ماضيه معطيا اسما، وتوكيدا وصيغة جديدة لمذاهب ومبادئ تمسك بها لمدة تزيد على ثلاثين عامًا. ولا يترتب على ذلك أنه لم يمارس أى إحساس بالتجديد أو القيادة والارتياد. بل العكس تماماً هو الصحيح. كان يشعر بأن فى وسعه الآن أن يجعل هذه الأفكار نافذة وفاعلة، بأسلوبه فى عرضها وبربطها باتجاه العصر.

وثمة نغمة من الابتهاج والفرح تتجلى فى تعليقاته وتنبؤاته التى كتبها فى ٢ يناير سنة ١٩٠٧، فى رسالة بعث بها إلى تيودور فلورنوى:

"أريد أن أحوِّلكم جميعًا إلى متحمسين لديدن "البراجماتية"، التى ألقيت عنها ثمانى محاضرات (لوويل) أمام جمهور لطيف فى بوسطن هذا الشتاء. لم أكن أدرى - حتى بدأت فى إعدادها - مدى قوة فكرة البراجماتية فى "تأسيس مدرسة فكرية" وفى كونها تصبح "قضية" وماثلة. ولكننى الآن أتأجج حماسة لها باعتبارها قد زحزحت كل النظم العقلية - كلها بلا استثناء، فى الواقع من الأمر، النظم التى فيها عناصر ذات فلسفة عقلية، وفى نيتى أن أحول المحاضرات إلى كتاب أنيق صغير آمل أن أرسل إليك نسخة منه فى أكتوبر المقبل، وأنا واثق أنه سيظهر لك - أنت أيضًا - الطريقة البراجماتية، على أنها فلسفة المستقبل. إن كل اتجاه صحى وسوى فى الحياة يمكن أن يندرج تحتها ويدخل ضمنها".

ولقد عزا چيمس نجاح "البراجماتية" إلى موافقتها التاريخية للعصر. لقد كانت "على غرار أحد تلك التغيرات الدنيوية الجيلية التى تدهم الرأى العام بين عشية

وضحاها محمولة على أمواج من المد "أعمق من أن يبلغها الصوت أو الزبد"[١١]. ولكنه فى نفس الوقت كان يشعر بأن أسلوبه الخاص كفيل بأن يضمن إثارة انتباه الجمهور. ومن ثم كتب لأخيه فى هذا الصدد ما يلى:

"لقد فرغت لتوى من كتابة مسودات كتاب صغير يسمى "البراجماتية" وهو كتاب حتى أنت قد تتمتع بقراءته. إنه بيان "مخلص" جدا، ومن وجهة نظر الآداب العامة لأستاذية الفلسفة، يعتبر قولا مجافيًا جدًا للعرف الدارج، وليس معنى ذلك أنه بدعة، بنوع خاص فى أى نقطة من نقاطه، ولكنه فى زحمة المادة المكتوبة عن طريقة التفسير التى يمثلها الكتاب، وبذلك القدر فحسب من الزعيق أو الصرصرة التى تمكن كتابا واحدا من أن يبلغ بكل ذلك الأثر الناطق ما لم تستطعه الكتب الأخرى، ومن أن يبطل ويلغى كل أنداده، ومن أن يعامل فيما بعد "باعتباره ممثلاً" ينوب عن الجميع، يعتبر فتحا جديدًا. ولن أندهش إذا عد هذا الكتاب - بعد عشر سنوات من الآن - كتابًا صاحب دور تاريخى طبع العصر بطابعه. ذلك أننى موقن يقينا لا يتطرق إليه أى شك بالنصر الحاسم النهائى لتلك الطريقة العامة من التفكير، وأعتقد أنها شىء نظير "تمامًا للإصلاح البروتستانتى"[١٢].

على أن البينة على نجاح "البراجماتية" لا تلتمس فقط فى عدد أتباعها وحجم وضخامة تهليلهم لها إظهاراً للاستحسان، وإنما تلتمس أيضًا فى المعارضة العنيفة التى أثارها الكتاب. فباعتباره مقالة انتقادية وبحثًا تحليليًا لبعض الاتجاهات التقليدية فى الفلسفة والأحكام الحازمة، فليس ثمة ريب فى أنها بلغت مأربها. ولقد اشتكى بعض من قرءوا الكتاب دون غل أو حنق، من غموضه والتباسه. ومن ثم دعى چيمس وحلفاؤه لكى يدافعوا عن مذهبهم ويعيدوا بيانه على السواء.

ومن بين البراجماتيين الكثيرين، قديمهم وحديثهم، الذين انحازوا إلى جانب چيمس، برز اسم صديقه القديم وندل هولمز. بيد أن هولمز كان واثقًا مما كان نسبيًا

---

(11) M.T., 54.

(12) May 4, 1907; L.W.J., 11, 279.

ومشكوكًا فيه فى وجهة نظر چيمس، ولكنه كان مرتابا فى نفس الوقت فى ثقة چيمس الميتافيزيقية والدينية. وفى كلا الربيع والخريف، أطلق هولمز قذيفة أو قذيفتين من الرأى على صديقه "العزيز بيل".

"لقد كان من هجيراى أن أقول إن كل ما أعنى بالحق هو ما بيدى حيلة فى التفكير فيه. ولكننى تعلمت الحدس بأن "ما بيدى حيلة" التى عندى ليست بالضرورة "ما باليد حيلة" كونيا - وأن الكون قد لا يخضع لما فى من حدود وقيود، وأن الفلسفة - بصفه عامة تبدو لى أنها تأثم بسبب العجرفة والعجب. إنها تشبه الفرسان الجوالين القدامى الذين كانوا يطلبون ضربك على رأسك إذا لم تقر بأن فتاتهم ليست فقط فتاة جميلة، ولكن أجمل وأحسن من كل غادة ممكنة. إن أعظم صنيع من الإيمان هو عندما يقرر امرؤ أنه ليس الله أحكم الحاكمين. ولكنى عندما أقرر أنك لست حلمى فإننى أبدو لنفسى وكأنى أقررت بأن الكون والشىء فى حد ذاته، لا يمكن التنبؤ بهما وإنما يمكن تخمينهما فقط، وكأنى أت منها بدلا من أنها تأتى منى. ولكن إذا كنت فعلا قد أتيت منها أو بالأحرى إذا كنت فيها، فلست أرى غرابة فى أنى لا أستطيع ابتلاعها. إذا كانت تحدد لى تخومى وهى تمنحنى قواى، فليس عندى شىء أقوله بشأن ممكناتها وخصائصها سوى أنها شىء يبتلعنى فى جوفه، ومن ثم فهى أكبر منى. ويبدو لى أن المنشط المأمول الوحيد هو أن أجعل عالمى متماسكا وملتئما ويستحق العيش بدلا من أن أهذى وأثرثر عن الكون. وإنه لسخف وحمق منى أن أسدد طعنات بدهياتى القديمة الدارجة نحوك تماما مثلما يكون من السخف والحمق لدخيل يعلمنى نظرية المسئولية القانونية، ولكن معذرة يا شيخى العجوز، وعلى الرغم من أن سنين طويلة قد انقضت منذ أن تحدثنا معًا حديثًا طليًا شهيًا، فإننى ما زلت متشبثًا بعواطفنا القديمة، وما زلت أجد متعة فى أن أناوشك قليلاً. إننى أوافق من صميم فؤادى على الكثير، ولكنى أكثر ارتيابًا منك. وسوف تقول إننى صعب المراس جدا أو متجمد العقل، وأعتقد أنه لا يوجد أى فيلسوف لديه القدر الكافى من التواضع وخفض الجناح"(١٣).

ومن بين تلاميذ چيمس المباشرين، كان أقربهم إليه وأكثرهم تحمسا ف. ت. س. شيلر من كلية كوربس كرستى بأكسفورد. ولقد وصف چيمس كتاب شيلر "ألغاز أبو الهول" الذى نشر فى سنة ١٨٩١ "باعتباره كتابًا تعدديًا يعتقد بوجود الله، ذا همة

(13) March 24, 1907 and (lats two sentences) October 13, 1907.

عظيمة وابتكاراً بناء. لشاب صغير خام وغفل بلا نسق ولا تناسب، ولكنه ملهم للغاية، وعلى نفس المنوال الذى أميل إلى أن أنسج عليه"(١٤).

وفى سنة ١٨٩٧، كتب شيلر تقريظا مجّد به كتاب "إرادة الاعتقاد" وهنأ مؤلفه "على إلقائه قنابله على الفوحة الخانقة التى تحيط بعدد كبير من التعصبات الأشيبية للعالم الفلسفى"(١٥). وشجع هذا التقريظ چيمس على الاعتقاد بأن له فعلا فلسفة من لدنه، وأنه (بمؤازرة الآخرين من أمثال شيلر) فى وسعه أن يؤسس مدرسة.

والرسالة المتبادلة الآتية تلقى ضوءاً على منشأ اسم "الإنسية" الذى اقترحه شيلر والذى أقر چيمس على الرغم من أنه رفض قبوله باعتباره أحسن اسم للحركة ككل. ولقد أقر شيلر بالبراجماتية باعتبارها فصيلة من الإنسانية، فى حين أن چيمس أقر بالإنسية باعتبارها فصيلة من البراجماتية.

أكسفورد ٢٤ أبريل سنة ١٩٠٣

"عزيزى چيمس،

"لقد هبط علىّ الوحى هذا الصباح – دون مناسبة – بالاسم المناسب للفلسفة الصحيحة الوحيدة. وإنك لتعلم بأننى لم أحفل أبدا "بالبراجماتية" كاسم لها. لأنها غامضة جدا واصطلاحية جدا، وليست شيئًا يستطيع المرء أن يشرك الجنس البشرى فيه أبدا. هذا بالإضافة إلى أن للكلمة ارتباطات مضللة، ونحن نريد شيئًا أكبر وأكثر سعة (شمولاً). إنها لا تعبر عن المعنى الذى نقوله برمته، وأنا أحس أننى أمط اللفظ باستمرار. ولم لا نسميها الإنسية؟ "الإنسية" باعتبارها مضادة للاهوتية، و"خيرة" باعتبارها مضادة للبربرية (فى الأسلوب والمزاج)، إنسانية، حية وملموسة باعتبارها مضادة لغليظة القلب، وحفرية، ومجردة. وصفوة القول ليست "كهنوتية" (كلمة فظيعة) ولكن "إنسية". انظر مثلا كم تكون ملاحظتك عن إعادة إنسية الكون – أحلى وقعا

(14) W.J. to S.M. Ilsley, September 23, 1897.

(15) Mind, N.S., VI (1897), 554.

على السمع(١٦). ومن ثم فإننى أعرض أن أسمى نفسى من الآن فصاعدا "نسيا"، وأن أسمى مجلد مقالاتى "الإنسية": "مقالات فلسفية بقلم ف. ك. س. ش.". أو شيئًا من هذا القبيل، وسوف أخصص المقدمة لتفسير وشرح ما أقصد. ولا يقتضى ذلك إطراح البراجماتية بسبب ذلك، باعتبارها إصطلاحًا فنيًا فى فلسفة المعرفة والمنطق، وإنما فقط ستكون البراجماتية فصيلة من جنس أعظم، وإنسية فى نظرية المعرفة.

لك إخلاصى وحبى دائمًا،

كاننج شيلر

أكسفورد ٩ يونيه سنة ١٩٠٣

"عزيزى چيمس،

"لقد عشت على أمل أن أتسلم منك جوابا عما يعتبر الآن أهم قضية فى عالم الفلسفة طرا. أعنى، هل أنت إنسى؟ أما أنا فإنسى أكثر من أى وقت مضى، بعد أن شغلت نفسى فى غضون ذلك ببحث وتفصيل مضامين الاصطلاح فى مقدمة كتابى "الإنسية". إنها مضامين بديعة، وبودى، إذا لم يزعجك ذلك كثيراً، أن أرسل لك المقدمة المذكورة فى مخطوطها الأصلى. واسمح لى مؤقتًا أن أضيف "قائمة فيثاغورسية جديدة بالأضداد" تحت عنوان:

١ – الخير والنهائى	**ضد**	**الشر واللانهائى**
٢ – الإنسية		اللاهوتية
٣ – البراجماتية		الحرفية
٤ – المثالية الشخصية		المذهب الطبيعى
٥ – التعددية		الإطلاقية
٦ – التجريبية الراديكالية		التسليمية

---

(16) James had spoken of "a - re - anthropomorphized Universe, as the outcome of personal idealism. (C.E.R., 443).

٧ - الطوعية	المذهب الذهنى
٨ - الحولية	اللامبلرية (غير مقرر أو محدود الشكل)
٩ - المذهب البريطانى	المذهب الألمانى
١٠ - الفكاهية	البربرية

هذه قائمة شاملة وجامعة بما فيه الكفاية أفلا ترى ذلك؟ يبدو لى. أن قلب المعركة (بمجرد أن نخوض فى معسكر العدو) سيكون حول حيرة وعدم تقرير الحق والواقع قبل التجربة. والمعسكر المضاد كله يتمسك بنظام صارم موجود من قبل - سابق على التجريب - لا يصطنع وإنما يوجد فقط ويحاول أن يوثقنا برباط عقيدة فى عدم تحقيق مهوش. وردى عليهم هو؛ أن عالما مجبولا لدنا لا يمكن أن يكون لا هذا ولا ذاك، ثم أبين لهم كيف أن طبيعة السؤال تقرر الجواب، وكيف أن سلوكنا، من ثم، يساعد على تشكيل الواقع.

المخلص دائماً

كاننج شيلر

وأجاب چيمس فى ٥ يوليو بالرد التالى:

"أنا مدين لك بثلاث رسائل، ولكن من شخصية مثلى مصابة بعقدة الخوف من الكتابة، فلتكفك هذه البطاقة. وأرجو ألا يحملك ذلك على النكوص، بل استمر فى مراسلاتك. إن "الإنسية" لا تلتحم كهربيا بطبيعتى، ولكن فى التسميات فإن الفرد يقترح والقطيع يختار ويستصوب أو يطرح ويستهجن. إننى فى غاية السعادة لما أحرزته من تقدم فى كتابك، ويطربنى أنك ستسميه "الإنسية"، وسوف نرى مصير هذه التسمية وحظها من الاستقرار والالتصاق. كل الأسماء الأخرى رديئة - بكل تأكيد - وخصوصاً "براجماتية".

على أن خلاف چيمس مع شيلر تحوَّل إلى معارضته للتوكيد الذاتى والطوعى

---

(16) James had spoken of "a - re - anthropomorphized Universe, as the outcome of personal idealism. (C.E.R., 443).

النسبى عند شيلر باعتباره مضادا لواقعية چيمس. فطبقًا لرأى شيلر، كل المعرفة براجماتية ووقتية شرطية بما فى ذلك معرفة ما يسمى بالحقائق أو الواقع. فالمفعول دائمًا هو ما يكوّنه بالنسبة لفاعل، وعلى أساس الإرضاء والإشباع (طبق المرام) الذى يهيئه إدراكه على هذا النحو. أما چيمس فيؤكد الناحية الأصلية والتى لا يمكن استئصالها من المعطى الموضوعى، والتى بدونها لم يكن ثمة مجال لتطبيق العملية البراجماتية أو لن يكون لها معنى، والتى تعرف ذاتها مستقلة عن العملية، فى الخبرة المباشرة. وتحدث چيمس عن "بيان شيلر الناتئ الناطح" عن موقف الإنسى. وقال عن شيلر: "إنه يبدأ من القطب الذاتى للسلسلة، حيث يكون الفرد بمعتقداته باعتبارهما الظاهرتين الملموستين والمعطيين مباشرة، فى حين أنه هو، چيمس، يبدأ بشيئين: "الحقائق الموضوعية والمطالب"[١٧]. ثم حث چيمس شيلر أيضًا على "أن يخفف قليلاً من فورة ذكائه الجدلى وحدة نكتته"[١٨]. ويصفه خاصة شعر چيمس بأن تحرش شيلر المستمر بالأستاذ ف. هـ. برادلى، سياسة يجافيها التوفيق. وفى هذا الصدد كتب چيمس إلى شيلر فى ١٨ مايو سنة ١٩٠٧ ما يلى:

"لقد كان من الميسور جدا أن تترك برادلى وشأنه بتقريباته وتذمراته. فلن يجد إلا عدداً قليلاً جدا من الناس فى كلامه ما يغريهم على استيعابها فى تفكيرهم الخاص. ولكنك لمجرد اللذة البحث من العملية، تطارده علوا وسفلا فى متعرجاته، وتجلده بسياطك، وتتعقبه فى كل مأمن يلوذ به، وتقطع عليه السبيل، وتحرجه بالأسئلة، وتطالبه بالمراجع والإثبات، ثم تقذف فى وجهه بمضاداتك، كما لو كنت مطالبا بأن تفعل ذلك بموجب وظيفتك الرسمية.. اتركه فى كآبته القاتمة، فهو لا ريب يجدف فى الاتجاه الصحيح، وعندما تضيف إليه قدراً معيناً من البناء الإيجابى من جانبنا فسوف يقول إن ذلك هو ما عناه طوال الوقت، ولا شك أن العالم سيكون أسعد حالاً لاحتوائه على مقدار أقل من تلك الكتابات الجدلية العسيرة، ولن يخسر الناس شيئًا مذكوراً إذا فاتتهم قراءتها".

---

(17) Pragm., 243; M.T., xix, 169, 242.

(18) C.E.R., 443.

ولعل أشهر ناقد للبراجماتية كان ف. هـ. برادلى الإنجليزى الذى ظفر كتابه "المنطق" بإعجاب چيمس العظيم قبل عشرين عامًا من ذلك الوقت. تشهد الرسائل المتبادلة بين البطلين لمدرستين متعارضتين بشهامتهما وكرم أخلاقهما. كان برادلى مجادلا قوى العارضة، أشوس كثير التشامخ، منطقيًا حادًا لاذع الحجة، وكان معتل الصحة معرضا بعض الشىء عن المخالطة الاجتماعية. وكان فلسفيا، واحدا من فرسان حلبة الإطلاقية ممن كانوا يرحبون بكل فكرة فلسفية جديدة بدعوة أنها لا تخرج عن فلسفة هيجل، ولقد أدى رفضه لفئات الخبرة والفهم والإدارك إلى مناوشة شيلر له بأسلوب الجد فى قالب الهزل باعتباره مؤلف "اختفاء الواقع"[١٩].

وعلى الرغم من أن هذه الصفات ما كان من الممكن أن تجعله موضع حمد أو استصواب، فإن قوة احترام چيمس له ومودته لا تشوبهما شائبة. بل فى الواقع من الأمر - كانت الصلة بينهما أكثر من ذلك - فقد كان بينهما نوع من التعاطف الشخصى والمشاركة الوجدانية، الأمر الذى دفع چيمس إلى القول عن برادلى (بطريقة تنضح بالرفق والود أكثر مما تنضح بالسخرية):

"أعتقد أنه حقًا رجل متواضع العقل على نحو مفرط، ولكنه أكثر تواضعًا عقليًا بالقياس إلى قارئه، عما هو بالقياس إلى نفسه، الأمر الذى يخلع عليه ذلك القناع الزائف من الغطرسة والعجرفة"[٢٠].

أما برادلى فقد شهد من ناحيته فى سنة ١٨٩٥، بأن چيمس "يحتل مكانا عليا مبجلا بين أولئك الذين تعلم منهم ويأمل أن يتعلم منهم".

---

(19) Mind! a parody of Mind, published in 1901, 51.

(20) W.J., to Schiller, April 13, 1904; L.W., 11, 142.

ولقد كتب چيمس عن مؤلف برادلى العظيم (magnum opus) فى سنة ١٨٩٤ ما يلى:

"لقد أتممت الآن فقط قراءة كتاب بعنوان: "ظهور الحقيقة". الذى نشر منذ عام مضى، وهو كتاب من المأمول أن يرفع كل النقاش الفلسفى إلى صعيد أعلى من الجدل، يرتقى به إلى منسوب لم يعرفه من قبل وأنا أرتاب فيه، مقدمات ونتائج على السواء، ولكنى أشهد بأنه واحد من تلك الأعمال القوية الابتداعية التى يتعين استيعابها بتأن. وليس ثمة ريب فى أنه سيكون عملاً خالداً من أبرز مميزات عصرنا"(٢١).

ولقد تبادل چيمس وبرادلى كثيراً من الرسائل عن قضية البراجماتية. وكان من الممكن أن يوافق برادلى، مثل رويس، على أن يسمى براجماتياً، إذا سمح له بأن يصفها بصفة "مطلق". وكان ذلك يعنى بالنسبة لچيمس أمرين، لم يكن لديه مانع من قبول كليهما: أولاً الإصرار على المطالب الخاصة بالإجراء النظرى باعتباره مختلفا عن العملى بصفة عامة، والاعتراف بحقيقة مثالية تكون الحقيقة الإنسانية - فى أسمى مراتبها - بالنسبة لها تقريبية فقط.

بيد أن هذه التعديلات - بالنسبة لچيمس - لم تكن نقطة خلاف جدى. فلقد كتب لبرادلى - دفاعا عن شيلر وعن نفسه قائلاً: "ليس ثمة ما يحول دون اعتقادك بإنسيتنا - بقضها وقضيضها - كل ما يلزمك فقط هو أن تلقى "بمطلقك" حولها"(٢٢).

---

(21) Bradley to W.J., August 23, 1905; W.J. to Th. Flournoy, August 1894.

(22) June 16, 1904; a fragment of this letter is all that remains of Jame's long and numerous letters to Bradley.

ولكن فى حين استمر چيمس فى محاولاته لأن يهدى برادلى ويحوِّله إلى دين البراجماتية، وفى حين استمر برادلى ينصت إليه باحترام ويتقبل كلامه بقبول حسن، فإنه لم يكن بين مذهب برادلى الذهنى العنيد وبين تجريبية چيمس العنيدة أى سبيل للصلح النهائى أو التوفيق.

(٣٣)

چيمس وديوى

كانت قيادة الحركة البراجماتية سبيلا اشترك فيها چيمس مع زميله الأصغر، والذى حمل لواءها من بعده، جون ديوى.

ولقد رفض چيمس أن يقر بأن الخلافات بينهما كانت أكثر من خلافات فى مراكز الثقل والاتجاه. أما بالنسبة لديوى نفسه، فقد كانت الخلافات أكثر أساسية وأكثر صراحة وبتا[١].

كان چيمس يعتبر البراجماتية طريقة تستخدم بحرية وسهولة، وطبقها على المذاهب القياسية للميتافيزيقيا، كما لو كان أى منها يمكن اعتباره متاحًا. صحيح أن الميتافيزيقيا التى اتخذها - ميتافيزيقيا التعبير والحرية والتعددية - تعكس فعلا إلى حد ما لزوميات نظرية براجماتية للمعرفة، ولكن البراجماتية أقل لزومية بكثير عند چيمس مما هى عند ديوى. فتفكير چيمس الفلسفى، فى أخلاقياته وميتافيزيقياته على السواء، يزخر بالمثل العليا التى لا تتعلق ببراجماتيته، إن لم تكن غريبة عنها. كان

---

(1) James's fullest statements of his philosophical relations to Dewey and Schiller are found in M.T., xvi-xix, 42, 56, 169. For Dewey's views of the matter, of. the articles by him in Jour. of Philos. II (1905) and V (1908); cf. also "The Development of American Pragmatism," Columbia Studies in the History of Ideas, 11 (1925).

يخامره الشك وتخالبه الهوامس فى هذا المضمار، وكان يجنح إلى اعتبار ديوى أكثر راديكالية وأكثر ثباتًا وعدم تناقض مع نفسه.

ولا ريب أن هذه الاختلافات كانت مرتبطة بالمزاج الفلسفى العام للرجلين، كما كانت ذات صلة بالتأثيرات المبكرة فى حياتهما. كان چيمس أكثر سلمية حيال الأفكار، وأكثر توفيقا بينها وإكرامًا لوفادتها. فى حين أن ديوى كان أكثر نظامية وترتيبًا. وكان اهتمام چيمس ينصب بقوة على الميتافيزيقيا والدين، بينما كان اهتمام ديوى اهتمامًا اجتماعيًا ومنطقيًا.

وكانت الرؤية النهائية عند چيمس وحدانية لقانية، فى حين أنها كانت عند ديوى متنقلة وطوافة. أو بعبارة أخرى، كان چيمس شاعرًا مدركًا، فنيًا، ودينيًا، فى حين أن ديوى يقوم بتصفية وتنقية الأفكار عن الشعور والإدراك والفن والدين. وكان جرهر الحياة والخبرة عند چيمس لا يمكن فهمه والنفاذ إلى لبه إلا فى العيش وفى الخبرة. وهذا الاعتقاد انبثق من وفرة وحيوية الحياة والخبرة الشخصية، فى حين أن جوهر الأمور عند ديوى لا ينبثق إلا عند التأمل، وهذا الاعتقاد انبثق من خصيصة التأمل المستديم والروية اللتين تميزان ديوى بنوع خاص.

ولقد امتدت المراسلات بين چيمس وديوى زهاء ثمانية عشر عامًا، واستهلت فى سنة ١٨٨٦، بتبادل التعليقات والآراء الودية عن علم نفس وأخلاقيات كل منهما.

والجماعة التى تحلقت حول ديوى فى جامعة متشيجان وفيما بعد فى جامعة شيكاغو، والتى كونت نواة ما سمى "بمدرسة شيكاغو" ونواة الحركة العامة المعروفة "بالوسيلة". هذه الجماعة بدأت تسترعى انتباه چيمس وتثير تحمسه فى مطلع هذا القرن.

وتفصح المراسلات التالية عن مدى شغف چيمس، واهتمامه وعطفه حيال هذه الجماعة.

وفى ١١ مارس سنة ١٩٠٣، كتب چيمس لديوى: "لقد أتممت - بلذة تكاد تكون حمقاء - قراءة كتاب لمؤلف باسم أ. و. مور، بعنوان "الوجود والمعنى والحقيقة". وإنى لأرى فيه "مدرسة فكرية جديدة" تمامًا فى طور التكوين، وأعتقد أنها على الصراط المستقيم. من هو مور وما شأنه وكم عمره؟".

وأجاب ديوى بالآتى:

(شيكاغو مارس سنة ١٩٠٣)

"عزيزى چيمس،

(لقد مشيت) على الهواء لمدة طويلة بعد أن جاءتنى مثل تلك الرسالة منك. لقد اشتغل مور بالتعليم هنا منذ سنة ٩٥ . فأما مرونة وتحرر أعماله العقلية فلا حاجة بى للتحدث عنها، فمقالاته كفيلة بذلك فهى التى تتولى عنه الحديث. لقد شغل لويد وميد(٢) نفسيهما بالموضوع فى آن آربور منذ عشر سنوات. هل قرأت كتاب ميد: "المثالية الديناميكية"؟ أنا لا أرى اختلافا كثيرا بين واحديته وتعدديتك، إذا غامرت باحتجاز قليل من مبالغة التعدد، تحت الحساب. ويمتاز ميد بعسر فى التوضيح والتفصيل فى الحديث المكتوب، كما تعلم، ولكنى أحسب أنه أكثر فاعلية من أى رجل فى القسم عندنا، فى تزويد طلاب الدراسات العليا الأكفاء بمنهاج مستقل. وهو يفسر نفسه و(منهاجه) تفسيرًا بيولوجيًا. "فسبيل الحياة" هو اصطلاحه فيما يتعلق بالحقيقة المتطورة. ولقد تخرج عندنا بعض الدكاترة الذين بدءوا فى الدفع بهذا المنهاج المستقل قدما. كلهم شباب، وكلهم مشغولون بالتعليم. وأعتقد - على الإجمال - أنهم أحسنوا لأنفسهم (ولوجهة نظرهم) بأنهم كانوا محافظين فى النشر. أما أنا، فلست أدرى إذا كنت قد قرأت مقالاتى النفسية، ولكنى بسطتها جميعًا من نفس وجهة النظر. ومرفق لك طى هذه الرسالة بعض تجارب الطبع فى مجلد ستخرج أعداده تباعًا كل عشر سنوات باسم "دراسات فى النظرية المنطقية". وقد لا يكون لديك الوقت أو الميل لقراءته، ولكن بودى لو استطعت أن تلقى نظرة على الصفحات تكفى لأن تحكم إذا ما كنت تتحمل إهداءها لك. ومن سوء الحظ أن هذه التجارب الأولى هى الجزء الوحيد الذى تحت الطبع حتى الآن. (تغاض عن الإشارة الشائنة لتعدديتك التى ذيلت بها إحدى الصفحات) - فليس فى وسعى إلا أن أشعر بأن تعدديتك بوضعها الراهن الآن جمالية بديعية لا منطقية. ولكن من وجهة نظرى فإن كتابك "علم النفس" هو الحد

(2) A.H. Lloyd G.H. Mead.

الأعلى الروحى للحرفة برمتها. وفى حين أننا لن نحاول أن نلصق بأبوتك كل الولدان الضعاف العجاف التى ستخرج صارخة من رحم المجلد، فإنه سيكون من دواعى اغتباطنا ورضانا جميعًا (وخصوصا أنا بالذات، إذا لم يكن فى ذلك تعريض بسرور الآخرين) إذا سمحت لنا بأن نهدى المجلد لك.

المخلص

جون ديوى

كمبريدج ٢٣ مارس سنة ١٩٠٣

"عزيزى ديوى،

أشكرك لرسالتك السارة البارة الكريمة إلى درجة مذهلة. إن ما كتبته عن "المدرسة الجديدة للحقيقة"، يطربنى، وفى نفس الوقت يجعلنى أشعر بالتصاغر والاتضاع. فإنه لما يحفزنى أن أضطر إلى الانتظار حتى أقرأ مقالة مور قبل أن أتبين مقدار نصيب منهاجى من متابعتك. وطبعا لقد رحبت بك باعتبارك واحدًا يقترب منى أكثر وأكثر، ولكنى أخطأت المرمى الأساسى للموضوع كله، وسأعيد الآن قراءتك كرَّة أخرى. وسأحاول مرة ثانية حرث ميد ولويد اللذين تبينت فيهما دائمًا الابتكار، ولكنى وجدتهما على درجة من الغموض تحول دون استيعابهما. وأحسب أن الأمر يتوقف كثيرًا على النقطة التى يبدأ المرء منها. فكلكم تأتون من هيجل ومصطلحاتكم من لدنه، وأنا آتٍ من التجريبية، وعلى الرغم من أننا نبلغ نفس الهدف تقريبًا فإنه يبدو مختلفا ظاهريا من الجانبين المقابلين.

المخلص

و م. چيمس

شيكاغو ٢٧ مارس سنة ١٩٠٣

"عزيزى چيمس،

أشعر بشىء من الخجل لكونى ألقيت فى روعك أننى أكتب عن مدرسة فكرية جديدة. وأعتقد أنك لن تجد ما يستحق إعادة قراءة المقالات التى ذكرتها، أو إذا وجدت فيها ما يستحق فإنك لن تجد شيئًا فيها دالا على تطورات جديدة بأية حال من الأحوال. وحقيقة ما فيها بالاختصار، من الناحية

السيكولوجية، أنها كلها مقالات ترجع إلى بعض الأفكار عن نشاط الحياة، والنمو والملاءمة التى تتضمن مفاهيم غائية وديناميكية بدلا من المفاهيم القديمة الإستاتيكية أو الخاصة بعلم الكائنات وحقيقتها. ولقد تناولت مع فصولى الجانب الميتافيزيقى - أو المنطقى - كما أفضل أن أسميه لعدة سنوات ولكنى لم أشعر - حتى هذا العام - بأن لدى شيئًا يصلح للنشر. وقد يكون المفعول المستمر من الميكروب الهيجلى الموفق بين المتناقضات - والذى لا يزال باقى الأثر فىّ هو الذى يجعلنى أشعر كما لو كان تصور سبيل تهيئ أساسا وقاعدة لتوحيد حقيقتى التعددية والواحدية، وكذلك حقيقتى الضرورية والتلقائية. لا حيلة لى فى الشعور بأن تحليلا كافيا للنشاط كفيل بأن يظهر عالم الواقع وعالم الأفكار باعتبارهما تعبيرين متناظرين موضوعيين لسبيل النشاط ذاته، متناظرين لأن لكل منهما عملا يؤديه، وفى أدائه يتطلب معونة الآخر. أما سبيل النشاط ذاته فتتخطى أى تعبير موضوعى ممكن (سواء بالقياس إلى الواقع أو الأفكار) لسبب بسيط، هو أن هذه العبارات الموضوعية هى فى نهاية الأمر بالنسبة لمساره الموصول فهى من أجله. وهذا التخطى أو التجاوز الخاص بأى شكل مجسم، سواء أكان محسوسا أم متصورًا، هو الذى، فيما يبدو لى - يعطى مفتاح الحرية والتلقائية... إلخ. ويهدى إليهما. وهو الذى يجعل من غير الضرورى اللجوء إلى كل هذا "الاحتقار الدموى فى جوهر المصادفة" الذى ينغمس فيه بيرس فيما يبدو لى. إننى أشعر دائمًا كما لو كان غارقا فى نفس التركيب التصورى بالذات الذى يحتج ضده. على أننى يجب أن أقول، مع ذلك، إننى أستطيع أن أتبين إلى أى مدى مضيت قدمًا عندما أتبين مبلغ ما استقيته منه هذا العام، وإلى أى حد بلغت سهولة فهمى له، فى حين أنه منذ سنوات قليلة كان بالنسبة لى كتابا مغلقا لا سبيل إلى فضه، باستثناء إلهاماته من حين لآخر.

المخلص: جون ديوى

وشهد ربيع سنة ١٩٠٣، ظهور كتاب "دراسات فى النظرية المنطقية" تأليف جون ديوى "بمعونة أعضاء وزملاء قسم الفلسفة" بجامعة شيكاغو. واحتوت مقدمة الكتاب، الكلمات التالية: "لقاء الإلهام واختراع العدد التى عمل المؤلفون فى ظلها وبها، فكلنا مدينون بشكل فائق لوليام چيمس، الأستاذ بجامعة هارفارد، الذى فى مرجونا أن يتقبل هذا الاعتراف بالفضل، وهذا الكتاب باعتبارهما تذكارين ودليلين، غير لائقين بالمكانة والإعجاب المتساويين اللذين نكنهما له.

كمبريدج ١٧ أكتوبر سنة ١٩٠٣

"عزيزى ديوى،

لقد كنت على وشك الكتابة لك على أية حال هذا المساء، عندما جاءتنى رسالتك فوق الودية. فعند عودتى من الريف بالأمس، كان أول ما اكتحلت عيناى بتحيتهما هو كتابه "الدراسات المنطقية" والكلمات، التى أدهشتنى التى جاءت فى خاتمة مقدمة الكتاب. ما الذى فعلته لكى أستحق مثل هذه التقدمة؟ إن اللّه العليم بكل شىء، يعرف بلا شك عن هذا أيضًا، ولكنى أتقبلها (بلا تبصر) وبأعظم الرضا والسرور، على اعتبار أنها إحدى طيبات الحياة التى تنشرها أحيانًا فى طريق المرء. إننى أشعر بمدى عدم اكتمال كل ما نشر لى لدرجة أننى أستغرب سماع ما يؤكد - على سبيل الجزم - أن أى شىء ينتج منها. وهذا يفرض علىَّ الآن أن أتحسن، حيث إننى أصبحت "ينظر إلىَّ هذا النظرة العالية" على هذا النحو. أشكرك من صميم صميمى.

لقد سعدت جدا لأن مدرستك (أقصد مدرستك الفلسفية) فى جامعة شيكاغو، بعد هذا الحمل والمخاض الطويلين قد أنجبت ثمارها بطريقة ستبرهن على وحدتها العظيمة وحيويتها، وستكون كشفًا للكثير من الناس ينطق باللوذعية والمعرفة الأمريكية. وبودى الآن أن تجمع مقالاتك المتناثرة بين دفتى كتاب. فالكتب وحدها هى التى تبنى، إذ يبدو أنها لها قوة نافذة، تفتقر إليها المقالات المتناثرة افتقارًا كاملاً وإن كان المحتوى واحدا. ولكن للمقالات فائدة لا تنكر، وهى أنها تعد المشترين للكتب. أما كتابى الجديد، الذى اشتدت النقنقة عنه بكل حماقة، قبل أن يفقس، فما زال فى ضمير الغيب، لم أكد أبدا فيه بعد، ومع معدل سرعتى البطيئة فى العمل فإن الوقت سيطول قبل أن أتمه.

لك خالص ودى ومحبتى واعترافى بالجميل

و م . چيمس

وفى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٠٣ چيمس إلى شيلر:

"لقد هطلت علىَّ صنوف شتى من "الأمور الخارجية" منذ عودتى إلى كامبردج من شهر مضى. وأحسنها جميعا كان قراءة نتاج "مدرسة شيكاغو الفكرية". إنها مادة رائعة، وديوى بطل من الأبطال. مدرسة حقيقية وتفكير حقيقى بالمعنى الكامل. لدينا فى هارفارد كثير من الأفكار ولكن ليست لدينا مدرسة. أما فى ييل وكورنيل فالأمر بالعكس".

وظهر تقريظ چيمس الحماسى لكتاب "الدراسات المنطقية" فى باكورة سنة ١٩٠٤، تحت عنوان "مدرسة شيكاغو"، وكان حماسيا وحارا، فيما عدا ملاحظة أن الكتاب لا يحتوى أى "قوانين عامة لنظام الكون" أو أى تفسير "للعالم المشترك".

وأسرع ديوى بالرد عليه ليشكره فكتب ما يلى:

" لا حاجة بى إلى أن أردد ما قلته من قبل، وهو أن شعورك بالاستحسان والمصادقة على الكتاب يعنى بالنسبة لنا أكثر مما يعنيه قول أى إنسان آخر. وبالنسبة لى فإننى لم أفعل شيئًا أكثر من أننى ترجمت فى مفردات لغوية منطقية ما كان من قبل فعلا كلامك أنت".[3]

وفى سنة ١٩٠٦، عندما التفت چيمس إلى تأليف المحاضرات والمجلد عن "البراجماتية" كان على وعى حاد وحماسة بالتأييد والعون والمؤازرة التى كان يتلقاها من جهات مختلفة. وكان متحمسًا لتوحيد الحركة، إن لم يكن بالاتفاق، فعلى الأقل بالاعتراف الصريح بالاختلافات. ولقد أسهم ديوى فى هذا الإيضاح وفى هذا التفاهم المتبادل.

نيويورك ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٠٧

"عزيزى چيمس،

لقد أتممت الآن فقط. كتابة بيان عن الحركة البراجماتية على أساس كتابك[4]. بيد أننى لم أحاول استعراض الكتاب، وإنما انصب جهدى على الحركة البراجماتية مع الإشارة إلى ما يومئ إليه الخلاف الراهن - فيما يبدو لى - من نقاط تتطلب مزيداً من الإيضاح والإفصاح والتطوير. وإلى جانب أشياء أخرى فقد أصبحت على وعى ببعض النقاط مثار الخلاف بين شيلر وبينك وبينى، إذا أخذت نقطين من الأول للآخر، وأنا على يقين من بعض ما عند النقاد من سوء فهم، من الممكن إزالته

(3) Psychol. Bulletin, 1 (1904), cf. C.E.R., 445-7; Dewey to W.J., January. 20, 1904.

(4) "What Does Pragmatism Mean by Practical" Jour. of Philos. V (1908).

إذا طرحنا على بساط البحث ما بيننا من نقاط اتفاق واختلاف كل على حدة. فمثلاً، سوابق الإنسية عن طريق المثالية الشخصية كانت ميتافيزيقيات مثالية بلا مراء. ووجهات نظرى الخاصة أكثر جنوحا للمذهب الطبيعى، وهى رد فعل ضد، ليس مثالية المذهب الذهنى والمثالية الواحدية فحسب، وإنما ضد كل المذاهب المثالية، فيما عدا طبعا فى معنى المثل العليا الأخلاقية. وليس ثمة ريب فى أننى الآن أبدو لنفسى أكثر اقترابا منك، عما أنا بالنسبة لشيلر فى هذا النقطة بالذات، ومع ذلك فلست على يقين من ذلك.

ومن جهة أخرى فإن شيلر فى كتاباته الأخيرة يبدو أنه يؤكد أن النتيجة الطيبة التى هى محك الفكرة، طيبة ليست فى طبيعتها ذاتها بقدر ما هى طيبة فى ملاقاة مطالب الفكرة أيا ما كانت الفكرة. وهنا يبدو أننى أقرب إليه منى إليك، ومع ذلك فلست على يقين من ذلك مرة أخرى. فإذا كانت هناك ثمة اختلافات حقيقية، ونقادنا يميلون إلى مزج مذاهبنا - كل وما يخصه - معًا بحيث لا يمكن لأحد منا وحده أن يمثلها مجتمعة، فإن ذلك يفسر بعض سوء الفهم المزعج فى حالة الخلاف الراهنة.

الملخص

جون ديوى

وجدير بالذكر أن چيمس كان فى سنة ١٩٠٧، قد ألقى محاضراته عن البراجماتية فى جامعة كولومبيا. وفى سنة ١٩٠٨، قدم إليه مجلد بعنوان "مقالات فلسفية وسيكولوجية" كتبت إكرامًا له بقلم "زملائه فى جامعة كولومبيا" وقصد بها "التنويه إلى حد ما بشعور مؤلفيها بخدمات البروفسور چيمس المشهودة فى الفلسفة وعلم النفس، والحيوية التى أضافها إلى تلك الدراسات، والتشجيع الذى تدفق منه إلى زملائه الذين لا يحصيهم عد".

وأسهم ديوى فى هذا المجلد بمقالة بعنوان "هل للحقيقة صفة عملية ؟"، وكانت هذه المقالة بالذات فى نظر چيمس أكثر مقالات المجلد "وزنا"[٥]. ولقد تولت هذه المقالة،

---

(5) Title-Page and Prefatory note; W.J. to Dewey, August 4, 1908; L.W.J., 11,310.

بالإضافة إلى المقالة التى سبقتها بعنوان "ماذا تعنى البراجماتية بعملى؟"، مهمة شرح تفسير المؤلف لجيمس وللمذهب الذى آمن به كلاهما.

وفى سنة ١٩٠٨، ١٩٠٩ كان چيمس مشغولاً بالمهمة المزدوجة فى دحض وتفنيد حجج نقاده، وصقل وتمهيد الطريق للاتفاق. ففى سنة ١٩٠٨ نشر مقالة بعنوان "الحقيقة ضد قول الحق" وقصد فى ختامها أن يهدئ ويخمد نقاده بتسليم كلمة "الحقيقة" لأولئك الذين يرغبون فى توكيد "الظروف الأولية والموضوعية للعلاقة الإدراكية" فى حين يحتفظ بكلمة "صدوق" لتلك القيمة الوظيفية للأفكار التى تؤكدها البراجماتية. وأنكر عليه ديوى هذا الاقتراح، مما اضطر چيمس إلى سحبه عندما أعاد طبع المقالة فيما بعد[٦]. ومعرفة الماضى تنهض دليلاً فى هذا الصدد، فديوى يصر على أن لفظ "الحقيقة" لا يطبق تطبيقًا سديداً على الحادث الماضى ذاته، ولكنه يطبق فقط على التوكيدات اللاحقة التى تنصب على الحادث. ومن ثم كتب إلى چيمس فى ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٩ بالآتى:

"هل صحيح أن نابليون احتل بروڤنس فى آخر يوم مارس سنة ١٨١٤؟" إذا كان هذا يعنى أى شىء فإنه يعنى: إما (أ) هل عبارة أو فكرة أو اعتقاد أن نابليون احتل.. إلخ.. صحيحة؟ أو (ب) هل احتل نابليون حق (الحقيقة الوجودية المجردة)؟ إن صاحب المذهب العقلى القاطع يتمسك - كما أفهمه - بأن الحقيقة الوجودية المجردة - من حيث هى حقيقة وجودية مجردة، هى فى حد ذاتها من طبيعة الحق. يبدو لى أننا نحتاج فقط إلى أن نرفع النقاد إلى مستوى التمييز بين الوجود البهيمى أو الأحداث (والتى من المؤكد أنها ليست "حقائق") وبين البيانات الفكرية عن تلك المواجيد (التى تنسحب عليها فقط صفة الصواب والخطأ)، وذلك لكى نجعل النقاد يرون أن الخلط قائم فيهم أنفسهم، وأن الحق قد يكون علاقة بين آثار ونتائج الوجود موضوع المسألة، وقد يكون نتائج وآثار الموقف الفكرى أو التوكيدى موضوع المسألة. ويبدو أن قضية حقيقية عبارة تاريخية، قضية تقوى مركزك بصفة خاصة. وإذن "فوجود قيصر" ليس بأى معنى "حقيقة عمرها ألفا عام". فالقضية هى عما إذا كان الاعتقاد أو القول بأن قيصر قد فعل أشياء معينة منذ ألفى عام، اعتقاد صحيح أو قول صحيح".

---

(6) Jour. of Philos., V (1908), 181; M.T., 225.

وفى مقدمة كتاب "معنى الحقيقة"، وهو مجموعة لأقواله وردوده وإجاباته على معارضيه، أخذ چيمس على عاتقه عرض وجهات نظر ديوى وشيلر ونفسه باعتبارها آراء يكمل بعضها بعضا، ولا مناقضة بينها. فعالم شيلر "عالم نفسى"، وعالمى هو "عالم يختص بفلسفة المعرفة" - أما عالم ديوى - فكان "أرحب العوالم الثلاثة" ولكنه "أمسك عن إعطاء تفسيره الخاص لتعقيده". وكان چيمس - فى مبدأ الأمر - قد وصف ديوى فى هذا التصنيف بكلمة "عالم الكائنات وحقيقتها" لكى يكمل الثالوث (باعتبارهم شيئًا واحدًا)، ولكنه بعد أن عرض الفقرة على ديوى "أمسك عنها" بناء على الالتماس الجدى من ديوى.

وفى هذا الصدد كتب ديوى: "حتى أكثر الكتاب تواضعا وأشدهم غموضا، ربما تجد عنده نفورًا طبيعيًا، ما دام قادرًا على الكلام، من أن يتولى غيره تفسيره تفسيرًا جازمًا، حتى إذا كان يدرك تمام الإدراك أنه عرضة للانتقاد ويقبل النقد". وأثار التماس چيمس لمزيد من التفسير القول التالى:

"طبعًا، ما كان فى نيتى أن أحكم على إشارتك لشيلر. كلا، لا أظن أن عبارتك عنى خاطئة ولكن، من الوجهة البراجماتية فإن الخطأ وعدم الكفاية يؤولان إلى بعضهما بعضا. والتصنيف الخاص "بعالم الكائنات وحقيقتها" اسناد مضاد، إذا أعتبرت الاقترانات التاريخية والتقليدية لذلك الاسناد. على أن أشد ما عندى من اعتراض جدى هو: أننى لا أحسب أن مثل تلك التحليلات الموجزة للمسائل المعقدة كفيلة حقًا بتوضيح الموضوع، لأن هذه التحليلات الموجزة تخلق عددًا كبيرًا من الأسئلة الجديدة بقدر ما تحسم وتقرر، وكثيرًا ما تنتج محصولاً جديدًا من سوء الفهم وسوء التأويل"[٧].

وفى نفس مقدمة كتاب "معنى الحقيقة"، أخبر چيمس أنه وشيلر وديوى متفقون اتفاقًا مطلقًا "فى الإقرار بتخطى واستعلاء الوطر (بشرط أن يكون موضوعا قابلا للخبرة) على المسند إليه فى علاقة الحقيقة". وكان اهتمام چيمس منصبًا على الدفاع عن ديوى وعن شيلر وعن نفسه أيضًا ضد تهمة الباطنية المشتركة. وكان ديوى يشعر

(7) Dewey to W.J., March 15, 19, 1909.

بأنه ليس بحاجة إلى أى دفاع، حيث لم يفترض فقط أن التفكير يعمل فى بيئة خارجية من الخبرة مطالب ومسئول بالرد عليها، وإنما أيضًا اعتبر الخبرة نفسها غير باطنية. وفى هذا طالب بتأييد ومساندة چيمس ليكون له ظهيرًا:

"أنا طبعًا لا أحاول أن أمدك باللغة، ولكنى لم أستطع أبدا أن أتبين السبب فى كون ناقد- إذا كان حقًا يعتقد (فيما عدا لأغراض خلاقية) أننى لا أعتقد فى أى شىء يتجاوز الحالات العقلية - لا يلزم نفسه بأن يوضح التناقض الذاتى الذى يورطنى ذلك فيه. وطبعًا لقد كررت - إلى درجة تعافها النفس - أن هناك مواجيد سابقة على الحالات والأغراض الإدراكية ولاحقة لها، وأن المعنى الكلى للأخيرة كامن فى الطريقة التى تتدخل بها فى ضبط وإعادة تقويم المواجيد المستقلة.. بل فى الحقيقة أجد (فى المحادثة) أن كثيرًا من الناقدين يعتبرون مذهبك أكثر باطنية من مذهبى، لأننى، اتباعًا لسنة كتابك "علم النفس" أؤكد (أكثر مما تفعل كتاباتك الأخيرة) الأصل البيولوجى للأفكار والعمليات الفكرية. وموجز القول إنك واجد (ما لم أكن مخطئًا خطأ فاحشا) أن النقاد الذين يوجهون هذه التهمة. دائمًا ينقلون الأساس من تحليل الصدق العقلى إلى معنى الخبرة، وحيث إنهم أنفسهم لديهم فكرة باطنية تمامًا عن الخبرة (ومن ثم ثنائية) فإنهم يسقطونها علينا"[٨].

ومن الجلى أن هذه المناقشات لم تفض إلى أى انشقاق بين چيمس وديوى، بل على العكس أدت إلى توكيد اتفاقهما، واستمر چيمس فى متابعته لتطور تفكير ديوى بشغف واهتمام وإعجاب. لقد كان مزاج تراسلهما يليق بدعوتهما المشتركة. لقد كانا مختلفين اختلافا كاملا فى عبقرية عقليهما. وإذا كان صحيحًا أن الأسلوب يفصح عن الرجل، فبالتأكد كانا رجلين مختلفين. كان چيمس يجد صعوبة كبيرة فى فهم أفكار ديوى "بعد انتظامها - بلا قيود - فى التعبير"[٩]. ولا بد أن ديوى وجد چيمس عجولاً ومندفعًا ومفرط الغزارة والفورة، ولكن تلك الأمور كانت فى نظر الاثنين اعتبارات تافهة، ولقد سعى كل منهما - بالتعاطف والفهم والود - إلى توكيد ما بينهما من وفاق مشترك، بدلا من التنازع والشقاق لتعميق ما بينهما من خلاف.

---

(8) Dewey to W.J., March 21, 1909.

(9) W.J. to The. Flournoy, February 9, 1906; L.W.J., 11, 244.

(٣٤)

البراجماتية فى إيطاليا وألمانيا

فى ربيع سنة ١٩٠٥، سجل چيمس إبان وجوده فى روما بمناسبة حضور المؤتمر الدولى الخامس لعلم النفس ما يلى:

"نعمت عصر اليوم بحديث طلى شهى وودى مع عصبة من "البراجماتيين"، بابينى، كالديرونى، آمندولا، فايلاتى... إلخ. وكلهم يقطنون فلورنسا، ويحررون المجلة الشهرية "ليوناردو" وينشرونها على حسابهم الخاص، ويسوسون حركة فلسفية فى غاية الخطورة والأهمية، مستلهمين - فيما يظهر - شيلر وشخصى (لم أكن لأصدق ذلك أبدا من قبل على الرغم من أن فرارى أكد لى ذلك) وهم يبدون حماسة وغيرة، ولهم نشاط أدبى مطلق العنان لا نظير له فى بلادنا. لقد أعطتنى هذه العصبة فكرة جديدة معينة عن الطريقة التى ينبغى على الحق أن يجد طريقه بها إلى العالم. لقد كان أهم جزء فى رحلتى وألذها، وفى الواقع من الأمر أكثر تثقيفا بحق، هو لقاء هذه الحلقة الصغيرة الذين حملوا كتاباتى - وغيرها - على محمل الجد وأولوها أكبر قسط من الاعتبار"[١].

كان هؤلاء الرجال، مع برزوليتى وآخرين، يؤلفون جماعة تلتقى بشكل غير رسمى للنقاش الفلسفى، وكان يشار إليها أحيانًا "بالنادى البراجماتى". وهكذا عثر چيمس، على غرة وبلا قصد، على عصبة من الحواريين الذين وجدهم قد كرسوا أنفسهم فعلا لممارسة ونشر الإنجيل الجديد. وجدير بالذكر أن فترة تحمسهم الجمعى تتفق مع حياة مجلة ليوناردو التى استمرت من ١٩٠٣ إلى ١٩٠٧. فعلى صفحاتها نشروا عديدا من

---

(1) W.J. to A.H.J., April 30, to Santayana, May 2, L.W.J., 11, 227, 228.

المقالات عن البراجماتية - وتاريخها وقادتها - وقرظوا مؤلفات چيمس فور ظهورها، وهللوا لبيع ألفى نسخة من ترجمة كتابه "علم النفس".

ومات جيوفانى فايلاتى فى سنة ١٩٠٩، وماريو كالديرونى فى سنة ١٩١٤. ونشرت مقالاتهما، التى كانت تمثل ترجمة للبراجماتية، رزينة ومعتدلة نسبيًا، وبعد موتهما بمقدمة بقلم بابينى[٢]. ومن بقية العصبة، جيوفانى أمندولا أصبح من رجال الحكم الأحرار الذين قاوموا الفاشية ومات فى سنة ١٩٢٦ ميتة مريبة من آثار "الدروس" التى قيل إن نفرا من شيعة الحكومة غير الرسميين لقنوه إياها. أما جيوسبى بريزولينى فقد انحرف بعيدا عن البراجماتية فى اتجاه مثالية كروتش. أما جيوفانى بابينى نفسه فقد مر بمراحل متعاقبة من التفكير انتهت بالتقوى المسيحية. ولقد خطط كتابه (Sul Pragmatismo) "المذهب الذى أخذ من بيرس اسمه ومن چيمس شهرته"[٣]، على أساس أن يظهر فى سنة ١٩٠٦، وفى نفس الوقت بالإيطالية والفرنسية والإنجليزية، ودار حوله حديث عن مقدمة بقلم چيمس للطبعة الإنجليزية، ولكنه لم يقدر له أن يرى النور حتى سنة ١٩١٣، وكان عندئذ سجلا للماضى لا إعلانا للعقيدة.

وطوال الوقت الذى عاشت فيه الحركة كانت فى غاية الحيوية وكانت هذه الحيوية، وخصوصا كما تجسدت فى بابينى، هى التى دفعت چيمس إلى إحدى فورات تحمسه المعهودة فيه. لقد هوى فؤاده إلى روح الجماعة وإلى "مجونها"، بل إلى "قنزحتها الأدبية وإلى قلة حيائها العامدة". وأحب "نغمة شعورهم الملائمة جدا تلم شعث المتحمسين والأنصار، ولجعل البراجماتية ضربا جديدا من الجهاد

---

(2) Lanciano, 1920. Largely reprinted from Leonardo and Rivista di psicologia.

(3) "Quella dottrina ch'ebbe dal Pierce il nome et dal Jam's la fama" (Sul Pramatismo, 1913, viii).

الدينى الفلسفى أو شبه الدينى للفلسفة"(٤). واستطاب أسلوبهم، وعلى الأخص أسلوب بابينى: "يا له من كاتب. ويا لها من خصوبة. ويا لها من شجاعة. ويا لها من روح دعابة، ويا له من صدق!".

ويظهر أن هذا الشعور كان متبادلا. فبابينى يتحدث عن "بساطة" چيمس و"سحره" و"عمقه". لقد كان هو الذى "غزا" مؤتمر علم النفس لسنة ١٩٠٥، وكان بحثه الذى ألقاه "فكرة الضمير" هو "نور المؤتمر الساطع"(٥). والتبادل التالى للرسائل يفصح عن روح هذه العلاقة، والتى هى من إحدى خصائص چيمس المميزة عندما يندفع فى تحمسه لا يبالى ولا يقيم وزنا لفارق السن:

ديل مونتى ٢٧ أبريل سنة ١٩٠٦

"صديقى العزيز وأستاذى بابينى:

"لقد قرأت سفرك الجليل (Crepuscolo dei filosofi) وكذلك عدد فبراير من مجلة ليوناردو، وما أعظم القوة التى عززت روحى من قراءاتهما. ما أروع العبقرية. وأنت عبقرى حق. ها هنا أحاول جاهدا وبكل عسر بتهيُّبى الفكرى وصحو ضميرى ويقظة وجدانى أن أمهد بضع خطوات من الطريق المفضى إلى (Weltanschauung) الجديدة المنظمة، فإذا بك فى خطوتين جريئتين تقفز قفزة واحدة فى لحظة واحدة تتجاوز الطريق كله إلى رحاب النظام كله، إلى الريف المطلق والخلاء المكشوف. إنه مزاجك الذى لا يبالى إلى جانب صيغك الفذة - سواء بسواء - هى التى كان لها ذلك التأثير التحررى العظيم على ذكائى. وسوف تتهم بالإسراف - وهى تهمة فى محلها. وسوف يطلق عليك سيرانودى بيرجراك البراجماتية... إلخ. ولكن البرنامج لا بد أن يرسم بإسراف. إن "الدقة" هى أحد

(4) "G. Papini and the Pragmatist Movement in Italy," originally published by James in 1906, C.E.R., 460, 465. The writings of Papini which chiefly interested James were Il Crepuscolo dei filosofi (1906) and the Leonardo articles afterwards republished in Sul Pragmatismo.

(5) W.J. to F.C.S. Schiller, April 7, 1906; L.W.J., 11, 246; "Gli Psicologi a Roma," Leonardo, 111 (1905), 123-4.

معايير الطريقة القديمة للتفلسف التي تبحث في الحقيقة المعينة عن شبح "مبدأ ما" يسوغ شرعية وجودها وتخرج الخلق من الحقيقة. فإذا كان الخلق يحدث في مفردات. "كما بدا لي دائمًا أن هناك أسبابًا للاعتقاد بذلك"، ولكني الآن "أعتقد" أن "الدقة" ليست فئة للحكم على أي شيء بأنه حقيقي، فسأكتب حالا مذكرة عن آل (crepuscolo)، آل (Leonardo) لصحيفة وودبردج وأطلق عليك أستاذ الحركة الآن. يا لك من كاتب ألمعي لوذعي فكه فطن ذكي. إنه لرائع حقا أن ترى إيطاليا القديمة تجددنا جميعا بهذه الطريقة. ولقد كتبت إلى جون ديوي، الأستاذ بجامعة كولومبيا بنيويورك، ألفت نظره إلى كتاباتك. يجب أن تقرأ فورا مقالته "العقائد والحقائق" في عدد مارس من (Philosophical Review). إنها غامضة بعض الشيء في الأسلوب ولكنها قوية جدا، وتعتبر أخطر بيان براجماتي نشر في أمريكا حتى الآن. استمر في التفكير والكتابة.

المخلص

و م. چيمس

فلورنسا ٣ مايو سنة ١٩٠٦(٦)

"أستاذي العزيز،

تسلمت رسالتك التي بعثت بها من ديل مونتي، وأؤكد لك أنها غمرتني وكادت تغرقني. إن سماعي للأستاذ الذي درسته وأعجب به يقول لي أشياء تبدو في غاية الإطراء والمدح جدا حتى بالنسبة لغروري (والذي لا جناح عليَّ من القول بأن نصيبي منه ليس بالهين) كان بالنسبة لي من أعظم متع حياتي العقلية التي قدر لي أن أنعم بها في حياتي كلها. وإني لأعلم جيدا أن عطفك على ما أحاول أن أؤديه يجنح بك إلى الحماسة، ولكني عاجز تمامًا عن أن أرد لأستاذي الأعز، جزئيًا - مهما كان صغيرًا - من الإنعاش الذي أنعم به عليَّ. إنني ما زلت في ميعة الصبا - يا أستاذي العزيز - فسني خمسة وعشرون عامًا فقط، وإني لتواق إلى أن أواصل عملي في طريقك وفي مرجوي أن تواصل عوني ومؤازرتي، فإن ثقتك بي ستكون لي ظهيرًا أشد به أزري.

منذ أيام قليلة فقط نشرت كتيبا من القصص الخرافية الفلسفية، وهو الآن في طريقه إليك. وأنا الآن أعمل في الطبعة الإيطالية الجديدة من كتابك "علم النفس". وسأنتهي من هذا العمل في شهر

(6) This letter was written in French and is translated by the author. Papini's "little book" was 11 tragico quotiano.

يونيه. وفى نفس الوقت فإننى مشغول أيضًا فى كتابى عن البراجماتية، وسأرسل لك تجارب الطبع لتلقى عليها نظرة. اكتب لى ثانية. هل سيظهر كتابك عن "الميتافيزيقيا" عما قريب؟

لك خالص ودى القلبى

ج. بابينى

وعندما تسلم بابينى وقرأ مقال چيمس الموعود فى "صحيفة وودبردج"، كتب إليه فى ٣ يوليو سنة ١٩٠٦ يقول:

"تستطيع أن تتصور تمامًا الانفعال الذى اعتمل فى نفسى وأنا أقرأه، ليس فقط بسبب ما تقول عن أفكارى وإنما فوق (كل شىء) بسبب العطف القلبى الصميمى الذى يشيع فى كلماتك. قد تموت النظريات وأنت وأنا من المحتمل جدا فى مدى يومين اثنين أو عامين، وقد نختلف فى الرأى اختلافا بينا، ولكن الميل الذى تبديه نحو طريقة تفكيرى وكتابتى يمنحنى سعادة ولذة وعزة من نوع خاص، أحسب أن أصحاب المعرفة المجردة لا يشعرون به أبدا".

وفى فصل من فصول كتابه (L'altea metá) يقول بابينى إن البراجماتية بتوكيدها عنصر المنفعة فى المعرفة قد تفهم على وجهين متناقضين تمام التناقض، وفقًا لاستمساك المرء أو عدم استمساكه بالمذهب النفعى. فعند صاحب المذهب النفعى، فإن فائدة المعرفة تجمدها وتؤيد سلطتها، أما عند غير النفعى، فإن نفعية المعرفة تحط من قدرها وتجلب الخلاص من عبوديتها. وبابينى مقتنع بهذا الشق الأخير. وفى هذا الصدد يقول: "إن عظمة الإنسان الحقيقية تكمن فى أدائه للعمل العديم المنفعة، تمامًا لأنه عديم المنفعة بالذات"[٧]. وبنسبة ما يكون العلم نافعا يصبح من الواجب المحتم احتقاره، وتوجيه نشاط المرء مسالك أكثر تنزها عن الغرض. ثمة فرق مماثل بين البراجماتية "الحنبلية" والبراجماتية "الموفقة"، حيث تتجلى الأولى فى كبح التفكير

(7) "La vera grandezza dell-uomo deve consistere nel fare l'inutile, appunto perché inutile," L'altra meta, 1922, 203. The first edition appeared in 1910.

والاقتصاد فيه، ومن ثم تواصل تقليد الفلسفة الوضعية، وأما الثانية فهى براجماتية تأملية إلى حد الإفراط، نتيجة لكونها اكتشفت حدود العلم وخلصت منها. وهناك تفرقة أخرى من تفرقات بابينى، وهى التفرقة بين "البراجماتيين الاجتماعيين" "Pragmatisti social" و"البرجماتيين الروحانيين" "Pragmatisti Magica" فالفئة الأولى هم رجال ذوو رزانة ووقار، ويجدون البراجماتية أداة للتنظيم والسياسة والتدبير، فى حين أن الفئة الثانية تملون بالروح الابتداعية[٨].

وكان بابينى نفسه - يمثل فى كل تلك النقائض - البديل الأكثر تحرراً وجرأة. فأما إعجاب چيمس به فكان مرده إلى أمرين: إدراكه للأبواب الكثيرة التى تفتح من الممر البراجماتى[٩]، واختياره لنفسه باب المجازفة البطولية، والتأمل الحر والإيمان الجهادى. كان "الأنشودة" التى توقظ فى الناس "وظائفهم الإبداعية القدسية"[١٠]. كان "بابينى الفتى المتوج الهامة بإكليل الفخار. الذى وضع نفسه فى مركز التوازن الذى تبدأ منه كل الاتجاهات الحركية"[١١]. تلك كانت البراجماتية التى اتخذت "العمل" محكا للحكم على كل الأدوات الإنسانية، ومن بينها الحق[١٢] والحقيقة، وأما چيمس الذى

(8) Leonardo, IV (Feb. 1906), 58-61.

(9) C.E.R., 462.

(10) Pragm., 257.

(11) W.J., to Th. Flournoy March 26, 1907., L.W.J., 11, 267.

(12) "Energies of Men." Philos. Rev., XVI (1907)., published in Leonardo, V (Feb. 1907). Here Pramatism offers no Weltanschauung of its own, but pelmits man to choose any that suits his moral and aesthetic demands, and arouses an "eccitamento mentale" by making man conscious of his creative power and superiority to science. (Op. cit., 34).

راقته تلك البشارة، فقد، كان چيمس الذى يجد "الحياة تستحق العيش" بسبب لحظاتها البطولية.

على أن التفرقات المميزة لبابينى تومئ إلى ارتباطين للبراجماتية بالتطورات الاجتماعية والسياسية الحديثة. فالشيوعية، ما دامت حوافزها تكنولوجية، تتقبل بسرعة فلسفية تقاس فيها كل المعرفة على محك تطبيقاتها العملية، وتفسر فيها هذه التطبيقات على أساس تحكم فى البيئة، وتصبح فيها كلتا المعرفة وتطبيقاتها على الشيوع. هذا مط واحد من شد البراجماتية، ولو أنه أكثر تمثيلاً لبيرس وديوى بنوع خاص مما هو لچيمس. ولكن الحافز الأشد قوة الذى نقلته البراجماتية إلى التفكير الاجتماعى والسياسى ينبثق من مصدر آخر، من تمجيدها للعمل المباشر، ومن ثم لكلتا الثورة والديكتاتورية. فبينا لا تنطوى مشاعر البراجماتى البابينى إلا على الازدراء لدولة اقتصادية بحت، فإنه كان يجد نفســه شديد العطف والتجاوب مع عبادة العنف والخطر.

فى أبريل سنة ١٩٢٦، عقد موسولينى مؤتمرا صحفيا ذكر فيه چيمس مع نيتشه وسوريل من بين أساتذته الفلسفيين. فلما سئل أيهم أعظم تأثيراً أجاب:

"تأثير سوريل. لقد فتننى نيتشه عندما كنت فى العشرين من عمرى، عزز العناصر المضادة للديمقراطية فى طبيعتى. وكانت براجماتية چيمس ذات نفع كبير لى فى حياتى السياسية. فلقد علمنى چيمس أن العمل ينبغى أن يحكم عليه بنتائجه لا بأساسه الفقهى. لقد تعلمت من چيمس ذلك الإيمان بالعمل، تلك الإرادة المتوقدة للحياة والجهاد، اللذين يعزى إليهما قسط كبير من نجاح الفاشية. فالأمر الجوهرى بالنسبة لى، كان هو الجسم. ولكنى أكرر أننى مدين بأعظم الفضل لجورج سوريل. لقد كان ذلك الأستاذ الفذ للمذهب النقابى، هو الذى أسهم بنظرياته الوعرة العنيفة عن التكتيك الثورى بشكل حاسم بات فى تشكيل نظام وطاقة وقوة الكتائب الفاشية"(١٣).

(13) Sunday Times, London, April 11, 1926. The interview was obtained by the Spanish journalist, Dr. André Révesz.

وليس من الحكمة أخذ هذه العبارة حرفيا. فقائمة أساتذة موسولينى الذين اعترف بفضلهم – قائمة طويلة وآخذة فى الازدياد[١٤]. وما وجده فى چيمس، كان فى وسعه أن يجده بكل سهولة فى غيره حيث أن ما عنده كان واسع الانتشار وله كثير من النظائر والأشباه. ثم إن چيمس كان نبيا على الجانب الآخر أيضًا. ولقد سبقت الإشارة من قبل إلى مصير أمندولا. ففى قصته عن الحياة فى السجون السياسية على جزيرة ليبارى يصف إميليولوسو الوقت الذى أنفق فى مناقشة أفكار چيمس، والشكوك والريب التى ساورت حارس السجن الذى "تدخل فى الحديث ذات يوم سأل: باسم القانون من عساه يكون السنيور چيمس هذا"[١٥]. ولكن ليس ثمة سبب وجيه للتشكك فى أن موسولينى الشاب عرف شذرات من المذهب الچيمسى ووجدها على هواه. ويتذكر موسولينى أيضًا أنه قد تعرف إلى چيمس شخصيًا.

بيد أن الوقت الذى اتصل فيه موسولينى بالبراجماتية والوسائل التى تم بها هذا الاتصال غامضة ملغزة. ثمة قصة جارية تقول بأن قبيل نهاية العشار الأولى من القرن الحالى (١٩٠٨ أو ١٩٠٩) قضى موسولينى ستة أشهر فى باريس، وأنه كان كثير التردد على مقهى بيجاى القائم بشارع السوربون لكى يستمع إلى سوريل وهو يفسر برجسون. وطبقًا للقصة، فإن لينين كان يلتقى بسوريل فى نفس الوقت، بحيث إن هذين الثوريين الجبارين كانا يتشربان نفس المذهب المضاد للعقلية من نفس المصدر[١٦]. وكان لينين يقرأ الفلسفة ويكتبها بغزارة، وراقه المذهب النقابى لسوريل

(14) Machiavelli, Schopenhauer, Strindberg, etc., Cf. H.W. Schneider, Making the Fascist State, 1928, 230-1.

(15) The agent referred the matter to his superiors, who apparently thought James to be, if not a teacher of the true gospel, at any rate innocuous. "The Flight from Lipari," Atlantic, CXLVI (1930), 31.

(16) "I owe this story to Professor M. Mauss of the Collége de France, whe does not vouch for its accuracy. I have been unable to verify it.

الذى دافع فيه عن حرب الطبقات باعتبارها أسطورة بطولية – una interpretazione) will-to-believ-istica) للماركسية كما عبر عنها بابينى[١٧]. ولكن أية إشارة لثبوت نسب لينين بالبراجماتية لا بد أن تقيد حقيقة أنه باسم المذهب المادى جحد صراحة ودحض بكل تفنيد "التجريبية – التمحيصية" لارنست ماش التى تبناها منافسه أ. أ. بوجدانوف. لقد كان مرتابا فى هذه الفلسفة لأنها – فى نظره كانت تفتح طريقًا "عقائديا" لصانعى الآله"، وبسبب روحها العامة ذات الطابع "التوفيقى الدجال". لقد كان أتباع ماش "طائفة عجينية تعسة حقيرة من الوسطيين" الذين هم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، والذين يخفون الفتق الذى لا سبيل إلى رتقه بين المثالية والواقعية. وكان لينين، غريزيا وربما ستراتيجيا، معارضا للتفسيرات الحديثة لماركس، مؤثرا الفرض المنطقى للحتمية المادية على المذاهب الفلسفية الأخرى الأكثر مرونة، والتى لا تنطوى على أية مضامين اقتصادية وسياسية ثانية[١٨].

وسواء أكان موسولينى، قد التقى سوريل فى سنة ١٩٠٨، أم لم يلتق به، فقد كان على أية حال ملما بكتاباته، وعن طريقها سمع عن برجسون بلا شك. أما أنه لا بد أن يكون قد سمع عن چيمس من نفس المصدر فأمر بعيد الاحتمال كلية.

وأكثر مؤلفات سوريل شهرة المعروف باسم "تأملات فى العنف" يحتوى إشارات كثيرة لبرجسون، ولكنه خال تماما من أية إشارة لچيمس على الرغم من التشابه المستوقف للنظر بين مذهب الأسطورة المعضدة للروح وبين مذهب چيمس فى كتابه "إرادة الاعتقاد". وفى الطبعة الثانية من كتابه "أوهام التقدم" أضاف سوريل ملحقا عن "جلال الإنحلال" استقى فيه من كتاب چيمس "الأنواع المختلفة للخبرة الدينية"، ولكن

---

(17) Leonardo, IV (1906) 60.

(18) Nikolai Lenin Materialism and Empirio Criticism (Vol. XIII of Collected works), 1927 294 and passim.

ذلك لم يحدث حتى سنة ١٩١١، ويبدو أنه لم يلتفت إلى "براجماتية" چيمس إلا بعد أن ظهرت الترجمة الفرنسية لهذا الكتاب، وهذا أيضاً لم يحدث إلا فى سنة ١٩١١. وبعد ذلك فى سنة ١٩٢١، وبعد أن قرأ الترجمة الفرنسية لكتاب "معنى الحق" وكتاب "الكون التعددى" نشر سوريل كتابا بعنوان "نفع البراجماتية". ولقد كتبت مقدمة هذا الكتاب فى سنة ١٩١٧، معلنة عن قبول المؤلف للمذهب مع تحفظات. فالمؤلف يرى أن چيمس قد أسىء إليه على يد حوارييه من أمثال بابينى، أولئك "المشعوذين الذين لا عمل لهم سوى إقامة بيت من الدخان من أية بدعة جديدة غير مألوفة" والذين يجدون مأواهم المناسب فى المستقبلية. ويعتقد المؤلف أيضاً أن براجماتية چيمس إقليمية ضيقة الأفق مشبعة بجو بيئة أمريكية بروتستانتية وأكاديمية، وأنها لا تحتاج إلى إعادة تفكير بوساطة عقل أوربى. أما وقد تم ذلك (على يد سوريل) فهو ينتهى إلى أن البراجماتية جديرة بأن تحتل مكانها بين الفلسفات الكلاسيكية وتقدم خدمة هامة للتفكير الحديث[١٩].

وكل الدلالات تومئ إلى سنة ١٩٠٨، على أنها سنة مغازلة موسولينى للفلسفة. فتلك هى السنة التى نشر فيها فى (Il Pensiero- romagnolo) مقالا عن نيتشه بعنوان: (La Filosofia della forza) وكتب (Storia della filosofia) التى لم تنشر أبدا. وتلك هى سنة زيارته المشكوك فى أمرها لباريس، والسنة التى نشر فيها - قطعا - كتاب سوريل "تأملات فى العنف" (الذى ترجم بعد سنة إلى الإيطالية). وتلك هى السنة التى اتصل فيها موسولينى بجماعة الليوناردو بفلورنسا، الذين لا بد أن يكون قد سمعوا باسم وليام چيمس إن لم يكن بمذاهبه.

أما صحيفة ليوناردو نفسها فقد توقفت عن الصدور فى سنة ١٩٠٧، ولكن خلفتها فى السنة التالية صحيفة (La Voce) وعلى الرغم من أنها كانت بصفة أولية

(19) Sorel, De L'Utilité du pragmatisme, 1921, 111, 21-2.

مجلة سياسية وأدبية لا فلسفية فى مجال اهتمامهـا، إلا أنها أزهرت من نفس الجذع والنسب. وكان بريزولينى رئيس تحريرها، وكان بابينى يسهم فيها كثيراً، أما موسولينى فقد كان يسهم فيها من حين لآخر. وهنا يبدو أن الفاشية ارتبطت - لحين - بالبراجماتية تحت نوع مريب من رعاية آل (Vocismo) آل (Futurismo).

وأيا ما كانت "قنوات الإرسال" التى تأثر بوساطتها القادة الشخصيون، فليس ثمة ريب فى الحقيقة العريضة بأن البراجماتية والفاشية (وكذلك البلشفية) تحتوى بعض العناصر المشتركة، وأن موسولينى كان له حق فى الاستشهاد بچيمس، حتى لو كان ذلك رأيا دبريا. فالثورة السياسية المعاصرة، إذا فسرت بتوسع ورحابة صدر، كانت نبذا للتحررية. لقد كان إنجيل القوة والعنف فى تضاد عامد ضد إنجيل الخير والإحسان والإنسانية والديمقراطية السياسية. كانت ثورة تنكر صراحة المبدأ المسلم به يقينا لدى الناس كافة من أن الأفراد العديدين الذين يتألف منهم المجتمع - وحيث إن مصالحهم أنفسهم هى التى تحت الخطر - هم وحدهم أصحاب الكلمة العليا والحكم النهائى بالنسبة لما هو خير وصالح، وكذلك أيضاً بالنسبة للوسائل التى تتخذ لتحقيقه. ووليام چيمس كان تحرريا فى هذا المعنى على وجه التحديد بالذات. واحتمال أنه كان من الممكن أن يعطف أقل عطف على البلشفية أو الفاشية، أمر مستحيل لا يخطر بالبال. وإذن فعلينا أن نقتنع، ليس بفلسفة ثورية مطابقة كان چيمس لها بشيراً ونذيراً، ولكن بمجموعة من الأفكار والعواطف، فى حالة تنقل وتبدل، وكثيراً ما كانت لا علاقة بينها ولا رباط، يتداخل بعضها بعضاً هنا وهناك، بحيث تلتحم فى أفكار وعواطف البراجماتية.

لقد انبثقت الفاشية من حالة طارئة، وعبرت عن الحاجة إلى العمل الفورى والحاسم، مع الحط من قدر الأيديولوجيات لأنها تثير المناقشة، وتشجع على التراخى وعدم الحسم والبت فى الأمور، وعلى هذا فأهلا بالبراجماتية من حليف من هذه الزاوية، لأنها قد تحدث بجرأة مكانة وسلطان الفعل والنهى. فالفاشية كانت حركة

انتهازية نجمت باعتبارها إجراء من إجراءات الأمن، واستمرت مشغولة بالمسائل الملحة الطارئة وفقا للمقتضيات الحزبية. وكانت البراجماتية قد علمت أن الأفكار التى ليس لها تطبيق على الموقف العملى الذى تنشأ منه، أفكار عديمة المعنى وعديمة الجدوى.

واستخدمت الفاشية العنف، ضد قوة المعارضة والحقوق الدستورية جميعا، وكانت قاسية لا ترحم، ولا ترعى قانونا ولا ذمة، وكانت تهيج الحماسة العسكرية بين أعضائها وتهدد جيرانها: وكانت البراجماتية قد علمت أن الأفكار والسياسات يمكن أن تتبنى - عدلا وصوابا - من أجل أثرها المقوى على الإرادة، وأن تسويغ العمل قد يكمن، ليس فى نتائجه السارة البارة، وإنما فى حميا وتمجيد العمل ذاته. فلكل هذه الأفكار التى تدعم بها الفلسفة البراجماتية مقتضيات الفاشية ولزومياتها، كان من الممكن والميسور الاستشهاد بنصوص لا حصر لها من چيمس لتكون للفاشية ظهيرا. ثم تبقى الفكرة الرئيسية للفاشية، ألا وهى إخضاع الفرد وتبعيته للتماسك العضوى للدولة. وكانت هذه الفكرة هى اللعنة المحرمة عند چيمس، وتنتمى للمعسكر المضاد والتقليد المناقض الموجود عند فيشته وهيجل. وكان أولى بالفاشية أن تبحث لها عن وثنى من طراز ج. جنتيل بدلا من چيمس لإحكام الصنعة الفلسفية لتلك الفكرة، والذى حدث فعلا: أن تلك الفكرة بعد أن أخذت أهميتها فى الازدياد وشاعت وذاعت وملأت الأسماع، استند تسويغ الفاشية وتحول أكثر فأكثر إلى أسس فيتشية أو هيجيلية[٢٠].

---

(20) G. Gentile, "The Philosophic Basis of Fascism," Foreign Affairs, VI (1928), 290. this nation-worship, submission of the individual to the state, ideslization of patriotism, etc., was, of course, a vigorous cult in France with Charles Maurras and L'Action francaise. But although this influence was con- siderable, it was not philosophical. For Maurras's nationalistic creed, cf. his Au Signe de flore, 1931, 256-7, 291-30 Maurras goes back to Renan for his creed of nationality.

وثمة داع يدعو حركة سياسية وجدت البراجماتية مناسبة وموافقة ومجانسة في مراحلها الثورية المبكرة، إلى أن تحيل عينها إلى مثالية بعدما كانت أبان مرحلة البلوغ.

على أن البراجماتية التى من النوع الذى يمثله بابينى الفتى، تشجع الفرد أو الجماعة العرضية على أن يصبحوا أبطالاً وشهداء فى سبيل أى قضية. فاتجاهها مفكك وفوضوى. ولكن عندما تمسك حركة ثورية بزمام الدولة وتضع يدها على سلطاتها فإنها تصبح - أوتوماتيكيا - بطل الدولة. ويصبح من الضرورى عندئذ إحلال المبدأ الموضوعى للعمل الجماعى المشترك محل المبدأ الذاتى للحرية. وفى محل تعدد ولاءات جهادية تسمو بالحياة سموا متباين الأنواع، يصبح من الضرورى الالتزام بولاء واحد، ويصبح من المحتم أن يقتصر حق السمو والشرف على هذا الولاء الواحد. وعندما يصبح الثوار حكاما، فإنهم لا يستطيعون الاستمرار فى الزهو بقوتهم الخاصة، لأن ذلك يؤدى إلى زهو مماثل فى المنشقين عليهم، ولكنهم لا بد وأن يدعوا أن قوتهم مؤيدة ومعتمدة بقداسة خاصة باعتبارها نابعة من شىء أعظم من أنفسهم. ومن ثم فإن إرادتهم لا يمكن أن تعبر عن مجرد إرادتهم، وإنما لا بد أن تكون مشيئة لإرادة أعلى. إن دم جهاز أعلى لا بد أن يصب فى عروقهم، وهم لا ينطقون عن الهوى، وإنما صوت أعظم وأقدر وأرفع هو الذى يتحدث من خلال أفواههم. لقد كانت الفاشية حزبا من الأحزاب يشد بعضه بعضا بالنظام والتحمس الطائفى، وعندما أصبح الحزب دولة، فإن هذه الصفات العقلية، التى تم نموها وتطويرها من قبل، انتقلت إلى الدولة بكل خصائصها.

وباعتبارها ثورة، خلقت الفاشية انفصاما مع الماضى، إذ أعاد مذهب عبادة الدولة، وأشبع عاطفة الشخصية الذاتية التاريخية. وليس هذا من البراجماتية فى شىء - بل على النقيض - لأنه يشتق اعتماده الفلسفى من أعز أعداء البراجماتية، وإنما هو

الوجه التعسفى الاستبدادى من إنجيل العمل، الذى بوساطته يمكن الاحتفاظ بفتوحات العنف وأنفالها، وتجميدها وتأويلها تأويلا أخلاقيًا(٢١).

على الرغم من أن أرنست ماتش كان من السابقين المبشرين بالبراجماتية، وبينا نجد أن جورج سيميل وولهلم أوستوالد لقيا من چيمس كل ترحاب وتحية باعتبارهما حليفين، فإن البراجماتية لم تستطع أن توطد قدمها إلا بدرجة طفيفة فى ألمانيا، وكان بصفة رئيسية فى النمسا. وحتى هؤلاء الفلاسفة الثلاثة السابق ذكرهم تقبلوها باعتبارها تفسيرًا لطريقة فى العلوم الطبيعية والاجتماعية لا باعتبارها فلسفة.

صحيح أن ماتش قُدس حديثا، وجُعل أبا لمدرسة فلسفية جديدة فى فيينا. ولكن هذا الماتش الذى بعث من جديد هو ماتش الفيلسوف الوضعى لا ماتش البراجماتى. ثم إن إحلال علم إطعام وإيواء الجنود فى الميدان محل الأخلاق والميتافيزيقيا، كما يقترح أحدث حواريى ماتش، أمر غريب جدًا يجافى إلى أبعد حد مزاج چيمس وكذلك مذهبه.

وفى سنة ١٩٠٨، ظهرت ترجمة ألمانية لكتاب "البراجماتية" بوساطة ولهلم جيروسالم(٢٢)، الذى كان دافعه على ذلك أن يحيط بها علما جمهور فلسفى غير مرتاب

---

(21) I may add that, so far as I can see, these pragmatistic and idealistic ideas have nothing to do with the cult of Mazzini, who believed that action should follow swiftly upon thought, because it is of the very natuer of thought that it should illuminate action and of action that it should realize thought. This is in no sense opposed to the liberal tradition It finds the justifiction of action in the ends which thought forecasts, and not in the action itself or in its subjective authority.

(21) W. Jerusalem (1854-1923) was at this time teaching philosophy at the University of Vienna, where he was later made full professor.

حتى ذلك الوقت. وكان المترجم قد سبق أن انتهى إلى وجهة نظر مشابهة بلا ارتباط أو قيد، وكان قد واصل التراسل الودى مع چيمس منذ سنة ١٩٠٠. وفى المقدمة التى صدَّر بها المترجم للكتاب، أعلن تشبثه بالمدرسة البراجماتية، فى حين عبر إيثاره لمزيد من الثقل والتوكيد عن الظروف الاجتماعية للمعرفة.

أما البروفسور جوليوس جولدشتين[٢٣]، الذى نشر فيما بعد مقالات يفسر بها البراجماتية ويدافع عنها، فقد كتب إلى چيمس رسائل حماسية عديدة أجاب عنها چيمس بالرد التالى:

"لقد كتب لى عنك شيلر من قبل يقول لى إنك البراجماتى الوحيد الذى على قيد الحياة الآن فى ألمانيا. وآمل ألا تستمر هذه الحقيقة طويلاً، وإنما تنجح فى تلقيح قومك بتذوق لفلسفة أكثر تجريبية بحيث يسيغونها، أو بالأحرى بنفور واستقباح لعناصر الإطلاقية التى ما زال كثير من الألمان يتركونها تزدهر وتروج فى وسط طريقة، لولا تلك العناصر، لكانت طريقة تفكير تجريبية جداً.

لقد وصلتنى اعترافات عديدة بتسلم كتابى الجديد، ولكن واحدا منها فقط هو الذى يناظر رسالتك فى التحمس والعطف. ومن الجلى أن عقلك وعقلى قداً من نفس النمط. إن الألمان - كما تقول، مسلمون بالواحدية - الواحدية فى أعماقهم مهما بدوا تجريبيين فى الظاهر. وتجريبيتى وتعدديتى فى الأعماق أيضاً[٢٤]. وأى موجز للأثر والتطور الحديث للبراجماتية ينبغى أن يدخل فى حسابه ليس فقط الأشياء العديدة التى قد تعنيها البراجماتية ذاتها، ولكن أيضاً نهايات المطاف الفلسفية العديدة التى تفضى إليها بطريقة غير مباشرة".

بيد أن الأهمية الفريدة لچيمس، تكمن، ليس فقط فى الحافز الابتدائى الذى دفع به الحركة ومضى بها إلى غايتها، ولكن أيضاً فى حقيقة أنه تنبأ بكثير من الاتجاهات التى قد تمضى فيها الحركة وشد أزر العديد منها.

---

(23) Professor of Philosophy at the University of Darmstadt.

(24) W.J. to J. Goldstein, October 11, 1906 and August 6, 1907.

وفى أضيق وأدق معنى، فقد كانت براجماتية چيمس وصفا للمعرفة غير المطردة المتنقلة بما فى ذلك دور الأفكار وكيفية إشارتها لموضوعاتها وما يجعلها صحيحة. وكل هذه الأسئلة الثلاثة يجاب عنها إجابة عملية: فالفكرة وسيلة أداة تشير إلى موضوعها بافتتاح سياق موصول من المناشط يفضى منها أو إليها، والفكرة صحيحة بقدر وطالما تمكن العارف من بلوغ موضوعها بنجاح.

فإذا سلمنا بصحة مثل ذلك الوصف للمعرفة المتنقلة، فما العاقبة الميتافيزيقية؟

قد ينظر المرء إلى الصفة العملية للمعرفة المتنقلة على أنها مساوية للحط من قدرها. فإذا كانت المعرفة المتنقلة عملية فحسب، فأولى بالميتافيزيقى أن يبحث عن بصيرة نظرية أعمق أو أنقى فى مكان آخر. هذه هى سبيل اللقانة الوحدانية والصوفية، المتمثلتين فى برجسون، أو بعد أن يكتشف المرء أن المعرفة المتنقلة عملية، فإنه ينفذ إلى الإرادة أو الرغبة المنطوية عليها، ويؤكد الأسبقية العامة للعمل على النظرية. وهذه هى سبيل مذهب الفاعلية، المتمثلة فى بابينى وشيلر وسوريل والمذهب التحديدى الكاثوليكى. أو، بعد تقبل تفسير عملى للسبيل المتنقل، فى وسع المرء أن يتخذ هذه السبيل نفسا باعتبارها نموذجًا أصليًا لكل النشاط، ليس العلمى فقط ولكن أيضًا الخلقى والجمالى. وهذه هى الوسيلة الوضعية لمدرسة ديوى.

على أن هذه القائمة من الأبدال ليست كاملة، وليست حائلة ولا مانعة لبعضها دون بعضها الآخر. ففى چيمس نفسه نجد الأبدال الثلاثة موجودة، بل فى الواقع من الأمر لقد كانت الخصوبة غير المحدودة لممكنات وإمكانات البراجماتية هى التى حمدت البراجماتية لديه. ومع ذلك، ففى حين أنه وضع يده فى يد بابينى وديوى ورحب بهما باعتبارهما حليفين فى سبيل نفس القضية، فإنه من الواضح جدا أنه كان يشعر بولاء أعمق لكتيبة الصوفيين واللقانيين. بيد أنها كانت ميتافيزيقية تأثر نظرى وبصيرة، بدلا من كونها فاعلية أو وضعية انبثقت من الجذور القديمة لتفكيره.

(٣٥)

التقاعد من مهنة التعليم

نشر كتاب البراجماتية فى سنة ١٩٠٧. وكانت هذه السنة أيضًا هى التى اعتزل فيها چيمس التعليم. ومنذ سنة ١٩٠٠ كان يبدو عليه "أنه على وشك الانسحاب من المهنة"[1]. ولما أدرك چيمس أنه لن يكون قادرًا على استئناف وتجديد تعليمه فى الخريف التالى، كتب إلى مدير الجامعة إليوت بخصوص منحه إجازة دراسية يعتزل بعدها الخدمة. وهنا بدأت سبع سنوات من المراسلات، كان چيمس فى أثنائها يسعى إلى الانسحاب على الدوام، فى حين أن إليوت، بأقصى اعتبار عاطفى لصحته، وبأقصى اعتبار غيور لشهرة الجامعة، كان يسعى إلى إبقائه فى منصبه.

ولقد كان هذ المشروع المقترح للاستقالة، وفكرة أن علاقاتهما القديمة على وشك الانفصام، مناسبة اقتضت تبادل الرسائل التالية بين چيمس وزميله جورج هربرت بالمر:

بوكسفورد يوم عيد الميلاد (١٩٠٠)

(1) W.J. To The author, Januuary 2, 1900.

"عزيزى چيمس،

أفكارى تعود إلى الوراء.. إلى ذكرى السنوات الطويلة لعلاقتنا، زهاء خمسة وعشرين عاما. أعتقد أنها لا تقل عن ربع قرن، وإنى لأذكر أول مرة قدر لى أن أراك فيها وأنت تدخل عربة القطار قرب بلدة بيفرلى تصطحب كلبا أو كلبين. ولم أكن عندئذ أعرف اسمك، ولكنى قدمت لك بعدها بوقت قليل. وبعد ذلك حدثت معركتى مع باون[٢]، بشأن اقتراحك إعطاء مقرر عن سبنسر. وسرعان ما تم زواجك، وإنى لأذكر أن أول مرة اكتحلت عيناى فيها برؤية المسز چيمس الحبيبة، يوم أن أقبلت للتهنئة بزفافكما، وكانت جالسة على كرسى صغير واطئ أمام نافذة غرفتكم بشارع هارفارد. تلك كانت الأيام التى اعتدت فيها أن تحضر محاضرات عن لوك، الأيام التى شجعتنى فيها على قراءة هومر، الساعات الطويلة من الرفقة والزمالة واختلاف الرأى فى اجتماعات القسم، المسافات التى كنا نمشيها دون سابق موعد أو تدبير، والزيارات التى كنا نتبادلها فى بيوتنا. لقد بدأنا على طرفى نقيض. بدأت أنت بالتشريح وبدأت أنا باللاهوت. ولعل كلا منهما فى ذلك الوقت المبكر كان ضيق المجال والأفق. وإنى لأعرف أننى لم أكن أثق بك، وظننت أنك ينبغى أن تكرهنى. ولكن ما أروع ما نمت ثقتنا ومحبتنا واستمرت بلا توقف. لم يمنحنى أحد قط - فى هارفارد - كل ذلك الكثير الذى منحتنى إياه.

إنه لحلم شائع وغرار أن نتاج الرجل المهنى ليس سوى التعبير المكتمل لحياته الخاصة. طبعًا هذا وهم غير معقول. فالمهنية لها تحتيماتها الخاصة بها التى كثيراً ما تمضى خارج نطاق العنصر الشخصى تماماً. ولكن كما هو فى حالتك، حيث يتحد الاثنان برحابة ووفرة، وحيث ينبسط الرجل الكبير - بلا عوج ولا أمت - إلى الرجل المهنى الراسخ الوطيد، فهنا ينبع السحر والفتنة والجلال ورجحان التأثير التى لا تتسنى أبدا للهاوى أو الخبير الفنى فحسب. إن ما أسديته لحياتنا فى هارفارد عظيم جليل، إنه إسهام بأوفى نصيب من الأريحية، التى سمت بها وعظمت شأنها وباركت حولها وأشاعت فيها الذكاء والحكمة فى تلك المرحلة من الانتقال، التى لولا تأثير أمثالك لكان من الميسور أن تنزلق إلى مغبة الفوضى. لقد خلعت عليها الجدية دون ادعاء أو دجل، وأعطيتها العقل والبيان دون حذلقة، ووهبتها شجاعة يومية دون فظاظة أو عنف. وبفضل رجال من أمثالك تحتل هارفارد اليوم مكانًا رئيسيًا فى تشكيل وصياغة المثل العليا لهذه الأمة. إن انسحابك من التعليم

(2) Francis Bowen, teacher of philosophy at Harvaed from 1835-39 and from 1853-89.

سيكون له وقع الأسى والحزن عند القوم الذين هم خارج الكلية - مثلنا سواء بسواء - نحن زملاءك الذين عملوا معك بداخلها.

ومع ذلك فلست أستطيع أن ألومك. فلا ريب عندى أنك فى الكتابة أقدر على ملاءمة عملك لقواك، وأنك بقدر معين من إنفاق الطاقة ربما تستطيع أن تكون أكثر نفوذًا وتأثيرًا وفاعلية مما تفعل عندما ترهق نفسك (من أمرها عسرا) فى قاعة الدرس. ولمدة عام وأنا لا أفكر فى عودتك ثانية إلى العمل الكامل، ولكنى كنت دائمًا أؤمل ألا تحرم الكلية من إعطاء مقرر دراسى واحد أو على الأقل حلقة دراسية، وبذلك تظل عضوًا رسميًا فى هيئة التدريس عندنا التى - بوجودك فيها - تعد يقينا أعظم هيئة قدر لأية جامعة ناطقة بالإنجليزية أن تظفر بها فى الفلسفة. ولكن، بلا شك، ربما تقوم بعض الصعوبات فى تنفيذ تلك الخطة. كلا أنا أسف إذ حسبت أنك ربما تكون على حق فى تقديم استقالتك. إن سنوات الكتابة التى ستصبح الآن فى مقدورك، ستضيف إلى أعناقنا ديونا جديدة أخرى ندين بها لك، وما أسعدنا بأن نظل مدينين لك على الدوام. ولكن على الرغم من علمى بكل ما فى ذلك من خير، فلا يسعنى إلا أن أحزن أسفا على الأيام الخوالى السعيدة، ونظام عملنا الذى كنت فيه واسطة العقد. إننا لا نسمح لك بأن تخلى سبيلك من التعليم إلا على شرط أن تضاعف عدد السنين التى تمنحها لصداقة كمبريدج.

لك أعمق حبى،

ج. هـ. بالمر

روما أول فبراير سنة ١٩٠١

"عزيزى بالمر،

إن رسالتك التى حررتها من بوكسفورد يوم عيد الميلاد كانت أسعد وأشهى شىء تسلمته فى حياتى، لأنها آتية من عين لم تعتد التدفق (على الأقل فى مسيلها الخارجى للدموع). ومن لسان - مخلص - كلسانك لا ينطق إلا بالصدق والحق، وتتحدث عن الماضى بطريقة جعلته صورة محفوفة بإطار مذهب، وترصع شخصيتى وتزينها بشعارات الشرف، كما لو كانت صورة على رسم تاريخى تحيطه بهالة الزمن، وتنظر إلى قلة تدريبى لمهنتى، كما لو كان ذلك عملا من أعمال العبقرية فى خبطة من خبطاتها المختارة. ولكن رسالتك - يا عزيزى بالمر - فوق كل شىء نفحة من نفحات أريحيتك بكلماتها الصريحة الصادقة التى تنضح بالتقدير لشخصى باعتبارى زميلاً يعتز به، وتزخر بالود والحب والإعزاز الصادرة من صميم فؤادك. ومن رجل صاحب عقل مسنون كعقلك، ولا يراعى فى

الحق لومة لائم، مهما كان قول الحق مرا، ومن إنسان عرف الصراحة المطلقة، فإن مثل هذه العبارات ذات مغزى ودلالة وأهمية بالغة بالنسبة إلىّ أكثر مما تتصور أنت نفسك، ورسالتك يقينا ستحتل أعز مكان يشكل أنضر وأزهى ملامح "المحفوظات" التى سأسلمها بوصفها تراثًا قيّمًا لأولادى. ولكنى "لم أمت بعد"، بل إنى لأبعد ما أكون عن الموت، وما زال عندى أمل فى أن أكتب نعيك بيدى، وثق أننى بعد رسالتك هذه سأجعلك "أجمل وأنق" نعى على الإطلاق. أعتقد أن أسر وأبر شىء فينا جميعًا معشر قسم الفلسفة، أننا على الرغم من أن كلا منا له مزاجه الخاص الواضح الأكيد ولكل منا "أفكاره" الراسخة، عمليًا ونظريًا، والتى هى ثمرة جبلّته وطبعه وخلقته التى ما لها من دافع، نكن لبعضنا أعمق التقدير، وإننا نتميز بظاهرة التعاون المنسق فى غرس الحقيقة الموضوعية فى عقول طلابنا. وإنها - على أية حال - لتحررية صادقة أصيلة، وليست وثوقية ولا تعسفية مجمدة ذات مفاصل أكثر وأكثر لكى تعلق عليها حشود الآراء ووجهات النظر برمتها معا وعلى الملأ تزداد مرونتها تباعا كل عام - وأنا - باعتبارى واحدًا منها أكره أن أخلع من مثل هذا الجهاز الفلسفى الخصيب ما دام النهى ما زال يحتفظ بمقعد فى محف رأسى. ولذلك، كمن يتشبث بفرصة يائسة، كتبت بالأمس إلى مونستربرج بالموافقة على اقتراحه بأن أدرس مقرر الفلسفة ٦[٣]، ولكنى فى نفس الوقت مدرك احتمال اعتلال صحتى وعدم تمكنى من الوفاء بالتزامى، واثقا بأن اللجنة ستكتم الأمر إذا كانت مسألة البديل العرضى أعوص من أن يدبر لها حل. والحقيقة هى أننى الآن غارق إلى أذنىّ فى مجرد إعداد مادة هذا المقرر، ومع ذلك فهذا أيسر ما ينتظرنى من عمل. وإذا كان هناك من يستحق عاما إجازة فهو (رويس)، وإن كانت فترة نصف عام ربما تكون من الأوفق. وما أخشاه هو أنه سيفسد جوهر نفسه بإتلاف حاسته المتحررة البسيطة مع العلاقات فى أعمق أمادها، فى هذا التعامل المستمر المطبق الذى لا يهدأ ولا يفتر مع التفاصيل الضرورية اللازمة للنشر العاجل. فهو لا يستطيع أن يبتعد عنها البعد الكافى الذى يمكنه من أن يرى علاقاته نفسه مع الموضوع، وسيفقد عقله مرونته، وإنه لصاحب جهاز عقلى مدهش بشكل الحالى. وكذلك عقل مونستربرج أيضًا: (Il sue le talent)، ولكنى أعتقد أن بناءه كله فى كتابه العظيم هذا، بناء صناعى مطلقا. ولعله لهذا السبب بالذات سيؤسس مدرسة مثل كانت، وعندئذ فسأصبح أنا خالدا مثل زيدليتز[٤]. وطبعا - عقلى أنا - وإن يكن رديئًا

(3) Hugo Münsterberg was at this time Chairman of the Department. Philosophy 6 was a course in "The Psychological Elements of the Religious Life".

(4) Münsterberg,s "great book" was the Grundzüge Psychologie, dedicated to James; Kant's Kritik der reinen Vernunft (1781) was dedicated to "Freiherrn von Zedlits, Sr. Excellenz, dem Königl. Staatsminister".

بما فيه الكفاية فى أحسن حالاته - فإنه ما زال جيدا مثلما كان دائما بالقياس إلى الكيف. إنه الكم، الذى يفتقر إلى الكثير ويترك الكثير بلا تحقيق. ولكنى سودت كمية كافية من الصفحات بمادة تملأ أكثر من عشر ساعات فى القراءة، ولهذا فأنا مطمئن وآمن بخصوص أدنبرة فى شهر مايو، وإن كنت فيما يتعلق بالكتاب ينبغى علىَّ أن أكتب ما لا يقل عن مائتين وخمسين صفحة أخرى من المخطوط. إننى بطىء بشكل فظيع. عندما أفعل أى شىء، سواء أكنت أكتب أم أمشى، فإن مزاجى ينحرف وأصبح موعوكا وكالاً. فإذا ما أخلدت إلى الراحة والسكون، اعتدل مزاجى وانتعشت. ولكنى على الإجمال متماسك ومحافظ على مركزى وأكثر، وقلبى - سليم الآن - الفضل لهذه الحقن التى داومت على أخذها، وهو فيما يبدو فى حالة طبيعية تماماً. ولعل الباقى هو مسألة وقت ومزيد من الحقن. وداعا يا عزيزى بالمر العتيد. إنك لا تدرى إلى أى حد أثرت رسالتك فى نفسى. إنها لا تقدر بثمن.

و. چيمس

وعلى الرغم من ذلك وعلى الرغم من استقالات أخرى لاحقة، فعلية أو من قبيل التهديد، فإن چيمس استأنف تعليمه فى (١٩٠١، ١٩٠٢)، واستمر فى الخدمة - وإن كان بجدول مخفف - زهاء ست سنوات. وفى أثناء النصف الأول من العام الدراسى (١٩٠٥، ١٩٠٦) ساوره الشك بالنسبة لاستئناف تعليمه فى خريف سنة ١٩٠٦، وتسجل مفكرته اليومية، لمدة ستة أسابيع التقلبات النهارية لعقله على النحو التالى:

٢٦ أكتوبر - "أستقيل".

٢٨ أكتوبر - "أستقيل".

٤ نوفمبر - "هل أستقيل؟".

٧ نوفمبر - "أستقيل".

٨ نوفمبر – "لا تستقل".

٩ نوفمبر – "أستقيل".

١٦ نوفمبر – "لا تستقل".

٢٣ نوفمبر – "أستقيل".

٧ ديسمبر – "لا تستقل".

٩ ديسمبر – "أستمر فى التعليم هنا العام القادم".

وأخيراً وفى ربيع سنة ١٩٠٧، أرسل استقالته ثانية، وفى هذه المرة قبلت الاستقالة نهائياً ولكن على مضض.

وعندما فرغ من أمر اعتزاله الخدمة وحسمه بشكل بات، أحس چيمس إحساساً عميقاً بأن عبئاً أزيح عن كاهله وشعر بالفرج بعد ضيق، كان فرحاً بإنهاء خدمته مثلما كان فرحاً باستهلالها. وفى رسالة بعث بها إلى صديقه البروفسور ثيودور فلورنوى كتب فى شهر مارس ما يلى:

"أشكرك لتهانيك بمناسبة اعتزالى الخدمة. إنها مصدر سعادة كبيرة لى. للأستاذ وظيفتان:

١ – أن يكون متفقهاً فى العلم ويوزع المعلومات والمعارف.

٢ – أن ينقل الحقيقة.

والوظيفة الأولى هى الوظيفة الضرورية، من الوجهة الرسمية. وأما الثانية فهى الوظيفة الوحيدة التى تهمنى. وإلى الآن، كنت أشعر دائماً بأننى مثل الدجال باعتبارى أستاذ، لأننى ضعيف فى المطلب الأول. أما الآن فأستطيع أن أعيش للوظيفة الثانية بضمير حر مستريح"(٥).

---

(5) March 26, 1907; L.W.J.,11, 268.

وفى ١٨ مايو كتب إلى شيلر يقول:

"لمدة خمسة وثلاثين عامًا عانيت من آلام مقتضيات كونى (أستاذًا). من زعم وواجب، ملاقاة الحاجات العقلية والصعوبات للأشخاص الآخرين، حاجات ما كان فى وسعى أن أتصورها، وصعوبات ما كان فى وسعى أن أفهمها. والآن وقد أزحت عن كاهلى اللولب الأستاذى، فإن الإحساس بالحرية الذى يغمرنى إحساس مفاجئ ومدهش بقدر ما هو رائع ونفيس. كل صباح أستيقظ وبنفسى هذا الإحساس فأقول لنفسى: صحيح. هل أنا متحرر من قيود ملاءمة نفسى لذلك الحشد الغريب من الإنسانية المعارضة المقاومة. ومن التفكير تحت ضغط المقاومة، ومن تعديل خطوى ووقعى ونغمى لتلائم الآخرين فى كل خطوة؟ مرحى. مرحى. يا للنصر المؤزر. لا أكاد أصدق. أنا وحدى مع الحقيقة ومع الله. يا له من مستقبل. ويا له من يسر".

ثمة شىء فى أعماق وليام چيمس كان يناوئ الحياة الدراسية برمتها سواء أكانت تعليما أم بحثا أم تأليف كتب. وهذا الشىء كان ينبع من تأكيده وتطنيبه لنواحى الحياة غير القابلة للبلاغ أو على الأقل غير القابلة للحد أو التعريف أو الوصف. ومن ثم كان يعطف على تحامل الفنان ضد أولئك الذين يتحدثون أو يكتبون عن الفن. "ولكنك لا تستطيع أن تبعد العلم عن أى شىء فى هذه الأزمنة القبيحة"، هذا ما كتبه من فلورنسا فى سنة ١٨٩٢:

"لقد مات الحب، أو على أية حال يبدو ضعيفا وضحلا حيثما يضرب العلم جذوره. إننى سعيد لأننى لكونى عاجزا عن بلوغ مرتبة اللوذعية العلمية فى أى فرع، ما زلت أستطيع أن أجد بعض اللذة فى هذه الصور على سبيل الحب. ما أفظع صناعة الأستاذ، يؤجر. ليتكلم ويتكلم ويتكلم. لقد رأيت فنانين تمتقع وجوههم ويصابون بالغثيان بينما كنت أتحدث إليهم دون أن أكون قادرًا على التوقف عن الكلام. ما أفظع الكون إذا كان من الممكن نقل كل شىء إلى كلمات، كلمات، كلمات"![٦].

على أن فن چيمس الخاص للتعليم نشأ، ليس فقط من صفات مزاجه وعبقريته، ولكن أيضًا من هدف رصين مقصود كان واعيا به منذ وقت يرجع إلى سنة ١٨٧٦،

(6) To Grace Norton, December 28, 1892; L.W.J., 1, 337-8.

عندما قال: "إن الدراسة الفلسفية تعنى عادة رؤية البديل دائمًا، وعدم التسليم جدلا بالعادى المألوف، وجعل التقليدى والدارج والاصطلاحى مرنا وسيالا ثانية، تخيل حالات غريبة من العقل"، ثم أضاف إلى ذلك قوله: "أيما مذاهب يتلقاها الطلاب من معلميهم، لا جدوى منها ولا أثر ما لم يغنموا منهم الاتجاه العقلى الفلسفى الحى، والنظرة الشخصية المستقلة إلى وقائع ومعلومات وتجارب الحياة، والشغف بتنسيقها وتوفيقها"(٧).

كان ذلك - بكل وضوح - ديدن چيمس الشخصى باعتباره معلمًا، ولقد تبعه وسوَّغه عمليا - على السواء. كما أنه أيضًا أبدى عيوبه المكملة: "دعونى أنصحكم فى تعليمكم بأن تكونوا منهجيين ما استطعتم إلى ذلك سبيلا"، ذلك ما كتبه فى سنة ١٩٠٠ لأحد طلابه السابقين: "دعهم يرون مشروع الغاية، وكذلك الشجرة المفردة. لقد اتضح لى أن خروجيتى على الطريقة - التى لا برء منها - وقفت دائمًا فى طريقى حجر عثرة، فى غاية التشتت والاختلال والتحريم"(٨).

وما كان چيمس بمنهجى، وفى نصحه للآخرين بأن يكونوا منهجيين، فقد كان فى الواقع ينصحهم بألا يكونوا چيمس - وهى نصيحة تقبلوها - كرها. بيد أن التلقائية تأتى فى ومضات كالبرق، وبين الومضات من المرجع أن تكون هناك فترات من الظلمة والعتمة. ولقد كانت هناك لحظات عقيمة، بل ساعات عقيمة، فى فصول چيمس. لقد كانت هناك أوقات يطوف فيها على غير هدى - ما فى ذلك ريب. ولكن طلابه كانوا يتذكرون ومضاته، فى الوقت الذى كانت تجليات معلميهم الآخرين - الأكثر ثباتا واستمرارا وتراضيا قد انمحت وزالت من عقولهم - منذ وقت طويل.

---

(7) "The Teaching of Philosophy in Our Colleges," Nation; XXIII (1876,) 178.

(8) To the author. January 5, 1910.

كان چيمس على وعى بالصورة الكاذبة للمحاضر. ولقد كتب إلى البروفسور إلكساندر فوربز، الذى اقترح إحلال "نظام دراسة الحالات" محل المحاضرات فى مدرسة الطب - يقول:

"أعتقد أنك على صواب تمامًا، ولكن أستاذك الجهيد لا بد أن يثور على ذلك. فهو يؤثر جدا أن يجلس ويستمع إلى صوته الجميل، على أن يوجه ويرشد عقول طلابه المتعثرة. ولقد خبرت ذلك بنفسى. فإذا كنت تعرف شيئًا ولديك قليل من التدريب، فليس ثمة ما هو أهون من أن تسمع نفسك تتحدث، فى حين أن توجيه العقول المتعثرة للطلاب سرعان ما يصبح أمرًا لا يطاق".(٩)

ولكن، إذا كان التعليم الذى هو مشبع ذاتيا للمعلم نفسه، من الممكن أن يكون عديم الجدوى، فالعكس أيضًا صحيح. وفى حالة چيمس فإن التعليم الذى كان يشعر أنه غير فاعل، كان غالبا فاعلاً فى الواقع من الأمر، بسبب الصراحة والصفاء والنقاء والحيوية الشخصية التى كان يضفيها على محنه ومعضلاته، بل على ضجره ومله.

وحيث إنه لم تكن هناك طريقة تقف بين چيمس وطلابه، فإن تعليمه كان بالضرورة علاقة شخصية متشربة بالصفات الشخصية. لقد جعلته روح دعابته، ومبالغاته العابثة، وصراحته، وفوق كل شىء سماحته ومروءته وتآخيه، ومحبوبا من طلابه مثلما كان محبوبا من أصدقائه.

كتب هنرى چيمس مرة عن أخيه وليام قائلا: "إن تنوعات تطبيقه لم تذهب سدى بالنسبة له تماما مثلما كانت تنوعات غموضى وإبهامى بالنسبة لى، سواء بسواء".(١٠)

---

(9) Professor Alexander Forbes, "Talk with Professor Jamed", April 1, 1909.

(10) N.S.B., 444.

وكان هنرى چيمس يقصد بهذا، الإشارة لفترة شباب وإعداد حياة وليام چيمس، ولكن هذا القول من الممكن أن ينسحب بنفس الصحة على الفترات اللاحقة من حياة چيمس، عندما خلفت المهنة التربية، أو بالأحرى عندما اتخذت التربية شكل مهنة.

ومن السهل التنويه بحقيقة أن چيمس كان مرهقا بواجباته الأستاذية، ولكن من الخطر أن يوحى ذلك بأنه كان من الممكن أن يكون أقل إرهاقا بدونها. فالرجل الشديد القابلية للتعب، يتعب من أى شىء يفعله، وكذلك من أى شىء لا يفعله. كان التعليم يتعب چيمس، ولكن الكتابة أيضًا كانت تتعبه، وكذلك القراءة، والسفر، والمخالطة الاجتماعية، بل حتى الترفيه والترويح، لقد كان - بغريزته - مبذرا لطاقته، بحيث إن أثر المذخور المتراكم منها، كان لا بد أن يدفعه دفعا إلى مزيد من التهور فى الإنفاق. ثم إنه أيضًا كان يعانى على فترات متقطعة من تلك الأسقام المبهمة التى ندرجها - جهلا منا - معا فى قائمة واحدة باعتبارها أمراضًا عصبية وعقلية. فليس ثمة أقل سبب - بقدر ما فى وسعى أن أرى - يحملنا على الاعتقاد بأن حياته الأستاذية كانت فى هذا المجال غير مواتية أو باعثة على الاكتئاب. صحيح أنها أنهكته وأرهقته من أمره عسرا، وطبعا ملأته غما وهمًا، كما فعل كل شىء آخر بدوره وفى حينه. ولكنها فى نفس الوقت هيأت له أنواعا مختلفة من المناشط، وأتاحت له فرصة دائمة لتغيير مسرح حياته، فى حين أنها تضمنت واجبات ثابتة استمد منها إحساسا بالاستقرار وشعورًا بقيمته وجدواه.

لقد جلبت له مهنته علاقات إنسانية متنوعة سارة بارة، وتيارا موصولا من المستمعين الذين يكنون له كل إجلال وتقدير. وفوق كل شىء، فقد ضمنت نموه المستمر فى الكفاءة والشهرة. وبسبب نجاحه المطرد باعتباره كاتبًا ومعلمًا، فقد نجا من براثن الإحساس بالتفاهة والعقم، وتمتع بالإحساس بالإيمان بعبقريته ورسالته فى الحياة.

ومن نافلة القول، إن تقاعد چيمس من مهنة التعليم بهارڤارد لم يصاحبه أى توقف من جانبه عن المحاضرات والكتابة. فلقد ألقى محاضرات هيبرت - التى نشرت تحت عنوان "كون تعددى" - فى كلية مانشستر باكسفورد فى شهر مايو (٢ - ٢٦) سنة ١٩٠٨. "وكان جمهور المستمعين كبيرا بدرجة مدهشة. مئات عديدة" "وفى غاية الانتباه والإصغاء". وكان قد تلقى الدعوة لإلقاء تلك المحاضرات فى خريف العام السابق، وقبل الدعوة بعد كثير من التردد والإحجام. وبدأت كتابة المحاضرات فى اليوم السابع من ديسمبر، ولم تكن قد تمت بعد، عندما أبحر چيمس إلى أوربا فى اليوم الحادى والعشرين من أبريل. على أن إحجامه كان راجعا - إلى حد كبير - إلى حالته الصحية غير المطمئنة، وبعد أن ارتبط بالالتزام كان يخشى ألا يستطيع القيام بها والوفاء بعهده. ثم إنه كان أيضًا نفورًا "من الانتكاس إلى الأسلوب الشائع الجماهيرى" "فى اللحظة التى ظن أنه ودعه إلى غير رجعه". وتبدو قوة ذلك النفور فى رسالة بعث بها إلى شيلر، حررها فى شهر يناير[١١]:

"لقد قبلت الدعوة لأنى خجلت من رفض مناوأة أستاذية بهذه الأهمية، ولكنى كنت أوثر ألا تأتينى هذه الدعوة أصلا. إننى فى الواقع من الأمر أكره أن أحاضر، وهذه المهمة تحكم علىَّ بأن أنشر كتابا آخر يتعين علىَّ أن أكتبه بأسلوب مزخرف ومحبب لدى الجمهور، فى الوقت الذى استقر فيه أمرى على كتابة شىء بأسلوب أكثر علمية بحتا، أى مختصر جامع جاف وغير شخصى. لقد جلب علىَّ أسلوبى المتحرر السهل الأنيس المنقاد فى كتاب "البراجماتية" عددا كبيرا جدا من الأعداء فى الدوائر الأكاديمية والمتعالمة، بحيث إننى أكره المضى فى زيادة عددهم، وأريد أن أصبح أعسر لا أيسر، وأكثر إحكاما لا إرخاء. ذلك أن المحاضرات لا بد أن تعد للجماهير، فإذا ما تم إعدادها، فليست عندى لا القوة لإعادة كتابتها من جديد، ولا جحود الذات لنسخها وإبطالها".

(11) January 4, 1908. The phrases quoted in the first paragraph are also from letters to Schiller - of May 15 and 24, 1908.

وكان عنوان "الوضع الراهن فى الفلسفة" الذى استعمل باعتباره عنوانًا ثانويًا للكتاب، هو العنوان الأصلى للمحاضرات. وكان غرضه الرئيسى هو عرض بديل عن المثالية الواحدية، ومن ثم يجمد المعارضة. ووجد لذة فى فعل ذلك فى أكسفورد، قلب معقل المثالية الواحدية. ولكن على الرغم من أن چيمس "هدد المطلق" وفاه بالوعيد القامع والويل والثبور ضد ذلك الكيان الماجد "من حماة الإكليروس"(١٢)، فإن مناجزته كانت حربا تلعابية - كبرا - تنطق بفيض قوة العارضة والزكن والخيال، لا بنية سفك الدماء.

وكان أئمة المثالية الواحدية - الذين شرفهم باعتبارهم خصومه الأساسيين - جميعا أصدقاء قدامى سبق أن نازلهم وناجزهم فى حلبة الصراع والجدل من قبل، وتعلم الكثير منهم: كان فيهم رويس، وبرادلى، وهرمان لوتزى الذى اعتبره چيمس فى العشار الثامن "أعمق فيلسوف"(١٣) فى زمانه. ولقد اتهمهم جميعا بنفس التهمة العامة - ألا وهى أنهم يتقدمون للفلسفة بمعضلة زائفة تحيِّرها بين الوحدة المطلقة وبين الانبتات المطلق.

وعلى الرغم من أن چيمس كان معارضا للواحدية المتطرفة بشكل لا يلين، وخصوصًا للبراهين والحجج المقدمة لتأييدها، فإنه لم يكن أقل معارضة لمذهب من التعددية والانبتاتية المجردتين. كان يؤمن بأن العالم زاخر بالتآلف والعلاقات الوثيقة - حقًا، وأن أكثر مجلى يميز الخبرة هو تفسير شىء بشىء آخر. وهذا يوضح ألحانه الودية حيال هيجل، غير المنبع الأصلى للمذهب الذى نبذه وجحده فى كل من رويس وبرادلى ولوتزى. كان يكن دائمًا لهيجل نوعا من الغرام الخفى، ولكنه كان يصر دائمًا

(12) W.J to H.J.² April 29, 1908; L.W.J., 11, 303.

(13) Studen's notes in Philos. 5, 1884-5, by RW. Black.

على الاجتراء والتجاسر عليه. كان يحبه وهو مجرد من كل زى، عاريا من شعاراته المنطقية. كان يعتقد أن هناك بصيرة هيجلية أنيسة: حقيقة أن الأشياء يشوب بعضها بعضا، ومن ثم تصبح شيئًا آخر غير نفسها.

على أن المطلق الهيجلى كانت فيه ميزة أخرى يحمد عليها ألا وهى؛ الشعور الذى يمنحه لمعتنقيه بأن "كل شىء فى القرار - حسن وخير مع الكون" والإحساس الذى يتيح لهم التمتع "بإجازات خلقية". بيد أن هذه الميزة - فى نظر چيمس - يقابلها فى الكفة الأخرى فى الميزان ثقل يفوقها فى الوزن، وهو مشكلة الشر التى جابهت الهيجلية بشكل ضاعف من جرمها بشدة(١٤).

ثمة ارتباطان بين ميتافيزيقية "كون تعددية"، و"البراجماتية" التى سبقته:

أولاً، الأولى تطبيق للثانية، فالطريقة البراجماتية والمعيار البراجماتى للحقيقة يطبقان مرارًا وتكرارًا على البرهنة على التعددية وعلى دحض الواحدية.

وثانيًا، الثانية تطبيق للأولى، بمعنى أن التفسير البراجماتى للمعرفة يهيئ حالة خاصة للميتافيزيقا التعددية.

ولقد كتبت مقدمة "معنى الحقيقة" فى أغسطس سنة ١٩٠٩، بعد ما يزيد على عام بعد إلقاء محاضرات هيبرت. وفى هذه المقدمة سوغ چيمس تجميع مقالاته الجدلية عن البراجماتية بقوله: إنه يعتبر قبول التفسير البراجماتى للحقيقة بمثابة إزالة العائقين من وجه تلك "التجريبية الراديكالية" التى كان مهتما بها بصفة أولية. فالبراجماتية لا تهيئ فحسب مجرد طريقة يمكن استخدامها فى الميتافيزيقيا، وإنما تمد بميتافيزيقية للحق

(14) P.U., 114, 116. cF. the Preface to M.T. viii-x, where James withdraws this last concession to monism.

تتناغم مع تلك الميتافيزيقيا العامة التى يدافع عنها چيمس، عن طريق إحضار سبيل المعرفة برمتها فى نطاق مجال الخبرة.

وجدير بالذكر أنه فى سنة ١٩٠٤، عندما كان چيمس يحمل ويلخص ميتافيزيقيته، تحدث عنها على اعتبار أنها تتكون من أربعة مذاهب: التعددية، التجريبية الراديكالية، الصدفية، مبحث الألوهية. فكونه التعددى (A Pluralistic Universe) ينصب اهتمامه بصفة أولية على الأول والثانى من هذه المذاهب، وإن كان الرابع قد أعيد توكيده ثانية. وأما الثالث فيشكل أبرز ملامح المؤلف الأخير باسم "بعض مشكلات الفلسفة" الذى انهمك فيه چيمس قبيل موته.

والتعددية، كما نعرف، تكاد تكون معاصرة لنضج چيمس الفلسفى. وتكمن جذورها الشخصية فى حبه للتنوع والتعدد والتغير، وجذورها الأخلاقية فى إبائه وبغضه للتصالح بين الخير والشر، أو للحط من شأن الفردى الذاتى ضد الكونى والعالمى، وأما جذورها الفلسفية فتكمن فى تجريبيته الأصيلة. ولقد أدت حوافز النوع الأول إلى تمثيله الباهر الرائع لعالم بلا قيود ولا سدود ولا حواجز، عالم غير مدمث، بلا أناقة ولا يمكن التنبؤ به، عالم ينسل من خلال كل وعاء مثالى ويقاوم بصمة كل قالب منطقى. وأفضت حواجز النوع الثانى إلى اتجاه تعددية أخلاقية أو ذرية "جمهورية من الوعييات شبه مفصولة"، بإله متناه، تحله حدوده، وتبرئه علاقاته الخارجية من مسئولية الشر.

أما الحافز الثالث، فقد كان الحافز الذى ساد "الكون التعددى". ففى العالم، كما هو معطى فى الخبرة، فإن الارتباطات بين الأشياء – ارتباطات فى الواقع – فعلا بدلا من أن تكون ضرورية أو بنيوية. فثمة انطلاق و"لعب حر" لأجزاء العالم مع بعضها، فهى "تتكئ" بعضها على بعض، وتوجد مع بعضها، ولكن دون فقدان لشخصيتها الذاتية. فالأشياء حقيقة، عدديا، فى "شكلها الكل واحدى" أكثر مما إذا أخذت معا فى "شكلها

الكل جمعى". وكل شىء فى العالم له بيئة حقيقية، أى علاقة بشىء يختلف حقيقيا عن الشىء نفسه، يضطر إلى ملاقاته وعمل حسابه دون أى نوع من الاشتراك السابق (فى الجريمة)[١٥].

وعلى هذا فإن التعددية فى هذا المعنى لا يمكن تمييزها عن "التجريبية الراديكالية" التى تشكل، من ثم، الموضوع الرئيسى للكتاب. والتجريبية الراديكالية تتآلف بالضرورة من تحويل إلى حاجات وعائدات الميتافيزيقيا، ذلك "التيار من الوعى" الذى دبر فى الأصل لعلم النفس. وكان من الضرورى إجراء بعض التعديلات، وكان من المشكوك فيه لمدة طويلة إمكان إجراء تلك التعديلات. وإذا بكتاب "الكون التعددى" يعلن أن الشك قد تبدد. والنتيجة هى إسكات تلك النوبات الحادة من تأنيب وتبكيت ضميره الفكرى، التى – حتى ذلك الوقت – حالت دون اتخاذ خطوة دفعته إليها دفعا حميته التأملية، ألا وهى اتخاذ السلم التصاعدى الفشنرى للأرواح[١٦].

وكان هناك بالنسبة لچيمس – مثلما كان فى الحقيقة – فشنر. فعندما كان چيمس يؤلف كتابه علم النفس، كان كتاب فشنر (علم النفس الجسمى)، (Psychophy- sik) مرجعا معترفا به من قبل يحتل مكانة كلاسيكية فى علم النفس التجريبى الحديث. ولقد استقى منه چيمس كثيراً من الإيعازات والإلماعات المتعلقة بالخيال والتصور والرنو والانتباه والتمييز والإدراك الحسى. ولكن فيما يتعلق بالمذهب الأساسى للكتاب فقد كان چيمس على خلاف عميق معه. لقد كان فشنر "رجلا عظيم المعرفة والحذق العقلى" ولكن بالنسبة للقانون "النفس جسمى" العظيم الذى بنيت عليه شهرته باعتباره عالمًا نفسيًا بصفة رئيسية، فقد كان "نزوة مرضية" من قبل "الرجل العجوز العزيز" أوحت بمؤلف

(15) P.U., 34, 321-3, 358-9.

(16) G.T. Fechmer, Cf. above, 181.

مفزع جدا لدرجة أن چيمس رفض. حتى أن يدخله فى حاشية أو تعليق يذيل بها صفحة من صفحاته(١٧).

أما فشنر الثانى، فقد كان الميتافيزيقى الذى تصور الكون باعتباره سلسلة من الأرواح المتراكبة المتداخلة بعضها فى بعض - على معراج - من الله خلال الملأ الأسفل إلى الإنسان، ومن الإنسان إلى الحالات النفسانية التى تقع أسفل مدخل أو عتبة الشعور. وأوهج هذا التأمل الجرىء خيال چيمس وأثاره، وفى نفس الوقت أرضى حافزين فى تفكيره: فقد كان دائمًا واقعا تحت إغراء وجهة النظر النفسانية الشاملة للطبيعة المادية، ثم إن تفكيره الدينى مضى برسوخ وثبات فى اتجاه الفرض القائل بوعى قدسى (فوق الإنسان).

ولقد كتب إلى أصدقائه فى سنة ١٩٠٧، ممتدحا كتاب فشنر (Zend-Avesta) فقال: "كتاب مدهش بقلم عبقرية مدهشة"(١٨)، ثم كرس فصلا كاملا من كتاب "كون تعددى" لعرض تعاطفى ودى لمذهبه.

ولكن الصعوبة القديمة التى أفضت بچيمس إلى نبذ الترابطية طبقت هنا أيضًا. فمجال الوعى ليس مجرد حشد - على الجملة - من أجزاء تنفصل وتمرع، ولكنه تيار مستمر دافق، وكل لحظة من الوعى هى كل فريد فذ. هذا، فى حين أن ميتافيزيقية فشنر كانت ترتكز من الألف إلى الياء على تنظيم هرمى للوعى، سلسلة من المستويات تتألف فيها وحدة الأعلى من تعددية الأسفل.

فى كتاب "كون تعددى" يصف چيمس رفضه السابق "لمزج الوعى"، والتغير التدريجى الذى طرأ على عقله. وفى مذهبه الخاص "بالخبرة الصرف" فإن چيمس كان

---

(17) Psychology, 1, 434-49.

(18) To Th. Flournoy, January 2, 1908; L.W.J., 11, 300.

– على سبيل الجزم – ملتزمًا بوجهة النظر القائلة بأن الواقع ومجال الوعى شىء واحد. وهذا يتضمن أن أفساحا من المجال من الممكن أن تكون مشتركة بين عقلين أو أكثر. بمعنى أنها بعبارة أخرى، من الممكن أن تكون أجزاء متشابهة من كليات واعية مختلفة. وكان من الواضح أن شيئًا لا بد أن تخف حدته، إما الميتافيزيقيا الجديدة للخبرة أو الوساوس السيكولوجية القديمة. وكانت هذه هى الأزمة التى أدت إلى بزوغ الوثيقة الهائلة الأخاذة التى سبقت الإشارة إليها، والتى تمتد فى شكل مذكرات يومية متغيرة، من (١٩٠٥ – ١٩٠٨) من لحظة تبنيه الحاسم لموقف التجريبية الراديكالية إلى وقت كتابته لمحاضرات هيبرت. وهذه هى الصعوبة، ويظهر أنها هذه الوثيقة، التى يشير إليها چيمس فى كتابه "كون تعددى" عندما يقول: لقد صارعت هذه المشكلة لسنوات، سوَّدت فيها مئات من الصفحات، مع تفاسير وشروح ومذكرات ومناقشات مع نفسى حول المشكلة"[١٩].

بيد أنه وجد حله، على طريقته المعهودة فيه الخاصة به، فى فحص واستقصاء أوثق للخبرة، وفى نفس البصيرة التى قدم عنها تقريراً فى سنة ١٨٨٤، فى مقال الشهير بعنوان: "عن بعض محذوقات علم النفس الاستبطانى". فالوحدات العديدة للخبرة لها كلا اختلافها وتشابهها، ويمكن إدراكها وتصورها تحت أى من الوجهين. فى بعض. "ثمة انتضاح للأجزاء المتاخمة الملاصقة للخبرة الحية"[٢٠]. والعالم مسرح لتطور موصول وانتقال دائم، وأجزاؤه، بدلا من مجرد تتابعها وراء بعضها، ترث بعضها بعضًا وتدخل وتقدم بعضها بعض. ولا ينقضى حادث ويلفظ أنفاسه حتى يكون غيره قد بدأ فعلا، بحيث إنه توجد دائمًا منطقة تمرج بين الفجر والسحر يفضى خلالها الواحد إلى الآخر. ولكن فى حين أن كل موضوع يلتحم من ثم فى نسيج الواقع، فإن

---

(19) P.U., 207-8. See above, 279.

(20) Mind, IX (1884).

خيوطه لا تمتد لا إلى مسافة محدودة، بحيث إنها لا ترتبط إلا بطريقة غير مباشرة بالمناطق الأبعد.

وعلى الرغم من أن عنوان الكتاب "كون تعددى" فإنه قصد به توكيد كلا التعدد والوحدة. فإذا كان چيمس قد رغب فى تحاشى الصعوبات النظرية للواحدية، فإنه لم يكن أقل رغبة فى تحاشى الصعوبات النظرية للذرية، والثنائية أو أية وجهة نظر أخرى تستبعد فيها الوحدة مقدما. كان يبحث عن وجهة نظر تجيز الوحدة، بقدر ما تتطلب المقتضيات النظرية، أو بقدر ما يمكن للوقائع أن تسفر عنه، أو بقدر ما يشتهى الشعور الدينى. ومن ثم، فبينا لا يوجد "تضمين مشترك عام أو تكامل لكل الأشياء المتداخلة" توجد وحدة من نوع "التسلسل الإحداثى، من الاستمرار، من التتاخم أو التحلق"(٢١). فالكون ليس كتلة أو كائنا حيا، ولكنه بحر صالح للملاحة فى كل أبعاده وأعماقه. جيرة كبيرة تحتضن جيرات أقل، ولوجه عام وشامل، والتآلف الوثيق فيه يكون بنسبة القرابة والتقارب.

هذه هى صورة الوجود المحسوس. بيد أن هناك صورة أخرى عرف چيمس جيدا كيف يرسمها، ألا وهى صورة عالم مختار "خارج من أعماق مجرى الزمان"(٢٢). وهذا الحافز للاختيار هو أحد الحوافز الأرومية فى تفكير چيمس. فلقد ساد مفهومه للعقل وتفسيره للمفاهيم ونظريته البراجماتية للمعرفة الاستطرادية. وكون هذا الحافز كان ينبغى جعله تبيعا فى هذا العمل الأخير من مؤلفات چيمس. يزودنا ببينة قاطعة على أن الميتافيزيقيا كانت مركز اهتمامه الفلسفى الرئيسى، وأن التجريبية كانت عقيدته الفلسفية الرئيسية - تجريبية جديدة - ترسم فيها الفلسفة الواقع أو توحى به - بالقياس إلى أقرب ما يمكن من السريان المرهف الحس للخبرة التى لا يعاد بناؤها.

---

(21) P.U., 325.

(22) Ibid., 235.

وثمة عنصر آخر من فلسفة جيمس أغفل إلى حد كبير فى هذا المؤلف، وهو واقعيته. فليس ثمة سبب لافتراض أنه هجر عقيدة أكدها مراراً وتكراراً ودافع عنها دفاعًا قويًا ضدد ناقدى البراجماتية فى نفس الوقت بالذات الذى كان يكتب فيه كتابه "كون تعددى".

ولكن فى غياب أية إعادة فحص للمسألة، فإن موقف جيمس ظل غير مؤكد ومترددا بالنسبة لنقطة ميتافيزيقية فى الدرجة الأولى من الأهمية. هل لا بد للواقع من أن يدرك ويحس أو يستشعر لكى يكون؟

ولما كان جيمس يرفض التحديد العقائدى للوجود القائم على الاعتقاد بأن الشخص المؤمن بهذا الاعتقاد هو وجوه الموجود، وأن الناس الآخرين لا يوجدون إلا باعتبارهم أفكاراً فقط فى عقله، ولما كان جيمس يرفض هذا التحديد للوجود أو حتى التحديد الإنسى للوجود، فإنه مثله كما لو كان ممتدا وراء أفق الوعى الإنسانى، ممكن الولوج، ولكنه خارج المجال أو المدى أو المرمى. مم إذن يتألف هذا الوجود المستقبلى من حيث البعد؟

وفى نبذه للمطلق، حذف جيمس بديلاً واحداً، ألا وهو البديل القائل بأن كل الوجود يسكن فى داخل خبرة عقل كونى شامل أعد خاصة لهذا الغرض، ولكن تبقى هنالك ثلاثة أبدال. فالوجود الركازى (المتخلف) قد يحتوى إمكان الخبرة، وهى وجهة نظر من الصعب التوفيق بينها وبين إقرار جيمس المتكرر بأن أى إمكان لا بد دائمًا أن يؤول بالقياس إلى الفعلية (التى هى فى مقابل الإمكان). أو قد يتألف الوجود الركازى من خبرة عقول دون بشرية، من كل شىء ليس للإنسان أو ملأ أعلى يتصور على أنه "لذاته". وهذا هو المذهب الكل نفسانى، الذى كان جيمس على وشك قبوله مراراً وتكراراً، والذى امتدحه باستمرار. ولكنه لم يسلم به أبدا صراحة دون تحفظ.

ثم يبقى بعد ذلك بديل واحد أخير فقط، هو الذى يميز الخبرة مما يختبر أو يمارس. وفى هذه الحالة فإن الوجود إذن يتطابق مع محتوى الخبرة أى يصاحبها (فى الوجود) ولكنه يكون مستقلا عن أى فعل للممارسة من جانب العقل. وهذا البديل هو أكثرها تناغما مع نظرية چيمس بأن العقل نمط خاص غريب من العلاقة بين الحدود التى هى فى ذاتها لا هى مادية ولا هى عقلية[٢٣]. و"كون تعددى" لا يؤكد بوضوح هذا البديل، بل هو يعرضه للهوان ويحط من شأنه عن طريق مطابقة الوصول الوعيى للخبرة بالوعى، كبيرًا وصغيرًا.

ولقد كان فى هذا الكتاب بالذات "كون تعددى"، حيث تحدث چيمس بكل صراحة ووضوح عن الاتحاد بين التجريبية والدين، على اعتبار أن ذلك يفتح عهدًا جديدًا لكل من الدين والفلسفة على السواء. والميزة التى يحققها هذا الاتحاد للدين تكمن فى تهيئته لصلة وثيقة بين الإنسان والله لا تتحامل لا على حرية الإنسان ولا على سماحة الله. ويمكن وصفها بأنها أحدية تعددية، تعددية لأن - كما سبق أن عبر چيمس من قبل فى مؤلف سابق - "الله ليس ممارسًا كليًا محيطًا مطلقًا، وإنما هو فقط الممارس لأوسع وأعم وأشمل فترة وعيية واقعية" إذ له مثل الكائنات المتناهية الأخرى بيئة خارجية ليس مسئولاً عنها[٢٤]، وأحدية لأن الله، بقدر ما تمتد حدوده "هو الروح الوثيقة والعقل للكون" الذى يشاركه الإنسان فى حياته بطريقة مباشرة بوساطة الحالة الصوفية. وعندما تحدث تلك الحالة تختفى صفة معينة من العزل كانت قبلاً تميز وعى الإنسان،

(23) This is the view, sometimes referred to as "neutralism", which has been explicitly developed by those later realists who have taken James' "Does Consciousness Exist?" as their point departure.

(24) M.T., 125; P.U., 310-11.

تاركة ذلك الوعى المشترك، الذى كان من قبل مقصوراً على الله فقط، ولكنه أصبح الآن للإنسان منه نصيب(٢٥).

وفى الصفحات الختامية لكتاب "كون تعددى" ربط چيمس بين ميتافيزيقيته الأخيرة وبين الصيغ المبكرة لفلسفته. ونظرية الكتاب هى فرض "التجريبية الراديكالية" مدافعاً عنه ضد اعتراضات "المذهب العقلى"، والذى أثبتت الخبرة صحته. ولكن إثباته ليس قطعياً باتاً بما فيه الكفاية لكى يستبعد فرض الواحدية المنافس، وهو عند چيمس "أكثر الفروض احتمالاً" ولكنه لا يتوقع أن خصومه ومعارضيه سيعترفون بهذا الاحتمال على اعتبار أنه ملزم. والذى يأمل چيمس حقاً فى بلوغه، وخصوصا من جانب المفكرين الشباب، هو نوع من التقبلية التلقائية للبديل التعددى وضرب من الانتباه البراجماتى - بالممارسة التى لا مناص منها "لإرادة الاعتقاد" لديهم - للخبرات المحسوسة الملموسة و"لمفردات الحياة".

وكان چيمس يشعر بالثقة فى نجاح آخر كتبه، ولقد تحققت توقعاته على الفور، وبعد ظهوره حالاً كتب إلى فلورنوى قائلاً:

"من الجلى فعلا، من الرسالات التى تهطل علىَّ عن كتاب "الكون التعددى" أن الكتاب أولاً: سيقرأ. وثانياً: سينبذ نبذ النواة بالإجماع تقريباً فى أول الأمر، ولأسباب مختلفة جدا، ولكنه ثالثاً: سيظل يباع ويشار إليه، وسينتهى بأن يؤثر تأثيراً قوياً فى الفلسفة الإنجليزية"(٢٦).

ومن أول الذين هللوا وصفقوا لهذا المؤلف الأخير، كان أخوه هنرى الذى ظل دائماً على إخلاصه وحفظه للعهد. وذلك أن العطف والحب اللذين يربطان وليام هنرى

(25) Cf. P.U., 28-31, 299-309, etc.; V.R.E., 388, and Mind VII (1882), 206; M.S., 201-6' C.E.R., 489-90. •

(26) Lune 18, 1909' L.W.J., 11, 324.

منذ الصبا، استمرا طوال حياتهما على الرغم من شواغلهما وأعبائهما المتزايدة، وعلى الرغم من بعد الشقة بينهما وطول الفراق الجسماني. بيد أن تعليقات وليام على كتابات هنرى - انتهت آخر الأمر - إلى خلاف فى الرأى لا سبيل إلى إخفائه أو ستره. والمعروف أن هنرى لم ينحرف قط بشكل جدى عن مساره أو مجراه نتيجة لنقود وليام، وإنما مضى إلى غايته يشق طريقه بهدوء وتواضع ولكن برسوخ وثبات وحزم. وأخيراً جهر بالقول - فى رفض - لم يكن أقل حزما ولا عزما لكونه ملونا بصيغة من عادة الخضوع التى صاحبته طوال حياته والتى لا سبيل إلى استئصالها.

كتب إليه وليام فى اليوم الثانى والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٠٥:

"قرأت كتابك "الكأس الذهبية" منذ شهر مضى أو أكثر، ولقد وضعنى، مثلما وضعتنى معظم قصصك الطويلة الحديثة، فى حالة عقلية محيرة ومربكة وملغزة جدا. إن طريقة القص بحسن الإفراغ المزخرف المطول للإشارة الإيحائية. ضد مشرب كل نوازعى فى الكتابة، ومع ذلك، وعلى الرغم من كل ذلك، فثمة تألق ووضوح فى التأثير. وفى هذا الكتاب بصفة خاصة يوجد جو اجتماعى عالى النغم، بحيث إنها جميعًا تجعله فذا وفائقًا. إن طرائقك وأفكارى تبدوان على طرفى نقيض، ومع ذلك فلزام علىّ أن أقر بنجاحك الفائق فى هذا الكتاب. ولكن - لماذا لا تجلس - ولو من أجل أن تسر أخاك فحسب - وتكسب كتابًا جديدًا دون سحر أو غبشة الليل أو عفن فى أحبولة القصة، وبنوع من الحيوية والقوة والعنفوان الشديد، الحسم فى الأداء، والحركة فى سياق الأحداث، ودون حواجز فى الحوار، ودون تأويل وتفسير وشروح وتعليقات سيكولوجية، مع استقامة مطلقة فى الأسلوب؟ انشره باسمى وسأعترف به وسأعطيك نصف الحصيلة. حقًا وجديا كم أتوق إلى أن تفعل ذلك لأنك تستطيع ذلك، وأعتقد أن ذلك سيغريك بأن تباشر "حالة رابعة".

ورد عليه هنرى بالجواب التالى[٢٧]:

فى نيتى (استجابة لما كتبت لى عن قراءتك لقصة الكأس الذهبية) أن أحاول - مجازفًا - إنتاج شىء غريب - فى القصة الخيالية - يرضيك باعتبارك أخًا - ولكن اسمح لى أن أقول لك يا عزيزى وليام سأشعر بالمهانة الكبرى إذا أحببته بالفعل، ومن ثم، تكومه فى غمرة استلطافك، مع بقية ركام

(27) November 23, 1905; L.H.J. ², 11, 43-4.

العصر الدارجة، والتى سمعتك تعبر عن إعجابك بها، والتى خير لى أن أغيب فى ظلمات قبر شائن من أن أسمح لقلمى بأن يخطها. ومع ذلك فسأكتب لك كتابك الذى تريد على نظام ٢ + ٢ = ٤، الذى يتم بمقتضاه إنتاج كل ذلك الغث الرث من بضاعة الشحن التى تحيط بنا، وبعد ذلك أهبط إلى غيابة جب قبرى الشائن، رافعا لواء فن القلم الإردواز بدلا من فن الفرشاة الأطول. ولكن، على سبيل الجد، فالوقت الآن متأخر جدا بعد منتصف الليل، وأنا فى غاية التعب والإجهاد، بحيث لا يمكننى أن أعبر عن نفسى بشأن هذه المسألة، أكثر من القول بأننى أشعر بالأسف دائمًا عندما أسمع عن قراءتك لأحد مؤلفاتى، وأننى أتمنى دائمًا ألا تقرأه، بيد، لى أنك بسليقتك عاجز عن التمتع بما أكتبه، ومن ثم فأنت محكوم عليك بأن تنظر إليه من وجهة نظر غريبة جدًا وبعيدة جدًا، عن وجهة نظرى فى كتابته، وإلى الظروف التى انبثق منها ما أكتب حتما، بحيث إن النيَّات والمقاصد التى كانت الداعى الرئيسى لما أكتب (لكونها فىَّ أنا) يبدو أنها لم تبلغك مطلقا، بل إنك لتبدو كمن يفترض أن الحياة والعناصر التى تؤلف مادة كتابتى تحيد عن الموافقة وتنحرف عن الحظ فى كونها تفتقر إلى استحالة القياس بحياة كمبريدج. إننى لا أرى من حولى فى أى مكان - يؤدى أو يحلم به - الأشياء التى هى وحدها عندى تشكل الاهتمام الخاص بعمل القصة، ومع ذلك فإنه فى التضحية بها - على نفس أساسها ذاته - يتألف الشىء الذى تقترحه علىَّ لا مراء. وإن ذلك ليشهد بمدى ما بيننا من بعد، ومدى ما بيننا من اختلاف فى الأهداف والمآرب فى حياتنا الفكرية (أمر طبيعى جدا وفى غاية السداد). وعلى الرغم من ذلك فى وسعى أن أقرأك بنشوة واسترواح واستغراق، فلقد قضيت منذ ثلاثة أسابيع، ثلاثة أيام أو أربعة مع مانتون ماربل[٢٨]، فى برايتون، وجدت لديه عددًا كبيرًا جدًا من مقالاتك وأحاديثك القريبة العهد، ولقد أتاحت لى فترات الصباح فى غرفتنى وقت والفطور والغداء هنا (وفقًا للعادة المتبعة فى البيت) أن أجد وقتا لقراءة العديد منها، والنتيجة أننى كثيرًا ما رأيتها بين يدى البعض هنا فى أرفنج ستريت، وممن هم ليسوا أخاك. ولم يتسن لى أن أقرأها هناك. وموجز القول إننى - فلسفيًا - معك وأؤيدك تأييدا يكاد يكون كاملا".

وليس ثمة بينة على أن هنرى چيمس كان لديه المزاج أو الفراغ ليتشرب أو يستفيد من كتاب أخيه "علم النفس" أو أنه اهتم بصفة خاصة بكتاب "إرادة الاعتقاد" عندما ظهر ذلك المجلد فى سنة ١٨٩٧، وفى يوليو سنة ١٩٠٢، قرأ هنرى چيمس كتاب "الأنواع المختلفة للخبرة الدينية" بتأمل استرواحى

(28) Manton Marble of Brighton, England, writer on politics and history.

وأناة صبورية[٢٩]، ولكنه لم يعلق على الكتاب. ولم يهتم اهتماما كافيا بمحتوى تفكير أخيه لدرجة تحمله على التعبير عن تفكيره نفسه وتفسيره، حتى نشر كتاب البراجماتية فى سنة ١٩٠٧، وعندئذ فقط وفى السابع عشر من أكتوبر أعلن مشايعته على النحو التالى:

"لماذا لم أكتب لك بعد قراءة كتاب "البراجماتية - لماذا امتنعت عن ذلك؟ ذلك ما لا أستطيع تفسيره الآن إلا بنفس حقيقة سحر الكتاب ذاته وما أثاره فى نفسى من شغف وفتنة. كل ما أستطيع أن أقوله إننى غرقت تحته إلى أعماق بعيدة الغور من الامتثال والتمثيل والتمثل، لدرجة أن أى رد فعل من قبلى، ولو بتسلم الكتاب ربما كان - تقريبًا جدا - ينضح بشائبة الخلف أو الهروب. ثم بعد ذلك ضعت فى العجب والدهشة من معرفتى لمدى ما "تبرجمت" طوال حياتى تماما مثلما اكتشف (المسيو جوردان فى مسرحية موليير من أنه ظل أربعين عاما يتكلم النثر دون أن يدرى). إنك على صواب، بكل اتساع وضخامة وانفساح وشمول وإحاطة. أنت على حق. إننى أشعر أن قراءة هذا الكتاب - على أية حال ومهما كان - الحادث الفريد الفذ لصيفى هذا"[٣٠].

وأثارت كتابات چيمس - التى ألفها بعد ذلك - عبارات أخرى شبيهة تنطق بحوارية هنرى لأخيه. فعندما تسلم هنرى نسخة من كتاب "كون تعددى" كتب إليه فى الثامن عشر من يوليو سنة ١٩٠٩ ما يلى:

"قرأته إبان وجودى بالمدينة، بشغف ونشوة لا سبيل إلى وصفهما بسحر وافتتان يخلبان اللب، بإحساس بالزهو، وأكاد أقول بفهم. ولعل مما يشد أزرك ويلهمك ولو قليلاً أن تعلم أننى معك على طول الخط، ولا أستطيع أن أتصور أى معنى فى أية فلسفة ليست لك. وباعتبارك فنانًا و"خالقًا" فإن فى وسعى أن أغنم البراجماتية وأمسك بها وأن أعمل فى ضوئها وأطبقها، واجدا كل شىء آخر، بالقياس إليها (بقدر ما أعرف نفس الشىء) منبتا وعديم الجدوى على الإطلاق، متوازيًا باطلاً وباردًا".

---

(29) H.J. ², TO W.J., July 4, 1902.

(30) L.H.J. ², 11, 83.

بيد أن الاستجابة النهائية أثيرت عند نشر كتاب "معنى الحقيقة" فى خريف سنة ١٩٠٩:

"لقد سجلت ما يعتمل بنفسى ثم كففت عنه فى الليلة الماضية وأويت إلى فراشى والآن يطيب لى أن أضيف بضع ملاحظات بعد يوم هادئ عديم المطر وعديم العواصف بشكل يكاد يكون معجزة. وكاد اليوم كله يمضى على ما أشتهى، لولا أن حدث فيه ثقب محزن من جراء زيارة من شاب من نيويورك (سرق) منى الساعة أو الساعتين اللتين خصصتهما قبل موعد وجبة المساء على أمل الانتهاء من قراءة "معنى الحقيقة". ولكننى قطعت شوطا بعيدا منذ انتهيت من تلك الوجبة، وقد تجددت حماستى بعد أن شبعت وارتويت. إنك يقينا تجعل الفلسفة شهية وطلية وحية، أكثر من أى إنسان جعلها كذلك من قبل، وإنك لتفعل ذلك بطريقة مبدعة خلاقة حقا لا سبيل إلى محوها من الذهن، بحيث إن كل ما تكتب يحرك وعيى "الخلاق" ويتغلغل فى ثناياه، ويلهم بصيرتى الفنية بأنفس منابع الإلهام وأقوى سبل التطبيق. شكرا للقوى - أى شكرا لقواك - من أجل فلسفة صحيحة ثابتة ميسورة الهضم يمكن الرجوع إليها والاستقاء منها فلسفة مرتبطة ببقية حياة المرء العقلية، والتى تختلف عن غيرها من الفلسفات التى لا ترتبط بحياة المرء الفكرية إلا كما يرتبط الطائر بالسمكة.

وموجز القول، يا وليام الأعز، إن أثر هذه الصفحات المجمعة بين دفتى هذا المجلد - والتى سبق أن قرأتها كلها، متفرقة - عمل عظيم فائق يستحق الإعجاب والتقدير إلى أقصى حد، إلى حد التقديس، بحيث إننى من جانبى براجماتى البيئة والتركيب بشكل منيع حصين لا يقبل الإقامة"(٣١).

ويتضح من هذه الرسائل أن هنرى سمح لوليام بأن يقوم له بعملية التفلسف. وليس فى وسعى إلا أن أقرر - على سبيل الجزم - كما يتوقع القارئ - أن عقله كان فى غاية السذاجة - بل كان غفلا فى هذه الناحية، وأن إقراره بالموافقة كان امتدادا لذلك الزهو المعجب الذى رنا به منذ نعومة أظفاره إلى منجزات وليام الأرفع والأسمى والأجل.

---

(31) H.J. [2], to W.J., November 1, 1909; L.H.J. [2], 11, 141.

بيد أن العلاقة لم تكن تناسبه. فبالنسبة لعمل هنرى، أباح وليام لنفسه - بغير تقيد - أن يعطيه النصيحة وأن يرشقه بسهام النقد على السواء. فى حين أن هنرى بالنسبة لعمل وليام ما كان فى وسعه إلا المديح والإطراء بلا تمييز.

لم يعطهما العلم أرضا مشتركة، ولقد استطاعا أن يلتقيا على هذه الأرض المشتركة فى الأدب وفى الفن، وفى خبرتها فى الحياة، وفى العالم من حولهما، وفوق كل شىء فى حبهما العائلى العميق الجذور الذى قوى ونمى بمضى السنين.

(٣٦)

چيمس وبرجسون

ليس ثمة أدنى ريب فى أن أهم تعلق فلسفى وشخصى لسنوات چيمس الأخيرة – كان ذلك التعلق الذى توثقت عراه مع هنرى برجسون.

ثمة تقرير فرنسى للمؤتمر الدولى الخامس لعلم النفس – الذى عقد فى روما سنة ١٩٠٥ – والذى ألقى فيه چيمس بحثه عن "فكرة الضمير: La Notion de Conscience"، يحتوى العبارة التالية:

"لا أحد يجهل – وهو نفسه قد جاهر بهذه الحقيقة باستمرار – ما يدين به فيلسوفنا الماجد – جهبذ التحليل – م. برجسون فى مطلع حياته الفلسفية لمؤلفات الأمريكيين.. إذا كنا قد اقترضنا علم نفس من أمريكا، فقد أعطيناهم فى مقابل ذلك فلسفة، فقد كان من المستحيل أن نجد فى بحث وليام چيمس شيئًا آخر غير المذهب البرجسونى الخاص بأولية الفعل"[1].

واستدعت هذه العبارة من برجسون الرد الفورى الحاسم التالى:

فيما يختص بالإشارة إلى وليام چيمس: إنه فيلسوف لا أستطيع أبدًا أن أعبر تعبيرًا كافيًا وافيًا عن حبى له وإعجابى به. لقد ظهر كتابه "مبادئ علم النفس" فى سنة ١٨٩١ .

---

(1) Translated from Revue philos., LX (1905), 84; Bergson'n reply is from op. cit., 229-30.

وأما مقالتى[٢]، فقد اختيرت وكتبت بين ١٨٨٣ و١٨٨٧، ونشرت فى سنة ١٨٨٩ . وفى ذلك الوقت لم أكن أعرف شيئًا عن چيمس سوى دراساته الطبية عن الجهد والانفعال. (ولم أكن على علم بالمقال الذى ظهر فى مجلة "العقل" فى يناير سنة ١٨٨٤، الذى احتوى فعلاً جزءًا من الفصل الخاص "بتيار التفكير"[٣]. وبعبارة أخرى فى نظريات "المقالة" ما كان من الممكن أن تستقى من علم نفس چيمس. وأسارع إلى أن أضيف إلى ذلك أن مفهوم "فترة المكث الحقيقية" الذى أبرزته فى مقالتى يتطابق فى نقاط كثيرة مع وصف چيمس "لتيار التفكير". ولكن إذا شاء امرؤ أن يفحص النصوص فسوف يجد بسهولة أن "وصف تيار التفكير" ونظرية "فترة المكث الحقيقية" ليس لهما مغزى واحد، ولا يمكن أن ينبثقا من نفس المصدر. فمن الجلى أن الأولى سيكولوجية فى المصدر والدلالة والفحوى، فى حين أن الثانية تتألف جوهريًا من تقدير انتقادى لفكرة الزمن المتجانس كما يجدها المرء عند الفلاسفة والرياضيين. ومن ثم، وعلى الرغم من أننى لست ذا أهلية للتحدث نيابة عن وليام چيمس، فإنى أعتقد أن فى وسعى أن أقول إن التأثير "البرجسونى" لا يعزى إليه أى شىء، ولا يحسب له أى وزن مطلقًا فى تطور فلسفته. وأعتقد أنه ينبغى علىَّ أن أصر على هاتين النقطتين، لأن المقال. يعرض باعتباره حقيقة عفوية ومحلية.. حركة أفكار ظهرت فى الأفق سنين عددًا فى كل مكان، وهى تنجم من أسباب عامة وعميقة. ففى كل بلد وعند كثير من المفكرين، شعر الناس بالحاجة إلى فلسفة تجريبية – أصيلة – أوثق صلة بالمعطيات المباشرة، من الفلسفة التقليدية التى اصطنعها مفكرون هم أولاً وقبل كل شىء رياضيون".

وينبغى قبول هذا البيان على أنه تسوية نهائية لمسألة الأسبقية، فلم يدع أحد من الفيلسوفين أبدًا حق الأسبقية. بل لقد طرب كل منهما فى أن يجد الحقيقة لدى الآخر، وكان كل منهما فى غاية التقدير والإعجاب – بدرجة تكاد تتجاوز الحد – لميزة وفضل الآخر.

---

(2) Essai sur les données immédiates de la conscience, Bergson's first immtant work.

(3) "Some Omissions of Introspective Psychology", Mind, IX (1884). The "studies of effort and emotion" were "The Feeling of Effort", 1880 and "What Is an Emotion?" 1884. The former had appeared also in French in the Critique philos.

بيد أن التشابه بين مذهب الاثنين ليس كاملاً ولا شاذاً، ثم إن هذا التشابه بحد ذاته لا يشين ابتكارة ولا أصالة أى الفيلسوفين.

وكل الأسباب والدواعى تومئ إلى السر فى كون چيمس وبرجسون انجذبا أحدهما حيال الآخر. فكلاهما رجل عميق الإنسانية. وكلاهما صاحب درجة معينة من الإحساس الفنى، غير المألوف لدى الفلاسفة، وكلاهما أستاذ بارع رائع من أساتذة الأسلوب النثرى.

صحيح أن أسلوبيهما مختلفان اختلافًا بينا. فچيمس يستعمل لمسات أوسع وأفسح، وأسلوبه أكثر دراجية وتداولية، وأزخر بالدعابة والتوكيد والإطناب، فى حين أن أسلوب برجسون أسلوب عف محصن، غير شخصى، يتميز بالكبح والتقييد. كان فى چيمس شخص من سجية كاتب العجالة أو النبذة. فبعد كتابه "علم النفس" كانت كل مؤلفاته وأعماله إما محاضرات أو مقالات خاصة، كتبت وقد وضع نصب عينيه تأثيرها المباشر على جمهور من المستمعين أو القراء، أو على خصم فلسفى يبتغى إفحامه.

كان تواقًا إلى أن يفهم مباشرة، وكان دائمًا ميالاً بدافع المروءة والشهامة إلى أن يتحدث بلغة مستمعه لكى يفقه قوله وينال إنصاتًا وإصغاءً.

فى حين أن برجسون كان يكتب مؤلفات نظامية مرتبة ترتيبًا منسقًا حسب القواعد، وينقحها ويجوِّدها وفقًا لمطالبها ومقتضياتها الداخلية، ويتوقع آثاراً خالدة شبيهة تعالج وتدرس من حيث هى آثار خالدة بحد ذاتها ووفقًا لشروطها.

وحتى مع ذلك، فكلا الكاتبين ثري فى الاستعارات والبديع وصور الخيال، وفى قوة عارضته وإيحائه البدهى. وفقًا لعقيدتهما المشتركة، فإن الواقع لا يمكن تحليله أو وصفه، وإنما يمكن نقله فقط، وكلاهما كانت لديه مقدرة غير عادية على نقله.

وثمة اختلافات كثيرة أيضًا فى مذاهبهما الفلسفية. ونظراً لأن نظام كل منهما نشأ وتطور فى استقلال تام، فقد كان النظامان يتقابلان ويتبادلان التحية والهداية، ثم يمضى كل منهما فى طريقه إلى غايته. فالنظامان لم يطلقا فى أى معنى من المعانى، سواء باعتبارهما نظامين أم نظريات معينة قائمة بذاتها من لدن كل منهما.

صحيح أن چيمس صرح بتحوله إلى البرجسونية، ولكن تلك كانت طريقة چيمس فى التعبير عن حالاته المزاجية فى الاكتشاف أو الاتفاق الشخصى. فلقد تحول - فى نفس المعنى - على يد رينوفيير وهودجسون وفشنر، وكان يتحول على يد نصف "دستة" آخرين غيرهم، ولكن من الواضح أن لفظ الحوارية أو التلمذة لا ينطبق ألبتة على أى من هذه العلاقات. لقد أفضت سجية المؤانسة والألفة والعشرة العميقة لديه إلى البحث عن تجسيم شخصى لأفكاره يستطيع أن يحبه ويعجب به، وكان ولوعا بتفسير أفكاره وتوضيحها بالاستشهاد بأقوال الآخرين بنوع من الاستصواب الحماسى.

وعلاوة على ذلك، فإن برجسونية چيمس كانت روحية لا حرفية، حيث إن تعداد اختلافهما فى التفاصيل يؤدى إلى اختراق وقطع فلسفتيهما برمتهما. لذلك حسبنا ذكر موضوعات رئيسية معينة. فنقطة الانطلاق عند برجسون هى طريقة التفكير المنطقى - الرياضى، التى أعتقد أنها بإغفالها للزمن الواقعى، فقدت جوهر الأشياء. فى حين أن چيمس بدأ بالتجريبية البريطانية، التى بإغفالها للعلاقات التى يشعر بها فقدت أيضاً جوهر الأشياء. وبعبارة أخرى، فى حين أن الحقيقة البالغة منتهى الدقة - الحرجة - عند برجسون كانت مروراً مؤقتًا، فإنها عند چيمس كانت فقط واحدة من عدة حالات من ذلك التعدى أو الاستمرار الذى كانت حقيقته الحرجة أو البالغة منتهى الدقة.

وكلا الفريقين وجد مفتاح الميتافيزيقيا فى ناحية معينة من الخبرة الواعية، ألا وهى استمرارها. ووجد چيمس فى هذه الديمومة طريقة لمقاومة الصعوبات الوراثية للتجريبية - مثل الثنائية - ومشكلة الواحد والكثير. فى حين أن برجسون، من جهة أخرى، استعملها باعتبارها وسيلة لتصحيح الأزلية المجردة لوجهة نظر المذهب العقلى، سواء فى الطبيعة أم فيما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا).

وكلا الفيلسوفين أوليا اهتماماً للتطور البيولوجى، ولكن بفرق واختلاف. كان برجسون أكثر بيولوجية من چيمس ولا يخلو من وجاهة القول بأن چيمس أنشأ علم نفس بيولوجيا، فى حين أن برجسون أنشأ بيولوجية سيكولوجية، وبالإضافة إلى ذلك فإن بيولوجية چيمس كانت داروينية إلى أبعد الآماد، تؤكد الأصول العرضية،

والتحولات، والتكيف والتهيؤ والبقاء، فى حين أن بيولوجية برجسون كانت أكثر قربى من لامارك، وأكدت الصفة الديناميكية الخلاقة للباعث الحيوى.

وأخيراً فإن النمط العام لسبيل الطور، يجنح إلى أن يكون تباعدياً ومنفرداً ومبايناً عند برجسون، آيلاً وتجمعياً وتقاربياً عند چيمس. فوحدة چيمس فى طور التكوين إلى الأمام باعتبارها هدفاً يرام بلوغه، فى حين أنه عند برجسون يوجد دائماً إحساس بالوحدة الأرومية، وكذلك بالتشابه الكيفى لتيار الحياة الموصول.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الواقع بالنسبة للفيلسوفين يعطى مباشرة فى الخبرة، بل هو الخبرة عندما يؤول اللفظ تأويلاً مناسباً. وكلاهما يجد أن التفكير - حيث إنه يميز، ويخصص ويعين ويضبط ويمسك - غريب عن خصيصة الوجود التى هى تغلغلية وتحللية وانسيابية. وكلا الرجلين كان عنده نفس الإحساس بفيض الواقع وبالهدف الأسوى للمفاهيم التى يحاول بها العقل البشرى تمثيلها. فهما يقيسان عدم كفاية التفكير بمعيار اللقانة أو البدهية، فالواقع الذى يستشعر أو يحدس هو وصل وعيى مؤقت متغير يختار منه العقل - الذى هو محكوم بمصالحه العملية - ما هو متعلق وصحيح وثابت. وبنوع من تغير الموقف من التفكير إلى الشعور، ومن العمل إلى البصيرة، ومن المحيط إلى المركز، يصبح المرء واعياً بالامتلاء الهيولى الذى ينغمس فيه الجزء.

وكلما تبنى چيمس أو برجسون هذه الطريقة من التفلسف، أصبح الواحد منهما المفسر المبين للآخر. لقد وجد برجسون نفسه فى "كون چيمس التعددى"، ولو قدر لچيمس أن يعيش ليقرأها لطرب أشد الطرب للوضوح والفهم والجلاء التى رسمت بها صورته فى مقدمات برجسون للترجمات الفرنسية لكتاب "البراجماتية" ،"الرسائل".

ثمة إشارة فى كتاب علم النفس تومئ إلى أن چيمس قرأ كتاب برجسون (Données immédiates de la Conscience) بعد نشره مباشرة فى سنة ١٩٩٨. ويبدو أن الكتاب لم يترك فيه إلا أقل انطباع أو ربما لم يترك فيه أى انطباع على الإطلاق.

وعندما أصدر برجسون كتابه (Matéire et Mémoire) فى سنة ١٨٩٦. أرسل إلى چيمس نسخة موقعا عليها باسمه، وعلى الرغم من أنها قرئت على الفور فإنها لم تقدح أية شرارة. وبعد ذلك فى سنة ١٩٠٢، أعاد چيمس قراءة الكتابين مرة ثانية بإعجاب متوقد. وفى هذا الصدد كتب إلى فلورنوى فى ٢٧ يناير سنة ١٩٠٣ يقول:

"منذ سنين طويلة لم أقرأ شيئًا أثار تفكيرى وأزره إلى هذه الدرجة. منذ أربع سنوات لم أستطع أن أفهمه مطلقًا، وإن كنت أحسست بقوته. وأنا على يقين من أن هذه الفلسفة لها مستقبل عظيم. إنها تخرق "الكادرات" القديمة وتفك عقدة الأمور بحل يمكن الحصول منه على بلورات جديدة".

وفى ربيع سنة ١٩٠٧، تسلم چيمس وقرأ كتاب برجسون (L'Evolution Créatrice) وعلى الفور عرفت النتيجة بين أصدقائه. ومن ثم نجده يكتب إلى سترونج فى الثالث عشر من يونيه: "هل قرأت كتاب برجسون (L'Evolution Créatrice)؟ إنه يبدو فى نظرى أقدس كتاب على الإطلاق كتب فى الفلسفة حتى هذا التاريخ. وليس فى وسعى أن أستوعب إلا جزئيًا، ولكنه قتل مذهب العقلية فخر صريعًا".

والتقى الرجلان لأول مرة فى سنة ١٩٠٥، عندما كان چيمس فى الثالثة والستين من عمره، وبرجسون فى السادسة والأربعين. ويبدو أن هذا الفرق فى السن لم يكن له شأن يذكر سواء فى تمتعهما بالمصاحبة أو فى المزيج من المحبة والاحترام الذى شعر به كل منهما حيال الآخر. وتاريخ هذا اللقاء سبق موت چيمس بخمس سنوات فقط. وفى أثناء زيارات چيمس اللاحقة لأوربا كان دائمًا مقيدًا ومعوقًا من جراء صحته الآخذة فى التدهور. ولولا ذلك فكل الدواعى ترجح الاعتقاد بأن صلات الود الوثيقة – الشخصية والفلسفية على السواء – كان لابد لها أن تزداد عمقًا وقربًا.

وتستهل المراسلات بين الرجلين برسالة من چيمس يبدو أن الحافز إليها كان إعادة قراءته لكتابى برجسون الأولين:

كمبريدج ١٤ ديسمبر سنة ١٩٠٢[٤]

"سيدى العزيز،

قرأت نسخة كتابك (Matiére et Mémoire) التى تفضلت بإرسالها إلىّ مباشرة فور تسلمها منذ نحو أربع سنوات أو أكثر. ولقد رأيت ما فيها من ابتكارية عظيمة، ولكنى وجدت أفكارك بلغت حدا من الجدة والرحابة والضخامة بحيث ما كان فى وسعى أن أكون على يقين من أننى فهمتها فهمًا كاملاً، على الرغم من أن الأسلوب، علم الله، كان جليًا صافيًا متألقًا بما فيه الكفاية. لذلك نحيت الكتاب جانبًا، لكى أقرأه مرة ثانية، وهو ما أتممته فعلاً الآن.

إنه عمل عبقرية فائقة شائقة. إنه يحدث نوعًا من الثورة الكوبرنيكية تمامًا مثلما فعلت "مبادئ" بركلى أو "نقد" كانت، ومن المرجح أنه سيفتح عهدًا جديدًا فى المحاجة الفلسفية، كلما شاع وذاع وملأ الأسماع. إنه يملأ عقلى بكل ضروب الأسئلة والفروض الجديدة، ويذيب القديم فيجعله فى حالة سهولة مستساغة. أشكرك من صميم فؤادى. أما النقطة الرئيسية التى كسبتها فهى محقك الحاسم لثنائية الموضوع والذات فى الإدراك الحى. وأعتقد أن "استشراف" الموضوع لن يشفى من معالجتك، وحيث إننى بحثت نفس الموضوع على نفس الاتجاه لسنوات عديدة، مع اختلاف عنك فقط فى المفاهيم العامة، لذلك أجد نفسى مؤيدًا ومعززًا بك على نحو سار لطيف جدًا. صحتى ضعيفة جدًا الآن، لدرجة أن العمل يمضى ببطء جدًا، ولكن، إذا قدر لى أن أعيش، فسوف أكتب نظامًا عامًا من الميتافيزيقيا يتفق اتفاقًا وثيقًا فى كثير من أفكاره الأساسية مع ما بسطته فى كتابك، وهذا الاتفاق يلهمنى ويشجعنى أكثر مما فى وسعك أن تتصور.. ما أطيب الانفلات أحيانًا، ولو لمجرد الانفلات من كل الفئات القديمة، وجحد المعتقدات البالية، وإعادة صياغة الأشياء من الأول، بحيث تجعل خط التقسيم يقع فى أماكن جديدة تمامًا.

مرفق طيه محاضرة شعبية بسيطة ألفتها عن الخلود، إنها ليست نظرية مؤكدة - ولكنها مجرد مجادلة موجهة ضد خصم - للاعتراض المخى العادى - قد يسرك أن ترى فيها قاعدة تشبه قاعدتك الخاصة بأن المخ عضو يعمل بمثابة مصفاة للحياة

(4) Reprinted from L.W.J., 11, 178-80.

الروحية. وقد أرسلت إليك أيضًا كتابى الأخير "الأنواع المتعددة للخبرة الدينية" الذى أحيانًا يغرى ساعة أو بعض ساعة. دعنى يا عزيزى البروفيسور برجسون أؤكد لك إعجابى السامى واعتبارى وتقديرى مقرونة بإخلاصى الدائم.

و م. چيمس

باريس ٦ يناير سنة ١٩٠٣(٥)

"لقد أتممت حالاً قراءة الكتاب الذى تفضلت مشكورًا بإرساله إلىَّ "الأنواع المختلفة للخبرة الدينية"، وأبادر على الفور لأخبرك بأن قراءة الكتاب تركت فى نفسى انطباعًا عميقًا بعيد الغور. لقد بدأت قراءته منذ اثنى عشر يومًا على الأقل، ومنذ اللحظة التى بدأت فيها قراءته، وأنا عاجز عن التفكير فى أى شىء آخر سواه - لقد أسرنى وفتننى، وإذا سمحت لى بالقول، فإنه كتاب مثير محرك مهيج من أوله إلى آخره. لقد نجحت - فيما يبدو لى - فى استخلاص زبدة وصفوة الانفعال الدينى. ولا شك أننا شعرنا من قبل بأن هذا الانفعال، هو فى نفس الوقت متعة على المثال الكامل الفذ، ووعى بالاتحاد مع قوة أسمى، ولكن طبيعة تلك المتعة وذلك الاتحاد استعصت على التحليل والتعبير، ومع ذلك فلقد وفقت أنت فى قدرتك على تحليلها والتعبير عنها. إذا كنت فى أثناء السنوات العشر أو الاثنتى عشرة الماضية قد قدر لك أن تتحدث مع بعض الطلاب الفرنسيين الذين يزورون كمبريدج، فلابد أنهم أخبروك أنى كنت أحد المعجبين بك منذ البداية، وأننى لم أترك فرصة تمر دون أن أعبر لمستمعى عن تحاسى العظيم مع أفكارك وتآلفى معها. وعندما كتبت مقالتى عن - (Les Donneés de la conscience) - لقد قادنى تحليل فكرة الزمن والتأمل فى دور تلك الفكرة فى الميكانيكيا، إلى مفهوم معين للحياة السيكولوجية يتسق تمامًا مع مفهومك فى كتاب "علم النفس". ومن ثم تستطيع أن تفهم أننى لم أعتز بتأييد وموافقة قدر اعتزازى وسعادتى بتأييدك وموافقتك للنتائج التى وصلت إليها فى كتابى (Matiére et Mèmoire) والتى جاد علىَّ بها كرمك ولطفك. لقد سعيت - دون التضحية بنتائج الفسيولوجية المخية - إلى أن أبين أن العلاقة بين الوعى وبين النشاط المخى مختلفة تمامًا عما

(5) The letters from Bergson have beentranslated by the author.

يفترض الفسيولوجيون والفلاسفة. وإنى لأرى بالنسبة لهذه النقطة أيضًا أننا نتبع طريقين متقاربين جدًا وربما أيلين وتجمعيين. هذا، على الأقل، هو الانطباع الذى تركته فى نفسى قراءة تلك المحاضرة المتعة جدًا عن "الخلود الإنسانى" الى تفضلت بإرسالها إلىَّ. وكلما فكرت فى الموضوع، اقتنعت بأن الحياة من أولها إلى آخرها، ومن أحد طرفيها إلى الطرف الآخر، ظاهرة انتباه ورنو. والمخ هو ذلك الذى يوجه هذا الانتباه، فهو الذى يعين ويحدد ويتخم ويقيس الانقباض السيكولوجى الذى هو لازم للأداء والعمل والتصرف. وبالاختصار فإنه، لا هو صورة طبق الأصل من الحياة الواعية ولا هو أداة لها، ولكنه نقطتها الأكثر تقدمًا، الجزء الذى يدخل نفسه فى الأحداث، شىء شبيه بمقدم السفينة الذى يضيق فيه حيز السفينة لكى تشق المحيط وتشدخه. لشد ما أتوق لفرصة مواتية أناقش فيها معك كل هذه القضايا. هل تسمح لى بأن ألتمس منك - إذا ما جئت إلى فرنسا - أن تتفضل - كرمًا منك وشهامة - بأن تنبئنى مقدمًا بموعد حضورك حتى يتسنى لنا تدبير لقاء؟ أرجوك يا زميلى ورفيقى العزيز... إلخ.

هـ . برجسون

والتبادل التالى للرسائل يومئ إلى الإخصاب التهجينى لفلسفتين تشتركان فى نفس الميل الأساسى:

كمبريدج ٢٥ فبراير سنة ١٩٠٣ [٦]

"عزيزى البروفسيور برجسون.

إننى أوقن بأن فلسفة من الخبرة الصرف - كما أتصور أن فلسفتك كذلك - يمكن أن تؤتى أكلها. وإنها كفيلة بأن توفق بين كثير من الخلافات القديمة المتأصلة للمدارس الفلسفية. وأعتقد أن إنكارك المتطرف لفكرة أن المخ يمكن أن يكون على أى نحو (صانع) الوعى، أدخلت وضوحًا فجائيًا جدًا، وأزالت جزءًا من النقيض المثالى. ولكن قولك بالديمومة اللاوعيية أو الدووعية (دون الوعى) للذكريات، هى بدورها فكرة تهيئ صعوبات ومشكلات، بحيث تبدو فى الواقع من الأمر المعادل "للروح"

(6) L.W.J., 11, 183-5.

فى شكل آخر ثم إن الطريقة التى "تقحم" بها هذه الذكريات نفسها فى أداء المخ، وفى الواقع كل المفهوم الخاص بالفرق بين العالمين الداخلى والخارجى فى فلسفتك، هذه كلها ما زالت تحتاج - بالنسبة لى - إلى قدر كبير من الإيضاح والتفصيل. ولكن، ترى أى وقع يكون إذا ما تحديتك بأن تعطينى الجواب كتابة. ما أروع وأبرع كتابتك.

اقبل منى أعمق إخلاصى،

و م. جيمس

باريس ٢٥ مارس سنة ١٩٠٢

"إن الصعوبات التى توجه نظرى إليها فى بعض أجزاء معينة من كتاب - (Matiére et Mèmoire) صعوبات حقيقية لا سبيل إلى إغفالها، وأنا أبعد من أن أكون قد نجحت فى تذليلها. ومع ذلك فأنا أعتقد بأن بعض هذه الصعوبات هو نتيجة لعادات عقولنا المتأصلة.. خذ، على سبيل المثال، صعوبة الإقرار بالذكريات اللاوعيية الراهنة. فإذا اختزلنا الذكريات إلى فئة الأشياء، فمن الجلى أنه لا يوجد متوسط لها بين الحضور والغياب، فإما أنها حاضرة فى أذهاننا بغير مؤهلات، وهى فى هذا المعنى واعية، أو إذا كانت لا وعيية، فهى غائبة من عقولنا وينبغى ألا تعتبر، حينئذ وقائع سيكولوجية حاضرة. ولكن فى عالم الوقائع السيكولوجية، لا أعتقد أنه هناك مناسبة لطرح البديل "تكون أو لا تكون" منعا وتفرداً بهذا الشكل. وكلما حاولت أن أدرك نفسى بالوعى، ميزت نفسى وفقهتها بالذهن باعتبارها جمعًا وحشداً.. لماض ذاتى، بحيث إن هذا الماضى يختصر ويتقلص بقصد العمل والأداء. "إن وحدة الذات" التى يتحدث عنها الفلاسفة تبدو لى كأنها وحدة ذروة قمة أحصر نفسى فيها بمجهود من الانتباه - مجهود يمتد ويطول - فى أثناء الحياة كلها، وهو، كما يبدو لى، جوهر الحياة ذاتها. ولكن بالانتقال من ذروة الوعى هذه أو من القمة، إلى القاعدة، أى بمعنى الانتقال إلى حالة تكون فيها ذكريات كل لحظات الماضى مبعثرة وواضحة، فإننى أدرك أن ذلك يقتضى من المرء الانتقال من حالة التركيز الطبيعية إلى حالة التشتت كما هى الحالة فى بعض الأحلام، وعندئذ فلن يكون هناك شىء إيجابى مؤكد يعقل أو يتمم، ولكن مجرد شىء ينسخ ويفك فحسب، لا شىء يربح ولا شىء يضاف وإنما شىء يفقد: إنه فى هذا المعنى بالذات أن كل ذكرياتى قائمة هناك عندما لا أدركها، وإنه لا شىء جديد ينتج فى الواقع من الأمر عندما يظهر ثانية فى الوعى. إن الملخص(٧)، الذى

(7) The "Syllabus in Philosophy 3"; cf. above, 275 ff.

تكرمت بإرساله إلىَّ عن المقرر الدراسى الذى تعطيه الآن أثار اهتمامى جداً. إنه يحتوى عدداً كبيراً من الآراء الجديدة والمبتكرة، بحيث إننى لم يتسن لى بعد، أن ألم بها فى مجموعها، ولكن فكرة غالبة تبرز أمامى حتى الآن، ألا وهى ضرورة المفاهيم الاستشرافية، أو المنطق المجرد، أو بالاختصار سبيل تلك الفلسفة الفوق نظامية التى تسلم جدلا بوحدة كل شىء. إن الطريق الذى أتبعه شبيه بهذا، وأنا موقن تماماً بأنه إذا كانت ثمة فلسفة إيجابية حقاً ممكنة، فلا يمكن لمسها إلا هناك.

لشد ما يحزننى أننى لا أستطيع أن أنعم بالحديث معك، الذى طالما تمنيته واشتهيته. ولكنك حتماً ستأتى إلى فرنسا أو إنجلترا يوماً من الأيام، وفى هذه الحالة يكون فى وسعى دائماً أن أدبر لقاء معك فى أى وقت أو مكان، إذا ما تكرمت بإنبائى بموعد قدومك مقدماً ولو بزمن قصير. أرجوك.. إلخ.

هـ. برجسون

وفى أبريل سنة ١٩٠٥، كما تعرف، أبحر چيمس لقضاء "إجازة" فى أوربا. وبعد زيارة أثينا وحضور مؤتمر علم النفس فى روما، يمم شمالاً شطر سويسرا ثم فرنسا، وأبحر عائداً إلى أمريكا فى يونيخ:

كان ١٣ مايو سنة ١٩٠٥

"عزيزى البروفيسور برجسون:

"إننى مقيم هنا فى فندق دى بارك.. وفى عزمى ومرجوى قضاء أسبوع فى باريس، على الأرجح فى المدة من ٢٥ مايو إلى أول يونيه. ولا جناح علىَّ من أن أعترف، بأننى على الرغم من أننى – مخير فى حالة لا أصلح فيها لشىء، فإن أهم الأسباب التى حدت بى إلى اختيار طريق عودتى إلى الوطن عن طريق باريس بدلاً من الإبحار مباشرة من البحر المتوسط، هو احتمال أننى، إذا ما حللت فى باريس، فقد ألقاك وجهاً لوجه، ولعلنى أستطيع أو أزداد فهماً لبعض النقاط فى فلسفتك التى مازالت

غامضة عليَّ. هذا إعلان ذو رنين قهار نوعًا ما، حيث إنك رجل متواضع حيى، ولكن لا تجزع فنيأَتى في غاية البراءة ثم أن سؤلى قد يبدو لك فى غاية السطحية والضحالة. إن بيت القصيد، هو أن أعتقد أنه لابد دائمًا وأن يكون من مصلحة فيلسوفين قريبين لبعضهما أن يتصلا اتصالاً شخصيًا مباشرًا. فذلك قمين بأن يتفاهما على نحو أفضل وأحسن، حتى إذا قضيا ساعة اللقاء فى الثرثرة فقط. لذلك آمل أن تكون مقيمًا فى بريس وقت وجودى فيها، وأن يكون لديك الوقت والمزاج لتمنحنى ساعة أو ساعتين من وقتك. وسأقيم فى فندق دى سانت بيير، الكائن فى الشارع الذى يحمل نفس الاسم. ولدى بعض أعمال مختلفة يتعين عليَّ قضاؤها فى باريس، فإذا ما تحدد تاريخ لقائى معك أولاً، فمن الميسور تدبير كل أمورى الأخرى تبعًا لذلك. آمل أن تجدك رسالتى هذه فى البيت، وأن تكون فى أطيب صحة، وألا تكون منطويًا على نفسك. لك أسمى احترامى وتبجيلى وإخلاصى،

و م .چيمس

وتم أول لقاء بين هذين الكوكبين فى الثامن والعشرين من مايو سنة ١٩٠٥. وليس بين أيدينا سجل معاصر لهذا اللقاء سوى ما قيده چيمس فى مذكراته اليومية عن هذا التاريخ "زيارة من برجسون الجميل".

وبعد عشرين سنة من هذا التاريخ، ذكر برجسون نفسه هذه المناسبة فى معرض الحديث عن اهتمام چيمس الفائق وشغله الشاغل بأمور الروح فقال:

"أعتقد أننا حقًا قلنا "أهلاً وسهلاً" ولكن هذا كان كل ما فى الأمر، ثم أعقبت ذلك لحظات عديدة من الصمت، سألنى بعدها مباشرة ودون مقدمات عن تصورى لمشكلة الدين"[٨].

(8) Translated from Bersson's Preface to the French translation of Jame's Letters, by F. Delattre and M. Le Breton, 1924. 90

وشهد ربيع سنة ١٩٠٧، نشر كتاب برجسون (L'Evolution Creatice) وجاءت بطاقة چيمس على طريقته المعهودة تعلن تسلم الكتاب على النحو التالي:

كمبريدج ١٩ مايو سنة ١٩٠٧

"وصل كتابك الجديد حالاً. مرحى. مرحى. مرحى. وشكرًا. سيصلك كتيبي عن البراجماتية في ظرف أسبوعين.

وبعد أن قرأ چيمس الكتاب، أرسل إلى برجسون الرسالة المطولة التالية:

شوكوروا ١٣ يونيه سنة ١٩٠٧ [(٩)].

"أي برجسوني. إنك لساحر، وكتابك معجزة، عجيبة حقيقية في تاريخ الفلسفة، يستهل - إذا لم يجانبني الصواب - عهدًا جديدًا على الإطلاق بالنسبة للموضوع. ولكنه على خلاف مؤلفات عباقرة الحركة "الاستشرافية" (التي يكتنف كتابتها الغموض والمقت والصد)، فكتابك كلاسيكي صرف بالنسبة للشكل. وقد تطرب للمقارنة، ولكني بعد أن انتهيت من قراءته وجدت له نفس النكهة التي يبقى طعمها في المذاق، تمامًا مثل الطعم الذي يبقى بعد قراءة كتاب مدام بوفاري. نكهة ذات رخامة دائمة، حسنة الجرس. شبيهة بنهر غزير فياض لم يزد قط أو تقل مياهه أو يخف تياره، وإنما يمضي قدمًا راسخًا ثابتًا وقد امتلأ شاطئاه إلى حافتيهما. ثم نزعتك في ضرب الأمثلة، التي لا تخدش ولا تخمش أبدًا ولا تبرز في زوايا قاتمة، وإنما بلا تبدل ولا عوج ولا أمت، تبسط الفكرة تبسيطًا وتساعدها على التدفق في يسر وسلاسة وتناغم. حقًا إنك لساحر. وإذا كان كتابك التالي سيثبت أنك متقدم خطوة عن هذا الكتاب، مثلما يقوم كتابك هذا عن سابقيه، فمن المؤكد أن اسمك سيخلد في التاريخ باعتباره واحدًا من عظماء الجهابذة الخلاقين في الفلسفة.

مهلاً. لقد مدحتك بما فيه الكفاية. إن أكثر ما يشتهيه كل فيلسوف أصيل (وفي الحقيقة كل رجل أصيل حقيقي) هو المديح والإطراء، وإن كان الفلاسفة عادة ما يسمون ذلك "التقدير". فإذا كنت لا تزال بحاجة إلى مزيد من المديح والإطراء فما عليك إلا أن تقول لي، فأمطرك من فوري، لأنني كنت طلق المحيا، تطفح ملامحي بالبشر والابتسام، منذ أول صفحة في الكتاب إلى آخر صفحة، من جراء سلسلة النعيم والغبطة التي لم تنقطع أبدًا. أشعر بأنني استعدت شبابي من جديد.

---

(9) Reprinted from L.W.J., 11, 290-4.

أما فيما يختص بمحتواه، فلست الآن فى حال تسمح لى برد فعل حاسم. فالكتاب زاخر بأمور جديدة على لإطلاق، بحيث إن معاصريك يتطلبون وقتًا طويلاً لاستيعابها، وأحسب أن قدرًا كبيرًا من تنمية التفاصيل وتطويرها سيكون من نصيب الجيل الصاعد الذين ستنبههم أفكارك وتفضى إلى التألق والتلألؤ فى سبل لا تخطر لك على بال. وعندى أن الإنجاز الحيوى للكتاب فى الوقت الحاضر، هو أنه يسدد طعنة مميتة للمذهب العقلى لن يقوم به بعدها قائمة أبدًا. ولكنه سيموت ميتة مشاكسة قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، لأن القصور الذاتى للماضى موجود فيه، ثم إن روح الاختصاصية والاحترافية والحذلقة العلمية، وكذلك اللذة الجمالية الفكرية لمعالجة فئات منفصلة منطقيًا ومع ذلك مرتبطة ارتباطًا منطقيًا، كل ذلك سوف ينظم صفوفه للدفاع المستميت. إن الابتداع الحيوى (élan vital) الخاوى الوفاض، الغامض المبهم، كما طاب لك أن تتركه حيث هو، سيكون بديلاً سهلاً للسخرية. ولكن الوحش يعانى الآن سكرات الموت. والطريقة التى سددت بها الطعنة إليه. ضربة معلم فى الدرجة القصوى. سيصلك كتابى "البراجماتية" فى نفس الوقت مع هذه الرسالة. ما أشد هزاله ونحافته بالقياس إلى نظامك الفخم الضخم. ولكنه مجانس جدًا لأجزاء من نظامك ومطابق لفرجاته، بحيث إنك لن يعسر عليك فهم السر فى حماستى. إننى أشعر أننا أساسًا، وفى القرار نخوض نفس المعركة، أنت فى مركز القيادة وأنا جندى فى الصفوف.

... وعلى الجملة، فإن حقيقتك تندس فى خلفية هذا الكتاب لدرجة أننى أتساءل: أما كان فى وسعك أن تبرزها على نحو أكثر اكتمالاً وبطريقة ملموسة هنا؟ أم لعلك تحتفظ بكشوف فى حوزتك فعلاً، لمجلد لاحق آخر فى المستقبل. وسواء أكانت فى حوزتك الآن أم لا، فإنها ستأتيك يقينًا فيما بعد على أية حال وستؤلف مجلدًا جديدًا. وليس ثمة ريب فى أن تصادم أفكارك التقليدية سيولد احتكاكًا يتطاير منه الشرر الذى سيضىء عديدًا من الأماكن المظلمة، ويضع فى مجال الرؤية ما لا حصر له من الاعتبارات الجديدة. بيد أن السبيل قد تكون بطيئة، لأن الأفكار فى الدرجة القصوى من الثورية. وأستطيع أن أتنبأ بأنه عندما يتحول المد فى صالحك ويحالفك التوفيق، فإن كثيرًا من الاتجاهات الفلسفية السابقة سوف تبدأ الصراخ قائلة "لا جديد فى هذا وليس فيه شىء سوى ما جادلنا فيه طويلاً وتنازعنا فى أمره". وسيدعى كل من هؤلاء الأسبقية، إرادة شوبنهاور العمياء، ولا وعى هارتمان، وحرية فيشته الأرومية. ولكن لا بأس. فليدع من يشاء ما يشاء.. بل إن ذلك من الخير لك

إذا كان جديدك يلتحم فى بعض مقومات خطوط الاتجاهات القديمة. ولا بد أن الصوفية سترفع الدعوى وتطالب بحق الأسبقية. ومما لا شك أنها دعوى عادلة. وسأكتفى بهذا القدر الآن، إذ لا مزيد عندى من القول، فهذا مجرد رد فعلى الأوَّلى، ولكننى فى غاية الحماسة لدرجة أننى قلت من يومين فقط: "حمدا لله أننى عشت إلى هذا اليوم، وأننى شاهدت الحرب اليابانية الروسية، وشاهدت ظهور كتاب برجسون الجديد، فهما أعظم نقطتى تحول حديثتين فى التاريخ وفى الفكر الإنسانى. "لك أحر تهنئتى وأخلص احترامى وودى،

و م. چيمس

باريس ٢٧ يونيه سنة ١٩٠٧

"عزيزى البروفسور چيمس،

"لقد أنعمت علىَّ رسالتك بسعادة عظيمة، ويجب علىَّ أن أبعث إليك بالشكر والثناء فوراً. أنت على صواب فى قولك إن الفيلسوف يحب المديح والإطراء، وإنه فى هذا يشبه بقية بنى جنسه من البشر الفانين. ولكن اسمح أن أقول لك إن الأزر الذى كنت ابتغيه بصفة خاصة، هو أزر المفكر الذى أسهم بكل هذه القوة والعمق فى إعادة تشكيل روح الأجيال الجديدة، والذى أثار عمله فى نفسى دائمًا أعمق الإعجاب فى أسمى مراتبه. ثم إن الرسالة التى تعلن فيها استعدادك لتبنى الأفكار الجوهرية لكتابى، والتى دافعت عنها مقدمًا ضد الهجمات التى من المؤكد أنها ستستفزها، تمس صميم فؤادى فوق كل شىء. إننى أحتفظ برسالتك إلى جانبى وأرنو إليها باعتبارها تعويضاً كافيًا لقاء جهد السنوات العشر الذى كلفنيها هذا الكتاب. بدأت قراءة كتابك البراجماتية فى نفس اللحظة التى وضع البريد الكتاب فى يدى، ولم أستطع أن أتركه من يدى حتى أتممت قراءته. إنه برنامج فلسفة المستقبل، يترسم ويتتبع اقتفاء على نحو بديع رائع يستحق الإعجاب. وبخطوط متعددة مختلفة من الاعتبار، استطعت دائمًا أن تجعلها تتلاقى عند نفس النقطة البؤرية، وبإيحاءات ملهمة وكذلك بأسباب وحجج بينة، استطعت أن تنقل الفكرة، وفوق كل شىء الإحساس بتلك الفلسفة اللدنة المرنة المطاوعة السهلة الانقياد التى مصيرها أن تحل محل المذهب العقلى.

وعندما تقول إن الحقيقة بالنسبة للمذهب العقلى حقيقة جاهزة وكاملة منذ الأزل، فى حين أنها بالنسبة للبراجماتية ما زالت فى سبيل التكوين"[10]، فإنك بهذا تعطى نفس الصيغة بالذات للميتافيزيقيا التى أنا على يقين بأنها آتية لا ريب فيها، والتى كان ينبغى علينا أن نبلغها منذ زمان طويل لولا أننا ظللنا أسرى تعويذة المثالية الأفلاطونية. لك منى... إلخ...

هـ. برجسون

وعندما وصل چيمس إلى أكسفورد فى سنة ١٩٠٨، لإلقاء محاضرات هيبرت، كان أول شىء فعله هو الكتابة إلى برجسون. كان من ضمن برنامج محاضراته "حديث عن "برجسون". ونقده للمذهب العقلى" وكتب إلى برجسون يطلب منه تزويده بتاريخ حياته بما فى ذلك "أية مغامرات اشتركت فيها تستحق الذكر، سواء أكانت غرامية أم بطولية أم فلسفية (!)... إلخ... إلخ... تفاصيل تثير الاهتمام".

ورد برجسون فى اليوم التالى:

باريس ٩ مايو سنة ١٩٠٨

"عزيزى البروفسور چيمس،

لا يمكننى أن أصف لك مبلغ شعورى بالسرور، مساء الأمس عندما تعرفت على خط يدك على غلاف رسالة تحمل طابع بريد إنجليزيًا. ها هى، أخيرًا، فيما أمل، فرصة مواتية للحديث معك. وإنك لتمنحنى شرفًا عظيمًا إذ تخصص إحدى محاضراتك فى أكسفورد لى. كم كان يسعدنى لو تسنى لى أن أستمع إليك، فى هذه المحاضرة وفى المحاضرات الأخرى أيضًا. وعلى أية حال ففى مرجوى ألا تتوانى فى ضمها جميعًا فى مجلد واحد.

والآن بخصوص الأحداث أو المغامرات التى تستحق التنويه، أقول إن مجرى حياتى خال منها تمامًا – على الأقل لا توجد فيها أحداث مشهودة – من الوجهة الموضوعية. أما من الناحية الذاتية فليس فى وسعى إلا أن أعزو أهمية كبرى للتغيير الذى حدث فى طريقة تفكيرى فى أثناء السنتين

(10) Pragm., 257.

اللتين أعقبتا تركى لمدرسة النورمان منذ سنة ١٨٨١ إلى سنة ١٨٨٣. لقد ظللت حتى ذلك الوقت مشربا تمامًا بالنظريات الميكانيكية للكون التى استقرت فى ذهنى فى باكورة حياتى من جراء قراءة هربرت سبنسر. وهو فيلسوف شايعته وناصرته وأسلمت زمامى له دون أى تحفظ تقريبًا. وكان فى نيتى أن أكرس نفسى لما يسمى فى ذلك الوقت، فلسفة العلوم، وابتغاء ذلك المأرب أخذت على عاتقى، بعد تركى مدرسة النورمان فحص بعض الأفكار العلمية الأساسية. ولقد كان تحليل فكرة الزمن، كما يدخل تلك الفكرة فى الميكانيكا والطبيعة، هو الذى قلب أفكارى رأسًا على عقب. لقد تبينت ببالغ الدهشة والاستغراب، أن الزمن العلمى لا يثبت ولا يدوم، وأنه لن يتضمن أى تغيير فى معرفتنا العلمية إذا فتحت طيات الحقيقة من حيث الكل أو المجموع مرة واحدة حالاً ومباشرة، وأن العلم اليقينى يتألف بالضرورة والحتم من حذف الديمومة. وكانت هذه نقطة الانطلاق لسلسلة من التأملات أفضت بى خطوات تدريجية إلى أن أنبذ - تقريبًا - كل ما سبق أن سلمت به حتى قبلئذ، وأن أغير وجهة نظرى تغييرًا كاملاً فى كل ذلك، وفى أكثر من ذلك بالإضافة إلى مؤلفك الأخير عن البراجماتية، آمل أن يتسنى لى عاجلاً الحديث معك.

وفى غضون ذلك، يا عزيزى البروفسور جيمس، أبعث إليك باحتراماتى الحبيَّة المخلصة،

هـ. برجسون

وفى يوليو أرسل جيمس إلى برجسون تجربة الطبع الخاصة بالمحاضرة التى ألقاها عن فلسفة برجسون. ورد عليه برجسون شاكرًا تسلمها بالجواب التالى:

شومونت - سيرنيوشاتل ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٨

عزيزى البروفسور جيمس

يجب علىَّ أن أخبرك على الفور بالمتعة العظيمة التى نعمت بها من قراءتك. لم يسبق أبدًا أن سبر غورى أو فهمت أو استوعبت بكل هذا النفاذ والإحاطة. لم يسبق لى أبدًا أن أدركت ووعيت كل ذلك التعاطف والانجذاب بينى وبينك "والتناغم الراسخ أصلاً" الذى يؤلف بين فكرتى وفكرتك. واسمح لى أن أضيف أنك لم تقتصر على تحليل أفكارى فحسب، ولكنك أضفيت عليها التحلى والتألق وشكَّلتها دون أن تصيبها بأقل تشويه بحال من الأحوال. وطوال قراءتى لعرضك لأفكارى، وأنا أفكر فى تلك الاستيلادات النفيسة التى يشتقها أساتذة النحت من صور أصلية، ينقلونها ثانية فتصبح قطعا فنية بارعة رائعة، فى حين أنها فى حد ذاتها - وقبل إعادة نقلها - تكون صورًا عادية.

أعتقد أننى أدرك الفكرة الجوهرية لكتابك، وهى فكرة مهمة تعلو على بقية الأفكار الأخرى وتفوقها، وهى سوف تبدد المشكلات والصعوبات التى تراكمت على يد الفلاسفة حول مسألة العلاقة بين أجزاء الخبرة للخبرة ككل. وفى مرجوى أن تتسنى لى حالاً قراءة كل هذا الكتاب الذى سيؤلف حلقة الاتصال بين "مبادئ علم النفس" و"الأنواع المختلفة للخبرة الدينية" وفى نفس الوقت يعطى شكلاً حاسماً نهائياً للفلسفة التى تبدو أن البراجماتية تؤمى إليها، وهى فلسفة مصيرها - بلا أدنى ريب - أن تنسخ وتبطل وتحل محل اليقينية التعسفية الميتافيزيقية القديمة. لك منى يا عزيزى البروفسور چيمس... إلخ... إلخ..

هـ . برجسون:

وفى غضون ذلك كان چيمس وبرجسون يحاولان أن يلتقيا ويرى كل منهما الآخر، ولكن بسبب مصادفات المرض والسفر، لم تتم المقابلة حتى اليوم الرابع من أكتوبر فى لندن، وقبل إبحار چيمس عائداً إلى الوطن بيومين اثنين. وتسجيل هذه المقابلة مدون فى رسالة بعث بها چيمس إلى فلورنوى فى نفس التاريخ. وفى معرض الحديث عن الفلاسفة المتعددين الذين قابلهم فى أكسفورد ولندن قال چيمس:

"أحسن تلك المقابلات، هو لقاء استمر ثلاث ساعات سويا هذا الصباح بالذات مع برجسون، الذى قدم إلى هنا لزيارة أقاربه. رجل فى غاية التواضع والرقة وعدم الادعاء، ولكنه من الناحية الفكرية - عبقرى فذ. ولقد جرى الحديث بيننا بكل يسر، أو بالأحرى تحدث هو بكل يسر، لأنه تحدث أكثر بكثير مما تحدثت أنا، وعلى الرغم من أننى لا أستطيع الزعم بأننى تغلغلت فى طوايا نظامه على نحو أوضح مما أنت عليه من قبل، فإن الأمر الذى لا شك فيها أنه جعل لى بعض النقاط أكثر وضوحاً وجلاء. وأكبر الظن - فى رأيى - أن الاتجاه الذى أفلح برجسون فى تركيز الانتباه عليه وبلورته، سينتهى بأن يسود. وأقوى اليقين أن العصر الحالى سيكون بمثابة نقطة تحول فى تاريخ الفلسفة. ثمة أمور كثيرة تتقارب وتتجمع لتشكل بلورة مضادة للمذهب العقلى (Qui viver verra) [11]، (من يعش سوف يرى).

(11) L.W.J., 11, 314-5.

وفى ربيع سنة ١٩٠٩، تسلم برجسون نسخة من كتاب "كون تعددى" وقرأها بحماسته المعهودة فيه وباحساسه المميز من الموافقة:

باريس ٣٠ أبريل سنة ١٩٠٩

"عزيزى وليام چيمس،

انتظرت كتابك الجديد نافد الصبر، وأشكرك لارساله إلى. إنه كتاب رائع مدهش جدير بالإعجاب ولا لوم لى عليه ولا تثريب سوى تجاوزه الحد فى التواضع وتقديم أسماء فشنر وبرجسون، فى الوقت الذى ينبغى أن ينصب فيها اهتمامنا ورنونا على وليام چيمس، على كلمته وفكرته وروحه ذاتها. إن الكتاب يقول أشياء كبيرة، ولكنه يوحى بأكثر مما يقول. إنه يفسر ويحدد ويسوغ التعددية، ويمكننا من أن نضع إصبعنا على العلاقة المحسوسة للكائنات - بعضها ببعضها الآخر، وهو قطعا يضع أسس "التجريبية الراديكالية"، هذا هو ما يقوله. ولكنه يوحى شيئًا وراء ذلك، انفعالاً سلوانيا معينًا يستل من صميم الواقع ذاته. إنك تتحدث فى خاتمة الكتاب عن تلك - "الخبرات الخلاصية، التى اختصت بعض الأرواح بميزة التمتع بها. وما لم أخادع نفسى، فإن كتابك إذا أضيف إلى "الأنواع المختلفة للخبرة الدينية" سيعمم خبرات من هذا النوع ويدخلها فى نفوس أولئك الذين ليست لديهم أى فكرة عنها، أو ينشئها وينميها حيث لا توجد إلا فى حالة غريزة بدائية. هناك يلتمس دين الغد، وفلسفة الغد سواء بسواء..

هـ. برجسون"

وسرعان ما تلا كتاب "معنى الحقيقة" سلفه "كون تعددى"، وتسلمه برجسون فكتب ما يلى:

باريس ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٠٩

"عزيزى چيمس،

إن ما يبدو لى أنه يبرز فى هذا الكتاب - إجمالاً - هو بصفة رئيسية التمييز الواضح بين الواقع والحقيقة، وبناء على ذلك، إمكان بل أكاد أقول ضرورة إن البراجماتى ينبغى أن يكون فى نفس

الوقت واقعيًا. وليس مما يدعو للدهشة، أن الناس يجدون صعوبة كبيرة ومشقة بالغة فى فهم هذا. فلا شك أن كل عادات عقلنا، عادات كلامنا أيضًا، تعمل فى الاتجاه المضاد، لأن كلتيهما يتشكل فى القالب الأفلاطونى. فإذا ما تمثلنا لأنفسنا عالمًا من الأشياء، فليس ثمة مفر من أن نعتبر الحقيقة على أنها تتألف من مجموعة زيجات الحب التى تؤدى إلى اقتران تلك الأشياء (أو تلك الأفكار) إلى الأبد، بحيث تجعل الواقع والحقيقة لفظين من رتبة واحدة. وسيقضى الأمر وقتًا طويلاً لتبديد هذا السراب تبديدًا كاملاً..

مرة أخرى - على عجل - لك كل تحياتى وتقبل منى... إلخ..

هـ. برجسون"

وفى باكورة سنة ١٩١٠، نشر چيمس خطابه المشهور عن "المعادل الأخلاقى للحرب"، وكذلك مقالة [١٢] أخرى وصف فيها أربع خبرات شخصية غريبة نوعًا ما "فى أثناء الخمس السنوات الماضية"، ارتأى أنها قد تلقى الضوء على الصوفية.

وفى كل تلك الخبرات الأربع، التى برزت ثلاث منها من استجماع الذكرى، والرابعة من الأحلام، يبدو أنه كان هناك نوع من "الكشف" الفجائى لمجالات خفية من الواقع، متصلة بالعالم الطبيعى للشخص، ولكنها تقع فيما وراءه.

باريس ٣١ مارس سنة ١٩١٠

"عزيزى چيمس،

لم أخبرك، بعد، إلى أى حد تمتعت بقراءة مقالتيك: "المعادل الأخلاقى للحرب" و"اقتراح بشأن الصوفية". لقد نعمت بقراءتهما إلى أقصى درجة. والأولى بكل تأكيد هى أجمل وأنق وأقنع ما قيل بشأن عدم ضرورة الحرب، وبشأن الظروف التى يمكن فى ظلها إلغاؤها دون تقليل الطاقة الإنسانية. أما بخصوص مقالتك عن الصوفية، فأنا متأكد أنها ستكون نقطة انطلاق لمزيد من التعليق الطازج والملاحظة الغضة والبحث الجديد. ولست واثقا من أننى قد مارست أبدًا ذلك الضرب من "الكشف"

(12) "A Suggedtion about Mysticism," Jour. of Philos., VII (1910).

ولكن لعل الظاهرة التالية - التى سأقصها عليك - لا تخلو من شيء من هذا الكشف، وهى ظاهرة مارستها أحيانًا (ولكن نادرًا) فى الأحلام: اعتقدت أننى كنت حاضرًا أمام مشهد فاخر نفيس، منظر طبيعى رائع الحسن زاهى الألوان، كنت أسافر خلاله بسرعة كبيرة، بحيث ترك فى نفسى انطباعًا عميقًا جدًا من الواقع، لدرجة أننى لم أصدق، فى اللحظات القليلة الأولى بعد اليقظة، أنه كان مجرد حلم. وحقًا، فى أثناء اللحظة القصيرة جدًا التى استمر فيها الحلم (والتى لا تزيد على ثانيتين أو ثلاث على أقصى تقدير) كنت فى كل مرة ينتابنى إحساس واضح بأننى مقبل على خبرة خطيرة، وأن الأمر متوقف على تطويلها ومعرفة النتيجة اللاحقة المترتبة عليها، ولكن ذلك الشيء كان يمتد ويتورم فى داخلى أكثر فأكثر، وأنه لابد أن ينفجر إذا لم أنقذ الموقف بالاستيقاظ من النوم. وبمجرد الاستيقاظ كان ينتابنى فى نفس الوقت إحساس بالندم لأن ذلك الحلم قد انقطع، وإحساس واضح تمامًا بأننى، أنا الذى شئت قطعه. وإنى أضرب لك المثل بهذه الخبرة على علاتها. ولعلها لا تخلو من بعض الارتباط بخبراتك بمقدار ما توحى بفكرة امتداد مؤقت لمجال الوعى وإن كان راجعًا إلى مجهود عنيف. لشد ما أرغب فى أن تتابع هذا البحث الخاص "بالقيمة المعرفية الصرف للحالات الشاذة". إن مقالتك إذا ضمت إلى ما قلت فى "الأنواع المختلفة للخبرة الدينية" تفتح أبعادًا عظيمة منظورة فى ذلك الاتجاه. عما قريب فيما آمل...

لك حبى وولائى،

هـ. برجسون،

وفى ربيع سنة ١٩١٠، عاد چيمس مرة أخرى إلى أوربا. ووصل إلى باريس فى يوم ٥ مايو، وتناول الغداء مع برجسون مرتين. وكان ذلك آخر لقاء بين الرجلين.

وفى يونيه سنة ١٩١١ - بعد موت چيمس بعشرة أشهر - كتب برجسون إلى زوجة چيمس أنه أعاد قراءة كل مؤلفات زوجها الأخيرة تمهيدًا لإعداد نفسه لكتابة مقدمة للترجمة الفرنسية لكتاب البراجماتية. وأضاف إلى ذلك قوله إنه فى حين كان يحاول أن يكتب عن چيمس بطريقة لا شخصية مجردة تمامًا عن كل هوى وتحيز، فإنه لم يستطع أن يتجنب ما ينم عن الإفصاح عن شيء من إحساسه الخاص نحو ذكراه.

ولقد أعطى برجسون هذه المقدمة عنوان "الحقيقة والواقع"، كما يومئ العنوان، فإن برجسون كان مهتمًا قبل كل شيء بالتدليل على أن البراجماتية - في مضامينها - إن لم تكن في توكيداتها الظاهرة، تتضمن أن الواقع "متعال عما هو مألوف وزائد وفائض". وإنه يختلف عن النظم المبسطة للفلسفة والبداهة كما تختلف الحياة في كل ابتداعها وابتكارها وتخصبها وإنباتها عن التمثيلات المختارة والموحدة التي تمثلها على المسرح. فمصدر وإلهام البراجماتية - كما يقول برجسون - يلتمسان في هذه الفكرة عن الواقع، الذي يشترك فيه الإنسان، واقع لا تتكشف طبيعته له إلا عندما يشعر به متدفقًا في عروقه، أو يستشف تياراته العميقة في غمرات الخبرة الصوفية. والبراجماتية هي نظرية الحقيقة المناسبة لمثل تلك الميتافيزيقيا. والحقيقة ظهير للعمل والأداء - سلك الإرشاد - يهتدي الإنسان بوساطته ليعرف طريقه ويثبت قدمه فلا يضل، في وسط الجدة الإدراكية الحسية.

ومع هذا المذهب للحقيقة، وكذلك مع ميتافيزيقياته المكملة، كان برجسون نفسه متفقًا - إجمالاً - ولقد شهد بعمقه وأصالته وابتكاريته وسموه الخلقي.

أما الاستحقاق الخسيس، أو الطعن المبتذل الموجه ضد البراجماتية، على اعتبار أنها مذهب إلحادي أو نفعي، فقد قال برجسون إن ذلك لا يذهل ولا يحير إلا أولئك الذين عرفوا چيمس نفسه، إذ لا يوجد امرؤ أحب الحقيقة بكل غيرة وحماسة وقوة، وسعى إليها سعيًا وهو مؤمن في مثابرة وإنكار للذات، أكثر من چيمس(١٣).

على أن الحب والاحترام اللذين ربطا بين چيمس وبرجسون يزودننا بمثال عظيم أخاذ لنوع من الصداقة الوثيقة دون غمر للفروق الفردية. فكل منهما بايع الآخر ودان له بالولاء والإخلاص، ولكن دون فقدان للاستقلال الذاتي أو لشهرة كل منهما على حدة. ولقد اكتشف كل منهما اتفاقهما المذهبي وتجاذبهما الشخصي العميق دون أي شبهة من منافس، وإنما بإحساس شكور سار بار بالتأييد والتوفيق، وبالأمل المعزز بأن الحق غالب وسوف تكون له الكلمة العليا.

---

(13) W. James, Le Pragmatisme, trans. by E. le Brun,199, 1-16.

(٣٧)

العمل الذى لم يتم

فى المقدمة التى كتبها برجسون سنة ١٩٢٤، للترجمة الفرنسية لرسائل چيمس، قال برجسون عن چيمس:

"كان مصطلى متأججا يشع بالحرارة والضوء"[1].

ولقد ظلت روح چيمس تتوهج وتتألق حتى فى السنة الختامية من حياته على الرغم من تدهور صحته السريع، وظلت تشع بالحرارة والضوء على السواء وانبعث فيه اهتمام جديد أحيا شغفه بالخبرة الصوفية. وظهر بحث "اقتراح بشأن الصوفية" في فبراير سنة ١٩١٠ .

أما آخر كتاباته التى نشرت فى حياته، فقد كان المقال الموسوم بـ"صوفى تعددى" الذى كرسه لعرض فلسفة وعبقرية صديقه القديم بنجامين بول بلود.

أما حقيقة كون اهتمامه بالمشكلات الجارية ظل نابضًا وفوارًا مثلما كان دائمًا، فتشهد بها كتابته ونشره لمقال "المعادل الأخلاقى للحرب" فى شهر فبراير من نفس السنة.

على أن المشروع الفلسفى العام الذى شغل بال چيمس فى أواخر أيامه، كان تأليف أعظم كتبه من الوجهة الفنية التطبيقية وأكثرها استدلالا وأدقها محاجة.

---

(1) Delattre et Le Breton, William Jams: extraits de Correspondence, 1924, 7.

ولقد انبثق هذاالكتاب ونما من مقررات دراسية تمهيدية ألقاها فى هارفارد وستانفورد تحت عنوان "بعض مشكلات الفلسفة"، والتى قصد بها أن تكون كتاباً دراسياً يستخدم على مستوى الكليات، وأن يكون واسع الانتشار والتداول، ولكن هذا الكتاب كتب للقراء ولم يكتب لجمهور من المستمعين، ومن ثم كان يختلف من هذه الوجهة عن كل مؤلفاته الفلسفية فيما عدا "مقالات فى التجريبية الراديكالية" و"معنىً الحق"، وإن كان يختلف أيضاً عن هذين فى كونه ألف باعتباره أطروحة موحدة كاملة، لا باعتباره مجلداً يضم بين دفتيه مقالات مستقلة، وهذا الكتاب أو بالأحرى هذه "المقدمة" كما سماها چيمس أولاً، بدئت فى ٢٨ مارس سنة ١٩٠٩، واستمرت بلا انقطاع. ولقد قرئت أجزاء من المخطوط ونقدت بوساطة أصدقائه فى أوربا فى أثناء صيف سنة ١٩١٠. ولم يقدر لهذا المخطوط أن يتم أبداً. ولكن چيمس ترك تعليمات مكتوبة لنشره جاء فيها: "قولوا إنه شظوى مؤلف من كسر أو نتف، وإنه لم يراجع أو ينقح.. قولوا إننى كنت أؤمل بكتابته أن أكمل نظامى، الذى يشبه الآن إلى حد كبير - قوسا أو قنطرة - بنيت من جانب واحد فقط"(٢).

ولقد أهدى هذا الكتاب "إلى ذكرى رينو فيير العظيم". وهكذا نجد أن چيمس فى نهاية المطاف كان مخلصاً وباراً ووفياً لبداياته.

وليس ثمة ريب فى أن هذا الكتاب يمثل إعراضاً مؤكداً عن الجدليات وعن العياذ الأدبى والرواحية التقريبية من ميل الجماهير أو فهمها، وعن الصوفية وعن خطرات التأمل الخيالى.

وفى معرض الكتابة لصديق له فى ألمانيا - بعد ظهور مقالة عن بلود - أشار إليه بقوله: "بيان مدهش زاخر بالقوة، دفاعاً عن التعددية"، ولكنه أضاف "وسيكون هذا آخر عهدى بمرحلة المباهاة والفخار بالقوة"(٣).

---

(2) S.P.P., vii, viii.

(3) To. J. Goldstein, June 29, 1910.

والآن، وهو فى ختام حياته كان يكتب بمزاج كله رزانة ووقار واعتدال، ونازل المنطق فى معقله، وذهب بعيداً إلى حد التبرؤ من تلك "الضد - منطقية" التى على الرغم من أنه سبق أن ادعى أول الأمر أنها ميزة له، فإنه لم يجد غضاضة عندما كان الآخرون يطبقونها تطبيقاً شائناً زاخراً بالغمز واللمز.

وبعبارة أخرى، فإن هذا العمل كان يمثل محاولة "لتوقع ذلك الوضوح والجلاء الأعظم" الذى كان چيمس يؤمن بأنه سيتبع الطور الرومانتيكى للفلسفة الجديدة، فى حين أنه فى نفس الوقت عالج بعض الموضوعات المعينة التقليدية من الميتافيزيقيا، التى كان المؤلف قد أغفلها حتى ذلك الوقت ابتغاء نشر وإذاعة وجهة نظره العامة.

وعالجت الفصول الثمانية الأولى من الكتاب مسائل سبق لچيمس أن تناولها تناولاً كاملاً فى مواضع أخرى مثل التفرقة بين "المدركات والمفاهيم". إذ لابد أن يوجد دائماً - كما قال - تباين بين المفاهيم والواقع، لأن الأولى ساكنة ومتقطعة فى حين أن الواقع ديناميكى ومتدفق. وفشل التصور يصححه الإدراك. والمفاهيم "حقيقية" فى "سبيلها الخالد" وهى تدخل فى اتحاد وثيق مع الإدراك وتلعب دوراً مهماً فى الخبرة، ولكنها "ثانوية، وناقصة ووسيلة". وهذا التوكيد بأفضلية وأسبقية الإدراك على التصور أصلى ومعرفى على السواء "هو الاتجاه المعروف بالفلسفة التجريبية" الذى سيتشبث به المؤلف فى بقية الكتاب ويعض عليه بالنواجذ"[٤].

فالتجريبية تتضمن التخصيص والتعددية والجدة، وفى هذه النقطة بالذات طرأت إضافات مهمة على تفكير المؤلف وضعها فى كتابه.

وكانت الحرية دائماً إحدى العقائد الأساسية لفلسفة چيمس. ولقد لاءم دائماً بين ميتافيزيقيته وبين أخلاقياته فى هذا الصدد.

---

(4) S.P.P., 93 ff. 98-101, 106-7. 218. James reitertes his tejection of nominalism and harks back to the view which he had annonuced as early as 1879; cf C.E.R., 109-15.

بيد أن چيمس انتهى إلى النظر إلى "صدفيته" الأولى بتوكيدها على مجرد المصادفة والحظ، باعتبارها شكلاً سلبيًا فقط من أشكال المذهب العقلى. فطبقًا لهذا المذهب فإن الوحدات التى يتألف منها الواقع إما أن تكون متشابهة أو لا تكون متشابهة: والجبرية تقول إنها متشابهة، والصدفية تقول إنها ليست متشابهة. ومن ثم فإن التناقض الظاهرى للصدفية - وشناعته بالنسبة للعقل الفلسفى - يكون فى تركها للمواجيد المختلفة أن يقال إن حدثين متتاليين متشابهان وغير متشابهين فى آن: فالأول يفضى إلى الثانى والثانى ينبثق من الأول. فهنا جدة، ولكنها جدة، عندما تحدث، تبدو طبيعية ومعقولة مثل إتمام اتجاه أو بلوغ وطر. وهذه الفكرة الخاصة "بعالم فى حالة نمو حقًا" هى الموضوع العام والمبحث الرئيسى للجزء الأخير من كتاب "مشكلات الفلسفة"، وهو المبحث الذى ربط بينه وبين برجسون برباط وثيق، وهو المبحث الذى شغل باله - بشكل متزايد فى أثناء السنوات والأشهر الأخيرة من حياته.

بيد أن مشكلة السببية ظلت بلا حل، فى رأى چيمس. لأن الفلاسفة تأرجحوا بين وجهتى نظر مستحيلتين، هما أن السبب والنتيجة متطابقان، وأنهما خارجيان ووجود أحدهما حاجب للآخر. وهذا هو المذهب العقلى مرة أخرى بأبداله الحادة وتناقضاته المنطقية.

فى حين أننا إذا اتجهنا إلى "خبرة النشاط" وجدنا فاعلية "متعدية" لا توجد بين السبب والنتيجة ولا تقسمهما، وإنما تحمل الواحد إلى الآخر وتفضى بهذا إلى ذاك. فإذا ما تساءلنا؛ عما إذا كانت كل الأسباب من هذا النوع التجريبى الاختبارى، فلابد أن يتوقف الجواب على كيفية تصورنا لعلاقة العقل والجسم، وعلى ما إذا نقبل أو نرفض وجهة النظر الروحية المجسمة للعالم المادى.

وهنا توقف چيمس. لقد وعد بمناقشة المثالية والنفسجسمية وبرجسون فى الفصول التالية. ولكن هذه الوعود - لسوء الحظ - لم يقدر لها أن تتحقق أبداً. ولو قدر له أن يفى بها، لكان من المرجح قد بدد كثيراً من الصعوبات الجدية والشكوك التى أثارتها فلسفته. وفى أثناء الفترة التى تدهورت فيها قوته الجسمية، ظلت قدرة جيمس على الود والألفة نابضة لم يعترها أدنى فتور.

وكان إميل بوترو مدير مؤسسة تيير فى باريس، قد نشر فى سنة ١٨٧٤، كتاباً عن "اتفاق قوانين الطبيعة" وجلب له هذا المؤلف اعترافاً وتقديراً على الفور، وكان ناضجاً فى السن والشهرة عندما بدأت صلته الوثيقة بچيمس. إذ على الرغم من أنهما كانا قد تبادلا من قبل رسالة أو رسالتين، فإن چيمس لم "يتعرف إليه" حتى خريف سنة ١٩٠٨ ووجده – على الفور – ودوداً لطيف المعشر (simatice).(٥)

وكان بوترو – مثل چيمس من أبطال الحرية ضد مزاعم العلم – ومثل چيمس كان يؤمن بأن الحق يعبر عن الجزء الأخلاقى والجمالى فى الإنسان مثلما يعبر عن الجزء الفكرى الأكثر ضيقاً وحصراً. وبهذه الصفات والسجايا ولتمسكه بهذه المبادئ المجانسة الموافقة، ولكونه رجلاً بسيطاً مستقيماً لا عوج فيه ولا أمت، انجذب إليه چيمس انجذاباً قوياً. وكانا كأنهما يعوضان الفرصة الضائعة فى السنين الماضية، فإن صداقتهما نضجت بسرعة وأثمرت حباً، وشكلت أحد الأحداث المهمة البالغة الدلالة للعاملين الأخيرين من حياة چيمس.

وفى يناير سنة ١٩١٠، وبصفته مديراً للأكاديمية الفرنسية للعلوم الأخلاقية والسياسية، أعلن بوترو ببالغ السرور، انتخاب چيمس زميلاً أجنبياً ممثلاً لأمريكا، وفى مارس ألقى فى هارفارد سلسلة من المحاضرات، هلل لها چيمس وصفق من صميم فؤاده.

وفى ٢٣ أبريل سنة ١٩١٠، ألقى بوترو بعد عودته إلى باريس خطاباً أمام أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية، وجعل موضوعه الرئيسى "ملاحظات عن رحلته إلى أمريكا" وألقى خطابه فى حضور الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية ثيودور روزفلت، وأمام جم غفير من مشاهير رجال العصر الآخرين.

وأشار فى خطابه إلى أنه لاحظ عن كثب عالم الجامعة فى أمريكا فقال:

---

(5) W.J. to Th. Flournoy, October 4, 1908, L.W.J., 11, 314.

"وأختص عالم الجامعة بالقسط الأوفر من صلاتي وملاحظاتي. إذ كان لي الحظ أن أقيم مع البروفسور وليام چيمس، الذي انتخبناه عضواً زميلاً ضمن هذه الجماعة. ما أشد سحر وفتنة بيت الفيلسوف الشهير. بيت يقف منفرداً وسط المروج والأشجار، مبنى من الخشب على طراز المهاجرين الأوائل، مثل معظم بيوت الحي الجامعي في كامبردج، فسيح الأرجاء، زاخر بالأسفار والكتب من قاعه إلى قمته، مسكن هادئ يليق بشكل مدهش بديع لأصحاب الدراسة والتأمل. وعلاوة على ذلك فإن المتأمل في مثل ذلك المنزل لا يتهدده خطر التدهور إلى الأنانية والتمركز حول الذات. إذ هناك تسود عشرة وألفة وحياة اجتماعية تبلغ ذروة الظرف واللطف والأنس. و"المكتبة" التي يستخدمها البروفسور چيمس باعتبارها مكاناً للعمل، تحتوي ليس مكتباً ومناضد وكتباً فقط، وإنما أرائك ومقاعد وطنافس مبثوثة ترحب بالزائرين في كل ساعات اليوم، بحيث إن الفيلسوف العميق يتأمل ويكتب وسط المحادثات البهيجة التي تدور بين السيدات وهن يتناولن الشاي".

وعلى الرغم من أن صحة چيمس كانت تنذر فعلاً بالخطر، فإن آخر رحلاته إلى أوروبا في مايو سنة ١٩١٠، كانت بسبب اهتمامه بأخيه المحبوب وصديق عمره هنري. بيد أنه عندما وصل إلى أوربا تدهورت صحته سراعا، وشعر عندئذ بأن النهاية قريبة. ومن لندن كتب إلى بوترو في السادس من يوليو يقول:

"منذ غادرت ناوهايم وصحتي تسير من سيء إلى أسوأ.. نوبات تشنجية في ساعات الصباح المبكر، تهد كياني وتطرحني مريضاً طوال اليوم. ولست أقول ذلك على سبيل الشكوى، ولكن على سبيل الاعتذار. لا تبدد عطفك عليَّ، ولا تسرف في المواساة، لأنني أستحق - على الاجمال - بؤسا وتعاسة أكثر مما ألقى. إن معرفتي بك واحدة من أكثر أحداث حياتي سعادة وبرا. وستظل ذكراها دائماً مصدر مرضاة وحظوة".

وقدم إلى أمريكا مساء ٨ أغسطس سنة ١٩١٠، قبيل موته بأقل من ثلاثة أسابيع، كتب چيمس رسالة أخيرة إلى شيلر قال فيها:

"أترك "القضية" أمانة في عنقك. وداعاً وليباركك لله. ستصلك أنباء وصولنا سالمين. حافظ على صحتك، صحتك النفيسة. إنها أحسن وأعز من كل "الحقائق" تحت القبة الزرقاء".

وآخر رسالة حررها - كانت إلى چيمس وارد - وكتبها فى لندن فى يوم ١١ أغسطس.

"لقد قضينا فى إنجلترا زهاء شهرين هذا الصيف، وكانت طبيعة الأشياء تفرض علىَّ أن ألتمس وأبحث عنك، ولكنى وقعت فريسة لأزمة قلبية حادة، بحيث أصبح اتصالى بالناس مستحيلاً. إننا نزمع الإبحار غداً إلى الوطن. وإنى لأبعث إليك بكل هذه التحيات المقرونة بطلب المعذرة والمغفرة".

أما رد وارد على هذه الرسالة فمؤرخ بتاريخ ١٦ أغسطس:

"لا بأس.. فدواعى الأمل والرجاء أوفر من دواعى اليأس. ولنأمل فى الخير، فإن لم يتحقق فليكن ما يكون، ولا بأس أيضاً. لقد كانت حياتك يا صاحبى العزيز حياة ناجحة موفقة، ويقيناً كانت حياة سعيدة. فأنا لا أعرف أحداً ظفر بحب الناس جميعاً على أوسع نطاق مثلما ظفرت. وأنا - على الأقل - لم أسمع كلمة سوء تشينك من أى إنسان. وإنى لأرى بكل وضوح وجلاء، أن التأمل فى زماننا قد افتتح صفحة جديدة حيثما تركت أثراً وأينما حللت".

ووصلت رسالة وارد إلى نهاية مطافها. ولكن لم يقدر لصاحبها أن يقرأها أبداً. فبعد أن حط چيمس رحاله فى كويبك حمل مباشرة إلى نزله المحبب فى شوكوروا، حيث انطفأ سراج حياته بسرعة، ومات فى اليوم السادس والعشرين من أغسطس سنة ١٩١٠.

بيد أن "ملك الموت" فى الواقع صرع چيمس قبل أن يقول كل ما كان عليه أن يقوله. فليس فقط بقى الكثير بلا قول، وإنما كانت هناك مشكلات كثيرة لم يفكر فيها ولم يعالجها. وعندما صرعه الموت، كان عجولاً. بيد أن طبيعة آخر ما شغل بال چيمس واتجاه آخر محاولاته وجهوده تدعم وتساند تصريحه الذى أعلنه قائلاً:

"أعتقد أن لب كل مذهبى، منذ قرأت رينوفيير منذ عدة سنوات مضت، كان الإيمان بأن قدراً يجرى فى الكون وبأن الجدة حقيقة واقعة"(٦).

---

(6) To Jamaes Ward, June 27, 1909.

أما وقد فسر فلسفته وأولها على هذا النحو، فثمة بعض السداد فى حقيقة القول بأن عمل چيمس لم يتم. لقد كتب فى سنة ١٩٠٨. يقول: "لقد شاخ عمرى - بشكل مخيف - فى عامى الأخير - إلا "فلسفيًا" - حيث ما زلت أحتفظ بشبابى"(٧).

بيد أنه "فلسفيًا" لم يحتفظ بشبابه فحسب، وإنما يبدو أنه يزيد شبابًا وفتوة. وليس ثمة ريب فى أنه لم يكن فى أية فترة من فترات حياته، شديد النهم للاستطلاع، وشديد القابلية للتلقى والحفظ، وشديد الغيرة والحماسة فى تأمله وتفكيره، مثلما كان فى سنوات حياته الأخيرة. وبينما نمت قواه الفلسفية وربت خصوبته وثقته بنفسه، فكذلك أيضًا زاد عالمه تعقيدًا وتشويقًا. ومن ثم، فلا مناص وراء الأفق، وأن آخر عمل أنجزه كان لابد أن يكون سؤالاً لا جوابًا.

وعلى الإجمال، يمكن إيجاز فلسفة چيمس برمتها تحت مفهوم التجريبية. ولكنى أعتبر نفسى أخفقت وفشلت إذا لم أكن قد خلفت فى القارئ انطباعًا معينًا يصون ذمتى وذمة چيمس، ألا وهو: أن هناك ضربًا من عدم التناسب فى لصق أى علامة على چيمس. ذلك أن اختزال فلسفة چيمس فى كلمة مبسطة أو عنوان موجز أو علامة على غرار العلامات المميزة للبطاقات، أمر يعتبر إساءة بالغة ضد روح فيلسوف لم يعترض أبدًا على أية خبرة بدعوى أنها باهظة جدًا، ولا على أية جنة عامة يزعم أنها مزدحمة جدًا، ولا على أى عقل متسامح بحجة أنه عابث أو مهوش جدًا. كان دائمًا يشعر بأنه سجين الحدود المذهبية، حتى عندما كان يطبقها على نفسه. لقد أخذ على عاتقه عالمًا نفسيًا علميًا شديد التدقيق والصرامة، ولكنه مع ذلك فاق كل علماء النفس المحدثين فى تعدد وتكرار خيانته لعهوده الميتافيزيقية. فإذا كانت الطريدة التى سعى إلى صيدها قد هربت وأفلتت من الحدود العلمية، فإنه قد تابعها وطاردها غير شاعر على الإطلاق بأنه كان يتخطى تلك الحدود أو يتجاوزها. وفى الحقيقة لقد عبر الخط الفاصل بين علم النفس والفلسفة مرات كثيرة جدًا - ذهابًا وإيابًا - لدرجة أنه محاه محوا كاملاً.

---

(7) To. Pauline Goldmark, May 31, 1908.

ولقد سمى نفسه تجريبيًا وتعدديًا وبراجماتيًا. وفرديًا، ولكنه كلما فعل ذلك، كان يبدأ على الفور يصبو إلى نكهة قدور الأسلوب العقلى، والواحدية، والمذهب العقلى والاشتراكية. كان يحب وجود بدن فى تفلسفه، وكان يكره أن يترك أى شىء له نكهة أو قيمة غذائية، وكان أكثر خوفًا من الضحالة والنحافة مما هو من التناقض أو عدم الثبات.

وعلى هذا، فإن قياس مثل هذا الفيلسوف بالمعايير النظامية المنسقة معناه حذف جزء جوهرى من كيانه وقوامه.

كان يرفع كل شىء يمسه.

ويخصب كل فكرة تجول بخاطره.

ويحمل مشعلاً وهاجًا فى كل تمعجاته وتعرجاته ودوائره.

ولقد شعر بذلك - أيضًا - أصدقاؤه من غير أصحاب الفلسفة مثل ألبرت فين ديسى الذى قال:

"وهكذا ذهب چيمس وولى من هذه الدنيا. ومعنى ذلك أن رجلاً طيبًا صالحًا قادرًا قد نقص من الأحياء الطيبين القادرين على عوننا ومساعدتنا. أما مزية نظرياته أو صدقها، فهذا أمر ليس فى وسعى أن أتصدى للحكم عليه. وأحسب أنه أصاب بعض النقاط الضعيفة فى النظم الأخلاقية والفلسفية السائدة، ولكنه لم يقم مكانها أية نظرية متماسكة. ولكنه، كان يملك، يقينًا، صفة يتحلى بها كل عظماء المفكرين فى نظرى، فى أية ناحية من نواحى التخصص، وأيا كانت المدرسة التى ينتمون إليها، كان ينطق بملاحظات عفوية ذات جدارة عظيمة وميزة كبرى، أيا ما كانت القيمة النهائية لنظامه العام"(٨).

(8) To Mrs. Dicey, August 30, 1910, repreinted from Memorials of Albert Venn Dicey, ed. by Robert S. Rair, Macmillan and Company, London, 1925, 209-10.,

وهذه "الملاحظات العفوية" ذات "الجدارة العظمى والميزة الكبرى"، التى لم يبالغ ديسى يقينا فى شأنها، تفسر لنا الحيوية العجيبة لتأثير چيمس فى النفوس. لقد انتشرت كفروع شجرة التين الهندى، واستقرت جذورها فى أماكن متعددة. كان عقله وافر الثمن وآتى أكله ثمراً جنيًا، وانتشرت ثماره على أوسع نطاق وأبعد مدى. ولم يدخر أى وسع أو يضيِّع أى فرصة فى الجوب والتنقيب والكشف، غير مبال ولا هياب من أن يتيه بعيداً عن الطريق الممهدة. والنتيجة، أنه بينا نجد من الچيمسيين الخلص، بمعنى النسب المباشر، فإننا نجد العالم زاخراً بالچيمسيين الممزوجين، المشوبين بالچيمسية، الذين يقرون بالنسب المشترك له دون الشعور بأى رباط أو قرابة أو نسب فيما بينهم.

ولقد ظلت أفكار چيمس يانعة مورقة مثمرة، فى حين أن أفكار كثيرين من معاصريه ذبلت وذوت ونضب معينها.

وليس مرد ذلك إلى مجرد ما اتسمت به مؤلفاته من خصائص فحسب، وإنما إلى روحها الارتيادية وبصيرتها التنبؤية ونهجها الارتقائى.

وليس من شك فى أن ثمة عناصر من تفكير چيمس تعتبر اليوم فى حالة خسوف، كالأبحاث الروحانية مثلا والتحررية الفردية الخيرية. ولكننا إذا قارنا عام ١٩٤٧ بعام ١٨٨٥، وهو العام الذى يمكن أن يقال إن چيمس بلغ فيه نضجه ورشده، وخططنا حركة العقل الإنسانى والروح الإنسانى فى أثناء فترة الستين عاماً هذه، وجدنا أنه مما هو جدير بالاعتبار حقًا، أن كثيراً من أفكار چيمس تواكب الأفكار التقدمية حتى يومنا هذا. فاهتمامه الذى أولاه للخبرة، والتداخل المباح بين علم النفس والفلسفة فى دراسة الإدراك والتفكير وغيرهما من أشكال المعرفة، والثورة ضد ثنائية الموضوع والذات والجسم والعقل، وضربه عرض الحائط بالعقائد "العلمية" التعسفية فى أشكالها الميكانيكية والتطورية على السواء، ودراسته التجريبية للدين، واتجاهه لأن يعزو قيمة ذهنية إلى الوعى الصوفى، وانبثاق نظرية القيمة، والاعتراف بالمصاحبات الانفعالية، والاقترانات الشخصية الأخرى للتفكير، وعلاقتهما الوثيقة بالسلوك والعمل، وإنزاله

للمطلق من فوق عرشه الذى تربع عليه، وسقوط كل أشكال الواحدية المتطرفة واللاحتمية. وتوضيحه لتيار الوعى الدافق، والاتجاه الإكلينيكى فى علم النفس بتوكيده على الشخصية واللاوعى، ونبذه للترابطية مع التوكيد على الاستجابة الحركية التكاملية والوحدة العضوية لمجال الوعى، ونمو علم النفس التطبيقى والاجتماعى. وبالنسبة فى معانيها الكثيرة الواسعة المدى - هذه كلها بعض الأفكار المألوفة الشائعة فى زماننا المعاصر التى من الممكن أن تتيح لچيمس - لو كان حيا إلى اليوم - أن يتنفس فى جوها بكل يسر، والتى يجد أنصارها من الطبيعى أن يستشهدوا فى تعزيزها بأقوال چيمس.

(٣٨)

خـلال وبيلـة

إن خلق جيمس، مثل تفكيره، يفلت من الوصف. "يا له من شخص حقيقى". هذا ما قاله مينى تيمبل[١].

لقد كان لديه – فى الحقيقة، حقيقة عالمه التعددى الخاص، فياضًا وزاخرًا وبلا حدود ولا سدود ولا تخوم.

ولن أحاول هنا أى تشخيص إكلينيكى، وإنما سألاحظه بعين رجل ليس من أرباب التحليل النفسى ودون فرض مجموعة من الفئات المعينة من قبل باعتبارها قضاء سابقًا.

وإنه لمن الطبيعى أن نطبق فئاته نفسها، وأن نتساءل عما إذا كان متقبلا صعب المراس للحقائق (من بنى جبال روكى) أو رجلا لين العريكة يقف من المبادئ موقف الاحترام، التبجيل (من بنى بوسطون الهينين الليثين[٢].

وفى الواقع من الأمر، كان جيمس كلا الرجلين، أو لعلنا نكون أكثر دقة إذا قلنا إنه كان صاحب عقل صعب المراس مع كثير من الرقة والليونة فى القبول والإذعان العقلى، تمامًا مثلما يمكن القول بأنه كان تعدديًا مع تنازلات مذعنة للواحدية. وما كان جيمس ليوجد هذا التمييز والفرق لو أن خبرته لم تحتضن كلا النوعين من العقلية، ولو لم تكن عنده كل الحالات المزاجية من صعوبة المراس ولين العريكة على السواء، ومن ثم فإن فلسفته

---

(1) V.R.E., 83

(2) Pragm., 12-3.

باعتبارها طريقة تمثل خلقه أصدق تمثيل وتصون ذمته حيال نفسه، كانت تحت إرغام باطني لإرضاء العقليتين والمزاجين والاتجاهين جميعا.

وثمة تفرقة أخرى من تفرقاته الشهيرة، وهي التفرقة التي أصطنعها في كتاب " الأنواع المختلفة للخبرة الدينية" بين " العقل الصحي" و "الروح المريضة". فالعقل الصحي يتمتع بإحساس بالانتصار الميسور أو المؤكد على الشر، ويملي شروطه عليه، ويعتبره عنصرًا غريبًا يمكن التغلب عليه أو قهره. فهو يتمتع - على حد تعبير جيمس - "بمزاج يميل ميزانه - عضويًا - إلى جانب المرح والبسط والطرب، ومحظور عليه - كما لو كان قدرًا مقدورًا - أن يستطيل كما يستطيل أصحاب المزاج المضاد - في النواحي الكئيبة المظلمة من الكون(٣).

أما الروح المريضة، فتتقبل الشر، لا على أنه غير قابل للبرء فقط، وأنما أيضًا على أنه ضروري، وهي تقيم سلامها مع العالم بالشروط التي يمليها الشر، والعذاب هو نفسه جزء من المعنى العميق للحياة يتسامى إلى نوع من التسليم والتوبة والتطهر عن طريق الألم أو السمو بالتضحية بالذات. ولا مراء في أن جيمس كانت له أوقات صحته العقلية وأوقات روحه المريضة، وكان عالمًا بكليهما. بيد أنه كان يتمتع بصحة عقلية عندما كان يتمتع بصحة جسمية، ولكنه كان يمر بمرحلة من سقم الروح عندما كان يعاني من المرض.

وبعبارة أخرى فإن معياره، وخلاصه، كانا يكمنان في استرداد العقلية الصحية.

أما دواؤه المقوي المفضل، وهو التعرض في الهواء الطلق لمغامرة منازلة الشر المحفوفة بالمخاطر، فهو دواء لا يصلح للأرواح المريضة.

---

(3) V.R.E., 83.

على أنه كان لديه ضرب من اهتمام الطبيب بالأرواح المريضة للآخرين، وحيث إن روحه كانت أحيانًا تتطلب العلاج الذى وصفه، فقد كان عالمًا بجدواه وعارفًا بفضله.

وفيما يتعلق بالتفرقة بين من يولد "مرة" ومن "يولد مرتين" فإن حياة جيمس كانت تتميز بعلاقات الأزمات الفجائية، وكان برؤه واسترداده للعافية وخروجه من الأزمات، هذه كلها تميل إلى اتخاذ شكل التجدد أو الولادة من جديد.

ولعل أخصها بالذكر هى "أزمة" ٢٩ أبريل سنة ١٨٧٠، عندما- وجد، وهو شاب لم يتجاوز الثامنة والعشرين من العمر- ليس فقط بصيرة فلسفية فى قراءة "المقال" الثانى [٤]، لرينوفيير وأنما أيضا وجد طريقة حياة.

ومن المؤكد، أن هناك بعض السبب، فى أن نتذكر ذلك الشاب الأكبر سنا الذى كان عمره ٣٢ عامًا، القديس أوغسطين، الذى ما إن سمع كلمات (toll lege) فى حديقته فى ميلان، حتى وجد طريقا للخلاص - فلسفيًا وشخصيًا فى آن - فى قراءة رسائل القديس بولس.

بيد أنه لم يكن فى جيمس مثل ذلك الانفصام الحاد بين الأطوار التجددية والأطوار اللا تجددية، الذى يميز النمط المولود ثانية فى حالاته الحقيقية. ولو كان فيه مثل هذا الانفصام، لما تسنى له أن يكون ذلك الملاحظ المحايد النزيه لخبرته ذاتها أو يكون عالمًا نفسيًا للدين.

وصفوة القول، فإن جيمس تخطى وعلا فوق تصنيفاته ذاتها فى عملية خلقها. فتصنيفاته لا يمكن استعمالها لتحديد تخومه، ولكنها تصلح فقط للدلالة على تعدد جوانبه. واعترافه بها وإدراكه لها وفهمه لها وفقهه لمضامينها

---

(4) Cf. above, 135.

بالقياس إلى خبرته الذاتية، جنحت به أيضًا إلى الإقرار بتعددية وقتية شرطية للحقائق. وكون أى امرئ ينبغى أن يلتمس علاجًا ناجعًا، سواء أكان دواء للجسم أم دواء للروح، خلق قرينة حال تؤيدها وترجحها.

ثم إن جيمس لم يجز فقط تعدد الحقائق واختلافها فى الحساب الختامى، وإنما احتفظ لنفسه بحرية تذوقها كلها. ولعلنا نذكر، أنه عندما أصيب توماس دافيدسون - مثله - بمرض عضال لا برء منه، فإن جيمس كتب له يقول: "فى وسع المرء أن يلقى المرض المميت (أو الذى سيفضى إلى الموت حتما) إما بنوع من الاستخفاف النبيل، أو الترفع العقلى الذى هو من شيمة الرواقيين الذين لا يبالون باللذة أو الألم، أو بالتحمس الدينى. وإنى أشير عليك يا صاحبى القديم بأن تنسج على منوالى وتحاول أن تلهو بالثلاثة معًا، آخذًا كل واحد منها بدوره (pro re nata)"[٥].

فلنسقط من حسابنا كل ما كان يقصده جيمس من رفع روح صديقه المعنوية والتخفيف عنه وإدخال المرح إلى نفسه، ومع ذلك فهذه العبارة تحتوى اعتقادًا فلسفيًا متبقيًا بأن الحقيقة كلها - على نحو ما - تتضمن كل الأناجيل التى تتجلى قيمتها العلاجية فى اللحظات العميقة للخبرة الإنسانية.

وما كان جيمس عفيًا قويًا أبدًا، ولقد ابتلى فى أوقات كثيرة- قصرت أو طالت- أرهقه المرض من أمره عسرًا وأعجزه واستبد به. وفى أثناء الحرب الأهلية، عندما كان شابًا فتيًا فى المرحلة من ١٩ إلى ٢٣ من عمره، كان عاجزًا بكل وضوح عن أداء الخدمة العسكرية، وكانت هناك فترتان طويلتان فى حياته، إحداهما فى شبابه والأخرى قبيل ختام حياته، كان فيهما عاجزًا عن استعمال عينيه.

---

(5) Above, 169.

ومن سنة ١٨٦٧ إلى سنة ١٨٧٣ (أى فى الفترة من سن الخامسة والعشرين إلى الواحدة والثلاثين من عمره) كان يعانى من الأرق، ومن آلام الظهر وضعفه، ومن اضطرابات سوء الهضم، وقضى الخمس سنوات التالية لهذه المرحلة فى فترة نقاهة.

ولقد أجهد قلبه فى سنة ١٨٩٨، قبل موته باثنى عشر عامًا، ولم يقدر له أبدًا أن يشفى من هذه الآفة. فبالنسبة للصحة الجسمية فإن أحسن سنى حياته هى العشرون عامًا من زواجه سنة ١٨٧٨، إلى أن أصيب بالعلة فى قلبه سنة ١٨٩٨، ولكن حتى فى أثناء تلك السنوات فإنه كان يعانى غالبًا من الإجهاد العصبى، ومن نوبات متكررة من الزكام والنزلات الشعبية والأرق وتعب البصر وإجهاده.

لقد كان هناك دائمًا شبح العجز أو التنبيه السابق دائمًا يلوح أمامه.

كتب مرة إلى هوويسون يقول له: "كلنا لا بأس علينا، وأنا أعانى كثيرًا من الإحساس بالعجز، الفكرى والجسدى على السواء بالنسبة للأعمال والمجهودات التى يتعين علىَّ الوفاء بالتزاماتها، ولكن السنين تمضى - على الرغم من ذلك- فى ستر ودون فضح علنى".

وكتب على نفس الوتيرة إلى دافيد سون يقول: "لا يوجد شئ مثل المرض بانتظام أو الصحة بانتظام، أما حالة التذبذب فهى أشدها سخفًا وأكثرها عدم إطاقة"(٦).

وعلى الرغم من هذه الحقائق فإن السقم هو آخر كلمة يوصف بها وليام جيمس. كان دائمًا يصرف طاقته، الجسمية والعقلية على السواء، وكان

(6)To Howison, March 3, 1894; to Davidson, October 3, 1896.
To H.J., March 17 and July 6, 1874.

فرهًا خفيف الحركة نشيطًا سريعًا ومرنًا فى كل رجوعه وردود أفعاله. كان ذلك الرجل الذى يرقى السلم جريًا كل درجتين فى قفزة واحدة. وغالبًا ما كانت فترات مرضه نتيجة للإفراط فى العمل الذى كانت طبيعته تغريه به دائمًا. وعلاوة عى ذلك فقد كان هناك تباين يستحق الذكر بين العجز الذى كان يشكو منه وبين سجل منجزاته.

وبكيفية ما - فإن قوائم طويلة لكتب طويلة - أتم قراءتها عندما كان عاجزًا عن استعمال عينيه، وتدفق منه مقدار كبير من الأفكار عندما كان عاجزًا عن استعمال عقله.

والحقيقة، أن يوم عمل من أربع وعشرين ساعة، ما كان أبدًا طويلاً بالنسبة له، ومهما كان نطاق العمل كبير الحيز فإن جيمس كان لابد أن يتبرم بكل حد وحاجز وتخم.

ولقد تآمرت وسوسته وضعف أعصابه مع قلة صبره وجزعه على المبالغة فى مرضه ، ليس فقط المرض ذاته ولكن شعوره به وتعبيره عن هذا الشعور للآخرين. كان ذا طاقة عالية جدًا، وكان جسمه - إلى درجة عجيبة _ أداة لإرادته. فلا عجب إذن أنه كان عاجزًا عن قبول فرض التلقائية الآلية.

ولقد أخفق وصف سبنسر للحياة على أنها "ملاءمة العلاقات الباطنية والخارجية" على الإطلاق فى الانطباق على حالة جيمس الخاصة.

لقد كان، ولابد أنه كان يعرف، شخصًا بعيد الانحراف عن المركز، شخصًا تتلون حياته الخارجية بلون مصدرها الباطنى. ومعنى ذلك أنه كان صنيعة حالاته المزاجية ذاتها، وفى حين أن هذه كانت عادة سارة مفرحة، لكنها تخضع لتبدلات وتقلبات مرارًا وتكرارًا.

ولقد كتبت أمه سنة ١٨٧٤، فى معرض الحديث عن ميله إلى الوسواس والوهم بالمرض (فى أثناء الفترة التى بلغت فيها أزمة اكتئابه أشده) كتبت أمه تقول :

"إن بلواه أنه لابد أن يعبر عن كل تقلب ينتابه من الشعور، وخصوصًا كل عرض من الأعراض غير الموافقة، دون إشارة لتأثير ذلك فى من حوله، ... وكلما تحدث عن نفسه فإنه يقول إنه لم يطرأ عليه أى تحسين. وهذا ما لا أستطيع أن أعتقد أنه يمثل حقيقة حالته بصدق، ولكن مزاجه مزاج كئيب إلى درجة ميئوس منها، ثم إنه عليه أن يناضل ضد ذلك طوال الوقت إلى جانب نضاله ضد عجزه الجسمانى كذلك"[٧].

لذلك سأبدأ بما يمكن اعتباره أكثر خِلال جيمس كآبة، وإن كنت أحتفظ بشكوكى فيما إذا لم تكن _ بوساطة كيمياء العبقرية، فى الواقع من الأمر خلالا حميدة.

يقول جيمس "فى لحظات العيش الناشط، نشعر كما لو كان هناك شيء معتل وحقير، بل سافل فى النبش النظرى والتأمل. ففى نظر الإحساس الصحى فإن الفيلسوف على أحسن الفروض معتوه لوذعى متضلع فى العلم" [٨].

ثمة عنصر جوهرى فى فلسفة جيمس العملية، وهو هذا التقريظ للعمل والخبرة الخارجية. كتب مرة إلى أخيه روبرتسون فى جد عابث "إن كلماتى الأخيرة التى أودّع بها الدنيا هى "الأعمال الخارجية لا المشاعر"[٩].

---

(٧)To H.J. 2. March 17 an   1874.
(٨)W.B., 74.
(٩)September 15, 187

ولقد ارتضى إنجيل كارليل العمل فى إجابته عن السؤال المهم "ما الذى يجعل الحياة تستحق العيش؟".

وأيد كارليل فى تمجيده العمل البطولى، وشعر بأن الحياة – فى غيابه – تافهة عديمة الجدوى.

وكان إدراكه وتصوره للأخلاق والدين منوطين بالمغامرة والكفاح والقياس إلى ما فيهما من خطر ونزال.

واستخرج من مبدأ "الفعل المنعكس"، أن أية عملية تامة للعقل تنتهى باستجابة ظاهرة جهرية. وكان فى نظريته الخاصة بالحقيقة، براجماتيا فى الصميم.

على أن المرء عندما ينظر تحت السطح ويميط اللثام – وهذا لا يتطلب أى سبر عميق من التحليل النفسى – فإنه يجد أن حض أو حث جيمس على العمل كان موجها – بصفة أولية – لنفسه. لقد اقتحم حياة فلسفية تخامره هواجس عميقة وتساوره الريب، لأنه كان يخشى أن ذلك سيفضى به إلى نزعة من التمركز المرضى حول الذات، وإلى ضرب من اشتغال البال المسؤود بالنفس – ووجد التعليم "عطية من اللـه" غير منتظرة لأنه حوله عن "تلك الدراسات الاستبطانية التى ربت فيه نوعًا من الوسواس الفلسفى الخناس"، ولم تكن لديه القوة الكافية.. "لكى يختار النصيب الآخر من الحياة الأكثر نبلاً"(١٠).

وبعبارة أخرى فقد كان به جنوح مؤكد – إلى الاكتئاب التأملى. Xx وكان يعرف ذلك الداء فى نفسه، وقاومه وانتصر عليه، ولكنه لم يقتلعه من طبيعته أبدًا. لقد كان مظهرًا مقيمًا، وإن كان متقطعًا وثانويًا من خبرته وشخصيته.

---

(10) Cf. above. 125. 136. W.J.2. May 11. 1873 (L.W.J.. I. 171).

** يطلق علماء النفس المحدثون على هذه الظاهرة اسم الماليخوليا (melancholy) أو داء السوداء. المترجم.

أما إنجيله الخاص بالبطولية فقد كان مغزى أخلاقيًا اشتقه لنفسه من خبرته الذاتية. ومن ثم فإن تمجيده للعمل وازدراءه لذلك الصندوق المغلق الفاسد الهواء من التفكير الباطنى والشعور، كان دعوة إلى حمل السلاح، أو صيحة انتصار، منبعثة من مجتلد جهاده الأخلاقى ذاته، حيث كانت قوته مشتبكة فى قتال مع ضعفه.

والأمر الثانى، أن جيمس كان مشغوفًا طوال حياته بما اسمًاه "الحالات العقلية الشاذة". فترويحه ومتابعته للأبحاث الروحانية النفسانية، ولعلم نفس الشواذ عمومًا، ودراساته "للطاقات الخفية" للناس التى تتكشف فجأة فى أوقات العسرة والتوتر، وجمعه ووصفه للخبرات الدينية فى كل أنواعها المختلفة المتعددة، ولكن مع الاهتمام أو التوكيد الخاص بغرابة أطوارها، ونزعته إلى اعتماد الصوفية باعتبارها مصدرًا للمعرفة، هذه كلها تشهد بهذه المشغولية.

إلى أى حد مارس جيمس نفسه "حالات عقلية شاذة؟"

لعلنا نذكر أنه فى فترة ما من الثمانينيات الأولى، اندفع تحت تأثير كتابة صديقه بلود إلى إجراء تجربة على نفسه باستنشاق غاز أوكسيد النتروس (المعروف بالغاز الضحاك وهو مغيب أو مخدر خفيف) وأنه أحدث فضيحة بين أصدقائه الفلسفيين بتشبيه الأثر الحادث ببصيرة هيجيل. ولقد سجل العبارة التالية على اعتبار أنها أبين الحقائق وأشدها تماسكًا، التى تكشفت له فى هذه الحالة:

"لا توجد اختلافات سوى اختلافات فى الدرجة بين درجات مختلفة من الاختلاف وعدم الاختلاف".

وقال إن هذا "له الرنين الهيجيلى الصحيح". ثم وصف نشوات "الانفعال الإدراكى" التى غمرتها وأحمتها[١١].

---

(11) W.B., 297.

ورب قائل يقول: إن هذا الحادث يوحى بمثل الطفل الذى يلعب بأعواد الثقاب، أو الذى يسخر هازئًا من المتخشع القانت. ولقد كان – فى الواقع من الأمر – كلا الاثنين على السواء.

فلقد كان جيمس طلعة – محبًا للاستطلاع – بشكل لا سبيل إلى تقويمه بل بشىء من التهور. وكان ينال متعة من فش ورم توقر العلماء والفلاسفة.

وليس ثمة شك فى أن هذه التجربة، واتجاهه حيال علم النفس المرضى – بصفة عامة – جعلتاه مرتابًا فى فحوى أو مضمون الخبرة الصوفية للآخرين، ومتوانيًا فى اعتماد خبرته الذاتية فى هذا المضمار.

ومع ذلك، فإن حقيقة كونه استعمل خبرته – تحت مخدر – باعتبارها دليلاً لتفسير هيجيل، هذه الحقيقة بحد ذاتها تومئ إلى اعترافه وإقراره بدعاواها الذهنية.

وفيما بعد، فى كتابه "الأنواع المختلفة للخبرة الدينية"[١٢] ، بذل جيمس قصارى جهده لتوضيح أن أسباب خبرة ما "لا شأن لها ألبتة بصحتها أو قيمتها، اللتين تتقرران بثمراتهما".

وفى رأيى، أنه لا يمكن وجود أى شك فى أن الخبرات الأخرى التى لم تكن مدفوعة ببواعث صناعية، تركت فى عقله راسبًا متزايدًا من الاعتقاد. ذلك أنه انهمك فى مغامرات متطرفة من هذا الطراز، مغامرات لها تلك السمة التى يصفها غير المؤمن بأنها هذيان، ويصفها المؤمن بأنها لقانية بدهية.

ومن المرجح أنه فى سنة ١٨٧٠، قبيل تحوله إلى مذهب رينوفيير، عانى من ذلك الهذيان المشهور الزاخر بالخوف، والذى وصفه بكل وضوح وجلاء فى "الأنواع المختلفة للخبرة الدينية" حيث قال:

---

(12) 15 ff.

"ذهبت ذات مساء إلى غرفة اللبس فى نور الغسق لأحضر شيئًا من الخوان، عندما باغتنى فجأة – دون سابق إنذار – كما لو كان قد خرج من جوف الظلام إحساس مريع بالخوف من وجودى، وقع علىَّ وقع الصاعقة. وفى نفس الوقت انبثقت فى عقلى صورة مريض مصاب بالصرع كنت قد سبق لى أن شاهدته فى المارستان، وكان شابًا أسود الشعر بميل جلده إلى الاخضرار، وكان مصابًا بالجنون المطبق، وكان من عادته أن يجلس طوال اليوم على إحدى الأرائك، أو بالأحرى الرفوف المثبتة فى الحائط، وقد ثنى ركبتيه ووضع ذقنه فوقهما بحيث احتوشتا كل وجهه. هذه الصورة مضافا إليها ما داهمنى عندئذ من خوف مباغت، اندمجتا معا وألفتا مركبًا من جنس واحد. وشعرت بأننى هذا المركب – بهذه الهيئة – إمكانًا واحتمالاً، وأن لا شيء فى وسعى ولا فى حوزتى يمكنه أن يحمينى من هذا المصير، إذا حم القضاء ودنت ساعتى ووقعت الواقعة، ونزلت القارعة كما نزلت عليه بلا كاشفة. وبعد هذا تبدل الكون فى نظرى تمامًا. كنت أستيقظ كل صباح – يومًا بعد يوم – وقد انتابنى شعور مريع بالخوف يكاد يقتلعنى اقتلاعًا، وكأنه صادر من صميم أحشائى يصاحبه بالهلع وبعدم أمان الحياة، لم يسبق لى من قبل أن أحسست به أبدًا على هذا النحو، ولم أشعر به أبدًا منذ ذلك الوقت. لقد كان شعورًا شبيهًا بالرؤيا بمثابة كشف أو إلهام، وعلى الرغم من أن المشاعر المباشرة زالت واختفت، فإن الخبرة جعلتنى منذ ذلك الوقت شديد العطف والفهم والحنو على المشاعر المسؤودة للآخرين"(١٣).

وثمة خبرة أخرى أقل وبالة وإن لم تكن أقل حيوية – هى تلك الخبرة التى حلت به فى جبال الأديرونداك فى سنة ١٨٩٨. لقد كان لديه فى كل الأوقات إحساس بالصحبة الوثيقة مع الطبيعة، وخصوصًا مع الطبيعة فى

(13) V.R.E.. 160-1.

حالاتها الطبيعية. وفى هذه المناسبة بالذات، قضى ليلة مؤرقة لم يغمض لـه فيها جفن على سفوح جبل مارسى، فى حالة وصفها "بحالة تنبه روحى فـى ذروة الحيوية". ولقد كتب إلى زوجته يصف تلك الليلة فقال:

"قضيت شطرًا كبيرًا منها فى الغابة، حيث كانت أشعة ضوء القمر تتدفق وتسكب على الأشياء نورًا فى تشكيل سحرى شـبيه بلعبـة الداما. وقد بدا لى الأمر كما لو كانت آلهة كل أساطير الطبيعة قـد عقدت اجتماعًا – لا سبيل إلى وصفه – داخل فؤادى مـع الآلهـة الأخلاقيين للحياة الباطنية. إن المغزى القوى الحاد – من نوع ما – للمشهد برمته، لو كان المرء فى وسعه فقط أن يروى هذا المغزى والبعد اللاإنسانى الشاسع لدخيلة حياته الباطنية، ومع ذلك جاذبيتـه الحادة، ونضارته الخالدة وجدته السرمدية، وقدم عهده المغرق فى القدم وما فيه من بلى منذ القدم، ثم أمريكيته المطلقة، وكل ما توحى به من حب للوطن، وأنت وعلاقتى بك – جـزء لا يتجـزأ منـه جميعًا، وعروة لا انفصام لها، ومخفـوق بـه، بحيـث إن الـذكر والإحساس اندمجا فى دوامة لا سبيل إلى شرحها. لقد كانت ليلة من أسعد ليالى الخلوة فى وجودى، وإنى لأفهم الآن ما هو الشاعر. إنه الشخص الذى يستطيع أن يشعر بالاشتباك الحاد أو المركب القوى للتأثيرات التى شعرت بها، ويفسح لنفسه طريقًا جزئيًا يجوس منـه خلالها ليعبر عنها بالكلام. وفى الواقع من الأمر فلست قادرًا على أن أجد كلمة واحدة توجز كل ذلك المغزى، ولست أدرى أى مغزى كانت تشير إليه، وعلى هذا فلتبق حيث هى قائمة، مجرد قلعـة أو صفات من الانطباع" (١٤).

وفى آخر سنة من حياته، كما سبق أن رأينا، وصف جـيمس أربـع خبرات ذاتية "شاذة" مارسها، حلت به جميعًا بعد سنة ١٩٠٥، وكـان فـى

(14) Cf. above, 255.

مرجوه أن تلقى ضوءًا على موضوع الصوفية. كان يعتقد بأن "هناك متوالية من الوعى الكونى لا يقيم ذاتيتنا فى مواجهتها سوى حواجز عرضية طارئة وفيها تغوص كل عقولنا العديدة، كما تغرق الجداول فى العيلم الزاخر أو المحيط الجبار أو المستودع الأكبر"(١٥).

ولقد بنى هذا الاعتقاد – إلى حد ما – على ملاحظات عادية، وعلى روايات وبيانات وتقارير الآخرين، وعلى نظرية ما وراء الوعى المتسامى التى اتخذها من مايرز. بيد أنه لا سبيل إلى مقاومة الفكرة بأن خبراته الذاتية نفسها – غير العادية – هى التى أيدت الإيمان بما كان من الممكن أن يكون فرضًا مغريًا ولكن مفتوحًا .

صحيح أنه رفض أن ينسب إلى نفسه فضل الخبرة الصوفية، أو أنه على أقصى تقدير أقر بأن فيه "الجرثومة الصوفية".

ولكن، نظرًا إلى كل البيانات المتوافرة لدينا، فإنه يبدو أكثر صوابًا أن تقول: إنه فى الواقع من الأمر مارس خبرات من النوع الذى يسمى صوفيا، وأن يضاف إلى ذلك أن تلك الخبرات كانت نادرة، وأنها كانت تفتقر إلى خصيصة الحجة الدامغة التى عادة ما تخلع عليها، وأنها لم تلعب سوى دور ثانوى فى فلسفته على الإجمال.

أما الخلة الثالثة– من خلال جيمس الوبيلة – فهى قابليته المتطرفة للتغير والتقلب، وكثرة التغيرات البارومترية والترمومترية فى جوه المزاجى.

إن البيان المنشور الوحيد الذى أصدره عن المصادر الشخصية لفلسفته يحتوى العبارة التالية (التى كتبها فى سنة ١٩٠٩ إلى أ. تاونتش الذى أخذ على عاتقه الكشف عن هذا الأمر):

---

(15) Cf. above, 350; M.S., 204.

" أعتقد أنك تبالغ فى تقدير صوفيتى الشخصية. لقد بدت لى المسألة دائمًا بمثابة ضرب من العدل والإنصاف بين الأنواع المتعددة للخبرة، أن يسمح للنشوة الصوفية أن يحسب صوتها فى عداد الباقين. وفيما يتعلق بى شخصيًا، فإن إحساس الحياة العادى الذى تجلبه كل لحظة، هو الذى يجعلنى مزدريًا للمحاولات العقلية لإحلال صيغ منطقية نحيفة محلها. على أن فلسفتى الذرية قد تكون مرتبطة على نحو ما بمزاجى الهلوع الجزوع جدًا. فأنا قوة محركة، أتطلب التغيير وينتابنى الملل سريعًا"(١٦).

على أن عالم جيمس لم يكن ملكًا كبيرًا، أو نصبًا هندسيًا ذا ضخامة كونية وتعقيد لا نهاية له، وإنما كان تيارًا دافقًا، ممرًا مفضيًا، صيرورة وتاريخًا فى طور التكوين.

وليس ثمة ريب فى أنه سواء أكان الكون حقًا أم ليس كذلك، فمن المحتم أنه بدا كذلك لجيمس، لأنه كان هو نفسه دائمًا فى حالة تحرك. فلقد كان هنالك انعكاس خارجى لقلق باطنى وحنين جياش. وكان - على نحو عجيب - عرضة لسراب المتع البعيدة والغائبة.

وكان ينتابه التعب والسأم من أى شىء يفعله قبل أن يفرغ منه بمدة طويلة، وكان يشعر بنفور قوى حياله بعد الانتهاء منه. وثمة عرض ثانوى من أعراض هذه الظاهرة - وإن لم يكن قليل الدلالة والأهمية - هو مقته لقراءة تجارب الطبع، كما تجلى ذلك فى الانفجار التالى الذى لم يستطع كظمه فى أى وجه محرر مجلة (The Psychological Review)

"لا ترسل إلىّ أى تجارب. وإلا فسأعيدها لك دون أن أفتحها ولا أكلمك بعد ذلك أبدًا. فكما تقول المسز ر. " أزل الأدمة من ظربانك" أو استعن بضحاياك الذين وقعوا فى الفخ. أنا من فصيلة النسر وحر طليق"(١٧).

---

(16) Letter to E. Tausch, Monist; XIX (1909), 156.
(17) To J.M. Baldwin, January lo, 1898.

وبعد طبع كتاب "مبادئ علم النفس" أعد بالمر المسكين عدة صفحات لتصويب الأغلاط، ولكنه عجز عن إقناع جيمس بإلقاء نظرة عليها.

أما أخته آليس، التى كانت من أشد الناس إغراقاً فى التشخيص، وحدة فى الوصف، فقد وجدت جيمس " تمامًا مثل نقطة من الزئبق" ليست لديه القوة أو الميل للمواظبة على شيء والالتصاق به من أجل المواظبة عليه والالتصاق به فحسب" (١٨).

وفى معرض الوصف لخبراته مع طبيبة من المشتغلات بالشفاء العقلى، كتب جيمس فى سنة ١٨٨٧، لنفس هذه الأخت قائلا:

> " إنى أجلس إلى جوارها وسرعان ما يغلبنى النوم وأستغرق فى سبات عميق، فى حين أنها تفك العقد التى تخبل عقلى. وهى تقول إنها لم تصادف فى حياتها عقلاً زاخرًا بكل هذه العقد وبكل هذا الاضطراب والقلق.. إلخ .. وقالت أيضًا – إن عينى – من الوجهة العقلية – تظلان دائرتين كالعجلات أمام بعضهما وأمام وجهى، ولقد تطلب الأمر أربع أو خمس جلسات قبل أن تستطيع أن تثبتها. وأحسب أنه يطربك أن تسمعى رأيًا فى عقلى شبيهًا برأيك فيه"(١٩).

وكون مزاج جيمس الزئبقى جعله أحياناً صعب المراس يرهق من يعاشره عسرًا، فما كان ذلك بسر خفى، على أية حال فى نطاق الأسرة.

وثمة إشارة معكوسة إلى ذلك فى الفقرة التالية المقتبسة من رسالة كتبها وليام فى أول يونيه سنة ١٨٩١، فى شوكوروا إلى هنرى وآليس فى لندن:

---

(18) L.W.J., I. 289-90.
(19) L.W.J., 26I.

" لقد أصبحت أبويا بطريركيا أكثر من أى وقت مضى. فى الأسبوع الماضى استقدمنا ثلاث مربيات للأطفال دفعة واحدة، فأصبح عدد النساء فى البيت تسعًا فى مجموعهن. وأعتقد أنه حتى (الأخت) آليس لابد أن تشعر بوخز الضمير إذا قدر لها أن ترانى على هذه الحال، معبود هذه القبيلة من الأقارب والأتباع، مكرمًا ومبجلا ووقورًا، رابط الجأش دائمًا، لا أثير أى قلق أبدًا، ولا ألح بأى "رغبات"، لا أغض أبدًا من شأن ما فى يدى، ولا أحتج أبدًا على ظلم آراء الآخرين وبخسهم، أو أعارضهم أو أفحمهم أو أضيق عليهم الخناق، ولا أناقش أبدًا النوادر الشخصية من وجهة نظر المنطق المجرد أو الحق المطلق. ولا أبتغى أبدًا مثلاً ثانيًا أو ثالثًا إذا كان فى المثل الأول أو الثانى ما يفى بالغرض. وصفوة القول إننى أتنفس جدًا من السلام والسكينة حيثما حللت شخصية نبيلة وقوية حقًا.. ولكن دعينا من ذلك ففى هذا القدر ما يكفى: وحيث إنك ليس فى وسعك أن تشاهدى هذه الحال، فمن الخير أن تسمعى عنها على الأقل. وإنى لأخشى أن أثيرتى آليس فى غاية الخجل، بحيث تتحرج من أن تكتب مثل هذه الأشياء".

على أن جيمس كان دائم الشكوى من حشد من المشتتات. لقد كتب يقول: "إن المرض المزاجى الذى أعانى منه هو ما يسميه الألمان حالة التمزق شذر مذر (Zer-rissenheit)" فالأيام مكسورة فى تعوج ومقاطعة.. لشد ما أتوق إلى اثنتى عشرة ساعة من العمل فى شغل واحد، فأكون أسعد الناس" [٢٠].

وعلى الرغم من أنه عزا هذه الحالة إلى بيئته، وسعى إلى الهروب منها فى مكان ما، فإنه كان عارفًا فى صميمه، أن طبيعته ذاتها، وليست الظروف الخارجية، هى التى تعذبه وترهقه من أمره عسرًا.

(20) To Mrs. Glendower Evans, Atlantic, CXLIV (1929), 380.

وعلاوة على هذه الأعراض من الغرارية والتقلب، والقلـق والجـزع وتشتت الانتباه والريعان والعناد والشكاسة، كانت هناك تبدلات أعمـق فـى المزاج. ومن ثم، فى يونيو سنة ١٨٦٥، كان متأكدًا مـن أن رحلتـه إلـى البرازيل كانت "غلطة" بينا نجده فى أكتوبر فى روح معنوية عاليـة حامـدًا شاكرًا للأقدار أن عاد منها سالمًا غانمًا[٢١].

وفى خريف سنة ١٨٨٧، وعلى الرغم من أن فصوله كانـت كبيـرة العدد وناجحة، وكان منهمكًا فى كتابه "مبادئ علم النفس" " وقد استرد قـوة إبصاره، وبرأ من الأرق، واستعاد قدرته على المشى وعلى العمـل"، فـإن شغفه بالحياة وحماسته لها وإقباله عليها أصابها الفتور والكلال علـى نحـو غريب [٢٢].

لذلك نجده يكتب فى السادس عشر من أكتوبر إلى أخته قائلاً:

"لقد عاد آل إلبوت لتوهم بعد عام من الغياب فـى الخـارج. ولـم أشاهدهم بعد. وسواء أكان منظره الجامد البارد فى مركز الإدارة، أم شيئًا خلاف ذلك، وسواء أكان الأمر ربما يرجع إلى حقيقة أننى لم أتخرج فى هذا المعهد فلست أدرى. ولكن شيئًا واحدًا أنا علـى يقين من أمره، وهو أننى على الرغم من أننى أخدم كلية هارفـارد ما وسعتنى إلى تلك السبيل، فإننى لا أشعر حيالها بأى محبة مطلقًا، وإنى لأرحب بهجرها إذا ما واتتنى أية فرصة للعمل بـأى معهـد آخر يعرض علىَّ أجرًا أحسن".

والرسالة التالية التى كتبها لأخيه هنرى فى ٢٤ نوفمبر تفـصح عـن ثبات واستمرار هذه النزعة:

---

(21) Cf. above, 75, 76.
(22) W.J., to H.J. 2, November 24, 1887.

"يسعدنى أنك تكتب عن عملك بكل هذه الحماسة والثقة. تلك هى السبيل السوية للشعور، بشرط أن يتسنى للمرء أن يشعر كذلك، ولكن كيف السبيل إلى ذلك وقد غمرنى برود عجيب بالنسبة لكل أعمالى وإنتاجى فى خلال الأشهر الستة الماضية، ولست أدرى إذا كان مرد ذلك إلى أننى أجتاز ذروة سن الخامسة والأربعين، أم أن ذلك راجع إلى سبب ممكن إصلاحه، ولكن كل شىء فعلته أو سوف أفعله يبدو صغيرًا جدًا، ضئيلاً جدًا تافهًا جدًا".

وبحلول خريف سنة ١٨٨٨، يبدو أن هذه الحالة قد زالت وتلاشت:

"إن العام الدراسى فى كمبريدج يبدأ بحميا وسورة، فلدى فصل كبير من الدارسين فى مقرر الأخلاق. ولدى سبعة من طلاب الدراسات العليا من خريجى الجامعات الأخرى فى فصل الدراسات العليا فى علم النفس، مما يجعل عبء العمل علىّ كبيرًا، ولكنى مع ذلك أشعر بإقبال على العمل وبارتفاع فى روحى المعنوية على نحو لم أعهده من قبل، وأشعر أننى سأخرج من ذلك كله سليمًا معافى مشرقًا. وفى نيتى أن أقرأ كثيرًا هذا العام، وليس فى عزمى أن أكتب، وإنى لأتوقع أن أتمتع بعامى هذا تمتعًا كبيرًا"(٢٣).

وإذن، فالتذبذب من النوع السريع والمندفع، أو الإيقاع الطويل من النشوة والانقباض، يعتبر من الخصائص المميزة العميقة لطبيعة جيمس. وهى خصيصة تنعكس فى عالمه، الذى هو مسرح لتغير فجائى وموصول على السواء، وتنعكس فى عقله المتغير المتحول الدوار الطواف الذى لا يفتأ ينتقل من خط إلى آخر، ويجوب الآفاق والأركان أو يشرع فى أسفار جديدة.

وأخيرًا فقد كان لدى جيمس نفور مزاجى من كل سبل التفكير المحدد المضبوط، وسواء أكان من الممكن اعتبار العجز النسبى فى المنطق

(23) To H.J. 2, October 14, 1888: L.W.J., I. 283.

والرياضيات عرضًا من أعراض السقم الروحى، فهذا ما لا أزعم قوله. ثم هناك شك أيضًا فيما إذا كان جيمس عاجزًا إلى هذا الحد فى هذا الاتجاه على النحو الذى شعر به فى هذا الصدد.

وعلى أية حال، فقد كان يشعر فعلاً بأنه عاجز فى هذه السبيل، وصرح بذلك مجاهرة.

ولقد بذل محاولات متأخرة للنهوض بمستوى تعليمه الرياضى. وفى هذا الصدد كتب فى سنة ١٨٩٣، إلى فلورنوى ما يلى:

> "هل تستطيع أن تذكر لى أى كتاب مبسط عن حساب التفاضل والتكامل يعطى بصيرة فى فلسفة الموضوع؟ لقد فرغت لتوّى من قراءة رسالة قصيرة كتبها أحد زملائى، ولكنها دغل زاخر بالمعادلات والإحصاءات من أية فكرة عامة واحدة، وأنا أريد أفكارًا لا معادلات رياضية" (٢٤).

ولكن جيمس، على الإجمال، كان من السهل مؤاساته. ولقد سر سرورًا بالغًا عندما وصف أحد طلابه مادة الجبر "بأنها شكل من المكر السيئ" (٢٥).

وفى هذا الصدد كتب إلى بيرس:

> "أنا لا منطقى، إن لم أكن غير منطقى، وأنا سعيد بأن أكون كذلك عندما أجد برتى راسل يحاول أن يتمعن فيما تعنيه المعرفة الحقة، فى غياب أى عالم محسوس ملموس يحيط بالعارف والمعروف. تبًا له من حما" (٢٦).

---

(24) May 5 and May 12. 1893.
(25) L.W.J.. II. 237.
(26) December 24. 1909.

ومن ثم فإن الافتقار إلى الرياضيات والمنطق لم يحرم جيمس من العلاقات الوثيقة بالكون، على أية حال بالكون الجيمسى. بل على النقيض.

بيد أن هذه الذريعة التى تذرع بها جيمس لعجزه، لم تكن عند تشارلز بيرس مسألة هذر لا تحمل على محمل الجد. لقد كان شعوره حيال جيمس مشوبًا بشىء شبيه بإحساس أصدقاء المستر سكيمبول، عندما أشار الأخير بكل رقة إلى أنه "طفل" "ولا يفهم المال". فبيرس لم يكن فقط ينتمى إلى قبيلة الرياضيين والمناطقة، ويمارس هذين الموضوعين بمهارة بارزة، وإنما كان يعتقد أن الرياضة والمنطق تمثلان كمال الوضوح، ومن ثم الذروة السامية للجلاء والبيان.

وعلى هذا الأساس استند فى شكواه "بأن الشخص عندما يلقى سلاحه" كما يفعل جيمس "بأنه لا يستطيع أن يفهم الرياضيات، فمعنى ذلك أنه لا يستطيع أن يفهم الواضح، فذلك يسد الطريق أمام المزيد من التفاسير" [٢٧].

وفى محاضرات هيبرت لسنة ١٩٠٨، نبذ جيمس المنطق على الملأ وبكل جد ووقار. صحيح أن الأمر لا يخلو من بعض التساؤل بالنسبة للمدى المحدد المضبوط لهذا النبذ، حيث إنه أشار مرارًا وتكرارًا إلى المنطق الذى نبذه بعبارة " المنطق العقلى" أو "منطق التطابق" على اعتبار أن من المرجح أن هناك ضربًا من المنطق ظل مخلصًا له وحفيًا به[٢٨].

وصحيح أيضًا، أنه فى نفس اللحظات التى كان يزمع فيها نبذ المنطق، كان منهمكًا فى عمليات عقلية فى غاية التدقيق تحمل شبهًا عجيبًا لما يسميه الناس الآخرون بالمنطق.

بيد أن حقيقة دحضه "للمنطق العقلى" فى حد ذاتها، سواء أكانت صوابًا أم خطأ، لم تكن على سبيل الجزم، لا تعسفية ولا انطباعية، ولا

(27) Cf. above, 292.
(28) P.U., 208, 212.

تجريبية، ولكنها كانت دلالة بينة – بوجه خاص – علـى التحليـل الكـدود المدقق.

ثم هناك اعتبار آخر، فعلى الرغم من ترديد عجزه فى الرياضـيات، فإنه تمعن فى النظرية الرياضية للانهائى بعناية فائقة، ولم يكن سبب نبذه لها أنه عافها وكرهها وإنما لأنها بدت له باطلة.

ولكن، فى حين كان جيمس منساقًا على هذا النحو، وبصفة دائمة إلـى سبل التفكير المضبوط، بسبب رغبته فى الوضوح والإبانة والإقناع القاطع، فإنه كان فى نفس الوقت يعانى صدا ونفورًا فى هذه الـسبيل مـن جـراء اشمئزاز مزاجى وريبة فى هذا المنهاج. وهذه المشاعر مضافة إليها نزعـة طبيعية لتلمس تسويغ ميتافيزيقى لها، تضافرت جميعًا لتدفعه إلى توكيـدات كاسحة مبالغ فيها عن لا عقلية الوجود.

وعلى هذا، فإن أى جرد لخلال جيمس الوبيلة، لابد أن يضم نزعاتـه الوسواسية، وخبرته فى التهيؤات العصبية (الهلج)، وتذبذب حالت المزاجيـة من النقيض إلى النقيض على نحو شاذ، واشمئزازه الذى يكـاد يبلـغ حـد المرض من طريقة التفكير التى تستخدم التعريفات المحددة والرموز وسلاسل الاستخراجات.

وفى تسميتى لهذه الخلال "بالوبيلة" أو "المرضية" لست أعنى سوى أنها إذا أخذت فى حد ذاتها، ومن حيث هى خلال فإنها عادة تعتبر عيوبًا ومثالب. ولكنها بالقياس إلى شخصية جيمس وتفكيره وفى ارتباطها بهما، فإنها تعتبر عناصر ومركبات ضرورية لمادة الميج، مثلما هى ضرورية لنكهته سـواء بسواء.

(٣٩)

خلال حميدة

عندما تطرح خلال چيمس الحميدة على بساط البحث، فإنى أجد أربع خلال شاملة تكتنفه بشكل عجيب: الفطنة، وخفة الروح، والإنسانية، ولطف العشرة.

وعندما أقول إنها خلال حميد، فلست أعنى فقط أنها فى حد ذاتها تعتبر عادة مزايا لا عيوب، وإنما أعنى أيضاً أنها كانت تسيطر على چيمس عندما كان يتمتع بالإحساس بالرفاهة، أو عندما كان يشعر بنفسه فى ذروة ذاتيتها، واكتمال تمثيلها لدخيلته.

وعندما أتناول أولاً، فطنة چيمس، فلست أقصد قابليته للتأثر بالشعور أو الانفعال، وإنما أعنى مضاء حواسه وضخامة ودسامة وثراء الخبرة التى يتلقاها عن طريق حواسه، ونتوء وبروز تلك الخبرة وما تنطوى عليه من محفز فى حياته ككل . فچيمس يخبرنا بأنه لم يكن من أصحاب التصور أو التخيل فيما يتعلق بذاكرته أو خياله.

ومن جهة أخرى، فإن شهادة كل من عرفوه تجمع بلا استثناء على أنه كان كثير التعويل فى حياته على العينين . كان تواقا إلى أن يرى الناس الذين يعرفهم، وكان يتبادل الصور مع أصدقائه، ثم إنه صنف «مجموعة أنثروپولوجية» كبيرة لكى يدرس السيماء البشرية[١]. وكان لا يفتأ يلاحظ وينقب بكل شغف واهتمام فى كل ما حوله، فى الطبيعة والفن والحياة . ولأنه كان رساماً، فإن البصر كان بلا شك حاسته الرئيسية. وعلى حد تعبيره، كان «يستوعب الأشياء بوساطة عينيه».

---

(1) L.W.J., I, 51.

ولكن على الرغم من أنه وصف نفسه «بالهمجى الموسيقى»[٢] فإنه كان صاحب إذن لاقطة حاسة، سريعة التمييز لطبقات الصوت ونغماته وخصوصًا فى خصائص الصوت الإنسانى.

وكتاباته النفسية تشهد بقدرته الفائقة على تمييز الأحاسيس العضوية.

وحيث إنه كان يملك موهبة حسية فائقة، ولكونه كان شرها لممارسة الخبرة الحسية المباشرة، فلا عجب أنه كان يشعر بأن مثل تلك الخبرة قادرة على نقل الإفشاء الصحيح الأصلى للواقع. فالغرض الأساسى الذى يقوم عليه كل ميتافيزيقيته - وإن كان لم يبح به - هو أن الشخص الذى يملك أشد حساسية لضبط كل ما فى الكون من أنغام وتوفيقها، هو فقط الذى يستطيع أن يتحدث عنه حديث خبير عليم يعول عليه.

وعنده، أن الميتافيزيقيا هى إدراك وفهم للواقع فى أكثر نواحيه مباشرة وحيوية، أو إنصات «لسماع نبض الخالق وهو يخفق».

وعندما قال إنه لم يجد «أى بينه. مقبولة ترخصه، ولو حتى مجرد الإثبات فى وجود أى واقع أو حقيقة ذات تسمية أعلى من تلك الموزعة والمنسوخة والمتدفقة فى تيار الواقع الذى نعوم فيه نحن البشر الفانين[٣]، فإنه كان يضع تعويله النهائى على الجهاز الإنسانى المختص بالإحساس أو ناقله. ونفس الحافز يظهر فى كل ضروب كراهات چيمس الفلسفية المألوفة. كان دائمًا يهاجم الشقشقة الكلامية والحرفية. وقال فى هذا الصدد : كم هو أجدى وأنفع، قائمة طعام «وعليها بيضة حقيقية بدلاً من كلمة (بيضة).».

(2) W.J. to G.H. Hawison March 3, 1894; to T. Davidson, October 3, 1896.

(3) W.B., 141; P.U., 213.

كان يكره التجريدات، ويؤثر أن يكون مثل آجاسيز أحد «الذين يعيشون فى ضوء الامتلاء والكمال والتمام المحسوس للعالم»(٤).

وكان يبدو دائمًا كمن جرف الحقيقة بمغرفة كبيرة ورفعها بيده على أمل أن يمسك بها حية.

وحيث إن اهتمامه كان منصبا على الواقع الماثل أكثر مما هو على الإسلاف والماضى، لذلك كان قليل الاحتفال نسبيًا بالأصول والتواريخ.

كان يرى أن سؤال «لماذا؟» - كان إن عاجلاً أو آجلاً سؤالاً عقيمًا لا جدوى منه، وأن الجواب الأخير فى نهاية المطاف لا بد أن يكون «ماذا» أو «كى» بدون «لماذا».

وعنده، أن العالم له سيماء نهائية، ونغم ووقع، ونكهة أو كيف، وأن هذه السيماء بمجرد أن يفطن إليها وتفقه يجب أن تقبل كما هى . وكانت ميتافيزيقيته محاولة موصولة دائمة لفقه هذا الكيف النهائى.

ومن ثم فإن ميتافيزيقية چيمس تعكس الخصيصة الحسية التصويرية لعقله.

ولكن هذا التفسير ينبغى ألا يؤخذ ببساطة مفرطة. فاللقانة أو بصيرة النفس، طبقا لبرجسون، مباشرة، ولكنها لهذا السبب بالذات، ليست سهلة المنال، وهكذا، فى حالة چيمس فإن خبرة چيمس الحقيقية بالواقع كانت عسيرة وغير عادية.

أن الرسام يخبرنا أنه يرسم المنظر كما يراه، وهذا يبدو لنا أمرًا فى غاية البساطة، حتى نكتشف أن عين الرسام وحدها هى التى تستطيع أن ترى حقًا.

شىء شبيه بذلك هو ما يحدث فى حالة رؤيا چيمس الميتافيزيقية. فثمة لحظات من حين لآخر، عندما تستوعب الخبرة ويتم تذوقها بالتمام والكمال، فى نشوة صباح ندى يانع غض، فى لحظات الألم والمعاناة، فى أوقات لذة الانتصار بعد كفاح وجهاد

---

(4) V.R.E., 500; M.S., 14.

عندما تكون النكهة نفاذة، والرنين عاليا، عندما تكون كل نغمة ونبرة وصدى وعزف حاضرة ماثلة . هذه هى اللحظات التى يمسك بها چيمس ويعض عليها بالنواجذ ويقف عندها ويقول: «هى ذاك الواقع شبيه بذلك» . ولكن عقولنا الدنيوية زاخرة بأفكار جاهزة موجودة من قبل، وعندما نمارس الواقع فإنه يكون عادة عليه خاتم هذه الأفكار القبلية، فعقولنا متعودة مختلف الطرق المختصرة «والتخريمات» العديدة، وضروب الحذف، وصنوف الاختصارات، وألوان الاختزالات التى تمليها الدواعى العملية للراحة، وما يحذفه كل أولئك ويفوت عليها، فإننا عادة لا ندركه . ومن ثم فإن الرؤيا الميتافيزيقية، مثل رؤية الرسام، تتضمن استعادة للبراءة والسذاجة وسلامة النية، وإمساكا بالزواغ والفرار، ومدخلا لسرعة التأثر غير طبيعى.

والكيف الذى ينكشف لچيمس عندما يبلغ رؤياه الميتافيزيقية هو التعدى والاجتياز. فمن الخصائص المميزة للعقل فى عملياته الرتيبة المطردة النسق أن يتمسك بنهايات المطاف، بالأهداف الأخيرة، ببلوغ المآرب، بالخواتيم، والفلسفة عادة تعكس هذه الخصيصة بأن تعالج الواقع على أنه ناتج تم إنجازه، وحصيلة اكتملت . أو، إذا ما ثارت على مثل تلك الكمالية، فإنها قد تقفز من النقيض إلى النقيض وتعلن أن الواقع ليس سوى مجرد سلب ونقيض للتمام. وكلا هذين الرأيين - فى نظر چيمس - مجرد وجدلى.

ولكن من الناحية الملموسة المحسوسة المقررة - عندما تنفذ إلى لبابة وتستشعره فى صميمك وتفقهه وتغوض فيه، فإن الواقع حركة من نهاية مطاف إلى نهاية مطاف، سعى فى طلب مآرب وغايات وأهداف، ووصول إلى نتائج وخواتيم . فالواقع فى طريقه إلى شىء. والواقع ليس هو محطة الوصول ولا نهاية المطاف، ولا هو مجرد الحركة، وإنما هو تلك الصفة المقررة المحسوسة، والتى من المرجح أن تفوت على العقل التحليلى، ألا وهى التغير الصوبى أو الفحوى . وهو لا هو شكل ولا مادة، ولا هو مزيج من الاثنين، وإنما هو طواعية وسلاسة حيث تكون المادة فى عملية اتخاذ هيئة أو شكل أو صيغة.

بيد أن چيمس لم يخترع هذا الرأى لكى يلائم لزومياته النظرية، وإنما كان ما فطن إليه وأدركه عندما خبر الخبرة ومارسها. ومن ثم نجد چيمس، كلما قامت القريحة بعمل تمييزات وفروق، يحاول أن يستعيد المحسوسية الفطرية، ليس برص الفروق والمميزات مع بعضها بعضا، ولكن باستعادة الأصل كما كان قبل أن تختار هذه الفروق وتفصل هذه المميزات وتعزل عن بعضها وترص إلى جوار بعضها.

ولعل الفقرة التالية توضح لنا طريقة چيمس التصويرية فى التفلسف، ومحاولته لأن ينقل بكل إخلاص وأمانة ما وسعه إلى ذلك السبيل، الوجه المعروض مباشرة من موقف ما أو وضع ما، وكذلك تلك الخصيصة العجيبة النادرة المثال من أسلوبه من التركيب والتلئيم التى تميز طريقته الفذة فى رؤية الأشياء. ولقد وردت هذه الفقرة فى معرض محاجته بأن الواقع ليس واحداً على الإطلاق ولا متعدداً على الإطلاق، ولكنه تيار دافق تمتزج أجزاؤه وتتحد حيث تمارس وتتلامس، ويحجب بعضها بعضاً، وتبعد بعضها بعضًا، حيث تزداد الأبعاد والمسافات والفواصل فيما بينها. وفى نفس الوقت نجده يحاول وصف علاقات الخبرات الخاصة للأفراد بالعالم المشترك الذى يعيشون فيه.

«لأول وهلة، إذا أردت أن تشبه عالم المثالية المطلقة بمعرض للأحياء المائية، بكرة أرضية بلورية تسبح فيها الأسماك، فيتعين عليك أن تناظر العالم التجريبى بشىء أشبه ما يكون بإحدى تلك الجماجم التى يزين بها قبائل الدياك فى بورينو مساكنهم، فالجمجمة تشكل نواة مركزية مجسمة صلدة، ولكن الريش وأوراق الشجر والخيوط والخرزات والزوائد السائبة من كل صنف ووصف، والتى لا حصر لها ولا عدد، تتدلى منها وتسبح من حولها - وفيما عدا أنها تنتهى فيها وتتحدد فى إطارها، فإنها تبدو أن لا شأن لبعضها ببعضها الآخر. وكذلك، صحيح أن خبراتى وخبراتك تسبح وتتدلى منتهية ومتحددة فى إطار نواة مركزية من الإدراك المشترك، ولكنها فى معظمها خفية ولا علاقة لبعضها بالبعض الآخر، ولا يمكن تصورها بالنسبة ببعضها بعضا. فالأجزاء البعيدة من العالم المادى هى فى كل الأوقات غائبة عنا، ولا تشكل سوى مجرد موضوعات تصورية تدخل حياتنا نفسها فى واقعها الإدراكى عند نقاط منفصلة قائمة بذاتها ونادرة نسبيًا وحول النويّات المركزية الموضوعية

للعالم المادى الواقعى، المشترك جزئيًا والمنفصل جزئيًا، فثمة عدد لا حصر له من المفكرين، فى سعيهم فى دروبهم العددة من التمعن الطبيعى الصحيح، يترسمون طرقا ومسالك تتقاطع مع بعضها فقط، عند نقاط إدراكية منفصلة غير مستمرة، ولكنها فى بقية الوقت مخالفة ومغايرة تمامًا، وحول كل النويات المركزية «للواقع» أو «الحقيقة» المشتركة، مثلما هى الحال حول جمجمة الدياك التى استعرت تشبيهها آنفا، تسبح السحابة الضخمة العظيمة من خبرات ذاتية شخصية بالكلية، خبرات غير قابلة للاستعاضة أو الإبدال، خبرات لا تجد حتى عافية منتظرة لنفسها فى العالم الإدراكى، وإنما هى مجرد أحلام الأمانى واليقظة والمتع والآلام والآمال والرغبات الخاصة بالعقول الفردية . وهذه توجد – حقًا – مع بعضها ومع النويات المركزية الموضوعية، ولكن خارجها جميعا، فمن المحتمل – أبد الآبدين – ألا يصطنع أى نظام تداخلى ترابطًا من أى نوع»(٥).

وبفضل فطنته كان جيمس ذا قابلية فائقة لتلقى الانطباعات. ولكنه كان يقابل انطباعات عند أبعد من منتصف الطريق، ويتصرف بمقتضاها ويسعى إليها سعيًا . وكان طبيعيًا خفيف الروح حيويًا . وقال عن نفسه: «أنا قوة محركة وغير مهيأ أخلاقيًا للعبة الصبر»(٦).

وكان يقصد بذلك أولاً، أنه كان أحد أولئك الذين «فى الذاكرة، والتفكير وكل عملياتهما الفكرية» يفيدون من «الصور والأخيلة المشتقة من الحركات» بدلا من البصر والسمع واللمس.

ولكنه كان يقصد أيضًا، أن ذلك النمط الحركى من التخييل والتصور كان مرتبطًا بالسرعة النسبية لرد الفعل .

(5) E.R.E., 46-7, 65-6.

(6) W. J. to Pauline Goldmar;, September 14, 1901; L.W.J., II, 163.

ومن المستحيل قراءة وصف چيمس «للإدارة المتفجرة» كما يمثلها الرجل الذى «يتربع على عرش صحبه، ويغنى كل الأغنيات، ويلقى كل خطاب، ويمسك بزمام الحفلات، وينفذ الدعابات والفكاهات العملية، ويقبّل كل الفتيات، ويعارك كل الرجال. وإذا اقتضى الأمر، يتصور كل مجازفة ويخاطر مستقتلا فى كل مشروع» دون حدوث نغمة تعاطف وجدانى وفهم من جانب الكاتب نفسه(٧).

هذه الحيوية وخفة الروح، وهذا التلذذ والطرب، وهذه الشهية المنفتحة، وهذا الاشتياق والحماسة، ميزت چيمس من باكورة عمر، «باعتباره ابن وأخاً» لقد قالت أخته آليس ذات مرة إنه يبدو «أنه يولد من جديد كل صباح»(٨). «لقد هبط من غرفة نومه راقصاً ليرحب بى» ذلك ما قاله أبوه يوم أن ذهب ذات يوم إلى كمبريدج فى سنة ١٨٨٢ لزيارته (٩). وليكن معلوماً أنه كان نبعاً فياضاً ومعينا لا ينضب، ولم يكن تياراً ذا أخاديد. ذلك أن النبع متقلب الأطوار فى فيضه، يبعثر نفسه بنزق وطيش. والأمر الأخاذ المميز لچيمس لم يكن مقدرته على العمل، وإن كانت تلك المقدرة فائقة تدعو للإعجاب، ولكن مقدرته على اللعب، فأيما شىء فعله، كان يفعله بمقدار ومعيار ولكن دون حساب دقيق نيق لنفعه.

وكانت هذه الخلة، أكثر من أى خلة أخرى، هى التى أوحت إلى الناس بعبقريته.

لقد كان فيه إثمار وخصب وسخاء وإسراف وتدفق إلى أعلى من أعمق خفية تومئ إلى منبع أصيل لا مجرد حيلة أو صنعة أو أداة.

بيد أنه كانت هناك أشكال خفيفة وطفيفة من حيوية چيمس، وأشكال جدية وخطيرة الشأن منها.

---

(7) Psychology, II, 61-5, 538.

(8) A.J to H.J. 2, June 3, 1888.

(9) Cf. above, 25.

كان يلبس أربطة عنق زاهية . وكانت عنده روح دعابة وفكاهة فى أسمى مراتبها، وكان عادة هو نفسه محركها الرئيسى . وكانت له أيامه من الشعور «بالمرح والتلهى بصفة خاصة»، ولكن قدراً معينا من المرح كان يتوقع منه فى أى وقت.

وعلى هذا، نجده يكتب إلى فلورنوى فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٠١ إبان إكماله لمقرره الثانى من محاضرات جيفورد: «إن روح الأذى القديم يستفيق فى صدرى، وبدأت أحس قليلاً كما اعتدت فى الماضى».

وفى دوائر الأسرة التى انتمى إليها چيمس، كان الضحك من أبرز مظاهر نشاطها الرئيسية . ولم تكن موجات هذا الضحك وانفجاراته تبدد أبخرة الوسوسة وضعف الأعصاب فحسب، وإنما كانت ساحقة ماحقة لأى استكبار أو ادعاء كاذب أو تصنع أو تزمت أو عوج أو أمت.

لقد كانت هناك النكتة والملحة، ولكن النتاج المحلى لأهل البيت كان يتميز بالمرح والمجون واللغو المتقن الصنعة.

وفى أيام صبا چيمس، عندما كانت تمثيليات الأحداث فى أوجازدهارها، كان چيمس نفسه، طبقاً لشهادة أخيه، هو الذى يمدها «بالطاقة المحركة»، ويهيئ الروايات الهزلية الجامعة ويقوم بدور «النجم الكوميدى فى كل مسرحية»(١٠).

وتتجلى طريقته فى السخرية من الناس، بما فى ذلك نفسه، وعبثه السار البار، وفنه العجيب فى حب الكاريكاتير، فى إحدى رسالاته لأسرته التى كتبها وهو سن التاسعة عشرة . وفيها يصف «مشهد أهل بيته كما يتصورهم وهم على وشك تناول العشاء».

«أمى المسنة وقد جلل المشيب هامتها الفضية مستندة إلى ذراع عزيزها هارى العفى المتين (ولكن المرن) وهو يملأ الجو ثرثرة ومرحا إلى عنان

(10) L.W.J., I, 3o5; S.B.O., 253.

السماء . ثم عمتى الخجول وقد استبد بها الحياء، بجمالها الفطرى الآبد الذى لا تزال تكسوها مسحة منه، ثم والدى المحتشم بجدائل شعره الأسود المتموج، ثم روبرت اللطيف الأنيس الرفيع القدر، وأليس الغامضة المبهمة، كلهم ينبثقون أمام ناظرى، حشدا رائعًا يحف به الجلال».

ومن حسن الحظ، أن بين أيدينا تقريظا له وزنه من أخيه هنرى - عن هذه الفقرة - عن «ملاحة ما فيها من تناقض غير مألوف» واستحضار كل صورة مألوفة باستدعاء عكسها الزاهى الساطع:

«فأمنا مثلاً، لم تكن فى ذلك الوقت، ولا بعد ذلك الوقت بأمد طويل قد جلل للمشيب هامتها الفضية وكساها كل ذلك الوقار، وكان والدنا الأنيق الرأس قد فقد قذاله - منذ زمن طويل - فقد كل زهو خاص بجدائل الشعر الأسود فضلاً عن تمويجها، أما جمال عمتى المدهشة فكان لا يمت بسبب إلى الفطرية ولا يحف بها كما ينبغى أن يكون، أما غموض وإبهام ولغز شقيقتنا الصغرى، فكان أبعد ما يكون عن الغموض والإبهام واللغز، وإنما يتألف كله - وبشكل فاضح - من صراحة وافتضاح تفتحها الطبيعى وازدهار محياها - حتى من ذكائها الوقاد فى نفس الوقت، أما مرح هارى وصخبه وثرثرته فيبدو أنها كانت تمثل عند الكاتب أشد ألوان الترجمة الساخرة لشىء ما فى ذلك الفتى يكاد يكون مناقضا لهذا الوصف، إن لم يكن مناقضا تماماً. شيئًا نكدا أبكم ينطوى على المشاكسة والقلق»[11].

إن رسائل چيمس تزخر بالبينات الدالة على خفة روحه ومرحه والتنوع الخصب لنغمها وكيفها ووقعها، ومن أكثرها دلالة فى هذا السياق - بنوع خاص - السخرية اللذيذة التى تفيض بها رسائله المبكرة لأخته آليس، وأخصها بالذكر تلك الرسائل التى كتبها فى الفترة الواقعة بين استشفائه فى تبليتز ودراساته فى هيدلبرج عندما كان عمره ستة وعشرين عاماً، وكانت هى فى العشرين[12]، أو الرسالة التالية التى كتبها

(11) N.S.B., 132-5.

(12) Cf. above, 86, 1o8; for other letters of the same period and in the same vein, cf L.W.J., I,

بعد خمس سنوات من هذه الفترة وهو فى فلورنسا على إثر تلقيه لنبأ ولادة أول طفل لأخيه روبرتسون:

«تسلمنا من الوالد رسالة تعلن لنا أننا أنجبنا ابن أخ . وعلى هذا فإن الجيل الثالث من أسرة چيمس فى معمعان الحركة . نحن أعمام وأخوال وعمات وخالات وجدات... إلخ وكلنا نستمد كياننا ومعاشنا من ذلك النسخ الواحد الشبيه بالدودة فى ويسكونسن. ويبدو لى أن الهرم يمضى فى الجهة الخاطئة، إذ ينبغى أن يشير سهم الانتشار والتكاثر إلى الأصغر بدلاً من أن يكون الجذع أو الأرومة التى تتفرع منها العروق أكثر عدداً من الغصون» (١٣).

وثمة ظاهرة أخرى من مظاهر خفة روحه - فى شكلها جدية - هى حب الاستطلاع . كان چيمس طلعة . وكان عقله يثب ويندفع ويندلع كالطير الفريد . ومنذ صباه «عكف على إجراء التجارب إلى درجة الإدمان» حيث لم تكن هناك، على حد تعبير أخيه هنرى «أية نتيجة لتجاربه مهما كانت لا يجد فيها لذة وطربا على نحو ما» (١٤).

ولقد كانت نفس هذه الحيوية الفكرية بالذات هى التى مكنته من التمتع بالجدة فى كل ألوانها وصنوفها.

ومن الجلى أنه كان هو نفسه رجلاً يثير الاهتمام والشغف، ولكن الأهم من ذلك أنه كان يجد غيره - من الأشياء والأحياء - مثيراً للاهتمام والشغف وموجبا للمتعة.

وفى ذلك اليوم النحس من سنة ١٨٩٨، عندما أجهد نفسه فوق طاقته، وأرهق صحته من أمرها عسرا فى جبال الأديرونداك، صادف جماعة من الشباب تضم نفرا

(13) To A.J., December II, 1873.

(14) N.S.B., 123.

عديداً من بنات (Bryn Mawr) يرتدين كما وصفهن «سراويل الأولاد، وقد نضجت جلودهن بالدنس إلى أقصى درجة».

ولكنه عاد فيما بعد واعتذر عن «الوقاحة» التى علق بها على ملابسهن، ولقد كتبت إحدى الفتيات اللاتى كن من ضمن تلك الجماعة فى تلك المناسبة فقالت:

«أذكر بكل وضوح وجلاء تلك المناسبة التى يشير إليها، وما بدا عليه من سحر وقوة وهو ماثل أمامنا كالطوب الشامخ وضحكته المجلجلة يرن صداها فى مغرب (وليل) ذلك اليوم الطويل المدهش على سفح الجبل المكسو بالغابات، وقد طفح بِشرا ومرحاً وتلقائية على السجية، لدرجة أننى أتذكر ذلك الآن وبى غصة مردها إلى أننى ما كنت أتصور أو يدور بخلدى عندئذ أنه كان يبهظ قوته ويرهق صحته من أمرها عسراً، أما «الوقاحة» التى يشير إليها، فقد كانت فى نظره مدحا لا قدحا. فى تلك الحقبة الفكتورية، أو الإدواردية من جراء لبسنا السراويل القصيرة . وإنى لأذكر بصفة خاصة أنه جعلنا نشعر جميعاً بأننا نمتطى صهوة التقدم، بقوله بشأن ملاءمة ملابسنا لتسلق الجبال: «أنا سعيد بأن حل ميقات هذا التطور وقدر له أن يحدث. أنا سعيد أننى عشت لأراه رأى العين» (١٥).

بيد أن التجديدات تتطلب تعديلات، وهذا أمر يلقى نفوراً وإحجاماً من العقول البليدة، القاعدة الهمة، المقيدة فى أصفاد العادة والنمط الرتيب بسبب الجهد الذى تقتضيه . ولم يكن ذلك شأن چيمس، بل على النقيض، كان يتمتع بمثل هذا الإنفاق الموصول للطاقة والجهد. وإذا لم يأت التعبير، كان يسعى فى طلبه ويخرج للبحث عنه والتماسه . وكان دائماً فى حالة شروع فى جوب وكشف . كان دائماً يباشر رحلات كشفية . وأسفاره – التى استهلت فى طفولته وأصبحت جزءاً جوهرياً من حياته – كانت دائماً رحلات للكشف فى عالم جديد من الناس، والأفكار والفن أو «الحياة».

(15) To A.H.J., July 9, 1898, L.W.J., II, 76 Edith Franklin Wyatt to W.J.'s

وعندما كان جسمه يظل فى مكان واحد، كان عقله يسبح ويقوم بالرحلات والأسفار . كان «يجرب الأشياء - غاز النتروس (المشبع بملح البارود)؛ (mescal)، اليوجا، رأس السهام (Fletcherism)، والعلاجات العقلية . كان يتخيل ويتأمل، وكان يكرم وفادة الفروض ويناد مها، ويداعب الأفكار ويوحيها، كان عقله من فصيلة الحيوان الجواب الطواف لا النبات المغروس الضارب فى بطن الأرض بجذوره، وكان يتطلب عنصراً يستطيع فيه مثل ذلك العقل الطليق أن يطير ويسبح ويتنفس ويجد غذاءه وقوته . فليس ثمة عجب أن نهاية مطاف فلسفته، والطور الذى بلغ أوج العلا، الذى شغل نفسه عندما دهمه الموت وغلبه على أمره، كان رؤيا «عالم آخذ فى النمو والازدياد حقًّا»، عالم واسطة عقده الجدة المستمرة.

على أن مرح چيمس وخفة روحه وحيويته الفياضة كانت تجففها وتلطفها سجية أخرى تقابلها فيه وتناظرها، ألا وهى إنسانيته الأساسية أو رقة قلبه وحنوه . كان يعجب بصفات روح المغامرة والعراك الجسور والكفاح الجرىء، ولكن بشرط واحد فقط، وهو ألا يصاب من جرائها إنسان واحد بأذى.

فأما القسوة التى يقال إنها شرط للسمو فوق مصاف البشر، فكانت صفة يفتقر إليها على الإطلاق . كانت الإنسانية صاحبة الكلمة العليا لديه فوق البطولة، وهى صاحبة القول الفصل وحق الفيتو. أو بمعنى آخر، كان النوع الوحيد من البطولة الذى يطيقه - فى نهاية الأمر - هو معركة بطولية ضد الوحشية وقساوة القلب وعدم الإنسانية، وبالمثل، فإن تلك الحيوية المزاجية التى كانت تفضى به أحيانًا إلى اتخاذ نغمة من السخرية والتهكم، كانت دائمًا، ومن المؤكد، أن يعقبها، إن لم يشبها شىء من تأنيب الضمير ينتهى بحالة من التلطيف والتليين يسيل فيها قلبه رقة وعذوبة.

ولقد كانت أخته، ثانية، هى أقدر الناس على إثارة هذا المزيج المألوف من المزاح والحشو المتبل - فى هذه الحالة - بتلك اللمسة المميزة من الحنين إلى الوطن.

روما ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧٣

«جميلتى العذبة:

لا أستطيع أن أقاوم، على الرغم من الاعتراضات القوية ضد افسادك وتدليلك بكثرة الرسائل، التقاط قلمى، فى هذه الليلية المتلألئة عشية الكريسماس، وأسطر لك بسنه على قلبك الرقيق المحب بعض كلمات تنضح بالإعزاز والعاطفة واللطف. إنك تبدين لى من هنا فى غاية الجمال والذكاء والمعزة، فى غاية كل شىء من كل شىء، من كل ناحية ذروة ما يتطلع إليه أخ فى أخته وأقصى ما يتمناه لدرج أننى لا أتصور أننى عندما أعود إلى الوطن سأستطيع أن أفعل أى شىء آخر سوى أن أطوقك وأقعد معك وذراعى حول خصرك، أتوسل إليك أن توافقى على كل كلمة أقولها، وأن تستحسنى كل عمل أعمله، وتعجبى بكل شىء فىَّ - كما أنا - وألا تسخطى أبدًا أبدًا ولو لحظة واحدة . أما ما سأفعله من أجلك لقاء هذا الفضل، فأنت لا أنا التى تقررين ذلك، ولكنى آمل أن أكون عند حسن ظنك وألا أحيد عن فروضك قيد أنملة . أستطيع أن أتخيل الضوء الخافت فى المكتبة فى هذه الساعة، وثلاثتكم وحيدين جالسين هنالك ترقبون الألعاب النارية، وتتمنون بيتا أرحب وأوس لتقضوا فيه تلك الليلة التى يدعونها بليلة عيد الكريسماس السعيدة البهيجة..

أستودع الله والدى العزيز وأمى العزيزة، والأولاد والعمة كيت - واعتقدى - وفقًا لأصول الغرور - فى الحب الصادق لأخيك.

وليام»

وفى نفس هذه النغمة من الهيام العابث تبدو فى رسالة حررها چيمس بعد ذلك بخمسة وثلاثين عامًا لبنت أخت زوجته روزاموند جريجور، التى كانت عندئذ فى الثامنة من عمرها.

كانت المسيز چيمس فى زيارة أختها فى مونتريال .

كمبريدج ١٤ يناير سنة ١٩٠٨

«محبوبتى العزيزة روزى ماوث (ذات الشفتين الورديتين) (إذ كما تعرفين أن كلمة موند بالألمانية معناها فم بالإنجليزية).

أيتها العزيزة الفائقة:

فى النفاسة،

والإدهاش،

والجمال،

والعقل،

والملائكية،

والعمل،

والإعزاز،

والطاعة،

والجسد ،

والمثابرة،

واللطف،

والظرف،

والموهبة،

والفطنة،

والخفر والحياء العذرى،

يا لك من فاتنة ساحرة !!

كم كان جميلاً منك أن تكتبى مثل تلك الرسالة لعمك العجوز البالغ من العمر ٦٦ عامًا، وتجعليه بشعر كأنه عاد ثانية إلى سن السادسة، أوافقك على قولك بأن أجامنون كان أحمق ولكنى آسف لحبك لأخيل، لأنه لا يزيد على كلب صيد عادى، ولا شيء فيه سوى العجرفة والتجهم والعبوس والحزن، لو استطعت أن أصفعه لأوسعته ضربًا ولطمًا، آمل ألا تكثرى من قراءة هذه المعارك المطولة المملة السخيفة، وخير لك أن تكتفى بقراءة موجز لها، آمل أن تكونى متمتعة بصحبة عمتك آليس، فتحت قسوتها الظاهرة نقطة لينة من الرقة الحقيقية تستطيعين أن تستكينى إليها. يؤسفنى أن الجو عندكم بارد جداً ولم يتعاون معكم فى الترحيب الحار بها . ولكن جو الربيع العزيز - عما قريب - سيأتى بطيوره وبراعمه وعشبه الأخضر وشمسه الساطعة. أنا سعيد أن أسمع من زوجتى أنك رائعة بارعة . حاولى أن تسعدى من حولك . قبّلى والدتك العزيزة الآمنة نيابة عن عمك الشكس كالدبور. إنها ذات روح عالية ونفس كبيرة تحب معالى الأمور وتكره سفسافها. وهذا أحسن ما يمكن أن يوصف به أى إنسان، فيما عدا كل الأشياء التى قلتها عنك فى صدر هذا الجواب.

والآن، وداعًا يا محبوبتى العزيزة روزى ماوث، مع أرق التحيات لوالدك ولنفسك.

و م. جيمس»

كانت هناك نكهة من الإنسانية المفرحة التى تثلج الصدر فى كل كتابات جيمس، التى بالإضافة إلى استقامة أسلوبه، أضفت على تأثيره فى القارئ لونًا شخصيًا بطريقة خاصة .

ومن ثم نجد قارئة بعيدة - لا تمت إليه بصلة - تقرأ مصادفة كتاب علم النفس، فيعتمل فى نفسها إحساس بالتحول شبيه بذلك الإحساس الذى اعتمل فى صدر هنرى

جيمس الأكبر على إثر قراءته سويدنبرج . فلما تغلغل اعتقادها وإيمانها فى أغوار نفسها، أفضت بها إلى صديق لها لكى تشركه فى أمرها وتشد به أزرها:

«لقد قدر لى أخيرًا أن أتعرف إلى عقل آخر كان - مثل عقلى - مصابًا بداء الشك والوسواس، أذهلته الإنكارات والسلبيات، سغب من الفلسفات العقيمة البائرة. بل مثلى أيضًا، تغذى هذا العقل الجائع بنهم على الحقائق المقوية، وخرج منها بشجاعة جديدة وأمل جديد. ومن ثم فإن روحين تواجهان الشروق معا وتعيشان مع البراجماتية، ووليام جيمس من أجل كلمة السر، وحيث كانت هناك أبعد أغوار الظلام، يشرق ضوء النهار فى أوج اكتماله» (١٦).

كانت حياة جيمس تمتاز بصداقاتها مثلما تمتاز بقوة روابطها الأسرية . لقد كتب جيمس إلى هويلز قبل موته بأسبوعين يقول له:

«إن ود المرء القديم وصداقاتها الأولى - هى الجزء الخالد الباقى الحقيقى - من كل هذه الرحلة الطويلة».

وكتب إلى مراسل آخر: «حيثما كنت فأصدقاؤك هم الذين يصنعون عالمك»(١٧).

وهذا هو الإحساس الذى يعزى إليه حجم مراسلاته. بيد أنه عندما كان معزولاً - جسمانيًا - من أصدقائه، كان لا بد أن يعيش فى صحبتهم على الرغم من ذلك.

لقد كانت صداقاته مع توم وارد، ووندل هولمز فى السنوات الأولى، ثم بعد ذلك مع رينوفيير، وهودجسون، وهوويسون، ودافيدسون، وجورنى، وروبرتسون، ومايرز، وستامب، ورويس، ووارد، وفلورنوى، وبورتو، وبرجسون، وغيرهم وغيرهم، تتميز بالكيف والكم على السواء، لقد تقاسموا كلا الحب والإعجاب.

---

(16) M.T.M. (Mrs. wade MacMillan), "The Pragmatic Test", Harper's Weekly, April 18, 1914.

(17) To W.D. Howells, August lo 1910; Pauline Goldmark. May 25, 1899.

لقد كان هناك جماع فكرى ورفقة أخلاقية، بالإضافة إلى صلة ودية قلبية حارة وثيقة بين إنسان وإنسان.

وكانت علاقات چيمس الرسمية أو المهنية مع الزملاء والأعوان والطلاب والمعلمين والرؤساء الإداريين والمحررين والناشرين، سرعان ما تتحول مباشرة إلى صداقات، حيث يكون الرجل الإنسان فى كل تلك العلاقات - عند چيمس - أكثر أهمية وحيوية من الدور المعين الذى يتصادف أن يجلب تلك العلاقة.

كان يأخذ زمام المبادرة فى عقد أواصر الصداقات . كان صاحب قلب حار، وما كانت به أى مادة عازلة . كانت عيناه تشعان بنظرة تنضح بالود والمحب، وما كان هناك من أعرف منه وأقدر على خطب ود الآخرين بترجمة حبه ووده إلى كلمات شفهية أو مكتوبة.

ولم يكن يعترف بأى حاجز من حواجز العقيدة أو الجنس أو اللون أو السلالة، حيث إن أشد ما فيه من تعصب كان تعصبه ضد التعصب ذاته.

كان يجد كل إنسان تقريبًا - موجبًا للاهتمام ومستحقًا للعطف والود إذا ما أتيح له النفاذ إلى دخائل نفوسهم . فأما حبه للناس فكان حبا مشوبًا بالرحمة ومكيفًا بآلامه وعذابه، وقائمًا على المشاركة الوجدانية والإحساس بالزمالة، ولكنه مقرون ببصيرة فطنة للنكهة الفذة الفريدة لكل شخص على حدة كفاية فى ذاته، وباحترام للباطنية الذاتية المتبقية، والتى يجب أن تتجاوز حتى أشد أنواع الفهم الوثيق نفاذًا وقوة.

لقد كان حبًا سخيًا أهلا لكل ثقة وتعويل، حبا كثيرًا ما كان يجد فى الطرف الآخر ما لم يجده الطرف الآخر فى نفسه حتى تلك اللحظة التى يمسه فيها چيمس بعصاه السحرية.

بيد أن چيمس كان يحب التنوع فى موضوعات حبه ووده، وكان يحب كل موضوع على حدة، بنوع مستقل من الشغف. ومن ثم كان يحب زملاءه الأصغر لما يبشرون به من أمل ومستقبل. وفى هذا الصدد كتب إلى جوليوس جولدشتاين، طالب العلم الألمانى

الشاب المغمور، الذى تحدث معه فى أثناء مرضه الأخير فى ناوهايم، قائلاً:

«لقد كان من دواعى سرورى العظيم أن أقابل «عبقرية ناشئة» مثلك، تمتحن جناحيها مثل: «نسر يداعب الريح»[18].

وكان يهش ويبش لأولئك الذين يسمهيم الناس «غير مأمونى العاقبة»، إما لأنه كان يطيب له مذاق مزاجهم وجبلتهم، وإما لمجرد الشفقة أو الرحمة التى كانت عند چيمس لا يغلبها غالب.

وكان من أشد الناس حبا للحيوان . وتاريخ الكلاب التى توالت واحداً وراء الآخر كأعضاء من أهل بيت چيمس، يمكن أن يؤلف فصلاً قائماً بذاته.

وفى سنة ١٨٩٧، اشترى جرواً من فصيلة سانت برنارد، كتب عنه فى ٢٦ ديسمبر للآنسة بولين جولدمارك ما يلى:

> «إذ، زهرة بنفسج، قديس . لقد حملته معى إلى هنا من بعيد بين ذراعى، وأشعر: كأم حاضنة حياله. وسأصحبه معى إلى كامبريدج غداً فى عربة الأمتعة . فإذا شاءت إرادة الأقدار التى لا مرد لها ألا تقوم علاقة ودية كاملة بينه وبين روجتى وأطفالى، أو إذا قام عليها تطور رجعى يؤدى إلى مسخهم كلابا، فهو لك فى يونيه القادم، إنه كبير، ذكى، ذو فطنة اجتماعية، ولكنه لا يزال (أنا متأكد) القديس الذى هو الآن، وهو غير قابل للإفساد أو التبذل على الإطلاق . ولكن إذا تطور حب أطفالى له لدرجة أن افتقاده يكون شبيهًا بافتقاد أمهم أو افتقادى، فلا يغيبن عن فطنتك أنه لا بد أن يبقى معنا، وأسفاه . وأكبر الظن بل أقوى اليقين أو الاحتمال الأخير هو الأرجح».

على أن عطف چيمس على الحيوانات يكاد يكون رد فعل بدنياً.

(18) June 22, 1910

لقد كانت متعته من اجتياز الجبال فى العربات التى تجرها الجياد تتلاشى إلى حد كبير من جراء إحساسه بالعطف نحو الجياد وهى تصعد المنحدرات الطويلة، الأمر الذى كان يدفعه باستمرار إلى تخفيف حمولة العربة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وعلى الرغم من أنه كان يعتقد أن الكلب فى المختبر الفسيولوجى، لا يتوانى عن «الإذعان الدينى»، إذا تسنى له أن يدرك جدوى التجارب، فإنه كانت تنتابه فكرة أن هذا المعنى الخاص بإسداء الخير فى المستقبل للآخرين، هو بالتحديد ما يحب أن يظل على الإطلاق فوق المعرفة التضحيية للضحية[١٩].

كان چيمس يشعر بعطف حيال الكلاب، وكان شديد التأمل فى حياتهم الباطنية ودخيلة نفوسهم . وكذلك كان يشعر بعطف حيال المعذبين فى الأرض، والمغاوبين على أمرهم، والمستضعفين، وكان دائمًا فى صفهم أيًا كانوا وأنى كانوا.

ومن الواضح أن المرء يستحيل عليه أن يكون مشايعًا للمستضعفين دون أن يشارك المستضعفين فيما ينفرون منه ويكرهونه ويثقل على نفوسهم. وهذا هو المصدر الرئيسى لحزازات چيمس وما كان يعتمل فى نفسه من بغض أو كره أو نفور . كان چيمس يكره القساوة وغلاظة القلب والفظاظة، والانبساط الراكد، والنفخة الكاذبة ومظاهر الاستعلاء وضروب الاستكبار، ولكنه كان يمقت القسوة أكثر من أى شىء آخر.

وعندما عرض «لمعضلة الجبرية» وكان يفتش فى ذهنه عن مثال للشر الموغل الذى لا سبيل إلى تخفيفه، اختار إحدى الجرائم التى ارتكبت وقتئذ، حيث قتل رجل زوجته الوفية المحبوبة . فوحشية الجريمة ذاتها، وعدم اكتراث المجرم ورضاه عن نفسه، والحكم المخفف الذى صدر ضده، والذى لا يتناسب مع فظاعة الجرم الذى ارتكبه، هذه كلها لم تثر اشمئزاز چيمس ونفوره وغله فحسب، وإنما لطخت عالمه بوصمة عار لا سبيل إلى محوها.

---

(19) W.B., 58

إنه لم يستطع أبداً أن يوطن نفسه على عبادة هذا الكون برمته. «ثمة شيء خاطئ في العالم»[٢٠]، وفي البرهنة وعلى إمكان تحول أو إبدال أو رد هذه التهمة، كان عذاب البشرية مع القسوة أو الهلاك أو القدرية التي ابتليت بها.

> لا يوجد عزاء كامل. فالشر شر والألم ألم، وفي تحملنا للشر والألم صابرين في البأساء والضراء وحين البأس بشجاعة. فالشيء الوحيد الذي نستطيع أن نفعله هو الإيمان بأن قوة الخير في العالم لا تجريها من تلقاء نفسها بإرادتها الحرة، وإنما تعمل في ظل حدود وقيود مظلمة عويصة فهمها محال، وإن في وسعنا بصبرنا وحسن نيتنا أن نشد أزر هذه القوة، على نحو ما ونقوي يديها»[٢١].

ومن ثم فإن الطبقة السطحية الفلسفية لرقة قلب چيمس تظهر في مذهبه التعددي – في اعترافه بالمغزى الباطني لحياة الناس باعتبارهم أفراداً – في كل ضروب اختلافها وتعددها غير المفهومة أو غير المعقولة، في عثوره على بريق من النفاسة في داخل كل خارج ممقوت أو كريه، وفي إدانته – التي لا تلين ولا ترحم على الإطلاق – لعدم الإنسانية.

ولقد تحالف حياء چيمس وعفته وتواضعه مع رقته وحنانه ولين عريكته.

على أنه لم يخف سعادته وتمتعه بضروب التكريم وألوان التشريف وصنوف التبجيل التي هطلت عليه بعد ذيوع صيته، ولكنها لم تجعله مغروراً أو جباراً أو يداخله من جرائها إحساس بالأهمية الذاتية.

وكان مغرماً بالاستشهاد بقول جون لافارج بأن الشهرة تأتي لأولئك الذين ينتظرون صابرين، وتزداد بنسبة نمو بلاهتهم المطرد. بيد أنه لم يكن متواضعاً بقدر ما كان ناسياً لنفسه، ومرد ذلك إلى أنه كان دائم الاشتغال بغيره من الناس. ذلك – على الأقل – كان اتجاهه العقلي الصحي.

---

(20) Author's notes Philos. 3, December 12, 1896.

(21) To Mrs. Glendower Evens, May 24, 1886. Atlantic, CXLIV (1929) 375.

ولا مـراء، فى أن الشــخص الشـديد الاهتـمـام بما يرى وبمن يقـابل ويلقى من الناس، صـاحب العقل البـاسط - الذى يخـرج - مـثل هذا الشـخص خليق بـأن يكون تجريبيًا فى فلسفته . فهو لا يعتبر نفسه ولا أيا من قواه العقلية مصدرًا للحقيقة، وهو ليس على يقين أبدًا من نفسه بدرجة تبيح له أن يدعى نهائية النتائج التى يصل إليها، وهو ينصت باحترام إلى أحكام الغير، وهو لا يفقد أبدًا إحساسه بأن ثمة مزيدًا فى الطريق من حكمة بنى جنسه ومن الكون المكتظ سواء بسواء.

وليس من شك فى أن لطف معاشرة چيمس الذى بلغ حد الإعجاز كان مرتبطًا بخفة روحه ورقته، ولكن مما يجافى الصواب إذا عالجنا هذه الخصيصة، كما لو كانت خلة ثانوية.

ومما هو خليق به - طبقًا لسجاياه وخلاله المعهودة فيه - أن يشير فى مقبل أيامه إلى السنوات الثلاث التى قضاها باعتباره طبيب مقيمًا بالمستشفى فى سنة ١٨٦٦، على أنها فترة قيمة، ليس بسبب ما تعلمه فى أثنائها عن علم الأمراض وطبائعها، ولكن لأن «العلاقة الإنسانية الدرامية» مع بعض الناس ساعدته فى سبيل فهم الطبيعة البشرية[٢٢].

لقد كان شديد المقت للعلاقات الاجتماعية الجامدة، المتزمنة، المصطنعة أو الصخابة، وكان يسعى إلى تحاشيها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ولكنه كان فى هذا التحاشى، كما لو كان شخصًا ذا حساسية موسيقية لا يطيق اللحن النشاز فيتحاشى الموسيقى الرديئة.

أما العلاقات الاجتماعية التلقائية المخلصة الحارة، فقد كان شديد الحب لها وموفور المقدرة على ممارستها عندما تمضى على السجية بلا عوج ولا تصنع ولا أمت.

(22) Talk with Professor Alexander Forbes, April I, 1909.

وعندما كان الجو الاجتماعى يطيب ويصفو ويصبح مواتيًا – وكان چيمس عادة قادراً على أن يجعله كذلك – كان ينطلق فى الحديث شهيًا طليًا دافقًا، ومفعمًا بالدعابة والذكاء والحمة، وموجها اياه – بصفة شخصية جداً، وبحسن نية جداً، وبكل سلامة طوية – لأولئك الذين من حوله.

كان يعتبر المحادثة ضربًا من الترويح المتع قمينة بالتثقيف والتهذيب وخليقة بالحذق والمهارة كأى فن، ولكنها تتطلب الصراحة والصدق، وصفاء النية وسلامة الطوية، والإحساس الأخوى والمشاركة الوجدانية كأول شرط من شروطها.

والرسالة التالية – كتبت إلى هاولز فى ١٩ مارسة سنة ١٨٩٤، بمناسبة كتاب تسلمه هاولز من معجب حمس بچيمس الأكبر (الوالد):

« أنا مغتبط جداً إذ يصلنى نبأ قارئ آخر للمسكين العتيد هـ . ج . الذى قل قارئوه فى هذه الأيام الأخيرة إلى درجة كبيرة .. وفقط بالنسبة « لأمريكى حقيقى واحد لا يخشى أى أمريكى حقيقى آخر » أخشى أن الوالد كان لابد أن يشخر وينخر على فقدان الحقيقة فى الفتوى . إذا كان هناك شيء أخشاه حقًا فهو الأمريكى الجامد القلب الغليظ الحس الذى تلقاه فى الأسفار، والذى لا يحفل بذلك الضرب فى المحادثة الهينة اللينة التى تنغمس فيها مع كل إنسان تلقاه فى أوربا، أما هنا فهى عند الأمريكى لا تنال إلا الازدراء والازورار . بالأمس تناولت عشائى فى نيوبدفورد، حيث هرعت إلى هناك ابتغاء الراحة، على مائدة يشاركنى فيها أربعة آخرون، ولقد جرع كل منا طعامه فى صمت، وكان كل واحد يوجس فى نفسه خيفة، خشية أن ينطق بملاحظة فجائية فيتلقاها الآخرون باحتقار، أو تقع من نفوسهم موقع الألم . ولقد عجبت أشد العجب فى الجنوب منذ عامين من جراء الحرج الذى سببته لكل إنسان تحدثت معه على المائدة . كانوا يحوِّلون وجوههم عنى، ويشعرون بالحرج وعدم الارتياح ويعجلون بترك المائدة والرحيل . إن الحديث ينبغى أن يكون له موضوع «خطير» لكى يتحمله الأمريكى «الصميم».

ونفس الشكوى ظهرت فى رسالة إلى فرانسيس بوت حررها له سنة ١٩٠٠:

«أعترف بأن أحد الأشياء فى الوطن – التى تجذبنى إليه أكثر من أى شئ آخر – هو تذكر ضحكتك ولطف عشيرتك الخالدة وروح دعابتك . فالحديث – بالنسبة لك – متعة أساسية من مقومات حياتك . أما بالنسبة لبقية زملائى وأترابى ورفاق اللعب، باستثناء المسز هويتمان(٢٣)، فالحديث ليس سوى وسيلة نفعية فقط، وكثيرًا ما تكون مملة ومتعبة وشاقة، لغاية وراء مجرد الحديث.

والفقرة التالية المقتبسة من ذكريات أحد طلابه السابقين، تومئ إلى رغبة چيمس فى إقرار علاقة إنسانية بدلاً من علاقة رسمية:

«لقد وجدنا أنه ما لم نتحدَ مواقفه ونناهضها، فإن محاضراته ربما تجنح إلى أن تصبح مملة، فى حين أن التحدى والمناهضة والدعوة للنزال كانت كفيلة بأن تشحذ الومضات البراقة لذكائه، مما يضفى على المحاضرة رونقًا وبهاء، ويجعلها مثيرة للاهتمام والشغف إلى أقصى حد. وإنى لأذكر جيدًا كيف دبرت أنا وطالب آخر مؤامرة ودية، بحيث يقوم كل منا بالتناوب بالدور الخطير فى استثارة «الومضات البراقة»، بأن نحاول التحرش به. وكانت لديه عادة غريبة فى ذلك الوقت، وهى المرور على طلابه فى قاعات الدرس، بدعوى أنه مجهد العينين، ثم يسألهم أن يقرءوا عليه أوراق إجابات الامتحان، وكان هدفه من وراء ذلك هو أنه فى حالة غموض إجابة ما أو افتقارها إلى الوضوح والإبانة، فإن ذلك يتيح فرصة جديدة لتفسيرها على الفور، وكفى الله المؤمنين شر الامتحان، وأعتقد، مع ذلك، أن غرضه الحقيقى هو الاتصال الودى الوثيق – عن كثب – بالرجال»(٢٤).

يتضح من هذا الوصف أن چيمس كان يفضل الحديث مع الناس ذوى الرأى المستقل، والذين فى وسعهم أن يعطوا ويأخذوا فى آن.

---

(23) August 9, 1900; Mrs. Henry Whitman of Boston and Beverly

(24) A.C. Lane, "The Trilemma of Determinism", Western Journal of Education IV (1911), 161-8.

ومن شوتوكوا فى سنة ١٨٩٦ ، كتب جيمس إلى زوجته الانطباع التالى، هذا الحكم الغفور السموح المعهود فى سجاياه، على بعض الناس الوقورين الجادين الوديعين اللينى العريكة الذين احترمهم، ولكنه لم يتمتع بصحبتهم أو يجد فيهما ما يروقه:

«لقد أدخلت كارها فى مجال غرور وخيلاء الجامعيين . فالدراسة الجامعية يقينا تزود المرء بالذلاقة وطلاقة اللسان والمرونة، إن لم تزوده بالغيرة والعمق . لقد قابلت فى المدة الأخيرة عقولاً فى غاية الغيرة والحماسة، ولكنها فى غاية العجز، بحيث إن الانتقال من فكرة إلى الفكرة الأخرى المجاورة لها مباشرة يتطلب نصف ساعة، وكل ذلك فى أنين وتأوه وصريف لا نهاية لها . وعندما يبلغون الفكرة التالية فإنهم ينيخون عليها بكلكلهم، ويرقدون عليها بكل ثقلهم، ولا يتزحزحون عنها قيد أنملة، مثل البقرة عندما ترقد على وطاء الباب بحيث لا تستطيع الدخول أو الخروج، فيسدون الباب فى وجهك . ومع ذلك فذلاقتهم ليست كل شىء . إن الثقل شئ ... حتى ثقل البقر»(٢٥).

هذه كلها – خلال جيمس الطبيعية الحميدة – فطنته، وخفة ومخبره وهيئته – فى قامته المنصبة الراسخة الرصينة، فى «عينيه الزرقاوين النزقتين»، فى صوته العذب الهمام الزاخر بالنخوة»(٢٦). وفوق كل شىء فى الثقة والود الصادق والمشركة الوجدانية التى يوحى بها تعبيره .

كتب أحد طلابه يقول:

«ما زلت أتذكر بكل وضوح ... كيف اعتاد جيمس أن يصل الفصل وعلى رأسه قبعته وفى يديه القفاز، ولكن دون معطف فى أيام شديدة البرودة، وكيف كان يبدو أنيقًا وهو واقف كالطود الشامخ على حافة المنصة، قائلاً فى نغمة عرضية وكأنه يتحدث حديثًا وديًا: «لا يوجد نشاط غائى أولى فى البروتوبلازم» (٢٧).

(25) July 24, 1896; L.W.J., II,4I.

(26) L.W.J.,I, 25; Letters of C.E. Norton, 1913, 1, 264.

(27) Daniel G. Mason to the author, November 21, 1929.

إن شخصية چيمس المشعة لم تبعث من حولها الحرارة والضوء فحسب، وإنما كانت تشعل النار أيضًا، بحيث جلبت له صداقات دائمة خالدة، ودائرة واسعة من المعارف والقراء الذين كان إعجابهم ينضح بالحب والإعزاز . ولقد وصلت صفاته الشخصية إلى قرائه بتلك بلغت سامعيه، ليس فقط بسبب أن كتاباته كانت مشبعة بتلك الصفات، ولكن بسبب أن كابته كانت موجهة إلى قرائه كما لو كانوا أصدقاء أو معارف أو سامعين.

ومن ثم، فإن نفس الصفات التى تمدنا بمفتاح شخصية چيمس ومغناطيسيته الشخصية تفسر لنا أيضًا أسلوبه . كان شديد العناية والاهتمام بالصيغة الأدبية، فى غيره وفى نفسه على السواء.

ففى سنة ١٨٩٤ فى معرض الكتابة عن ستيفنسون «الحاطم: Wrecker» قال چيمس:

«يبدو لى أن المادة طغت عامدة على الصيغة وطفحت حولها . ثمة إفراط فى الارتيادية، تبدأ ثم لا تكمل، فى الأحداث والشخصيات واللغة، يتعين على الأدب أن يخصً مادته على مهل لكى يجعلها لدنة»[٢٨].

على أن أكثر أنواع الكتاب تمييزًا لچيمس وتمثيلاً لخصائصه، كانت المحاضرة أو الخطاب العام . فرجل بكل هذه الحساسية الاجتماعية مثله، ما كان فى وسعه أن ينبس بمناجيات فردية فى حضور بنى جنسه، كان لا بد أن يبلغهم ويلمسهم وينفذ إلى لبابهم ويحس باستجابتهم. ومن ثم فإن كل ما كتبه بدأ باعتباره حديثًا. وكانت رسائله أكثر مهارة فى الصيغة والفن من حديثه[٢٩]. أما فيما يتعلق بكتاباته المنشورة فقد التزم فيها بإشباع هذا الاقتضاء الاجتماعى، وفى نفس الوقت تفسير مادتها بنسق رتيب مكتمل النظام.

---

(28) To Francis Boott, September 5, I895.

(29) "MY letters, I find tend to escape into humorisms, abstractions and fights of fancy". (L.W.J., II, III.

ولقد اقتضى الوفاء بهذين المطلبين معا، وإنجاز هاتين النتيجتين فى نفس الوقت، جهداً كبيراً من جيمس أرهقه من أمره عسراً.

كان يكتب، ثم يصحح، ثم يعيد الكتابة من جديد . «إننى أتعثر فى كى شىء أول الأمر، ولكن بمجرد أن يتجسم الموضوع فى شكل غفل، ففى وسعى أن أخز وأكز وأزغد وأنطح وأحك وأسجل وأكشط وأربت عليه إلى أن يصبح على الطبطاب»(٣٠).

فإذا رضى جيمس عما كتب وراق فى نظره وأصبح أخيراً مقبولاً لديه، تناول مادته بالتوضيح وفى نفس الوقت أنسها وقربها إلى قلوب الناس وأذهانهم إلى أقصى درجة، بحيث يستشعر فى قرارة نفسه إحساساً بالفهم المشترك وبالحديث الودى مع جمهور قرائه أو مستمعيه ويجد فى ذلك لذة لا تعدلها لذة.

وطبعًا، كانت تنتابه أوقات يسخط فيها على هذا الأسلوب . ففى سنة ١٩٠٨، عندما كان الأوان قد فات لتغيير عاداته، حتى لو كان ذلك ممكنًا من الناحية المزاجية، كتب ما يلى:

> لقد تبين لى أن طريقتى الشخصية والخالية من التكلف وخصوصاً فى كتاب البراجماتية، جعلتنى هدفًا لمقت وغل عدد لا يستهان به من العقول الأكاديمية المحترمة، ولقد برمت نفسى وتعبت من إثارة هذا الشعور، الذى لا شك أن المزيد من المحاضرات العامة السائغة للجمهور، سيزيد من حدته لا مناص».

ولكن أسلوبه، باعتباره قاعدة، كان يمثل رأيه الشخصى ذاته فيما يجب أن يكون عليه الأسلوب الفسلفى . كتب مرة يقول: «أنا لا أحفل بأخطاء اللغة ولا أقيم لها وزنًا ... بشرط واحد فقط، وهو أن تكون اللغة ملائمة وسديدة فى نعتها ورشاقتها ونشاطها ووضوحها».

(30)To Mrs Henry Whitman, July 4, 1890; L.W.J., I, 297.

ولقد حيا بابينى ورحب به بسرور بالغ، باعتباره كاتبًا وجد فيه «بدلاً من الثقل والتطويل والغموض، الخفة والإيجاز والوضوح، مع عدم الافتقار إلى عمق المعرفة».

وبعبارة أخرى، فإن شرعة چيمس فى الأسلوب كان يمليها الاعتبار التام لقارئه والرغبة فى بلوغه والوصول إليه.

كان الملل والسأم وفقدان الشغف من أبغض الأمور إلى نفسه، وكان أخشى ما يخشاه أن يقترف هذا الإثم فى حق غيره . كتب مرة إلى أخيه هنرى فى معرض التعليق على كتاب برايس «الكومنولث الأمريكى: The American Commonwea lth» يقول:

«كتاب مشرب كالإسفنجة بالتعقل التام. إن المرء ليتوق إلى صرخة - على أى نحو - توقظه من سباته»(٣١).

على أن أسلوب چيمس - تقرر أيضًا بحقيقة أنه كتب كلا من الفلسفة وعلم النفس بأسلوب إنجليزى أدبى أو باللغة الدارجة المحكية. وفى هذا الصدد قال: «إن الاصطلاحية الفنية - يبدو لى - تنطق «بالفشل» فى الفلسفة».

ولقد عرض على سانتايانا أن يوحدا جهودهما للقيام بحملة هجوم على «السبل التيبسية والحذلقية المصاحبة للدكتوراه الأمريكية فى الفلسفة P.H.D.»(٣٢)، وليس من شك فى أن هذا الحكم بالإدانة على الاصطلاحية الفنية كان يعكس نفور چيمس وعدم إساغته للمنطق والرياضيات، ولكنه كان يعكس أيضًا اعتقاده بأن كل البحوث موجهة إلى نفس الغاية ومتجهة إلى نفس العالم المفتوح السهل المنال أمام الجميع، وبأن هناك طريقًا واحدًا للمعرفة، ألا وهى سبيل الفرض والتحقق من صحته . فهناك «إنسان يفكر فحسب، سواء أكان بائع خضراوات أم عالما ميتافيزيقيًا» . وليس ثمة نوع غامض من

(31)To Th. Flournoy, Januaary 2, 1908, L.W.J., II, 300-1; to Francis Boott, January 1893, L.W.J.,I, 341; C.E.R., 460-1; to H.J. 2 , February 1, 1889.

(32) To G.H. Howison, July 24, 1898, L.W.J., OO, 79; to Santayana, may 2, 1905, L.W.J., II 229.

الكينونة أو الحق وراء العالم المعروف. وإنما هنالك فقط ذلك الشيء الذى تألفه والذى نغفله ونهمله أو نحتقره لأنه مألوف وشائع ويوجد المزيد من نفس الشيء(٣٣).

ولكون الواقع يتميز بهذه الخصيصة الوثيقة المألوفة، ولكونه يكشف عن دخيلته وصميمه فى الخبرة الإنسانية المألوفة اليومية، فالأسلوب الملائم للعرض الفلسفى هو ذلك الأسلوب الذى يحيى المألوف، ويوسع أفقه دون تغيير صفته الجوهرية.

وكان چيمس يشعر بكراهة عجيبة حيال ترجمات كتاباته. كتب إلى فلورنوى فى سنة ١٩٠٠ يقول فى هذا الصدد:

«إنه بلا شك ضرب فى الوسواس والحساسية المارقة. ولكنى أعترف أن ترجمات كتاباتى تبعث فى نفسى نوعًا من الفزع، وخير ما أفعله هو ألا أتعاون على أى نحو. لم أقرأ صفحة واحدة فى الترجمة الألمانية لكتابى «المقالات»، ولا فى الترجمة الإيطالية لكتابى علم النفس».

ولعل هذا الشعور كان راجعًا جزئيًا إلى رغبته المعهودة فيه، فى نشدانه الهرب إلى شىء جديد يغاير ما شغل ذهنه مدة طويلة وران عليه، وإلى إحساسه بالتواضع وخفض الجناح بحيث لا يطيق أن يكلف إنسان نفسه شططا بسببه.

بيد أن چيمس عندما كان يقدم المشورة فعلا لمترجميه - فإنما كان يقدمها ليستحثهم على إخضاع دقة الأسلوب الأدبى للمعنى، فالمعنى أولاً والأسلوب ثانيًا. كان يريد أن تكون الترجمة الفرنسية لكتابه «الموجز فى علم النفس»، مكتوبة بأسلوب بحيث يقرأ كما لو كان مؤلفًا فى الأصل باللغة الفرنسية.

(33) Student's notes Philos. 3, 1896-7.

وعندما اعتزم فلورنوى ترجمة كتاب «الأنواع المختلفة للخبرة الدينية» كتب إليه قائلاً :

«لك مطلق الحرية فى أن توجز، وتخترع، وتطلب وتفسر وتؤول بأية طريقة، وعلى أى نحو يطيب لك، ولكن بشرط أن تجعل القارئ الفرنسى راضيًا قانعًا»(٢٤) .

وهنا تلمس أيضًا الحافز الاجتماعى الذى يرجحه على كل اعتبار آخر من اعتبارات الدقة اللفظية .

ولعل من أكثر كتابات چيمس دقة فنية فى الاصطلاحات، تلك المقالات التى جمعت تحت عنوان «مقالات فى التجريبية الراديكالية» . وكان قد كتبها بغرض نشرها فى إحدى المجلات الفلسفية لكى يقرأها زملاؤه من أهل المهنة . ولكنه قبل أن ينشرها اهتبل فرصة عرضها فى محاضراته الخمس، أمام مدرسة دافيدسون الصيفية فى جلينمور فى سنة ١٩٠٤ : «لا لشىء إلا لأعرف وقع هذه المادة عندما تعرض على الأسماع برمتها بهذا الحجم. ولقد وقعت على الأسماع موقعًا غريبًا . ولزام علىَّ أن أجعل وقعها أقل غرابة على العقل العادى» (٣٥) .

وصفوة القول: إن چيمس لم يكن يكتب للأعقاب والخلف، فضلا عن الخلود، وإنما كان يتحدث بصوت مسموع لأولئك الماثلين أمامه الذين كان يراهم رأى العين.

خاتمة

لقد التقينا برجلين فى شخصية وليام چيمس: چيمس «النورستينى» الموسوس ، بتوازنه العصبى المقلقل الذى لا يستقر على حال، وبخياله الجامح الذى لا ضابط له ولا رابط والذى يبلغ أحيانا حداً من الاكتئاب النورانى الساطع ، بحيث يستنفذ كل عجب ، وتتذبذب حالاته ومزاجه ، وبنفوره من الإجراءات العقلية المعقدة . ثم چيمس الشاع المتألق البراق المرح الودود ، الموطأ الأكناف الذى يألف ويؤلف ، المؤنس فى عشرته وصحبته ، الزاخر بالحساسية الاجتماعية واعتبار الغير . والواقع أننا التقينا بچيمس ثالث، تأكدت فيه سجايا الشخصية الثانية وعمقت وأثرت وآتت أكلها أضعافا مضاعفة ، باتحادها وامتزاجها بسجايا الشخصية الأولى .

وتلقاء هذا الچيمس الثالث ينبغى أن نذكر مقالين جديرين بالذكر فى الكشف عن السيرة الذاتية ، أولهما كتب نحو سنة ١٩٧٨، عندما كان چيمس فى السادسة والثلاثين من عمره :

> «كثيراً ما عنَّ لى أن خير طريقة لتفسير سلوك شخص ما هو؛ البحث عن الاتجاه العقلى أو الأخلاقى المعين ، الذى عندما يحل به ، فإنه يستشعر فى نفسه أقصى وأعمق حالات النشاط والحيوية . ففى مثل تلك الحالات يكون فى داخله صوت باطنى ينطق هاتفا «هذا هو أنا الحقيقى» .

وبقدر ما يتسنى لى وصفه ، فإن هذا الاتجاه المميز فىَّ يتضمن دائمًا عنصراً من التوتر الناشط ، من الثبات والمحافظة على المركز ، يتوقع من الأشياء الخارجية ويستأمها على أن تؤدى دورها بحيث يكون فى حالة تناغم تام ، ولكن دون أى ضمان يؤكد أنها ستفعل ذلك. أوجد هذا الضمان، وستجد أن الاتجاه يصبح بالنسبة لوعيى راكدا وعديم الوخز. أسحب الضمان، وأنا أشعر (بشرط أن أكون فى حالة من العافية والقوة) بنوع من الغبطة العميقة الجياشة ، بمنتهى السعادة والنعيم ، برغبة عتيدة فى

أداء عمل وتحمل أى ألم ، بحيث تترجم نفسها ماديًا وجسمانيًا على شكل وخز مؤلم داخل ضلوعى (لا تبتسم ساخرًا من هذا الكلام ، فهو عندى عنصر جوهرى فى الأمر برمته)، وهذا الوخز على الرغم من كونه مجرد حالة مزاجية أو انفعال ليس فى وسعى أن أحدد له شكلا أو هيئة فى كلمات محددة ، يتأكد ثبوته لدى ، ويعتمد على أنه أعمق جوهر فى كل تصميم إيجابى ونظرى يعتمل فى نفسى على الإطلاق»[1] .

ولقد كتبت الفقرات التالية فى إحدى مذكراته بعد ذلك بخمسة وعشرين عاما :

«كيف السبيل إلى تسويغ التناقض القوى الذى أشعر به دائمًا ..ألا وهو أن بعض التركيبات الفلسفية المعينة، نزوات شخصية تنم عن الهوى ، عبقة بالذوق الفردى ، فى حين أن بعض التركيبات الأخرى ، تلك التى تعمل بالعناصر المحسوسة ، وبالتغير ، وباللاحتمية ، هى أكثر موضوعية وأكثر تشبثا بجبلة الطبيعة نفسها ماذا تعنى ، براجماتيا عبارة «الطبيعة نفسها»؟ فى رأيى أنها تعنى غير المصنوع – غير المجلوب – حيث إن المصنوع أو المجلوب له خصائص جمالية محددة معينة أعافها، ولا تترابط باعتبارها مدركات حسية فى الغير لا على اعتبار أنها مسألة ذوق شخصى، وهو عندى ذوق فاسد.

إن كل الانشقاقات المتقنة المرتبة بتفرقاتها الدائمة والمطلقة ، والتصنيفات ذات الدعاوى العريضة ، والنظم المبرجة كأبراج الحمام .. إلخ .. إلخ، تتميز بهذه الصفة. إن كل «الكلاسيكى» الصافى الصرف والمجفف ، وكل «النبيل» ، الثابت ، «الخالد» – فى نظرى – تخرق خصيصة الحياة والتعبير الذى تتمخض عنه ، أو على الأقل تتضمنه على اعتبار أنها كفاح موصول يتحدى كل المعادلات والصيغ الثابتة، حيث إن الجدة والإمكان. تتسرب دائمًا من بين فروجها ..

ومن ثم فإن برنامج مؤتمر مونستربرج[2] – فى نظرى مثلا – يبدو مجرد دجل

---

(1) To A.J.H., L.W.J.,I, 199-200.

(2) Written in 1903. "Munsterberg's Congress" was the "Congress of Arts and Sciences" held at the St. Louis Exposition in the summer of 1904. His Grundzuge der Psychologiem dedicated to W.J., appeared in 1900.

وادعاء فى معنى الخبل والافتتان بمعبود الكهف ، ضرب من العيادة الدينية أو الصلاة التى تقام تمجيداً لورشة الفلسفة المحترفة ، بهيئة أساتذتها وكلياتها وأقسامها وفروعها وآدابها الرسمية المتبادلة ، ومخصصاتها وأثاثها ورياشها ، وجهازها الضخم الجبار بمعصرة سلطاته ومحرماته وأوقافه وإلغاءاته ، وصنوف كبته وقمعه التى ينتظر من أفواه الحق الجبارة أن تغذى بها المجد الطبقى المؤثل لكل من يشتغلون بها ويعنيهم أمرها. وعندى أن «الحق» ، إذا كان هناك أى حق – يبدو أنه يوجد من أجل التخليط والتهويش والخلق قصداً وعلانية فى كل هذا الضرب من الأمور ، وأنه يكشف نفسه فى همس موشوش «لمحبى الخير الوديعين» فى خلوتهم وعزلتهم للداروينيين واللوكيين إلخ .. إلخ .. ولكى يكون مخالفا مجاهدة وقصداً للأصول المتبعة رسمياً. إن «الرسميين» نتاج لخبرات سطحية لا تتعمق إلى أى طبقة عميقة منها ، ويبدو أن مؤتمر مونستربرج هو التعبير الكامل الذى لا مناص منه عن الملامح الرئيسية لمذهبه ، الدى هو بناء مصطنع زائف من زجل جعله سلطة الأساتذة موقوفة عليهم ، أيا ما كانت الغباوات والحماقات التى يفوهون بها : كما لو كان العقل البيروقراطى هو النكهة الكاملة لكشف الطبيعة عن ذاتها .

ومن الجلى ، أن وجود فرق مثل هذا بينى وبين مونستربرج ، تعبير باهر للبراجماتية. فأنا أبتغى عالما من اللا حكومية ، فى حين أن مونستربرج يريد عالما من البيروقراطية ، وكل منا يلجأ إلى «الطبيعة» لكى تؤيده وتكون له ظهيراً. والطبيعة تساعد كلا منا – جزئيا – وتقاوم كلا منا جزئياً » .

«فالتوتر الإيجابى الناشط» ، والحيرة وعدم التثبيت ، وانعدام التكهنية ، والتكيف المرتجل على البدهية ، والمغامرة واقتحام المخاطر ، والتغير ، واللا حكومية ، وعدم الادعاء والتظاهر ، وترك النفس على السجية الطبيعية، هذه هى صفات الحياة التى يجدها چيمس سائغة إلى أقصى حد ، والتى تعطيه أعمق شعور بالرفاهية والغبطة. وهذه هى فى نفس الوقت الصفات التى يعتبرها أكثر الصفات صحة وصدقا وثبوتا واعتماداً ، النبرات التى يتحدث بها إليه العالم الموجود بأكثر الطرق مباشرة .

ويبدو جليا أن هذه البصيرة الميتافيزيقية ، بكل ما فيها من عمق مزاجى ، لا يمكن أن تعزى إلى أى عنصر مفرد فى طبيعة چيمس ، سواء أكان كئيبًا أم حميدًا. فثمة مقدار من تبرمه وتململه فيها ، ومقدار من تفضيله لغير العادى وغير المألوف وإيثارها على الدارج والرتيب ، وهى إلى حد ما طريقته فى الهرب من الجنوح إلى الاستغراق الوبيل فى الذات ، حتى لا تصبح شغله الشاغل .

ومن جهة أخرى فهى تعبير مباشر عن خياله الإبداعى السخى ، وانعكاس لخفة روحه ، والوجدانية الكونية الشاملة التى كانت تغمره بالطرب والسرور فى «الآخرية» المتنوعة والغريبة .

على أنه ما زال هناك چيمس رابع چيمس الخبرة والنظام، تحويل للصفات الفطرية إلى ميول ونزعات وعادات . ولعل المرء يعجب، إذ يكتشف أن رجلا مثل چيمس صاحب الاهتمامات التأملية ، كان أيضًا رجل دنيا يأخذ منها بأوفى نصيب .

فما كان چيمس مثل طالس - المستعمل باعتباره مثلاً - يستغرق فى غيبوبة وهو يتطلع إلى النجوم ، وما كان واحدًا من أولئك الأغرار السذج المعروفين جيدًا فى العالم الأكاديمى الأوربى الذين يحتاجون إلى وصى يدير شئونهم .

كان واعيًا رشيدًا يعرف أين يضع قدمه ، مالكًا لزمام نفسه ، يقدر لرجله قبل الخطو موضعها . وكما قيل مرة عن أبيه : كان يعرف كيف يقترب من حافة عدم اللياقة دون أن ينزلق أو يهوى[٣].

وعلى الرغم من نزقه وطيشه إلى حد الجرأة والجسارة ، وعلى الرغم من ترخصه فى مسلكه فى القول والعمل ، وعلى الرغم من أنه كان يجد لذة لا تخلو من شقاوة ومكر فى إنزال قوارعه على المتحذلقين ومدعى العلم ، ومباغتتهم بالصدمات ، فإنه لم يتخط أبدًا حدود الذوق السليم ، أو إذا تخطاه ، فقد كان يعلم أن يتخطاه. لقد أعطته تربيته وتنشئته ذلك الشعور بالطمأنينة الذى يسمح لصاحبه بالجرأة والجسارة والترخص مع اللغة الإنجليزية، ولكنها كانت بلا ريب ، اجتراءات هو صاحب حقها الخاص ، تستمد سلطة معينة من حقيقة أنه أخذها أخذ عزيز مقتدر .

---

(3) MS. report of G.H. Howison's "St. Reminiscences", January 6, 1916, University of California Library.

وكان چيمس يخالط الشخصيات الغريبة الشاذة ، ويلم بالعالم الفكرى السفلى من حين لآخر ، ولكنه لم يضع اعتباره ، أو يفقد مقامه ، أو يحط من شرفه أو هيبته ، أو يعرِّض كرامته للهوان .

وصفوة القول ، فأمامنا رجل ، كان يبدو أنه ينساق وراء نزاوته ويرخى لنفسه العنان ، أو كان يبدو أنه راغب فى أن يهزأ بنفسه ، ولكنه بسبب كابح باطنى لا وعيى لم يفعل ذلك أبدًا فعلا. كان مبتكرًا ، ومبدعًا وتلقائيًا ، ولكنه لم يكن شاذا أو «مريبًا» أبدًا .

ونحن ننظر إلى چيمس باعتباره إنسانًا يعتبر الأرض كلها وطنا له ، وقد كان كذلك ، بلا ريب ، فلقد بدأ أسفاره التى لم تتوقف تقريبًا وهو فى سن الثانية ، وتعلم الإحساس بالألفة وكأنه بين أهله وعشيرته ، فى كل أقطار أوربا الغربية. ولكنه فى نفس الوقت كان متعصبًا لوطنه وقوميته بشكل خام جعل أصدقاءه الأكثر تحررًا يشعرون بإحساس من العزل المتعالى . لذلك كان من الخصائص المميزة لچيمس فى هذا الصدد – أن يكتب لنورتون عن إنجلترا قائلاً : «بلاد تتمتع بحالة من الحضارة فى غاية النفاسة والعظمة» ثم يضيف إلى ذلك قوله : «كل شىء هنا يبدو ضعف ما نقابله عندنا فى الحسن والجمال» ثم يشفع ذلك بعبارة : «ولكنى أتوقع أننا بمرور الوقت سنكون أصحاب المستقبل الأكبر رغم ذلك كله». ومن ثم فقد كشف بهذا القول كما قال نورتون عن دخيلة «أمريكيته المنيعة الحريزة»(٤) .

وموجز القول، فعلى الرغم من أن چيمس طاف بالأقطار بكثرة ووفرة وسهولة ، وامتدت سياحاته وأسفاره بعيدًا عن وطنه ، فإنه لم يقتلع من جذوره أبدًا. لقد ظل «قلبه» فى وطنه .

فالفطنة الاجتماعية ، والذوق ، والتربية الراقية ، والاهتمام بالأمور المنزلية ، والوطنية – هذه كلها كانت بعض القوى الضابطة لديه ، التى دخلت فيما يمكن أن نسميه بضمير چيمس ، على سبيل التمييز بينها وبين الخلال الفطرية .

---

(4) Letters of C,E. Norton 1913, 11, 412.

ويبقى بعد ذلك المكونان الرئيسيان لذلك الضمير : الأخلاق والفكر .

كان چيمس أخلاقيا فى المعنى القديم الخير اللفظ، باعتباره رجلاً يؤمن بأن الصواب صواب والخطأ خطأ ، وأن الحلال حلال والحرام حرام. ولقد ألحق نفسه بالطائفة الأولى - طائفة الصواب والحلال لكى يكافح الثانية، الخطأ والحرام .

«علموه أن ينتهج فى حياته سبيل نعم ولا، نعم لكل شىء خير وطيب ، ولا لكل شىء شر وخبيث» . تلك كانت الرسالة التى بعث بها مرة إلى أصغر أبنائه(٥) .

على أننى لن أقتفى أثر هذه الأخلاقية إلى مصدرها . ومن الطبيعى أن تعزى إلى أصول أجداده الكالفينية ، وإن كان مثل ذلك التفسير يفقد كثيراً من قوته إذا علمنا أن أباه - المجسم المباشر لذلك السلف - كان فى ثورة مضادة لكل قوانين وشرائع الكالفينية .

ولعل ما هو أهم من مسألة العقيدة حقيقة، أن أباه كان من الصالحين ، كان رجل تقوى وخير ، وكان مواليا للأخلاق ، ثم كانت هناك صورة ماثلة أمامه من القداسة المتعلقة بالأم ، بحيث إنه إذا أمكن إلقاء ضوء أكثر وضوحًا ، لفسرت الكثير من أخلاقيته بلا شك .

ومن الجلى أيضًا ، أن ثمة إحساسًا بالسيرة ، مرتبطًا بتلك الضوابط الكابحة من الذوق والتربية التى سبق التنويه بها ، جعلته ينزع إلى تقبل المعايير الأخلاقية التقليدية .

ولقد عززت عواطفه الإنسانية حدة إحساسه الأخلاقى وشدت من أزره، حيث إن الأخلاق عند چيمس كانت تترجم إلى إنسانية فى نهاية الأمر .

على أن قوة أخلاقية چيمس يقوم الدليل عليها بحقيقة أنها رجحت على اعتبارات الصلة الوثيقة الحارة للصداقات القديمة ، وأنها حالت بينه وبين أن يصبح أبدًا مجرد عالم نفس أخلاقى ، كما كان من المتوقع أن يكونه من جراء اهتمامه وشغفه بتاريخ العقل وعلله. ووضعت حدوداً لشغفه بالحياة ، بل أحيانًا لتسامحه ، وانتصرت قطعًا على حساسيته الجمالية ونزعته الفنية . وكانت لها الكلمة العليا أخيراً .

بيد أن الأخلاقية ليست سوى اسم واحد لجدية چيمس الأساسية. فبكل ما فيه

---

(5) To his mother-in-Law, Mrs. Eliza P. Gibbens, Aygust 2, 1899.

من مرح وطرب ومزاج ومداعبة ، فاق معظم معاصريه فى إحساسه بالمسئولية والتبعة. لقد رفض أن يلجأ إلى أية وسيلة ، من الوسائل المعروفة جيداً بين الفلاسفة ، التى يسوغ بها المرء تركه للحلبة واتخاذه مقعداً بين المشاهدين :

«ليس فى وسعى أن أروِّض نفسى ، كما يتسنى للكثيرين من الناس أن يفعلوا ، على أن أحجب الشر عن نظرى وأمر عليه مر الكرام . فالشر حقيقى وواقع كالخير سواء بسواء ، وإذا أنكر الشر ، فيجب إنكار الخير أيضًا. لذلك يجب الاعتراف به وقبوله ومقته ومقاومته ما دامت بين جوانحنا أنفاس تتردد» (٦) .

وصفوة القول ، وعلى خلاف جيل لاحق ومضطرب ومتلعثم ، جمع چيمس بين التحررية والتسامح والإنسانية ، مع عزم بأن هذه المبادئ ينبغى أن تسود ، ورزقه وعونه على الله .

وكان لچيمس ضمير فكرى مثلما كان له ضمير أخلاقى . وكان عنده اعتبار ، يكاد يبلغ التبجيل للحقائق .

وفى باكورة أيامه بوصفه طالب علم فى هارفارد ، كان جيفريز وايمان بتشبثه المدقق المتواضع المقسط لنتائج الملاحظة ، لا لويس أجاسير بعقله التعسفى الجرىء ، هو نموذج الكمال العلمى عنده .

وكان أبطاله من الفلاسفة دائمًا رجالا من طراز رينوفيير أو ميل اللذين كان يعتقد فى شرفهما ونزاهتهما وخلوهما من الغرض ، بمعنى أنهم يقررون بإخلاص ما يجدونه وينتهى بحثهم إليه. ولم يكن يعترض على الاختراع أو التفكير الراغب المتمنى ، ولكنه كان يعترض فعلا على ادعاء أنها شىء خلاف ذلك . وكان تجريبياً لأنه آمن بأن التجريبية هى الفلسفة الوحيدة الأفق والمفتوحة ! وهى الفلسفة الوحيدة الصريحة الصادقة .

أما ضميره الفكرى فيتجلى فى سعة اطلاعه ولوذعيته الفسيحة ، وفى مثابرته واجتهاده وكده التى لا تكل ولا تمل ، وفى الصبر الذى كان يكظم به قلة صبره وجزعه، وفى السنوات العديدة التى كان يكرسها لفك عقدة فلسفية . ولقد اقتضى الأمر منه

(6) To H.J.2, May 7, 1870; L.W.J., I, 158.

زهاء عشر سنوات لكى يجيب عن حجة رويس الخاصة بالمطلق ، وزهاء عشر سنوات أخرى لحل مشكل مركب الوعى .

وقبيل وفاته ، وكان قد حنث بقابلياته المزهوة بالقوة إلى الأبد لكى يرضى الشكوك الفكرية التى ساورته «والعقول الأكاديمية المحترمة» لزملائه(٧) .

وحمل چيمس الفلسفة – كما حمل الحياة على محمل الجد. وشعر بأنها مثل شعر المأساة ، كانت تتميز بنبل موضوعها. فالفلسفة عنده لم تكن ضربا من اللهو أو العبث أو اللغو أو الصناعة الماهرة ، وإن كان فى وسعها أن تضيف هذه القيم إلى ما فى حوزتها .

كانت الفلسفة عنده سعيا فى طلب الحق . والحق لا يستحق أن يسعى فى طلبه ما لم تؤمن أيضًا بما تفهم وتدرك. فبالإيمان والعقيدة يملك الإنسان الحق ويحوزه ، ويمتص ما فيه من عناصر غذائية . ومن ثم ، نجد أن چيمس كان فى فلسفته من المعتقدين المؤمنين ، وكان يجيش بحماسة المبشر المؤمن ويصدر فى كل ما يقول ويفعل عن هذا الحافز.

وعلى هذا ، كتب مرة إلى زميل له من التعدديين يقول : «يجب علينا جميعًا أن ننهض للعمل لمقاومة وصد الواحد المطلق ، الذى يمضى مطلق السراح فى الميتافيزيقيا بكل حرية وسهولة ، وفى مرجوى أن تؤدى دورك بهمة ونشاط»(٨) .

وثمة غيرة ساذجة بسيطة فى هذه الذريعة التى هى جوهر چيمس . فقوته فى الفلسفة ، وعلى الفلسفة ، وكان مرجعها ، إلى درجة ليست بالهينة ، إلى تعاليمه بأن المرء يجب أن يسهم نظريًا ، وكذلك عمليا ، وأن يؤدى دوره ويوفى بقسطه ، مؤمنا بشىء ، ومجاهدًا من أجل ما يؤمن به ، متجشما خطرا أن يكون مخطئا .

وبكل هذه الحماسة والغيرة والوعى والسعى وقوة الاعتقاد ، ولم تكن تشوبه شائبه من الرضا والقناعة بما هو كائن . كان دائما يترك فى الناس فكرة أن هناك مزيدًا ، وأنه يعرف أن هناك مزيدًا ، وأن هذا المزيد الآتى – إذا أقبل – على الرغم من كل ما نعرف مزيد وما ندرى ، قد يلقى ضوءًا مختلفًا جدًا على المسائل المطروحة على بساط البحث .

---

(7) Above, 353 382.

(8) To James Ward, May 13, 1897.

المؤلف فى سطور

رالف بارتون پيرى

ولد عام ١٨٧٦، فى ڤرمونت. تعلم فى جامعة پرنستون وحصل على الليسانس عام ١٨٩٦، والدكتوراه عام ١٨٩٩ من جامعة هارڤارد. نال درجات شرف من جامعات كلارك وكولبى وهارڤارد وبنسلڤانيا.

بدأ پيرى حياته العملية باعتباره معلم فلسفة فى جامعة وليامز. وفى عام ١٩١٣ عين أستاذاً للفلسفة فى جامعة هارڤارد.

ولقد قام پيرى بتأليف كتاب عن حياة وليام چيمس بوصفه صديقه وتلميذه، ونال الكتاب «جائزة بوليتزر: Pulitzer Prize» كما ألف «ميادين القيم»، وهو الآن عميد الفلاسفة الأمريكيين، ومن أوائل أنصار الحركة التحررية فى عصرنا هذا.

المترجم فى سطور

محمد على العريان

أستاذ التربية بكلية المعلمين فى القاهرة، وخبير اليونسكو المنتدب بمعهد تدريب المعلمين بالخرطوم. حصل على ليسانس الآداب، قسم اللغة الإنجليزية، بجامعة القاهرة مع درجة الامتياز سنة ١٩٣٩. ثم حصل على دبلوم معهد التربية العالى للمعلمين بالقاهرة مع مرتبة الشرف سنة ١٩٤٠. درس فى أكسفورد وأكستر بإنجلترا، وحصل على درجة الماجستير فى التربية وعلم النفس من جامعة كولومبيا سنة ١٩٥٠، ودرجة الدكتوراه فى التربية من الجامعة نفسها سنة ١٩٥٢، ومنحته هذه الجامعة ميدالية الخدمة العلمية الممتازة سنة ١٩٥٤.

شغل عدة مناصب مهمة، فعمل مديراً لمكتب الاستعلامات السياحية بنيويورك، ثم عمل بقسم الإذاعة والترجمة بمقر الأمم المتحدة بنيويورك، كذلك عمل بدار التحرير للطبع والنشر. واختير عضواً فى لجنة المجمع اللغوى لمصطلحات التربية وعلم النفس. ترجم كتاب «النفس المنبثقة» وكتاب «نظرات فى الثقافة» و«لماذا نعلم؟» و«أحاديث للمعلمين والمتعلمين» و«قاموس جون ديوى للتربية» و«عندما يواجه المعلمون أنفسهم» و«النشاط المدرسى فى المرحلة الثانوية» و«البراجماتية» و«نظرات فى التعليم الثانوى» وكلها من الكتب التى أصدرتها هذه المؤسسة.

التصحيح اللغوى: وجيه فاروق

الإشراف الفنى: حسن كامل